العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

دراسة نقدية في تاريخ الغرب

من البدايات حتى عصر النهضة

تأليف: د. شهريار زرشناس

دراسة نقدية في تاريخ الغرب

من البدايات حتى عصر النهضة

بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب

دراسة نقدية في تاريخ الغرب

من البدايات حتى عصر النهضة

تأليف

د. شهريار زرشناس

تعريب

فريق الترجمة في المركز

مراجعة وتدقيق

د. حامد فياضي

زرشناس، شهريار، 1965- مؤلف.
دراسة نقدية في تاريخ الغرب من البدايات حتى عصر النهضة / تأليف د. شهريار زرشناس ؛ تعريب فريق الترجمة في المركز ؛ مراجعة وتدقيق د. حامد فياضي.-الطبعة الاولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1447 هـ = 2025.
704 صفحة ؛ 24 سم. (المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)
يتضمن ارجاعات ببليوجرافية : صفحة 697-704.
النص باللغة العربية مترجم من اللغة الفارسية.
ISBN : 9789922680736
1. الحضارة الغربية--تاريخ. أ. العتبة العباسية المقدسة. المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية (النجف، العراق)، مترجم. ب. فياضي، حامد، 1982- مصحح. ج. العنوان.

LCC: D57 .Z37 2025
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
الفهرسة أثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤١٦٦) لسنة ٢٠٢٥ م

دراسة نقدية في تاريخ الغرب، من البدايات حتى عصر النهضة (المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)

تأليف: د. شهريار زرشناس

تعريب: فريق الترجمة في المركز

مراجعة وتدقيق: د. حامد فياضي

الناشر: العتبة العبّاسيّة المقدّسة / المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة

الطبعة: الأولىٰ ١٤٤٧ ق / ٢٠٢٥ م

تمّ إصدار هذا الكتاب سابقًا من قِبل دار نشر إيران بعنوان «سيري در تاريخ غرب: تحليلي انتقادي از تاريخ غرب، از آغاز تا رنسانس» في طهران، عام ٢٠٢٤م.

www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com

المحتويات

مقدّمة المركز ١١

التمهيد ١٣

الفصل الأول: اليونان منذ الأزمنة القديمة حتى القرن السادس قبل الميلاد ١٧

القسم الأول: ما قبل ولادة الغرب ١٧

١. اليونان وتاريخ الغرب ١٧

٢. التمهيد الكريتي ٤٩

٣. حضارة الميسينيين ٥٩

الوجه الأخير لليونان قبل الغرب ٧٢

القسم الثاني: بداية تاريخ الغرب ٨١

١. المكوّنات الجوهرية للمدينة اليونانية ٨١

٢. المدينة اليونانية من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد ١٥٦

الفصل الثاني: صعود وهبوط اليونان الكلاسيكية ١٧٧

١. تاريخ أثينا وإسبرطة في القرن الخامس قبل الميلاد ١٧٧

اليونان في الحرب ضد الأخمينيين ١٨٠

أثينا وإسبرطة: من الحرب ضد الأخمينيين إلى صعود بريكليس ١٨٨

ظهور بريكليس في السياسة الأثينية ٢٠٢

إمبريالية أثينا في عهد بريكليس ٢٢٣

الميتافيزيقا اليونانيّة وإمبرياليّة أثينا ٢٣٠

تجديد بناء أثينا في عهد بريكليس المستبدّ ٢٣٩

المؤلّفات الأساسيّة للفنّ اليونانيّ ٢٤٦

فيدياس والديمقراطية الأثينيّة الكلاسيكيّة ٢٥٠

البنية السياسيّة لأثينا في العصر الكلاسيكيّ خلال السنوات الأخيرة قبل حرب البيلوبونيز ٢٥٢

حرب البيلوبونيز وآثارها المدمّرة ٢٥٧

أثينا: من وفاة بريكليس إلى الهزيمة في حرب البلوبونيز ٢٦٨

٢. الاقتصاد، الثقافة، والأدب في أثينا خلال العصر الكلاسيكي ٢٧٤

الاقتصاد في أثينا الكلاسيكيّة ٢٧٥

الثقافة والأخلاق العامة في أثينا الكلاسيكية ٢٨٩

أزمة الميتافيزيقا اليونانية ٢٩٢

أدب أثينا في العصر الكلاسيكي ٢٩٥

٣. اليونان في نهاية الطريق ٣٠٠

الفصل الثالث: العصر الهلنستي ٣٠٣
١. صعود مقدونيا ٣٠٣
الوضع العام في اليونان من ٤٠٤ ق.م إلى ٣٥٥ ق.م ٣٠٥
مقدونيا ومعركة خيرونيا ٣١٢
التخطيط للتوسّع الغربيّ اليونانيّ-المقدونيّ نحو الشرق ٣٢٨
مقتل فيليب ٣٢٩
لماذا غزا الغرب آسيا؟ ٣٣٣
٢. الإسكندر والهلنستية ٣٣٩
من هو الإسكندر؟ ٣٤١
الإسكندر والغزو نحو الشرق ٣٤٥
قمع الإسكندر بعنف المعارضات ٣٥٣
الإسكندر وأهدافه من حروبه ٣٥٦
سياسات الإسكندر في التخطيط الحضري ٣٥٩
الإسكندر وتوهمّه الاستكباري بالألوهية ٣٦٣
أرسطو، الإسكندر، والميتافيزيقا العدمية الكونوية ٣٦٨
٣. النزعة الهلنستية بعد الإسكندر ٣٧٠
مميّزات الفترة الهلنستية ٣٧٦

الفصل الرابع: روما القديمة ٣٨٩
١. الإتروسكيّون ٣٨٩
مؤرِّخو تاريخِ روما القديمة ٣٩٢
الإتروسكيون شعب مؤثر في تاريخ روما ٣٩٣
الدول-المدن الإتروسكية ٣٩٤
القوّة العسكرية للإتروسكيّين ٣٩٦
بضع حروب توسّعية للإتروسكيّين في القرن السادس قبل الميلاد ٣٩٧
الانقلاب في روما ٣٩٨
المذهب واللغة عند الإتروسكيّين ٤٠٠
الفنّ الإتروسكي ٤٠٢
الدول-المدن الإتروسكية المتفرّقة ٤٠٣
النساء في دول-المدن الإتروسكية ٤٠٤
لباس، الضيافة، والترفيه عند الإتروسكيّين ٤٠٥
نهاية الإتروسكيّين ٤٠٦
٢. الجمهورية الرومانية ٤٠٨
الجمهورية الرومانية والصراع بين الباتريكيّين والبِلِبِيِّين ٤١٣

الحروب المتعدّدة للسيطرة على كامل إيطاليا ٤١٥
الحربان البونيتان الأولى والثانية ٤١٦
الحرب مع مقدونيا واحتلال اليونان والحرب البونية الثالثة ٤١٨
تغيير في هيكل اقتصاد روما وتفاقم الفقر وانتشار العبودية ٤١٩
انتفاضات العبيد ٤٢٢
الإصلاحات الاقتصادية للأخوين غراكوس ٤٢٥
ماريوس والتغييرات في الجيش الروماني ٤٢٧
الحرب الاجتماعية في إيطاليا وتمرّد الولايات الشرقية ٤٢٨
هيكل السلطة السياسية في الجمهورية الرومانية ٤٢٩
الدكتاتورية العسكرية لسولا ٤٣١
الانتفاضة الكبرى للعبيد بقيادة سبارتاكوس ٤٣٣
الحلف الثلاثي الأول ٤٣٦
ديكتاتورية يوليوس قيصر العسكرية ٤٣٨
الحلف الثلاثي الثاني ٤٤٠
٣. الإمبراطورية الرومانية ونهاية الغرب القديم ٤٤٢
حتى نهاية عهد سلالة يوليو-كلوديان ٤٤٦
الإمبراطورية الرومانية في عهد السلالة الفلافية ٤٥٠
سلالة الأنطونيّين ٤٥٣
روم في القرن الثالث الميلادي: موجات العصيان العسكري والحروب الداخلية ٤٥٦
القرن الرابع: زوال الإمبراطورية المريضة ٤٦٠

الفصل الخامس: حول الغرب في العصور الوسطى: الغرب المسيحي ٤٦٧
١. الغرب في العصور الوسطى: الغرب الثيوسانتري ٤٦٧
ثيوس والثيوسانترية ٤٦٩
الخصائص العامة لعالم الغرب في العصور الوسطى ٤٧١
الإقطاع والأقنان ٤٩٣
العدمية الثيوسانترية ٥٠٤
العلمانية الثيوسانترية ٥٠٦
التفكير المدرسي ٥٠٧
٢. ظهور العالم المسيحي الغربي (٣٨٢ م - ٨٠٠ م) ٥٠٩
السمات الأساسية لمرحلة نشأة الغرب في العصور الوسطى ٥١٤
حول القبائل الجرمانية ٥١٥
الهون ٥٢١
القوط الشرقيون وثيودوريك ٥٢٢
الكنيسة الرومانية توسّع نفوذها ٥٢٤

الفرنجة وسلالة الميروفنجيين الملكية ٥٣٠
الأسرة الميروفنجية والاقتصاد الإقطاعي ٥٣٥
٣. مرحلة تثبيت وترسيخ الغرب في القرون الوسطى (٨٥٠-١٠٧٦م) ٥٣٨
الفرنجة من شارل مارتل إلى شارلمان ٥٤٠
تثبيت وتوسيع التنظيم الإقطاعي ٥٤٤
تفكُّك إمبراطورية شارلمان ٥٤٧
أوضاع حياة الفلاحين والإقطاعيين ٥٤٨
تنامي قوة الفُرسان وارتقاء مكانتهم ٥٥١
الحروب الإقطاعية ٥٥٢
غارات المجريّين والنورمان ٥٥٢
فرنسا بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديّين ٥٥٤
إنجلترا بين القرنين التاسع والحادي عشر ٥٥٥
ألمانيا بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديّين ٥٥٦
البابوية التابعة في القرنين التاسع والعاشر والإصلاحات الكلونية ٥٥٧
٤. أزمة الانحطاط (١٠٧٦-١٣٤٧م) ٥٥٩
الملامح الأساسية لأزمة انحطاط العالم الغربي في العصور الوسطى ٥٥٩
احتدام الصراع بين محاور القوى ٥٦٢
مدن في قلب الغرب الوسيط ٥٦٤
إضعاف النظام الإقطاعي ٥٦٧
من الذاتية الثيوسانترية إلى الذاتية النهضوية ٥٦٨

عصر النهضة ٥٧١
١. النهضة وبداية الغرب الحديث ٥٧١
مصطلح «الرنسانس» ٥٧١
٢. إيطاليا في طور النهضة ٥٧٦
الدول الحديثة الأولى في إيطاليا ٥٨٤
الـ«كومونات» الحضرية، مهد الديمقراطيات الحديثة ٥٨٦
بعض الحكومات الإيطالية خلال عصر النهضة ٥٩٥
فلورنسا في عصر النهضة ٦٠٤
تعميق أزمة تدهور الكنيسة الكاثوليكية: البابا في أفينيون ٦٠٨
ساوونارولا في فلورنسا ٦١٢
السياسة الخارجية لدول إيطاليا: ولادة الدبلوماسية الحديثة ٦١٥
حول الحركة الأدبية-الثقافية للإنسانيّين ٦١٧
المدارس والجامعات والأكاديميات المروّجة للإنسانية ٦٣١
سعي الائتلاف بين الجمعيّات السرّية والقبّاليّين والرأسماليّين في عصر النهضة ٦٣٢

النهضة، وطبقة الحُكّام العالميّين، ونظام الهيمنة الأوماني ٦٣٧
٣. أوروبا الغربية في عصر النهضة..... ٦٤١
الملكية المطلقة للويس الحادي عشر وبداية تشكّل أول «دولة قومية» حديثة في فرنسا..... ٦٤٢
ظهور الدولة القومية الاستبدادية ذات التوجّه الحداثي في إنجلترا ٦٥٠
الدولة القومية ذات التوجه الحداثي في إسبانيا..... ٦٥٦
الأراضي الألمانية بين التشرذم والانقسام ٦٦٠
٤. النهضة والاستعمار في الغرب الحديث..... ٦٦٢
ظهور الصورة الإجمالية للتقنية الحديثة في عصر النهضة..... ٦٦٣
بداية سبعة قرون من الاستعمار والنهب والهيمنة ٦٦٧
النهضة وتأسيس نظام الهيمنة العالمية للغرب الحديث..... ٦٨٢
٥. النهضة في نظرة مجملة..... ٦٨٩

المصادر ٦٩٧

مقدّمة المركز

لا يخفى على كل ذي بصيرة ما لدراسة التاريخ من أهمية قصوى، ليس فقط لفهم الماضي، بل لتشخيص الحاضر واستشراف المستقبل. وإذا كانت دراسة تاريخ الذات ضرورة لبناء الهوية وتحديد المسار، فإن دراسة تاريخ «الآخر»، وبخاصة الآخر الذي فرض نفسه كنموذج حضاري مهيمن، تكتسب أهمية مضاعفة. ومن هذا المنطلق، يمثل تاريخ الغرب حقلًا معرفيًا لا غنى عن الخوض فيه برؤية نقدية ومستقلة.

لقد هيمنت السردية الغربية على كتابة التاريخ لعقود طويلة، وقُدمت بوصفها الرواية الموضوعية والعالمية للتطور البشري. وقد تبنت كثير من الدراسات في عالمنا الإسلامي والعربي هذه السردية، بترجماتها أو بمحاكاتها، دون تمحيص لمسلماتها الفكرية أو تفكيك لرؤيتها الكونية الحداثية. والنتيجة هي استمرار حالة التبعية الفكرية، وتغييب الرؤى الأخرى القادرة على تقديم قراءة مغايرة وأكثر عمقًا.

يأتي إصدار هذا الكتاب بهدف الإسهام في سد هذه الثغرة المعرفية. فهذا الكتاب ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية للغرب منذ أصوله اليونانية، بل هو محاولة جادة لتقديم تحليل نقدي يتجاوز الرؤية المادية والأومانيستية (الإنسانوية) التي شكلت جوهر تلك السردية المهيمنة.

يخوض المؤلف في أعماق المراحل التكوينية للغرب، بدءًا من قبل ولادته في اليونان القديمة، مرورًا بصعوده وهبوطه في العصر الكلاسيكي، ثم العصر

الهلنستي وروما القديمة، وصولًا إلى العصور الوسطى التي يُطلق عليها الغرب المسيحي. وهو في كل ذلك، لا يكتفي بعرض الوقائع، بل يسعى إلى كشف البنى الفكرية والفلسفية العميقة التي حكمت كل مرحلة، من منظور الحكمة الروحية للتاريخ، مقدمًا بذلك ما يمكن أن نطلق عليه استغرابًا نقديًا؛ أي دراسة الغرب لا بعيون غربية، بل برؤية أصيلة تسعى لفهم ماهيته وجوهره.

وإذ يقدم المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية هذا العمل القيم للقارئ العربي، فإنه يأمل أن يكون لبنة أساسية في مشروع فكري أوسع، يهدف إلى بناء وعي تاريخي ذاتي، وتأسيس منهجية مستقلة في قراءة تاريخ الحضارات، بما يمكّن الأمة من فهم موقعها في التاريخ، وإدراك التحديات التي تواجهها، والانطلاق نحو مستقبل تستعيد فيه دورها الحضاري المنشود والحمد لله رب العالمين.

السيد محسن الموسوي

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية – فرع قم

التمهيد

الغـرب ليس مجرّد جغرافيا أو قومية، بل هو حقبـة تاريخية بدأت في حدود القـرن الثامن قبـل الميلاد في بلاد اليونان، ولا تزال ممتـدّة حتى يومنا هذا. وقد اجتاز الغرب في مسـار وجوده وظهوره وتطوّره، عوالم تاريخية متباينة. ويمكن تقسـيم التاريخ الغـربي، في تصنيف عـام، إلى ثلاث مراحل أساسـية: الغرب القديم، والغرب الوسيط (أي الغرب في العصور الوسطى أو ما يُعرف بالغرب المسـيحي)، ثم الغـرب الحديث. وكل واحدة من هذه المراحـل التاريخية تضمّ بدورها فترات وتقسيمات فرعية ذات طابع خاص.

ومـن أجل فهم ماهيّة الغرب، لا بدّ من دراسـة تاريخـه. وفي بلادنا، توجد كتب كثيرة، مترجمة أو مؤلّفة، تناولت بالتفصيل مجمل تاريخ الغرب أو مراحل وفترات معيّنة منه. إلا أنّ الملاحظة الجوهرية حول جميع هذه المؤلّفات، هي أنها كُتبت على أسـاس ما هو شـائع ومكرّس من الرؤية الكونية التي فرضها عصر التنويـر، واعتمدت في مقدّماتهـا ونتائجها على مُسـلّمات ومفروضات الحداثة الغربية. فجميع هذه المؤلفات، سـواء كانت تأليفًـا محلّيًا أو ترجمات عن لغات أجنبيـة، تنطلق مـن منظور قائم على الرؤيـة الكونية الحداثيـة للغرب. وحتى حـين نجد فيها مضامين نقدية، فإنّ هذه الانتقادات نفسـها تنبع في الحقيقة من داخل المنظومة الفكرية الحداثية ومسـلّماتها. والواقع أنّ في بلادنا لا يوجد حتى الآن كتاب شـامل لتاريخ الغرب يُعالج هذا التاريخ من منظور مغاير للمألوف

الحداثي-الأومانيستي، ويُخضعه للدراسة والتحليل النقدي خارج الإطار الذهني الذي رسمته الحداثة. أما في مبحث «دراسات الغرب» وبوجه خاص في ما يُسمّى بـ«الاستغراب النقدي»، فإنّ من أبرز أركان تشكّل ما يُعرف بـ«الوعي التاريخي الذاتي» هو أن نتمكّن من دراسة وتحليل وتمحيص ذات الغرب وماهيّته وتاريخه، من زاوية تحليلية ونقدية، خارجة عن المسلّمات والأطر التي فرضها الغرب الحديث نفسه. ويُلاحظ بوضوح غياب هذا النوع من العمل في سوق نشر الكتب في إيران؛ إذ إنّ القيام بدراسة نقدية للغرب، والمساهمة في بناء تصوّر نظري لـ«الوعي التاريخي الذاتي» (الذي يُعدّ في الظروف الراهنة من أبرز الحاجات الفكرية الملحّة لبلادنا)، لا يمكن أن يتحقّق من دون تقديم تحليل نقدي لتاريخ الغرب، تحليل يختلف عن الروايات الحضارية للتاريخ التي يقدّمها الغربيون أنفسهم على أساس المسلّمات الحداثية الأومانيستية. الملفّات والبحوث التي جُمعت في هذا الكتاب تسعى إلى تقديم تفسير، وتحليل، ورواية نقدية لتاريخ الغرب، من منظور «الحكمة الروحية للتاريخ»، وذلك من خلال طرح رواية مغايرة للرواية السائدة والمألوفة. فالنقاش في هذه الفصول لا يقتصر فقط على فضح الجرائم والسلوكيات الاستعمارية وأعمال العنف وسفك الدماء التي اقترفتها الدول الغربية الاستعمارية الحديثة، بل يتجاوز ذلك ليُقدّم تحليلًا نقديًا لبُنى الهوية في التاريخ الغربي، وذلك من زاوية تنطلق من الحكمة الروحية للتاريخ. ومع ذلك، فإنّ الرواية النقدية التي نعرضها في هذا الكتاب ليست انطباعية أو ادّعائية، بل هي رواية موثّقة ومؤيّدة بالأدلة. وهذه السمة هي التي تميّز هذا العمل عن سائر كتب «تاريخ الحضارة» التي تملأ سوق النشر اليوم، سواء كانت مؤلَّفة أو مترجمة. فهذا الكتاب يمثّل محاولة لعرض رواية مغايرة

لتاريــخ الغرب، رواية موثّقة وتحليلية–نقديــة في آن، ورؤية نقدية تنبع من فهم مغاير لفلسفة التاريخ الأومانيستية، وتحاول أن تُقيم بدلًا عنها قراءة شاملة ذات طابع روحاني ومعنوي للتاريخ.

وقد سعيت في هذا الكتاب، حسب ما تيسّر لي من جهد، إلى المساهمة في بلورة رواية نقدية مغايرة وغير مألوفة لتاريخ الغرب، رواية تستند إلى الحكمة الإنسانية والروحية للتاريخ. وهو مجرد بداية، وخطوة أولى في مسار ينبغي، إن شاء الله، أن يستمر ويتطوّر ليصبح شجرة باسقة، كثيرة الأغصان، طيبة الثمر.

شهريار زرشناس

الفصل الأول: اليونان منذ الأزمنة القديمة حتى القرن السادس قبل الميلاد

القسم الأول: ما قبل ولادة الغرب

١. اليونان وتاريخ الغرب

تاريخ البشرية هو مجال لظهور «الوقت» والأوقات، والفهم الحقيقي للتاريخ يكمن في فهم الوقت والأوقات وتحديدها. الوقت هو باطن الزمن، ومن خلال فهم ومعرفة الأوقات وظهورهـا واختفائها، وتحوّل العوالم والعهود والفترات والعصور وظهورها وتحقّقها، يمكن إدراك حقيقة التاريخ وحياة البشر في مسير التحوّلات والتغيّرات على مدى الزمن.

مـع كل تاريخ، يظهر وقت معـيّن وتصبح حقيقةٌ ما حاكمـة، وينفتح أفق جديد. وفي قلب كل أفق تاريخي توجد إمكانيّات تتجلّى، بدرجات متفاوتة، في شكل عوالم تاريخية وعهود تأخذ فعليّتها وتتوسّع وتكتمل.

في نظرة شاملة وكليّة على تاريخ البشرية، يمكن القول إنّ الإنسان، في حياته عـلى الأرض، يواجه، نوعًـا وكلًا، ثلاثة تواريخ أو آفـاق تاريخية، كل منها، في مسير ظهوره وتطوّره، يشتمل أحيانًا على دورات (أدوار) وأزمنة فرعية تندرج ضمن دورة (أكوار) وعوالم وعهود:

١. التاريخ الديني
٢. تاريخ الشرق
٣. تاريخ الغرب

أفق التاريخ الديني

التاريخ الديني للبشرية يستند إلى الوقت الرحماني وعلاقة القرب من الحضرة الإلهية المقدسة. أفق التاريخ الديني للبشرية هو أفق الانفتاح على الحقيقة وسيادة العدل والهداية والرحمة. في هذا الأفق، يكون الإنسان في علاقة حضور وقرب بالنسبة إلى أنوار الهداية الإلهية. التاريخ الديني للبشرية قائم على قبول الولاية الإلهية والالتزام بها. من خلال اتّباع الولاية الإلهية، يُنعّم الإنسان بأنوار الرحمة والهداية، ويصبح حضوره وحصوله رحمانيًا، ويتحقق له مقام القرب ويسكن فيه. عند دخول الإنسان في أفق التاريخ الديني، تزدهر حقيقة الإنسان (أي العين الثابتة للإنسانية)، وتتجلّى في مراتب وأوجه وصور وأشكال مختلفة. الإنسان يصبح إنسانًا من خلال عهد الأمانة، والإنسانية في جوهرها قائمة على عهد الأمانة. من خلال تذكّر عهد الأمانة والالتزام به، يُفعِّل الإنسان حقيقته، ويُدرَج في ساحة التاريخ الديني. بعبارة أخرى، يتحقق التاريخ الديني للبشرية من خلال تذكر عهد الأمانة واتّباعه. في أفق التاريخ الديني، يكون الإنسان في صورته النوعية واعيًا ومتمسكًا بعهد الأمانة، ومن خلال هذا الالتزام يبدأ عهده الديني في التاريخ. هذا العهد هو الولاية الإلهية. بعبارة أدق، عهد الأمانة هو عهد الولاية. اتباع الإنسان للولاية الإلهية يُفعِّل حقيقة الإنسان (أي الإنسانية)، وبالأساس، يدخل الإنسان في ساحة الإنسانية من خلال تذكر عهد الأمانة (الولاية الإلهية) والالتزام به والتمسك بالولاية الإلهية، فيسير في مسار الكمال والقرب الإلهي. باطن الدين هو اتباع الولاية الإلهية، ويُكتسب القرب والمعرفة بالنسبة إلى الحق من خلال الطاعة والالتزام بالولاية الإلهية. كما أنّ تاريخ وعالم الإنسان الديني يتحققان فقط من خلال الإخلاص والانتماء والالتزام بالولاية الإلهية. التاريخ الديني للبشرية هو تاريخ غلبة الحق والتوحيد والعدل.

تاريخ الشرق

تاريخ الشرق هو تاريخ غلبة الشرك الأسطوري. أما باطنه وجوهره، فهو إيمان بالغيب ذي طابع شركي وغير توحيدي. في أفق التاريخ الشرقي، فرغت الحقيقة الدينية والتعاليم القدسية من جوهرها التوحيدي، وابتُليت بحجاب الشرك وغبار التعدّدية والوثنية. روح الشرق هي نوع من الروحانية المشوّهة غير الدينية. الآلهة والأساطير هي محور تاريخ الشرق. في هذا التاريخ، لا يَحضر عهد الأمانة في صورته الأصيلة والحقيقية حضورًا غالبًا، غير أنّ ساحة الغيب لا تُنفى ولا تُنكَر فيه. أفق الشرق هو أفق سيطرة الشرك والغيبية ذات الطابع الشركي، حيث تُحجب حقيقة التوحيد تحت ستار صوري من الطغيان والشرك. الشرق هو عالم الحضور والامتداد وغلبة الأساطير. الأساطير ذات جوهر وباطن شركي، وهي بطبيعتها ونوعها تقع في بُعد عن الحق والدين والتوحيد والولاية الإلهية. ومع ذلك، يمكن في الشرق–وخاصة في الصور الأولية لتاريخه، حين لم تكن حُجب الشرك والابتعاد عن الهداية والحضور القدسي والولاية الإلهية كثيفة وشديدة–أن نجد أحيانًا عبر غبار الأوهام والحُجب الشركية تعاليم أو عناصر ومكوّنات تُذكّر وتُشير إلى الحقائق القدسية والمعارف الدينية والأوامر والنواهي الإلهية. لكن هذه الإشارات والنفحات، مع ذلك، تكون مختلطة دائمًا بحجب متنوعة ومواد وتعبيرات ووجوه شركية.

روح الشرق متجذرة في تشويه الولاية الإلهية. جوهر الولاية المشوّهة في تاريخ الشرق هو شركٌ أسطوريٌّ يظهر في شكل تعاليم شبه دينية شركية وروحانيات غير أصيلة مختلطة بحجب متعددة. الشرق يشكّل حجابًا على حقيقة الدين، وتاريخ الشرق هو تاريخ تشويه الولاية الإلهية ووضع التعاليم

القدسية والوحيانية في إطار حجب شركية. تاريخ الشرق، من خلال الأساطير وشبه الأديان المشوّهة والباطلة، يصنع حجابًا شركيًا على الدين والولاية الإلهية. الشرق ذو طبيعة شركية، لكن شركه يمتزج بنوع من الروحانية المشوّهة وشبه دين غير وحياني.

تاريخ الغرب

ذات الغرب هو العدمية. تاريخ الغرب هو تاريخ «إنكار الولاية الإلهية وحضور الهداية القدسية». الغرب هو غروب الحقيقة. عندما يظهر الغرب ككيان تاريخي، يتجلّى تاريخ الغرب. بعبارة أخرى، يظهر تاريخ الغرب تحت ظلّ وضمن إطار «العين الثابتة» للغرب ويتوسّع ويتطوّر. ذات الغرب هي إنكار الولاية الإلهية، ويبدأ تاريخ الغرب بنسيان عهد الأمانة (الولاية الإلهية) وإنكارها، ويتجلّى في هيئة عصيان للدين والولاية الإلهية والحقيقة، ويستمر ويتوسّع في هذا السياق. حقيقة الدين تتجلّى في الانتماء إلى الحق والقرب الإلهي، ويتحقق التاريخ الديني للبشرية من خلال تذكّر عهد الأمانة (الولاية الإلهية) والالتزام به. العالَم الديني هو عالَم الالتزام والطاعة للولاية الإلهية، وهو عالم الحقيقة والعدالة. أما تاريخ الشرق، فهو تاريخ الانتماء إلى صورة مشوّهة ومشركة وشبه دينية للحقيقة. في تاريخ الشرق، تُرى مظاهر ومراتب من الطلب والانتماء، لكنها تتّجه بدلًا من الحق والحقيقة والدين والإقامة في مقام القرب الإلهي إلى الانتماء إلى صورة مشوّهة شبه دينية مغطّاة بحجب شركية تهيمن على الحياة النوعية للبشر. تاريخ الشرق هو عمومًا تاريخ سيطرة الآلهة والأساطير في هيئة نوع من الروحانية المشوّهة الشركية ذات الطابع شبه الديني.

أمّا تاريخ الغرب فهو يبدأ بنسيان ثم بإنكار صريح ومباشر للولاية الإلهية،

ويتوسّع بناءً على ذلك. إنّ «العين الثابتة» للغرب، في ظهورها التاريخي (في هيئة تاريخ الغرب)، تتجلى وتتحقق من خلال نسيان الولاية الإلهية، والانقطاع عن التعاليم الوحيانية، وعدم الاكتراث بالحضرة القدسية والعالم الغيبي المتعالي، وإنكار الولاية الإلهية. كما تعتمد على التأكيد والاعتماد على التفكير المنقطع عن الوحي، والانتماء إلى ولاية الطاغوت. وبهذا تظهر وتتجلّى وتتوسّع حتى تصل إلى كمالها وتماميّتها.

بداية تاريخ البشر: عصر أمة واحدة

تاريخ البشرية، منذ هبوط النبي آدم عليه السلام وبدء حياة البشر على الأرض، مرّ بمراحل مختلفة. ويُعرف العصر الأول من تاريخ البشرية على الأرض بـ «عصر الأمة الواحدة». يبدأ هذا العصر مع النبي آدم عليه السلام ويمتد حتى زمن نبوة النبي نوح عليه السلام. تشير آيات القرآن الكريم وبعض الروايات الدينية إلى هذا العصر الأول للأمة الواحدة. في سورة يونس، الآية ١٩، يقول الله تعالى: «**وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**». في تفسير لهذه الآية الكريمة، ورد ما يلي:

«كان الناس في البداية أمة واحدة، وجميعهم يعيشون على دين التوحيد. ثم اختلفوا، فثبت بعضهم على التوحيد، بينما مال آخرون إلى الشرك. ولولا أنّ الله قدّر مسبقًا أن يعيش البشر لفترة من الزمن على الأرض، لحُسم الخلاف بينهم فورًا، ولكان المشركون قد هلكوا»[1]. في كتاب الله المجيد، وردت آيات شريفة أخرى تتحدث عن «الأمة الواحدة» كمرحلة أولى في تاريخ البشرية. ومن بين هذه الآيات، الآية ٢١٣ من سورة البقرة. وقد كتب المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية ما يلي:

١. قرآن عظيم: ترجمه تفسيرى بر اساس الميزان، دفتر نشر معارف.

«وكيف كان فظاهر الآية يدل على أن هذا النوع قد مر عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد و الاتفاق، و على السذاجة و البساطة، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة و المدافعة في أمور الحياة، و لا اختلاف في المذاهب و الآراء»[١].

كما يظهر من دراسة الإشارات القرآنية والتفاسير والروايات الدينية، كان البشر في بداية التاريخ يعيشون كأمة واحدة موحّدة على التوحيد. ولكن بعد فترة من الزمن، بدأت الخلافات تظهر بين أفراد البشرية، فبعث الله أنبياء بينهم لهدايتهم في هذه المسائل الخلافية، ووضع لهم الأحكام والقوانين الدينية. لاحقًا، بدأت تظهر الخلافات بين الناس حتى في المعارف الدينية والمسائل المتعلقة بها، ممّا أدّى في النهاية إلى انهيار نظام الأمة الواحدة.

تحدث الله سبحانه وتعالى عن هذا المعنى في الآية ٢١٣ من سورة البقرة. وجاء في تفسير الميزان تحت تفسير هذه الآية ما يلي:

«الآية تبين السبب في تشريع أصل الدين و تكليف النوع الإنساني به، و سبب وقوع الاختلاف فيه ببيان: أن الإنسان – و هو نوع مفطور على الاجتماع و التعاون – كان في أول اجتماعه أمة واحدة، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، و المشاجرات في لوازم الحياة فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، و شفعت بالتبشير و الإنذار: بالثواب و العقاب، و أصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيين، و إرسال المرسلين، ثم اختلفوا في معارف الدين أو أمور المبدأ و المعاد، فاختل بذلك أمر الوحدة الدينية، و ظهرت الشعوب و الأحزاب، و تبع ذلك الاختلاف في غيره، و لم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغيا من الذين أوتوا

١. الطباطبائي، تفسير الميزان، ٢: ١٧٣.

الكتـاب، و ظلـما و عتوا منهم بعد ما تبين لهم أصولـه و معارفه، و تمت عليهم الحجة، فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغي الباغين دون فطرتهم و غريزتهم، و اختلاف في أمر الدنيا و هو فطري و سبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سـبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه، و الله يهدي من يشـاء إلى صراط مستقيم»[١].

يبدأ تاريخ البشرية بعصر الأمة الواحدة، حيث كان الإنسـان يعيش في إطار أمة موحّدة، يتّصف بالتوحيد، حياة سليمة ومتناغمة مع الفطرة والكمال، وينعّم بنـوع من الهداية التوحيدية المسـتنيرة. في هذا العصر، لا وجود للاسـتضعاف أو الاسـتكبار، ولم تُنـزَل بعد شريعـة تفصيلية للبشر. كان إنسـان عصر الأمة الواحـدة يعيش في علاقة قـرب خاصة مـع حقيقة العالم، حيـث كان معبوده هـو الله الواحد الأحـد. قادة عصر الأمـة الواحدة كانوا أنبيـاء الله، مثل النبي آدم عليه السلام، النبي شـيث عليه السلام، النبي إدريس عليه السلام، مما أوجد علاقة قرب واتصال بين الإنسان والساحة القدسية، علاقة متجذرة في طبيعة الحضور والحياة التوحيدية للإنسـان على الأرض. في هذا العصر، كان الأنبياء هم معلّمو البشر في شـؤون الحيـاة الدنيوية والروحية. وقد تعلّم الإنسـان في عصر الأمة الواحدة الزراعة، خياطة الملابس، بناء المنازل، الطب، الكتابـة، وجميع الأمور والعلاقات المدنية والاجتماعية والأخلاقية التي كان يحتاج إليها من أنبياء الله[٢]. عصر الأمة الواحدة كان حقبة مشرقة في تاريخ البشرية، حيث عاش الإنسان في حالة نوعية موحّدة (وليس بالضرورة في جميع أشكال وجوده الفردي المتعددة والمتنوعة) على طريق

١. م. ن، ٢: ١٥٣ – ٥٤.

٢. في النصوص الروائية الشيعية، وردت روايات كثيرة بشأن تعليم البشر على يد الأنبياء الأوائل في صدر تاريخ الإنسانية، غير أنّ استقصاءها وتفصيلها يخرج عن نطاق هذا الكتاب.

الصلاح والفلاح. ومع ذلك، ولأسباب معينة (التي يتطلب شرحها ودراستها الخـوض في مباحث الحكمـة المعنوية للتاريخ، وهو أمر لا يتسـع المجال لبحثه هنا)، بدأ الإنسـان تدريجيًا بالابتعاد عن ساحة قربه التوحيدية، ووقع في براثن الاختـلاف والتعددية. هذا الاختلاف والتعـدد أدّى في النهاية إلى انهيار عصر الأمة الواحدة الأولى، وحلّ محله تاريخ الشرق، الذي سادت فيه أستار الأساطير والشرك الأسطوري. يمكن اعتبار هذا التحول بمثابة حلول تاريخ ديني جديد محـل عصر الأمة الواحدة، الذي كان يمثل بداية ظهور تاريخ البشرية الديني في صورته الإجمالية الأولية. وهكذا، تم نسخ التاريخ الديني الأولي للبشرية، وتجلى بدلًا منه تاريخ الشرك الأسطوري، المعروف بـ «تاريخ الشرق».

عـصر الأمة الواحدة مرّ بثـلاث مراحل: (١) مرحلة النبـي آدم عليه السلام، (٢) مرحلة النبي شيث عليه السلام، (٣) مرحلة النبي إدريس عليه السلام. لدينا روايات عن مرحلة النبي إدريس عليه السلام وحياة البشر في عصر الأمة الواحدة خلال تلك المرحلة، وعن العلاقة الحضورية التي كانت لديهم مع الحقائق المعنوية والقدسـيّين والملائكة، وهذه الروايات تقدّم إضاءات قيّمة لفهم طبيعة عصر الأمة الواحدة. كان النبي إدريس عليه السلام يمتلك نظام حكم ديني ولائي، وكان البشر في عصر الأمة الواحدة يعيشون في حالة انفتاح خاص تجاه الساحة القدسية.

«كما قيل، يرجع نسـب إدريس إلى شيث بأربع وسائط. وأشير في الروايات إلى أنّ سـبب تسـميته بإدريس هو انشـغاله المكثّـف بالـدرس والكتابة. وفقًا للروايات والتواريخ، كان إدريس أول من كتب بالقلم، وأول من خاط الثياب وعلّـم الناس علم الخياطة. كما اعتُبر إدريس معلّمًا للعديد من العلوم، مثل علم النجوم، الحسـاب، الهندسـة، علم الهيئة وغيرها. علّم إدريس الناس السياسة،

آداب الحضارة، القوانين الملكية، بالإضافة إلى كيفية إدارة المدن وبنائها. كان إدريس يدعو الناس إلى دين الله، التوحيد، وعبادة الله تعالى. وكان يحثّهم على الزهد في الدنيا والالتزام بالعدالة، كما نظّمهم وفق برنامج خاص لأداء الصلاة. وأقرّ أيامًا معيّنة من الشهر للصيام، وأمرهم بالجهاد ضد أعداء الدين. إدريس كان من الأنبياء العظام الذين جمع الله له بين المقامات الظاهرية والمعنوية. إضافة إلى مقام النبوة والرسالة التي منحه الله تعالى، وصل إدريس إلى مكانة عالية من العظمة والقوة الظاهرية، وكان أهل زمانه يطيعونه ويظهرون له الاحترام والتقدير. كان إدريس رجلًا طويل القامة، واسع الصدر، بصوت هادئ وكلام رزين، وعندما كان يمشي، كان يخطو بخطوات قصيرة. كان أول من خاط الثياب، وكلّما غرز الإبرة كان يسبح الله ويذكر وحدانيته وعظمته. وكان في كل يوم يُرفع من أعماله الصالحة إلى السماء ما يعادل أعمال جميع أهل زمانه. في زمن إدريس، كانت الملائكة تنزل بين الناس، تصافحهم، وتلقي عليهم السلام، وتتحدّث معهم، وتجالسهم. وكان ذلك بسبب صلاح الناس واستقامتهم في ذلك الزمن. استمرّت هذه الحال حتى زمن النبي نوح، ثم انقطعت بعد ذلك»[1].

عصر الأمة الواحدة الأولى يمثل ظهورًا لصورة من التاريخ الديني (صورة إجمالية وأولية)، وهو عصر سيادة العدالة وتذكير البشر بميثاق الأمانة واتّباع النوع الإنساني لولاية الله. استمر هذا العصر حتى زمن النبي نوح عليه السلام. في زمن النبي نوح عليه السلام، ظهر الشرك وتفشّى، ممّا أدّى إلى نهاية عصر الأمة الواحدة. دخل

١. رسولي محلاتي، تاريخ أنبياء، ٥٥ – ٥٧.

فيما يتعلق بفترة إدريس من عصر الأمة الواحدة، وردت في كتب مثل: «تفسير مجمع البيان»، وقصص الأنبياء للراوندي، وإكمال الدين» للشيخ الصدوق، وبحار الأنوار العديد من الأحاديث والروايات والنقاط المفيدة. يمكن للمهتمّين الرجوع إليها للاستفادة منها.

النبي نـوح عليه السلام في مواجهة مع المشركين ومع قوم غافلين، جاهلين، ومغرورين بالطغيان. مع انهيـار عصر الأمة الواحدة، وقع البـشر في براثن صورة جاهلية أسطورية، ظهرت في هيئة تاريخ الشرق، وبدأت في التوسع والانتشار.

مـن اللافـت للنظـر أنّ الحفريـات والدراسـات التـي أجراهـا بعـض الأنثروبولوجيـين وعلـماء الاجتـماع المحدثين قد دفعت بعضهـم إلى الاعتقاد بوجود نمط من الحياة الإنسـانية كان يتميز بمحتـوى ديني وقائم على العدالة. ومع ذلك، فإنّ علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين الإنسـويين، بسـبب رؤيتهم الذاتيـة والعلمانية، غير قادرين عـلى فهم الطبيعة الحقيقيـة والمحتوى الواقعي لفكـرة «الأمة الواحـدة». إلا أنّهم تمكّنوا من خلال أبحاثهـم من التعرف على بعـض آثارهـا وتجلياتها. على سـبيل المثال، يمكن الإشـارة إلى عـالم الاجتماع الألماني فرديناند تونيس، الذي تناول مصطلـح «الجماعة»[1] وميّزه عن مصطلح «المجتمع»[2]، مؤكدًا بذلك على وجود نوع من الجماعة الروحية الموحّدة التي تخلو من العلاقات والممارسات الظالمة والاستبدادية في التاريخ العريق للبشرية[3]. يُعدّ عصر الأمة الواحدة عصر حياة الإنسان ضمن إطار توحيدي قائم على العدل في بداية التاريخ، ويمكن اعتباره أحد مظاهر وتجلّيات تحقق التاريخ الديني للبشرية. مع انهيار عصر الأمة الواحدة، وجد الإنسان نفسه لقرون طويلة أسيرًا لأشكال وصور متعددة مـن حجب تاريخ الشرق ثم تاريخ الغـرب. في جوهره، يمثّل تاريخ البشرية بأسره صراعًا بين الحق والباطل، العدل والظلم، التوحيد والكفر، والشرك. وقد ازدادت حدّة وعمـق هذا الصراع مع زوال عصر الأمة الواحدة

1. Gemeinschaft

2. Gesellschaft

٣. انظر: معارف، مباني حكمي و اقتصاد و معيشت، ٣٠ - ٣٣.

وهيمنة الحجب المحرّفة للشرك الأسطوري وشبه الروحي وشبه الديني. مع ظهور تاريخ الشرق، أُلقي حجاب من الشرك الأسطوري على شمس الحقيقة الدينية، وهيمن شكل أسطوري من الظلم والشرك على المشهد.

ظهور واختفاء تاريخ الشرق (حجاب الشرك الأسطوري)

عقب انهيار عصر «الأمة الواحدة»، دخلت أولى تجليات التاريخ الديني للبشرية – التي كانت إجمالية ولم تصل إلى صورتها الكاملة والنهائية – في حجاب الشرك الأسطوري، الذي يشكّل جوهر تاريخ الشرق. يمكن القول إنّ تاريخ الشرق يبدأ من زمن النبي نوح عليه السلام، مع صراعه ضدّ قومه العصاة والمشركين، حيث ظهرت نوع من العلاقات الظالمة والاستكبارية التي هيمنت على المجتمعات الإنسانية.

الإنسان في الشرق لا ينكر العهد بالأمانة ولا يرفض الولاية الإلهية صراحة، بل يقوم بتحريفها، ويعقد عهودًا مع آلهة وهمية نابعة من روح الشرك الأسطوري. الإنسان في الشرق، في صورته النوعية، غافل عن الحق والحقيقة، ويعيش في جهلٍ شركيّ. غير أنّ هذا الجهل والغفلة يتخذان شكلهما تحت مظلة «الأسطورة» وحاكمية الآلهة. باطن وحقيقة تاريخ الشرق يتمثلان في الجهل، والشرك، والظلام، وسيطرة الطاغوت. ومع ذلك، في حكم الطاغوت الشرقي، تظهر أحيانًا ذكريات وإشارات متناثرة عن حقيقة التاريخ الديني للبشرية، ولكنّها غالبًا ما تكون مغبرة وغير واضحة. ومع ذلك، فإنّ روح تاريخ الشرق تظلّ قائمة على الجهالة والغفلة والشرك والطاغوتية ذات الطابع الأسطوري.

الإنسان عاش لفترة طويلة تحت ظل تاريخ الشرق، ويمكن تقسيم تاريخ الشرق ذاته إلى عصور وعوالم مختلفة، ولكن ليس هنا المجال لمناقشتها بالتفصيل.

في الشرق، وبسبب سيطرة الطاغوتية وحكم الطغيان، ظهرت وتوسعت أشكال متنوعة من العلاقات الظالمة والاستبدادية والاستغلالية، واستمرّت في التوسع والهيمنة. بعد انهيار الأمة الواحدة التوحيدية، ومع وقوع البشر في الانقسامات والاختلافات والتشرذم والتعددية، وكذلك في الشرك والظلم والظلام، بالإضافة إلى انتشارهم الجغرافي على وجه الأرض، عايش الإنسان في جميع أرجاء المعمورة تاريخَ الشرق وأشكالَه وعوالمه بطرق مختلفة. أحيانًا، استمرت حياة الإنسان لآلاف السنين تحت ظلّ تاريخ الشرق وعهد الطاغوتية الأسطورية الشرقية. الدراسات الأثرية تركّزت بشكل أساسي على المعلومات المتعلقة بتاريخ الشرق المستخلصة من الآثار المدونة، وخصوصًا النصوص المكتوبة التي بقيت شاهدة على ذلك التاريخ. وبناءً على هذه النصوص المكتوبة، يبدأ سرد أفق التاريخ الشرقي للإنسانية بحضارات سومر وبابل العريقة في بلاد الرافدين والحضارة المصرية القديمة حوالي الألفية الرابعة قبل الميلاد. ومع ذلك، تزامنًا مع مصر وبلاد الرافدين، ظهرت في الهند القديمة والصين القديمة وأراضي أمريكا الجنوبية والشمالية والعديد من المناطق الأخرى على سطح الأرض أشكال متنوعة ومختلفة من الحضارات الشرقية التي عاشت ضمن عوالم متعددة تحت مظلة تاريخ الشرق. لكن بسبب قلة الآثار المكتوبة المتبقّية منها أو عدم اكتشافها بعد، غالبًا ما يتجاهلها المؤرخون وعلماء الآثار أو يقللون من أهميتها. يمكن القول إنّ التاريخ الشرقي للبشرية بدأ قبل الألفية الرابعة قبل الميلاد بفترة طويلة، وانتشر في مختلف أرجاء الأرض بأشكال وأنواع وصور متعددة، وظهر في هيئات عوالم تاريخية متنوعة ومتعددة ومختلفة، كانت جميعها تنتمي بشكل أو بآخر إلى تاريخ الشرق. وقد شهد هذا التاريخ ظهورًا واتساعًا واستمرارًا على

مر العصور.

في الألفيــة الأولى قبل الميلاد، مع ظهور تاريخ الغرب في اليونان، بدأ تاريخ الشرق في الانحسار والزوال في بعض أجزاء الكوكب. ومع ذلك، ورغم ظهور تاريخ الغرب في هيئة العالم الغربي القديم ضمن إطار الحضارة اليونانية، وتوسع وانتشــار تاريخ الغرب تدريجيًا وزيادة رقعته الجغرافية، استمر تاريخ الشرق في بعض مناطــق الأرض لعدة قرون بعد ذلك. ومع ذلك، كانت هذه الحياة مليئة بالتقلّبات، وغالبًا ما اتخذت شــكلًا مشــوهًا وموتًا تدريجيًــا. في النهاية، خلال القرون الثلاثة الأخيرة، تمكّن الاستعمار الغربي الحديث من القضاء الكامل على الإرث المتبقّي مــن تاريخ الشرق في الحضارات الآســيوية والأفريقية وأمريكا الجنوبية والوســطى، مستعينًا بقوته العسكرية التدميرية والعنيفة، التي تجلّت في سلسلة من الهجمات العدوانية الطامعة. ومع هذا الدمار، فرضت الهيمنة الغربية الحديثة وشبه الحديثة، بقيادة اســتكبار الغرب الحديث، سيطرتها على الكوكب بأسره.

مع ظهــور وغلبة تاريخ الغرب وعدميّته المنقطعة عــن الوحي وغير المبالية بالغيب ذي الطابع الميتافيزيقي، دخل الاسم الحاكم على تاريخ الشرق في حجابٍ في بعض أجزاء الكوكب. ومع ذلك، استمر تاريخ الشرق في بعض مناطق أخرى من الأرض لفترة طويلة. ومع ظهور وانتشــار العالم الغربي الحديث، فقد تاريخ الشرق تأثيره بشــكل متزايد، وتحوّل في النهاية إلى مادة لصورة التغريب الحديثة وشبه الحديثة.

خلال مســيرته الطويلة التي استمرّت لآلاف الســنين، ظهر تاريخ الشرق وتوسّــع في هيئات عوالم وعصور متعدّدة، وقد حقّق كل واحد من هذه العوالم

تحــت مظلّته حضارات ومجتمعات متنوّعة. في تاريــخ الشرق، لم يكن يُنكَر عالم الغيب أو يُنفى الإيمان به عمومًا، لكن تمّ تقديم فهم وتفســير مشركٍ، قائم على تعدد الآلهة، وأحيانًا وثني وأسطوري، لعالم الغيب. لذلك، فإنّ الشرك والكفر الأسطوري للشرق يختلف في جوهره عن الشرك والكفر العدمي لتاريخ الغرب.

تاريــخ الشرق هو حقيقة معنوية ظهرت وانتشرت بعد انهيار الأمة الواحدة التوحيدية. وبعد انقضاء عهد الأمة الواحدة الأولى، شــمل تاريخ الشرق كافة أنحاء الكوكب حتى ظهور تاريخ الغرب في شبه الجزيرة اليونانية والجزر المحيطة بهــا خلال الألفية الأولى قبــل الميلاد. تاريخ الشرق بهــذا المعنى لا يقتصر فقط عــلى المنطقة التي يُطلق عليها اليوم، بناءً عــلى جغرافيا ذات نزعة أوورومركزية، اسم «الشرق» (والتي تشمل بلاد الرافدين، مصر، إيران، الصين، الهند، اليابان، كوريا، جنوب شرق آســيا وبعض مناطق آسيا الوسطى والمركزية). في القرنين التاســع والثامن قبل الميلاد، ومع ظهور تاريخ الغرب في شبه الجزيرة اليونانية، دخل تاريــخ الشرق في اليونان طور الاختفاء، وتحــوّل إلى مادة لصورة الغرب اليوناني–الروماني.

ظهور تاريخ الغرب في اليونان: العدمية القائمة على عقل منفصل عن الوحي وغير مبالٍ بالغيب

تاريخ الغرب هو حقيقة معنوية ظهرت خلال القرنين التاســع والثامن قبل الميلاد في جزر الأناضول اليونانية والمناطق الرئيســية من اليونان، حيث فرضت سيطرتها وانتشرت، وأبطلت التاريخ الأسطوري لتلك الأراضي، محوّلةً إياه إلى مــادة لصورتها الخاصة. جوهــر الغرب هو إنكار الولايــة الإلهية ونفيها، وهي عدميّة تتجلى في تطور تاريخ الغرب وتفصيله. في العالم الغربي الحديث، اتخذت

هــذه العدمية هيئة التمرد والعصيان ضد الحقائق الدينية والمقدّســات والولاية الإلهيــة. ظهر تاريخ الغــرب في هيئات عوالم تاريخية متعــددة، منها عالم الغرب القديــم، وعالم الغرب في القرون الوســطى، وعالم الغرب الحديث، كما تحقّق في حضــارات متنوعة، مثل الحضــارة اليونانية والرومانيــة القديمة، والحضارات الجرمانية والفرنسية والأمريكية، وحتى الحضارات الحديثة في اليابان وغيرها.

تاريخ الغرب يبدأ مع نسيان عهد الأمانة وإنكار الولاية الإلهية من قِبَل الصورة النوعية للإنســان الغربي، ويتوسّع في هذا الاتجاه والمسار العدمي الاستكباري. تاريــخ الغرب هــو تاريخ الظلام، والاســتكبار، والشرك، والكفــر، حيث إنّ حجاب الغفلــة والجهل فيه أكثر كثافة بكثير من حجاب الشرك الأســطوري. مهد تاريخ الغرب هو أراضي اليونان والجزر اليونانية في آسيا الصغرى، ويعود منشؤه الزمني إلى حوالي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد.

تاريــخ الغرب هو تاريــخ العدمية، تاريخ الاســتكبار ومســار الانحطاط في درب الظــلام والظلــم والابتعاد عن الحق والولاية. يبــدأ الغرب بالعدمية، وينتشر ويستمر بها. ينطلق الغرب من نسيان الولاية الإلهية وإنكارها، ويواصل توسّعه على هذا الأساس، ليصل في النهاية إلى إثبات ولاية النفس الأمارة وعبادة الشيطان بشكل صريح.

تاريخ الغرب، بوصفه كيانًا واحدًا، في ظهوره وتطوّره وانتشــاره التاريخي، قــد أفرز وحقّق عصــورًا (أدوارًا) وعــوالم تاريخية متنوعــة. جوهر الغرب هو العدمية، بمعنى إنكار الولاية الإلهية وحضور الهداية القدســية. ومع ذلك، فإنّ هذا الجوهر العدمي، في مســار تحقّقه وتفعيله، قد تجــلّى وانتشر في هيئة عصور وعوالم تاريخية متعددة. كل واحد من هذه العوالم التاريخية له طبيعته وخصائصه ومراحلــه الفرعية (أكــوار) وصفاته الوجودية الخاصــة، وفي الوقت ذاته، فإنّ

جميعها، على نحو عام وشـامل، تنتمي إلى إطـار تاريخ الغرب. وكل منها يمثّل بطريقة أو بأخرى شكلًا من أشكال تحقيق إمكاناته، وقد تجلّى وتحقّق تحت مظلّة جوهره الاستكباري والعدمي.

تاريخ الغرب، منذ نشأته في اليونان والجزر اليونانية في آسيا الصغرى خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد وحتى اليوم، مرّ بمراحل أساسية عدة:

١. عالم الغرب القديم (اليوناني-الروماني): بدأ من حوالي القرنين التاسـع والثامن قبل الميلاد واستمرّ حتى القرن الرابع الميلادي.

٢. عالم الغرب في القرون الوسـطى (المعروف أيضًا بـ«الغرب المسيحي» أو «غرب العصور الوسـطى»): بدأ في أواخر القرن الرابع الميلادي واستمر حتـى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، حيـث تميّز هذا العصر بطابعه المسيحي وهيمنة الكنيسة على مجالات الحياة المختلفة.

٣. عالم الغرب الحديث: بدأ مع عصر النهضة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. يظهر عالم الغرب الحديث تحت مظلّة الحداثة («المدرنيّة»).

منـذ بداية القرن العشرين، دخل عـالم الغرب الحديث في مرحلة من الأزمة والانحطاط، حيث بدأ مسـار تطوره نحو الزوال، وهو ما يُعرف بعصر «ما بعد الحداثة». وقد شـهد هذا المسـار الانحداري لعالم الغرب الحديث، في فترته ما بعد الحداثية، تحولًا أعمـق منذ بداية عقد الثمانينيات من القرن العشرين، وهي المرحلة التي نُطلق عليها اسم «المدينة المأزومة ما بعد الحداثية».

مـع دخول عالم الغرب الحديث مرحلة الأزمـة الانحطاطية لما بعد الحداثة، بدأ مسـار العالم الحديث يتّجه نحو الزوال النهائي والمـوت المحتوم. يُعدّ العالم الحديث آخر مرحلة من مسار تطوّر تاريخ الغرب، ومع دخول الغرب الحديث في فـاز الأزمة الانحطاطية لما بعد الحداثة وظهور المدينة المأزومة لما بعد الحداثة،

يمكن القول إنّ تاريخ الغرب قد بلغ تماميته، وبدأت مرحلة الانتقال نحو زواله النهائي وانقراضه الكامل. بدخول الغرب الحديث (باعتباره العالم الأخير من عوالم تاريخ الغرب) في مرحلة الأزمة الانحطاطية وفاز المدينة المأزومة لما بعد الحداثة، وصل تاريخ الغرب إلى ذروته، وبدأ العدّ التنازلي لزواله النهائي المحتوم. التجربة التاريخية المتعلقة بظهور وزوال العوالم التاريخية أظهرت أنّ هناك غالبًا فترة تمتد لعدة قرون بين دخول عالَم تاريخي في مرحلة الأزمة الانحطاطية وبين وصوله إلى الانقراض الكامل والزوال التام. ومع ذلك، مهما طالت المدة التي يستغرقها عالَم تاريخي في مسار الزوال والانقراض الكامل بعد دخوله في فاز الأزمة الانحطاطية، فلا شك في أنّ دخوله في هذه المرحلة يعني بشكل حتمي وقاطع أنّ موته وانقراضه أمر لا مفرّ منه، وسيحدث عاجلًا أم آجلًا. فليس هناك مهرب أو مفرّ لعالَم تاريخي من الموت والانقراض الكامل بمجرد أن يبدأ مساره الانحداري. مع دخول عالم الغرب الحديث في فاز الأزمة الانحطاطية، بدأت مرحلة الانتقال التاريخي لتاريخ الغرب نحو الانقراض الكامل النهائي، وهي مرحلة تزداد تسارعًا مع مرور الوقت.

ما قد ذكرناه حتى الآن يمكن تلخيصه على النحو التالي:

١. الغرب هو تاريخ بدأ في الألفية الأولى قبل الميلاد (وتحديدًا في حوالي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) في منطقة الجزر اليونانية في آسيا الصغرى وفي الأرض الرئيسية لليونان.

٢. مع ظهور تاريخ الغرب، دخل تاريخ الشرق في اليونان وبعد ذلك في روما في حالة من الحجاب، وتحول إلى مادة لتاريخ الغرب.

٣. توسّع تاريخ الغرب تدريجيًا في بعض مناطق أوروبا، وزادت الرقعة

الجغرافيــة للأراضي التي تقع تحــت مظلّة تاريخ الغــرب، وفي ظل «عين ثابت الغرب».

٤. يتمثــل جوهر الغرب في العدمية، وقد بدأ تاريخ الغرب بإنكار ولاية الله وباللامبالاة تجاه عالم الغيب المتعالي والمقدّس، واستمر على هذا المسار.

٥. تاريخ الغرب، في مسار تطوره التاريخي وانتشاره الجغرافي، قد حقّق عوالم تاريخية (مراحل تاريخية) متعددة. هذه العوالم التاريخية هي كالتالي:

أ) عالم الغرب اليوناني-الروماني (الغرب القديم)

ب) عالم الغرب في القرون الوسطى (الغرب المسيحي)

ج) عالم الغرب الحديث (الغرب المتجدّد، العالم الحديث)

كل واحد من هذه العوالم يتضمّن مراحل فرعية («أكوار» جمع «كور») تندرج تحته. في هذا الكتاب، سيتم التطرق إلى هذه المراحل الفرعية («الأكوار») ضمن كل عالَم أو فترة تاريخية، بإذن الله.

٦. كور مــا بعد الحداثة هو إحدى المراحل الفرعية ضمن فترة الحداثة (عالم الغرب الحديث). دخول الغرب الحديث (وبالتالي دخول تاريخ الغرب) في هذا الكور يعني بلوغ عالم الغرب الحديث إلى تماميته، بل وأكثر من ذلك، يعني بلوغ تاريخ الغرب بأكمله إلى تماميته.

اليونان: مهد الغرب

الغرب، بوصفه «عينًا ثابتة» وحقيقة تاريخية، قد ظهر في اليونان، ومنها انتقل إلى رومــا ثم إلى بقية مناطق أوروبا. الغرب ليــس مجرد جغرافيا، بل هو تاريخ. ورغم ظهوره في جغرافيا محددة واستقراره خلال الألفيّتين الأولى والثانية بشكل

أساسي في غرب أوروبا ووسطها، فإنّ ما يميّز الغرب ليس الخصائص الجغرافية، بـل طبيعته كعين ثابتة تاريخية. هذا لا يعنـي إنكار تأثير الخصائص الجغرافية في تشـكيل بعض السمات الاقتصادية والسياسية للحضارة اليونانية القديمة، التي تمثّل مهد تاريخ الغرب وبدايته. فهناك نوع من التفاعل المعنوي والمثالي بين البيئة الجغرافية لأيّ أرض والحضارة التي تنشأ فيها. لكن الهدف هنا هو التأكيد على أنّ فهم تاريخ الغرب وتطوراته يتطلب التركيز على معناه وماهيته كحقيقة تاريخية. إنّ مفهوم الغرب هو بالأسـاس والذات معنى تاريخي، وليس جغرافيًا. لذلك، فإنّ الانزلاق إلى رؤى جغرافية في تقسيم العالم إلى شرق وغرب والنقاش حول التفاعلات أو التناقضات بينهما يؤدّي إلى استنتاجات مضلّلة بلا شك.

مـع ظهـور تاريخ الغـرب في جغرافيـا اليونان والجـزر اليونانية في آسـيا الصغرى، بسـطت روحه سـيطرتها على هذه الأرض وسكّانها. تحت تأثير هذه الروح، اسـتبدل اليونانيـون العدميّة المنقطعة عن الوحي وغـير المبالية بالغيب بالشرك الأسـطوري. وفي هذا السياق، لعبت الطبيعة المشوهة والبشرية البحتة للأساطير اليونانية المتأخرة (كما ظهرت في أعمال هوميروس وهزيود) دورًا كبيرًا في هذا التحول. في بداية تاريخ الغرب، ومع ظهور عالم الغرب القديم، استبدل اليونانيون العهد الكَونَويّ[1] بالعهد الأسطوري[2]. وهكذا، كشف تاريخ الغرب عن أول ظهور وتجلياته في هيئة ظهور وانتشار عالم الغرب اليوناني–الروماني.

موضوع دراستنا هنا هو البحث في ظهور وتطوّر عالم الغرب القديم. الغرب القديم، في ظهوره التاريخي، كان له وجهان أساسيان:

1. cosmocentric
2. mythological

أ) ظهوره في هيئة الغرب اليوناني

ب) ظهوره في هيئة الغرب الروماني

هاتان الهيئتان كانتا متصلتين تمامًا، حيث كانت إحداهما تمهّد للأخرى وتكملها. وباتحادهما معًا، تجلّت حقيقة عالم الغرب القديم كأول عوالم التاريخ الثلاثة للغرب.

في الواقع، يتجلّى تاريخ الغرب في أول ظهور له في هيئة عالم الغرب القديم. مهد عالم الغرب القديم ومحل تحققه هو الحضارة اليونانية، رغم أنّه في توسعه واستمراره شمل مناطق من آسيا، وخاصة روما.

تاريخ الغرب > عالم الغرب القديم > الحضارة اليونانية⇦

الغرب وفقدان الحكمة

العقل هو حقيقة معنوية. الإنسان، بوصفه كائنًا على صلة بجميع الأسماء وعاكسًا لها، يمتلك القدرة على التعقل ويُسمّى عاقلًا، بمعنى أنّ الإنسان لديه الإمكانية للاستفادة من موهبة العقل بوصفه حقيقة معنوية. وكما يظهر من تعاليم القرآن العظيم، فإنّ قلب الإنسان هو المركز الأساسي للمعرفة والتعقل. يتمتّع الإنسان، بناءً على قواه الإدراكية وإمكانات نفسه، بالقدرة على الاستفادة من حقيقة العقل المعنوية. ومن خلال «القلب» و«الفؤاد»، اللذين يمثّلان مركز اكتساب المعرفة بالنسبة إليه، يدخل الإنسان في علاقة مع العقل، فينتفع به أو يُحرم منه. إذا كان قلب الإنسان محجوبًا، فإنّ مواجهته لأنوار العقل تكون من خلف هذه الحجب. أما إذا كان في مقام القرب، خاليًا من الحجب وسواتر الغفلة، ومتصلًا بحقيقة العقل المعنوية، فإنّه ينتفع بأنواره. بناءً على الزمان الذي يعيش فيه الإنسان وعلى التاريخ والعالم الذي ينتمي إليه، تختلف إمكانية

استفادته من حقيقة العقل، وقد أُشـير إلى هذا الأمر بمفهوم «الظهور التاريخي للعقل». فحقيقة العقل المعنوية هي أمر ثابت ومطلق، ولكن إذا وُجد الإنسـان في عـوالم يغلب عليها الحجاب، ومنقطعة عن الحق والغيب (مثل العصور التي يقع فيها البشر تحت حجاب العدمية الذاتية)، أو حينما يكون في حجاب العدمية الكونوية، وغيرها من النماذج المشـابهة)، فإنّ طبيعته التاريخية وأفق وجوده لن يُتيحـا له الانتفاع بأنوار عقل الهداية. في هذه الحالات، يتّصل الإنسـان بحقيقة العقـل المعنوية من وراء غبار الحجب، مما يُحرمـه من عقل الهداية، ويُوقعه بدلًا من ذلك في أسر فقدان الحكمة والضلال. وفي هذا السـياق، يُطلِق الإنسانُ على غياب العقل والهداية اسم العقلانية والحكمة.

تاريخ الغرب، بسـبب جوهره العدمي، يعاني من فقدان الحكمة والضلال، وهـو ما يتجـلّى في هيئة التفكير الحصولي العدمي الذي يطلق على نفسـه اسـم «العقل». بينما في الحقيقة، لا تنكشف أنوار العقل للإنسان إلا من خلال القرب من الولاية الإلهية والتمسك بها. فأيّ تاريخ أو أمّة أو إنسان ينكر الولاية الإلهية أو يغفل عنها أو يرفضها أو يتمرد عليها، فإنّه بلا شك يكون فاقدًا للذكر والفكر، ومحرومًا من العقـل (العقل الحقيقي وحقيقة العقل، الذي هو عقل الهداية؛ أي العلاقة النقية والقريبة غير المحجوبة بين قلب الإنسان الصافي والسليم وحقيقة العقـل المعنوية). وهذه الحقيقة لا يمكن أن تتحقـق إلا في العالم الديني. أما ما يطلق عليه اسـم العقل في هذه الحالة، فهو في جوهره فقدان للحكمة وضلال، أو ما يمكن وصفه بـ«العقل الشيطاني» و«النكراء».

الإنسـان، سواء في صورته النوعية أو الفردية، عندما يكون من أهل الولاية ومن المخلصين والمحبّين والمتبعين للولاية الإلهية، فإنّه، بحسب مرتبته ودرجته ومدى ارتباطه بالولاية، يتحرّر من أشكال ومراتب وشؤون الحُجب المختلفة.

وكلّما تعمّقت واتّسعت هذه الحرية من الحُجب، زادت درجة نقاء قلب الإنسان ونورانيته، وازدادت قدرته على فهم واستيعاب أنوار عقل الهداية. أما إذا لم يكن الإنسان (سواء في صورته النوعية أو الفردية) في مقام اتباع تام وكامل للولاية الإلهية، فإنّه بسبب انغماسه في الحُجب المختلفة، يفقد إمكانية الاستفادة من أنوار عقل الهداية. وفي هذه الحالة، يقع في ضلال ويتّبع أشكالًا وهمية وشيطانية من العقل تحت مسمّى العقل والعقلانية، وهي في حقيقتها ضلال ونكراء.

تاريخ الغرب، بسبب نسيانه لعهد الأمانة وإنكاره للولاية الإلهية، قد فقد إمكانية الاستفادة من أنوار عقل الهداية. ولهذا نقول إنّ تاريخ الغرب بأسره هو تاريخ فقدان الحكمة في إطار عدمي، يتخفى تحت اسم العقل والحكمة.

الجغرافيا والتضاريس اليونانية القديمة

المنطقة التي يُشار إليها في الدراسات التاريخية بـ«اليونان القديمة» هي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٦٤٥٠٠ كيلومتر مربع، وتتألف من ثلاثة أجزاء:

١. المنطقة التي تنتهي بجنوب شبه جزيرة البلقان.

٢. الجزر الواقعة في بحر إيجه والجزر الواقعة في بحر أيونيا.

٣. السواحل الغربية لآسيا الصغرى.

تسبّبت سلسلة من الجبال التي تفصل بين المدن والمناطق المختلفة في هذه الأرض في خلق حواجز طبيعية كانت واحدة من العقبات الجدية أمام تشكيل وحدة سياسية شاملة في اليونان.

«الأرض التي ظهرت فيها حضارة اليونان تتكون من اليونان القارّية والجزر الأيونية، وتشمل شمال اليونان ووسطها وجنوبها (أو منطقة البيلوبونيز)، بالإضافة إلى الجزر الواقعة على السواحل الشمالية (تراقيا) والشرقية (آسيا

الصغرى) لبحر إيجة»[١].

«كانت اليونان القارّية (البلقانية) تشكّل فقط ربع مساحة الأرض اليونانية، وهي مجرد شبه جزيرة قُسمت بفعل الخلجان وسلاسل الجبال إلى ثلاث مناطق واضحة تمامًا: الشمال، الوسط، والجنوب أو البيلوبونيز. شمال اليونان نفسه كان مقسّمًا إلى قسمين: إبيروس وثيساليا. ومن الناحية السياسية، كانت أهم مناطق اليونان الوسطى هي أتيكا وبويوتيا الواقعتان في الشرق. أما المناطق الرئيسية في البيلوبونيز، فكانت تشمل أرغوليد، لاكوانيا، ميسينيا، إليس، وأركاديا. تقطع أرض اليونان من جميع الجهات سلاسل جبلية، ومعظمها جبال يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠٠ متر وتمتد من الشمال إلى الجنوب. هذه السلاسل الجبلية تفصل بين شرق اليونان وغربها. في شمال اليونان، توجد جبال «بيندوس»، وفي الوسط تقع جبال «بارناسوس»، التي تمثل امتدادًا لسلاسل بيندوس. وأخيرًا، في الجنوب (منطقة البيلوبونيز)، توجد السلاسل الجبلية الضخمة «أركيا» و«أركاديا»، والتي تنقسم في الجزء الجنوبي إلى فرعين: في الشرق «بارنون» وفي الغرب «تيجيتوس». من هذه السلاسل الجبلية الرئيسية تمتد بعض الجبال الفرعية بشكل متوازٍ نحو الشرق. ففي شمال اليونان، بين مقدونيا وثيساليا، ترتفع جبال شامخة، أعلى قمة فيها هي جبل «أوليمبوس»، الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠٠٠ متر. الجبال تحتضن وديانًا ضيّقة تمتدّ غالبًا على طول مجاري الأنهار. أما السهول، فلا تمثل سوى أقل من خمس مساحة اليونان القارّية. هذه الكثرة من الجبال التي قسّمت أرض اليونان إلى مناطق منفصلة، خاصة في غرب اليونان القارّية، وفّرت ظروفًا ملائمة لتشكيل مجتمعات مستقلة ومنعزلة. ورغم أنّ

١. بهمنش، تاريخ يونان قديم، ١: ١.

الجبـال كانت تفصل المناطق والدول عن بعضها البعـض، إلا أنّ البحر، الذي يحيط بسـواحل اليونان تقريبًا من جميع الجهات، كان يسهل الاتصال الخارجي بين مجتمعاتها. السواحل المتعرجة للغاية لهذه الأرض ساعدت في التطور المبكر للملاحة البحرية. أما الجزر العديدة في بحر إيجة، فتمتدّ كسلاسل متواصلة من شـبه جزيرة البلقان إلى سـواحل آسـيا الصغرى. لهذا كان البحّارة في العصور القديمة الذين يسـلكون هذا المسار يرون اليابسة دائمًا أمام أعينهم. تنقسم جزر بحـر إيجة إلى عدة مجموعات. في الغرب، تقع الجزيـرة الكبيرة «يوبيا» التي تمتد بمحاذاة الساحل الشرقي لأوروبا الوسطى. في الشمال، بمحاذاة ساحل تراقيا، توجد جزر ثاسـوس، ليمنوس، إيمبروس، وتينيدوس. أما في الشرق، فتنتظم جزر كبيرة مثل ليسـفوس، خيوس، وسـاموس مقابل سواحل آسيا الصغرى. المناطق السـاحلية في اليونان تتمتع بمناخ معتدل ودافئ، يقترب من المناخ شبه الاسـتوائي. أما في المناطق الجبلية، فتسـود البرودة الشـديدة وتتساقط الثلوج وتتكـرر العواصف الثلجيـة. في اليونان، كانـت المباني العامـة والمعابد محاطة بأعمـدة وأروقة. أما ملابس اليونانيين، فكانـت تُصنع من الصوف أو الكتان، ولكن عند الخروج من المنزل كانوا يرتدون نوعًا من الشـال الصوفي. أحذيتهم كانت تتألف من صنادل، وفي الشـتاء كانوا يضعون في داخلها بطانة سميكة من اللباد. في اليونان، كانت المناطق المناسـبة لزراعة الحبوب (كالشعير، والدخن، والقمح) قليلة. الحرارة الشـديدة خلال فصل الصيف، التي كانت تصل أحيانًا إلى ٤٠ درجـة مئوية، وجفاف الأنهار بسـبب قلة الأمطار، شـكّلت عقبة أمام تطوير الزراعة. بوجه عام، كانت أكثر الظروف الطبيعية ملاءمة للزراعة توجد في المناطق الشرقيـة من اليونان القارّية. وعلى الرغم من فقـر تربة اليونان وقلّة

خصوبتها، إلا أنّها كانت غنية بمواد البناء والمعادن المتنوعة»[١].

يبدو أنّ المنطقة الأكثر أهمية تاريخيًا وسياسيًا ضمن مجموعة المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية التي تُعرف باسم أرض اليونان هي «المنطقة الوسطى، التي تضم منطقتي أتيكا وبويوتيا. أما المناطق الرئيسية في جنوب القارة اليونانية هى البيلوبونيز، أركوليس، ميسينيا، إليس، أركاديا، ولاكوانيا. أساس هذا التقسيم لليونان للقارّية يعود إلى وجود سلاسل جبلية تمتدّ في جميع أنحاء هذه الأرض، وخاصة من الشمال إلى الجنوب، مما يقسمها إلى قسمين شرقي وغربي. في الشمال، توجد سلاسل جبال بيندوس، وفي الجنوب، توجد جبال أخايا. تصل ارتفاعات بعض هذه الجبال، مثل قمة أوليمبوس، إلى ثلاثة آلاف متر. بهذا الشكل، يمكن ملاحظة أنّ هذه السلاسل الجبلية أدّت إلى ظهور مدن ومواقع منفصلة بعضها عن بعض، وهو ما يظهر بشكل أوضح في الجزء الشرقي من القارّة اليونانية. ومن جهة أخرى، كان البحر الذي يحيط بالقارّة اليونانية تقريبًا من كل جانب يوفّر أفضل وسيلة للوصول إلى الأراضي الأخرى، مما شكّل دافعًا قويًا لنشوء الملاحة البحرية. على سبيل المثال، في اليونان الوسطى، لم تكن أيّ نقطة تبعد عن الساحل أكثر من ٥٠ كيلومترًا»[٢].

بشكل عام، وفي مقام تلخيص الخصائص الجغرافية والطبيعية لليونان، يمكن القول:

١. اليونان أرض صغيرة نسبيًا تقع في جنوب أوروبا، وتتميز بتنوّعها الجغرافي.

---

١. كاسمينسكي، تاريخ جهان باستان، ٢: ١٩-٢٢.

٢. خراساني، نخستين فيلسوفان يونان، ٣.

٢. تنقسم أرض اليونان إلى ثلاث مناطق رئيسية:

أ) القسم الذي ينتهي بجنوب شبه جزيرة البلقان.

ب) المنطقة التي تضمّ مجموعة من الجزر الواقعة في بحر إيجة، والذي كان اليونانيون يسمّونه «آيغايوس» والجزر «إيونيا».

ج) المنطقة الواقعة على السواحل الغربية لآسيا، والتي كانت تُعرف باسم آسيا الصغرى.

٣. الجزء من اليونان الذي يقع في شبه جزيرة البلقان كان يشكل أقل من ربع مساحة اليونان بأكملها. هذه المنطقة البلقانية كانت تضم خلجانًا وسلاسل جبلية في الشمال والوسط والجنوب. وقد كانت سلاسل جبال «بيلوبونيز» و«ثيساليا» تقع في هذه المنطقة. كما تشمل هذه المنطقة نواحي «أتيكا» و«بويوتيا»، اللتين لعبتا دورًا مهمًا في الحياة التاريخية والسياسية لليونان، بالإضافة إلى مناطق «بيلوبونيز»، «أرغوليد»، «ميسينيا»، «إليس»، «لاكوانيا»، و«أركاديا».

٤. من الناحية الجغرافية، تقع أرض اليونان بين آسيا الصغرى وأرض روما (شبه جزيرة إيطاليا).

٥. اليونان أرض جبلية، ولا تتمتع بظروف ملائمة تمامًا للزراعة.

٦. بين اليونانيين القدماء، كان لجبال «أوليمبوس» أهمية ومكانة خاصة، إذ كانوا يعتقدون أنّها مقر إقامة الآلهة.

٧. الطبيعة الجبلية والخصائص الجغرافية لليونان عملت عمليًا كحاجز طبيعي كبير أمام تشكيل وحدة سياسية في اليونان القديمة. وقد أدّى ذلك إلى أنّ الجزء الأكبر من تاريخ اليونان (حتى القرن التاسع عشر ومع ظهور الدولة-الأمة الحديثة في اليونان) لم يشهد وجود نظام سياسي موحّد شامل في هذه الأرض. في اليونان القديمة، كانت الصيغة السياسية الرئيسية والشائعة هي

وجود دول-مدن صغيرة ومنفصلة بعضها عن بعض. وعلى الرغم من تشارك هذه الدول-المدن في نقاط ثقافية مشتركة ووحدة ثقافية نسبية، إلا أنّها كانت متمايزة سياسيًا، بل وكانت في بعض الأحيان في حالة تنافس وعداء فيما بينها.

٨. تمتلك أرض اليونان ارتباطًا وثيقًا بالبحر، وقد أدّى ذلك إلى اهتمام خاص من قبل اليونانيين بالملاحة البحرية والتجارة عبر البحر.

٩. الأرض الصغيرة نسبيًا التي تُعرف باسم اليونان تتمتّع بوضع جغرافي مميز، حيث إنّها، على عكس أراضٍ مثل الصين، الهند، أو مصر، لم تكن مفصولة عن جيرانها والعالم المحيط بها بواسطة حدود طبيعية واضحة. بمعنى آخر، يمكن القول إنّ اليونان لم تكن تمتلك حدودًا طبيعية محددة تفصلها عن المناطق المجاورة.

«لذلك، لم تكن اليونان عبر التاريخ إقليمًا جغرافيًا مميزًا ومنفصلًا يعمل كقاعدة موحّدة لبناء هوية سكانها. كانت اليونان دائمًا أرضًا صغيرة تقع في وسط قوى عظمى. وكان سكانها من البحارة يُعرَّفون من خلال ارتباطهم بالمستعمرات الناطقة بلغتهم، التي كانت منتشرة في نطاق واسع من الأناضول إلى إسبانيا»[١].

يبدو أنّ ما كان يشكل أساس وحدة الهوية اليونانية في إطار تاريخ الغرب القديم، والذي ساهم في استمراره، هو بالدرجة الأولى وحدة تاريخية. هذه الوحدة تمكنت من منح مجموعة غير متجانسة ومتنوعة من حيث العرق، تعيش في جغرافيا شديدة التشتت وخالية من حدود واضحة تفصلها عن جيرانها، نوعًا من الوحدة والهوية المشتركة.

يمكن القول بإيجاز إنّ اليونان عبارة عن شبه جزيرة صغيرة يحيط بها البحر الأيوني وبحر إيجة، وفي كل من هذين البحرين توجد جزر مأهولة بالسكان

١. وكيلي، اسطوره معجزه يوناني، ٤٢.

اليونانيين. في اليونان القديمة، كانت كل واحدة من هذه المناطق تتمتع بأهمية وتأثير كبيرين في فترات معينة. الأرض التي تُعرف باسم «اليونان» امتدت من أوروبا إلى آسيا الصغرى، حيث لعبت الجزر المتناثرة في بحر إيجة والبحر الأيوني دورًا بالغ الأهمية في تاريخ اليونان، خاصة في العصور القديمة.

في شمال اليونان البلقانية تقع منطقة ثيساليا، وهي سهل خصيب. الجبال الوعرة والصعبة العبور تجعل الطريق إلى جنوب ثيساليا مغلقًا تقريبًا، باستثناء ممر واحد فقط هو مضيق ترموبيلاي، الذي خلّد اسمه في تاريخ اليونان. في أقصى الجنوب الشرقي لليونان البلقانية تقع منطقة أتيكا. أتيكا منطقة جبلية تشبه رأس السفينة التي تتقدم في البحر. بالقرب من ساحل أتيكا، عند سفح الجبل، تأسّست مدينة أثينا.

البيلوبونيز هي أيضًا واحدة من المناطق الجغرافية الشهيرة في تاريخ اليونان، حيث تقسمها سلاسل جبلية إلى قسمين منفصلين. يقع في وسط البيلوبونيز منطقة أركاديا، التي تحتوي على سهول مرتفعة وخصبة. في أركاديا، توجد سلاسل جبلية، وعلى الجانب الغربي من هذه السلاسل تقع منطقة ميسينيا، بينما على الجانب الشرقي، في منطقة لاكونيا، تأسست مدينة إسبرطة، التي كانت واحدة من المنافسين الأقوياء لأثينا في تاريخ اليونان. على المنحدرات الغربية لنفس هذه السلاسل الجبلية، حيث تنحدر نحو البحر الأيوني، تقع منطقة إليس.

أطراف اليونان مليئة بالجزر الصغيرة والكبيرة. كانت جزر آسيا الصغرى تشبه كثيرًا سواحل اليونان، وقد استقرّ فيها اليونانيون. ورغم أنّ هذه الجزر كانت تقع جغرافيًّا ضمن أراضي آسيا الصغرى، إلا أنّها كانت مأهولة باليونانيين وتُعتبر من جميع النواحي قاعدة للحضارة اليونانية. كتب ألبرت ماله وجول

إيزاك عن هذا الموضوع:

«من بين العوامل التي سهّلت الملاحة لدى الشعب اليوناني أنّ البحار المحيطة به مليئة بالجزر الكبيرة والصغيرة، لا سيما بحر إيجة، الذي يبدو كأنّه بحيرة كبيرة حيث لا يغيب اليابس عن الأنظار أبدًا. بعض هذه الجزر قريبة جدًّا من اليابسة لدرجة أنّها تُعتبر امتدادًا لها... يد الطبيعة نثرت جزرًا أخرى في بحر إيجة، مثل الحجارة التي تُلقى في ممرّات الأنهار. هذه الجزر تقع على الطريق بين اليونان وآسيا الصغرى وتؤدّي دورًا أشبه بالمرشد. من حيث التضاريس، فإن شبه الجزيرة والخليج الساحلي لآسيا الصغرى يشبهان تمامًا سواحل اليونان، وكان الشعب اليوناني يعتبرها وكأنّها وطنه، حيث استقر فيها منذ البداية، وأقام مقابل اليونان الأوروبية في آسيا ما يمكن تسميته يونان ثانية. وهكذا، كانت الطبيعة قد صمّمت بحر إيجة بطريقة تجعله يبدو كأنّه بحيرة يونانية مأهولة. أما في جنوب اليونان، وعلى مسافة بعيدة نسبيًا، تقع جزيرة كريت الجبلية الكبيرة التي تمتد من الشرق إلى الغرب. يمكن اعتبار هذه الجزيرة الحد الجنوبي لعالم اليونان»[١].

جزيرة كريت والحضارة التي ظهرت فيها كانت بمثابة تمهيد لظهور تاريخ الغرب القديم وحضارة اليونان القديمة. ومع ذلك، فإن حضارة كريت هي حضارة ما قبل يونانية، وسنتحدث عنها بإذن الله في موضع لاحق.

عن سكان اليونان

تقع جزيرة كريت في جنوب البحر المتوسط. من بين الشواهد التي تمّ العثور عليها عن الحياة التاريخية في اليونان القديمة والمناطق المحيطة بها، تُعتبر أقدمها تلك المتعلقة بجزيرة كريت. ورغم أنّ حضارة كريت لم تكن حضارة يونانية، إلا

١. ماله وإيزاك، تاريخ ملل شرق، ١٥٤ - ٥٦.

أنّ الحضارة العريقة لهذه الجزيرة لعبت بلا شك دورًا مهمًا في تمهيد الطريق لظهور الحضـارة اليونانية. أقدم الوثائق والشـواهد المتعلقة بحياة البشر واسـتيطانهم وتطوّر الحضارات البشرية في اليونان وما حولها تعود إلى جزيرة كريت. وتشـير الأدلة إلى أنّ سكان هذه الجزيرة كانوا يعيشون هناك منذ حوالي الألفية الخامسة قبل الميلاد. أما الشـعوب التي عاشت في هذه الجزيرة وأسست حضارة كريت، فهي مجهولة مـن حيث الأصل العرقي. بعض المؤرخـين يعتبرونهم من العرق القوقازي، بينما يرى آخرون أنّهم ينتمون إلى العرق المتوسطي[1].

في الألفية الثانية قبل الميلاد، كان يعيش في اليونان البلقانية والمنطقة الرئيسية لليونان سكان أطلق عليهم بعض المؤرخين، اقتداءً ثوقيديدس (المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد)، اسم بلاسجيين[2]. وقد أُطلق على هؤلاء السكان الأصليين لليونان أسـماء أخرى، منها «الكاريـون» و«اللوكلجيون»، واعتُبروا من قبل بعض الباحثين شـعوبًا ذات صلة عرقية بسكان سومر وعيلام. حوالي الأعوام ١٧٠٠ إلى ١٤٠٠ قبل الميلاد، غزت قبائل مهاجرة تُعرف بـ«الآخيين» (وهـي قبائل غير معروفـة الأصل العرقي) الأراضي الرئيسـية لليونان، حيث سيطرت على السكان الأصليين وامتزجت بهم. وهكذا، تحت تأثير النفوذ الثقافي لحضارة كريت، نشأت علاقات وامتزاجات بين سكان كريت الأصليين، سكان الأراضي اليونانية المحليّين، والمهاجمين الآخيين على مدى عقود وقرون. إضافة إلى ذلك، تعرّضت الأراضي اليونانية لهجمات واسعة أخرى (كان أبرزها هجوم «الدوريين» حوالي عام ١١٠٠ قبل الميلاد) ممّا أدّى إلى تكوين هوية عرقية مركبة وغير متجانسـة للمشاركين في بناء الحضارة اليونانية. بالتالي، يمكن القول بكل

1. Fition, The Discovery of the Greek Bronze Age, 87.

٢. خراساني، نخستين فيلسوفان يونان، ٥.

جرأة إنّ مؤسسي الحضارة اليونانية، أو من يُعرفون بـ«اليونانيين»، كانوا يفتقرون إلى وحدة عرقية. والأساس الذي شكّل جوهر الوحدة بين اليونانيين وروحها لم يكن وحدة عرقية، بل كان وحدة تاريخية.

بعد هجرة الآخيين إلى منطقة اليونان البلقانية (وهي أرض جبلية صغيرة تقع جنوب شبه جزيرة البلقان) التي بدأت حوالي عام ١٧٠٠ ق.م، ونتيجةً لاختلاط المهاجمين الآخيين مع السكان المحليّين، أطلق سكان هذه المنطقة على أنفسهم اسم «هلين» وعلى أرضهم اسم «هلاس». أصل هذه الكلمة غير معروف. ومنذ ذلك الحين، بدأ الإغريق يُعرفون تدريجيًا باسم «الهيلينيين». يشير دان ناردو في كتابه الذي تناول فيه الإغريق القدماء إلى هذا الأمر قائلًا: «كان الإغريق القدماء يسمّون أرضهم بـ«هلاس» ويطلقون على أنفسهم اسم «هيلينيين»»[١].

«الكلمة التي نطلقها على هذه الأرض، أي «اليونان»، تعود إلى أنّ الفُرس كانوا قد تعرفوا لأول مرة على إحدى القبائل «اليونانية»، وهي «الإيونيون» الذين كانوا يعيشون في آسيا الصغرى. (وفي التوراة يُشار إليهم باسم «ياوان»). أما الرومان، فقد أطلقوا عليهم اسم «Grai» أو «Graici» أو «Graeci» لنفس السبب، لأنهم كانوا قد تعرفوا لأول مرة على قبيلة صغيرة من اليونانيين تُدعى «غرايكوس» التي كانت تقيم في مدينة كوماي»[٢].

أرض اليونان وجزرها، من كريت إلى ظهور الحضارة اليونانية

في إطار التحليل التاريخي لتاريخ الغرب، ومن أجل تقديم تصنيف يوضح الجوهر والماهية الباطنية للتطورات والتحولات التي مر بها هذا التاريخ، يمكن

١. ناردو، يونانيان باستان، ٩.

٢. بهمنش، تاريخ يونان قديم، أ.

تمييز ثلاث فترات عامة تتجسد في ثلاث صور نوعية تاريخية مختلفة:

أ) الغرب القديم

ب) الغرب في العصور الوسطى، المعروف أيضًا باسم الغرب المسيحي

ج) الغرب الحديث

كل واحد من هــذه العوالم التاريخية يحتوي عــلى تصنيفات فرعية ودورات زمنية تُعرف بالأكوار. لدراســة تاريخ الغرب بناءً على مسار تطوره، يجب البدء من أصل ومهد هذا التاريخ. يبدأ تاريــخ الغرب بعالم الغرب القديم، وبالتالي، لفهم تاريخ الغرب بناءً على تطوراته وتحولاته الزمنية، يجب الانطلاق من دراسة الغرب القديم. في دراسة تاريخ الغرب القديم، نواجه التصنيفات الفرعية التالية:

١. فترة حضارة اليونان القديمة

٢. سيطرة مقدونيا والعصر الهلنستي

٣. حضارة روما القديمة

تاريخ الغرب وظهور عالم الغرب القديم، في هيئة حضارة اليونان القديمة، يبدأ حوالي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد (وبشكل أكثر دقة في القرن الثامن قبل الميلاد). قبل ظهور عالم الغرب القديم وحضارة اليونان، مرّت أرض اليونان وسكانها بمراحل وحضارات متعددة تستدعي الإشارة إليها:

أ) حضارة ما قبل اليونانية في كريت

ب) غزو الآخيين وحضارة ميسينيا

ج) غزو الدوريين

٢. التمهيد الكريتي

في جنــوب شرق منطقــة بيلوبونيــز (وهي منطقــة تقع في جنــوب اليونان

البلقانية)، توجد جزيرة تُعرف باسم «كريت». وفقًا للوثائق الأثرية المكتشفة، تُعدّ جزيرة كريت موطنًا لأقدم حضارة أوروبية. وتشير الأدلة المتوفرة إلى أنّ البشر عاشوا في هذه الجزيرة منذ حوالي ٦٠٠٠ عام قبل الميلاد. لكن فترة ازدهار حضارة كريت (التي عُثر على آثارها) كانت بين عامي ٢٤٠٠ قبل الميلاد و١٤٠٠ قبل الميلاد. تقع جزيرة كريت في مياه البحر الأبيض المتوسط، بينما يقع بحر إيجة إلى شمالها. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار حضارة كريت حضارة غربية أو يونانية. في الواقع، وبحسب المعلومات المتوفرة، فإنّ حضارة جزيرة كريت (التي تُعرف أيضًا باسم «الحضارة المينوسية») تُعدّ حضارة أسطورية كانت موجودة في نهايات تاريخ الشرق في هذه المنطقة. وتظهر فيها خصائص تعكس الطابع التاريخي للانتقال من تاريخ الشرق إلى تاريخ الغرب. ورغم أنّ الطابع الغالب والصورة النموذجية لهذه الحضارة كانا أسطوريين (ولكن في إطار حضارة أسطورية في مرحلة انتقالية نحو تاريخ الغرب)، إلا أنّ ذ حضارة كريت، بما خلفته من إرث، لعبت دورًا أساسيًا كعنصر تمهيدي لظهور وتشكّل تاريخ الغرب والحضارة اليونانية. وباختصار، يمكن اعتبار ظهور وحياة حضارة كريت بمثابة مقدمة غير غربية (ما قبل غربية) لظهور تاريخ الغرب والحضارة اليونانية.

اكتشاف آثار حضارة كريت

في عام ١٩٠٠ للميلاد، وأثناء عمليات التنقيب والحفريات الأثرية في جزيرة كريت، اكتشف عالم الآثار البريطاني سير آرثر إيفانز بقايا حضارة سابقة على الحضارة اليونانية. أطلق على هذه الحضارة اسم حضارة كريت أو الحضارة المينوسية. في الواقع، أطلق إيفانز هذا الاسم استنادًا إلى شخصية مينوس، الذي

اعتبره بعض علماء الآثار والمؤرخين ملك كريت، بينما رأى آخرون أنّ «مينوس» كان لقبًا عامًا يُطلق على ملوك جزيرة كريت، شبيهًا بألقاب مثل «فرعون» في مصر أو «قيصر» في الإمبراطورية الروسية.

«أطلق إيفانز اسم مينوسي على هذه الحضارة نسبةً إلى مينوس، وهو ملك كريتي ورد ذكره بشكل بارز في الأساطير اليونانية القديمة. منذ اكتشافات إيفانز، تمّ العثور على العديد من القصور والمباني والمصنوعات المينوسية الأخرى. كشفت هذه الاكتشافات عن شعب ثري وقوي من الناحية الفنية، كان يتاجر مع الدول المجاورة حتى مصر البعيدة، ومارس تأثيرًا ثقافيًا واسعًا وربما نفوذًا سياسيًا قويًا على الميسينيين لعدة قرون. بدأ آرثر إيفانز عمليات التنقيب في القصر الواقع في كنوسوس. كان إيفانز ينتمي إلى عائلة إنجليزية ثرية، وعمل قبل رحلاته الواسعة إلى اليونان وأجزاء أخرى من منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط مديرًا لمتحف في أكسفورد. في البداية، كان اهتمامه الرئيسي جمع المصنوعات اليدوية اليونانية القديمة الصغيرة، وخاصة الأختام التي تشبه المجوهرات (حفرات صغيرة تُستخدم لطبع علامات على الشمع). كانت هذه الأختام مزينة بمناظر بحرية ومشاهد صيد منحوتة بدقة. وكانت منتشرة بشكل غير عادي في جزر بحر إيجة. بالإضافة إلى ذلك، دفعت الأساطير القديمة، التي تحدّثت عن مدن غنية عديدة في كريت القديمة، إيفانز إلى الاعتقاد بأنّه قد يعثر على مصنوعات كثيرة في تلك الجزيرة. خلال إقامته في كريت، زار إيفانز التلّ الواسع المنخفض المعروف باسم كيفالا (بالقرب من الساحل الشمالي)، والذي كان لفترة طويلة يُعتبر الموقع التقليدي لكنوسوس القديمة. استغرقت المفاوضات المعقّدة مع السلطات المحلّية ست سنوات، حتى حصل إيفانز على الإذن بالتنقيب في هذا

الموقع، وهو حدث وقع في ٢٣ مارس ١٩٠٠. بدأ إيفانز العمل مع عدد قليل من المساعدين، ولكن عندما تكشفت له ضخامة الموقع وامتداد الخرائب، سارع إلى زيادة عدد العاملين ليصل إلى أكثر من مائة شخص. تدريجيًا، بدأت تظهر بقايا مجموعة قصرية قديمة تمتد على أكثر من ثلاثة أفدنة، لتُعرض لأول مرة في وضح النهار بعد آلاف السنين. كان القصر نفسه يغطي مساحة تقدر بحوالي ٢٢،٠٠٠ متر مربع (٢٦،٣١٢ ياردة مربعة)، وقد بُني باستخدام الحجر والخشب والطين. (في نهاية المطاف، تبين أنّ القصر يحتوي على أكثر من ألف غرفة). كان تصميم القصر يشمل مباني ملكية متعددة الطوابق، مستودعات، معابد، قاعات كبيرة، سلالم واسعة، غرفًا، وساحات، أُضيفت بشكل غير منتظم إلى فناء مركزي يبلغ طوله حوالي ٥٠ ياردة وعرضه نصف هذا الطول. إيفانز وعلماء آخرون راقبوا هذه البقايا المتكشفة للقصر الهائل وتأثروا بشدة عندما وجدوا أنّ العديد من جوانب هذا الجزء من التاريخ تتطابق إلى حد كبير مع ما ورد في الأساطير. الثيران، بما في ذلك مينوتور الأسطوري، لعبت دورًا رئيسيًا في أساطير كريت. وقد عثر إيفانز على رسوم، تماثيل، وتجسيدات أخرى للثيران في كل زاوية من خرائب كنوسوس»[١].

الحضارة المينوسية التي ظهرت في جزيرة كريت كانت نوعًا من الحضارة الأسطورية. ورغم أنّ هذه الحضارة حقّقت تقدّمًا كبيرًا في الفنون مثل الرسم، العمارة، وصناعة الفخار، إلا أنّها كانت تفتقر إلى أيّ شكل من أشكال الأدب المكتوب. كتب دان ناردو حول هذا الموضوع:

«على عكس المصريين وبلاد ما بين النهرين، لم يترك المينوسيون أيّ أدب

١. ناردو، مينوسي‌ها، ٧–٨، ١٩ – ٢١.

مكتوب. كانوا يمتلكون شكلًا من الكتابة، لكنّه كان بدائيًا، ولم يُستخدم إلا لتسجيل قوائم طويلة ومملّة للمنتجات الزراعية، والماشية، وغيرها من البضائع الرئيسية التي جُمعت وخُزنت في المراكز القصرية»[١].

حضارة كريت كانت تتألف من العديد من المدن المختلفة، والتي كانت، خلال معظم تاريخ كريت (وربما طوال فترة وجودها)، تعمل ككيانات سياسية مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض. وغالبًا ما كانت هذه المدن تتسم بعلاقات تنافسية وعدائية، وصلت في بعض الأحيان إلى الحروب. في مرحلة معينة من تطور حضارة كريت، أصبحت مدينة «كنوسوس» ومَلِكُها يتمتعان بسلطة كبيرة، وتمكّنا من بسط السيطرة على جميع أنحاء الجزيرة، التي وُصفت في «الأوديسة» لهوميروس بأنّها تضمّ أكثر من ٩٠ مدينة. جعل ملك كنوسوس المدينةَ عاصمة للجزيرة. الاكتشافات الأثرية في كريت لم تقتصر على القصر الذي تمّ العثور عليه في كنوسوس، بل شملت أيضًا قلاعًا وبنايات مشابهة (لكن على نطاق أصغر) وُجدت في «فايستوس» (على الساحل الجنوبي لكريت)، وفي «هاجيا تريادا» (على بعد عدة أميال غرب فايستوس)، و«ماليا» (على الساحل الشمالي للجزيرة شرق كنوسوس). من المدن الأخرى البارزة في حضارة كريت يُمكن ذكر «خانيا» و«كاتوزاكرو»[٢].

آرثر إيفانز قام بالتنقيب في مناطق مختلفة من جزيرة كريت لمدة ٣٥ عامًا. وخلال تلك الفترة، نشر سلسلة موسعة من عدة مجلدات بعنوان «قصر مينوس في كنوسوس» بين عامي ١٩٢١ و١٩٣٦.

---

١. م. ن، ٨.

2. Martin, Ancient Greece: From Prehistoric to Hellenistic Times, 62.

الخصائص الرئيسية لحضارة كريت المينوسية

حضارة كريت، في صورتها المتأخرة وكحضارة قوية ما قبل يونانية، استمرت من حوالي ٢٤٠٠ ق.م إلى ١٤٠٠ ق.م. وبلغت ذروتها خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد، حيث عُرف هذا العصر بالعصر الكلاسيكي لكريت. في وصفه للخصائص الجسدية لسكّان كريت، كتب ويل ديورانت:

«كان الكريتيون، كما يظهر من صورهم، يشبهون بشكل غريب الفأس ذو الحدين، الذي يُعتبر من أبرز الرموز الدينية لديهم. أجساد الرجال والنساء كانت تنتهي بخصر ضيق للغاية، حتى أكثر إفراطًا مما هو شائع في عصرنا. جميعهم كانوا قصيري القامة، وكانت بشرتهم بيضاء عند الولادة. النساء، اللواتي يُمثّلن رمز الظل، كنّ يتمتعن بوجوه مشرقة وشاحبة اللون وفقًا للتقاليد. أما الرجال، الذين كانوا يعملون تحت أشعة الشمس لكسب معيشتهم، فكانت بشرتهم مشوبة بحمرة، لدرجة أنّ اليونانيين أطلقوا عليهم، وعلى الفينيقيين أيضًا، اسم «فوينكس»، أي «الشعب القرمزي» أو «ذوو البشرة الحمراء». على غرار الإيطاليين المعاصرين، كان الكريتيون يمتلكون شعرًا أسود وعيونًا سوداء لامعة. ولا شك أنّ الكريتيين كانوا فرعًا من العرق المتوسطي»[١].

نساء كريت، على عكس العديد من نساء الحضارات الشرقية الأسطورية، لم يكنّ يرتدين الحجاب. وتشير بعض الأدلة الأثرية وما ذكره المؤرخون إلى أنّ لباسهن كان يتّسم بنوع من العادات القائمة على العُري. ومن العادات السيّئة الأخرى لشعب الحضارة المينوسية في كريت أنّهم كانوا يقيمون مسارح في ساحات القصور، حيث كانوا يشاهدون معارك دموية بين الرجال والنساء

١. دورانت، يونان باستان، ١١ - ١٢.

المصارعين (الغاديين). وقد انتشرت هذه العادة السادية البشعة لاحقًا بشكل كبير في روما القديمة. في حياة شعب كريت، كان الاهتمام بالجمال الظاهري والاستعراض القائم عليه أهم من التركيز على الفضائل الأخلاقية والمعنوية. ورغم أنّ حضارة كريت كانت حضارة أسطورية أعطت أهمية كبيرة لبناء المعابد لعبادة آلهتها المتعددة، إلا أنّ القيم الدينية والأخلاقية والقدسية أو حتى القيم شبه الدينية لم تكن لها مكانة بارزة في حياتهم. كما أنّ الالتزام بالحدود الأخلاقية واحترامها في العلاقات بين الرجال والنساء كان أمرًا مهملًا تمامًا. وكما أشرنا، كان هناك نوع من العري وعدم الاحتشام في أسلوب لباس نساء كريت في بعض النواحي[1].

معظم الآلهة في الحضارة المينوسية كانت أنثوية، إذ كان سكان كريت يصوّرون آلهتهم عادة في هيئة نساء. كانت الإلهة الرئيسية أو الأم-الإلهة في كريت تُعرف باسم «بوتينا»[2] (أو «السيدة»). ويرى بعض الباحثين أنّ جميع الصور المتنوعة والمظاهر المختلفة للآلهة في كريت كانت تجليات متعددة للإلهة بوتينا. يبدو أنّ إحدى تجليات «بوتينا» كانت الإلهة الحيّة، التي كانت مسؤولة عن حماية الأسرة. وقد أثّرت بعض صفاتها وخصائصها على شخصية الإلهة أثينا في اليونان خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. ومن الآلهة الأخرى التي عُبِدت في كريت، إلهة أنثوية تُدعى بريو مارتيس، المعروفة باسم «سيدة الحيوانات». ويُعتقد أنّ الإلهة أرتميس في اليونان خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد قد تأثرت من بعض النواحي بالمفهوم الذي كان موجودًا عن بريو مارتيس في كريت. الفأس ذو الحدين، الأفعى، والعمود كانت من الرموز المقدسة المرتبطة بالإلهة بوتينا.

1. Martin, Ancient Greece, 83-88.

2. Potina

ومن اللافت أنّ الأفعى والعمود يُعدّان أيضًا من الرموز المهمة في نظام الرمزية الماسونية. كذلك، كان الثور واحدًا من الحيوانات المقدسة في كريت، حيث كان لقرونه مكانة رمزية مقدسة تحظى باهتمام كبير بين سكان الجزيرة.

في كريت، كانت الكاهنات يلعبن الدور الرئيسي في إقامة الطقوس الدينية. وكانت هذه الطقوس تتضمن رقصات رمزية واستخدام أقنعة تمثل الأبقار الإناث والثيران[1]. في أساطير كريت، نواجه إلهًا قويًا يُدعى فولكانوس، وهو ابن الإلهة بوتينا. في بعض الرسومات الكريتية، يظهر فولكانوس كطفل ذكر في حضن بوتينا. ووفقًا للأسطورة، أنجبت بوتينا فولكانوس في كهف جبلي وكانت شديدة التعلق به. ولكن على عكس أمه، لم يحظَ فولكانوس بمحبة كبيرة بين سكان كريت. يُشار إلى فولكانوس، من قبل بعض المؤرخين، باسم «زيوس الكريتي»[2]. ومع ذلك، فإنّه ليس خالدًا، وسماته البشرية البارزة تجعله قريبًا جدًا من الإنسان. يبدو أنّ عملية توجيه الأساطير نحو الطابع الإنساني بدأت في كريت، حيث نجد أنّ الآلهة أصبحت أكثر شبهًا بالبشر مع مرور الوقت. وفي الحضارة اليونانية اللاحقة، نرى تجليات أكثر تطورًا لهذه الصور في الآلهة شديدة البشرية التي عُرفت بها الأساطير اليونانية. في الحضارة المينوسية، كانت رموز مثل الصليب المعقوف والصليب الروماني تُعتبر من بين الرموز المقدسة. كما كان الاعتقاد السائد في الأساطير الكريتية أنّ العديد من الآلهة يعيشون على قمم الجبال. هذا المعتقد الأسطوري استمرّ لأكثر من ألف عام، حيث نجد في اليونان القديمة الإيمان بأنّ الآلهة اليونانية تعيش على قمة جبل أوليمبوس.

في جزيرة كريت، وُجدت دول-مدن صغيرة كانت تتمتع بنوع من الوحدة

1. Fitton, The Discovery of the Greek Bronze Age, 126.

٢. دورانت، يونان باستان، ١٧.

التاريخية والثقافية، لكنها كانت على خلاف وتنافس سياسي فيما بينها، وفي بعض الأحيان كانت تخوض حروبًا ضد بعضها البعض. ومع ذلك، هناك احتمال أن تكون مدينة كنوسوس قد بسطت سيطرتها على الجزيرة بأكملها وعلى مدنها العديدة لفترة زمنية أثناء ذروة قوتها.

كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في حضارة كريت قائمة على التفاوت بين الفقراء والأغنياء، وعلى الاستغلال وانعدام العدالة. وتشير بعض الأدلة الأثرية إلى أنّ النظام الاقتصادي والاجتماعي في كريت ربما كان يعتمد على العبودية[1]. العبودية، إن لم تكن الشكل الأكثر ظلمًا ووحشية من النظم الاقتصادية والاجتماعية الاستبدادية، فهي بالتأكيد واحدة من أكثرها قسوة وظلمًا.

تضرّرت حضارة كريت بشدة نتيجة الانفجارات البركانية لجبل «تيرا»، مما أدّى إلى إضعافها بشكل كبير. ورغم أنّ عددًا كبيرًا من المينوسيين نجوا من هذه الانفجارات البركانية ومن التسونامي الذي تبعها، إلا أنّ حجم الأضرار وعمقها كانا على درجة من الخطورة أدّت إلى تراجع بنية الحضارة الكريتية وضعف أنظمتها الدفاعية والحيوية بشكل عميق. وهذا الأمر جعلها عرضة لهجمات جيرانها «الميسينيين»، الذين قاموا في النهاية بهجوم واسع أنهى وجود هذه الحضارة.

«تشير الأدلة الجيولوجية والأثرية إلى أنّه ما بين عامي ١٦٢٥ ق.م و١٥٠٠ ق.م، ثار بركان جبل تيرا بشدة كافية ليُعتبر هذا الحدث أسوأ كارثة طبيعية في التاريخ المُسجّل. وقد تسبّب الثوران في تكوّن أمواج هائلة اجتاحت الجزر المحيطة، بما في ذلك كريت، وألحقت أضرارًا جسيمة بها. ووصلت آثار

١. ناردو، مينوسي‌ها، ٥٤.

هــذه الكارثة إلى أماكن بعيدة مثل فلســطين ومصر. ويتّفــق معظم العلماء على أنّ المينوســيين نجوا من هــذه الكارثة. ومع ذلك، فإنّ هــذه الكارثة أضعفتهم وأربكتهم إلى درجــة جعلتهم عاجزين عن مقاومة الهجوم العنيف الذي شــنّه الميسينيون، والذين استغلّوا مصائب سكان الجزيرة لصالحهم»[١].

وهكذا، انهارت حضارة مينوس نتيجة غزو الشعوب التي أسّست حضارة الميسينيين في قلب اليونان البلقانية (اليونان القارية) وانتهى وجودها.

الخلاصة

من مجموع ما تم ذكره حول حضارة كريت، يمكن تحديد الخصائص الرئيسية لحضارة مينوس وعلاقتها بالعالم اليوناني الغربي على النحو التالي:

١. كانــت حضارة كريــت حضارة أســطورية. وبالنظــر إلى الأدلة الأثرية المكتشفة، يمكن اعتبارها أقدم وأعقد حضارة أوروبية عريقة.

٢. تنتمي حضارة كريت إلى حقبة ما قبل اليونانية (ما قبل الغربية) في أوروبا. ومع ذلك، تظهر في الوضع العام لحضارة مينوس الكريتية خلال الألفيتين الثالثة والثانية قبل الميلاد علامات ودلائل تشــير إلى نوع من التحول التاريخي. بناءً على ذلك، يمكن القول إنّ حضارة مينوس الكريتية كانت في جوهرها ونمطها الغالب حضــارة أســطورية. وفي الوقت ذاته، بدأت حضارة كريــت، منذ أواخر الألفية الثالثــة وبدايات الألفية الثانية قبل الميلاد، عملية تحوّل تاريخي نحو ظهور وتطور تدريجي لمكوّنات وعناصر التاريخ الغربي. وبالتالي، يمكن اعتبار حضارة مينوس الكريتيــة حضارة أســطورية في مرحلتهــا الأخيرة، وهي في طــور الانتقال نحو التاريخ الغربي، رغم أنّ الطابع الأسطوري كان الجانب الغالب والمهيمن عليها.

---

١. م. ن، ١١١.

٣. تركت حضارة مينوس تأثيرات ثقافية واجتماعية معيّنة على الحضارة اليونانية. وعلى الرغم من أنّ لغة سكان كريت لم تكن يونانية، ولم تُترك سوى آثار مكتوبة قليلة عنهم، إلا أنّ بعض الأساطير والآلهة الكريتية تركت بصمتها على الثقافة والأدب والمعتقدات الشبه دينية لدى اليونانيين.

٤. كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في كريت قائمة على أسس ظالمة ذات مضمون قائم على العبودية. ومع ذلك، فإنّ العبودية في كريت القديمة لم تكن بالعمق والاتساع والشمولية والسيطرة التي شهدتها في اليونان القديمة.

٥. في كريت القديمة، امتزج الجوهر الشركي للمعتقدات الأسطورية بنوع من النظام الأخلاقي الذي لم يراعِ الحدود والقيم المعنوية والأخلاقية. ومن أبرز مظاهر هذا الجانب كان تصرف النساء الجريء في العلاقات الاجتماعية، وخصوصًا في ارتداء الملابس شبه العارية والمثيرة.

٦. في نظام الأساطير الكريتي، لعبت الإلهات والآلهة الأنثوية دورًا محوريًا، ويبدو أنّ العديد من الطقوس والمراسم الأسطورية كانت تُجرى على أيدي الكاهنات.

٧. ضمّت كريت العديد من المدن التي كانت تعمل كأنظمة سياسية مستقلة تتفاعل بعضها مع بعض في إطار الروح السائدة لحضارة مينوس. وفي إحدى مراحل حياة هذه الحضارة، برزت مدينة «كنوسوس» كمدينة مركزية محورية وبسطت سيطرتها على باقي دول-المدن في الجزيرة.

٨. امتدّت فترة القوة والنفوذ لحضارة مينوس الكريتية بين عامي ٢٤٠٠ ق.م و١٤٠٠ ق.م. ومع حلول النصف الثاني من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، انهارت حضارة مينوس تمامًا.

٣. حضارة الميسينيين

يذكر رُز، مؤلّف كتاب «تاريخ الأدب اليوناني»، هجرة قوم ذي الشَعر الذهبي الذي تحرك من وادي «واردار» نحو الجنوب، مرورًا بـ«الدردنيل»، ووصولًا إلى آسـيا الصغرى. وقد اتجهت جماعات من هذا القـوم نحو البرّ الرئيسي لليونان، حيث تغلّبوا على السكان الأصليين في هذه الأرض وامتزجوا بهم[١]. وقد نشأت الصورة الأولى والبدايات المبكرة للحضارة اليونانية (التي لم تكن بعد جزءًا من التاريخ الغربي وكانت تعيش في امتداد حضارة كريت خلال مرحلة انتقالية من التاريخ الأسطوري إلى التاريخ الغربي) نتيجة لهذا الامتزاج والارتباط بين ثقافة وحضارة هؤلاء الغزاة المنتصرين، وسكان البلاد الأصليين المغلوبين، تحت تأثير إرث حضارة كريت.

منذ حـوالي عام ١٧٠٠ ق.م، بدأت موجة من الهجـرات الكبرى نحو البر الرئيـسي لليونان (اليونان البلقانيـة أو اليونان القارّية) وجزر آسـيا الصغرى. كان المهاجمـون قومًـا محاربًا وعنيفًـا، يتحدثون لغات ولهجـات عُرفت تاريخيًا باسم اللغة اليونانية. يبقى الأصل الدقيق والطبيعة العرقية لهؤلاء المهاجمين غير معروفة. كانت هناك ثلاث قبائل رئيسـية من بين هؤلاء المهاجرين، وهي قبائل «الأيوليـين»، و«الأخائيين»، و«الأيونيين». ومن بين هـذه القبائل، لعبت قبيلة الأخائيين دورًا بارزًا يتجاوز أدوار الآخرين، حيث ظهرت أول حضارة يونانية (مـا قبل الغربية) في أرض اليونان، والتي عُرفت باسـم «حضارة الميسـينيين»، معتمدة بشـكل رئيسي على الأخائيين. ومن هنا، تُعرف حضارة الميسينيين أيضًا باسـم حضارة الأخائيين. استقرّت قبائل الأيونيين بشكل أساسي في جزر آسيا

١. رز، تاريخ ادبيات يونان، ١١.

الصغرى. ولعب سكان هذه الجزر خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد دورًا مهمًا في نشوء وتطور الحضارة اليونانية ضمن سياق التاريخ الغربي. في الواقع، بدأ تاريخ الغرب في اليونان (أي الحضارة اليونانية ضمن إطار التاريخ الغربي) في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في الجزر اليونانية التابعة لحضارة آسيا الصغرى. أما حضارة الميسينيين التي أسّسها القوم المهاجرون الغازون بقيادة الأخائيين (أي حضارة الميسينيين التي بدأت حوالي عام ١٧٠٠ ق.م واستمرت حتى حوالي ١١٥٠ ق.م) فقد كانت لا تزال حضارة ما قبل غربية؛ حضارة يونانية ما قبل غربية.

حول الأخائيين والأيونيين والأيوليين

حتى قبل تسعينيات القرن العشرين، كان من الشائع في الأوساط الأكاديمية أن تُعتبر قبائل الأخائيين والأيونيين والأيوليين من الشعوب المسماة «الهندو-أوروبية»، وأن تُنسب إلى ما يُعرف بـ«الآريين». ومع ذلك، وبفضل الأبحاث والاكتشافات المتعددة، إلى جانب النظريات الحديثة التي كشفت بشكل واضح عن نقاط الضعف والهشاشة، بل وانعدام الأساس، في النظريات الآريانية، تقلصت تدريجيًا هيمنة هذه النظرية بشكل كبير. ظهرت شكوك كبيرة حول وجود عرق أو شعب يُسمى الآري، وحول الهجرات المفترضة لهذا الشعب إلى الهند، وإيران، واليونان، وأوروبا. وقد بلغ الأمر إلى حد أنّ العديد من المنظرين والمؤرخين وعلماء الآثار وفلاسفة التاريخ باتوا اليوم يشكّكون بشكل جدي في وجود شعب أو شعوب آريّة كانت تعيش في آسيا الوسطى وقامت بالهجرة إلى هذه المناطق. ويعتبر كثيرون من هؤلاء أنّ هذه النظرية برمّتها ضعيفة، لا أساس لها من الصحة، وخاطئة تمامًا[١].

١. نظّر العديد من الأكاديميين والمؤرخين الغربيين، مثل «سارا بومري»، و«نانسي ديماند»، و«آرثر

ما زالت الطبيعة العرقية والأصل المؤكَّد للقبائل المهاجمة الأيولية والأخائية والأيونيــة غير واضحة. ومع ذلك، فإنّ جميع هذه القبائل كانت تنتمي إلى عرق واحد، وكانت تجمّعها صلات قرابة، فضلًا عن لغة مشتركة ووحدة في الجوانب الثقافية الأساسية والرئيسية.

في البدايــة، كان الأيوليــون والأخائيون هم الذين اندفعــوا نحو الجنوب، واســتقروا في عدة مناطق من شــبه جزيرة اليونان، وتركزوا بشــكل رئيسي في «خليج أدراميتين» و«ثيساليا». كما انتقل الأيوليون إلى آسيا الصغرى واستوطنوا هناك، لكنّهم اضطروا إلى مغادرة تلك المنطقة إثر هجوم الأيونيين الذين استولوا على جزر آســيا الصغرى. تألّف الأيونيون من أربع قبائل متحدة كانوا يعبدون إلهًا يُدعى «أبولو». وقد توزّع الأيونيون على جانِبَيْ مضيق «هيليســبونت»، وفي السواحل الغربية لآســيا الصغرى، وأجزاء وسطى من شبه جزيرة اليونان. كما احتلّوا منطقة واســعة تمتدّ من مصبّ نهــر «ماياندر» حتى نهر «هيرموس». وقام المهاجمون بقمع دموي واســع للسكان الأصليين في البر الرئيسي لليونان، الذين كانوا يُعرفون باســم «البلاســجيين» وتمكّنوا من إخضاعهم والسيطرة عليهم. في الوقــت ذاته، دخلت القبائل المهاجمة في صراعــات وحروب دموية فيما بينها في المناطق المختلفــة من الأرض التي أصبحت تُعرف لاحقًا باســم «اليونان». استقرت القبائل المختلفة من الأيونيين بشكل رئيسي في السواحل الغربية لآسيا

أشــميت»، و«لازاريــف»، إضافة إلى بعض الباحثــين الإيرانيين مثل «مرادي غيــاث آبادي»، و«أحمد اقتداري»، و«ناصر بوربيرار»، و«عبدالله شــهبازي»، في نقد نظرية الآريانية التي اعتبروها بلا أساس. وقد ازداد عدد منتقدي هذه النظرية بشــكل ملحوظ خلال العقود الأخيرة، حيث أظهرت العديد من الأدلة الأثرية والنظريات العلمية، بل وحتى الأبحاث الجينية والدراســات الأنثروبولوجية، هشاشــة وضعف نظرية الآريانية وافتقارها إلى أيّ أساس متين.

الصغرى، و«أتيكا»، والجزر القريبة من تركيا الحالية. أما الأيوليون، فقد فرضوا سيطرتهم على «ثيساليا»، و«لسبوس»، و«بويوتيا». تدريجيًا، أصبح الأخائيون القوة الرئيسية المهيمنة في البر الرئيسي لليونان، بينما بدأ الأيونيون في ممارسة نفوذهم في جزر آسيا الصغرى. كان سكان اليونان البلقانية وسكان جزر آسيا الصغرى قد امتزجوا بالسكان الأصليين وأخضعوهم، ونتيجة لذلك، تشكلت لديهم لغة مشتركة (مع اختلافات لهجوية)، إضافة إلى معتقدات أسطورية وتراث وهوية ثقافية موحدة. منذ الهجرة إلى شبه جزيرة اليونان حوالي عام ١٧٠٠ ق.م والاستقرار في تلك الأرض، وحتى حوالي عام ١١٠٠ ق.م (وقت غزو قبائل «الدوريين» لشبه جزيرة اليونان)، أنشأ المهاجرون حضارة نمت وتوسعت عُرفت باسم حضارة «ميسين»، التي لعب فيها الأخائيون دورًا محوريًا في تأسيسها وتطويرها. كانت السمة الأساسية للأخائيين والقبائل اليونانية الأخرى المرتبطة بهم (مثل الأيوليين والأيونيين) هي ميلهم الشديد للحرب وعنفهم البالغ. كان الأخائيون يعبدون آلهة متعددة، لكن «زيوس» كان يتمتّع بمكانة خاصة بينهم، وكان أكثر أهمية من بقية الآلهة. كانت مدن مهمة مثل «ميسين» أو «ميسيناي» و«تيرينث» تحت سيطرة الأخائيين، والحضارة التي أسّسها هؤلاء المهاجمون الناطقون باليونانية، والتي تُعرف بـ«حضارة ميسين» أو «حضارة الأخائيين»، تُعدّ أول نموذج للحضارة اليونانية (ولكنها حضارة ما قبل انتماء اليونان إلى التاريخ الغربي). وبعد ألف عام من غزو القوم اليوناني لشبه الجزيرة وتأسيسهم لحضارة ميسين، عندما ظهر التاريخ الغربي في اليونان في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وأصبح سائدًا، بات نموذج حضارة ميسين بمثابة مادة أساسية لصورة التاريخ الغربي (بوصفه النموذج الغربي الكَونَويّ).

حضارة الميسينيين والأخائيين

يمكن اعتبار الأخائيين المؤسسين الرئيسيين لحضارة الميسينيين. كانوا يتحدثون اللغة اليونانية، وكانوا شعبًا عنيفًا، إذ كانت الحرب أبرز مهاراتهم. من خلال غزواتهم، دمّروا حضارة سكان البر الرئيسي لليونان. منذ ذلك الحين، انتشرت اللغة اليونانية تدريجيًا بلهجاتها المختلفة في تلك الأراضي (مثل اللهجة الأيولية، واللهجة الأيونية، واللهجة الأتيكية، ولاحقًا اللهجة الدوريانية). وقد أطلق هؤلاء الناس على أنفسهم اسم «الهيلينيين»، وكرّسوا عبر القرون والعهود جهودهم لنشر الأدب اليوناني. بدأ الأدب اليوناني في «إيونيا»[١]، ثم انتقل لاحقًا إلى بقية مناطق اليونان، بل وتجاوز حدود شبه الجزيرة اليونانية لينتشر في مناطق أوسع.

في دراسة أصل قبائل الأخائيين، يعتقد بعض المؤرخين أنّ الأخائيين كانوا منذ البداية سكانًا أصليين في أرض اليونان، وأنّهم توسعوا تدريجيًا بفعل التكاثر الطبيعي وانتشروا في مختلف أنحاء الأراضي اليونانية. كما أنّهم اختلطوا بالسكان الأصليين الآخرين مثل «البلاسجيين» و«الموكينيين» (وهي شعوب كانت منذ القدم تقطن بعض مناطق اليونان البلقانية). لا يرى هؤلاء المؤرخون أنّ الأخائيين كانوا شعبًا أجنبيًا عن سكان البر الرئيسي لليونان، أو أنّهم غزوا شبه جزيرة اليونان كقوم مهاجم. بل يعتقدون أنّهم، عبر التكاثر الطبيعي وتوسّع نسلهم، تحوّلوا تدريجيًا إلى القبائل الحاكمة في اليونان. يُعدّ «ويل ديورانت» من بين هؤلاء المؤرخين، حيث كتب قائلًا:

«في الأدب اليوناني، لا يُذكر شيء عن غزو قوم الأخائيين... بل يُرجح أكثر أنّ الأخائيين، وفقًا لما يعتقده جميع الكُتّاب الكلاسيكيين، كانوا قبيلة يونانية

١. رز، تاريخ ادبيات يونان، ١٢.

توسعت بفعل التكاثر الطبيعي في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، حتى اجتاحت مناطق تساليا والبيلوبونيز. هناك، اختلطوا بالسكان الأصليين من البلاسجيين والموكينيين، وبحلول حوالي عام ١٢٥٠ ق.م، أصبحوا الطبقة الحاكمة. يبدو أنّهم لم يتلقّوا اللغة اليونانية من شعب موكينا، بل على العكس، كانوا هم من عرّف ذلك الشعب بهذه اللغة»[١].

البحث في الطبيعة العرقية والأصل الجغرافي للأخائيين ليس محور نقاشنا هنا. ما يهمّنا في دراستنا هو أنّ الأخائيين، الذين كانوا القوة المحورية والفاعلة، قاموا إلى جانب الأيونيين وإلى حد ما الأيوليين بتأسيس حضارة الميسينيين. ومع ذلك، فإنّ دور الأخائيين كان أبرز من دور القبيلتين الأخريين، ولهذا السبب يمكن اعتبار الأخائيين المؤسسين الحقيقيين لحضارة الميسينيين. حضارة الميسينيين هي حضارة يونانية، اعتنقت الإيمان بـ«الآلهة الأولمبية» (آلهة اليونان القديمة التي كان يؤمن بها اليونانيون والتي جاءت بفضل الأخائيين). وقد ظهرت الأدب والثقافة والأساطير اليونانية في كنف هذه الحضارة. يمكن اعتبار حضارة الميسينيين أول نموذج موثق للحضارة اليونانية في التاريخ. ومع ذلك، لا تزال حضارة الميسينيين ذات طبيعة ما قبل غربية، وكانت في مرحلة أفول تاريخها الأسطوري، بينما كانت تشهد انتقالًا تدريجيًا نحو التاريخ الغربي. وفقًا لأساطير الأخائيين والميسينيين،

«وُلدت القبائل اليونانية من نسل «هلن» ابن «ديوكاليون»، ومن اسمه أخذوا اسمهم «هلنس». يُعتبر هلن الجد الأعلى لـ«أخايوس» و«أيون»، ومن هذين الجدين نشأت القبائل الأخائية والأيونية [الأيونيين]، الذين، بعد تيهٍ

١. دورانت، يونان باستان، ٤٦.

طويل، استقرّوا واستقلّوا تباعًا في البيلوبونيز وأتيكا»[١].

أسّس الأخائيون مدينة أثينا حوالي عام ١٥٨٢ ق.م. وكان «أجاممنون» أحد ملوكهم وأحد أبرز ملوك الميسينيين. يُعتقد أنّه قاد بين عامي ١١٩٢ ق.م و١١٨٣ ق.م حملة ضدّ مدينة «طروادة»، حيث شن هجومًا داميًا بعد حصار طويل. وبعد أن تغلب على سكان المدينة، لجأ إلى القتل والنهب والاعتداء، ما أدّى إلى تدمير حضارة طروادة بالكامل.

لكن يبقى السؤال: ما هي خصائص حضارة الميسينيين؟

خصائص حضارة الميسينيين

نشأت حضارة الميسينيين تدريجيًا في أعقاب هجرة الأخائيين وبعض القبائل الأخرى منذ حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. ومع ذلك، بلغت الحضارة الميسينية ذروتها خلال القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد. كانت هذه الحضارة، مقارنة بحضارة مينوس، أدنى مرتبة من الناحيتين المادية والثقافية. شكّل الأخائيون النواة الأساسية والمحور المركزي للحضارة الميسينية، وكانوا الشعب الغالب والرئيسي والحاكم فيها. وتحت تأثير الإرث الثقافي والحضاري الذي خلّفته حضارة كريت، بدأ الأخائيون تدريجيًا في تأسيس حضارة يونانية. سرعان ما انتشرت حضارة الأخائيين من منطقة «ميسين» إلى «أرغوليد» ومناطق أخرى في البر الرئيسي لليونان. ولهذا السبب، أطلق بعض المؤرخين على هذه الحضارة اسم «حضارة ميسين»، كما عُرفت أيضًا بـ«حضارة الأخائيين» و«حضارة الهيلينيين». بدأت الحضارة اليونانية بالتوسع تدريجيًا واعتدت على أراضي جيرانها.

---

١. م. ن، ٤٨.

«سعى الأخائيون للحصول على الموارد والثروات، وبعد أن بسطوا سيطرتهم على مناطق مختلفة من اليونان، توجّهوا إلى توسيع ممتلكاتهم في البحر. تميّز الأخائيون بمهاراتهم في الملاحة البحرية، فقاموا بالإبحار إلى جزيرة كريت، حيث دمروا «كنوسوس» انتقامًا، وأسّسوا مستوطنات هناك. منذ ذلك الحين، أصبحت «ميسين» وريثة لـ«كنوسوس»، وعملت على نشر الحضارة التي ورثتها في منطقة البحر الأبيض المتوسط. ومع بدايات القرن الرابع عشر ق.م، انتقل مركز القوة في بحر إيجه إلى منطقة «أرغوليد». وفي جوار «ميسين»، تحوّلت مدينة «تيرينث» إلى قلعة حصينة، وأُنشئت في هاتين المدينتين قصور كبيرة وجميلة، مما يدل على قوة الأخائيين ونفوذهم في منطقة «أرغوليد». نشر الأخائيون حضارتهم في جميع بلدان بحر إيجه، حيث أصبح نمط بناء المقابر ذات القباب، والغرف الريفية، والأواني والمجوهرات، وكذلك السيوف والخناجر، موحّدًا في كل مكان. ورغم اختلاف الأعراق والجنسيات، ظهرت وحدة أخلاقية بينهم، كما تغلبت اللغة اليونانية الحديثة التي كان يتحدّث بها اليونانيون على اللغة القديمة التي كانت تُستخدم في الكلام والكتابة بين الشعوب المغلوبة. بعد أن أسّس الأخائيون علاقات مع جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي وسواحل سوريا، توجهوا نحو آسيا الصغرى. ومنذ القرن الرابع عشر ق.م، أصبحت بعض الأراضي الساحلية الممتدة من «سيزيلي» إلى «طروادة» مركزًا لنشاطاتهم»[١].

كانت حضارة الميسينيين من الناحية الأخلاقية حضارة منحطة. يتمثل نموذج «الرجل المثالي» في هذه الحضارة في إنسان يستغلّ الضعفاء دون تردّد،

١. بهمنش، تاريخ يونان قديم، ٣٣، ٣٥-٣٦.

يرى في سحق الضعيف عين العدل، يكذب بلا خجل ويتصف بالقسوة. من منظور الأخائيين، لم يكن الكذب، والإفراط في شرب الخمر، والخيانة، والقتل، والقسوة، وانتهاك حقوق الآخرين أمورًا سيئة. بل إنّ جميع هذه الرذائل الأخلاقية كانت تُعتبر فضائل إذا اقترنت بالشجاعة في الحرب والعنف في القتال. في اللغة اليونانية، ترتبط كلمة «الفضيلة»[1] بكلمة «آريس»[2]، إله الحرب[3].

كانت حضارة الميسينيين حضارة تفتقر إلى الثقافة الروحية وإلى القيم والمعايير الأخلاقية. إنّها حضارة لم تكن فقط غريبة عن الدين وعن البعد السامي للتعاليم الدينية، بل كانت أيضًا خالية من بعض المضمون والأسس الروحية شبه الأسطورية التي ظهرت أمثلتها في بعض الحضارات الأسطورية الأخرى. يكتب ويل ديورانت عن الخصائص الأخلاقية السائدة بين البشر في هذه الحضارة قائلًا:

«كانت الحياة البشرية، في نظر الرجل الأخائي، لا تحمل قيمة تُذكر، وكان قتل النفس أمرًا غير ذي أهمية، يُمكن ارتكابه فقط من أجل لحظة من المتعة. كانت القرصنة عملًا محترمًا، وحتى الملوك كانوا يشنون الحملات العسكرية لمجرد السلب والنهب. كانوا ينهبون المدن والقرى، ويستعبدون سكانها. يقول «ثوقيديدس» عن استعباد البشر: «في الحقيقة، كان هذا المصدر الرئيسي للمعيشة عند اليونانيين الأوائل، ولم يكن يُعتبر عارًا بأيّ حال، بل ربما كان يُعدّ مدعاة للفخر». كان الشعب الأخائي، إلى جانب شغفهم الكبير بالنهب والقتل،

1. arete

2. Ares

٣. انظر: دورانت، يونان باستان، ٥٧ – ٥٨، ٦٠.

يتميزون أيضًا بالكذب الوقح بلا خجل.»[١]

في حضارة الآخائيين، لم تكن العري شائعة بشكل واسع، وكان كلا الجنسين يغطيان أجسادهم إلى حد ما، على الرغم من أنّ النساء غالبًا ما كنّ يتركن أذرعهن عارية، وكان الرجال غالبًا ما تكون سيقانهم مكشوفة. من الناحية الاقتصادية، لم تكن الملكية الخاصة للأراضي موجودة تقريبًا بين الآخائيين، وكانت الأراضي غالبًا ما تعود إلى العائلة أو القبيلة. في حضارة الميسينيين، كان العبيد موجودين ولكنهم كانوا يقومون في الغالب بدور الخدم المنزليين، وعلى الرغم من أنّهم كانوا يُباعون ويُشترون ويتعرضون أحيانًا للإساءة من قبل أسيادهم، إلا أنّ وضعهم بشكل عام لم يكن سيّئًا للغاية.

في دراسة مراحل التطور التاريخي لحضارة الميسينيين، يمكن تقسيم هذه المراحل كما يلي:

١. بداية حضارة الميسينيين: تميزت هذه المرحلة بسيطرة الأخائيين والمهاجرين الآخرين واختلاطهم بالسكان الأصليين في البر الرئيسي لليونان، تحت تأثير الثقافة الكريتية. وتمتد هذه الفترة من عام ١٧٠٠ ق.م إلى ١٤٠٠ ق.م.

٢. ذروة ونهوض حضارة الميسينيين: كانت هذه المرحلة تتمحور حول الأخائيين الذين قادوا توسّع النفوذ والسلطة لحضارة الميسينيين. وتمتد هذه الفترة من عام ١٤٠٠ ق.م إلى ١٢٠٠ ق.م.

٣. فترة انحطاط حضارة الميسينيين: شهدت هذه المرحلة اندلاع حرب طروادة (هجوم اليونانيين على حضارة طروادة)، ما أدّى إلى إضعاف الحضارة

---

١. م. ن، ٥٨-٥٩.

الأخائية تدريجيًا، وانتهت بانهيار حضارة الميسينيين نتيجة غزو قبائل «الدوريين». وتمتد هذه الفترة من عام ١٢٠٠ ق.م إلى ١١٠٠ ق.م.

خلال فترة توسع وذروة حضارة الميسينيين، برز نوع من الصراع والتناقض بين اليونانيين وسكان مدينة طروادة. سعى اليونانيون، في إطار أهدافهم التوسعية، للوصول إلى منطقة «الدردنيل»، حيث دخلوا في صراع وتنافس مع مصالح حضارة طروادة. كانت مضائق الدردنيل تحت سيطرة شعب طروادة، وكانوا يحصلون سنويًا على مبالغ كبيرة كرسوم عبور من السفن. وقد أدّت موقعهم الجغرافي وسيطرتهم على هذه المضائق إلى ازدهارهم الاقتصادي. يبدو أنّ اليونانيين حاولوا عدة مرات السيطرة على طروادة عبر شنّ هجمات، لكنهم فشلوا. وفي نهاية المطاف، قاد «أجاممنون» مجموعة من المدن والممالك اليونانية، وفي عام ١١٩٢ ق.م، شنّوا هجومًا على طروادة وحاصروها لما يقرب من عشر سنوات. وأخيرًا، تمكّنوا من الاستيلاء على طروادة، وقاموا بتدمير المدينة وقتل سكانها.

«حوالي عام ١٢٠٠ ق.م [١١٩٢ ق.م]، شنّ الميسينيون هجومًا على طروادة، وهي مدينة تجارية مستقلة تقع على الساحل الشمالي الغربي لآسيا الصغرى، وقاموا بإحراقها. يبدو أنّ هذه المدينة كانت تتمتع بأهمية سياسية واقتصادية كبيرة في ذلك الوقت، حيث شارك معظم ملوك الميسينيين في حصارها. قاد الحملة «أجاممنون»، ملك ميسين. وتكتسب هذه الواقعة أهمية خاصة لأنّها المرة الوحيدة التي اتّحد فيها هذا العدد من الممالك الميسينية في جهد مشترك. كما ازدادت أهمية حصار طروادة لأنّ قصّته أصبحت الأساس الذي قامت عليه

الأدب والدين في اليونان القديمة».[١]

في إطار الخلاصة، يمكن تلخيص خصائص حضارة الميسينيين على النحو التالي:

١. كانت حضارة الميسينيين حضارة أسطورية، وهي في مرحلة أفول التاريخ الأسطوري والانتقال إلى التاريخ الغربي. تُعدّ هذه الحضارة يونانية وتنتمي إلى الحقبة ما قبل الغربية لليونان. بدأت حضارة الميسينيين مع غزو قبائل مهاجرة من شمال اليونان حوالي عام ١٧٠٠ ق.م، وتوسّعت تدريجيًا حتى انقرضت حوالي عام ١١٠٠ ق.م.

٢. نشأت هذه الحضارة نتيجة غزو قبائل مختلفة من الأخائيين والأيونيين والأيوليين لأراضي البر الرئيسي لليونان. ومع ذلك، كان للأخائيين الدور المحوري والأساسي في تأسيس حضارة الميسينيين، لذلك غالبًا ما يُعتبرون المؤسسين الحقيقيين لهذه الحضارة، ويُشار إليها أحيانًا بـ«حضارة الأخائيين». على الرغم من أنّ حضارة الميسينيين بسطت سيطرتها على جميع أراضي اليونان (اليونان البلقانية) وحتى جزيرة كريت والجزر الأخرى في بحر إيجه، فإنّ مركزها ومحورها كان في مدينة ميسين الواقعة في أرغوليد. ولهذا السبب، أطلق المؤرخون عليها اسم «حضارة الميسينيين».

٣. تمثّل حضارة الميسينيين أول نموذج موثق للحضارة اليونانية في التاريخ، وهي مزيج من هوية وإرث القبائل اليونانية الغازية واختلاطهم بالسكان الأصليين والبدائيين للبر الرئيسي لليونان (أي البلاسجيين) الذين هزمهم

١. ناردو، يونان باستان، ٢٢.

الغزاة. وقد حدث هذا التمازج والاندماج الثقافي تحت تأثير الإرث الذي خلفته حضارة كريت.

٤. كانت حضارة الميسينيين حضارة ظالمة واستكبارية. وكان طابع الظلم والاستكبار فيها من النوع الوثني الأسطوري الذي اتّسم بالعنف والسيطرة.

٥. كان «زيوس» بالنسبة للأخائيين إله الآلهة، وكانت آلهة الميسينيين هي نفسها الآلهة الأولمبية. ومع غلبة التاريخ الغربي على اليونان لاحقًا، أُعيدَ تفسير الآلهة الأولمبية بشكل غربي وأُدرجت ضمن منظومة الحضارة اليونانية الغربية تحت إطار الفكر الكَونَويّ (ولكن مع فصلها عن معانيها الأسطورية الأصلية).

٦. اعتمدت حضارة الميسينيين اقتصاديًا على تربية الماشية، والأهم من ذلك على التجارة، وكذلك على الاستفادة من عمل العبيد. ومع ذلك، لم يكن دور العبيد في الحياة الاقتصادية للميسينيين محوريًا بعد (كما أصبح لاحقًا في الحضارة اليونانية الغربية). كانت الحضارة الميسينية ذات طابع هجومي وعسكري، وكان الأخائيون، الذين شكلوا العنصر الأساسي والغالب في هذه الحضارة، شعبًا عنيفًا وشرسًا.

٧. أصبح إرث حضارة الميسينيين لاحقًا ومع ظهور التاريخ الغربي، مادة أساسية لصورة تاريخ الغرب القديم.

٨. انقرضت حضارة الميسينيين حوالي عام ١١٠٠ ق.م (وفقًا لقول ويل ديورانت تحديدًا في عام ١١٠٤ ق.م[١]) نتيجة هجوم قبائل يونانية تُعرف باسم «الدوريين» أو «الدوريانيين». كانت هذه القبائل من الأقارب البعيدين للأخائيين

١. دورانت، يونان باستان، ٧٣.

والأيونيين، وقد هاجموا الأراضي اليونانية ودمّروا الحضارة الميسينية. ومع ذلك، كانت حضارة الميسينيين قد بدأت في الانحدار منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعلى الرغم من أنّ حرب طروادة انتهت بانتصار اليونانيين، إلا أنّها كانت أحد العوامل التي أسهمت في إضعاف الحضارة الميسينية ومهّدت لانهيارها النهائي.

الوجه الأخير لليونان قبل الغرب

الدوريون (أو الدورانيون) كانوا مجموعة أخرى من القبائل ذات الأصول اليونانية التي وصلت، خلال هجرتهم حوالي عام ١١٠٠ ق.م، إلى الجزء الرئيسي من الأراضي اليونانية. وقد خاضوا معارك ضد الأخائيين والميسينيين، مما أدّى إلى تدمير الحضارة الميسينية وإخضاع سكان المدن والمناطق المختلفة في الأراضي الرئيسية لليونان. شنّ الدوريون هجومهم على أراضي الحضارة الميسينية من شمال الأراضي اليونانية، وقاموا بإحراق كل ما وجدوه في طريقهم، وقتلوا عددًا كبيرًا من سكان تلك المناطق (اليونانيين الذين عاشوا أجيالًا عديدة في هذه المناطق بعد نشوء الحضارة الميسينية). كما قام الدوريون بتدمير ما تبقّى من الموروثات المادية لحضارة البلاسجيين. كان الدوريون شعبًا شديد القسوة، غالبًا ما يتميّزون بالطول، ولم تكن لديهم معرفة بالقراءة والكتابة، وكانوا يعيشون بأسلوب حياة الترحال. أما السبب الرئيسي لانتصارهم فهو معرفتهم باستخراج الحديد وصناعة السيوف الحديدية، مما مكّنهم من التفوّق في المعارك على الميسينيين والقلة الباقية من الكريتيين.

«في حدود عام ١١٠٤ ق.م، اندلعت موجة أخرى من الهجرة أو الغزو من

أراضي الأقوام الشمالية المضطربة، وعمّت اليونان. وصل قوم محارب، طويل القامة، مستدير الرأس، وبسيط الكتابة، عبر إيليريا وثيساليا إلى ناوباكتوس في خليج كورنث، ثم وطئوا أراضي البيلوبونيز وأحكموا السيطرة عليها. كان هؤلاء القوم يعيشون في مرحلة الرعي والصيد، ورغم ممارستهم بعض الزراعة المحدودة، فإنّ اعتمادهم الأساسي في حياتهم كان على تربية الماشية، ولذلك كانوا دائمًا يتنقلون من مكان إلى آخر بحثًا عن المراعي. وبفضل استغلالهم الواسع للحديد، واستخدامهم السيوف الحديدية، وبفضل طبيعتهم القاسية، تمكّنوا من سحق قوم الآخائيين وقوم الكريتيين بوحشية، وهؤلاء كانوا لا يزالون يصنعون أدوات القتال من البرونز. أما الآخائيون، فهرب من نجا منهم بحياته؛ إذ لجأ بعضهم إلى جبال شمال البيلوبونيز، وآخرون إلى أتيكا، بينما لجأ قسم منهم إلى الجزر وسواحل آسيا»[١].

الدوريون (أو الدورينيون أو الدورانيون) كانوا يتحدثون لهجات من اللغة اليونانية، وكانوا يشتركون في الهوية والخصائص القومية والإرث الثقافي مع القبائل اليونانية الأخرى (مثل الأخائيين وغيرهم) التي أُخضِعت آنذاك. ورغم أنّ غزو الدوريين تسبّب في دمار واسع، إلا أنّهم لم يتمكّنوا من القضاء التام على جميع مكوّنات الحضارة الميسينية الراسخة. إنّ الطبيعة الجغرافية لليونان، التي كانت بطبيعتها تُهيّئ الظروف لنشوء حكومات محلية صغيرة ومنفصلة عن بعضها، بالإضافة إلى استمرارية المؤسسات التي خلّفتها الحضارة الميسينية (والتي تضمّنت في جوهرها عناصر من حضارة كريت فضلًا عن إرث ومكوّنات من

١. م. ن، ٧٣ – ٧٤.

حياة السكان الأصليين في منطقة اليونان البلقانية، أي البلاسجيين)، ساهمت في بقاء العديد من معالم الحضارة رغم الهجوم الدموي والمدمّر للدوريين. بعد هذا الغزو، استقرّت جماعات القبائل الغازية المنتصرة في العديد من المناطق، منها إسبرطة، ميسين، كورنث، أرغوليس، ميغاريس، والجزر الواقعة بين كريت ورودس وجنوب الأناضول، وفي الوقت نفسه، كان عدد كبير من سكان مناطق إيليا، آخايا، فوكيس، إيتوليا، أكارنانيا، وإبيروس من قبائل غير دوريانية، وقد حافظوا إلى حد ما، ومن جوانب معيّنة، على استقلالهم عن الدوريين. ومع ذلك، ظهرت تدريجيًا نوع من الامتزاج والاختلاط بين هؤلاء السكان والقبائل الغازية المنتصرة. في الواقع، مع غزو الدوريين، انهار النظام السياسي والاجتماعي والهيكل العام للحضارة وسلطتها، مما أدّى إلى سقوط الحضارة الميسينية باعتبارها أول شكلٍ للحضارة اليونانية. ومع ذلك، اندمجت العديد من العناصر الداخلية والعميقة لهذه الهوية الحضارية مع بعض الملامح الثقافية والاجتماعية-الاقتصادية للدوريين عبر قنوات مختلفة. وكان لهروب أعداد كبيرة من الأخائيين من مواجهة الدوريين العنيفين إلى جزر آسيا الصغرى، وازدهار مجموعة من الجزر المأهولة باليونانيين في تلك المنطقة، تأثيرات كبيرة ظهرت لاحقًا في مسار تطوّر الحضارة اليونانية.

هجوم الدوريين ونتائجه

مع غزو الدوريين وسقوط الحضارة الميسينية، ظهرت مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة اليونانية، حيث تجلّى وجه جديد لما يمكن وصفه بالمرحلة الأخيرة من الحضارة اليونانية ما قبل الغربية. ومع نشوء الحضارة الدوريانية

وانتشارها التدريجي، وصلت حياة الحضارة اليونانية ما قبل الغربية إلى نهايتها. بدأت هجمات القبائل الدوريانية حوالي عام ١١٠٠ ق.م، وسرعان ما وضعت حدًا للحضارة الميسينية. ونتيجة لهذا الغزو، دخل تاريخ اليونان، بحسب معرفتنا الحالية، في نوع من الغموض امتدّ لأربعة قرون. بمعنى آخر، أعقب الغزو الدوري وسقوط الحضارة الميسينية فترة تكتنفها ظروف غير واضحة، حيث يفتقر المؤرخون وعلماء الآثار إلى معلومات دقيقة عنها. ففي الفترة الممتدّة من حوالي ١١٠٠ ق.م إلى ٨٠٠ ق.م، كما يشير المؤرخون وعلماء الآثار، لا توجد سوى آثار قليلة مكتوبة أو مسجّلة تلقي الضوء على طبيعة الحضارة اليونانية خلال هذا العصر. ولذلك، أطلق المؤرخون الغربيون الحداثيون على هذه المرحلة تسمية «العصر المظلم» أو «عصر الجهل»، وهو توصيف يحمل في طياته الكثير من الالتباس والغموض بشأن ما يُراد الإشارة إليه.

على الرغم من ادعاء المؤرخين بأنّ المعلومات المتعلّقة بفترة هيمنة الدوريين قليلة جدًا، إلا أنّ هناك بعض المعلومات المتوفرة بشأن نتائج غزو الدوريين يمكن الإشارة إليها:

١. إثر الغزو الدموي الذي شنّه القوم الدوري القاسي، اضطر العديد من الأخائيين، خوفًا من عنف الغزاة ووحشيتهم، إلى ترك منازلهم والهجرة إلى مناطق أخرى، لا سيما إلى الجزر الغربية لآسيا الصغرى (إيونيا). وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، ظهرت في هذه المنطقة أولى مظاهر الفلسفة والأدب الغربي. أصبحت إيونيا، الواقعة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، تدريجيًا مركزًا لتجمع العديد من المجموعات والقبائل المهاجرة من الأراضي الرئيسية

لليونـان. ومع ذلـك، كان المهاجـرون القادمون من وسـط اليونـان ومنطقة البيلوبونيز، ومعظمهم من الأخائيين، هم الأكثر استقرارًا في إيونيا. وبعد حوالي أربعة قرون من غزو الدوريين، أي في القرن الثامن قبل الميلاد، تحوّلت إيونيا إلى مهد ظهور الفلسفة والأدب والكتابات الأولى للحضارة اليونانية الغربية.

٢. في جزيرة صقلية أيضًا، ظهرت مسـتعمرة يونانية أخرى، تشـكّلت من مجموعة أخرى مـن اليونانيين الفارّين من الأراضي الرئيسـية لليونان، وكانت مدينة «إليا» مركزها. لاحقًا أصبحت إليا واحدة من المدن المهمة في مسار تطور «الفكـر الطبيعي الكَونَـويّ اليوناني المنفصل عن الوحـي». كما لعبت مجموعة المسـتعمرات اليونانية النشـطة في الأراضي الإيطالية دورًا مهـمًا في نقل الثقافة اليونانية، وفي ما هو أبعد من ذلك، في تغريب سـكان تلك المنطقة ونقل التاريخ الغربي إلى روما. وقد سـاهم ذلك في استمرار تاريخ الغرب القديم في روما بعد زوال المدن اليونانية ودخول حقبة الهلنستية.

٣. تقـدّم اليونانيون المهاجرون من الشـمال والشـمال الشرقي حتى مضيق الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود. كانت هذه المستعمرات غالبًا تتمتع بنوع من الاستقلال السياسي والحكم المنفصل، إلا أنّ انتماءها إلى المدينة اليونانية وإلى تاريخ الغرب وعـالم الغرب القديم (بعد ظهور الغـرب في اليونان) إلى جانب اشـتراكها في المعتقدات الثقافية والشـعائر الشـبه دينية اليونانية (وهي نوع من الديـن المرتبط بـ«البوليـس» اليوناني)، بالإضافـة إلى الذاكـرة القومية واللغة المشـتركة، كل ذلـك منحها نوعًا من الوحـدة التاريخية والهوية المشـتركة. هذا الترابط أسـهم في تعزيز شـعور الانتماء إلى الهوية اليونانية واستمرارها بين هذه

المجتمعات المهاجرة.

٤. في الحقبة التي أعقبت غزو الدوريين ومع بدء عصر الهجرات وتشكّل المستعمرات اليونانية، أصبحت الأعمال الإنتاجية التي يقوم بها العبيد ذات أهمية كبيرة في الاقتصاد اليوناني.

٥. في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد (وربما قبل ذلك بقليل)، ظهرت نوع من الأبجدية الإيونية، التي كانت في الأساس مقتبسة من الأبجدية السامية الشمالية التي كان اليونانيون يطلقون عليها «الحروف الفينيقية». أدخل اليونانيون تغييرات على هذه الأبجدية، ومن خلالها ظهرت تدريجيًا الأبجدية اليونانية، التي أصبحت لاحقًا الأساس الذي اشتقّت منه الأبجدية الرومانية وبعض أبجديات اللغات الأوروبية الأخرى. كتب رُز حول هذا الموضوع ما يلي:

«ومن الأهميّة بمكانٍ الاقتباس الذي قام به اليونانيون للأبجدية السامية الشمالية، والتي كانوا يطلقون عليها اسم «الحروف الفينيقية». وقد أجروا عليها تغييرات وتعديلات جعلتها ملائمة لاحتياجاتهم. كانت هذه الأبجدية، باستثناء بعض الاختلافات في شكل الحروف، مشابهة للأبجدية العبرية، حيث تضمّنت سلسلة من الرموز، كل منها يمثّل حرفًا غير مصوّت. قام اليونانيون بإجراء تعديلات ضرورية لتلبية احتياجات لغتهم، فاستحدثوا رموزًا لبعض الحروف المخصّصة للمصوّتات التي لم تكن موجودة في الأصوات السامية، ثم أكملوا هذه الحروف برموز أخرى كانوا قد ابتكروها لاحقًا أو اقتبسوها من مصادر أخرى. ومع مرور الوقت، ومن خلال العديد من التعديلات المحلية التي أُدخلت على هذه الأبجدية، ظهرت الأبجدية اليونانية التي أصبحت لاحقًا

الأســاس الذي اشــتُقَّت منه الأبجدية الرومانية، ومن ثمّ الإنجليزية، بالشكل الذي نعرفه اليوم»[١].

بين عامي ١١٠٠ ق.م و٧٠٠ ق.م، مرّت اليونان بمجموعة من التطورات والتحولات التي مهّدت الطريق لظهور التاريخ الغربي. وبذلك، انتقلت اليونان من مرحلة ما قبــل التاريخ الغربي إلى مرحلة التاريــخ الغربي. مع بروز الغرب كتاريخ، تغيّرت طبيعة الإنســان والعالم اليونــاني وكل علاقاته وجوانب حياته المختلفــة. ومنذ منتصف القرن الثامن ق.م (وبحســب بعــض المؤرخين، منذ عام ٧٧٦ ق.م)، نشــهد ظهور المدينة اليونانيــة كمرحلة انطلاق وبداية لتاريخ الغــرب. عام ٧٧٦ ق.م يُعتبر في اليونان القديمــة تاريخًا لبدء الألعاب الأولمبية وأساسًا للتقويم اليوناني. كما أنّ أقدم النقوش الحجرية المكتوبة باللغة والأبجدية اليونانية تعود إلى منتصف القرن الثامن ق.م. يشير العديد من المؤرخين وكتّاب تاريخ اليونان، ومن ضمنهم مؤلفو كتاب تاريخ الفلسفة الصادر عن روتليدج، وكذلــك عدد من باحثي تاريخ الفكر الغربي القديم، إلى أنّ زمن تأليف الإلياذة والأوديسة، المنسوبتين إلى هوميروس، يعود إلى هذه الفترة ذاتها[٢].

---

١. رُز، تاريخ ادبيات يونان، ١٨ – ١٩.

٢. كتاب تاريخ الفلســفة الصادر عن روتليدج هو سلســلة عن تاريخ الفلســفة ألّفها «كريستوفر تشارلز وينســتون تايلور» بمشاركة مجموعة من المؤلفين الآخرين. كما يشير «ترنس إروين» في كتابه التفكير في العصور القديمــة إلى أنّ هوميروس ينتمي إلى القرن الثامن قبل الميلاد. وبالمثل، يرى س. بيل‌فوغل في كتابه «حضارة الغرب» أنّ هوميروس يعود إلى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد. جاسبر غريفين والعديد من الباحثين الآخرين يتفقون أيضًا على أنّ هوميروس وزمن تأليف الإلياذة والأوديسة يعودان إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ومع ذلك، فإنّ عددًا من المؤرخين والأدباء يشــيرون إلى تواريخ أخرى بشــأن زمن هوميروس وتأليف الإلياذة والأوديســة. في هذا الكتاب، نعتمد الفرضية التي تُرجِع زمن هوميروس وتأليف الإلياذة والأوديسة إلى حدود القرن الثامن قبل الميلاد.

«هسيود» ظهر أيضًا في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد. وبناءً على الوثائق والشواهد المكتوبة التي تم الحصول عليها، يمكن القول إنّ الروح اليونانية (اليونان في إطار تاريخ الغرب، الذي يختلف جوهريًا عن اليونان ما قبل الغربية) برزت في القرن الثامن قبل الميلاد. منذ هذه اللحظة، كلّما تحدّثنا عن «المدينة اليونانية»، فإنّنا نعني بذلك اليونان التي نشأت في إطار تاريخ الغرب، أي اليونان الغربية. ونؤكّد مجدّدًا أنّ الصورة النوعية للمدينة اليونانية، أيْ الصورة النوعية للغرب القديم، ميّزت المدينة اليونانية بشكل جوهري عن الحضارات اليونانية ما قبل الغربية (مثل الحضارات الميسينية والدوريانية) التي كانت تندرج ضمن الصورة النوعية للتاريخ الأسطوري.

في أواخر عهد الحضارة اليونانية، وتحديدًا في القرون ١٢، ١١، ١٠، و٩ قبل الميلاد، قبل ظهور وهيمنة تاريخ الغرب على اليونان وظهور المدينة اليونانية، كانت هذه الحضارة، من حيث مكوّناتها الجوهرية، مزيجًا من إرث حضارة كريت وحضارة السكان الأصليين للأراضي اليونانية (المعروفين بـ«البلاسجيين» و«الموكنايين») وحضارة الأخائيين (حضارة ميسين) وحضارة الدوريين. وقد انصهرت هذه المكونات في إطار اختلاط شامل، دموي وهوياتي، تحت مظلة الصورة النوعية للتاريخ الأسطوري. كان هذا التاريخ الأسطوري يعاني انحطاطًا في مراحله الأخيرة، متّجهًا نحو الانقراض الكامل، وممهدًا الطريق للانتقال إلى تاريخ الغرب. في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، بدأت الحقبة الغربية تحكم سكان هذه الحضارة (اليونانيين). ومع ظهور وهيمنة تاريخ الغرب في اليونان خلال القرن الثامن قبل الميلاد، يمكن اعتبار أنّ تاريخ الغرب

على كوكب الأرض قد بدأ. أيّ دراسة أو تحليل لظهور وانتشار وتطور تاريخ الغرب على الأرض لا بد أن تبدأ بعالم الغرب القديم بوصفه المرحلة الأولى لظهور وتجلي هذا التاريخ. بدأت حياة عالم الغرب القديم مع ظهور المدينة اليونانية في القرن الثامن قبل الميلاد، لتتوسع وتتطور عبر الزمن. عالم الغرب القديم، بوصفه عالمًا تاريخيًا (يُطلق عليه أيضًا عالم الغرب اليوناني-الروماني)، يتميز بثلاث «أكوار» رئيسية:

١. كور ولادة وظهور الغرب القديم، في هيئة المدينة اليونانية.

٢. كور الهلنستية (اليونانية المتمثلة في الهلنسة).

٣. كور توسع حياة الغرب القديم وانتهائه في مدينة روما القديمة.

بالطبع، كانت لكلٍ من هذه المراحل، باعتبارها فترات مستقلة، تقسيمات فرعية وفترات ثانوية خاصة بها، فضلًا عن صعودها وهبوطها، وما شهدته من ظهور وزوال لمظاهر ومراحل متعددة.

القسم الثاني: بداية تاريخ الغرب

١. المكوّنات الجوهرية للمدينة اليونانية

منذ القرن الثامن قبل الميلاد، بدأ العالم الغربي القديم ـ والذي يُمكن، تسامحًا، تسميته أيضًا بـ«العالم الغربي اليوناني-الروماني» ـ في الظهور التاريخي، ومع هذا الظهور وُلد تاريخ الغرب. لقد نشأ عالم الغرب اليوناني-الروماني في اليونان، حيث ترسّخ واستقرّ، ثم بعد عدّة قرون من التغيّرات والتوسّع والتطوّر، بلغ منتهاه في مقدونيا ثم في روما القديمة. ومن هنا جاءت تسمية «الغرب اليوناني-الروماني» للعالم الغربي القديم بوصفها تسمية تقريبية شائعة. إنّ بداية تاريخ الغرب والنقطة التي انطلق منها عالم الغرب القديم تقع في اليونان خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وكما يقول ويل ديورانت، فإنّ المقصود من «اليونان» هو جميع الأراضي التي استوطنها اليونانيون منذ العصور السحيقة[١].

في اليونان، حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، يظهر تاريخ الغرب ويهيمن، ويصبح عالم الغرب القديم مسيطرًا على أفق حياة اليونانيين. وهكذا، تظهر المدينة اليونانية، أو ما يُطلق عليه «حضارة اليونان القديمة». إنّ ظهور وحياة وتوسع وتطور وانحدار وزوال المدينة اليونانية يشكّل جزءًا مهمًا وحاسمًا من ظهور وحياة وتوسع وزوال عالم الغرب القديم. أيّ دراسة أو بحث في تاريخ الغرب وعالم الغرب القديم لا بد أن يبدأ من «المدينة اليونانية في إطار تاريخ الغرب»، أو بمعنى آخر «الغرب اليوناني»، الذي يُشار إليه أيضًا باسم «الحضارة الكلاسيكية اليونانية». سنناقش لاحقًا «مقدونيا» و«روما» باعتبارهما حلقات أساسية في تطور عالم الغرب القديم، بإذن الله. ولكن الآن، حان الوقت لتناول المدينة اليونانية بوصفها نقطة البداية لعالم الغرب القديم.

---

١. دورانت، يونان باستان، ٨٣.

اعتبر اليونانيون القدماء عام ٧٧٦ ق.م، الذي شهد إقامة أول دورة أولمبية في بلادهم، بدايةً لتاريخهم. وكما تُظهر لنا المعلومات والشواهد والوثائق، فإنّ المدينة اليونانية كانت أول شكل لظهور تاريخ الغرب، حيث بدأت بالتدريج في التبلور خلال القرن الثامن قبل الميلاد. كانت المدينة اليونانية قائمة على مجموعة من دول-المدن الصغيرة والمستقلة بعضها عن بعض. ورغم استقلالها، فإنّها كانت تشترك في إحساسها بالانتماء إلى الهوية اليونانية وفي وجودها ضمن عالم تاريخي واحد، مع وحدة لغوية تقريبية قائمة على التحدث بلهجات مختلفة من اللغة اليونانية، بالإضافة إلى المشاركة في ذكريات قومية، والعديد من التجارب التاريخية، والمعتقدات الثقافية والدينية المشتركة. كانت هذه الدول-المدن كلها تحت مظلة روح شاملة وموحِّدة يمكن وصفها بأنّها «روح يونانية غربية» تتجلّى من خلالها معالم عالم الغرب اليوناني. هذه الروح اليونانية الكلاسيكية، التي تشكل الجوهر والباطن للمدينة اليونانية، تتجلّى بشكل خاص في الأدب، والمنظومات الشعرية، والكتب الفلسفية التي كُتبت بعد القرن الثامن قبل الميلاد.

نبدأ بعرض المكوّنات الجوهرية والخصائص العامة للمدينة اليونانية بشكل مجمل، ثم نسعى لاحقًا إلى شرح هذه المكوّنات الجوهرية بشكل تفصيلي. إنّ الحضارة اليونانية الكلاسيكية (المدينة اليونانية)، التي تمثّل المرحلة الأولى والأساسية لعالم الغرب القديم (الغرب اليوناني-الروماني) وأول شكلٍ لظهور تاريخ الغرب، تتسم بالمكونات الجوهرية التالية:

١. الغرب اليوناني-الروماني (الغرب القديم)، وبالتبعية المدينة اليونانية، يتّسم بطبيعته الكَونَويّة.

٢. العدمية (النيهيلية) في الغرب القديم، وبالتالي العدمية اليونانية، تحمل طبيعة كَونَويّة.

٣. المدينة اليونانية، بمعناها المتمحور حول الكون، هي ذات طبيعة علمانية.

٤. الصورة المثالية للإنسان اليوناني تتمثل في «البطل-المواطن».

٥. اليونان الكلاسيكية تمتلك نظامًا «مدينيًا» يتمحور حول مفهوم البوليس[1] (المدينة)، في إطار محورية الكون. المدينة اليونانية لعبت دورًا بالغ الأهمية والحسم في حياة الإنسان اليوناني وكليّة حياة اليونان.

٦. النظام المدني اليوناني يرتبط ارتباطًا وثيقًا ولا ينفصل عن نظام العبودية.

٧. في اليونان، تسود صورة من الديمقراطية يمكن وصفها بالديمقراطية الكَونَوية، أو الديمقراطية المدينية، أو الديمقراطية القائمة على العبودية.

٨. العالم اليوناني، باعتباره أول شكل لظهور تاريخ الغرب، أفرز في ظهوره التاريخي نوعًا من التفكير الحصولي الذي يمكن تسميته «تفكيرًا عدميًا حصوليًّا منفصلًا عن الوحي ومتمحورًا حول الكون». هذا النمط من التفكير، الذي ينبع من الطبيعة الحصولية للميتافيزيقا اليونانية ومن طابعها الأساسي المتمثل في التساؤل الحصولي المستلهم من العقل المنفصل عن الوحي حول الوجود وأعم القضايا المتعلقة به، يمكن وصفه أيضًا، من وجهة نظر معينة، بأنه «ميتافيزيقا عدمية منفصلة عن الوحي الحصولية». هذا التفكير يجد جذوره في التصورات الهومرية، وفي سيطرة محورية الكون على رؤية الإنسان اليوناني للعالم والإنسان، لكنه يتخذ شكلًا واضحًا ومحددًا في آراء المفكرين الطبيعيين في القرن السادس والخامس قبل الميلاد، مثل «طاليس»، «أناكسيمندر»، «أناكسيمينس»، «كزينوفانس»، «هيراقليطس»، «بارمنيدس»، «إمبيدوكليس»، «أنكساغوراس»، و«ديمقريطس» وغيرهم. وفي مسار تطوره وتوسعه، شهد هذا التفكير تحولات وتغيرات على يد السفسطائيين، ليأخذ شكلًا جديدًا مع ظهور الفكر السقراطي

1. polis

والأفلاطوني-الأرسطي. هذا التفكير يستفيد من الإرث الفكري للأساطير ما قبل الغربية اليونانية كمادة لصورة العدمية الكَونَويّة المنفصلة عن الوحي والحصولية. وفي مسار تطوره، يضفي هذا التفكير بأشكال مختلفة طابعًا نظريًا وفلسفيًا على العالم اليوناني. تظهر هذه الميتافيزيقا العدمية، التي تتخذ في اليونان القديمة هيئة نوعٍ من الميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة، وتستمر في التوسع والتطور عبر أنظمة فلسفيةٍ مختلفة في المراحل اللاحقة من تاريخ الغرب. ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تصل هذه الميتافيزيقا إلى تمامها مع اكتمال الحداثة وإتمام تاريخ الغرب، وتنعكس في أشكال الفكر ما بعد الحداثي وصوره المختلفة ذات الطابع الجديد-السفسطائي. تجسد هذه الصور كطقوس لانحطاط تاريخ الغرب وعالمه الحديث، مشيرةً إلى المصير الحتمي لهذا العالم نحو الزوال والانقراض.

٩. العالم العَدَمي الكَونَويّ في الفكر اليوناني أفرز نموذجًا للأخلاقيات، كان أحد مظاهره النظام الأخلاقي الهومري. يمكن اعتبار النظام الأخلاقي الهومري الركن الأساسي والجوهري في بنية الأخلاقيات اليونانية الكلاسيكية. ومع ذلك، شهدت الأخلاقيات اليونانية تطورات ملحوظة مع ظهور الطبيعيين، ثم السفسطائيين، وبعدهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكذلك في القرون اللاحقة. إلا أنّه يمكن القول بثقة إنّ النظام الأخلاقي الهومري ظل بمثابة الهيكل الأساسي والقاعدة الراسخة التي دعمت جميع مراحل الحياة المتغيرة والمضطربة للحضارة اليونانية، كما أسهم في توسيع وتفصيل أوجهها المختلفة. وقد لعب هذا النظام دورًا مهمًا وجوهريًا، بل وأحيانًا حاسمًا، في تشكيل الأخلاقيات اليونانية وتطوراتها على مر العصور.

نسيان الولاية الإلهية وهيمنة حجاب الكَونَوية

يبدأ تاريخ الغرب بالنسيان وإنكار عهد الأمانة. في أول ظهور له بهيئة عالم

الغـرب اليوناني-الروماني، يُلقي تاريخ الغرب حجابًـا من محورية الكون على الولاية الإلهية والحضور والهداية القدسية. في الغرب اليوناني-الروماني، يصبح الكون مركزًا ومحورًا، ليحلّ محل الإلهية وولاية الله، وأيضًا محل محورية الآلهة في التاريخ الأسـطوري للشرق. إنّ محورية الكون هي أول شكل للحجاب الذي يفرضه نسـيان وإنكار تاريخ الغرب على الولاية الإلهية. وجوهر محورية الكون هو نوع من نسيان السيادة الإلهية والحضور والهداية القدسية، وبالتالي، هو شكل من أشكال الكفر والجحود والظلم.

العـالم اليوناني يتحقق مـن خلال الرجوع إلى الكـون وإعطائه الأصالة. في عالم الغرب القديم، يصبـح الكون وأصالته حجابًا على عهد الأمانة، وبناءً على هذا الحجاب، يتشـكل عالم قائم على الغفلة والنسيان تجاه الولاية الإلهية. يمثّل الكـون في العالم اليوناني ليس فقط العالم بمفهومه المـادي، بل أيضًا نظامًا عالميًا شـاملًا. في تصور اليونانيين، هذا النظام العالمي (الكون) لم يُخلَق من قِبَل أيّ إله أو إنسـان. الكون كان دائمًا موجودًا وسيبقى موجودًا إلى الأبد، ويجب أن تُعاد جميع الأمور إليه. الكون، بصفته نظامًا عالميًا منظّمًا، هو الأساس والمعيار والمحور الذي تدور حوله جميع الأمور. الحقيقة تتجلّى في الكون ومن خلاله، والسـعادة والهناء يتحققان باتبـاع هذا النظام الكَونَويّ. يجب البحث عن المقياس والمعيار لـكل شيء داخل الكون. يمكن القـول إنّ الكون في العـالم اليوناني-الروماني يحظـى بمكانة وقيمة كبيرة قـد تصل إلى حد ما إلى نوع من القداسـة. وقد عبّر هيراقليطوس عن هـذه النظرة اليونانية للكون كأمر خالـد بقوله: «هذا النظام العالمـي، الذي هو واحد للجميع، لم يخلقه أيّ مـن الآلهة ولا أيّ من البشر، بل كان دائمًا موجودًا، وهو موجود الآن، وسيبقى موجودًا دائمًا. إنه نار أزلية حيّة،

تشتعل بقدر معين وتنطفئ بقدر معين»[١].

في الغرب القديم، «الكـون» هو العالم والنظام الذي يحكم العالم وله جانب ظاهر وواضح. هذا الجانب الظاهر يُعرف في اللغة اليونانية بـ«فوسيس». بمعنى آخر، «فوسـيس» في العالم اليوناني تعني «ظهور الباطـن». لقد تُرجم مصطلح «فوسـيس» إلى «الطبيعـة»، ولكـن إذا نظرنـا إلى الطبيعة بمنظورها الإنسـاني (الأومانيستي)، فإنّها لا تعادل «فوسيس» اليوناني. «فوسيس» في اللغة اليونانية يحمـل معنى أعمق وأوسـع من مفهـوم الطبيعة في الفكـر الحداثي. في الغرب الأومانيستي، تُعتبر الطبيعة مصدرًا للطاقة ومكانًا لاستخراج الموارد والتصرف النفـسي فيها. أما في العالم اليوناني، فإنّ «فوسـيس» هي الجانب الظاهر للكون. في العالم اليوناني، «لوغوس» يعني «نطق فوسـيس». لوغوس يشير إلى «القانون العالمي أو عقل العالم الذي يتسـم بالشـمولية، ويحكم الوجود، ويتجلّى في كل شيء وفي كل مكان. الظواهر الكَونَويّة تجري وفقًا له وكأنّها تنسجم معه، ومثاله العقل في الإنسان»[٢].

الكون يتجاوز فوسيس، حيث إنّ فوسيس هو فقط الجانب الظاهر والمشهود مـن الكون. أما الجانب الأكبر من الكون، فيبقى خفيًا ومسـتورًا. لوغوس هو نطق فوسـيس، ومن خلال الحديث عن فوسيس يتحدث عن النظام الكَونَويّ ونظمه:

«الفكـر اليوناني حول الكون يقدّم تصـورًا للوحدة الوجودية للعالم، حيث يصبح الكون مركزًا ومحورًا رئيسـيًا ومعـادلًا للوجود. مركزية الكون في الفكر

١. . منقول في: ريخته‌گران، حكمت هراكليتوس، ١٢.
٢. م. ن، ١٠.

اليونـاني تجعل الكون حجابًا عـلى حقيقة الوجود، حيث يُعتـبر الكون معادلًا للوجـود ذاته. وبهذا الشـكل، يجب أن يُنظر إلى الإنسـان والإلـه والآلهة وكل الأمور الأخرى على أنّها تقع تحت مظلة الكون بوصفه الوجود»[1].

في عـالم الغـرب القديم، يُعتبر الكـون جوهر الوجود. الآلهة، وفوسـيس، ولوغـوس، والبـشر، وجميـع أوجه الحيـاة والمفاهيـم الأخلاقية والسياسـية والاجتماعيـة تعود جميعها إلى الكـون، وتخضع له، ويجـب أن تُفهم من خلاله (وفقًـا لمبدأ محورية الكون). بالمعنى الدقيق للكلمة، يمكن القول إنّ جميع أوجه العالم اليوناني تخضع بطريقة أو بأخرى لمبدأ محورة الكون. الفكر اليوناني، سواء في صورته «الهومرية–الهسيودية» أو في هيئته العدمية المنفصلة عن الوحي والمبنية على الفكر الحصولي، الذي ظهر مع ما يُعرف بجماعة الطبيعيين (بدءًا من طاليس في أواخر القرن السـابع قبل الميلاد وانتهاءً بديموقريطس في أوائل القرن الرابع قبـل الميلاد)، كان دائمًا تحت سـيطرة محورية الكون. هـذا الفكر يعكس في كل مرحلـة من مراحله طبيعة محورية الكون بشـكل أو بآخر، ويتطور إلى أشـكال أخرى. كتب «فيرنر ييغر» حول آراء المفكرين الطبيعيين اليونانيين قائلًا:

«أقدم الفلاسفة الطبيعيين كانوا يسعون إلى رؤية الكون ككلٍ تحكمه قوانين موحـدة... لم يقوموا بجمع نتائـج الملاحظات الجزئية المنفصلـة لتكوين نظام اسـتنتاجي مجرد، بل تجاوزوا ذلك بكثير، حيث فسّروا كل واقع فردي اسـتنادًا إلى صورة واحدة شـاملة. هذه الصورة الكلية هـي التي تمنح لكل واقع جزئي موقعه ومعناه بوصفه جزءًا من كل متكامل»[2].

---

1. Smith, The Origins of Philosophy, 34.

٢. يگر، پايديا، ١: ٢٧.

المدينة اليونانية، في تاريخها المدوّن والمكتوب، لا تحمل أيّ دليل أو أثر لوجود نبي أو رسول. في اليونان الكلاسيكية، كان هومر وهسيود وشعراء آخرون مفسِّرون لأعمالهم هم أول المعلمين والمرشدين للشعب. وبعد فترة قصيرة، مع ظهور المفكرين الطبيعيين التابعين للتفكير الحصولي والكَونَويّ، ثم السفسطائيين، وأعقبهم الفلاسفة السقراطيون وما بعد السقراطيين، أصبح المفكرون العدميون التابعون للتفكير الحصولي [الميتافيزيقيون العدميون ومِن بعدهم الفلاسفة العدميون اليونانيون] هم المعلّمين الرئيسيين للشعب. لم يسجّل العالم اليوناني أيّ أثر أو إرث يدل على حضور ديني أو ظهور رسالات سماوية. ولا شك، وبناءً على الاعتقاد الديني، أنّ الله قد أرسل أنبياء إلى اليونانيين أيضًا. ولكن حتى في حقبة ما قبل الغرب، كان اليونانيون ينظرون إلى هؤلاء الأنبياء وتعاليمهم بنظرة غفلة وإنكار، مما أدى إلى عدم تسجيل أيّ ذكرى أو أثر عنهم. بدأ عالم الغرب اليوناني بطبيعته مع النسيان تجاه الولاية الإلهية والعهد الإلهي، ومع نسيان التوحيد والنبوة والمعاد.

«في اليونان، لا يظهر الرجال العظام في هيئة أنبياء أو مبلّغين لأوامر إلهية، بل يتجسّدون كمعلّمين مستقلين للشعب، يعملون على تشكيل وتوجيه الأهداف القومية... المعلّمون الثلاثة في اليونان، الشاعر، ورجل السياسة، والحكيم [الفيلسوف]، هم أعظم القادة رفعة في الأمة»[١].

التفكير القائم على محورية الكون هو تفكير دنيوي، معادٍ للدين ومُقصٍ له، غارق في الغفلة ومُحجَّب بأستار الظلم والشرك والكفر. ومع ذلك، فإنّ شركه وكفره يتمحوران حول مركزية شيء يُسمّى الكون، الذي أصبح كالحجاب

١. م. ن، ٣٣.

يهيمن على قلوب وعقول اليونانيين. في العالم اليوناني، طُمست فكرة الله وعبادة الذات الإلهية المقدسة والخضوع لولايته، وحلَّ حجاب الكون محل الإله في العالم الديني، ومحل الآلهة في العالم الأسطوري، باعتباره الوجود والأصل والمبدأ والمعيار والمحور لكل الأمور. زيوس وسائر الآلهة، التي تحتلّ مراتب أدنى من زيوس، هم جميعًا مظاهر وجوانب من الكون أو يكتسبون معناهم ضمنه. أما فوسيس (وهو ما أُطلق عليه لاحقًا في اللاتينية اسم Natura وترجم إلى طبيعت في الفارسية)، فهو مجرد وجه من أوجه ظهور الكون. ومع ذلك، فإنّ للكون أبعادًا مختفية وغير ظاهرة بعد. أما لوغوس، باعتباره نطق فوسيس أو لغته، فهو يحثّنا على التفكير في الكون كنظام عالمي. فالكون هو الحقيقة ذاتها، ولوغوس باعتباره نطق فوسيس، في الواقع يتحدث عن النظام الكَونَويّ. ولهذا يقول هيراقليطوس: «الحكمة ليست في الإصغاء إليّ، بل إلى اللوغوس»[١]. تكمن أهمية اللوغوس في علاقته بفوسيس والأهم من ذلك بالكون، لأنّه يتحدث عن القانون الأزلي والأبدي الذي يحكم الوجود والحياة. وإذا تأملنا الفكر اليوناني، نجد أنّه عندما يقول هيراقليطوس وبعض المفكرين الآخرين ذوي نزعة محورية الكون: «كل شيء واحد»، فإنّهم يقصدون أنّ كل شيء هو الكون، وهذا تعبير آخر عن أصالة الكون أو ما يُعرف بالكونوية. إنّ النزعة الكونوية، بسبب الأصالة والمركزية والمحورية التي تُعطى للكون، ولأنّها تتجاهل الحضور والهداية القدسية الولاية الإلهية، تكتسب طبيعة كافرة ومشركة، وتُحرَم من نور الهداية الإلهية. ولهذا السبب، لا يمكن اعتبار العالم اليوناني، وبالتالي الفكر اليوناني، بأيّ حال من الأحوال فكرًا دينيًا. ولكن إذا كان الفكر اليوناني ذو نزعة كونوية

١. ريخته‌گران، حكمت هراكليتوس، ١٠.

لا يحمل طابعًا دينيًا، فكيف يمكن تفسير وفهم كل تلك الإشارات والتعبيرات التي ترد في النصوص الأدبية والفلسفية اليونانية عن الآلهة، والطقوس الدينية، وما شابه ذلك؟

حول طبيعة العالم اليوناني غير الدينية

حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، في إحدى المستعمرات اليونانية الواقعة في آسيا الصغرى، تم نظم أشعار ملحمية تحت اسم الإلياذة والأوديسة، وهما منظومتان أدبيتان لعبتا دورًا بارزًا ومؤثرًا في حياة العالم اليوناني وحياة اليونانيين القدماء. ظهرت آراء واختلافات كثيرة حول مؤلف أو مؤلفي هاتين المنظومتين، وحول ما إذا كان محتواهما يتحدث عن أحداث ووقائع تاريخية حقيقية أو أنّهما مجرد مجموعة من الأساطير. وقد شاع الرأي بأنّ الإلياذة والأوديسة هما من نظم شخص يُدعى «هوميروس». سواء كان ناظم الإلياذة والأوديسة شخصًا واحدًا أو أكثر، وأيًا كان هو أو كانوا، لا شك في هذه الحقيقة المهمة: هاتان المنظومتان، المعروفتان على أيّ حال باسم شعر هوميروس، تمثلان بداية الأدب اليوناني، بل وأكثر من ذلك، بداية الأدب الغربي. الإلياذة والأوديسة، بلا شك، تمثلان مرآة تعكس روح العالم اليوناني والإنسان اليوناني الكلاسيكي.

«الأدب الغربي يبدأ مع هوميروس. الملحمتان البطوليتان العظيمتان، الإلياذة والأوديسة، ظهرتا بشكلٍ مفاجئٍ، إذ لا نعلم شيئًا عن الشعر الذي سبق هاتين الملحمتين، ولم يكن تأليف الكتب النثرية قد بدأ في ذلك الوقت. هاتان الملحمتان لم تفقدا أبدًا مكانتهما لدى اليونانيين القدماء. كان هوميروس تابعًا لإرشاد «فيرجيل»، الذي أصبح بدوره معلّمًا وقدوةً لكلٍّ من دانتي وملتون. غير المنظومات الشعرية المنسوبة إلى هوميروس، لا نعلم شيئًا عنه. عندما بدأ

اليونانيون كتابة السير الذاتية، لم يعثروا على أيّ وثيقةٍ مكتوبةٍ عن الرجل الذي اعتُبر مصدرًا لأعظم كنوزهم الأدبية. هناك فقط قصةٌ رومانسيةٌ تقول إنّه كان مغنيًا متجوّلًا كفيفًا. ينسب اليونانيون كلتا الملحمتين إلى شخصٍ واحدٍ، على الرغم من وجودِ قلّةٍ تعتقد أنّ الملحمتين هما من عملِ شاعرين مختلفين ... شخصية هوميروس ضاعت في عظمة الإبداع الهومري، واسمُه في الحقيقة لا يعدو كونه مجرد مرادف للإشارة إلى هاتين الملحمتين. تشير الدراسات المتنوعة في مجالات اللغة، وعلم الآثار، والتاريخ إلى أنّه حوالي عام ٧٢٥ قبل الميلاد، في مكانٍ ما على ساحل آسيا الصغرى أو في إحدى جزر بحر إيجه، قام شاعرٌ عظيم بتخطيط كتابة الإلياذة، وربما بعد جيلٍ واحد فقط، قام شاعرٌ آخر بإنشاء الأوديسة. منذ اللحظة التي ظهرت فيها هاتان الملحمتان، لم تفقدا أبدًا مكانتهما أو زخم شعبيتهما. ولم تبتعدا عن الأنظار في أي وقتٍ من الأوقات. منذ أن وُجدت المنظومات الهومرية، كانت دائمًا لها جمهورها من القراء، أولًا في اليونان، ثم بعد ذلك في أوروبا الغربية»[١].

ملحمة الإلياذة والأوديسة (سواء كان هوميروس هو مؤلفها أم لا) عُرفت بمنظومات هومرية، وذلك بسبب التأثير الكبير الذي تركته في حياة وثقافة وفن وآداب اليونان. كما أنّه في هاتين الملحمتين ظهرت صور مختلفة من الروح والطبع والعناصر الأساسية التي تُشكّل الهوية اليونانية. وبفضل الدور المهم الذي لعبته هذه الأعمال من الناحية التعليمية في وصف وتفسير وعرض رؤية العالم اليونانية، فقد حظي هوميروس باحترامٍ كبير في عالم اليونان، لا بوصفه مجرد شاعر متجول عادي، بل كمُعلّمٍ ومربٍّ عظيم. يقول فيرنر يغر: «يقول أفلاطون إنّه في زمنه

١. گريفين، هومر، ٧، ١٤ – ١٦.

كان معظم الناس يعتبرون هوميروس معلّمًا لجميع اليونانيين»[١].

الأدب الهومري يُظهِر لنا المؤلِّفات الأساسية والمستدامة لعالم اليونان. إنّ الرؤية الكَونَويّة للهومر تمثل المرحلة الأولى من التفكير اليوناني العدمي الكَونَويّ، وتكشف عن جوهر هذا الفكر بوضوح. كما أنّها تشكّل الأساس الذي يتم عليه توسيع وتطوير تاريخ الفكر اليوناني، حيث يظل جميع تطوراته وتوجهاته مبنيًا على هذا الأساس.

يقول فيرنر يغر: «الأدب اليوناني، بمعنى ما كان يقصده مؤلفوه، هو تعبير عن تشكيلية المثال اليوناني»[٢]. إنّ أقدم وأهم أثر أدبي مكتوب من مدينة اليونان في فجر تاريخ الغرب وبداية عالم الغرب هو منظومتا هومر. يجب أيضًا أن نلفت الانتباه إلى نقطة هامة، وهي أنّ الإلياذة والأوديسة كانت تُعدّ منذ القدم من الأعمال القيّمة في نظر اليونانيين. فقد كانت تُستخدم في اليونان القديمة، بحسب ما ذكر أحد المؤرخين، باعتبارها «منظومات وطنية تهدف إلى إيقاظ حس الاتحاد فيهم»، وكان «اليونانيون يعاملونها مثل الكتاب المقدس، عزيزة ومكرمة»[٣]. في الواقع، في عالم اليونان، لم يكن للكتاب المقدس السماوي أيّ ظهور أو تأثير؛ وبدلًا من ذلك، كانت الروح العلمانية الغربية اليونانية تُعلي من شأن أشعار هومر كأنّها نصوص مقدسة (والعياذ بالله). يقول مايكل غرانت حول دور منظومات هومر في اليونان القديمة:

«كانت أشعار هومر أكثر تأثير ثقافي على اليونانيين، وقد شكّلت أساس

---

١. يگر، پايديا، ٨٠.

٢. م. ن، ٣٥.

٣. بهمنش، تاريخ يونان قديم، ٥٥.

النظرات الأدبية والفنية والأخلاقية والاجتماعية والتعليمية والسياسية لهم»[١].

الإلياذة والأوديسة هما ملحمتان شعريتان تتناولان حرب طروادة (الاجتياح العسكري الذي قاده أجاممنون وغيره من قادة و زعماء اليونان في فترة حضارة الأكيين ضد طروادة). «تبدأ مشاهد الإلياذة بصراع بين أجاممنون و«أخيلوس» [البطل الشهير بين اليونانيين] حول توزيع الغنائم»[٢]. تدور أحداث الإلياذة أساسًا حول معركة طروادة وسعي اليونانيين للاستيلاء على تلك المدينة. أما ملحمة الأوديسة فتروي قصة عودة «أوديسيوس» (أحد أبطال تلك الحرب الذي كان أيضًا أحد ملوك اليونان المحليين) إلى وطنه. عودة مليئة بالأحداث والمغامرات التي تقع في إطار علاقة رومانسية معقّدة.

«الخصائص اللغوية والفكرية والبنائية في الأوديسه قد جعلت العديد من الباحثين يعتقدون أنّ هذه القصيدة كُتبت بعد الإلياذة وتأثرت بها. في العصور القديمة، كانت هذه القصيدتان تُنسبان إلى شخص واحد، لكن اليوم، من بين المفكرين الذين بحثوا في هذا المجال، فقط عدد قليل يقبلون هذه الفكرة. الرأي الشائع الآخر كان أنّ الإلياذة كُتبت في فترة شباب الشاعر، بينما الأوديسه هي نتاج سنوات شيخوخته. يتفق هذا الرأي مع حقيقة أنّ «الأوديسه» حاولت تضمين تقرير عن الأحداث المهمة التي حدثت بين نهاية الإلياذة وبداية الأوديسه ... قصة العودة البسيطة للبطل إلى وطنه قد توسعت بشكل كبير»[٣].

ما يظهر في المنظومات المنسوبة إلى هوميروس، والتي تُعرف باسم «الأشعار الهومرية»، لا تكمن أهميته الكبرى في أحداث حرب طروادة وأبطالها بحد ذاتها،

١. ناردو، يونانيان باستان، ٢٥.
٢. گريفين، هومر، ١٠.
٣. م. ن، ٧٨ - ٧٩.

بل في إعـادة القراءة التي قام بها هوميروس، أو أيّ شـاعر آخر، لهذه الحوادث وتقديمها في شكل رواية شـعرية منظومة. هذه الرواية الشعرية الملحمية، التي تسـتند إلى إعادة قراءة للأحداث القديمة من منظـور الفكر العدمي الكَونَويّ، ظهرت مـع بزوغ فجر تاريـخ الغرب وبدايـة العالم اليوناني. مـن خلال هذه المنظومات الملحمية، نواجه مظاهر ومسـتويات وزوايا متعـددة للعالم اليوناني الغربي، ونلمس بوضوح روح الغرب اليوناني. نتعرف في هذه النصوص على أول وأحيانًا أهم أشـكال الفكر اليوناني القديم، وعلى العناصر الأساسية المستدامة التي تشكل هوية الفكر الكَونَويّ اليوناني، التي ظلّت حاضرة ومتمددة عبر كافة مراحـل العالم الغربي اليوناني–الروماني. تكمن أهميـة الرؤية الكَونَويّة الهومرية التي تجلّت في الإلياذة والأوديسة أساسًا في هذا الجانب.

هومـيروس يُظهر لنا أنّ العالم اليوناني ليـس عالمًا للأخلاق أو الروحانية أو العدالة أو الدين. حتى المثـال الأعلى والأيديولوجيات التي تبنّاها اليونانيون لم تكن أخلاقيـة أو روحانية أو دينية أو قائمة على العـدل. هوميروس يصف لنا العناصر الأساسية التي تشكّل روح اليونانيين والمدنية الكَونَويّة اليونانية، ويُظهر لنا أنّ اليونانيين كانوا شعبًا عنيفًا وظالمًا ومعتديًا وماكرًا ومشركًا. أكثر من ذلك، فـإنّ الصورة النموذجية التي تحكم العـالم اليوناني تحمل مضمونًا مشركًا وظالمًا وغـير ديني، حيث تُبجل الطغيان والظلم والمكر والخداع والدنيوية والعدوان. بهـذا المعنى، يتضـح بجلاء أنّ تاريخ الغـرب يبدأ بالشرك والظلـم والعدوان والعنف والمكر وإنكار الحق، ويتطور على هذا الأساس. تاريخ الغرب هو تاريخ النسـيان والإنكار للولاية الإلهية، وبالتالي لا يمكن أن تكون له روح أو جوهر سوى معاداة الحق، ومعاداة الدين، والظلم، والعدوانية، والشرك، والكفر.

عالم الغرب اليوناني، من حيث مسار التطور الفكري، قد مرّ بعدة مراحل تحت إطار العدمية الكَونَويّة.

١. تفكيرُ هومر العدمي، الذي يتمحور حول الكون وله هيئة شعرية حربية ويتجلّى في أشكال منظومات ملحمية حماسية ذات طابع بطولي. تُعدّ محورية الكون الهومرية المرحلة الأولى من ظهور الفكر العدمي اليوناني الكَونَويّ، ويتجسد أساسًا في هيئة الأشعار الملحمية، عبر الشعر والحضور الأدبي الذي يبرز فيها. لا تحتوي محورية الكون الهومرية على بعدٍ تجريدي أو حصولي-استدلالي، بل يُعبَّر عن روحه العدمي الكَونَويّ من خلال التفسير العدمي للآلهة والبشر والعالم والإنسان. تأثير الرؤية الكَونَويّة الهومرية يمتد عبر تاريخ اليونان القديم، ويتجاوز ذلك ليشمل جميع مراحل العالم الغربي اليوناني-الروماني، وحتى (من بعض النواحي) جميع فترات تاريخ الغرب، ويظهر بوضوح. رغم أنّ درجة هذا التأثير وطبيعته واختلافاته كانت متغيرة على مر العصور والمراحل التاريخية المختلفة. لا شك أنّ هومر كان معلم العالم الغربي اليوناني، وتأثير تعاليمه العميقة والمستدامة في المدينة اليونانية والعالم الغربي القديم يظهر بوضوح. وقد تجسد روح المدينة اليونانية، بل يمكن القول، روح الغرب القديم في البيان التصويري والشعري للأشعار الهومرية. ينبغي أن يُنظر إلى الأدب الهومري كنقطة انطلاق للفكر العدمي اليوناني المنفصل عن الوحي والمتمحور حول الكون.

٢. المرحلة الثانية، التي تمثّل استمرارًا وتوسّعًا للمرحلة الأولى، هي مرحلة ظهور الفكر الحصولي العَدَمي الكَونَويّ في هيئة «الفكر الحصولي العَدَمي الطبيعي المنفصل عن الوحي اليوناني» (الميتافيزيقا العدمية الحصولية الطبيعية المنفصلة عن الوحي). في هذه المرحلة، يمكن بوضوح ملاحظة حضور وتأثير

العناصر الأساسية للرؤية الكَونَويّة الهومرية.

٣. المرحلة الثالثة، التي تُعدّ امتدادًا للمرحلتين السابقتين، هي ظهور روح العدمية الكَونَويّة اليونانية في هيئة آراء السفسطائيين. في هذه المرحلة، وبالتزامن مع ظهور الأزمة في المدينة اليونانية، تظهر على الفكر الكَونَويّ اليوناني علامات الأزمة والقلق.

٤. المرحلة الرابعة هي مرحلة استمرار الميتافيزيقا العدمية اليونانية في هيئة أنظمة فلسفية، وهي بحد ذاتها تنقسم إلى مراحل وفترات مختلفة. حاليًا، لا يتسع المجال للتعمق في الجوانب والمراحل المتنوعة للفكر العَدَمي الكَونَويّ اليوناني. لكن من أجل متابعة النقاش حول جوهر العالم اليوناني غير الديني وظهوره في الفكر الكَونَويّ اليوناني، سنناقش الرؤية الكَونَويّة الهومرية، التي تُعدّ الركن الأساسي والمستدام للفكر اليوناني، والتي تعكس العناصر الجوهرية والأساسية للمدينة اليونانية.

في الرؤية الكَونَويّة اليونانية التي يرسمها هوميروس، تظهر الآلهة، ولكنها تمرّ عبر فلتر العدمية اليونانية، مما يفقدها السموّ والقداسة. الآلهة اليونانية تحمل طباعًا وصفات بشرية بشكل عميق. فهي تمارس الشهوات، وتشعر بالحسد والضيق، وتقع في حب البشر، وتكذب، وتُعلي من قيمة الخداع والمكر والكذب. الآلهة اليونانية لا تتجنّب الظلم، وهي متورطة في قضايا ومشاكل ذات طابع بشري. الفرق الأساسي بين الآلهة والبشر يكمن في أنّ الآلهة أقوى من البشر وهي خالدة، بينما البشر ضعفاء وفانون.

«الآلهة التي كان اليونانيون يعبدونها كانت تجسيدًا لمهارة وجمال البشر. [كان اليونانيون] يعبدون كائنات شبيهة بهم، مع يقينهم بقوتها واعتقادهم بأنّ

الآلهة لن تساعد الضعفاء. الفارق الوحيد بين الآلهة والبشر كان يتمثل في تفوّق الآلهة في القوة ومناعتها ضد الموت. يشير هيرودوت إلى أنّ اليونانيين يختلفون عن الشرقيين الآخرين لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الآلهة تمتلك الطبيعة ذاتها التي يمتلكها البشر. آلهة هوميروس لا تختلف كثيرًا عن البشر في الصفات، باستثناء امتلاكها قوةً أكبر وحياةً أبدية. في حرب طروادة، تقف الآلهة بعضها ضد بعض، وتتآمر بالخداع، وتتشاجر، وتتمرّد على أوامر من هو أعلى منها مرتبة، وتُظهر رغبات جنسية وعواطف بشرية أخرى. السمة البارزة لدين هوميروس هي طابعه الإنساني ... في الدين الهومري، لا يوجد فصل بين الألوهية والطبيعة؛ بل إنّ العالَم الطبيعي ممتزج بالقوى الإلهية، وتظهر الآلهة من خلال الأحداث الطبيعية. لم تكن آلهة الأولمب تلتزم بالأخلاق، حتى بمعايير بشرية، ونادرًا ما كانت تظهر أيّ نوع من الرحمة. في الواقع، كانت هناك قوى سماوية تدفع عمدًا إلى أفعال جنونية وغير أخلاقية. لم يكن اليونانيون الأوائل يعتبرون الطبيعة شيئًا منفصلًا عن الإنسان، بل كانوا يرون البشر ككائنات طبيعية تمامًا. وفقًا لتصورهم، فإنّ طموحات الإنسان المتعلقة بالجمال والأخلاق والعدالة موجودة بشكل طبيعي في تطور الإنسان ذاته، وهي متوافقة مع العمليات التي تحدث في العالم الطبيعي، ولا تنبع من مصدر متعالٍ. بعد فترة من اعتماد الطبيعة كهادٍ ومرشد، بدأ اليونانيون تدريجيًا يفقدون الاعتقاد بأن الطبيعة ممتزجة مع الصور المثالية ومبادئ العدالة»[١].

في تحليل آخر، كتب أحد المنظّرين في تاريخ العصور القديمة والوسطى في الغرب ما يلي:

«في اليونان القديمة، كانت الطبيعة محور كل الأمور، وبعد الطبيعة كان

١. بمفورد باركز، خدايان و آدميان، ١٥٨ – ٦١، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١.

الإنسان بوصفه جزءًا من الطبيعة يأتي في المرتبة التالية، ثم بعده مفهوم الألوهية، الـذي كان يمثّل تصورًا غير ديني [غير توحيـدي] عن الإله. في الواقع، كانت الطبيعة تمثل تجليًا وجزءًا من الكون، وفي النهاية، كان كل شيء يعود إليه، حيث كان الكون خالدًا وأصل كل شيء»[1].

يقول «ترنس إرفين» عن علاقة اليونانيين القدماء بالدين وتفسيرهم للآلهة:

«لم يكن لدى اليونانيين نص مقدس مثل الكتاب المقدس أو القرآن. كان لديهم فقط ملحمتان طويلتان منسـوبتان إلى هوميروس، وهما الإلياذة والأوديسة... ومـع ذلك، كانت هذه النصوص، بقدر مـا كان العديد من اليونانيين المتعلّمين يدرسـون أشـعار هوميروس، تُعامَل على نحو مشـابه للكتاب المقدس. حتى بعد ألف عام من عصر هوميروس، كان أوغسـطين يدرس هذه الأشعار. كان الأثينيون يستمعون إلى هذه الأشعار من خلال نقّالين في المحافل العامة. استقى العديد من اليونانيين تصوراتهم الأساسية والمهمة عن الآلهة وعلاقتها بالبشر من أعمال هوميروس. لذا، ليس من المستغرب أنّ الفلاسفة اللاحقين كانوا يقتبسون بانتظام من هومـيروس ويُلمّحون إلى أعماله. يُضفي هوميروس صفة إنسـانية على الآلهة. في هذه الأساطير، تبدو الآلهة متطابقة بشكل وثيق مع قوى الطبيعة، وأحيانًـا تبدو وكأنّها واحـدة معها. كانوا كائنات تجمع بـين البشري والحيواني وغالبًا ما يظهرون بشـكل مرعب. من خلال البحث عـن القوانين والنظام في العمليات الطبيعية، بدأ هوميروس رحلة فكرية أثّرت بشكل عميق على الفلسفة والعلم اليونانيين – بل والعالميين»[2].

يكتب « والتر فريدريك أوتو» في دراسته عن دين اليونانيين القدماء:

1. Smith, The Origins of Philosophy, 86-87.

٢. اروين، تفكر در عهد باستان، ٢١ – ٢٢، ٣١.

«الإله في عالم هومـيروس ليس كائنًا متعاليًا وفـوق الطبيعة ليحكم عليها. بـل هو موجود في هيئة الأشـياء الطبيعية كما تمّ تشـكيل جوهر تلك الكائنات الطبيعيـة. لا يعرف العالَم اليوناني إلهًا قادرًا ومطلقًا ولا يحتاج إلى كتاب مقدس. لا يتحـدث العالم اليوناني عن البعث بعد الموت أو التقوى أو أي نوع من الدين الجازم ... الآلهـة اليونانية تتخذ أحيانًا هيئة بشرية. هم قريبون جدًا من الطبيعة وليسـوا أخلاقيين، ولا يدعون إلى حياة أبدية في الآخرة. ليس لديهم نسخة من السعادة أو النجاح ولا يحتاجون إلى وحي محدّد، ولا يرتبطون بأيّ عقيدة جازمة. ليس لديهم أيّ أمر لتنفيـذه، يكفي أن يؤدي البشر الطقوس القديمة ويكرمون الآلهة ... الآلهة اليونانية ليسـت خالقة أو مشرّعة للقوانين، ولكنّها بالطبع حيّة وقوية وتمتزج بنوع من الجلال والجمال، وهم مستمعون»[1].

للتعرف على ماهية المدينة اليونانية غير الدينية، يجب أن نتأمل في مفهوم الإله في العالم اليوناني المتمحور حول الكون:

«وفقًا لما قاله برينت، فإنّ اسـتخدام كلمة «إله» بشـكل غير ديني هو السمة المميزة لجميع فترة الفلسفة اليونانية السابقة... وأنا مدرك تمامًا أنّه حتى بالنسبة لهومر نفسه، قد ادُّعِي أنّه حيثما يذكر «الإله» لا يعني الإله»[2].

حقًا، ماذا يعني الإله في العالم اليوناني، ولماذا نعتقد أنّ اليونانيين لم يكن لديهم إيمان بإله ديني أصيل (إله الدين التوحيدي)؟ يوضح الفيلسـوف المعاصر إتيان جيلسـون، أحد الباحثين في فلسفة الغرب في العصور الوسطى، مفهوم الإله في العالم اليوناني. يقول جيلسون:

«إذا أردنـا أن نقتصر على كتاب الإلياذة لهومـر، نرى أنّ كلمة «إله» في ذلك

1. Otto, The Homeric Gods, 8-9.

٢. ژيلسون، خدا وفلسفه، ١٥ - ١٦.

الكتاب تُطلق على أنواع غريبة من الكائنات المختلفة. يمكن تصور الإله اليوناني على أنّه كائن يشبه ما نسميه «الشخص»، كما هو الحال مع زيوس، وهيرا، وأبولو، وبالاس، وأثينا، وجميع الآلهة المعروفة بآلهة الأولمب. لكن الإله يمكن أن يكون أيضًا كائنًا طبيعيًا حقيقيًا، مثل الإله العظيم المحيط، أو إله الأرض، أو إله السماء. ومع ذلك، لا يقتصر الأمر على هذا الحد؛ إذ إنّ القوى العظيمة للطبيعة التي تتحكم في حياة جميع الكائنات الفانية تظهر في الإلياذة لهومر على هيئة آلهة متعددة. أمور مثل الرعب، والفوضى، والاضطراب، والحرب، والموت، وحتى النوم، الذي يُعتبر سيد جميع الآلهة والبشر وأخو الموت، هي أيضًا من هذا القبيل ... عند التدقيق، يمكن ملاحظة على الأقل وجه اشتراك واحد بينها. أسماء الآلهة المذكورة، بغضّ النظر عن ماهية مدلولها الحقيقي، تشير جميعها إلى قوى حيّة أو طاقات تمتلك إرادة خاصة بها، وتؤثر في حياة البشر وتتحكم في مصائرهم. بهذا المعنى، فإنّ النوم هو سيد جميع الآلهة والبشر. في ذهن الفرد اليوناني، مفاهيم الحياة والدم لا يمكن فصل بعضها عن بعض. وبما أنّ الآلهة اليونانية لا تمتلك دمًا، فهي لا تستطيع أن تفقده، وبالتالي فهي لا يمكن أن تموت أبدًا»[١].

الإله في الفكر الكَونَويّ اليوناني هو كائن حي خالد، تتداخل إرادته ورغبته مع نظام القدر، وأحيانًا تتصارع معه، حيث يؤثر في حياة البشر ومصائرهم. الآلهة حاضرة في كل مكان وفي كل شيء، وعلى الرغم من كونها أقوى من البشر ولها سيطرة معينة على حياتهم، إلا أنّها ليست مطلقة القدرة. الآلهة اليونانية ليست على الإطلاق قادرة مطلقًا، فقوّتها وإرادتها تخضعان للسيطرة والحد من قبل إرادات الآلهة الأخرى وكذلك من قِبل القدر ونظام الطبيعة (فوسيس)،

١. م. ن، ١٥ - ٢١.

الــذي يُعدّ مظهرًا من مظاهر الكون. الآلهة اليونانية تحمل طابعًا بشريًا شــديدًا. الشــاعر اليوناني «بندار» من القرن الخامس قبل الميــلاد يصف هذه القرابة بين البــشر والآلهة بقوله: «البــشر والآلهة من أصل واحد، حيــاة كليهما تنبع من أمّ واحــدة، لكن القوة تفصل بينهما»[١]. الآلهة اليونانية، مثل البشر، تمتلك الرغبات والتطلعات والشهوات. تدخل في منافسة وعداء بعضها مع بعضها ومع البشر، وأحيانًــا تقع في حب رجل أو امــرأة من البشر. الآلهة اليونانيــة تنام، تعاني من النسيان والضعف، تُخدع وتخدع، تكذب في بعض الأحيان، وتظلم بسهولة، كما أنّها أحيانًا تعجز وتُهزم. الآلهة اليونانية كائنات حيّة وخالدة، لكنّها ليست قادرة مطلقًا أو متعالية أو مقدسة. وكما قال الشاعر بندار، الآلهة مثل البشر ومن أصل واحد، باستثناء أنّها لا تموت أبدًا (لأنّها لا تمتلك دمًا) وهي أقوى من البشر. ومع ذلك، فإنّ قوة الآلهة تخضع للحدود التي يفرضها الكون، والطبيعة (الفوسيس) ونظــام القدر الذي يُعدّ أحد مظاهرها. في العديد من الحالات، حتى «زيوس»، الــذي يُعرف بأنّه إله الآلهة، يضطر إلى الخضــوع للقدر والمصير. عمومًا، إرادته تقوم عــلى الاعتراف بأنّ القدر مُقــدَّم، ويجب أن «يتماشــى كل شيء مع القدر والمصير»[٢]. والواقع أنّ المصدر الأســاسي لســلطة زيوس، باعتباره الأقوى بين الآلهــة، يكمن في توافق إرادته الداخلية مع قوة القدر الحتمية[٣]. يجب الانتباه إلى أنّ قوة القدر نفســها تُعدّ تجليًا ومظهرًا من مظاهر الطبيعة (فوســيس) والنظام الكَونَويّ (كوســموس). وبذلك، يصبح الإله في العالم اليوناني خاضعًا للكون وتابعًا له. حتى في فلسفة أفلاطون، الآلهة تقع في مرتبة أدنى من المُثُل، والمُثُل هي

١. پاركر، خدايان و آدميان، ١٧١ – ١٧٢.
٢. ژيلسون، خدا و فلسفه، ٢٣.
٣. م. ن، ٢٤.

حقائق أقرب إلى الأشياء منها إلى الأشخاص:

«المثال ليس شخصًا، وليس روحًا أيضًا، وإنّما هو في النهاية علّة عقلية أقرب إلى شيء منه إلى شخص... وعند أفلاطون، تُعدّ الآلهة أدنى مرتبة من المثل. على سبيل المثال، كان أفلاطون يعتبر الشمس إلهًا، ومع ذلك، يرى أنّ الشمس، التي هي واحدة من الآلهة، هي ابنة الخير، والخير ليس من الآلهة»[١].

العالم اليوناني، في جوهره ونوعه، لا يعرف مفهوم الإله الخالق القادر المطلق، العادل، الرحمن الرحيم، أو ربوبية الله التكوينية والتشريعية، ولا يعرف التوحيد وجوانبه التنزيهية وحقيقة «الله أكبر» و«لا إله إلا الله». ولهذا السبب، نعتبر العالَم اليونـاني عالمًا غير ديني. في المدينة اليونانية، تحوّلت الأسـاطير المشـوهة لما قبل الغرب اليوناني إلى مادة لصورة العدمية الكَونَويّة. ويظهر أول تجلٍّ لهذه العدمية الكَونَويّة في الرؤية الكَونَويّة الهومرية.

في العالم الذي يصوّره هوميروس، لا مكان للفضائل الأخلاقية، والمصطلح اليوناني arete، الذي يُترجم عادة إلى «الفضيلة»، لا يُعبّر عن القيم الأخلاقية أو الروحية. يكتب ورنر ييغر في تفسيره لمفهوم «Arete»:

«في الملاحم الهومرية، نادرًا ما يُفهم مصطلح arete بمعنى الفضائل الأخلاقية أو الروحية. بل، وبما يتماشى مع أسلوب التفكير في تلك الحقبة القديمة، يُشير هذا المصطلح إلى القوة والمهارة والرشاقة لدى المحارب أو الرياضي، وخاصة الشجاعة البطولية. وهذه الشجاعة ليسـت بمعناها الحديث كصفة أخلاقية منفصلة عن القوة الجسدية، بل هي شجاعة تتضمن دائمًا قوة بدنية. مفهوم arete متجذّر في أسلوب التفكير الأساسي لأرستقراطية المحاربين، ويمثل أصفى صور المحتوى

١. م. ن، ٣٧ - ٣٨.

التربـوي لتلك الحقبة ... الفضيلة ترتبط ارتباطًـا وثيقًا بالشرف والاحترام. في العصـور القديمة للحياة الاجتماعية، كان الـشرف والاحترام لا ينفصلان عن الكفاءة، والشجاعة، والخدمة. ومع ذلك، بالنسبة للإنسان الهومري، كان معيار قيمتـه يعتمد فقط عـلى التقدير الذي يمنحه له المجتمع الـذي ينتمي إليه. كان مرتبطًا بطبقته، وكانت فضيلته تُقاس من خلال القيمة التي يضعها له المحيطون بـه. لم يكن الأبطال يشـعرون بالتعب من تبادل الاحترام بينهـم، لأنّ نظامهم الاجتماعـي بأكمله كان قائمًا على الاحترام. عطشـهم للـشرف والاحترام كان لا يُشبع. كان ارتباط ضمير الإنسـان اليوناني بالحكم العام يصعب فهمه علينا نحن البشر المعاصريـن ... في الفترات اللاحقة من تاريـخ اليونان، لم تعد محبة الاحترام موضع تقدير، بل أصبحت غالبًا تُشبه مفهوم الطموح كما نعرفه اليوم ... حقيقة العظمة الشـخصية كأعلى علامة للهوية الروحية والأخلاقية، كانت بالنسبة لأرسطو أيضًا – كما كانت في الفكر الهومري – مبنيّة على جدارة الفضيلة واحترامها. يظهر الأهمية الأساسـية للأخلاق الأرستقراطية في اليونان القديمة في تشكيل الإنسان اليوناني بوضوح هنا، ونحن نرى تطوّر الفكر اليوناني حول الإنسـان والفضيلة الإنسانية في كلمات أرسـطو. على الرغم من توسيع محتوى هذا الفكر وثرائه عبر القرون التالية، فقد حافظ على الشـكل الثابت الذي كان له في الأخلاق الأرسـتقراطية القديمة. لقد كانت طبيعة الأرستقراطية اليونانية في مفهومها التربوي دائمًا قائمة على الفضيلة»[١].

في العالم الذي يرسـمه هومر، تتداخل الجماليات وحب الجمال مع الجسـدية والغضب والغرور والطموح والخداع والكذب والشـجاعة المتعطشـة للفخر

١. يگر، پايديا، ٤٢ – ٤٣، ٤٧ – ٤٨، ٥٠ – ٥٢.

والطامحة إلى الخلود، حيث تكون هذه القوى هي المحركات لسلوك الأبطال في هذه القصائد. قد وُضِعَت ستارة سوداء من المصائب على هذا العالم، مما يعطيه مضمونًا مليئًا بالألم والمأساوية. في قصائد الإلياذة والأوديسة، يتصادم البشر مع الآلهة في صراع وتنافس. الأبطال مرتبطون أساسًا برغباتهم الطموحة والدنيوية وأهوائهم الأرستقراطية، وهم يسعون لتحقيق مكاسبهم الشخصية. عالمهم ليس عالمًا من الروحانية أو الكمال المثالي، أو السعي للعدالة والأخلاق الحقيقية؛ ففي الأدب الهومري، الآلهة ليست سوى مجموعة من الأرستقراطيين الذين لا يموتون، والحقيقة الجوهرية للتدين ليست إلا احترام الآلهة من خلال تنفيذ طقوس التضحية وما شابه ذلك، وهذه الآلهة تصفة بالجشع والشهوة والظلم. في العالم الكَونَويّ اليوناني، يُعرّف الله والآلهة والأمر الإلهي في إطار التصور الذي ينشأ من طبيعة الكون (كوسموس)[1]، وبالطبع، يكتسبون طابعًا كَونَويًّا. أساسًا، كان الدين والمسائل الدينية في العالم اليوناني، وفي سياق هذه النظرة الكَونَويّة، تُفهم غالبًا كأمور مدنية تُمارس ضمن إطار العادات والتقاليد والأعراف والشعائر. في النيهيليّة الكَونَويّة، كان الكون يتحدّث من خلال الطبيعة (فوسيس) ولغته، أي اللوغوس، وكان من الواجب على البشر الاستماع إلى اللوغوس واتّباع النظام الكَونَويّ. في هذا الإطار، لا يتمّ وضع الدين في موقع توجيه وإدارة الحياة الفردية والجماعية للبشر، بل يتمّ تعريفه وتنفيذه كمتغير تابع للكون، حيث يتم تعريف ماهيته ودوره وحقيقته ضمن هذا الفهم الكَونَويّ. في المدينة ذات النزعة الكَونَويّة في الفكر اليوناني، كان الأساس والمعيار والمقياس لكل الأمور هو الكون نفسه، وما يظهر منه، وكل شيء يُعرَّف ويُفهَم ويتحقّق من خلال منظور الكون. حتى عندما قام أفلاطون وأرسطو بابتكار المصطلحات

١. انظر: يگر، الهيات نخستين فيلسوفان يونان، ١٩-٣٣.

«ثيولوجو»[١] (عالِم لاهوت)، «ثيولوجيا»[٢] (اللاهوت)، «ثيولوجين»[٣] (التحدّث عن الإلهيات)، و«ثيولوجيكوس»[٤] (لاهوتي)[٥]، كانوا يسيرون على نفس النهج الكَونَويّ. في الأساس، لم تكن الآلهة في الفكر اليوناني قوى متعالية أو خارقة للطبيعة، بل كان السياق الطبيعي هو المحمل الرئيسي لظهورها وتجلياتها. بناءً على ذلك، كل حدث خارق للعادة، مهيب، صادم، وأحيانًا جميل وجاذب في الوجود يكتسب بُعدًا إلهيًا ويُطلق عليه مصطلح «ثيوس». يقول «دبليو. سي. غاثري» في تحليله للفكر اليوناني القديم إنّ اليونانيين، على عكس أتباع الديانات الإبراهيمية، لم يبدأوا بمحاولة إثبات وجود الله، ليصفوه بعد ذلك ويقولوا مثلًا: «الله خالق الأرض والسماء» أو «الله خيرٌ مطلق» وما شابه ذلك. بل كان بالنسبة لهم كل ما يثير الخوف والرهبة ويُضفي الهيبة والعظمة يُعتبر مصداقًا لـ«ثيوس»[٦]. في العالم اليوناني، كانت الطموحات الشخصية والسعي للمنافسة من أجل التفوّق في المسابقات الرياضية، والرغبة في نيل تأييد النخبة الاجتماعية وثنائهم، واكتساب المزيد من القوة الجسدية، والسعي وراء الشهرة تُعدّ جميعها صفات دينية وتُربط بـ«تئوس».

جوهر المدينة اليونانية كان غير ديني، ماديًا، دنيويًا، وطاغوتيًا، حيث يُعتبر الثيوس وزيوس اليونانيان هما نفس الطاغوت.

«تشترك كلمة «طاغوت» مع «زيوس» و«ثيوس» اليونانيين في الجذر

---

1. θεολόγο
2. θεολογία
3. θεολογεῖν
4. θεολογικός

٥. م. ن، ٢٨.

٦. انظر: گاتری، فلاسفه یونان از طالس تا ارسطو، ٢٠ - ٢١.

اللغـوي. بمعنى آخر، قد تكون كلمة طاغوت هي ذاتهـا كلمة ثيوس اليونانية التـي انتقلت إلى اللغة العربية وتم تعريبها، أو أنّها كلمة عربية تشـترك في الجذر مع زيوس وثيوس اليونانيين. الطاغوت هو ذاته زيوس وثيوس اليونانيين، وله صلة بالجذر اللغوي لكلمة «ديوس» في اللاتينية، و«ديو» في الفارسـية، و«دِو» في السنسـكريتية. ممّا تقدم يتضح أنّ زيوس وثيوس اليونانيين لا يشبهان الآلهة التي تدعو إليها الأديان التوحيدية والكتب السـماوية، بل هما نفس الطاغوت. لهذا السـبب، فإنّ جوهر وباطن الصورة النوعية لتاريخ اليونان وروما ليس إلا انكسار عهد «ألستُ بربكم» وتجسيدًا لنكران الحق»[١].

روح العدميـة الكَونَويّة اليونانية المنقطعة عـن الوحي والحق والعدل تظهر لأول مرة في المنظومات الهومرية، وتبدأ في أشعار هومر، وبدرجة أكبر في أعمال هسـيود، بالتوجه تدريجيًا نحو شكل وسياق معرفيّ ملموس. مع هذا التبلور في أفق العلم الحصولي، تبرز الميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة الطبيعية الرافضة للحق، وتتوسع في أشكال مختلفة من أنظمة حصولية للفكر العدمي الكَونَويّ.

مفهوم الفضيلة في الأخلاقيات اليونانية

الأخلاقيات اليونانية ذات طبيعة علمانية، وهي تندرج، بالتبعية، تحت إطار محوريـة الكون في التفكير اليوناني. وقد تجلّت الهوية الأخلاقية للمدينة اليونانية بشكل متماسك أكثر من أيّ مكان آخر في الملاحم الهومرية. إذ إنّ هذه الملاحم، التـي تمثل إعادة قراءة للإرث الأسـطوري لليونان ما قبل الغربية على أسـاس محورية الكـون قد وضعت أسـس النظـرة الكَونَويّة والأخلاقيـات اليونانية بطريقة أرسـت الخطوط العريضة التي تطوّرت واسـتمرت لاحقًا في الفلسفة

١. معارف، نگاهی دوباره به مبادی حکمت انسی، ٤٩٨ - ٥٠٠.

اليونانية مع بعض الفروقات والتغيرات. ومن هنا، فإنّ فهم بنية وجوهر وروح الأخلاقيات اليونانية يقتضي الرجوع إلى المعايير والموازين والمظاهر الأخلاقية في الرؤية الكَونَويّة الهومرية. ويمكن تلخيص العناصر الأساسية للأخلاقيات في العالم اليوناني على النحو التالي:

١. في العالم اليوناني، كانت الفضيلة الأساسية والمهمة للغاية هي القوة والقدرة البدنية. وعلى الرغم من أنّ جهود بعض الفلاسفة، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، أسهمت إلى حد ما في توجيه الانتباه إلى الجوانب غير البدنية لشخصية الإنسان، فإنّ الطابع الدنيوي للمدينة اليونانية وشغفها بالرياضة والألعاب والمتع البدنية جعلها تمنح قيمة استثنائية للقوة والقدرات البدنية. وقد أولت لهذه الجوانب اهتمامًا بالغًا، واعتبرت القوة البدنية جزءًا متميزًا في مفهوم الفضيلة.

٢. الأخلاقيات اليونانية تشجّع نوعًا من الطموح الشخصي المفرط، الذي يظهر بشكل خاص في الأهمية البالغة التي تُمنح للفوز في أيّ مسابقة. فهي تدفع الإنسان باستمرار وبشكل عميق إلى السعي ليكون دائمًا الأول في كل مسابقة ويتفوّق على الآخرين. في العالم اليوناني، كان الفوز في المسابقة معيار الفضيلة بالنسبة للإنسان. ويمكن مقارنة هذا المنظور للفضيلة بنظرة الإسلام إلى الإنسان، حيث يجعل التقوى معيار التفاضل بين البشر. أما في الأخلاقيات اليونانية، فإنّ معيار التفوق والفضيلة هو الفوز في المسابقات الرياضية والألعاب. هذا الطموح الفردي الشديد والمفرط، والرغبة الجامحة في الفوز، واعتماد الفوز في المسابقات والألعاب والمنافسات كأساس لتفوّق الإنسان، يخلق بيئة متوترة ومليئة بالطمع والتنافس والعداوة بين البشر.

٣. العطش الذي لا يُروى للشرف (وأحد أشكاله المهمة والشائعة هو

الفوز في المسابقات والمنافسات) وما كان اليونانيون يسمّونه «الكرامة»، يُعدّ من السمات البارزة للأخلاقيات اليونانية. إن جوهر «الكرامة» في هذه الأخلاقيات يكمن في نيل تأييد الآخرين، وبالأخص، والأهم من ذلك، تأييد النبلاء والأرستقراطيين. كانت الأخلاقيات اليونانية تُنشئ الناس على طلب التأييد من الآخرين. في نظام الأخلاقيات اليوناني، كان أمرًا بالغ الأهمية أن يحظى الأبطال وغيرهم من الناس بتأييد الأرستقراطيين وأن يُمنحوا «الكرامة» من قِبَلهم. في الواقع، كانت قيمة الإنسان في الأخلاقيات اليونانية تعتمد على مقدار «الكرامة» والتأييد الذي يحظى به من الآخرين، وخصوصًا من الأرستقراطيين. وجزء كبير من هذه «الكرامة» والتأييد كان يُكتسب من خلال القوة البدنية والفوز في المسابقات الرياضية والتفوق على المنافسين.

٤. في الأخلاقيات اليونانية، يُعتبر الخداع والكذب واستخدام الحيل والمكر للتغلّب على الخصم أو العدو، أو حتى في مجالات أخرى من الحياة، إذا كان «في وقته» حسب تعبير اليونانيين، فضيلة. فإنّ النماذج والقدوات اليونانية، وكذلك آلهتهم، لا يترددون أبدًا في الكذب واستخدام الحيل والمكر كلما شعروا بالحاجة إلى ذلك لتحقيق أهدافهم. وبعبارة أدق، ليس فقط أنّهم لا يتحرجون من الكذب والمكر والخداع، بل ينظرون إلى هذه الصفات كفضائل، بل ويحثّون على القيام بها ويشجعون عليها. في إطار الأخلاقيات العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ لليونانيين، لا يُعتبر الكذب والخداع أمرًا مذمومًا. بل إنّ استخدام الأبطال والقدوات الأخلاقية لهذه الصفات يُعدّ علامة على الفضيلة الأخلاقية ويُقابل بالثناء والتقدير.

٥. في نظام الأخلاقيات اليونانية، يوجد مفهوم أطلق عليه أرسطو اسم

«امتلاك الجمال». لا يمكن فهم هذا المفهوم إلا بوضعه في سياق الطابع الدنيوي الخاص والعلمانيــة والأخلاقيات التي ترتكز على مفهــوم البطولة والشرف في اليونــان. في اليونان القديمة، البطل هو من يتمتّع بجســم جميل ونفس طموحة وجشــعة تســعى للمنافســة. الدافع الذي يحرّكه في جهوده ومخاطراته وروحه التنافســية هو تحقيق الكرامة (التأييد) والشرف. وهــو يعتقد أنّ من خلال نيل الكرامة والشرف وبلوغ الشهرة، يمكنه أن يحقّق الخلود. كان الإنسان اليوناني، في منظومات هوميروس، وخصوصًا في الأوديسة، وحتى في الفترات التي ساد فيها التفكير الفلســفي، يولِي أهميــةً كبيرةً للخلود من خلال الشــهرة والتقدير والافتخار. وكان هذا التوق الشــديد إلى تخليد الاسم والشهرة دافعًا لليونانيين نحو ابتكار مفهوم يُشار إليه بـ«تملُّك الجمال». يمكن توضيح هذا المفهوم بالقول إنّ تملُّك الجمال يعني التمتعّ بالجمال (باعتبــاره فضيلةً عُليا). ويُعدُّ تملُّك الجمال دليلًا على حب الإنسان لذاته، ويُوصَى به كفضيلة أساسية ومهمة.

«يعتقد أرســطو أنّ ســعي الإنســان إلى تحقيق كمال الفضيلة ينبع من أسمى أشــكال حب الذات (أو الأنانية). وفيلســوفنا، في دفاعه عن فكرة حب الذات المثالية والمشروعة، التي تواجه الفكرة الســائدة عن «الإيثار» في عصره، يعيد في الواقع اكتشــاف الجذور الأساسية للفكر الأخلاقي اليوناني ... إنّ إلزام النفس بالتمتع بأسمى الفضائل و«تملُّك الجمال بوجه عام» هو ذروة حب الذات. ترجمة هذا التعبير الذي يعكس الشعور اليوناني الكامل إلى لغتنا تُعدّ أمرًا بالغ الصعوبة. إنّ اعتبــار «الجمال» (الذي كان يعني دائمًا عند اليونانيين الخير والنبل) حقًا ذاتيًا وتملُّكه يعني أنّ الإنســان لا يُفوِّت أيّ فرصة لاقتناص جائزة الفضائل الأسمى ... يرى أرســطو أنّ «من يحب ذاته، إنما يجعل الجمال ملكًا له». إنّ عبارة «تملُّك

الجمال» تعبر بوضوح عن الدافع الداخلي للفضيلة اليونانية. وما يميّز شجاعة الرجل الأرستقراطي في ملحمات هوميروس عن ازدراء الموت الأعمى هو هذا الأمر بعينه: وضع الجمال فوق جميع الأمور المادية. إنّ الموت من أجل الجمال يمثّل أسمى تجليات الميل الطبيعي للإنسان إلى التعبير عن الذات من خلال التضحية بالنفس. وفي حديث «ديُوتيما» ضمن محاورة «المأدبة» لأفلاطون، يُذكر تجاوز المال والثروة، واستعداد أبطال الأزمنة الغابرة لتحمل المشاق والمصاعب، والنضال والتضحية بالنفس من أجل الشهرة، إلى جانب سعي الشعراء والمشرّعين لابتكار أعمال فكرية وروحية. وكل ذلك يُعزى إلى رغبة الإنسان الفاني في تحقيق حياة أبدية. ترى ديُوتيما أنّ الرغبة في الخلود هي السبب الأساسي للتناقضات المستمرة بين الطموح وتوقير الذات لدى الإنسان. وأرسطو، في قصيدة كتبها مدحًا لفضيلة صديقه «هيرمياس»، حاكم «آتارنيوس»، الذي ضحّى بحياته وفاءً لمثله الفلسفية والأخلاقية، ربط مفهوم الفضيلة الفلسفية لديه بفضيلة البطولة الهومرية، معتبرًا «أخيل» و«آياس» نموذجين لهذه الفضيلة. علاوةً على ذلك، من الواضح أنّ أرسطو زيّن صورة حب الذات، كما شرحها، بعناصر مستوحاة من شخصية أخيل. إنّ الروابط العديدة التي تجمع بين كتابات أفلاطون وأرسطو وأشعار هوميروس تُعَدّ شواهد على استمرارية حياة مثالية الفضيلة اليونانية القديمة»[١].

النظام الأخلاقي اليوناني هو نظام علماني وغير ديني. بيد أنّ علمانيته ليست من نوع العلمانية الإنسانية للغرب الحديث. فالعلمانية اليونانية تتميز بكونها ذات طابع «كَونَويّ» (وسنتناول الحديث عنها في الصفحات المقبلة، إن شاء

١. يگر، پايديا، ٥٢-٥٤.

الله). في النظـام الأخلاقي العلماني-الكَونَويّ اليونـاني، لا تُعدُّ الدين والتعاليم الإلهية والشريعة السـماوية أساسًـا أو معيارًا أو مصدر إلهام للتعاليم والأحكام الأخلاقيـة. تولي الأخلاق العلمانيـة اليونانية أهميةً كبيرةً لطلب الشـهرة ونيل التأييـد واحترام الآخرين. وفي الأخلاقيات اليونانية، يُعطى مكانة عالية لفكرة المثاليـة والتوجه نحوهـا، بل والتضحيـة بالنفس والمخاطرة بالحياة في سـبيل تحقيق هذه المثالية، إلا أنّ هذه المثالية ذات طبيعة ومضمون غير ديني، وتسـتمد أصولها من النظام الأخلاقي المتمحور حول الفضائل في الأخلاقيات الكَونَويّة اليونانية. إنّ المثالية المهمة التي يمكن القول إنّها تحتوي على العناصر الأساسـية للأخلاقيات اليونانية هي ما أشار إليه أرسطو بـ«تملُّك الجمال»، والذي عدَّه عين حب الذات. إنّ مثالية تملُّك الجمال في الفكر اليوناني تعني وضع الجمال فوق كل الأمور. وضع الجمال فوق كل الأمور يُعبِّر عن نمط حياة يُطرح في العالم اليوناني بوصفه الأسـلوب والنمـوذج المثالي للحيـاة. ووفقًا لمعايـير النظام الأخلاقي اليوناني، يجب على الإنسـان أن يسعى بكل وجوده، وحتى بثمن حياته، للعيش وفقًا لمثالية تملُّك الجمال، أو بعبارة أخرى «حياة جمالية راقية وبطولية». هذه الحياة مسـتوحاة من النموذج الأرستقراطي-البطولي المتجذر الذي وُصف وشُرح في أعـمال هوميروس. إن المثالية المهمة التـي يمكن القول إنها تحتوي على العناصر الأساسـية للأخلاقيـات اليونانية هي ما أشـار إليه أرسـطو بـ«تملُّك الجمال»، والـذي عدَّه عين حب الذات. إنّ مثالية «تملُّـك الجمال» في الفكر اليوناني تعني وضع الجمال فوق كل الأمور. وضع الجمال فوق كل الأمور يُعبِّر عن نمط حياة يُطرح في العالم اليوناني بوصفه الأسلوب والنموذج المثالي للحياة. ووفقًا لمعايير النظام الأخلاقي اليوناني، يجب على الإنسان أن يسعى بكل وجوده، وحتى بثمن

حياتــه، للعيش وفقًا لمثالية «تملُّك الجمال»، أو بعبــارة أخرى «حياة جمالية راقية وبطولية». هذه الحياة مســتوحاة من النموذج الأرســتقراطي-البطولي المتجذر الــذي وُصف وشُرح في أعمال هوميروس، وتُعدّ تجسـيدًا لنمط الحياة المثالية في الفكر والأخلاقيات اليونانية. جوهر الفضائل المطروحة في هذا النمط من الحياة (الذي يُطرح في الأخلاقيات اليونانية بوصفه «المثالي») يتمثل في تحقيق الشــهرة والمجد والتقدير و«الاحترام»، والسعي إلى الخلود عبر الاسم اللامع. هذا النمط من الحياة، الذي يقوم على الجمال والبطولة، رغم أنّه في كثير من الأحيان يتطلب المخاطرة والشــجاعة وخوض المعارك الملحمية وحتــى التضحية بالنفس، فإنّه يتميز بطابعه الاحتفالي، حيث يؤكد على أنّ البطل، حتى وإن كان عمره قصيرًا، لا ينبغي أن يحرم نفسه من الاســتمتاع بجوانب الحياة الاحتفالية والدنيوية. إنّ الأخلاقيات العلمانيــة اليونانية تفتقر إلى معايير وقيم ثابتة ومقدســة ومتعالية، وربــما يكون هذا الجانــب بالتحديد هو الذي جعلها تولي أهمية اســتثنائية لرأي الآخرين وحكمهم، وللحصول على تأييدهم وتقديرهم.

العدمية الكَونَويّة

تاريــخ الغرب بــدأ في اليونان مع ولادة العدمية، التي تعني نســيان الولاية الإلهية وحضورها وهدايتها القدسية. هذا النسيان يمثّل انقطاعًا عن العهد الذي يحمله الإنســان على عاتقه، وهو العهد الــذي من خلاله يتقرب إلى العين الثابتة للإنســانية. العدمية الكَونَويّة في الغرب القديم هــي أول ظهور للعدمية، وهي تختلف في طبيعتها عــن صور العدمية الغربية الأخرى، مثــل «العدمية الإلهية» في العصور الوســطى و«العدمية الإنســانية الحديثة». في العدمية اليونانية، يُعدّ حجــابُ الكون الحاجزَ الذي يلقي بظلاله على شــمس الحقيقــة وعهد الولاية

الإلهيــة من خلال الفوســيس (الطبيعة)، واللوغوس (العقــل)، وزيوس. هذا الحجاب يحرم قلوب وأبصار الناس من استقبال نور الولاية والهداية الإلهية. ما هي الخصائص الرئيسية للعدمية الكَونَويّة؟

١. في العدميــة اليونانية-الرومانيــة، يُعدّ الكون محــورًا ودائرةً تدور حولها جميــع الأمــور، وكل شيء يُرجــع إليه. في عــالم الغرب القديم، كان الإنســان، والطبيعة، والآلهة، بل وحتى زيوس، واللوغوس، والقدر، والمعاني، والمفاهيم، والمقولات، والأنظمة السياســية والأخلاقية والاقتصادية، وكل جوانب الحياة والعالم والإنسان، تنبع بطريقة ما من الكون وتعود إليه، حيث تُعتبر مظهرًا وتجليًا لــه، وتُفسَّر في إطار محوريته ومركزيته. الكون هــو الحقيقة، وفي تعبير آخر، هو الاســم الحاكم على عالم الغرب اليوناني-الروماني. وتتحقق العدمية في الغرب القديم من خلال الكَونَويّة. وكأنّ الإنســان اليوناني-الروماني، بدلًا من أن يتبع ولاية الله، قد ارتضى أن يُلقي على عاتقه طوق العبودية للطاغوت، الذي تجلّى في هيئة الكون والنظام الكَونَويّ.

٢. في العدميــة ذات الطابع الكَونَويّ، توجد عنــاصر ومكوّنات من الآلهة والكائنــات والمفاهيم الأســطورية، لكنهــا جميعًا تصبح مــادة لصياغة نوع من الكَونَويّة، فتكتســب وجــودًا وماهيةً مغايرتين ضمن إطــار العدمية اليونانية-الرومانيــة. تتحدث العدمية في الغرب القديم عن الآلهة والكائنات الســماوية، وتجمع في ذاتها بين الطابع التعددي (تعدد الآلهة)، والإيمان بإله واحد، وكذلك المادية التي تظهر في أشكال متعددة من الآراء. ومع ذلك، فإنّها في كل الأحوال، وفي صورتهــا النوعية، حتى عندما يتحدث بعــض مفكريها، مثل كزينوفانيس، عن إله واحــد، تحتفظ بطابع غير دينــي وعدمي. وفي الواقع، لفهم الأشــكال

المختلفة والمتنوعة للعدمية في تاريخ الغرب، وخاصة لفهم وتحليل أشكالها التي تبدو غير إلحادية ومعقّدة، ينبغي الانتباه إلى روح وجوهر العدمية، وإلى العلاقة بين النسيان والإنكار وما يرتبط بهما من ولاية إلهية. فلا ينبغي أن يضلّ المرء في متاهات المظاهر وتنوع الكثرات الظاهرية.

٣. في العدمية اليونانية، بقدر ما تتعرض تلك الآثار القليلة المتبقية ذات الطابع الروحي والديني من عهد الأمة الواحدة (التي كانت أحيانًا مغلّفة بحجاب الغفلة والشرك الأسطوري) للإهمال أو التحريف المعنوي تدريجيًا، ومع امتداد تاريخ الغرب، تصبح المعاني والقيم والارتباطات الدينية والروحانية-الأخروية مهملةً. ويتمّ استبدالها بنظام من القيم يرتكز على مفاهيم دنيوية مثل الفخر والكرامة والسعي الجشع للتفوّق والطموحات المتمحورة حول طلب التأييد. تحمل العدمية اليونانية-الرومانية رؤية مثالية، لكنها رؤية عميقة الدنيوية، طموحة، ومتشبعة بالسعي للتأييد والشهرة، وهي مرتبطة بوهم جشع يُعرف باسم «الخلود في الاسم». وقد توسع هذا البُعد الأخلاقي للعدمية اليونانية-الرومانية، مع تغييرات، في مختلف أركان العالم الغربي القديم واستمراريّة تأثيره.

٤. من الخصائص والسمات المميزة للعدمية اليونانية-الرومانية حضور مفهوم غامض وغير واضح من «القَدَر»، الذي يختلف عن مفهوم «القضاء والقدر» الديني. يُعدّ القَدَر اليوناني أحد مظاهر تجلي الكون، وهو في حالة من الصراع والمواجهة المستمرة مع إرادة الآلهة ومع جهود الأبطال الإغريق. يظهر القَدَر في العالم اليوناني كإرادة قوية ذات طابع مأساوي، قد تصل في بعض الأحيان إلى إخضاع الآلهة نفسها. هذا القَدَر المأساوي يختلف جوهريًا عن مفهوم القضاء والقدر الديني، إذ تعكس دورته الوجودية رؤية عبثية وعدمية

للحيـاة. في الواقع، فإنّ سـيطرة القدر في العالم اليونـاني وتجلّيه في مختلف أبعاد الفكـر والعمل اليونانيـين، يمثلان رمزًا لعمق العبثية وجوهـر الفراغ في دورة مملـة وقاهرة. وقد تناولت بعض التراجيديات اليونانية جوانب من هذا المفهوم وأبرزت أبعاده. لا شـك أنّ جذور هذه الدورة القهرية العبثية للقَدَر وجوهرها المـليء باليأس والعبثيـة يجب البحث عنها في النفس والـروح غير الدينية للعالم اليوناني. في الواقع، ما يجعل جهود الإنسـان وتوجهاته ونجاحاته وإخفاقاته في الدنيا، ضمن سـير القضاء والقدر، في نهاية المطاف ذات معنى ووضوح وأمل، هو محكمة العدل الإلهية والحياة الأخروية ووجود الغاية والمعنى الحكيم للحياة، الذي ينبع من فضـل الله ورحمته ورأفته وحكمته وعدلـه. والانقياد لولاية الله يقودنـا إلى ذلك المعنى والغاية. أمـا في العالم اليوناني، فإنّ نسـيان عهد الأمانة وسيطرة العدمية قد جعلا حركة الحياة العامة ومسيرها في النهاية أسيرة للدنيوية ونوعًـا من العبثية. حضور القدر وتجلّي قوته وهيمنته يلعب دورًا مهمًا في ظهور وترسيخ هذا التصور العبثي للحياة، وهو تصور عبثي ومعاناة عديمة المعنى تنبع مـن النفس والجوهر غير الديني للمدينة اليونانيـة. وربما كان النهج القائم على «امتلاك الجمال» محاولة للتغلب على هذا العبث بشـكل ما. ومع ذلك، فإنّ هذه الدورة المحدودة والمحبطة وأحيانًا العبثية المرتبطة بالقدر ليسـت عَرَضًا يمكن تجاوزه بالكامل أو بشكل قاطع، لأنّها متجذرة في النفس والجوهر العدمي لتاريخ الغرب. وقد ظهرت بهذا الشكل في ظلّ النظام الكَونَويّ لليونان والرومان.

يجدر الانتبـاه إلى أنّ هذه الهيمنة المحدودة والقاهـرة، وأحيانًا العبثية، التي يمثلها القدر في العالم اليوناني، تختلف نوعًا وجوهرًا عن العدمية الباردة والجافة والمتصلبة ذات الطابـع التكنوقراطي-البيروقراطي التـي ظهرت وهيمنت في

القرن العشرين في العالم الغربي الحديث، والتي وصفها كافكا وبعض الروائيين الآخرين. في القدر اليوناني، تظهر بقايا وآثار (وإن كانت مشوهة) لقوة شبه أسطورية، رغم أنّها بالنهاية في أفق العدمية. وهذا يجعل ملامحه مختلفة عن العدمية البيروقراطية-التكنوقراطية الجافة والمتصلبة، الباردة والخالية من المشاعر، التي وصفها كافكا ورسم معالمها.

على أيّ حال، وعلى الرغم من وجود بعض الذكريات والإشارات والخواطر الشعرية المتبقية من الأساطير في القدر اليوناني، فإنّ دورة القدر العبثية والقهرية والخالية من المعنى تُعدّ إحدى مظاهر العدمية ذات الطابع الكَونَويّ في الفكر اليوناني-الروماني.

٥. العدمية ذات الطابع الكَونَويّ، منذ بدايات ظهورها في فجر العالم اليوناني، أظهرت بسبب جوهرها العدمي علامات واتجاهات ومظاهر من القلق والشك. وقد برزت هذه السمة بشكل خاص في فترات مثل ظهور السوفسطائيين في مدينة أثينا أو أواخر العصر الهلنستي (اليونانية المحدثة). لا شك أنّ القلق الناتج عن الانفصال عن ولاية الله والانغماس في ولاية الطاغوت يكمن دائمًا في باطن كل عالَم عدمي. وفي كل عالَم، يظهر هذا القلق في أشكال محددة تتفاوت حسب الظروف التاريخية. في العالم اليوناني، وبخاصة في مدينة أثينا، شهدنا في بعض المراحل تجلي هذا القلق الناشئ عن الحالة العدمية. وبالمثل، في مدينة روما، شهدنا خلال مراحل معينة من تطورها تجليات اضطرابية تحمل طابعًا عدميًا في مختلف مجالات الفكر والممارسة الرومانية. ومع ذلك، وبالنظر إلى الفروقات النوعية بين العدمية الكَونَويّة وأنواع العدمية الأخرى (مثل العدمية الإلهية والعدمية الإنسانوية)، فقد لاحظنا اختلافات في كيفية ظهور القلق العدمي وتجلياته بين

هذه الأنواع المختلفة.

العلمانية في الغرب القديم

العلمانية تعني نزع الدين من شؤون الحياة وجعل جميع جوانبها غير دينية (بما يشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية، العلاقات الأسرية، الأخلاقيات، العادات والتقاليد، الفن والأدب...). العلمانية تُعدّ من مستلزمات جوهر تاريخ الغرب، وقد كانت حاضرة في جميع مراحله وأزمنته. ومع ذلك، فقد تجلّت العلمانية في كل مرحلة وزمن من تاريخ الغرب بصيغة ونمط خاصين، يتبعان طبيعة تلك المرحلة أو ذلك الزمن. من هذا المنظور، يمكن التمييز بين العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ في الغرب القديم والعلمانية الذاتية-الإنسانوية في الغرب الحديث.

عالم الغرب القديم هو عالم علماني. ويمكن تلخيص سمات العلمانية في الغرب القديم على النحو التالي:

١. العلمانية في الغرب القديم هي علمانية ذات طابع كَونَويّ، وكما هو الحال مع الأنواع الأخرى من العلمانية، فهي ذات جوهرٍ غير ديني.

٢. العلمانية في الغرب القديم تنظر إلى الكون بوصفه جوهر وروح المدينة اليونانية، وأساس الحياة والعلاقات الإنسانية. وتعتبر الكون معيارًا ومقياسًا لكل الأمور، ومرشدًا لحياة البشر، ومصدرًا للإلهام في وضع القوانين والأخلاقيات، حيث يُستمدّ ذلك من النظام الكَونَويّ.

٣. في العلمانية اليونانية-الرومانية، ظهرت بعض الجوانب والآثار والعناصر المستمدّة من العالم الأسطوري كالمادّة للصورة النوعية للنزعة الكَونَويّة. حضور زيوس (بصفته إله الآلهة) وبعض الكائنات الخالدة الأخرى - إذ كان الإغريق

يعتبرون «الخلود» إحدى الصفات المميّزة للآلهة عن البشر - ضمن إطار الكون والنظام الكَونَويّ والدور الذي لعبوه في صياغة معايير وموازين ونماذج التفكير والأخلاق والسلوك عند الإغريق، يمثّل دلائل على هوية العلمانية اليونانية. هذه الهوية، على الرغم من طابعها الكَونَويّ والغربي، امتزجت ببعض العناصر والمكوّنات الأسطورية (وإن كانت قد خضعت لتحولات جوهرية)، حيث أصبحت جزءًا من مادّة صورته النوعية.

٤. في النظام التأليفي للعلمانية ذات الطابع الكَونَويّ، يمتزج الجوهر المشرك وغير الديني بمظاهر من المفاهيم والتعابير الأسطورية، وكذلك مع صيغ وأحكام حصولية تُسمّى عقلانية (والتي تبنّاها وروّج لها أولًا الميتافيزيقيون الطبيعيون، ثم السوفسطائيون، وبعدهم الفلاسفة). هذا المزيج يضع مختلف مجالات حياة البشر، سواء الفردية أو الجماعية، تحت مظلة العلمانية. هذه العلمانية ليست بالضرورة، أو حتى بشكل أساسي، مادية، بل إنّها في العديد من المجالات والمستويات والجوانب تستند إلى مفاهيم مثل: الإله والآلهة، التنبّؤ بالمستقبل، تقديم القرابين وحتى العبادة تجاه الخالدين. ومع ذلك، في صلب وباطن هذه العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ، نجد منظومة أخلاقية تتجاهل القيم والمعايير والأحكام الدينية والأخلاقية، وتروّج لما تسمّيه «فضائل» مثل: الطموح، السعي للتأييد، طلب الشهرة، التفوق الجشع، الكذب والخداع (عند الضرورة)، وتمجيدها كإنجاز مشرّف، إلى جانب أمور مشابهة. التعليم والتربية المنبثقة عن هذه العلمانية لا تولي أيّ اهتمام للتوحيد أو التفكير في المعاد أو الإيمان بالشريعة، بل تقوم أساسًا على أسس خالية من أيّ هوية دينية. غاية النظام التربوي العلماني-الكَونَويّ في العالم اليوناني هي تنشئة البشر وفق نموذج «البطل-المواطن»، حيث

تتمثّل غايته في الحياة بالسير على نهج أسلوب حياة قائم على «امتلاك الجمال». أما الاقتصاد في العلمانية اليونانية-الرومانية، فهو يعتمد على استغلال همجيّ قائم على نظام العبودية، وسنشير إليه بمشيئة الله في موضع آخر.

٥. في العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ، لا يدّعي البشر أنّهم، بصفتهم ذوات نفسانية مستقلة، يعتمدون على العقل والمعرفة الفردية أو الجماعية في التشريع وممارسة السيادة. بل في العلمانية اليونانية-الرومانية، يدّعي البشر، بصفتهم «ديموس» (الشعب)، أنّ «العقل» يوجّههم نحو ما تُعبّر عنه الطبيعة وما ينبثق من النظام الكَونَويّ. وبذلك، يقومون بالتشريع وممارسة السيادة وفقًا للكون وبانسجام معه. المعلّمون الرئيسيّون لهذا الطابع الكَونَويّ هم الفلاسفة والخطباء والميتافيزيقيون الطبيعيون ذوو التفكير الحصولي، وأحيانًا الشعراء الذين يتحرّكون في أجواء الكَونَويّة ويصغون إلى «لوغوس». وهذه السمة الخاصة المتمثلة في الإصغاء إلى «لوغوس» والسير في طريق الكون هي ما يميّزهم عن الفلاسفة الإنسانويّين ومروّجي العلمانية الإنسانوية والديمقراطية الحديثة.

٦. العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ متمحورة حول البوليس (المدينة)، وفي تصورها للإنسان ترى أنّ ظهور وتحقق حقيقة الإنسان واستقامة إنسانيته يرتبطان باتّباع نظام المدينة (التي تُعتبر في التصور اليوناني نسخة منظمة مبنيّة على أسس الكون). منذ عهد «كليستينيس» وإصلاحاته (بعد عام ٥٠٨ ق.م)، أصبح الشجاعة في سبيل «امتلاك الجمال» من خلال أداء دور ضمن «ديموس» في المدينة مدمجًا ضمن نظام الأخلاقيات اليوناني. وقد تمّ اعتبار هذا النموذج مثاليًا للإنسان اليوناني في مجالات السياسة والتعليم والأخلاق والثقافة.

٧. العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ اليونانية أفرزت نظامًا قانونيًا كَونَويّ

الطابع أيضًا، ذو جوهر غير ديني. ومع مرور الزمن في المدينة اليونانية، ازدادت الطبيعة غير الدينية لهذا النظام وضوحًا، وتلاشت تدريجيًا تلك الجوانب والأسس الأسطورية المشوهة والمبتورة التي كانت لا تزال تظهر بشكل محدود في فجر المدينة اليونانية. منذ القرن السابع ق.م، ومع ظهور ما يُعرف بعصر «المشرّعين»، ومن أواخر القرن السادس ق.م مع ما يُسمّى «إصلاحات كليستينيس»، أخذت هذه العناصر الأسطورية في التلاشي تمامًا، حتى اختفت بالكامل في القرن الخامس ق.م في اليونان. في اليونان التي سبقت هومر، نجد مفهومًا يُعرف باسم «تميس»، وهو يحمل طابعًا شبه ديني ويُعتبر مرادفًا لـ«القانون السماوي». في أشعار هومر، يظهر إلى جانب «تميس» مفهوم آخر يُسمى «دايك»، وهو يعني «القانون الأرضي» وله جوهر علماني (بمعنى أنّه قانون مستمد من الكون والنظام الكَونَويّ). ومنذ زمن هومر وبداية المدينة اليونانية، شهدنا تراجعًا تدريجيًا لحضور «تميس» مقابل صعود أهمية «دايك» وهيمنته.

«من بين هذين المفهومين، يُعدّ «تميس» أكثر قداسةً وأكثر ارتباطًا بالكائنات الماورائية أو بدورها الإلهامي في الأحكام الإنسانية. أما «دايك»، فهو مصطلح اكتسب لاحقًا معاني ومشتقات ذات طابع علماني بحت ووظيفي. على حدّ تعبير كستلر: «مع تطور النظام القانوني الأرضي، يتراجع النظام القانوني للآلهة، وحتى في الأشعار الملحمية لهومر، يأخذ مفهوم «تميس» بالتراجع تدريجيًا ليحلّ محله مفهوم «دايك»»[١].

العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ بدأت مع ظهور تاريخ الغرب وتأسيس العالم اليوناني في القرن الثامن ق.م، ومنذ البداية شرعت في حركة توسعية نحو الظهور

١. كلی، تاریخ مختصر تئوری حقوقی در غرب، ٤١.

والتجلي والهيمنة على جميع مجالات الحياة في المدينة اليونانية. وقد أخضعت مختلف المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية والقانونية والتعليمية والأدبية والفنية لسيطرتها. تُعدّ العلمانية الكَونَويّة في الغرب القديم أول صورة من صور العلمانية النوعية التي ظهرت وتجسدت في تاريخ الغرب.

منظومة علمانية للآلهة

في العالم اليوناني، تحضر الآلهة، لكن دون أن تحمل طابعًا قدسيًا أو متعاليًا. منظومة الآلهة اليونانية تتمتّع بجوهر علماني. في أعمال هومر، وبعده بفترة قصيرة في «ثيوغونيا» للشاعر «هسيود»، نتعرف على نسب وعائلة ومجموعة الآلهة اليونانية. على الرغم من أنّ بعض شخصيات هذه المنظومة، مثل زيوس أو «أبولو» وغيرهم، كانت تُعبد كآلهة قبل ظهور العالم الغربي اليوناني، وفي القرون والألفيات التي سبقت القرن الثامن ق.م، من قِبَل شعوب مختلفة سكنت الأراضي اليونانية (مثل الأخائيين والدوريين الذين كانوا أنفسهم من أصول يونانية)، إلا أنّه مع ظهور تاريخ الغرب وهيمنته، وتأسيس المدينة اليونانية كأوّل صورة لظهور التاريخ الغربي (في القرن الثامن ق.م)، أعيدت قراءة هذا الإرث من الفكر الأسطوري وآلهته وكائناته المتنوعة وذكرياته وآثاره في الأعمال المنظومة لهومر وهسيود من منظور تاريخ الغرب، ليصبح مادة للصورة النوعية للعالم اليوناني-الروماني. الآلهة، كما وصفها هومر وهسيود من منظور تاريخ الغرب والعدمية الكَونَويّة، فقدت بشكل متزايد طابعها القدسي والمتعالي، واكتسبت ملامح بشرية من جوانب متعددة، مما جعلها أكثر شبهًا وقربًا إلى الإنسان اليوناني في عصر الكَونَويّة. في ظل الطابع الكَونَويّ للعالم الغربي اليوناني، أُعيد تفسير الآلهة وجميع الكائنات الخالدة وذكرياتهم وآثارهم بطريقة تدعم العدمية ذات

الطابع الكَونَويّ. الآلهة، وخاصة زيوس، تظهر كإحدى تجليات الكون، وتؤدّي دورًا في تفاعل قائم على «الترافق-التضاد» مع كل من القَدَر، واللوغوس، وتجليات الطبيعة، مما يُشكّل الأبعاد النظرية للغرب الكَونَويّ. لقد خضعت الآلهة اليونانية لعملية علمنة من جوانب متعددة، مما مكّنها من الظهور في إطار العدمية ذات الطابع الكَونَويّ اليوناني، كمادة للصورة النوعية للعالم اليوناني-الروماني، بشكل يختلف جوهريًا عن وضعها في العالم الأسطوري.

«ما يميّز الإغريق عن غيرهم (وكذلك إلى حد كبير الرومان الذين استمدّوا معظم أساطيرهم من الأساطير اليونانية) هو أنّهم صوّروا آلهتهم بشكل بشري، بل ومنحوها عواطف بشرية. وكما تشير الباحثة الشهيرة «إدث هاملتون»: «كان الإغريق يشكّلون آلهتهم على صورتهم وهيئتهم. هذا الأمر لم تكن له سابقة؛ فحتى ذلك الوقت، لم تكن الآلهة تشبه أيّ شيء واقعي أو كائن حيّ معروف. في مصر، كانت هناك تماثيل ضخمة ثابتة، حتى الخيال لم يكن يستطيع تحريكها، أو وجه عبوس لامرأة برأس قطّة، يُرمز به إلى القسوة، أو أبو الهول الضخم الغامض، البعيد عن متناول الكائنات الحية. وفي بلاد ما بين النهرين، كانت النقوش البارزة تمثّل كائنات لا تشبه أيّ حيوان معروف، وبشرًا برؤوس طيور، وأسودًا برؤوس ثيران. كانت هذه الإبداعات من صنع فنّانين ساعين إلى خلق أشياء تُعبَد قبل الإغريق. لكن يكفي أن يتخيل المرء إلهًا يونانيًا بكل جماله وبساطته وطبيعته بجانب تلك الصور ليُدرك أنّ فكرة جديدة تمامًا قد ولدت، فكرة بمجيئها جعلت العالم عقلانيًا»[١].

ما يتحدّث عنه كاتب النص الذي أوردناه، والذي يشيد به تحت عنوان

١. ناردو، اسطوره‌های یونان و روم، ١١.

«عقلنة» التذكارات الأسطورية، هو في الحقيقة هيمنة الصورة النوعية للعدمية ذات الطابع الكَونَويّ على الصورة النوعية التي سبقتها. هذه الهيمنة أدّت إلى أن تتحول الأساطير اليونانية في إطار الكَونَويّة اليونانية-الرومانية، فتغيرت حالتها وطبيعتها لتكتسب طابعًا قريبًا من خصائص الإنسان اليوناني في عصر الكَونَويّة. تحت سيطرة العقل اليوناني وآفاقه العلمانية ذات الطابع الكَونَويّ، أصبحت تلك الأساطير خاضعة للعقل الدنيوي اليوناني، واكتسبت صبغة أكثر دنيوية وعلمانية.

ظهر هذا التصوّر العلمانيّ والمجسّد للآلهة وسائر الكائنات السماوية في الفكر العدميّ اليوناني بدايةً في منظومات «هوميروس»، ثم في أعمال «هسيود»، لكنه امتدّ تدريجيًّا ليشمل جميع مظاهر الأدب والفلسفة والفنون اليونانية، بحيث نجد شواهد ودلائل على ذلك في مختلف الأعمال الأدبية والتاريخية والفلسفية. ومن بين هذه الأعمال، يمكن الإشارة على سبيل المثال إلى قصائد «بيندار» الشاعر الغنائيّ في القرن السادس قبل الميلاد، وأعمال الكُتّاب المسرحيّين المشهورين مثل «إسخيلوس»، و«سوفوكليس»، و«يوربيدس»، و«أريستوفان»، وكذلك إلى أعمال مؤرخين مثل «هيرودوت»، وأيضًا إلى نصوص أدبية تعود إلى مؤلفين مجهولين (مثل «الأناشيد الهوميرية» التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد ولم يُعرف شاعرها أو شعراؤها)، فضلًا عن الأعمال الباقية للفلاسفة قبل سقراط والمفكرين الذين جاءوا بعدهم. أما هذه المنظومة العلمانيّة للآلهة اليونانية التي ظهرت في الساحة الثقافية-الأدبية وفى الجوانب النظرية والأدبية المتعددة للعالم اليوناني تحت ظل مركزية الكون والعقلانية ذات المحور الكَونَويّ، فمن هم هؤلاء الآلهة وما هي سيرتهم؟ ينبغي أن نذكر أنّنا، في الحديث عن أسرة الآلهة

اليونانية ذات الصفات البشرية، سنكتفي أولًا بعرض موجز وإشاري ومختصر، وثانيًا سنركز اهتمامنا على «زيوس» بوصفه إله الآلهة. وذلك لأنّ هذا الكتاب لا يتّسع لبحث أعمق أو أكثر تفصيلًا.

تقرير الفكر الكَونَويّ اليونانيّ حول خلق العالم وولادة الآلهة يبدو على النحو التالي: في البداية، في زمنٍ قديم جدًا، كان هناك فقط فراغٌ فوضويّ وغير منتظم يُسمى «خاوس». وفي الفكر الكَونَويّ اليونانيّ، يُعتبر «خاوس» نوعًا من «الهرج الأزليّ». مرّ وقتٌ طويلٌ حتى وُلدَ من «خاوس» طفلان: «الليل» و«إيربوس». يُعتبر «إيربوس» أعماقَ الظلام الساكن والراكد الذي يعيش فيه الأموات. وهكذا، استمرَّ الظلام المرعب لليل والصمت والسكون فترة طويلة. بعد ذلك، ظهر «إيروس» (الحرص) من خلال اختراقه للظلام. وقد أضفى إيروس النظام على فوضى «خاوس»، فاستقرت العناصر الثقيلة، وظهرت الأرض، وبعدها ظهر السماء. سُمِّيت الأرض «غايا»، وهي إلهة أنثوية، في حين سُمِّيت السماء «أورانوس»، وهو إله مذكر و«أب السماء». أنجب أورانوس وغايا أبناءً يُسمّون «التيتانيين». أورانوس (إله السماء) هو في الوقت نفسه ابن وزوج لغايا. تُعتبر غايا، إلهة الأم أو أم الأرض، أعظم إلهة أنثوية في اليونان. وقد وُلِدَ أورانوس من غايا، بينما خُلِقَت غايا بواسطة إيروس (الحرص) من خلال تنظيمه لعناصر «خاوس» الفوضوية[1].

بعبارةٍ أخرى، يمكن القول إنّ «إيروس» (إله الحرص) قد وضع نظامًا للعناصر غير المنتظمة (خاوس)، فخلق الأرض ومن ثَمّ السماء من داخلها. بناءً على ذلك، فإنّ أساس خلق الأرض والسماء والآلهة والبشر يعتمد على نظامٍ

1. Bellingham, An Introduction to Greek Mythology, 23-35.

متسمٍ بالحرص والشهوة.

مـن خلال اتحاد غايا وأورانوس وُلِدَ ثلاثة أنواع من الكائنات: ١- الجبابرة أو العمالقة ذوي المئة يد وكانوا ثلاثة توائم، ٢- السـيكلوب، وهم كائنات ذات عين واحدة، وكانوا قويين وذوي أجسـام ضخمة، ٣- التيتانيون، الذين كانوا ثلاثة عشر، ومن نسـل الخالدين، وقد حكموا الأرض لفترة قبل انتصار زيوس وآلهة الأولمب[١].

من هم التيتانيون؟ كان التيتانيون كائنات «شـبيهة بالبشر ولكن أكبر بكثير وأقوى منهم. من بين هؤلاء التيتانيين، كان هناك «أوكيانوس» و«تتوس»، اللذان سـيطرا على البحار، و«هوبيريون» و«ثيا»، اللذان أصبحا إلهين للشمس والقمر عـلى التوالي، و«ريثا»، التي أصبحت جدّة فيـما بعد، وأخيرًا أصبح «كرونوس» (الذي كان الرومان يطلقون عليه اسم «ساتورن») أصغر وأقوى جميعهم»[٢].

كان أورانوس يُعامِل بعضًا من التيتانيين الذين كانوا قبيحين بشـكلٍ سيّء. وفي النهاية، قرّر كرونوس، أحد التيتانيين، التمرد على والده أورانوس بمساعدة والدتـه غايا (التي كانت أيضًا زوجة لأورانوس) وأطاح به من حكمه، ليصبح هو خلفًا له. وبعد أن وصل كرونوس إلى حكم السـماء، تزوّج من أخته «ريا»، التي كانت هي الأخرى من نسـل التيتانيـين، وهكذا بدأ عصر حكم التيتانيين. أنجـب كرونوس وريا أبناءً، ولكن خوفًـا من أن ينقلب هؤلاء الأبناء ضده كما فعـل هو مع والده أورانوس، ويطردوه من الحكم كما فعل مع والده، كان يبتلع كل طفل يولد. وقد أثار هذا التصرف استياء زوجته ريا. ابتلع كرونوس، الذي

١. روزنبرگ، اساطير جهان، ٣٣، ٣٥.

٢. ناردو، اسطوره‌های یونان و روم، ١٧.

كان يُلقّب بـ «ابن السماء»، جميع أبنائه بمجرد ولادتهم. ولكن ريا، باستخدام الحيلة، تمكّنت من إنقاذ الطفل السادس، الذي كان هو زيوس. كَبُر زيوس في الخفاء، بعيدًا عن نظر والده كرونوس، دون علمه، وفي النهاية، بمساعدة جدته غايا، تمرّد على كرونوس. نشبت حرب دموية بين زيوس وآلهة الأولمب وبين التيتانيين، وفي النهاية انتصر زيوس. قامت غايا وزيوس بإعطاء كرونوس دواءً سامًّا، مما جعله يتقيّأ جميع الإخوة والأخوات الذين كان قد ابتلعهم، وهم: هيستيا (التي كانت تُعرف في روما بـ «فستا»)، ديمتر (التي كانت تُعرف في روما بـ «سيريس»)، هيرا (التي كانت تُعرف في روما بـ «جونو»)، هاديس (الذي كان يُسمّى في روما بـ «بلوتو»)، و بوسيدون (الذي كان يُسمّى في روما بـ «نبتون»). هؤلاء كانوا إخوة زيوس الذين، بعد أن خرجوا من بطن كرونوس، اتحدوا مع زيوس ضد والدهم. في الحرب بين آلهة الأولمب والتيتانيين، انضمّ بروميثيوس وأخوه أبميتيوس، اللذان كانا من التيتانيين، إلى جانب زيوس وآلهة الأولمب. إنّ ظهور وغلبة آلهة الأولمب على التيتانيين في منظومة الآلهة العلمانية اليونانية، تُعدّ علامة على انتصار الجانب البشري والناسوتي في مجموعة عائلة الآلهة اليونانية في بداية عصر محورية الكون. وفقًا للمعتقدات اليونانية، قام زيوس وبقية الآلهة الأولمبية بتقسيم الأرض فيما بينهم. كان معظمهم يعيشون حياةً أرستقراطية على قمة جبل أولمب. في الواقع، كانت طباع وسلوك آلهة الأولمب تمثيلًا لنظام ديمقراطي عسكري-أرستقراطي كَونَويّ، الذي ظهر في المرحلة الأولى من تاريخ الغرب. في أعمال هومر وهسيود، نواجه صورة من الآلهة الأولمبية يمكن تلخيص خصائصهم الرئيسية على النحو التالي:

١. في منظومة الآلهة اليونانية، غالبًا ما يتحالف الأبناء مع أمهاتهم ويقومون

بالتمرد ضد آبائهم. يبـدو أنّ الفضاء الكَونَويّ بُني على هذا الصراع بين الأبناء (بتعاون مع أمهاتهم) ضد الآباء. قد يشـير هـذا الموضوع إلى عمق تأثير مفهوم قتـل الأب في تاريخ الغرب، وهو أمر يظهر بشـكل واضح في الغرب الحديث من خلال المعارضة الشـديدة لما يُسمّى «السـلطة الأبوية»، كما يتجلّى في انتشار نظريات مثل «عقدة أوديب» في التحليل النفسي الفرويدي والفرويدية الجديدة، وكذلك في بعض الظواهر الاجتماعية والسياسـية الأخرى. هذا السلوك يظهر أيضًا في نوع من العلاقة بين الشباب والآباء ضمن إطار الأسر الحداثية، وخاصة الليبرالية.

٢. زواج المحارم (مثل زواج الأم بابنها، وزواج الأخت بأخيها) في منظومة الآلهة اليونانية هو أمر شائع ومألوف، وهذا يكشف عن الجوهر غير الأخلاقي وغير الديني في العالم اليوناني وآلهته العلمانية.

٣. الآلهة اليونانية عادة ما تكون ظالمة وعديمة العقل، وتقوم بأفعال خاطئة وقبيحة. فالآلهة اليونانية تكذب وتخدع بعضها بعضًا.

٤. الآلهة اليونانية أسـيرة للشـهوات البشرية، وهي ضعيفـة جدًا أمام هذه الشـهوات وعاجزة عن مقاومتها. ليس لديهم الفضائل الأخلاقية، أو السـموّ الوجودي، أو القداسة، أو الترفع الروحي.

٥. الآلهة اليونانية، وكأنّها تمثّل سلوك وحياة الأرستقراطيين العسكريين، قد تمّ نسـخها تمامًا في هيكل المدينة الديمقراطية العسكرية-الأرستقراطية لليونان في القرن الثامن قبل الميلاد.

٦. ألقاب مثل: «ابن السماء» لقب كرونوس، «أب السماء» لقب زيوس، وما شـابهها، التي انتشرت لاحقًا في المسـيحية التاريخية وفي الغرب خلال العصور

الوسطى وما بعدها، هي اقتباسات من التصور اليوناني العميق المادي والوثني حول العلاقة بين السماء والأرض، وبين العوالم المقدسة والمادية، وبين المقدسين والبشريين، وهي مفاهيم انتشرت في تاريخ الغرب وأصبحت سارية ومرتكزة فيه.

٧. الدين والآلهة والشؤون الروحية والمقدسة ليس لها دور محوري في حياة اليونانيين. يمكن القول أنّ الدين في العالم اليوناني له طابع غير مقدس وشركي وغير توحيدي في جوهره، فآلهتهم موجودات غير متعالية ولها شخصيات وأفعال قبيحة وغير أخلاقية وشريرة. ثانيًا، يُعتبر الدين في العالم اليوناني-الروماني جزءًا من الحياة المدنية، ويُطرح كعنصر بجانب عناصر أخرى تُكوِّن جوهر حياة غير مقدسة ومادية لدى اليونانيين. في الغرب اليوناني-الروماني، الدين لا يشغل مركزيّة أو دورًا محوريًا، ولا يمتلك صلاحية التشريع أو التوجيه للأفراد أو الجماعات. في هذا السياق، لا يُعتبر الدين أساسًا جوهريًا أو موجِّهًا للمعنى أو المسار في حياة البشر، ولا يُطرح كمعيار أو مقياس لتحديد شؤون الحياة.

٨. في منظومة آلهة اليونان، يُعتبر زيوس إله الآلهة. ولكن في الواقع، يحمل زيوس هوية استبدادية وطاغوتية. فهو إله ميّال إلى النساء، محبّ للملذات، وفاسد. كما يتضح من قصص علاقاته غير المشروعة وكثرة عشيقاته وأكاذيبه وأسطورة تفاخره وحتى في بعض الحالات من انتهاكاته تجاه الآلهة الأنثوية والحوريات وحتى النساء الأرضيّات (من دمتر، أخت زيوس، إلى أوريونوما وليتو وداناي، ابنة البشر، وغيرها)[١]، فإنّ شخصية زيوس تُظهر أساسًا صورة لأرستقراطي فاسد الأخلاق، ميّال إلى النساء، لا يهمّه سوى شهواته، وماكر

١. للمزيد من التفصيل، يُرجى الرجوع إلى: شفا، افسانه خدايان؛ وأيضًا:
Bellingham, An Introduction to Greek Mythology.

وظالم، يمتلك قوة كبيرة وهو خالد. بالطبع، تتّحد قدرات زيوس مع قوى أخرى مثل القَدَر، والطبيعة، وقوانينها، واللوغوس، وبعض ظواهر الكوسموس، بل وحتى قدرات البشر في التنافس أو الصراع مع الآلهة، مما يحدّ من قوته. زيوس من بعض الجوانب هو أحد مظاهر الكون والنظام الكَونَويّ، ويُعتبر جزءًا من الكوسموس.

المدينة اليونانية والمدينيّة

بدأ العالم الغربي اليوناني بالظهور منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد تأسّس هذا العالم، منذ نشأته، على نظام سياسي-اجتماعي تجلّى في صورة مدن صغيرة أو كبيرة تحمل هوية يونانية، وتتمتّع بإحساس بوحدة الهوية مع المدن الأخرى، لكنها كانت، في الوقت ذاته، مستقلّة سياسيًا عنها.

في الفترة الممتدّة بين القرن الثامن والسادس قبل الميلاد، ترسّخت هذه الصيغة السياسية-الاجتماعية بشكل كامل، وبدأت في توسيع وتحقق إمكاناتها التاريخية. في اليونان، نجد مفهومًا يُعرف باسم «بوليس»[1] أو المدينة، وهو مفهوم يتجاوز بكثير معنى المدينة كمكانٍ لعيش البشر. فهذا المفهوم يتجاوز الدلالة السياسية البحتة ليصبح انعكاسًا وتمثيلًا لهوية يونانية متكاملة. ينبغي فهم المدينة اليونانية وتعريفه من خلال علاقته بالكون، ومن ناحية أخرى استيعاب دوره في تعريف الإنسان داخل العالم اليوناني. عندئذٍ تتضح المكانة الخاصة والدور المحوري الذي تضطلع به هذه المدينة.

المدينة اليونانية تُعرَّف في إطار الكون باعتبارها صورة ثانية له. العالم اليوناني، في ظل الكَونَويّة، يتمحور حول «المدينة» حيث يتحقق وجوده. وفي الأساس، في

1. polis

الفكر اليوناني، الإنسانية قائمة ومشروطة بعضوية «المدينة»، ومن ليس عضوًا فيها ليس إنسانًا على الإطلاق. بناءً على ذلك، اعتقد اليونانيون أنّ غير اليونانيين (لأنّهم لا يعيشون في «المدينة») ليسوا بشرًا، وكانوا يرون أنّ غير اليونانيين يجب أن يكونوا عبيدًا لليونانيين (الذين يُعتبرون بشرًا لأن هويتهم مشتقة من «المدينة»). وفي الفكر اليوناني، يتجلى التراتب بين الكون، والمدينة، والإنسان كما يلي: الكون (الكاسموس) « المدينة (بوليس) « الإنسان.

لذلك، عند ترجمة «بوليس» إلى «المدينة»، يجب الانتباه إلى أنّها تحمل معنى يتجاوز بكثير، وبطبيعة مختلفة، عما نعرفه في حديثنا اليومي عن مفهوم المدينة. ففي الفكر اليوناني، «بوليس» هي المكان الذي تتجلّى فيه إنسانية الإنسان وهويته، حيث تتحقق وتصبح فعلية، وهي المجال الذي تُمارَس فيه السياسة وتتحقق الحرية. ومع ذلك، فإنّ ما يقصده الفكر اليوناني بالسياسة والحرية، وعلاقتهما بـ«المدينة»، يختلف جوهريًا عما يُفهم من هذه المفاهيم في العالم الحديث وكذلك في العالم غير الغربي.

«المدينة» تُعبّر عن صياغة سياسية-اجتماعية وهوية خاصة نشأت من عمق الكَونَويّة، حيث تجسّد وتمثّل الكون في ظهور سياسي، أو بالأحرى في ظهور يتجاوز بكثير حدود السياسي التقليدي. «المدينة» هو تحديد وتجسيد وتحقيق للكون، ولا يقتصر مجاله وحدوده على السياسة بالمعنى المألوف الذي نعرفه. في الفكر اليوناني، تعريف السياسة يختلف جذريًا عما هو شائع في العالم المعاصر. «المدينة» تمثل مجالًا واسعًا ضمن إطار الكون، حيث تتحقق ماهية الإنسان كلها وتُعرّف في ظلّه. ومن جهته، لا يمكن فهم «المدينة» إلا باعتبارها فضاءً شاملًا يندرج في إطار الكون.

في العالم اليوناني، إذا كان الفرد منتميًا إلى «المدينة» وداخل إطار «بوليس»،

فإنّه يُعتبر إنسـانًا ويحصل على تعريف للحقوق الإنسـانية. أمـا إذا لم يكن تابعًا لـ«المدينـة»، فهو ليس إنسـانًا على الإطلاق. ولذلك، فـإنّ الانتماء إلى «المدينة» يسـبق مفهوم الإنسـانية وامتلاك الحقوق الإنسـانية. في العالم اليوناني، لم يكن العبيد والنسـاء والرجـال المقيمون في أثينا من غير الأثينيـين الأصل جزءًا من «المدينة»، وبالتالي لم يُعتبروا بشرًا. فقد كان العبيد، في الفكر اليوناني، أدوات حيّة لا أكثر. وعندما يعرّف أرسطو الإنسان بقوله: «الإنسان حيوان سياسي (حيوان ينتمي إلى بوليس)»، فإنّه يتحدث بدقّة عن العلاقة بين إنسانية الإنسان وماهيته وبين «المدينة». في الواقع، هذا التعريف الذي قدّمه أرسطو عن الإنسان (والذي تُرجم بشكل خاطئ وفُهم بشكل أكثر خطأ) يستند إلى الكَونَويّة اليونانية، حيث يعرّف ماهية الإنسـان ضمن إطار «المدينة». وهذا هو ما أشرنا إليه سـابقًا: إنّ إنسانية البشر قائمة، ومشروطة، ومنوطة بالانتماء إلى «المدينة». ولذلك، فإنّ غير اليونانيين الذين لا ينتمون إلى المدينة اليونانية ليسوا بشرًا.

«بوليس» من الناحية اللغوية، تعود إلى مفهوم «الجدار المستدير»، وتعبّر عن نوع من رسم الحدود والتحديد. فكأنّما تقوم «بوليس» بتعيين الحدود ورسم إطار يحقّق هوية محددة ومعينة. ولكن ما الذي تحدّه «بوليس»؟ وما هو الشيء الذي تمثل له الحصن والإطار؟ في «بوليس» (المدينة)، تتحقق هوية ما، هوية ترسـم حدود ومعايير الإنسانية، وتفصل الإنسان عن الحيوانات، والأدوات، والأشياء، وعن العبيد الذين يُعتبرون أدوات حية. «بوليس» ترسم خطًا يحيط بـ«الإنسان»، أي أولئك الذين يعيشـون في إطار «المدينة» وفق القوانين المستمدة من الكون. هذه القوانين (نوموس) تتيح لهم حياة تتدفق من خلال الكلام. الكلام بين البشر في «المدينة» هو جوهر مفهوم السياسة في الفكر اليوناني، سياسة تُجسد مجال الحرية،

وليس الضرورة. في العالم اليوناني، «بوليس» تعني المدينة كما تعني المواطَنة. المواطَنة حول «بوليس» تُكمل البُعد الروحي للفضاء الفيزيائي للمدينة. هذان المحوران معًا-المدينة والمواطَنة-يتضمّنان حدودًا وحصنًا يمثّلان جوهر مفهوم «بوليس» (المدينة). بعبارة أخرى، في العالم اليوناني، «بوليس» هو مفهوم ينطوي في ذاته على نوع من رسم الحدود وإضفاء الهوية، وهذه العملية تتحقق عمليًا وفيزيائيًا من خلال وجود الأفراد الإنسانيين وتجمعاتهم. ولكن جوهر «المدينة» ليس في ذلك الفضاء الفيزيائي الذي يجتمع ويعيش فيه البشر، بل يكمن في تلك العلاقة التي تنشأ بين الأفراد، وهي العلاقة التي تعرّفهم وتمنحهم هوية بصفتهم مواطنين (أي منتمين إلى المدينة)، وبالتالي بصفتهم بشرًا. جوهر «بوليس» يتمثل في طبيعة العلاقات، أو بالأحرى النسبة التي تجمع بين الأفراد المنتمين إليها، والتي تُعرّفهم كـ«مواطنين» وتضفي عليهم هوية إنسانية. وهذه النسبة هي ما يميّز «بوليس» عن سائر التجمعات البشرية الأخرى، مثل «جينوس» (في اليونان الأسطورية وقبل عصر المدينة)، أو الأمّة الدينية، أو الانتماءات القبلية، أو حتى مفهوم الدولة القومية الحديثة. ما يجعل «بوليس» فريدة ومتميزة هو أنّها تتحقق في إطار الكسموس، وتُعتبر تجسدًا ثانويًا له. لذلك، يجب التنبّه إلى أنّ أيّ تجمع بشري أو حتى أيّ مدينة فيزيائية لا يمكن افتراضها كـ«بوليس» ولا يمكن وصفها بالمدينة. تحقّق «المدينة» في مفهومها اليوناني يقوم على تحقيق العلاقة التي تنشأ بين «بوليس» والكون والإنسان، حيث تتجلّى هذه العلاقة في شكلها العام ضمن القانون المستمد من الكون، أي الناموس. والناموس نفسه يستمد جذوره من الإصغاء إلى «لوغوس»، إذ إنّ «لوغوس» هو نطق الطبيعة (فوسيس) وأحد تجليات الكون. يكتب «فوستل دوكولانج» في شرحه للفارق

بين مفهوم «بوليس» والمدينة في العالم القديم ما يلي:

«"بوليس" و"البلدة" لم يكونا مفهومين مشتركين في اللغة القديمة، إذ إنّ "بوليس" كانت تُطلق على الاجتماع السياسي والديني للأسر والعشائر، بينما كان يُطلق "البلدة" [town] على المسكن والموقع الذي يجمع تلك الاجتماعات. كذلك، لا ينبغي مقارنة المدن القديمة بالمدن الحديثة، حيث إنّ تأسيس المدينة قديمًا كان يتطلب أولًا تأسيس البلدة»[١].

لا تتشكل «المدينة» إلا من «رجال أحرار»، أي رجال ليسوا عبيدًا، وينتمون إلى العرق اليوناني، وأبواهم أيضًا يونانيان. لكن الميزة الأهم لهؤلاء الرجال الأحرار، أي مواطني المدينة أو سكان «بوليس»، هي أنّهم متحرّرون من الضرورات الاقتصادية. بمعنى أنّهم لا يحتاجون إلى العمل لكسب قوتهم أو تأمين معيشتهم. في الفكر اليوناني، العمل من أجل الدخل والمعيشة يُعتبر مجال الضرورة، وهو نقيض مجال الحرية. هؤلاء الرجال، لأنّهم ليس لديهم انشغال بهموم المعيشة وقد تحرروا من مجال الضرورة، يصبحون مواطنين، ينتمون إلى «بوليس» ويُعدّون أعضاء في المدينة. المدينة هي مجال الحرية. مجال «المتساوين»، أي أولئك الذين لا يحتاجون إلى الخضوع لأحد لتسيير أمورهم الاقتصادية، ولا يكونون تحت سلطة أحد.

هؤلاء أحرار، وفي المدينة، إلى جانب أفراد أحرار آخرين، يمارسون الفعل السياسي. جوهر هذا الفعل السياسي هو الخطابة والسعي من قِبل «المتساوين» (أي الأفراد الأحرار) لإقناع بعضهم بعضًا وكسب دعم الآخرين. وهكذا، يُنظر إلى مجال «المدينة» على أنّه مجال الحرية، ويُعرّف جوهر السياسة بأنّه الجهد الذي يبذله «المتساوون» لإقناع بعضهم البعض، حيث تكون الخطابة أداة

١. فوستل دوكولانژ، تمدن قديم، ١٣٣.

الإقناع الرئيسية. لكن سؤالًا مهمًّا يطرح نفسه: كيف يعيل هؤلاء «المتساوون» أنفسهم وهم يتحاورون في «بوليس»، مجال الحرية؟ فقد ذكرنا أنّهم متحررون من الضرورة الاقتصادية، ولا يحتاجون للعمل أو الخضوع للأوامر لكسب رزقهم (وهو ما يجعلهم أسرى مجال الضرورة، وبالتالي لا يُعتبرون أحرارًا). في الحقيقة، هؤلاء «المتساوون»، الذين نالوا صفة المواطنة والانتماء إلى «بوليس» بسبب استغنائهم عن العمل والسعي وراء المعاش، وبالتالي تحرّرهم من مجال الضرورة، هم في الواقع مالكو عبيد. إذ إنّهم يعتمدون على عمل عبيدهم لتأمين معيشتهم، ما يمنحهم الفرصة لعدم العمل بأنفسهم أو الخضوع لأحد.

وهكذا، تحرروا من الضرورة ودخلوا إلى مجال الحرية (مجال السياسة في «بوليس»)، وأصبحوا مواطنين. في الواقع، لولا وجود أعداد كبيرة من العبيد (الذين كانوا يُعتبرون «أدوات حية» بلا أي حقوق ويعيشون في أسوأ الظروف الممكنة وفي ظل أكثر العلاقات قسوة وظلمًا)، لما كان بالإمكان على الإطلاق طرح مفهوم «بوليس»، أو المواطَنة اليونانية، أو حتى المفهوم اليوناني للحرية. كانت المدينة اليونانية، نظريًا وعمليًا، صياغة اجتماعية-سياسية تتيح لبضعة آلاف من مالكي العبيد، بوصفهم أفرادًا أحرارًا ومواطنين، استغلال عشرات الآلاف من العبيد (الذين كانت أعدادهم ثلاثة أو أربعة أضعاف عدد المواطنين).

هذا الاستغلال لم يمنح هؤلاء المواطنين هوية متميزة فحسب، بوصفهم مواطنين، بل أهم من ذلك، جعلهم ينتمون إلى «بوليس»، وهو ما كان أرسطو يُصوغه في عبارته الشهيرة ζῷον πολιτικόν («حيوان سياسي» أو «حيوان ينتمي إلى المدينة»). بهذا الانتماء، كان هؤلاء يُمنحون «مقام الإنسانية» ويُعلَنون كـ«بشر». لأرسطو تعريف مشهور آخر للإنسان، وهو تعريف مكمّل ومرتبط بالمعنى ذاته الذي ناقشناه حول مفهوم «الحيوان المنتمي إلى المدينة». ففي تعريف

آخر للإنسان (والذي يُعبِّر في الواقع عن وجه آخر للمدينية أو محورية البوليس في الفكر اليوناني)، يستخدم أرسطو العبارة التالية: ζῷον λόγον ἔχον، أي «حيوان يمتلك القدرة على الكلام» أو «حيوان ناطق». ولكن يجب التنبّه إلى أنّ الأعداد الكبيرة من العبيد والنساء والأطفال اليونانيين-الذين لم يُعتبروا بشرًا بأيّ حال-كانوا أيضًا يمتلكون القدرة على الكلام، أو بمعنى آخر، كانوا «حيوانات ناطقة». إذن، ما الفرق بين هؤلاء العبيد والنساء والأطفال وبين سكّان المدينة اليونانية الذين كان يُشار إليهم بكونهم «حيوانات ناطقة» كتعريف لهم؟ لفهم الموضوع، يجب أن نلتفت إلى هذا الجانب المهم في الفكر اليوناني، وهو أنّ ماهية وحقيقة الإنسان تُعرَّف وتتحقق ضمن إطار المدينة اليونانية (بوليس).

لذا، يجب أن ننظر إلى بوليس ودور النطق والكلام في إطارها. لقد ذكرنا أنّ بوليس هي مجال الحرية والسياسة، وأنّ الأداة الأساسية للسياسة في بوليس هي النطق والبلاغة واستخدام اللغة لإقناع المتساوين. عندما يُعرّف أرسطو الإنسان بأنّه «حيوان ناطق»، فإنّه يشير إلى أولئك الذين يستطيعون توظيف قدراتهم على الخطابة والنطق واللغة لإقناع الآخرين داخل بوليس. وبناءً على ذلك، فإنّ المقصود بالنطق في هذا التعريف ليس مجرد القدرة على الكلام (وهي قدرة يمتلكها العبيد والنساء والأطفال وغير اليونانيين أيضًا)، بل المقصود هو القدرة على الكلام ضمن بوليس وفي إطارها. إنّ القدرة على النطق داخل بوليس، وفي مجال المدينة، هي التي تشكل السمة المميزة التي تحدد أنّ سكان بوليس هم بشر، بينما الآخرون ليسوا «حيوانات ناطقة» ولا «حيوانات تنتمي إلى المدينة» أو «حيوانات سياسية».

«تعريف أرسطو للإنسان بوصفه ζῷον πολιτικόν ... لا يمكن فهم هذا التعريف بشكل كامل إلا إذا أضفنا إليه تعريفه الشهير الآخر للإنسان، أي هذا

التعريف الذي يقول إن الإنسان هو ζῷον λόγον ἔχον. الترجمة اللاتينية لهذا المصطلح إلى animal rationale [الحيوان العاقل] تقوم على سوء فهم عميق تمامًا مثلما هو الحال مع مصطلح «الحيوان الاجتماعي»».[١]

لفهم حقيقة «بوليس» بشكل أفضل، يجب التعمق في تعريف «السياسة» في الفكر اليوناني وعلاقة «المجال الخاص» بـ«المجال العام»، لأنّ بوليس هو مجال السياسة. فما غاية السياسة في العالم اليوناني؟ وما الفروقات بين «المجال الخاص» (مجال الأسرة) و«المجال العام» (المجال السياسي)؟ في العالم الحديث، تُوضع السياسة في خدمة الأغراض الاقتصادية، ويتم تعريفها رسميًا كوسيلة لتحسين أوضاع حياة الناس، خصوصًا في المجالات الاقتصادية والمعيشية، مثل تخفيف الغلاء، خلق فرص العمل، تحسين مستوى المعيشة، توفير الرفاهية، توسيع نطاق الخدمات الصحية، وزيادة الدخل. في الواقع، السياسة في العالم الحديث أصبحت مجالًا لما كان اليونانيون يسمونه «مجال الضرورة». أما في العالم اليوناني، فالوضع كان مختلفًا تمامًا. في الفكر اليوناني، كان «المجال الخاص»، الذي يُمثّل نطاق الأسرة، هو مجال التعامل مع الشؤون الاقتصادية والمعيشية اليومية (مجال الضرورة).

وفي هذا السياق، كان الرجل الحرّ في الفكر اليوناني يُكلّف العبيد بتحمّل أعباء هذا المجال وما يتضمّنه من مشقّات ومسؤوليات. وبتحرّره من مجال الضرورة، يتمكن الرجل الحرّ من الدخول إلى مجال الحرية، أي «المجال العام»، وهو المجال السياسي في بوليس. وبذلك، نرى اختلافًا جوهريًا بين مفهوم السياسة في العالم الغربي اليوناني–الروماني والعالم الغربي الحديث. ففي العالم الحديث، السياسة

١. آرنت، وضع بشر، ٦٩.

هي مجال السعي لتحسين ظروف المعيشة والاقتصاد، وهي مرتبطة بمنفعة الفرد والمجتمع. أما في العالم الغربي القديم، فإنّ مجال السعي وراء المعيشة وتلبية الاحتياجات الاقتصادية كان يُحتقر ويُسمّى «مجال الضرورة»، حيث كانت هذه المهام تُترك للعبيد وتُدرج ضمن «المجال الخاص»، أي نطاق الأسرة. وفي المقابل، في العالم اليوناني، لم يكن مجال السياسة مرتبطًا بمعالجة القضايا الاقتصادية أو ما ينتمي إلى مجال الضرورة. ومن هنا يجب أن نسأل: ما الذي تسعى إليه السياسة في العالم اليوناني؟ وما الهدف من المجال العام للحياة (أي النطاق السياسي)؟ الإجابة هي أنّ السياسة في العالم اليوناني لم تكن تهدف إلى تسهيل الحياة أو توفير المعيشة أو تلبية الاحتياجات اليومية والمشكلات المرتبطة بها.

لم تكن غاية السياسة في اليونان السعي لتحقيق الرفاهية الاقتصادية، لأنّ القضايا المتعلّقة بالرفاهية والمعيشة والاحتياجات الحياتية كانت تُعتبر جزءًا من المجال الخاص، أي نطاق الأسرة. إنّ الإنسان اليوناني لا يستطيع أن يخطو إلى «المدينة» (حيّز الحرّيّة) إلّا بعد تحرّره من قيود الضرورة الناجمة عن كسب المعاش والمسائل الاقتصاديّة. فإذا لم تكن السياسة في العالم اليونانيّ ذي النزعة الكَونَويّة وسيلةً لسدّ الحاجات الاقتصاديّة وتحقيق الرفاه والتعامل مع مسائل العيش، فلأيّ غاية وُجدت إذًا؟ إنّ السياسة في اليونان وُجدت من أجل الإصغاء إلى اللوغوس والإنصات له، والسعي لفهم القوانين والأحكام المنبثقة من الكون، وهو سعيٌ يتحقّق من خلال الخطابة والإقناع بين «المتساوين» داخل البوليس. أمّا الإنسان الحرّ اليوناني، فإنّه بوصفه مواطنًا (وبوصفه إنسانًا) يجتهد داخل البوليس في التعرّف إلى الناموس، أي «القانون أو النظام الحاكم على الطبيعة»، وذلك عبر الإصغاء إلى اللوغوس والتحاور مع الآخرين حول ما سمعه منه، بغية

فهمه واستيعابه. إنّ المواطن في المدينة يسعى، من خلال الإصغاء إلى اللوغوس (الذي هو نطـق الطبيعة) والتحاور حول ما يسـمعه، إلى إدراك الناموس، أي القانون المنبثق من الكون، ومن ثمّ العمل على تطبيقه في صورة الأحكام والقوانين النافذة في المدينة. وبهذا، فإنّ المدينة، عبر فهم القانون الكَونَويّ وتجسيده وتحقيقه في الواقع، تزداد تطابقًا مع الكون، ويصبح العيش وفقًا للنظام الكَونَويّ سـبيلًا إلى تحقيق السعادة والازدهار.

في الفكـر اليونـاني، تأسّسـت المدينة لتوفير السـعادة للإنسـان (أي لأهل البوليس) وتحقيقها، وذلك من خلال التشريع القائم على الناموس، الذي يُدرَك عـبر الإصغاء إلى اللوغوس. وهكذا، فإنّ الإنسـان في البوليس يضع القوانين، ولكن ليس اسـتنادًا إلى أهوائه ورغباته بصفته ذاتًا نفسـانيةً مسـتقلةً وموجودًا قائـمًا بذاته، بل بناءً على القانـون الذي يُمليه الكون على الإنسـان عبر الطبيعة واللوغـوس. غير أنّ هذا النظام البوليسيّ المتمركـز حول الكون ذو طبيعة غير دينيّة وجائرة، بل إنّ الكون ذاته يشكّل صورةً من صور الطغيان.

«في الفكر اليوناني، مـن دون التغلّب على ضرورات الحياة وحاجاتها داخل المنـزل، لا تكون الحياة ممكنة، فضـلًا عن إمكانيّة تحقيق «الحيـاة الجيّدة»، ومع ذلك، فإنّ السياسة لم تكن قطّ من أجل الحياة ذاتها. فبالنسبة إلى أعضاء البوليس، كانـت الحياة المنزليّة تُعـاش من أجل تحقيق «الحياة الجيّـدة» داخل البوليس... وكان الفـارق الجوهـريّ بين البوليـس والمنزل أنّ البوليـس لم يكن يعترف إلّا بـ«المتساوين»، في حين كان المنزل مركزًا لأشدّ صور التفاوت وانعدام المساواة... وكان هذا التسـاوي [في المجال السـياسيّ] يعني العيش بين نظراء، مع ضرورة التعامل حصريًّا معهم، وهو أمر يستلزم وجود «غير المتساوين» الذين كانوا، في

واقع الأمر، يشكّلون غالبية السكّان في الدولة-المدينة»[١].

كان المواطنون اليونانيّون (وفي الواقع البشر، إذ إنّه في العالم اليونانيّ ذي النزعة الكَونَويّة-المدينيّة، لم يكن يُعَدّ «إنسانًا» إلّا اليونانيّون أهل البوليس) يمارسون داخل البوليس، بوصفهم «متساوين»، الخطابةَ والمناقشة والسعي إلى إقناع بعضهم بعضًا وسنّ القوانين وفقًا للناموس، الذي أدركوه عبر اللوغوس، وذلك تحت سلطان نطق الطبيعة (أي اللوغوس)، بل وبدقّةٍ أكبر، تحت سلطان الكون. وفي العالم اليونانيّ، تتحقّق الحرّيّة داخل البوليس، فهو فضاء الحرّيّة، غير أنّ هذه الحرّيّة كانت قائمةً على ضرورة فرض أقسى أشكال الاستغلال والاضطهاد ضدّ العبيد في المجال الخاصّ، أي في نطاق الحياة الأسريّة، حيث الحاجة والمعاش، وذلك كي يتحرّر الرجل الحرّ من حيّز الضرورة. في الفكر اليوناني داخل البوليس، يقوم الأصل على الخطابة والإقناع والحوار في ظلّ اللوغوس والكون، وهذا هو جوهر السياسة في اليونان.

غير أنّ السياسة اليونانيّة، بهذا المعنى الذي بيّنّاه، تتطلّب لتحقيقها شرطًا أساسيًّا بالغ الأهمّيّة، وهو إمكان التحرّر من الضرورة عبر ممارسة العنف ضدّ العبيد داخل المنزل. ومن ثمّ، فإنّ السياسة القائمة على اللاعنف، والحوار، والإقناع بين «المتساوين» داخل البوليس كانت تقوم في جوهرها على استغلال العبيد وممارسة العنف ضدّهم في المجال الخاصّ. وقد كان هذا العنف والاستغلال يُعتبران في الفكر اليونانيّ بمثابة «عنف ما قبل سياسيّ»، وشرطًا مسبقًا لا بدّ منه لتحقيق الحرّيّة، ولقيام السياسة التي تنبذ العنف وتعتمد على الخطابة بين «المتساوين» داخل المدينة. في الواقع، فإنّ السياسة اليونانيّة، التي يشيد بها مريدوها بوصفها قائمةً على نبذ العنف والإقناع والخطابة، كانت وفقًا

١. م. ن، ٧٤ - ٧٥، ٧٩.

للمعتقد الصريح لليونانيّين أنفسهم، ووفقًا لحقيقة حياتهم الواقعيّة، تتطلّب لتحقيق ذاتها ممارسة العنف ضدّ العبيد، الذين كانوا يُنظر إليهم بوصفهم أدواتٍ حيّة. وإذا أردنا أن نفكّ شفرة جوهر المدينة اليونانيّة من هذا المنظور، ونعبّر عنه بوضوح وبساطة، وجب القول إنّ المدينة، في الفكر اليونانيّ، هي الفضاء الذي يلتقي فيه مُلّاك العبيد المستغلّون، الذين يمارسون أفظع أشكال العنف ضدّ غالبيّة الناس، ليتحاور بعضهم مع بعض، بوصفهم بشرًا متساوين، ضمن إطار الرؤية الكَونَويّة اليونانيّة، وبعيدًا عن العنف. فالمدينة اليونانيّة، في حقيقتها، لا يمكن تصوّرها أو قيامها أصلًا من دون بُعدها الاستغلاليّ والاستكباريّ القائم على العبوديّة.

«كان البوليس مركزًا لاستغلال عمل العبيد والمعدَمين»[١]. وقد تناول أرسطو في كتابه الشهير السياسة طبيعةَ المدينة اليونانيّة، حيث يصف العبدَ فيها صراحةً بأنّه «أداة حيّة»، ويزعم أنّ العبد مملوكٌ لسيّده. ويرى أرسطو أنّ نظام العبوديّة ونظام السيّد والعبد نظامٌ طبيعيّ، بل متوافقٌ مع الكون ذاته، ويدافع عنه على هذا الأساس. كما يعتبر أنّ البوليس كيانٌ طبيعيّ ومتماهٍ مع النظام الكَونَويّ، ويذهب إلى الادّعاء بأنّ «كلّ من هو خارج البوليس (أي لا ينتمي إلى مدينة) ليس إنسانًا»[٢]، بل إمّا أن يكون وحشًا أو إلهًا. وبهذا، فإنّ أرسطو، بوصفه الفيلسوف المروّج والداعم للمدينة-الدولة اليونانيّة، ينكر إنسانيّة جميع غير اليونانيّين، بالإضافة إلى العبيد والنساء والرجال اليونانيّين الفاقدين للثروة، الذين لم يتحرّروا من حيّز الضرورة. ويؤكّد أرسطو أنّ المدينة، في إطار النظام الكَونَويّ، هي مصدر الكمال الإنسانيّ. يكتب أرسطو: «العدالة خاصّةٌ

١. دياكوف وغيره، جهان باستان، ٢:٤٧.

2. Aristotele, A Treatise on Government, 11.

بالمدينــة، لأنّ العدالــة، التي تعنــي إدراك الناموس وحفظه، هــي النظام الذي تقوم عليه المدينة»[١]. يدّعي أرســطو أنّ المدينة تهدف إلى تحقيق الكمال الأسمى، الــذي يتمثّل في العيش وفقًا للكون والامتثال له. أمّا العدالة التي يتحدّث عنها أرسطو، فهي ذات طبيعةٍ عدميّةٍ-كَونَويّةٍ (أي ذات ماهيّة طاغوتيّة). وما يسمّيه أرســطو «عدالة» ليس إلّا صورةً من صور الاستكبار، تتجسّد في نظام قائم على الاستغلال والعبوديّة والظلم، يُعرف بالبوليس. ينبغي الالتفات إلى أنّ السياسة والبوليــس في اليونان، وإن كانا مبنيّين على العبوديّة والاســتغلال، إلّا أنّ غاية السياســة في الغــرب اليوناني-الروماني، خلافًا للغرب الحديــث، لم تكن قائمةً عــلى الربح المتزايد المطلق وغــير المشروط والنموّ الاقتصــاديّ اللامحدود. فقد كانــت المدينة اليونانيّــة قائمةً حول طاغوتٍ يُدعى الكون، وهي تجســيدٌ لنظام طاغوتيٍّ قائمٍ على أســس متعالية، لا على مبدأ التأسيس الذاتيّ. والمدينة اليونانيّة ذات طبيعــةٍ مُظلِمة ومشركة، وهي فضاءٌ للضلال والجهل والطاغوتيّة والظلم وانعدام العدالة، غير أنّها، من ناحيةٍ أخرى، لا تمتلك طبيعةً إنسانوية، ومن هذا المنظور، فهي تختلف عن العالم الحديث وبُناه الفكريّة.

اليونان، مهد العبوديّة بوصفها نمطًا للحياة الاقتصاديّة

تبلورت بنيــة البوليس في اليونان منذ القرن الثامن قبل الميلاد، واســتمرّت حتــى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، وهــو العصر الذي بلغ فيه ازدهار المدينة اليونانيّة ذروته، والذي يشير إليه المؤرّخون باسم «العصر الذهبيّ». وقد استمرّ وجــود البوليس وهيمنته بعد ذلك، حتى ســقوط اليونان تحت ســيطرة فيليب المقدوني. وبعد خضوعها لســلطة مقدونيا وفي العصر الهلنســتيّ، اســتمرّ روح

١. م. ن، ١٥.

المدينة اليونانيّة ذات النزعة الكَونَويّة في التمدّد والتجلّي بأشكالٍ متعدّدة.

لم يكــن للمدينة اليونانيّة أن تتحقّق أو تســتمرّ بأيّ حــالٍ من الأحوال دون الاعتماد على عمل العبيد واســتغلالهم. فقد كان الغرب اليوناني-الروماني، من الناحية الاقتصاديّة، قائمًا أساسًــا على نظــام العبوديّة. وفي الواقع، لم تكن المدينة اليونانيّة سوى «حيّزٍ للحرّيّة» (كما كان اليونانيّون يصفونها ويفتخرون بها) بالنسبة إلى بضعــة آلافٍ من المواطنين اليونانيّين الأثرياء، لكن بثمن اســتعباد وإخضاع عشرات الآلاف من العبيد إخضاعًا كاملًا، غير أنّها كانت حرّيّةً موهومةً، قائمةً في ظلّ كَونَويّةٍ-مدينيّة، لم تكن سوى عين العبوديّة والخضوع لسلطان الطاغوت. إنّ نظام العبوديّة ليس مجرّد علاقة اجتماعيّة، بل هو منظومة اقتصاديّة-سياســيّة ومدنيّــة، تُفرَض في إطارها على عددٍ كبيرٍ من البشر، بوصفهم «عبيدًا»، أداءُ أيّ عملٍ يأمرهم به أســيادهم. ووفقًا لهذا النظام، كان العبيد يُســخَّرون للعمل في المــزارع والمنازل ورعاية المواشي والتعليم والقتــال والتمريض، وأيّ عملٍ آخر يحدّده مالكهم.

وكان العبد، في ظــلّ هذه العلاقات، محرومًا من أيّ حــقّ، ويُعامَل بوصفه مجرّد كائنٍ حيّ، بل يُنظر إليه، من بعض الجوانب، باعتباره أدنى من الحيوانات. لم يكن للعبد أيّ ســلطةٍ على ذاته، إذ كانت جميع شــؤونه في يد سيّده، الذي كان يملك الســلطة المطلقة عليه، حتّى أنّه كان يســتطيع قتله من دون أن يُحاسَب أو يُعاقَب على ذلك. وكان العبيد، في الغالب، أسرى حروبٍ لم يُقتلوا بل اســتُرقّوا واســتُخدموا في العمل، كما كان المفلســون والمدينون يُجبَرون على العمل عبيدًا لدى دائنيهم. ورغم أنّ مظاهر وأشكال العبوديّة ظهرت في مواضع متعدّدةٍ من هذا الكوكب منذ القدم، إلّا أنّ العبوديّة، بوصفها بنيةً اقتصاديّةً ســائدةً ونمطًا

للإنتاج، كانت خاصّةً بتاريخ الغرب، حيث نشأت وتبلورت في اليونان. وعلى هذا الأساس، ينبغي اعتبار اليونان مهد نظام العبوديّة.

«إنّ نمـط الإنتاج القائم على العبوديّة كان الابتكار الحاسـم الذي ميّز العالم اليوناني-الروماني ... فالإمبراطوريّات السومريّة والبابليّة والآشوريّة والمصريّة، أي تلـك الدول النهريّـة التي قامت على الزراعة الكثيفـة والريّ، والتي كانت عـلى النقيض من الزراعة الخفيفة القائمة على التربة الجافّة في عالم البحر الأبيض المتوسط، لم تكن اقتصاداتٍ قائمةً على العبوديّة، ولم تكن أنظمتها القانونيّة تحمل تصـوّرًا خاصًّا ومتميّزًا للملكيّـة المنقولة. أمّا دول-المـدن اليونانيّة، فهي التي جعلت العبوديّة، ولأوّل مرّةٍ، نظامًا مطلقًا من حيث الشكل، وسائدًا من حيث الانتشار، ومن خلال ذلك، حوّلتها من مجرّد احتمالٍ هامشيّ إلى نمطٍ للإنتاج قائمٍ على أسـسٍ منهجيّة... فقد كان نمط الإنتاج المسيطر في اليونان القديمة، والذي شكّل النسيج المعقّد الذي يهيمن على كلّ اقتصادٍ محلّيّ ويؤثّر في الحضارة المدينيّة برمّتهـا، هو نمط الإنتاج العبوديّ. وكانت العبوديّـة المحور الاقتصاديّ الذي ربط بين المدينة والريف، وجعل كليهما جزءًا من المصالح الواسعة للبوليس»[١].

يكتب نورمن إل. ماخت بشأن كلمة «العبد» ومفهومها ما يلي:

«إنّ كلمة slave (عبد) مشـتقّةٌ من الجذر Slav (السلافيّ)، وهو اسم القبيلة والأسلاف لمجموعةٍ من الشعوب في وسط وشرق أوروبا، الذين تعرّضوا، بين القرن الخامس والثالث عشر، لغزواتٍ متكرّرةٍ وعنيفةٍ أفضت إلى اسـترقاقهم. ويُلاحـظ أنّ المعادل لكلمة «عبد» في معظم اللغات الهندو-أوروبيّة مأخوذٌ من هذا الأصل السلافيّ. العبد هو شخصٌ يُعتبر جزءًا من ممتلكات شخصٍ آخر أو

١. اندرسون، گذار از عهد باستان به فئودالیسم، ٢٣ - ٢٤، ٢٨.

الدولة، وهو بمثابة أداةِ عملٍ، شأنه شأن المحراث أو المطرقة أو البغل. وغالبًا ما يكون لمالك العبد سلطةٌ مطلقةٌ على حياته ومماته. وكغيره من أشكال الملكيّة، كان العبد خاضعًا للبيع والشراء أو التأجير من قبل أسيادٍ آخرين. وكانت ظروف حياة العبيد وعملهم، إضافةً إلى القوانين التي تنظّم ملكيّتهم ومعاملة أسيادهم لهم، متغيّرةً بشكلٍ كبيرٍ تبعًا لاختلاف الأزمنة والأمكنة.

لكن القاسم المشترك بين جميعهم كان استعباد الرقيق وعجزهم عن السيطرة على حياتهم ومصيرهم. لقد كانوا بشرًا، بشرًا مثل مالكيهم، بل إنّهم في كثير من الحالات كانوا يتمتّعون بذكاء يعادل أو يفوق ذكاء أسيادهم. ومع ذلك، فقد كانوا يُعامَلون في نظر القانون والمجتمع بوصفهم أموالًا أو ممتلكات ... كان نظام العبودية جزءًا لا يتجزأ من المجتمع اليوناني منذ نشأته. ومن بين جميع الحضارات القديمة، كانت دول-المدن اليونانية أولى المجتمعات الحقيقية التي قامت على العبودية، حيث اعتمدت على عمل الرقيق في فعاليتها وتقدّمها وازدهارها. كانت طبقة الـ«بوليتيس»[1] مكوّنة من قلة من النبلاء الأثرياء ذوي النفوذ، بينما كان سائر الناس من الرعايا والعمّال والعبيد. أما مواطنو أثينا، فقد اعتبروا الاشتغال بالحِرَف والتجارة والعمل اليدوي أمرًا لا يليق بمقامهم، ولذلك أوكلوا معظم مهامهم إلى العبيد الذين كانوا يقومون بها عنهم. لكن لم يكن الحال على نحو أنّ جميع العائلات الأثينية كانت تمتلك عبيدًا. فالفلاح المحلي الذي يبيع محصوله في المدينة قد يكون لديه خادم يساعده في أعمال المزرعة، وإذا كان ثريًا، فقد يكون لديه خادمة تساعد زوجته في شؤون المنزل ورعاية الأطفال. في العصر الذهبي لأثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وهو العصر الذي

1. πολίτης

شهد بروز عدد كبير من السياسيين والشعراء والنحاتين والمؤرخين والمعلمين في هذه الدولة-المدينة، كان ما يقرب من نصف سكانها، البالغ عددهم نحو ١٥٥ ألف نسمة، من العبيد. وقد أسفرت الحروب المستمرة في اليونان القديمة عن أسر آلاف السجناء الذين استُخدموا بوصفهم عبيدًا. أما بعض العبيد التعساء، فكانوا يُجبرون على العمل في مناجم الفضة الأثينية. وكانوا يزحفون على بطونهم داخل أنفاق لا يزيد ارتفاعها على قدمين أو ثلاثة، مضاءة بمصابيح زيتية صغيرة، ليكدحوا في ظروف قاسية لا ترحم»[١].

كانت المدينة اليونانية وديمقراطيّتها قائمة على استغلال العبيد والعمل الشاق والظروف المعيشية القاسية التي فرضت عليهم. فمن دون العبودية، ومن دون تحويل مئات الآلاف من البشر إلى أدوات حية في مختلف أنحاء اليونان، ما كان للمدينة اليونانية أن تتحقّق أو تستمر في الوجود. يكتب بيري أندرسون عن دور نظام العبودية في الـ«بوليس» اليونانية:

«لا شك أنّ العبودية لم تكن مجرّد ضرورة اقتصادية، بل كانت عنصرًا حيويًا للحياة الاجتماعية والسياسية للمواطنين. فالـ«بوليس» الكلاسيكية، بغضّ النظر عن كيفية تصنيفها داخليًّا، كانت قائمة على قوة عمل العبيد، التي شكّلت الأساس لهيئتها وكمال جوهرها»[٢].

الديمقراطية الكَونَويّة العبودية

كان العالم اليوناني، في بُعده السياسي، قائمًا على نوع من الديمقراطية. غير

١. ماخت، تاريخ برده دارى، ٩، ١٠، ١٦، ١٨.

٢. اندرسون، گذار از عهد باستان به فئودالیسم، ٤٥ - ٤٦.

أنّ الديمقراطيــة اليونانية كانت، من حيث ماهيتهــا وصورتها النوعية، تختلف جوهريًا عــن الديمقراطيــة الإنســانوية (الديمقراطية الحديثــة). فقد ظهرت كلمة «ديمقراطية» وأول أشــكالها في العالم اليوناني. لكن، كما أشرنا، لا بد عند الحديث عن الديمقراطية من مراعاة الفارق الجوهري بين الديمقراطية اليونانية والديمقراطية الحديثة.

الديمقراطية مُشــتقّة من تركيب الكلمتــين «ديموس» و«كراتوس». يمكن ترجمــة «ديموس» في معناهــا الأوليّ في اليونان القديمة إلى «الشــعب»، غير أنّ تعريــف هذا المفهوم وتحديــد مصاديقه يســتدعيان دقة في النظــر. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد وحتى نهاية وجود المدينة اليونانية، طرأت تغيّرات على مفهوم «ديموس» ومصداقه، إلا أنّ هناك أمرًا واحدًا ظلّ ثابتًا ومستمرًّا: «ديموس» في اللفظ يعني «الشعب»، لكنّه لم يكن في أيّ وقت من الأوقات يشمل جميع البشر. في أوسع معانيه، كان «ديموس» مقتصرًا على الأحرار الأثرياء من ذوي الأصول اليونانية، الذين كانوا من أبناء الـ«بوليس» ومتفرّغين عن دائرة الضرورة. بعبارة أخــرى، كان مصداق «ديموس» في اليونان القديمة يشــمل فقط أولئك الذين كانــوا قادرين ومخوّلــين بل ومُلزَمين بالمشــاركة في شــؤون الـ«بوليس» (مجال الحرّية) مع غيرهم من «المتساوين» في العمل السياسي.

وعليه، لا بــدّ من التأكيد على أنّ «ديموس» في اليونــان كان يعني في اللفظ «الشــعب»، غير أنّ هذا «الشعب» كان له تعريف محدّد لا يشمل جميع من كانوا يعيشــون في اليونان، مثل الأعداد الهائلة من العبيد، وصغار الملاّك، والفلاحين المعدمين، والنساء. فـ«ديموس» في اليونان كان مفهومًا يُعرَّف انطلاقًا من العلاقة بالانتماء إلى الـ«بوليس»، وكان له نطاق محدود من المصاديق.

كانت الديمقراطية اليونانية تتميّز بثلاث خصائص أساسية مترابطة فيما بينها: ١- الديمقراطية اليونانية مدينيّة المحور (قائمة على الـ«بوليس»)؛ ٢- الديمقراطية اليونانية كَونَويّة النزعة؛ ٣- الديمقراطية اليونانية قائمة على العبودية. ولفهم ماهية الديمقراطية اليونانية، لا بد من النظر في هذه العناصر الثلاثة مجتمعة.

كون الديمقراطية اليونانية مدينية المحور يعني أنّها لا تكتسب معناها ولا تتحقّق إلا في فضاء الـ«بوليس» وضمن أغراضها ومقتضياتها ولوازمها. فالديمقراطية اليونانية ليست إلا وجهًا من وجوه السياسة في العالم اليوناني. في التقليد اليوناني-الروماني الغربي، كانت السياسة تجد مركز حضورها وحياتها وتجلّيها في الـ«بوليس»، حيث تتحقّق وتدخل حيّز الفعل. ومن هذا المنظور، كانت الـ«بوليس» ونظام الحكم المديني وحياة المدينة هي الجوهر الباطني للديمقراطية. أمّا «ديموس» في العالم اليوناني، فلم يكن سوى أولئك الذين ينتمون إلى الـ«بوليس».

الديمقراطية، من حيث الاشتقاق اللغوي، تتكوّن من «ديموس» + «كراتوس». لكن ماذا يعني «كراتوس»؟ الكلمة مأخوذة من الجذر «كراتوس»، الذي يمكن أن يعني «السلطة» كما يمكن أن يعني «القانون»، وفقًا لما يشير إليه أنتوني . آربلاستر[1]. وعليه، فإنّ الديمقراطية في معناها اللغوي الحرفي تعني «حكم الديموس» أو «التشريع من قِبَل الديموس»، وهذان المفهومان مترابطان، إذ يعبّران عن أوجه مختلفة لحقيقة معنوية واحدة. وعند تلخيص الأمر، يمكن القول إنّ الديمقراطية تعني حُكم الديموس عبر قناته التشريعية، أي عبر التشريع الذي يسنّه الديموس نفسه. فالديمقراطية هي بنية سياسية-مدينية

١. آربلاستر، دموكراسي، ٢٩.

تمنح الديموس حق التشريع، وتستند إلى الاعتقاد بأنّ هذا الحق يمنح الديموس سلطة الحكم. الديمقراطية، كما تحقّقت في اليونان، ليست سوى التجسيد العيني للتشريع وممارسة السلطة بناءً على هذه القوانين من قِبَل الديموس. وقد سبق أن ناقشنا مفهوم «ديموس» ومصداقه، وبناءً على ما تقدّم، يمكننا تلخيص الديمقراطية اليونانية على النحو الآتي: الديمقراطية هي نظام يقوم فيه الرجال الأثرياء من ملّاك العبيد في اليونان، الذين تحرّروا من ضغوط الكدح من أجل المعاش (أي مجال الضرورة)، والذين كانوا قلّة بالمقارنة مع باقي سكان البلاد، بممارسة التشريع داخل الـ«بوليس» بوصفهم أهلها، ثم يحكمون بناءً على تلك القوانين التي يسنّونها. ونظرًا لأنّ الجوهر الوجودي للـ«بوليس» كان قائمًا، من جهة، على عمل العبيد وممارسة العنف ما قبل السياسي ضدهم من قِبَل الديموس، ومن جهة أخرى، على الممارسة السياسية غير العنيفة بين أفراد الديموس بوصفهم «متساوين»، حيث تُدار شؤونهم عبر الخطابة والإقناع، فإنّ الديمقراطية اليونانية يمكن اعتبارها، من وجه، ديمقراطية مدينية، كما يمكن اعتبار تمركزها حول الـ«بوليس» أحد وجوهها الأساسية.

غير أنّ الـ«بوليس» تتحدّد ضمن أفق الكون وتتحقّق في إطاره. فأساس وجود الـ«بوليس» والممارسة السياسية داخل المدينة يقوم على الإنصات إلى نداء الـ«لوغوس» والتوافق مع النظام الكَونَويّ. الـ«بوليس» ليست سوى أحد تجلّيات الكون، والغاية النهائية للممارسة السياسية داخلها ليست سوى التشريع وفقًا للنظام الكَونَويّ، بما يجعل المدينة تجسيدًا ثانويًا للكون نفسه. من هذا المنطلق، يمكن القول إنّ المدينة اليونانية ذات طابع كَونَويّ، وبالتالي فإنّ الديمقراطية اليونانية أيضًا تحمل طبيعة كَونَويّة. فالتشريع الذي يقوم به

«الديموس» داخل المدينة يرتكز على النظـام الكَونَويّ، الناموس واللوغوس، وهو، على العكس من الديمقراطية الحديثة، لا يسـتند إلى مبدأ الذاتية المستقلة. فالديمقراطية اليونانية ليسـت «ذاتية التأسـيس» بل «تأسيسية في جوهرها»، إذ تسـتمدّ أساسـها من الكون وتجلّيات النظام الكَونَويّ. وجوهـر الديمقراطية اليونانية هو أنّ الإنسـان يمتلك الحق في التشريع وممارسة السلطة بناءً على هذا التشريـع. غير أنّ هذه العملية لا تحدث خـارج نطاق الكون، بل تندرج ضمن أفقه، بخلاف الديمقراطية الحديثة التي تسـتند إلى الإنسـانوية، حيث يُنظر إلى الإنسان بوصفه ذاتًا نفسية مستقلة تمثّل الأساس النهائي للسلطة والتشريع.

نعم، لم تكن الديمقراطية اليونانية قائمة على مبدأ الذاتية المسـتقلة أو أصالة السـوبجيكتيفية، بل كانت تأسيسية في جوهرها. غير أنّ أساسها لم يكن ذاتيًا أو إنسـانيًا، بل كان سـلطة طاغوت تُعرف بالكون والنظام الكَونَويّ، حيث تمّت ممارسة التشريع والسـيادة من قِبَل الديموس ضمن إطار هذا النظام الكَونَويّ. وبهذا المعنى، فإنّ التشريع وممارسة السلطة ضمن كَونَويّة الديمقراطية اليونانية يمثّلان شكلًا من أشكال الطاغوتية، لأنّ الكون نفسه كان بمثابة طاغوتٍ يحكم عالم الغرب القديم، ويمارس ولايته المطلقة على المجال السياسي والمديني.

الديمقراطيـة الكَونَويّـة المدينية في اليونان كانت، مـن الناحية الاقتصادية، قائمة على الاسـتغلال القـاسي للعبيد، وعلى ظلم فادح وقـع عليهم بلا رحمة. فهـذه الديمقراطية لم تكن سـوى نظام اسـتبدادي وظالم، يسـتند إلى الطغيان والاسـتغلال، وكان من غير الممكن تصوّرها أو تحقّقها من دون ممارسـة أشـدّ أشـكال العنف والفظائع ضد جموع العبيد، واسـتغلالهم إلى أقصى حدّ. يمكن تلخيص السمات الأساسية للديمقراطية في اليونان القديمة على النحو التالي:

١. الديمقراطية اليونانية كانت كَونَويّة النزعة ومدينية المحور.

٢. من الناحية النظرية، كانت الديمقراطية اليونانية متجذرة في العدمية الكَونَويّة.

٣. في الديمقراطية اليونانية، تتحقّق «الإنسانية» بالنسبة للبشر من خلال الانتماء إلى الـ«بوليس» (أي بكون الفرد من أهل الـ«بوليس»). وبالتالي، فإنّ من لم يكن جديرًا بعضوية الـ«بوليس» والمشاركة في التشريع وممارسة السلطة بوصفه جزءًا من الديموس، لم يكن يُعتبر إنسانًا أصلًا، بل كان يُستبعَد من تعريف الإنسانية ذاته.

٤. كان الأساس الاقتصادي للديمقراطية اليونانية قائمًا على الاستغلال القاسي لقوة عمل العبيد، إلى جانب الظلم الواقع على الفلاحين الفقراء غير المستعبدين. في الواقع، كانت الديمقراطية الكَونَويّة المدينية في اليونان نظامًا استكباريًا وظالمًا. فقد كانت الديمقراطية اليونانية تجسيدًا للصورة السياسية-المدنية لنمط من أنماط ولاية الطاغوت.

٥. تعرّض مفهوم «ديموس» في العالم الغربي اليوناني، عبر مراحل حياته المختلفة، لتحوّلات في مصداقه، لكنّه لم يشمل في أيّ وقت جميع سكان اليونان، بل ولا حتى أغلبيّتهم. في أوسع تعريف له، لم يكن مفهوم «ديموس» يشمل سوى جزء ضئيل من اليونانيين. ففي الديمقراطية اليونانية، كان المصداق الأساسي لـ«ديموس» يقتصر عمومًا على الرجال الأثرياء من ملّاك العبيد ذوي الأصول اليونانية.

٦. إن اللاحقة «كراتوس» في مصطلح الديمقراطية تعني التشريع وممارسة السيادة استنادًا إلى ذلك التشريع من قِبَل الديموس. غير أنّ الديموس في الديمقراطية اليونانية كان يُعرّف ضمن إطار البوليس، في حين كان البوليس

ذاتــه يُنظر إليه بوصفه انعكاسًــا ثانويًا للكون. ومن هــذا المنطلق، فإنّ التشريع وممارســة الســيادة من قِبَل الديموس لم يكونا يتمّان بصورة ذاتية التأسـيس، بل بصورة تأسيسية، حيث كان الكون يُعدّ الأساس والمحور الذي يدور حوله كل شيء.

٧. كانــت الديمقراطيــة اليونانية نوعًا مــن الديمقراطية المبــاشرة، إذ كان الديموس يجتمع في زمان ومكان محدّدين لاتّخاذ القرارات وســنّ القوانين، من دون وجود آلية لانتخاب الممثّلين. أما الديمقراطيات الإنسانوية، فهي غالبًا غير مباشرة، وتعتمد على مبدأ التمثيل، بحيث تتمّ عملية التشريع وممارســة السلطة ضمن ذلك الإطار، على الأقل من الناحيــة النظرية. أما الديمقراطية اليونانية، فكانت تأخذ شكلًا مباشرًا ولم تكن قائمة على نظام التمثيل.

٨. كانت الديمقراطية اليونانية بنية سياسية-اقتصادية ذات طابع طاغوتي-علماني، حيث كان طابعها العلماني من نمط العلمانية الكَونَويّة.

٩. في ســياق تطــور العــالم الغــربي اليوناني، ظهرت أشــكال متعــددة من الديمقراطيــة، جميعها اندرجت ضمن الصورة النوعيــة للديمقراطية الكَونَويّة المدينية العبودية في اليونان، ويمكن تصنيفها على النحو التالي:

١. الديمقراطية الأرستقراطية-العسكرية

٢. الديمقراطية الطغيانية

٣. الديمقراطية الأوليغارشية الإسبرطية

٤. الديمقراطية الكلاسيكية

الديمقراطيــة الأرستقراطية-العســكرية كانــت أولى صــور الديمقراطية الكَونَويّة، وظهرت في اليونان خلال النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد.

اتّسمت هذه الصيغة من الديمقراطية بطابع أرستقراطي شديد، حيث كان تأثير القيم والموازين الأخلاقية الهومرية فيها بالغ الوضوح. وكان مصداق الديموس في نظام الديمقراطية الأرستقراطية-العسكرية يقتصر في الغالب على النبلاء والمحاربين الأرستقراطيين.

٢. الديمقراطية الطغيانية كانت إحدى صور النظام الديمقراطي اليوناني التي نشأت تدريجيًا بعد الإطاحة بالأنظمة الأرستقراطية، وبدأت بالتبلور في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، واستمرّ تطورها بأشكال مختلفة حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد في مناطق متعددة من اليونان. اعتمدت هذه الأنظمة الديمقراطية الترانية بشكل أساسي على دعم الحرفيين والتجار وبعض الفئات من الفلاحين الفقراء. ومع تراجع الدور السياسي والاقتصادي للأرستقراطيين اليونانيين، تضاءلت النزعة الأرستقراطية في الأخلاق والثقافة اليونانية، وفي الوقت نفسه، توسّعت دائرة من ينطبق عليهم مفهوم الديموس.

٣. الديمقراطية الأوليغارشية، التي تُعَدّ بوليس إسبرطة أبرزَ نموذج لها، كانت واحدة من أشكال الديمقراطية الكَونَويّة المدينية العبودية في اليونان. في الديمقراطية الإسبرطية، كانت السلطة بيد نواة أوليغارشية من الإسبرطيين الذين كانوا يمارسون التشريع والحكم بالتفاعل مع بعض القوى السياسية الأخرى داخل المدينة الإسبرطية. لم يكن نطاق مفهوم «الديموس» في إسبرطة واسعًا، بل كان محصورًا ضمن فئة محدودة.

٤. الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، وهي النموذج الأرقى، والصورة الأساسية المتكاملة للديمقراطية اليونانية، والتي بلغت اكتمالها ونضجها في هذا الشكل. ولهذا السبب أُطلِق عليها اسم «الديمقراطية الكلاسيكية». العصر

الذي يُسمّى العصر الذهبي للديمقراطية اليونانية، والذي ارتبط بأثينا في عهد بريكليس، كان مرحلة سيطرة النموذج الديمقراطي اليوناني. وللتعرّف على طبيعة الديمقراطية الكَونَويّة المدينية في اليونان، فإنّ أفضل مدخل لفهمها هو دراسة الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، لأنّها تمثّل الصيغة النهائية، والأكثر اكتمالًا ونضجًا، للديمقراطية اليونانية في أوج تبلورها.

الصورة المثالية للإنسان اليوناني

كل عالَم تاريخي يتجلّى ويتحقّق تحت هيمنة حقيقة تُعرف بـ«الاسم التاريخي». وكما نستخلص من قصة الخلق في القرآن العظيم، فإنّ الأسماء تعبّر عن حقيقة الأشياء والكائنات، ومن خلال معرفتها يمكن الوصول إلى حقيقتها. فالاسم التاريخي هو الحقيقة التي تتيح لنا فهم جوهر أيّ عالم تاريخي. الاسم الذي يحكم عالم الغرب اليوناني هو «الكون». وقد أصبح الكون، من خلال تمركزه في العالَم اليوناني، حجابًا يحجب الذات المقدسة للوجود، مما أدّى إلى حرمان الإنسان من اتّباع الولاية الإلهية والاستنارة بأنوار الهداية. وهكذا، فإنّ الكون، بوضع نفسه في مقام ومكانة ليست له (أي بوضع نفسه في مقام إدارة الأمور)، وهو موقع لا يخصّه أصلًا، قد تحوّل إلى صورة من صور الطاغوت. وبذلك، أنشأ تحت سلطته عالمًا قائمًا على الطاغوت، عالمًا يخضع لهيمنة ولاية الطاغوت.

تحت اسم الكون، وفي سياق امتداده وتوسّعه، تشكّلت ماهية النزعة الكَونَويّة، التي من خلالها اكتسب الوجود التاريخي للعالم الغربي القديم طابعه الفعلي ووجهته التاريخية. فكل عالَم تاريخي يحمل في ذاته صورة مثالية للإنسان، وهي الصورة التي يتجلّى من خلالها الإنسان الفعلي في ذلك العالم ويتحقق وجوده التاريخي ضمن إطارها.

عـالم الغرب اليوناني-الروماني، بدوره، يحتـوي في ماهيته على صورة مثالية للإنسان المنتمي إليه. ومن أجل فهم طبيعة الوضع التاريخي، والطابع الوجودي للإنسـان في العـالم الغـربي القديم، لا بد من دراسـة الصورة المثالية للإنسـان اليوناني-الرومـاني. الآثـار الأدبيـة، بشـقّيها المنظوم وغير المنظـوم، والكتب الفلسـفية، والمعتقدات الدينيـة والثقافية، والأعمال الفنيـة المختلفة، إضافة إلى جميـع جوانب الحياة اليومية الفردية والجماعية، والعلاقات التي تحكم الإنسـان في هذا العالم، تشـكّل جميعها مصادر يمكن الاستناد إليها في فهم الصورة المثالية للإنسان في أيّ عالم تاريخي.

الصورة المثالية للإنسـان اليوناني تتكوّن من عنصرين أساسيّين. ويمكن، في صياغة موجزة ومركّزة، وصف هذه الصـورة المثالية بأنّها: «البطل-المواطن». جوهر هذه الصـورة المثالية للإنسـان اليوناني، التي تحقّقت واتّخذت أشـكالًا ومسـتويات ودرجات متباينة لدى الأفراد والفئات والطبقات المختلفة المنتمية إلى العـالم الغـربي القديـم، يمكن اختزاله في سـمتين مترابطتـين ومتلازمتين: «البطل-المواطن». في الواقع، تتألّف الصورة المثالية للإنسان اليوناني من وجهين متكاملـين ومترابطين. أحد هذين الوجهين يتجسّـد في البطل أو المحارب، كما صـوّره هومر في ملاحمـه. فمفهوم البطل في السـياق الهومري، بـكل ما يحمله من خصائص وفضائل، يشـكّل ركنًـا لا ينفصل عن الصورة المثالية للإنسـان اليونـاني. على الرغم من أنّ الإنسـان اليوناني، في بداية ظهـور المدينة اليونانية، كان يجد صورته المثالية متجسّـدة في هيئـة البطل كما صوّره هومر، إلا أنّ المدينة اليونانيـة، منذ القرن الثامن قبل الميلاد، لم تكتسـب هويتها وواقعيتها إلا ضمن إطار الديمقراطية المدينية الكَونَويّة، ولا يمكن فصل مفهوم البطل الهومري عن

الديموس بوصفه المواطن، أي المنتمي إلى البوليس. ورغم أنّ البعد البطولي كان أكثر بروزًا في المرحلة الأولى من نشوء المدينة اليونانية خلال القرن الثامن قبل الميلاد، فإنّه، اعتبارًا من القرن السابع قبل الميلاد، ولا سيّما خلال القرن السادس قبل الميلاد، ومع اكتمال ملامح الصورة المثالية للإنسان اليوناني، أصبح البُعدان المتكاملان البطل-المواطن يشكّلان معًا بنيةً ثابتة ضمن هيئة موحدة. أما فيما يتعلّق بأهمية البعد المتعلق بالمواطنة في الصورة المثالية للإنسان اليوناني، فيكفي الإشارة إلى أنّه، في العالم الغربي اليوناني، لم يكن الإنسان يُعدّ إنسانًا أصلًا إن لم يكن من أهل المدينة.

يمكن اعتبار «أوديسيوس»، الشخصية المحورية في ملحمة الأوديسة، تجسيدًا للوجه البطولي في الصورة المثالية للإنسان اليوناني. أما «سولون»، المشرّع والشاعر ورجل الدولة اليوناني البارز، الذي تدين له الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، ولا سيّما في أثينا، بالكثير، فقد كان، إلى حدّ ما، تجسيدًا حيًّا للصورة المثالية للإنسان اليوناني. في شخصيته، امتزجت العناصر الإيونية والهومرية مع السمات المتطوّرة للمدينية الأثينية، مما جعله يقترب من التجسيد الواقعي لمزيج «البطل-المواطن». فقد كان سولون يجمع، في آنٍ واحد، بين الميول الديمقراطية التي عكست شعارات عصره، وبين النزعة الأرستقراطية التي سعت إلى الحدّ (بشكل نسبي) من دائرة شمول مفهوم الديموس. كان سولون، في مجال الفكر، يجمع بين البعد الحصولي للتفكير العدمي الكَونَويّ، الذي كان يبحث في الطبيعة عن إجابات للأسئلة المتافيزيقية، وبين البعد الاستكباري الظالم المستمد من الجوهر العلماني، المخادع، الماكر، والإجرامي للأخلاق العدمية الغربية. بهذا المزيج، لم يتردد في اللجوء إلى أساليب وحشية لتحقيق أهدافه، فحين خاض الحرب ضد خصومه وسعى إلى السيطرة على مدينة قاومته، لم يتورّع عن تسميم

مياه الشرب فيها[1]، مستخدمًا هذه الجريمة غير النزيهة وسيلةً لإبادة السكان الأبرياء. وبهذا الفعل، تسبّب في مذبحة شنيعة استهدفت النساء والأطفال والشيوخ، وغيرهم من السكان الذين لم يكن لهم أيّ دور في الحرب، ليحقّق بذلك هدفه في تحقيق النصر، مهما كانت الوسيلة.

بعد الإشارة بإيجاز إلى أبرز المكوّنات الجوهرية للمدينة اليونانية، حان الوقت للانتقال إلى دراسة تطوّرها التاريخي، واستعراض الأحداث والتحوّلات التي شهدتها منذ نشأتها في القرن الثامن قبل الميلاد وحتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وهي المرحلة التي سبقت ظهور البوليس الكلاسيكي، المعروف بـ«العصر الذهبي» و«الحقبة الكلاسيكية» لليونان. يفرض علينا النطاق المحدود لهذا الكتاب أن نقتصر في هذه الدراسة التاريخية على الإشارات الموجزة إلى أهمّ المحاور، مع تجنّب أيّ إسهاب أو تفصيل زائد.

٢. المدينة اليونانية من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد

منذ أوائل القرن الثامن قبل الميلاد، بدأت الأنظمة المَلِكية ذات الطابع الأسطوري بالاندثار تدريجيًا، لتحلّ محلّها أُولى صور المدن-الدول الديمقراطية اليونانية ضمن إطار التاريخ الغربي. وفي سياق تطوّر الحياة اليونانية ضمن هذا التاريخ، يمكن الإشارة إلى هذه المراحل والأنماط، التي رغم تمايزها، كانت جميعها متداخلة ومترابطة، وتنتمي إلى المسار العام للتاريخ الغربي:

١. المدينة اليونانية الأولى التي قامت على نمط من الديمقراطية الأرستقراطية.

٢. المدينة الإسبرطية التي تجلّت في صورة ديمقراطية أوليغارشية صارمة ذات قوانين متشدّدة.

1. Connolly, The Greek Armies, 76.

٣. المدينة اليونانية الخاضعة للأنظمة الطغيانية.

٤. المدينة اليونانية الكلاسيكية.

على الرغم من أنّ النظام المديني الكَونَويّ العبودي قد ظهر وتجلّى بأشكال وصور متعددة في مختلف أنحاء اليونان، إلا أنّ من بين العدد الكبير للدول-المدن اليونانية، كانت كل من إسبرطة وأثينا تحظيان بمكانة وأهمية خاصة، حيث ارتبط مصير المدينة اليونانية إلى حدّ بعيد بالمنافسات والتفاعلات بين هاتين المدينتين. لهذا السبب، تحظى أوضاع هذين البوليسين باهتمام خاص في الدراسات التاريخية. ونحن أيضًا، نظرًا لمحدودية صفحات هذا الكتاب، وحرصًا على الإيجاز والتركيز، سنتّبع هذا النهج المتعارف، وسنوجّه اهتمامنا في دراسة تاريخ المدينة اليونانية من القرن الثامن قبل الميلاد حتى نهاية عصر البوليس الكلاسيكي في القرن الخامس قبل الميلاد، إلى إسبرطة وأثينا بشكل أساسي. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ قصر الدراسة التاريخية على إسبرطة وأثينا لا يؤثّر مطلقًا على فهم طبيعة وجوهر المدينة اليونانية، ذلك لأنّ معظم الدول-المدن اليونانية الأخرى كانت كيانات ذات أهمية محدودة، ولم تكن تتمتّع بثقل أو دور بارز في الحياة السياسية أو في التفاعلات بين الدول-المدن اليونانية. بل إنّها، في أغلب الأحيان، كانت تتبع واحدة من القوّتين الرئيسيتين، إسبرطة أو أثينا، دون أن يكون لها استقلال فعلي في قراراتها السياسية.

المدينة الديمقراطية الأرستقراطية الأولى

بدأ هذا النوع من المدن-الدول بالظهور تدريجيًا في مناطق مختلفة من اليونان خلال القرن الثامن قبل الميلاد، وكان إلى حدّ كبير مستوحًى ومتأثرًا بالرؤية الكَونَويّة الهومرية. لقد كان ظهور الديمقراطية الأرستقراطية في هيئة

المدن-الدول الأُولى في اليونان نتيجة لتمرّد النبلاء من ملّاك الأراضي والعبيد، ونجاحهم في الإطاحة بالأنظمة المَلِكية التي كانت لا تزال، إلى حدّ ما، تستند إلى بعض الموروثات الشرقية الأسطورية السابقة على الفكر الغربي. المدن-الدول الأولى في اليونان، التي قامت على الديمقراطية الأرستقراطية، والتي أسّست لأول مرة العبودية كنمط إنتاج مهيمن في اليونان، ظهرت منذ القرن الثامن قبل الميلاد واستمرّت حتى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، حيث أصبحت النموذج السائد في مناطق متعددة. في هذه المدن، كان النبلاء من ملّاك العبيد، الذين يمتلكون الأراضي والثروات الطائلة، هم العنصر المسيطر والحاكم. أما في المدن-الدول الديمقراطية الأرستقراطية الأولى، التي نشأت بدايةً في إيونيا، فقد كان مفهوم الديموس محصورًا في الغالب على طبقة النبلاء من ملّاك العبيد.

في أواخر عهد الملكيات السابقة على نشوء البوليس في إيونيا، حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، كان يُطلق على الملك اسم «باسيليتوس» بسبب العصا التي كان يحملها. وفي هذه الفترة، ومع تزايد نفوذ النبلاء، تمكّنوا من انتزاع حق القضاء في المحاكم، بحيث أصبح ثلاثة من الأشراف يشغلون منصب القضاة الأعلى، أو ما يُعرف بـ«آرخون»، وأصبحوا مسؤولين عن إدارة الشؤون القضائية. ومع توسّع نطاق نفوذ الأرستقراطيين، ازدادت سلطة الآرخونات النبلاء، مما أدّى إلى إقصاء الملك عن الحكم، وتحوّل الأرستقراطيون إلى حملة لقب «بازيل». في عام ٧٥٢ قبل الميلاد، أصبحت بعض المدن-الدول الإيونية تُسند منصب الآرخون إلى عدد أكبر من الأرستقراطيين، بحيث كانت تُدار وفق دورات حكم تمتدّ لخمس عشرة سنة.

وهكذا، منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، بدأت أولى صور المدينة اليونانية في الظهور، وكانت قائمة على هيمنة الأرستقراطيين الأثرياء من ملّاك

العبيد، الذين باتوا يُعرفون آنذاك بـ«بازيل». هذه هي أول صورة للمدينة الكَونَويّة العبودية التي نشأت في اليونان. في هذه المرحلة المبكرة من نشوء المدينة، كان نطاق مصداق الديموس ضيقًا للغاية، إذ كان يقتصر على الأرستقراطيين المحاربين من ملّاك العبيد. إنّ ترسّخ علاقات العبودية بشكل تدريجي، وإفلاس صغار الملّاك والفلاحين الفقراء، وتحوّل الكثير منهم إلى عبيد، هي ظواهر يمكن رصدها بوضوح في أعمال هسيود[١]. وقد بلغ اتّساع السيطرة الاقتصادية الجائرة للأرستقراطيين في هذه المرحلة حدًّا جعل «سكّان المدينة وحدهم قادرين على امتلاك قطعة أرض فيها»[٢].

المدينة اليونانية الأولى كانت تحمل طابعًا قبليًا واضحًا، حيث كان حق التشريع وممارسة الحكم مقتصرًا على تلك الفئة من الأشراف الذين ينتمون إلى القبيلة الأصلية للمدينة. أما من الناحية الثقافية والأخلاقية، فقد احتفظت المدينة الأولى بعناصر وموروثات بارزة من العصر الأسطوري، وكان حضورها أكثر وضوحًا مقارنة بالأشكال اللاحقة للمدينة اليونانية التي ظهرت فيما بعد. في هذه المرحلة، لم يكن الفكر العدمي الكَونَويّ اليوناني قد بلغ مستوىً متقدّمًا من الطابع الحصولي.

في القرن الثامن قبل الميلاد، بدأت موجة جديدة من الهجرات وتأسيس المستعمرات اليونانية، والتي امتدّت إلى مناطق واسعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وبحر إيجة، وسواحل إيطاليا وصقلية، ممّا ساهم في توسيع نطاق النفوذ اليوناني في هذه المناطق، وإدخال أجزاء مهمة منها ضمن المجال

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٢: ٤٥ - ٤٦.
٢. م. ن، ٤٧.

الحضاري اليوناني. ومع مرور الوقت، بدأت هذه المستعمرات تفرض سيطرتها على المدن الواقعة في شبه جزيرة البلقان، وآسيا الصغرى، وأجزاء من إيطاليا. ومنذ حوالي ٦٥٠ قبل الميلاد، ومع تصاعد نفوذ التجّار الأثرياء، وتزايد الاستياء الشعبي، بدأت المدن-الدول اليونانية الأولى في التلاشي، ليحلّ محلها نموذج جديد من المدن يُعرف بـ«المدن الطغيانية». لكن قبل التطرّق إلى هذه المدن، لا بدّ من الحديث عن المدينة اليونانية في إسبرطة، التي كانت في القرن الثامن قبل الميلاد منشغلة بالتوسع الإقليمي وشنّ الحروب ضد جيرانها، في الوقت الذي كانت فيه تعمل تدريجيًا على تشكيل نموذج لمدينة ديمقراطية أوليغارشية ضمن الإطار الكَونَويّ.

دولة-مدينة إسبرطة

في منطقة بيلوبونيز، توجد أرض تُعرف بـ«لاكُونيا»، وهي منطقة محاطة بالجبال. عاصمة لاكونيا تُدعى إسبرطة. في أوج قوّتها، كانت إسبرطة اتحادًا يضمّ خمس بلدات، ويعود أصل تسميتها إلى كلمة تعني «المتفرقة» أو «المبعثرة»[١]. يُعتقد أنّ الإسبرطيين كانوا من أفراد القبائل الدورية، وقد شنّوا هجومًا على لاكونيا، وأخضعوا سكان بيلوبونيز المحلّيّين لسيطرتهم، وأسّسوا إسبرطة قرابة أوائل القرن التاسع قبل الميلاد. في حوالي عام ٧٤٠ قبل الميلاد، شنّ الإسبرطيّون هجومًا على منطقة «مسينيا» الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من بيلوبونيز، وبعد احتلالها، استعبدوا سكانها. ومع حلول النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، أصبحت الدولة-المدينة الإسبرطية كيانًا قائمًا على نموذج من الديمقراطية الأوليغارشية العبودية. فقد أسّس تحالف أوليغارشي من ملّاك العبيد من القبائل

١. دورانت، يونان باستان، ٨٩.

الدورية، الذين كانوا من بين الغزاة الإسبرطيين الذين استولوا على لاكونيا ثم مسينيا، نظامًا سياسيًا مركزيًا يقوم على هيمنة الأقلية الحاكمة المنتصرة على الكثرة المغلوبة من السكان الأصليين. في دولة-مدينة إسبرطة، كان هناك نظام طبقي صارم وغير مرن. في أدنى المراتب، وُجدت أعداد هائلة من العبيد الذين كانوا يُعرفون باسم «هيلوتس»، وكان معظمهم من السكان الأصليين لمسينا أو من نسلهم، الذين هُزموا في الحرب ضد الإسبرطيين وأُخذوا عبيدًا. في مرتبة أعلى، وُجدت طبقة المزارعين الذين أُطلق عليهم «بيريويكوي». هؤلاء كانوا من سكان مسينيا الأصليين أو من نسلهم، الذين استسلموا دون مقاومة أمام الغزاة الإسبرطيين. لم يكن بيريويكوي عبيدًا، وكان يحقّ لهم امتلاك الأرض والعمل فيها. وقد كان بعض الآخائيين المهاجرين الذين استقرّوا في مسينيا ضمن هذه الفئة، وكانوا يعيشون في مناطق منفصلة عن الهيلوتس، ويتمتّعون بحرّية التنقّل بين القرى والمدن، كما كانوا يعملون في الزراعة والصناعة والتجارة، لكنهم لم يكونوا مخوّلين بالتدخل في الشؤون الإدارية أو الحكومية، كما كانوا محرومين من حق الزواج من الإسبرطيين. في قمّة الهرم السياسي في إسبرطة، كان هناك ملكان، كل منهما يمثّل واحدة من القبيلتين الأساسيتين المنحدرتين من الطائفة الدورية. كانت القبيلتان الرئيسيتان في طائفة الدوريين تُدعيان «أجيداي» و«أوريبوتيد». كان هذان الملكان يتمتّعان بسلطة كبيرة، غير أنّهما كانا يتنافسان في أغلب الأحيان، وأحيانًا كان احتدام خلافاتهما وتدبير مؤامرات بعضهما ضد بعض يؤدّي إلى اضطراب الأوضاع السياسية في إسبرطة. كان يلي الملكين في المرتبة خمسة «إيفوروس»[1]، الذين كانوا يشرفون على التزام الملكين بالقانون، وكان

1. Εφορος

يتم اختيارهم سنويًا عن طريق القرعة. يليهم «مجلس الشيوخ» المعروف باسم «جِيرُوزِيا»، الذي كان يتألف من ثلاثين رجلًا من رجال الدولة الإسبرطيين الذين تجاوزت أعمارهم الستين عامًا، وكان أعضاؤه يُنتخبون من بين الطبقة الأرستقراطية الإسبرطية. كان مجلس «جِيرُوزِيا» يتمتع بسلطة كبيرة، إذ كان بإمكانه محاكمة القادة العسكريين. يلي هذا المجلس «الجمعية العامة» أو «أَبِلا»، التي كانت تُعرف أيضًا بـ«إسبرتياتِس»، وكان جميع الرجال الإسبرطيين الذين تجاوزت أعمارهم الثلاثين عامًا من أبناء القبائل الإسبرطية أعضاءً فيها، إذ كانوا يشكّلون التجسيد التام لمفهوم «الديموس» في إسبرطة. وكان جميع الرجال الإسبرطيين ممن تجاوزوا الثلاثين عامًا جنودًا بحكم طبيعة حياتهم، إذ كان يُحظر عليهم ممارسة أي مهنة غير العسكرية. وكان أعضاء هذه الجمعية يبدون آراءهم حول قرارات مجلس «جِيرُوزِيا»، لا سيما في المسائل المتعلقة بالحرب والسلام. كانت عملية التصويت في هذا المجلس تتم على النحو التالي: «أولئك الذين كانت لديهم آراء ليعبّروا عنها، كان عليهم أن يصرخوا بأعلى أصواتهم وسط الضجيج الذي أحدثته حشود مئات الأشخاص الذين كانوا يبدون آراءهم، وكان الذين يصرخون بأعلى صوت ويجذبون الانتباه الأكبر يحظون بالأهلية ليُجرى التصويت على آرائهم»[١].

من بين المؤسسات السياسية المختلفة التي استعرضناها ضمن نظام السلطة في إسبرطة، كان الإيفوروس (المُراقبون) يتمتّعون بسلطة أكبر: «كان يتم تجديد انتخاب الإيفوروس كل عام. هؤلاء الذين نشأوا في أحضان الأوليغارشية كانوا يُختارون من بين أكثر النبلاء محافظةً. كانت رقابتهم تشمل الملك وأعضاء

١. وكيلي، اسطوره معجزه يونانى، ٣٥١.

الجيروزيا، وكانـوا في الواقع هم الذين يقودون سياسـة الدولة. وكان منصب الإيفوروس يحتلّ قمة الأوليغارشية الإسـبرطية، أي ديكتاتورية الطبقة الظالمة وحصن الأرستقراطية اليونانية»[١].

يزعم الإسـبرطيون أنّ شـخصًا يُدعى لوكورغوس قـد وضع مجموعة من القوانـين لإدارة إسـبرطة في عـام ٦٣٠ ق.م. وكان الإسـبرطيون ينظرون إلى لوكورغوس باعتباره المشرّع العظيم لإسـبرطة، ويُولونه قدرًا كبيرًا من التقدير والاحـترام. ويبدو أنّ النظام السـياسي الذي نعرفه عن إسـبرطة يعود في جزء كبير منه إلى التشريعات التي وضعها لوكورغوس. ومع ذلك، فقد شكّك بعض المؤرخين في الوجود التاريخي لشخصٍ يُدعى لوكورغوس من الأساس.

كانت الديمقراطية الأثينية تتعامل مع العبيد بوحشية وظلم بالغين. وبوجه عام، كانت المدينة اليونانية تتبع نهجًا اسـتغلاليًا قاسيًا تجاه العبيد، وكانت هذه الممارسات الوحشية والسادية تحظى بتأييد فلاسفة يونانيين بارزين مثل سقراط[٢] وأفلاطون وأرسطو[٣]. ومع ذلك، فإن المعاملة التي كان يتلقاها العبيد في إسبرطة كانت أشد قسوة حتى بالمقاييس المتبعة داخل المدن اليونانية.

في إسبرطة، كانت الممارسات المثلية والعلاقات الجنسية غير المشروعة وثقافة تعرّي النسـاء منتشرة بشـكل لا يُصـدّق. ومع ذلك، لا بد مـن التأكيد على أنّ ممارسـات مثل المثلية والبغاء والزنا كانت شائعة في جميع أنحاء اليونان، غير أنّ بعض أوجه هذه الظواهر في إسبرطة كانت تحمل طابعًا خاصًا.

إنّ انتشـار المثلية وازدهار بيوت الدعارة في اليونان القديمة يشير إلى تراجع

---

١. دياكوف، تاريخ يونان باستان، ٦٦.

2. Xenophon, Oeconomicus, 65.

3. Sowerby, The Greeks, 79-80.

دور الأسرة بشكل تدريجي كمركز لتنظيم الحاجات الجنسية. وفي ظلّ هذه الظروف، انحصرت الوظيفة الأساسية للأسرة في الإنجاب وتربية المواطنين الجدد. ويمكن ملاحظة هذا التحوّل بوضوح في إسبرطة، حيث خرجت العلاقات الجنسية تمامًا من نطاق الأسرة، في حين كان التأكيد الشديد منصبًّا على الوظيفة الإنجابية للأسرة: «وقد كانت الحرية الجنسية غير المعهودة عند الإسبرطيين ناجمة، إلى حدّ ما، عن حاجتهم الملحّة إلى الجنود»[١].

في إسبرطة، كان الأطفال يُفصلون عن عائلاتهم في سن السابعة ويخضعون لتربية صارمة تحت إشراف الدولة، وهي تربية كانت ذات طابع عسكري وتعليمي، لكنها كانت في الغالب عسكرية. كانوا يُعرَّضون لمختلف أنواع المشاق والصعوبات، إذ كان الهدف إعدادهم ليصبحوا رجالًا ونساءً أقوياء ومقاتلين أشداء. كان الإسبرطيون أقل عددًا بكثير مقارنةً بالعبيد وسكان لاكونيا ومسينيا الخاضعين لحكمهم، حيث كان عدد هؤلاء يفوق عدد الإسبرطيين بسبعة أضعاف. لذلك، كانوا يسعون للحفاظ على سيطرتهم من خلال تعزيز الجاهزية الدفاعية، ورفع القدرات القتالية، وقمع العبيد والطبقات الخاضعة لهم بأساليب قاسية.

في إسبرطة، كانت الفتيات يعدن إلى عائلاتهنّ بعد فترة من تعلّم التدريبات العسكرية واكتساب مهارات القراءة والكتابة في حدّها الأدنى، في حين كان الشبان الذكور ملزمين بمواصلة الحياة العسكرية القاسية حتى بلوغهم سن الثلاثين. كان يُسمح للرجال الإسبرطيين بتأسيس أسرهم عند بلوغهم الثلاثين، لكنهم كانوا لا يزالون مجبرين، بين سن الثلاثين والستين، على تناول

١. وكيلي، اسطوره معجزه يونانى، ٤٨٢ – ٨٣.

وجبة منتصف النهار في المطاعم العامة. وكانت هذه الوجبة تتكوّن من حساء يحتوي على قليل من لحم الخنزير.

على الرغم من أنّ إسبرطة وضعت قوانين صارمة للحدّ من الملكية والثروة، فإنّ الواقع كان يُشير إلى أنّه «من حيث الضرورة، كان هناك تفاوت كبير بين الأثرياء والفقراء، غير أنّ هذا التفاوت لم يكن ظاهرًا بوضوح.»[١].

كانت أثينا وإسبرطة مدينتين-دولتين ديمقراطيتين كَونَويّتين، وكان بينهما اختلافات عميقة وتنافس عدائي حادّ. وفي النهاية، أدّى الصراع بين هاتين المدينتين-الدولتين في القرن الخامس ق.م إلى تمهيد الطريق لانهيار اليونان بالكامل على يد مقدونيا، مع الإشارة إلى أنّ المقدونيّين كانوا يتحدّثون اللغة اليونانية ويعتبرون أنفسهم يونانيين.

الديمقراطية الطغيانية

في القرن السابع ق.م، ولا سيما في نصفه الثاني، ظهرت تحوّلات واسعة في الأوضاع العامة للمدن اليونانية، ومنذ حوالي عام ٦٥٠ ق.م، سقطت الديمقراطيات الأرستقراطية في معظم أنحاء اليونان، وحلّت محلّها صيغة من الديمقراطية اليونانية أُطلق عليها اسم «الطغيانية» (أو حكم الجبابرة). كانت الأنظمة الطغيانية، في الواقع، شكلًا آخر من الديمقراطية اليونانية، حيث تمّ تقليص دور ونفوذ الأرستقراطيين الكبار لصالح الطبقات الوسطى والأرستقراطيين الأقلّ ثراءً. ومع ذلك، إلى جانب الدور المحوري للطبقات الوسطى وصغار النبلاء، تمكّن التجار الأثرياء ومالكو العبيد من الحصول على نصيب مهمّ من السلطة السياسية في ظلّ هذا النظام. منذ أوائل القرن السابع

١. دورانت، يونان باستان، ١٠٣.

ق.م، كانت الديمقراطيات الأرستقراطية الأولى قد بدأت تواجه أزمات خطيرة، إذ أدّت موجات تمـرّد العبيد والجياع إلى زعزعة اسـتقرارها، مما أثّر على الأمن والاسـتقرار السـياسي والمدني في معظم المدن-الدول اليونانيـة. ومع الصعود التدريجي للديمقراطيات الطغيانية في مختلف أنحاء اليونان، تولّى الحكّام سلطات واسعة، وأسّسوا شكلًا من التشريع الديمقراطي الكَونَويّ يخدم مصالح التجّار والشرائح الأرستقراطية الأصغر والأقلّ ثراءً. وبالتوازي مع ذلك، سعى هؤلاء الحكّام إلى زيادة أعداد العبيد وتشديد استغلالهم، مع إجراء إصلاحات محدودة لصالـح المزارعـين الأحرار اليونانيـين، وصلت في بعض الحـالات إلى توزيع الأراضي عليهم، مما أسهم في إزالة خطر الثورات والانتفاضات عن المدن-الدول الطاغية والظالمة في اليونان. ونظرًا للسلطة الواسعة التي تمتع بها هؤلاء الحكّام، وللـدور الذي لعبوه في تحقيق قدر من الأمن لمصلحة الحفاظ على المدن-الدول الوثنية والظالمـة في اليونان، أُطلق عليهم لقب «تورانوس» أو «جبّار». والواقع أنّ كلمة «تورانوس» لم تكن تحمل معنى سـلبيًّا أو سيّئًا لدى اليونانيين القدماء. كان اليونانيون يطلقون لقب «تورانوس» على القادة السياسـيين الذين، في إطار المدينة-الدولة والديمقراطية، وسّعوا نطاق مفهوم الديموس من خلال إدماج الشرائح الأقلّ ثراءً من الأرستقراطيّين والتجّار، واعتمدوا على دعم مجموعات من الفلاحين الفقراء، مما مكّنهم من الوصول إلى موقع قيادة شعبية بسلطة تعادل سلطة الملوك. كان التورانوس محبوبًا لدى فئات واسعة من الناس، وكان أرسطو يطلق عليهم وصف «دماغوغوى» بمعنى المقبولين والمحبوبين لدى الشـعب. أما الأنظمة الطغيانية، فقد كانت بدورها شـكلًا من أشكال الديمقراطية. وفيما يتعلّـق بمصطلح الديمقراطية وتجلياته، هناك نقطة مهمّة غالبًا ما تُهمل، ويجب

التنبيه إليها.

النقطة المهمة هي أنّه على الرغم من أنّه أصبح شائعًا اليوم ترجمة ديموس إلى «الشعب»، إلا أنّه يجب الانتباه إلى أنّ ديموس في اليونانية مشتقّ من دِمِه، التي تحمل معنى يشبه «العشيرة». وفي الديمقراطيات اليونانية، رغم أنّ مفهوم ديموس كان يقتصر على الرجال الأحرار من مالكي العبيد، فإنّ كل مدينة–دولة يونانية كانت تحدّد مصداق ديموس فيها بناءً على الانتماء العشائري أو القبلي لأهلها. وبذلك، لم يكن يُعتبر من الديموس إلا الرجال الأحرار من مالكي العبيد الذين ينتمون إلى القبيلة أو العشيرة الأصلية التي شكّلت تلك المدينة–الدولة. وبناءً على ذلك، إذا وُجد في مدينة يونانية رجال أحرار من مالكي العبيد، لكنّهم لا ينتمون إلى القبيلة الأصلية المكوِّنة للمدينة–الدولة (أي لا ينتمون إلى دِمِه الأساسية فيها)، فإنّهم، رغم استيفائهم لجميع الشروط الأخرى (كونهم أحرارًا من قيود الضرورة، ومالكي عبيد، ورجالًا، ويونانيين ومن أصول يونانية)، لا يُعتبرون جزءًا من الديموس.

منذ حوالي ٦٥٠ ق.م إلى ٥٠٠ ق.م، نشأت ديمقراطيات طغيانية مختلفة في أنحاء اليونان، من أبرز حكّامها بوليكرات في ساموس، وأورطاغور في سيسيون، وسيبسلوس في كورنث، وثياغن في ميغارا. ويُعد بيسستراتوس من أشهر الجبابرة في اليونان، إذ تولّى السلطة في أثينا خلال النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد.

«في زمن هذا الجبّار، بيسيستراتوس، ظهر الشكل النهائي للتكوين الاجتماعي لأثينا. أشرف بيسيستراتوس على برنامج بناء وفّر فرص عمل للحرفيّين والعمّال في المدينة، كما أشرف على ازدهار حركة الملاحة البحرية. إلا أنّ بيسيستراتوس،

على وجه الخصوص، قدّم مساعدات مالية مباشرة للفلاحين الأثينيين على شكل اعتمادات حكومية... خلال عهد الجبابرة، حدث تغيير لافت في التنظيم العسكري للمدن، إذ أصبح الجنود يتكوّنون أساسًا من الهوبليت، أي مشاة مدججين بالسلاح، وهو ابتكار يوناني في العالم المتوسطي. كان كل هوبليت يشتري سلاحه ودروعه على نفقته الخاصة... لقد كان المشاة المواطنون المسلّحون ذاتيًا شرطًا مسبقًا للديمقراطية الواسعة اللاحقة في اليونان. م. آي. فينلي يرى أنّ سياسات بيسيستراتوس من أجل الاستقلال الاقتصادي لفلاحي أثينا كانت أكثر أهمية من إصلاحات سولون»[١].

منذ ٦٥٠ ق.م فصاعدًا، ومع الظهور التدريجي للديمقراطيات الجبّارية، لا سيّما خلال القرن السادس ق.م الذي خضع لسيطرة الجبابرة، شهدت اليونان تحوّلات مهمّة كان أبرزها التوسّع الاقتصادي والهجرات المختلفة التي أدّت إلى اتّساع نطاق المستعمرات اليونانية، مما وسّع فعليًا الجغرافيا الحضارية والثقافية لليونان. وقد أفضت التحوّلات الاقتصادية التي أحدثها الجبابرة إلى تهيئة الأرضية والظروف الاقتصادية والسياسية-المدنية لظهور الديمقراطية اليونانية الكلاسيكية، باعتبارها الصيغة النهائية والكاملة للديمقراطية ذات الطابع الكَونَويّ، بحيث إنّه لولا هذه التحوّلات، لكان ظهور البوليس اليوناني الكلاسيكي موضع شكٍّ كبير. في ظلّ هيمنة الديمقراطيات الجبّارية، وخصوصًا خلال القرن السادس ق.م، خرج الفكر العدمي الكَونَويّ اليوناني من مرحلته الأولى الهومرية-الهسيودية، إذ أضعف أكثر فأكثر بعض العناصر والأسس الأسطورية، ليُفضي إلى نشوء نمط من «الفكر الحصولي العدمي الكَونَويّ»،

١. اندرسون، گذار از عهد باستان به فئود اليسم، ٤٠.

الذي تجلّى خلال القرن السادس ق.م في آراء كلٍّ من طاليس، وأناكسيمندرس، وأناكسيمينس في أيونيا، ومن ثمّ في أفكار مفكّرين آخرين مثل زينون، وهيراقليطس، وفيثاغورس، وبارمنيدس، وأناكساغوراس وغيرهم، حيث ظهر وتطوّر بصيغة «الميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة ذات النزعة الطبيعية».

أثينا من «دراكون» إلى «كليستينيس»

في اليونان، توجد شبه جزيرة تُدعى «أتيكا»، تمتدّ بروزًا كبيرًا في البحر وتبلغ مساحتها نحو ٢٥٠ كيلومترًا مربعًا. يتميّز مناخ أتيكا بهطول الأمطار في فصلي الخريف والشتاء، بينما تكون صيفها حارًّا وجافًّا. لا تتمتّع شبه جزيرة أتيكا بظروف زراعية ملائمة، ولذلك اتّجه سكّانها نحو التجارة. ظهرت في أتيكا العديد من البوليسات، وكانت تضمّ مدنًا وقرى مختلفة، إلا أنّ مدينة أثينا، التي اشتُقّ اسمها من الإلهة أثينا، حظيت بأهمية خاصة، ويُقال إنّ تأسيسها يعود إلى عام ١٥٨٢ ق.م. نشأت أثينا على امتداد الإكروبوليس الذي بناه سكّان اليونان الأوائل، وذلك على بُعد ثمانية كيلومترات من ميناء «بيرايوس»، وبين جبال «هيميتوس» و«بنتيليكوس» و«بارنس». حوالي القرنين التاسع والثامن ق.م، أطاحت أثينا بالحكم الملكي. ومع صعود سلطة النبلاء، ولا سيّما منذ القرن الثامن ق.م مع تشكّل الصيغة الأولى للبوليس اليوناني فيها، أُنيطت قيادة المدينة بأشخاص يُدعون «آرخون» (أي القائد أو الحاكم). في البداية، كان حكم الآرخون مدى الحياة، لكنّه تحوّل لاحقًا إلى فترات تمتدّ لعشر سنوات (عام ٧٥٢ ق.م)، ثم في عام ٦٨٣ ق.م جُعلت هذه الفترات سنوية، مع زيادة عدد الآرخونات المنتخبين سنويًا إلى تسعة، حيث كانوا يتولّون مهامهم من خلال تقسيمٍ للعمل. منذ عام ٧٥٢ ق.م، بدأت في أثينا الشرطة الديمقراطية

الأولية بزعامة النبلاء، ولذلك يمكن وصف هذه الديمقراطية بأنّها ديمقراطية أرستقراطية، غير أنّ الديمقراطية الأرستقراطية الأثينية فرضت تدريجيًا ضغوطًا كبيرة على العبيد والفلاحين الفقراء، بحيث إنّ «الملكية الصغيرة أخذت في التلاشي، وأصبح عدد الفلاحين الأحرار أقل، فيما ازداد عدد كبار الملّاك. ووفقًا لما ذكره أرسطو، فقد أصبحت جميع الأراضي مملوكة لفئة قليلة، وتمّ عرض المزارعين وزوجاتهم وأبنائهم للبيع كعبيد، لأنّهم لم يكونوا قادرين على تسديد ديونهم أو دفع أجرة أراضيهم»[١].

تدريجيًا تفاقمت الأوضاع واشتدّت حالة السخط. ومن خشية الأرستقراطيين من اندلاع ثورة، كلّفوا أحد الآرخونات، ويدعى «دراكون»، بوضع قوانين لإصلاح الأوضاع. أُعلنت قوانين دراكون عام ٦٢١ ق.م، وكانت ذات طابع أرستقراطي، إذ فرضت أحكامًا قاسية للغاية ضد الفقراء والمعدمين، حتى إنّ «ديمايد»، أحد خطباء أثينا القدماء، قال: «لقد كتب دراكون قوانينه بالدم لا بالحبر»[٢]. من المحتمل أن تكون قوانين دراكون أول قانون مكتوب ومُدوَّن في أثينا، لكنّها لم تحلّ الأزمة، فابتداءً من عام ٦١١ ق.م، وجدت أثينا نفسها على مشارف ثورة وحرب أهلية دامية.

في ظلّ هذا الوضع، برز شخص يُدعى «سولون» باعتباره منقذ الديمقراطية الأثينية، حيث أطلق إصلاحات جذرية في الوضعين الاقتصادي والسياسي لأثينا بهدف إنهاء الأزمة. كان سولون ينتمي إلى أسرة أرستقراطية مفلسة، لكنه استطاع أن يجمع ثروة كبيرة من خلال التجارة. وعندما بلغ الرابعة والأربعين،

١. دورانت، يونان باستان، ١٣١.

٢. دياكوف وغيره، يونان باستان، ٧٣.

جرى تعيينه آرخونًا عـام ٥٩٤ ق.م بصلاحيات مطلقة ليبدأ تنفيذ إصلاحاته. رغم أنّ سياسـات سـولون كانت تحدّ من بعض امتيازات النبلاء الأثينيين على المدى القصير، فإنّها على المدى البعيد ساهمت في الحفاظ على نظامهم واستمراره. فقد قلّص من نفوذ الأرسـتقراطيين ومنحى الطابع الأرستقراطي لشرطة أثينا، مما مهّد الطريق أمام التحوّل التدريجي من الديمقراطية الأرستقراطية الأولية إلى نموذج الديمقراطية الكلاسيكية، الذي اكتمل مع إصلاحات «كليستينيس» في أواخر القرن السـادس ق.م. أدخل سولون تغييرات لصالح الفلاحين الفقراء، حيث حرّر العديد من الرجال الذين كانوا قد اسـتُعبدوا بسـبب الديون. ومع التغيـيرات التي أحدثها، اتّسـع نطاق مفهوم ديموس ليشـمل التجار الأثرياء أيضًـا. ومن بين إصلاحاته الأخرى، قام سـولون بتقنين الدعارة وتوسـيعها، وفـرض عليهـا الضرائب، ووضـع بيوت الدعـارة تحـت إشراف الدولة، ثم استخدم العائدات الضريبية لبناء معبد مكرّس للإلهة «أفروديت»، إلهة الحب[١]. وعلى عكس مشرّعين مثل «حمورابي» أو «مينوس»، فقد أكّد سولون صراحةً على الطابع العلماني وغير الديني لقوانينه ولمدينة أثينا[٢]. ويُعدّ أحد أكثر دعاة العلمنة الكَونَويّة صراحةً في اليونان القديمة.

بعـد فترة وجيـزة من عهد سـولون، تصاعـدت التوتـرات الاقتصادية–الاجتماعيـة في اليونان، وبـدأت الأوضاع تأخذ منحًى متأزّمًـا تدريجيًا. في عام ٥٦١ ق.م، استولى رجل ثري يُدعى بيسيستراتوس، ذو الأصول الأرستقراطية، على السلطة بصفته «تورانوس». كلمة تورانوس مشتقّة من أصل ليدي، وتعني في اللغـة «الجبّار». وقد اسـتُخدم هذا اللقب لأول مـرة لوصف «غوغس» في

١. م. ن، ١٣٧.

2. Jones, Athenian Democracy, 79.

ليديا. لم يتمكّن بيسيستراتوس من الحفاظ على سلطته طويلًا، فخُلع عام ٥٥٦ ق.م وفرّ من أثينا. لكنّه استعاد السلطة عام ٥٥٠ ق.م، غير أنّه سقط مجدّدًا بعد أقل من عام، إذ أُطيح به عام ٥٤٩ ق.م وأُجبر على الفرار للمرة الثانية. وفي النهاية، عاد بيسيستراتوس إلى السلطة عام ٥٢٦ ق.م بصفته جبّار أثينا، وقام بإحداث تغييرات كبيرة في سياق توسيع إصلاحات سولون، بل إنّه كان في بعض الجوانب أكثر تأثيرًا منه. إصلاحات بيسيستراتوس هيّأت الظروف لانتقال نموذج البوليس اليوناني من البوليس الديمقراطي-الأرستقراطي الأوّلي إلى البوليس الديمقراطي الكلاسيكي. أسّس بيسيستراتوس مكتبة في قصر القيادة، وكُلّفت هيئة من قِبله بإعداد نصٍّ مُنقّح لمنظومات هوميروس الشعرية. حوّل بيسيستراتوس المسابقات العامّة في أتيكا إلى مسابقات على مستوى اليونان بأكملها. الإصلاحات التي أجراها بيسيستراتوس وفّرت الأساس لتحوّل هيكلي في السلطة السياسية، مما أدّى إلى إنهاء الهيمنة الأرستقراطية لصالح هيمنة التجّار والأثرياء الجدد من مالكي العبيد، وهو التحوّل الذي تمّ ترسيخه في عهد كليستينيس. وبشأن دور حكم الجبابرة (ومن بينهم بيسيستراتوس) في الانتقال من الشكل الأوّلي للبوليس اليوناني إلى البوليس الكلاسيكي، يكتب بيري أندرسون ما يلي:

«الجبابرة حطّموا سيطرة الأرستقراطية السلالية في المدن، إذ كانوا يمثّلون المُلّاك الجدد وأصحاب الثروات الحديثة التي تراكمت خلال النمو الاقتصادي في العصر السابق، وقد استندت سلطتهم إلى امتيازات أوسع مُنحت لجموع الفقراء في المدن. في الواقع، كان جبابرة القرن الثامن ق.م هم من أنجزوا التحوّل الحاسم نحو البوليس الكلاسيكي، إذ إنّه خلال فترة هيمنتهم وُضعت الأسس

الاقتصادية والعسكرية للحضارة اليونانية الكلاسيكية»[١].

في هذه الفترة تحديدًا، انتشرت على نطاق واسع في مختلف أنحاء اليونان، بما في ذلك أثينا، مظاهر الفساد الناجمة عن الأخلاقيات العلمانية، حيث شهدت بيوت الدعارة والزنا والمثلية الجنسية توسعًا كبيرًا، وأصبحت مع مرور الوقت عُرفًا اجتماعيًا وسلوكًا مقبولًا في المجتمع.

بعد وفاة بيسيستراتوس، تولّى ابنه «هيبياس» حكم أثينا بصفته جبّارًا من عام ٥٢٧ ق.م حتى ٥١٤ ق.م. وبعده، انتقل الحكم إلى شقيقه «هيبارخوس»، غير أنّ الأخير دخل في صراع تنافسي على علاقة عاطفية مع شاب يُدعى «هارموديوس»، إذ كان ينافسه رجل أرستقراطي آخر يُدعى «أريستوغيتون»، الذي كان أيضًا من مُحبّي الفتيان. انتهى هذا الصراع بمقتل هيبارخوس. سعى هيبياس للانتقام لمقتل أخيه، فألقى القبض على أريستوغيتون وقتله، كما قام بتعذيب عشيقته «ليانيا» لإجبارها على الكشف عن أسماء المتآمرين. ومع تصاعد التوترات، رأى التجّار الأثينيون، الذين لم يعودوا بحاجة إلى وجود جبّار، فرصة للتمرّد. فانضمّ إليهم عدد من الفلاحين والعمّال في المدينة، فاندلعت انتفاضة انتهت بإجبار هيبياس على التنحّي والنفي. في أعقاب ذلك، تولّى السلطةَ رجلٌ من عائلة أرستقراطية يُدعى «كليستينيس». ومن خلال الإصلاحات التي أجراها، تمّ وضع الأساس للديمقراطية الأثينية الكلاسيكية، التي كانت النموذج الأبرز للديمقراطية الكلاسيكية في تاريخ اليونان. وقد شهد عام ٥٠٧ ق.م ظهور البوليس الأثيني الكلاسيكي. ويعتبره المؤرخون مهندس هذا النموذج من البوليس.

«بدأ كليستينيس مسيرَه بثورة ضد النظام السياسي، ورغم معارضة أقوى

١. اندرسون، گذار از عهد باستان به فئودالیسم، ٣٦ – ٣٧.

العائلات الأثينية، وضع دستورًا ديمقراطيًا استمرّ، مع بعض التعديلات، حتى آخر عهد الحرية في أثينا. ولا يخفى أنّ ديمقراطية أثينا لم تكن ديمقراطية مكتملة، إذ كانت مقتصرة على الأحرار فقط، ولم يكن يُسمح بتولّي المناصب إلا لمن يمتلك حدًا معينًا من الثروة. كانت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية بيد مجلسٍ ومحكمةٍ أنشأهما الشعب، أي الرجال الأحرار من مالكي العبيد الأثينيين الذين تجاوزت ممتلكاتهم حدًا معيّنًا، وكانوا من بين أثرياء أثينا. أما الموظفون الحكوميون، فقد كان يتمّ تعيينهم من قبل المجلس والجمعية العامة»[١].

يمكن تلخيص الديمقراطية الأثينية الكلاسيكية بوصفها نوعًا من الديمقراطية ذات الطابع الكَونَويّ، وهو نظام علماني يقوم على استغلال عمل العبيد ونهب الطبقات الفقيرة في الريف والمدن. إنّه نظام توسّعي وعدواني، حيث لا يُعتبر «مواطنًا» في إطاره سوى الرجال الأحرار الأثرياء من مالكي العبيد الذين يمتلكون ثروة تفوق حدًا معيّنًا. في الديمقراطية الأثينية الكلاسيكية، كان المواطنون يشاركون مباشرة في التشريع والقضاء، وكانت السلطة السياسية متمركزة في أيدي الجمعية العامة للمواطنين، التي كانت تدير جميع شؤون المدينة. كان هناك أساليب متعدّدة لاختيار المرشحين للمناصب، بما في ذلك الانتخاب المباشر، والقرعة، والتناوب على المناصب. غير أنّ المواطنة في المدينة اليونانية الكلاسيكية كانت مقتصرة على فئة قليلة نسبيًا من الأفراد[٢]، وهم الأحرار الأثرياء من مالكي العبيد الذين ينتمون إلى القبائل الأصلية للمدينة، ويمتلكون ثروات تفوق حدًا معينًا، ممّا جعلهم ضمن الطبقة العليا من مُلّاك

١. دورانت، يونان باستان، ١٤٦.

٢. هلو، مدلهای دموکراسی، ٦٢.

الثروة في اليونان خلال العصر الكلاسيكي.

وهكذا، دخلت اليونان في نهاية القرن السادس قبل الميلاد القرن الخامس قبل الميلاد، تحت نظام مدينة كَونَويّة تقوم على الديمقراطية الكلاسيكية ذات الطابع الطاغوتي-العلماني، القائم على العبودية والاستغلال. وهو القرن الذي يصفه المؤرخون الحداثيون بأنّه «العصر الذهبي لليونان وأثينا». في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وبين العدد الكبير والمتنوّع من البوليسات، برزت مدينتا أثينا وإسبرطة بوصفهما القوّتين الأهم والمحوريتين، حيث شكّلت تفاعلاتهما، تنافسهما وصراعاتهما، الملامح الأساسية لتاريخ اليونان خلال هذا القرن.

الفصل الثاني: صعود وهبوط اليونان الكلاسيكية

١. تاريخ أثينا وإسبرطة في القرن الخامس قبل الميلاد

في أعقاب الإصلاحات التي أجراها كليستينيس، ظهرت المدينة اليونانية الكلاسيكية مع بداية القرن الخامس قبل الميلاد. وقد أحدثت إصلاحات كليستينيس، التي جرت عامي ٥٠٨ ق.م و ٥٠٧ ق.م، تغييرات كبيرة في توازن القوى المدنية-السياسية داخل أثينا. منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، تضافرت الظروف في معظم البوليسات اليونانية لتهيئة الأرضية لدخول المدينة اليونانية في مرحلة جديدة، تُعرف باسم «البوليس الكلاسيكي» أو «المدينة الكلاسيكية». في القرن الخامس قبل الميلاد، جسّدت إسبرطة وأثينا، وبالأخصّ أثينا، الشكل الكامل والمثالي للمدينة اليونانية الكلاسيكية. وقد سُمّي هذا القرن بـ«العصر الكلاسيكي لليونان»، نظرًا لهيمنة نموذج المدينة الكلاسيكية، كما استُخدم مصطلح «الحضارة اليونانية الكلاسيكية» في توصيف البوليسات اليونانية الكلاسيكية.

المدينة اليونانية الكلاسيكية تُجسّد شكلًا من أشكال العدمية الكَونَويّة. كما ذكرنا سابقًا، بدأ تاريخ الغرب في اليونان بجوهر عدمي في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد حملت المدينة اليونانية، منذ ظهورها الأولي والتأسيسي - الذي يتجلّى من الناحية النظرية بشكل خاص في المنظومات الهومرية-الهسيودية - نوعًا

مــن الفكر العدمــي الكَونَويّ، الــذي جعل من الإرث الأســطوري لليونان ما قبــل الغربية مادة لصورتهــا النوعية الخاصة. المدينة اليونانيــة الأولى، في أبعادها الفكريــة والنظرية، عبّرت عن جوهر عدمي ممزوج بمادة من الرموز والموروثات الأسطورية. في الفكر السائد في المدينة اليونانية المبكّرة، لم يكن للمفاهيم التجريدية والحصولية أهمية تُذكر، إذ كان كلٌّ من هوميروس وهسيود يُعدّان معلّمي الفكر العدمي الكَونَويّ في تلك المرحلة، حيث عمدا إلى توضيح وترسـيخ هذا النزوع العدمــي الكَونَويّ عبر السرد الأسطوري وقصص الملاحم وروايات البطولات البشريــة وصراع الآلهة الأولمبيــة. إنّ الرؤيــة الكَونَويّة التــي قدّمتها منظومات هوميروس وهســيود، مــن زاوية ما، لم تعبّر فقط عن بعض العناصر الأساســية والثابتــة للعالم اليونــاني، بل تجاوزت ذلك إلى التعبير عــن البنية العميقة للغرب اليوناني–الرومــاني، بل وأكثر من ذلك، عن جوانب مــن تاريخ الغرب بأسره. يمكن تتبّع سرّ النفوذ المستمر والخلود التاريخي لمنظومتي الإلياذة والأوديسة عبر مختلف المراحل والحقب التاريخية للغرب في هذه السمة الجوهرية ذاتها.

ابتداءً من منتصف القرن الســابع قبل الميلاد، دخل البوليس اليوناني مرحلة جديدة يمكن تســميتها المدينة الطغيانية أو الجبّاريــة. وفي هذا الطور من تطوّر وتوسّع العالم اليوناني، بدأ الشكل السائد للفكر العدمي الكَونَويّ اليوناني يخرج تدريجيًا من حالته الممتزجة بالمضامين الأسطورية الهومرية–الهسيودية، ليظهر في هيئة نوع من الفكر العدمي الكَونَويّ الحصولي، وهو ما أطلق عليه بعض مؤرخي تاريخ الفكر اســم الميتافيزيقــا العدمية الكَونَويّة الحصوليــة. إنّ هذه الميتافيزيقا العدميــة الكَونَويّة، في طورها الأول، تجلّت في آراء طاليس، وأناكســيمندرس، وأناكسيمينس وغيرهم، واتّخذت شكل الميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة ذات النزعة

الطبيعية، التي فرضت سيطرتها على المدينة اليونانية منذ النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد وحتى معظم القرن السادس قبل الميلاد.

في العقد الأخير من القرن السادس قبل الميلاد، ومع تأسيس البوليس اليوناني الكلاسيكي – الذي بلغ أوج ظهوره في أثينا – أفرزت الميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة الحصولية اليونانية، في مسار تطوّرها وامتدادها، أشكالًا فكرية حصولية مثل السفسطائية والتفكير الفلسفي السقراطي. ومع ظهور السفسطائية والتفكير الفلسفي كصورتين متأخرتين للميتافيزيقا العدمية الكَونَويّة الحصولية اليونانية، استمرّ مسار الفكر في العالم اليوناني في إطار التفكير الميتافيزيقي الحصولي. وفي هذه العملية، ومع ظهور أفلاطون، وبالأخصّ أرسطو، سادت تلك الصورة من التفكير الميتافيزيقي الكَونَويّ التي تجلّت في هيئة الفلسفة، ومنذ ذلك الحين، وحتى اكتمال تاريخ الغرب، استمرّت الصورة النوعية للفكر في الغرب في سياق الفلسفة والتفكير الفلسفي.

المدينة اليونانية الكلاسيكية ظهرت في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وشهدت خلال القرن الخامس قبل الميلاد فترة نضجها وامتدادها. وقد أطلق المؤرخون على هذا القرن الخامس قبل الميلاد، الذي شهد سيطرة البوليس اليوناني الكلاسيكي، اسم «العصر الكلاسيكي لليونان» و«فترة الحضارة اليونانية الكلاسيكية». برز العصر الكلاسيكي لليونان بشكل خاص في مدينة أثينا، حيث كانت أثينا وإسبرطة طوال القرن الخامس قبل الميلاد المدينتين الأساسيتين والمحوريتين في العالم اليوناني. ومع ذلك، لا شك في أنّ أعمق وأبرز تجليات الحضارة اليونانية الكلاسيكية يجب البحث عنها في البوليس الكلاسيكي الأثيني خلال القرن الخامس قبل الميلاد.

اليونان في الحرب ضد الأخمينيين

تاريخ اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد يبدأ باندلاع ثورة واسعة النطاق لشعوب أيونيا ضد سيطرة النظام الأخميني. كان كورش، مؤسّس الدولة الأخمينية، قد أخضع عام ٥٤٦ ق.م مملكة ليديا (الواقعة في غرب تركيا الحالية) بعد انتصاره على جيش كرويسوس، ليصبح بذلك جارًا لليونان. كما تحوّلت جميع الأراضي اليونانية التابعة لمملكة ليديا إلى أراضٍ خاضعة للجزية في ظل الحكم الأخميني. عند عودته إلى فارس، عيّن كورش أحد قادته، هارباغ، حاكمًا على ليديا. وتمكّن هاربـاغ تدريجيًا من إخضاع جميع مناطق آسيا الصغرى، بالإضافة إلى الجزر اليونانية الواقعة على الساحل الغربي (أي أيونيا)، لصالح الحكم الأخميني[1].

في عام ٤٩٩ قبل الميلاد، انتفض الأيونيون ضدّ الحكم الأخميني، وسرعان ما انتشرت ثورتهم إلى بوليسات يونانية أخرى. دعمت أثينا الثوّار، فأرسلت لهم قوّات عسكرية وسفنًا حربية للمساعدة. هاجم الثوّار مدينة سارد، التي كانت مقرًّا للقوات الأخمينية، وأضرموا النيران في مبانيها ومعابدها، لكنهم لم يتمكّنوا من السيطرة على القلعة الرئيسية للمدينة، حيث كانت تتمركز القوات العسكرية الأساسية للنظام الأخميني. في ذلك الوقت، كان داريوس يتولّى العرش في الدولة الأخمينية. ولإخماد الثورة، أرسل قوة قوامها أربعون ألف جندي، مدعومة بمئتي سفينة، باتجاه سارد. بقيادة آرتافرن ومردونيوس، تمكّن الجيش الأخميني من سحق القوات الأيونية والثوّار الآخرين، مُلحِقًا بهم خسائر فادحة.

«لم يكن للثوّار أمل في تحقيق النصر بإمكاناتهم الخاصة، لذا طلبوا العون من

1. Green, The Breco-Persian wars, 35.

دول اليونان القارّيــة، وهكذا اندلعت الحرب بين اليونان وفارس. منذ البداية، كان التشرذم والانقســام في اليونان واضحًا. كانت إسبرطة مشغولة بالتحضير للحــرب ضدّ أرغوس، [وامتنعت عن دعم الثوّار]... وحدها أثينا، التي كانت مصالحها الحيوية مهدّدة بســبب الســيطرة البحرية الفارســية، أرسلت عشرين ســفينة لمســاندة الثوّار... لكن المعركة الشرســة بين الفئات المتضرّرة من توسّع النفوذ الفارسي من جهة، وبين أولئك الذين رأوا أنّ اســتمرار العلاقات الودّية مع هذه الإمبراطورية يخدم تجارتهم مع آســيا مــن جهة أخرى، جعلت من هذا الدعــم غير كافٍ وضعيــف التأثير. لذلك، وعلى الرغم مــن النجاح الأولي في السيطرة على سارد، وجد الثوّار أنفســهم معزولين تمامًا بسبب غياب المساعدة الفعّالــة من اليونان الأوروبية. تمكّن الفرس من إلحــاق الهزيمة باليونانيين على اليابســة قرب إفزوس [مدينة أيونية قديمة على ســاحل بحر إيجه]. كما تعرّض اليونانيون لهزيمة ســاحقة قرب جزيــرة لاده، بالقرب مــن ميليتوس، ما أتاح للفرس محاصرة ميليتوس، التي كانت مركز الثورة، بحرًا وبرًّا. ســقطت المدينة بالكامل، وأصبحت أطلالًا، بينما أُخذ الناجون إما كأسرى أو بيعوا في أســواق الرقّ»[١].

تمّ قمع ثــورة أيونيا بالكامل عام ٤٩٣ قبل الميــلاد، وتعرّض الثوّار لهزيمة ســاحقة. غير أنّ دعم أثينا للثوّار الأيونيين أثار اســتياء داريــوس، فقرّر الملك الأخميني معاقبة الأثينيين.

في عام ٤٩١ قبل الميلاد، شنّ داريوس الأخميني هجومًا على اليونان بأسطول يضمّ ستمائة سفينة حربية. يكتب ويل ديورانت عن حملة جيش داريوس قائلًا:

---

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٢: ٨٦ – ٨٨.

«[جيش داريوس] توقّف في طريقه لإخضاع جزر السيكلاد، ثمّ وصل إلى سواحل أيوبويا على رأس مئتي ألف مقاتل. وبعد مقاومة قصيرة، استسلمت أيوبويا، ثمّ عبر الفرس الخليج ووصلوا إلى أتيكا، حيث نصبوا معسكرهم بالقرب من سهل ماراثون»[١].

في عام ٤٩٠ قبل الميلاد، اندلعت معركة بين القوات الأخمينية واليونانيين بقيادة أثينا في سهل ماراثون، وهي المعركة التي عُرفت في تاريخ الغرب باسم «حرب ماراثون». تولّى داتيس، أحد قادة داريوس الأخميني، قيادة الجيش الفارسي، بينما كان ميليتيادس قائدًا للجيش اليوناني. تمركزت القوات الأخمينية في عام ٤٩٠ قبل الميلاد في منطقة تُدعى ماراثون، وهو سهل يقع عند سفوح تلال ماراثون، ويبعد اثنين وأربعين كيلومترًا شمال أثينا. كان هذا السهل محاطًا بالمستنقعات من جهة، والبحر والتلال من الجهات الأخرى.

في معركة ماراثون، لم تقدّم إسبرطة أيّ دعمٍ للجيش الأثيني، فخاضت القوات الأثينية القتال بمساندة قوات مدينة بلاتيا ضدّ الجيش الأخميني في سهل ماراثون. في صفوف الجيش اليوناني، تمركزت القوات الأثينية على الجناح الأيمن، بينما احتلّت قوات بلاتيا الجناح الأيسر، وتموضع اثنا عشر صفًّا من الجنود في الوسط. كان سهل ماراثون محاطًا بالمستنقعات من كلا الجانبين، ممّا جعل مساحة المناورة أمام سلاح الفرسان الأخميني محدودة، وأفقد جزءًا كبيرًا من جيش داتيس فاعليته العسكرية. وعندما أدرك داتيس أنّ تحقيق النصر في ماراثون غير ممكن، قرّر التراجع بقواته والتوجّه نحو أثينا مباشرة، إلا أنّ ميليتيادس، الذي يبدو أنّه أدرك نوايا داتيس، أسرع بتحريك قواته نحو أثينا. عند هذا الجزء من المعركة،

١. دورانت، يونان باستان، ٢٥٥.

لجأ بعض المؤرخين الرومان في القرن الأول الميلادي إلى اختلاق الأساطير، إذ زوّروا الأحداث وأضافوا رواية ملفّقة عن عدّاء أثيني يُدعى فيديبيديس، وهي رواية لم يؤيّدها هيرودوت ولا أيٌّ من المؤرخين اليونانيين، بل كانت قصة مختلقة بالكامل لا أساس لها من الصحة.

بلوتارخوس، المؤرخ الروماني من القرن الثاني الميلادي، ينسج في إطار أسطورته المختلقة ادّعاءً مفاده أنّه خلال معركة ماراثون، وعندما بدأ جيش داتيس بالتقدّم نحو أثينا، كلّف ميليتيادس العدّاء الأثيني الشهير فيديبيديس بقطع المسافة من ماراثون إلى أثينا، التي تبلغ ٤٢ كيلومترًا، لنقل خبر انتصار اليونانيين على الجيش الأخميني، وذلك بغرض تعزيز الروح المعنوية للأثينيين وتحفيزهم على المقاومة ضدّ قوات داتيس. يقدّم بلوتارخوس سردًا دراميًا لهذه القصة الخيالية والمزيّفة، مدّعيًا أنّ فيديبيديس، بعد أن قطع مسافة ٤٢ كيلومترًا بين سهل ماراثون وأثينا، وصل إلى وسط المدينة منهكًا، وما إن نطق بجملة «لقد انتصرنا» حتى سقط ميتًا. في عام ١٨٦٩، قامت الحكومة اليونانية بالتعاون مع الدول الغربية، وبالاستناد إلى هذه الأسطورة المختلقة والرواية الزائفة، بتضمين سباق الماراثون (بمسافة ٤٢ كيلومترًا) ضمن الألعاب الأولمبية، زاعمين أنّه تخليدٌ لذكرى هذه الحادثة التي ارتبطت بعدّاء معركة ماراثون. ولا يزال هذا السباق يُعتمد حتى اليوم كأحد المسابقات الرسمية في دورات الألعاب الأولمبية.

بعد هزيمته في ماراثون، ورؤية وصول تعزيزات ميليتيادس إلى أثينا، تراجع الجيش الأخميني عن إنزال قواته في أثينا وعاد إلى سارد[1]. أدّت هزيمة جيش داريوس الأخميني أمام اليونانيين بقيادة أثينا في ماراثون إلى إضعاف مكانة النظام

1. Green, The Greco-Persian Wars, 67-70.

الأخميني، وفي المقابل عزّزت بشكل كبير نفوذ أثينا وسُمعتها في العالم اليوناني، مما مهّد الطريق عمليًا لتحوّلها إلى البوليس الرئيسي والمحوري في اليونان خلال العصر الكلاسيكي.

في انتصار أثينا، لعبت القوة البحرية الأثينية دورًا بالغ الأهمية. وكان المهندس الرئيسي لإنشاء الأسطول البحري الأثيني رجلًا يُدعى تميستوكلس. كان تميستوكلس ينتمي إلى ذلك الجناح من الطبقة الحاكمة في البوليس الأثيني الذي سعى إلى توسيع اقتصاد أثينا من خلال السيطرة على الطرق التجارية البحرية. ولهذا السبب، أبدى هذا الجناح من الطبقة الحاكمة في أثينا اهتمامًا كبيرًا بمواجهة النظام الأخميني، بهدف تقليص نفوذه البحري.

كان ميليتيادس على رأس ذلك الجناح من الطبقة الحاكمة في بوليس أثينا الذي كان يمثّل ويدافع بشكل رئيسي عن مصالح مُلّاك الأراضي ومالكي العبيد المستفيدين من الثروة الزراعية. وعلى الرغم من أنّ جناح ملّاك الأراضي بقيادة ميليتيادس لم يكن يمتلك الحماسة ذاتها التي أظهرها جناح التجّار البحريّين في مواجهة النظام الأخميني، إلا أنّه أدرك جيدًا أنّ عدم مقاومة الهجوم الأخميني قد يؤدّي بلا شكّ إلى ضياع استقلال ومصالح الطبقة الحاكمة في بوليس أثينا، بل وتهديد كيان المدينة اليونانية الكلاسيكية برمّتها.

في عام ٤٨٠ قبل الميلاد، أي بعد عشر سنوات من معركة ماراثون، قاد خشايارشا، الذي خلف داريوس بعد وفاته، جيشًا أخمينيًا ضخمًا باتّجاه اليونان عبر البرّ والبحر. أرسل خشايارشا مبعوثين إلى أثينا، مطالبًا إياهم، كتعويضٍ وكدليلٍ على الخضوع والطاعة، بأن يمنحوه «تراب وماء أثينا». غير أنّ الأثينيين لم يُلقوا بالًا لطلبه، وسارعوا إلى طلب المساعدة من البوليسات اليونانية الأخرى،

مدركين أنّ الأخمينيين سيشــنّون هجومًا عليهم قريبًا. هذه المرة، قدّمت إسبرطة دعمها للأثينيين، حيث أرسل الإســبرطيون قوّاتهم بقيادة ليونيداس وتمركزوا في مضيق ترموبيل، الواقع شمال أثينا، استعدادًا لمواجهة الجيش الأخميني. اجتاز جيش خشايارشا مضيق داردانيل عبر جسر من القوارب المترابطة، ودخل شمال اليونــان. في مواجهــة الجيش الأخميني، صمدت القوات الإســبرطية في مضيق ترموبيل لمدة أربعة أيام. إلا أنّ أحد ســكان اليونان كشف للأخمينيين عن طريق سرّي يتيــح لهم تجاوز المضيق. واجه الجيش الأخميني القوات اليونانية المتمركزة عــلى قمة الجبل، وتمكّن من هزيمتها، قبل أن يشــنّ هجومًا من أعلى الجبل نحو مضيــق ترموبيل. قُتل ليونيــداس ومعه حوالي ثلاثمئة جندي إســبرطي كانوا يدافعون عن المضيق، وواصل الجيــش الأخميني تقدّمه باتجاه أثينا. عند وصول قوات خشايارشا إلى أثينا، وجدوا المدينة شبه خالية من السكان. فقاموا بإحراق القصور والمعابد الأثينية ودمّروا المدينة. بعد سقوط أثينا، فرّت القوات اليونانية باتجــاه الجنوب، وبعد التشــاور، قــرّروا نقل المعركة إلى البحر، للاســتفادة من التفوّق البحري الأثيني في مواجهة الجيش الأخميني.

اليونانيون، عبر استدراج المعركة إلى خليج سالاميس، خلقوا ظروفًا مكّنت الســفن الحربية الصغيرة التابعة لهم من المناورة بســهولة، بينما واجه الأســطول الأخميني، المؤلّف من سفن ضخمة، صعوبة كبيرة في الحركة والمناورة. وبالتوازي مع ذلك، كان المشاة اليونانيون في مضيق كورينث قادرين على قطع الطريق أمام جيش خشايارشــا. في اليوم التالي، دخل الأســطول الأخميني خليج سالاميس في مطاردة للقوات اليونانية. وبســبب ضيق مســاحة المناورة، اضطر الأسطول الأخمينــي إلى الهجوم بثلاثة صفوف متوازية. اســتغلّ اليونانيون ذلك، وشــنّوا

ضربات مكثفة على الجناح الأيسر للأسطول الأخميني، مما أجبره على التراجع. أدّى ضيق الخليج وصعوبة تحرّك السفن الأخمينية إلى اصطدام بعضها ببعض، مما زاد من حالة الفوضى والارتباك في صفوف قوات خشايارشا. عند الغروب، وبينما كان جنود الجيش الأخميني يحاولون النزول إلى الشاطئ بعد غرق سفنهم، باغتهم المشاة الأثينيون بهجوم عنيف وألحقوا بهم هزيمة ساحقة. وهكذا انتهت معركة سالاميس بهزيمة قاسية للجيش الأخميني[١].

بعد هزيمته في سالاميس، انسحب خشايارشا إلى فارس، وترك أحد قادته، مردونيوس، في الأراضي اليونانية لمواصلة الحرب ضدّ اليونانيين. في عام ٤٧٩ قبل الميلاد، اندلعت معركة أخرى في سهل بلاتيا بين الجيش الأخميني بقيادة مردونيوس والقوات اليونانية بقيادة باوسانياس، وانتهت هذه المعركة أيضًا بانتصار اليونانيين. أثناء انسحاب الجيش الأخميني، قُتل عدد كبير من جنوده في منطقة ميكالي. في نهاية الحرب، طارد اليونانيون الجيش الفارسي، وبعد عدّة أيام من الحصار، نفّذوا مجزرة غير مسبوقة، حيث يذكر هيرودوت أنّه لم ينجُ من الجيش الفارسي سوى ثلاثة آلاف جندي فقط. معركة بلاتيا انتهت لصالح اليونانيين نتيجة خطأ استراتيجي ارتكبه مردونيوس في تنفيذ خطّته، ولذلك، لا ينبغي اعتبار هذا النصر ناتجًا عن عبقرية عسكرية يونانية استثنائية[٢].

في الانتصارات العسكرية التي حقّقها اليونانيون في معارك ماراتون (٤٩٠ ق.م)، سالاميس (٤٨٥ ق.م)، وبلاتيا (٤٧٩ ق.م)، لعبت أثينا الدور المحوري والأساسي. وقد أدّى ذلك إلى صعود أثينا، بعد هذه الحروب والانتصارات، كأقوى بوليس في اليونان خلال العصر الكلاسيكي. بعد مرور عامين على انتصار

1. Ibid., 89, 93.

٢. بهمنش، تاريخ يونان قديم، ٢٢٥.

بلاتيا، الذي أجبر الجيش الأخميني على الانسحاب الكامل من اليونان والعديد من المناطق والممتلكات اليونانية، تمّ تأسيس تحالف بين مدن آسيا الصغرى وبعض البوليسات اليونانية الأخرى، بقيادة أثينا، تحت اسم اتحاد ديلوس. وقد أدّى هذا التحالف عمليًا إلى تحوّل أثينا إلى قوة استعمارية داخل اليونان القديمة، فارضة نفوذها على الأراضي والشعوب الأخرى.

يكتب ويل ديورانت عن هذا الأمر قائلًا:

«في عام ٤٧٧ قبل الميلاد، أنشأت المدن اليونانية في آسيا ومدن منطقة بحر إيجه اتحاد ديلوس بقيادة أثينا، بهدف حماية أنفسهم من الفرس. كانوا يدفعون مساهمات مالية لصندوق مشترك تمّ وضعه في معبد أبولو بجزيرة ديلوس، مقابل حصولهم على سفن حربية من أثينا. ولكن، بفضل قوّتها البحرية، سرعان ما فرضت أثينا سيطرتها على حلفائها، ولم يطل الوقت حتى تحوّل هذا الاتحاد المتساوي الحقوق إلى إمبراطورية أثينية»[١].

منذ عام ٤٧٩ قبل الميلاد، صعدت أثينا بسرعة لتصبح القوّة المهيمنة في العالم اليوناني، وقادت الدول-المدن اليونانية، ممّا أثار مشاعر التنافس والغيرة الشديدة لدى الإسبرطيين. وقد أدّى ذلك إلى تفاقم التوترات بين هاتين المدينتين إلى درجة جعلت التنافس بينهما يتّخذ طابعًا حادًّا ومتزايدًا، إلى أن انتهى في نهاية المطاف إلى حرب دامية وتصفيات عنيفة بين أثينا وإسبرطة (وهو ما سنتناوله لاحقًا في الصفحات القادمة، إن شاء الله). من رحم الانتصارات العسكرية التي تحقّقت خلال الحروب اليونانية ضد الجيش الأخميني - والتي كانت أثينا محورها الأساسي - نشأت قوّة الإمبراطورية الاستعمارية الأثينية، التي جسّدت

١. دورانت، يونان باستان، ٢١٧.

في صورتها الكاملة نموذج البوليس الكلاسيكي الأثيني. أصبحت أثينا مركز القوة الاقتصادية والعسكرية والثقافية في العالم اليوناني، وأبرز تجسيد ملموس للديمقراطية الكلاسيكية اليونانية. لكنّ سلوكها تجاه بقيّة دولة المدن اليونانية وجيرانها من غير اليونانيين كشف بوضوح عن طبيعة عالم الغرب اليوناني الطاغوتي، الذي حمل في جوهره نزعة توسّعية، استبدادية، ظالمة واستعمارية.

أثينا وإسبرطة: من الحرب ضد الأخمينيين إلى صعود بريكليس

يعود تاريخ نشوء أثينا وإسبرطة كإقليمين مستقلّين بحكّام منفصلين إلى الألفيّة الثانية قبل الميلاد. تقع إسبرطة في شبه جزيرة واسعة ضمن الجزء الجنوبي من البيلوبونيز. حتى عام ٩٥٠ قبل الميلاد، كانت إسبرطة واحدة من المستوطنات التابعة للحضارة الميسينية، التي تطوّرت حول قلعةٍ ذات طابع عسكري. وكما يذكر هوميروس، فقد شارك الجنود الإسبرطيون إلى جانب بقية اليونانيين في الحملة العسكرية على طروادة. أمّا ظهور إسبرطة كبوليس، فقد جرى حوالي عام ٩٠٠ قبل الميلاد، وذلك عقب اجتياح الدوريّين لهذه المنطقة.

تكوّنت الطبقة الحاكمة في بوليس إسبرطة من أفراد القبيلة الدوريّة المهاجمة، الذين فرضوا سيطرتهم بالقوّة واستعبدوا السكّان الأصليين، محكمين قبضتهم عليهم بوسائل قمعية صارمة. اعتبارًا من القرن الثامن قبل الميلاد، بدأ مسار التطوّر والتحوّل لكلٍّ من أثينا وإسبرطة يأخذ اتجاهات متباينة. تقع أثينا في شبه جزيرة أصغر حجمًا على الحافة الغربية لمنطقة أتيكا. كانت أثينا، خلال الألفية الثانية قبل الميلاد، مستوطنة ذات قصر وأسوار، تتمركز حول قلعة عسكرية، وتقع بمحاذاة بحر إيجه. وكما شارك الجنود الإسبرطيون في حملة الإغريق على طروادة، كان للجنود الأثينيين أيضًا حضور في هذا الهجوم إلى جانب بقية

اليونانيين. وعلى عكس العديد من المدن اليونانية الأخرى، نجت أثينا من الاجتياح الدوري:

«فرّ اللاجئون الهاربون من الغزاة إلى أثينا، فنمت هذه المدينة دون أن تنسى أصولها الميسينية... لقد كانت أثينا، في الواقع، الحلقة الوحيدة التي لم تنقطع بين الحضارة الجديدة [اليونان الغربي القائم على نموذج البوليس] والحضارة القديمة [اليونان الأسطوري ما قبل الغربي]»[١].

في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت أثينا أهم بوليس في منطقة أتيكا، واستمرّت في اكتساب المزيد من الأهمية والمكانة والهيبة. منذ ذلك القرن، ظهرت الديمقراطية البوليسية الكَونَويّة اليونانية بأحد أبرز تجليّاتها في مدينة أثينا. في القرن السادس قبل الميلاد، سيطرت أثينا على جزيرة سالاميس الواقعة عند الطرف الغربي لساحل أتيكا، ووسّعت تدريجيًّا نفوذها على الساحل الغربي لإيوبا. كما استولى الجنود الأثينيون على منطقة خيرسونيس وسيطروا على مضيق داردانيل، مما عزّز نفوذ أثينا البحري. منذ ذلك الحين، تصاعدت المنافسة والعداء بين أثينا وإسبرطة، وبلغت ذروتها بعد انتصار اليونانيين (بقيادة أثينا في معظم المعارك) على الجيش الأخميني في الحروب المختلفة. نتيجة لذلك، ظهر في اليونان نظام ثنائي القطب بين أثينا وإسبرطة، حيث قاد كلٌّ من البوليسين تحالفًا من الدول-المدن اليونانية، متنافسين ومتصارعين على الهيمنة في العالم اليوناني.

منذ اليوم التالي لانتصار اليونانيين على الجيش الأخميني، شهدت البوليسات اليونانية، ولا سيّما أثينا، تصاعدًا واسع النطاق في الصراعات السياسية-المدنية. في الواقع، يمكن اعتبار السمة الأساسية للفترة الممتدّة من ٤٧٩ ق.م حتى ٤٦١

١. ناردو، عصر پريكلس، ١٩.

ق.م (تاريخ صعود بريكليس إلى السلطة في أثينا) هي تعمّق هذه الصراعات بين مختلف الطبقات والفئات والمهن والمستويات داخل التسلسل الهرمي الاقتصادي-المدني في المدن اليونانية، وخاصة في أثينا. في مختلف البوليسات اليونانية، مثل أتيكا، بيوتيا، وإسبرطة، وكذلك في المستوطنات اليونانية مثل سيراقوسة، أولبيا، وهيراكليا بونت، تصاعدت التناقضات بين الفصائل المختلفة داخل أنظمة الدولة القائمة على العبودية، واتّسعت هذه الانقسامات على نحو متزايد، ممّا ساهم في تعقيد المشهد السياسي والاجتماعي داخل العالم اليوناني.

الوضع الحادّ والطارئ الذي نشأ نتيجة الهجمات المتكرّرة للجيش الأخميني، ومعارك ماراثون وسالاميس وبلاتيا وميكالي، أثّر بشكل عميق على مختلف الفئات والطبقات المدنية في دولة المدن اليونانية، ممهّدًا الطريق لتحرّكات سياسية-مدنية ولبروز تغييرات سياسية واسعة النطاق. خلال هذه الفترة، بدأت تدريجيًا سيادة وانتشار نموذج الديمقراطية الكلاسيكية (البوليس الكلاسيكي) في مدن يونانية عدّة. في أرغوس، وهي دولة-مدينة تقع في شمال شرق البيلوبونيز وجارة لاكُنيا، أصبحت الديمقراطية الكلاسيكية النموذج السائد. وفي سيراقوسة، حلّ البوليس الكلاسيكي محلّ البوليس الجبّاري. أمّا في هيراكليا بونت، فقد استُبدلت الديمقراطية الأوليغارشية بالديمقراطية الكلاسيكية.

في هذه الفترة، كانت أثينا أيضًا ساحة لصراعات سياسية واسعة بين جناحي الطبقة الحاكمة في هذا البوليس القائم على العبودية. داخل الطبقة الحاكمة الأثينية، كانت هناك كتلتان سياسيتان-اقتصاديتان متعارضتان: أ) «الجناح الأرضي» بقيادة أريستيدس؛ ب) «الجناح البحري» بقيادة تميستوكلس. سعى الجناح الأرضي إلى تعزيز الطابع الأوليغارشي للديمقراطية الأثينية. وكان أنصار

هذا الجناح في الغالب من صغار ملّاك الأراضي والمزارعين متوسطي الدخل، في حين كان قادة هذا الجناح من كبار ملّاك الأراضي المقرّبين من الأرستقراطيين. في المقابل، كان هناك الجناح البحري الحاكم، الذي قاده التجّار، وأصحاب السفن، وكبار المصدّرين، ومالكو ورش بناء السفن. أما أنصار هذا الجناح، فكانوا في الغالب من البحّارة، والمجذّفين، وعمّال الموانئ. مع ذلك، كان كلا الجناحين، الأرضي والبحري، يدافعان عن النظام العبودي (الديمقراطية البوليسية الكَونَويّة القائمة على العبودية)، لكن الاختلاف بينهما كان في النموذج الديمقراطي الذي يتبنّاه كلّ منهما؛ إذ كان الجناح الأرضي يدعم نوعًا من الديمقراطية الأوليغارشية، بينما كان الجناح البحري يؤيّد الديمقراطية الكلاسيكية. طوال هذه الفترة، كانت المنافسة والصراع بين إسبرطة وأثينا تتصاعد باستمرار. يكتب ثوقيديدس عن هذا الموضوع قائلًا: «الإسبرطيون والأثينيون، منذ الحرب ضدّ الفرس وحتى يومنا هذا، كانوا دائمًا في حالة من الحرب والسلم، سواء فيما بينهم أو مع حلفائهم السابقين الذين انفصلوا عنهم، وبالتالي فقد اكتسبوا خبرة عسكرية في مدرسة الخطر وتعلّموا من التجربة»[١].

ومع ذلك، فإنّ أهمّية أثينا ودورها وتأثيرها في تطوّر العالم اليوناني كانت أعظم من إسبرطة، بل وأكبر من جميع البوليسات اليونانية الأخرى. يكتب جون كروي في هذا السياق: «اليوم، عندما نفكّر في الإرث اليوناني، فإنّنا في الواقع نفكّر في أثينا، وهذا هو الصحيح»[٢].

كان الجناحان، الأرضي والبحري، داخل الدولة العبودية الأثينية متّفقين

١. م. ن، ٣٢.

٢. م. ن، ٣٣.

على تبنّي نهجٍ استعماري تجاه باقي البوليسات اليونانية، وكذلك تجاه الشعوب المجاورة، وعلى السعي لتحقيق أهداف توسّعية، غير أنّ الخلاف بينهما كان حول كيفية تنفيذ هذه السياسات، وأولوياتها، والبرامج والاستراتيجيات المتّبعة لتحقيقها. في شتاء عام ٤٧٧ قبل الميلاد، اجتمع ممثّلون عن أكثر من مئة وخمسين بوليسًا يونانيًا في الجزيرة الصغيرة دلوس، وأسّسوا تحت قيادة أثينا تحالفًا عُرف باسم اتحاد دلوس. لعبت أثينا دورًا محوريًا ومركزيًا في هذا الاتحاد، وسرعان ما أصبح تطوّره وسيلةً لتعزيز الهيمنة الاستعمارية الأثينية. في البداية، تمّ الاحتفاظ بخزينة الاتحاد في جزيرة دلوس، لكن عمليًا، كانت أثينا هي المستفيد الرئيس منها والمتحكّم في مواردها. وبعد فترة وجيزة، تمّ نقل أموال الاتحاد بالكامل إلى أثينا، حيث أصبحت السيطرة الأثينية على أعضائه أكثر وضوحًا واستبدادًا. يقول دان ناردو في هذا الشأن:

«في البداية، تمّ الاحتفاظ بأموال الاتحاد في خزينة دلوس، لكن قادة أثينا كانوا يجمعونها وينقلونها باستمرار. استغلّ الأثينيون تفوّقهم وأصرّوا، بوقاحة، على أن يقدّم أعضاء الاتحاد سفنًا لدعم الأسطول البحري. منذ تلك اللحظة، لم يعد من الصعب إدراك دوافعهم الأنانية. في الواقع، كان الخداع الأثيني داخل الاتحاد أحد الأسباب التي جعلت إسبرطة ترفض الانضمام إليه، كما دفعت حلفاءها إلى الامتناع عن المشاركة فيه. كان العديد من الإسبرطيين قلقين من أن تستخدم أثينا في نهاية المطاف تحالف دلوس كأداة لمواجهة اتحاد البيلوبونيز، وهو تخوّف لم يكن بلا مبرّر»[١].

الحقيقة التاريخية هي أنّ اتحاد دلوس سرعان ما أصبح عمليًا أداةً لتحقيق

١. م. ن، ٣٤.

الطموحات التوسّعية لأثينا. فبعد الانتصارات التي حقّقتها في الحرب ضدّ الأخمينيين، شعرت أثينا بقوتها وازدادت ثقتها بنفسها على نحو تفوّقيّ، كما حصلت على موارد مالية وإمكانات اقتصادية أوسع. وبهذه الخلفية، كشفت أثينا عن نزعتها الاستكبارية بصورة أكثر وضوحًا، باعتبارها نظامًا عبوديًا كَونَويّا، وازدادت قسوتها في التعامل مع البوليسات اليونانية، سواء الأعضاء في الاتحاد أو تلك التي رفضت الانضمام إليه.

لكن في داخل أثينا نفسها، كان هناك صراع سياسي-اقتصادي بين جناحين: الجناح الأرضي بقيادة سيمون، والجناح البحري بقيادة تميستوكلس. كان سيمون القائد العام لجيش اتحاد دلوس، وهو شابٌ أرستقراطي ثري من أثينا، وابن ميليتيادس، أحد القادة العسكريين والزعماء السياسيين السابقين في أثينا، إلا أنّه دخل عالم السياسة من خلال أريستيدس. كان سيمون من أنصار تعزيز الطابع الأوليغارشي داخل الديمقراطية الأثينية. كان سيمون يميل بشدة إلى السلام، بل وأكثر من ذلك، كان يسعى إلى إقامة علاقات وثيقة وودية مع إسبرطة. أما والده، ميليتيادس، الذي كان قائد الجيش اليوناني في معركة ماراثون، فقد كان أيضًا ميّالًا إلى الأرستقراطيين داخل الطبقة الحاكمة الأثينية. أما سلوك سيمون السخي تجاه الفقراء والطبقات الدنيا في أثينا، فقد جعله شخصية محبوبة للغاية بين أهالي المدينة.

في الجناح المقابل لسيمون، كانت هناك الكتلة السياسية المعروفة باسم المجموعة البحرية بقيادة تميستوكلس، الذي كان من أبرز ممثّلي نموذج الديمقراطية الكلاسيكية في أثينا. كان تميستوكلس مؤسّس القوّة البحرية الأثينية وأحد قادتها العسكريين البارزين. من اللافت للنظر أنّ قادة التكتّلات السياسية

الرئيسية في أثينا، وكذلك معظم الزعماء السياسيين الآخرين، كانوا جميعًا تقريبًا رجالًا عسكريين. يُبرز هذا الأمرُ بوضوحٍ الطابعَ العسكري للنظام الديمقراطي في اليونان القديمة، والذي كانت أثينا مركزه وقلبه النابض. تكشف هذه الحقيقة عن الطبيعة العسكرية النزّاعة للحرب التي كانت جوهر الديمقراطية الأثينية. ومع ذلك، يُصرّ المؤرخون الحداثيون بشكل غريب على تجاهل الطابع العسكري-الاستعماري للحضارة اليونانية الغربية والديمقراطية الأثينية، متعمّدين إغفال هذه الحقيقة القاسية، في محاولة منهم لتقديم مهد التاريخ الغربي على أنّه أرض الثقافة والفنّ، عبر التركيز على الجوانب الفكرية والفنية للحضارة اليونانية.

لكنّ الواقع يكشف أنّ تاريخ الغرب، منذ فجر ظهوره في العالم اليوناني الغربي، وُلد بطبيعةٍ قاسية قائمة على التوسّع العسكري العدواني، والنزعة الاستعمارية، والاستكبارية. وقد ظلّ هذا الطابع العسكري الاستكباري حاضرًا في مختلف مراحل تطوّر التاريخ الغربي، مهيمنًا على مساره، وصولًا إلى يومنا هذا، حيث يشهد الغرب حقبته الأخيرة من الانحطاط الشامل المتّجه نحو الاضمحلال.

سيمون وتميستوكلس، رغم الخلافات التي كانت بينهما، كانا كلاهما من مالكي العبيد، ومدافعين عن الدولة العبودية الأثينية، ومنتميين إليها. لقد اتّحدا في رؤيتهما وسعيا معًا لتحقيق أهداف البوليس العبودي الأثيني، رغم اختلاف أساليبهما.

«قبل معركة سالاميس، كان هناك صراع حادّ بين الحزبين بشأن كيفية تنظيم الدفاع ضدّ الفرس (الأخمينيين)، الذين كانوا يُعدّون لحربٍ برية وبحرية. تمّ نفي أريستيدس، زعيم المجموعة الأرضية، فيما فرضت الدوائر البحرية، التي كانت تُقاد في البداية من قبل كزانتيبوس ثمّ لاحقًا من قبل تميستوكلس، برنامجها الذي أثبتت صحّته من الناحية العسكرية وتمّ تنفيذه. ولكن في المقابل، تعرّضت أتيكا،

التي كانت أرضًا زراعية، للدمار الشامل. في المناطق الريفية، أدّت سياسات الديمقراطيين [المجموعة البحرية] إلى إثارة استياء الجماهير... أمّا تأييد لاكُنيا، فقد كان خاصًّا بالمفكّرين المنتمين إلى المجموعة الأرضية؛ إذ كانوا ينظرون إلى إسبرطة على أنّها نموذج مثالي، لأنّ مواطنيها كانوا يعيشون من محصول الأرض. اتّسمت السياسة الخارجية للديمقراطيين بالنزعة الهجومية؛ إذ كانت ضرورات تطوّر التجارة والصناعة، وتوسّع القوّة اليونانية، وضمّ الأراضي والموانئ الأجنبية، وإنشاء المستوطنات والمستعمرات، تستلزم ذلك. السمة المميّزة لهذه الحقبة كانت الصراع بين إسبرطة وأثينا، والاستعدادات العسكرية التي قام بها كلا الجانبين للسيطرة على اليونان. تصاعدت حدّة الصراع بين المجموعتين الأرضية والبحرية خلال النصف الأول من المرحلة المعروفة باسم «الخمسينية» [وهي الفترة الممتدة بين غزو خشايارشا عام ٤٨٠ قبل الميلاد وبداية حرب البيلوبونيز عام ٤٣١ قبل الميلاد] »[١].

في السنوات التي تلت معركة بلاتيا (٤٧٩ قبل الميلاد)، اندلع صراع حادّ على السلطة بين سيمون وتميستوكلس. ومع ذلك، كان سيمون يتمتّع بشعبية أكبر بين عامة الناس مقارنة بتميستوكلس. استمرّت المنافسة والصراع على السلطة بينهما من عام ٤٧٩ قبل الميلاد حتى عام ٤٧٢ قبل الميلاد. في ذلك العام، تمكّن سيمون والمجموعة الأرضية من استغلال تهمة الفساد والرشوة (التي كانت على الأرجح صحيحة بحقّ تميستوكلس) لنفيه من أثينا، وإقصائه نهائيًا من المشهد السياسي.

«تميستوكلس جعل الأثينيين يدركون أنّ الطريق إلى القوة والعظمة يمرّ عبر البحر وليس عبر البرّ... وكان هو نفسه من خلال هذه الرؤية قد حدّد مسار

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان (يونان)، ١١٤ - ١٥.

تاريخ اليونـان. يُقال إنّ تميسـتوكلس، مقابل مبالغ من الرشـوة، أعفى بعض المدن من دفع الضرائب، وبالمثل، كان يُطلق سراح المنفيّين وفقًا لمصالحه. ويذكر تيموكرئون أنّه في بعض الأحيان كان يأخذ الرشوة لكنه لا يُطلق سراح المنفيّين. عندما تولّى أريسـتيدس مسـؤولية العوائد العامة، اكتشف أنّ المسؤولين الذين سبقوه قد اختلسوا أموال الخزينة العامة، ولم يكن تميستوكلس أقلّ تورّطًا في ذلك من غيره. حوالي عام ٤٧١ قبل الميلاد، أصيب الأثينيون بالخوف من أفكاره التي تجاوزت كلّ الاعتبارات الأخلاقية، فصوّتوا على نفيه، مما دفعه إلى الاستقرار في أرغوس. وفي عام ٤٤٩ قبل الميلاد، توفّي تميستوكلس عن عمر ناهز خمسة وستين عامًا، قبل أن يتمكّن من تحقيق طموحاته التي لم تفارقه حتى لحظاته الأخيرة».

أغلب المؤرخين اعتبروا أنّ عام ٤٧٢ قبل الميلاد هو تاريخ نفي تميستوكلس. بعد نفيه، تولّت المجموعة الأرضية بقيادة سيمون السلطة في أثينا لمدة عقد كامل، وتمكّنت إلى حدّ كبير من تحييد المجموعة البحرية وعزلها سياسـيًا. بدأ سـيمون نشـاطه كقائد لأثينا في ظلّ ظروف كان فيهـا يتمتّع بدعم معظم الأثينيين. وقد ازدادت شـعبيّته بشـكل ملحوظ بعد انتصاره على الجيـش الأخميني في معركة إيوروميدون، التي دارت عام ٤٦٩ قبل الميلاد على البرّ والبحر، قرب السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى. جرت هذه المعركة بالقرب من مصبّ نهر إيوروميدون، ومن هنا اكتسبت اسمها.

«كانت نتائج هذا الانتصار بالغة الأهمية بالنسـبة لليونان. فقد تمكّن حلفاء اتحـاد دلوس من تنفيـذ مهمّتهم بنجاح دون الحاجة إلى تعـاون بقية اليونانيين. سـقط آخر معقل فارسي في خيرسونيس بيد اليونانيين، كما أجبرت أثينا مدينتَي ليـسي وكاري على الانضمام إلى تحالفها. بفضل الضرائب التي فرضتها أثينا على

حلفائها الجدد، إضافة إلى الغنائم الحربية، شرعت في تنفيذ مشاريع تنموية داخل المدينة. وبمناسبة هذا النجاح، استقبل الأثينيون سيمون، الذي كان العقل المدبّر وراء هذه الانتصارات، باحتفالات مهيبة ومراسم مملوءة بالعظمة والتكريم»[١].

بعد صعود المجموعة الأرضية إلى السلطة الكاملة، «لم يُجرَ أيّ تعديل رسمي على النظام السياسي في أثينا، لكنّ أهمية مجلس أريوباغوس ازدادت بشكل ملحوظ. فقد كان لهذا المجلس العريق الحقّ في نقض قرارات الجمعية الشعبية إذا رأى أنّها مخالفة للقوانين... خلال العقد السادس من القرن الخامس قبل الميلاد، لعب سيمون دورًا أساسيًا في أثينا»[٢].

كان مجلس أريوباغوس مجلسًا أوليغارشيًا داخل البوليس الكلاسيكي الأثيني، وكانت قوّته تعزّز الطابع الأوليغارشي للديمقراطية الكلاسيكية الأثينية. كان هذا المجلس يتألّف في الغالب من ضبّاط عسكريين سابقين كانوا يُنتخبون لمرّة واحدة فقط، لكنّ عضويتهم كانت مدى الحياة. ونظرًا لمكانة أعضائه، فقد كان لهم نفوذٌ كبيرٌ على باقي مؤسسات الديمقراطية الأثينية.

«في الوقت الذي كان فيه كيمون [سيمون] يستخدم قوّة اتحاد دلوس للدفاع ضدّ الفرس، كان يُصرّ أيضًا على تعزيز نفوذ أثينا على حلفائها. ومع مرور الوقت، أصبحت أثينا أكثر توسّعية، وحوّلت اتحاد دلوس تدريجيًا إلى إمبراطوريتها الخاصة، مما أكّد المخاوف السابقة التي كانت لدى إسبرطة. استغلّ الأثينيون قوّة الأسطول البحري لحلفائهم لتعزيز ثروتهم ونفوذهم وهيمنتهم، وأخضعوا أعضاء الاتحاد الأصغر حجمًا وأرهبوهم. يكتب ثوقيديدس: «كان الأثينيون صارمين وظالمين. لقد لجؤوا إلى إجراءات قمعيّة ضدّ شعوب لم تكن على دراية

١. بهمنش، تاريخ يونان قديم، ٢٦٠ – ٦١.

٢. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان (يونان)، ١١٦.

بما يُطلب منها، ولم تكن راغبة في تنفيذه.» كان ناكسوس، وهو جزيرة تقع جنوب شرق دلوس، أوّل عضو في الاتحاد يتعرّض لهذا القمع. ففي عام ٤٦٩ قبل الميلاد، وبعد فترة وجيزة من معركة إيوروميدون، توصّلت ناكسوس إلى قناعة بأنّ خطر التهديد الفارسي قد زال، فقرّرت الانسحاب من الاتحاد واستغلال أسطولها لمصلحتها الخاصة بدلًا من توظيفه لخدمة أثينا. على الرغم من أنّ ناكسوس كانت تملك، وفقًا للميثاق الأصلي لاتحاد دلوس، الحقّ في الانسحاب من الاتحاد، إلا أنّ رأي كيمون [سيمون] كان مختلفًا. تعامل مع سكان ناكسوس كما لو كانوا رعايا أثينيين متمرّدين، فشنّ عليهم هجومًا، ودمّر تحصيناتهم، وصادر أسطولهم. بعد ذلك، أُجبر ناكسوسيون على دفع الجزية مباشرة إلى أثينا سنويًا، تعبيرًا عن خضوعهم لها. لم يكن هذا المصير حكرًا على ناكسوس، بل لحق أيضًا بمدينة تاسوس، وهي دولة-مدينة جزيرية تقع على الحافة الشمالية لبحر إيجه. ففي عام ٤٦٥ قبل الميلاد، تمرّدت تاسوس على الهيمنة الأثينية، لكنّها سُحقت بالطريقة ذاتها، وجرى إخضاعها بالقوّة. في تلك المرحلة، فُقد القَسَم الأوّلي الذي كان يقوم عليه اتحاد دلوس، وأجبرت أثينا أعضاء الاتحاد على أداء قَسَم جديد: «لن أتمرّد بأيّ شكل أو وسيلة، لا قولًا ولا فعلًا، ضدّ شعب أثينا، ولن أطيع أيّ متمرّد عليهم أبدًا. وإذا قام أحدهم بالتمرّد، فسأُبلّغ أثينا بذلك. سأدفع الجزية التي التزمتُ بها تجاه الأثينيين، وسأظلّ، قدر استطاعتي، حليفًا صالحًا ومخلصًا لهم. وإذا ألحق أيّ شخص ضررًا بشعب أثينا، فسأقدّم لهم العون، وسأدافع عنهم، وأُطيع أوامرهم.» وسّع الأثينيون إمبراطوريتهم بسرعة، ولم يتردّدوا في استخدام الترهيب والقوّة حيثما لزم الأمر، حتى أصبحت إمبراطوريتهم تضمّ أكثر من مئتي دولة-مدينة في بحر إيجه وما وراءه»[١].

١. ناردو، عصر پريكلس، ٣٩-٤٠.

عـلى الجانـب الآخر من المشـهد، كانت إسـبرطة تراقب بخـوف وكراهية التوسّـع الاستعماري والتمدّد الأثيني، في الوقت نفسه الذي كانت تسعى فيه إلى تعزيز نفوذها داخل اتحاد البيلوبونيز وسـحق أيّ معارضـة داخل هذا الاتحاد. في منتصف عقد ٤٧٠ قبل الميلاد، واجهت إسـبرطة أزمة سياسـية حادّة، حيث تورّط باوسـانياس، أحد قادتها العسكريين وزعمائها البارزين، في فضيحة فساد مالي. تسـبّبت الصراعات الناتجة عـن هذه القضية في إلحاق ضرر بالغ بسـمعة الديمقراطيـة الأوليغارشـية الإسـبرطية. وبعد وقت قصير، ظهـرت تحرّكات معارضة لنموذج الديمقراطية الأوليغارشـية الإسـبرطية وللهيمنة المطلقة التي فرضتها إسـبرطة داخل اتحاد البيلوبونيز، وذلك في عدة بوليسات مثل أرغوس، إليس، مانتينيا، وتيغيا. وجدت إسبرطة نفسها مضطرة إلى مواجهة هذه المعارضة بالقوّة العسـكرية والقمـع العنيف. بحلول عـام ٣٧٣ قبل الميـلاد، أصبحت هيمنة إسـبرطة داخل اتحاد البيلوبونيز في خطر واضـح، ولم تتمكّن من الحفاظ على مركزيتها إلا من خلال إرسـال وحداتها العسـكرية القوية، المعروفة باسـم «الفالانكس»، إلى أركاديا، أرغوس، وعـدد من الدول-المدن الأخرى، لضمان اسـتمرار سـيطرتها. لكن لم تستسلم جميع البوليسـات المعارضة بنفس السهولة أو بالطريقة ذاتها. على سـبيل المثال، قاومت تيغيا جيش الفالانكس الإسـبرطي لمدّة أربع سـنوات، ولم يتمكّن نظام إسبرطة من إخضاعها إلا بعد حرب طويلة. حقّقت إسبرطة انتصارها من خلال معركة برّية عنيفة، مستعينة بقوات الهوبليت، وهم مشاة مدرّعون بالكامل اشتهروا في جميع أنحاء اليونان. بعد تحقيق النصر في أركاديا، تمكّنت إسبرطة من استعادة سيطرتها الاستعمارية على منطقة البيلوبونيز، وعلى الدول-المدن التابعة له، مما أعاد لها الهيمنة داخل اتحاد البيلوبونيز.

لكن يبدو أنّ إسبرطة كانت تمرّ بمرحلة سوء حظّ متواصل خلال عقد ٤٦٠ قبل الميلاد، إذ واجهت في عام ٤٦٤ قبل الميلاد كارثة طبيعية مدمّرة تسبّبت في أزمات كبيرة للدولة العبودية وسكّانها. ففي ذلك العام، ضرب زلزال هائل مناطق واسعة من إسبرطة، مخلّفًا دمارًا هائلًا وخسائر فادحة. لدرجة أنّ ثوقيديدس زعم أنّ المدينة بأكملها دُمّرت باستثناء خمسة منازل فقط، وأنّ نظام الحكم في البوليس الإسبرطي انهار بالكامل[١]. بعد هذه الكارثة وما نتج عنها من ضحايا هائلة وفوضى عارمة، انتفض الفلاحون الفقراء الذين لم يكن لديهم أراضٍ، والمعروفون باسم الهيلوتس، والذين كانوا يعيشون في إسبرطة تحت عبودية قاسية فرضها الدوريون الحاكمون. اتّسعت ثورة الهيلوتس بسرعة واستمرّ نضالهم ضد النظام الإسبرطي لمدة خمس سنوات. ولم يتمكّن حكّام إسبرطة من إخماد التمرّد إلا بعد تنفيذ مجازر وحشية، وقمع دموي غير مسبوق، وأعمال قمعية بالغة القسوة عام ٤٥٩ قبل الميلاد.

شهدت الأوضاع السياسية في أثينا تغيّرًا ملحوظًا أواخر العقد الخامس من القرن الخامس قبل الميلاد. فأسبرطة، التي كانت قد أصيبت بدمار شديد جرّاء الزلزال المدمّر سنة ٤٦٤ ق.م، وجدت نفسها في وضع مضطرب. وبعد ذلك بعامين، أي في سنة ٤٦٢ ق.م، طلبت العون من أثينا ومن بعض البوليسات اليونانية الأخرى. غير أنّ هذا الطلب أثار خلافًا واسع النطاق في أثينا حول مسألة تقديم المساعدة لأسبرطة أو الامتناع عنها. أفيالتس، الذي تولّى قيادة الحزب البحري خلفًا لثيميستوكليس، كان يعارض أيّ نوع من المساعدة لأسبرطة. وقد صرّح بغضب واندفاع قائلًا: «أسبرطة عدوّ لأثينا، ولا ينبغي لنا بأيّ حال من

١. انظر: Connolly, The Greek Armies: . .

الأحوال أن نساعد الأعداء». وكان يرى أنّ أسبرطة، وقد أُنهِكت وأصبحت في وضع ضعيف، يجب استغلال ضعفها والسعي إلى القضاء عليها نهائيًا.

في مقابل «إفيالتيس»، كان «سيمون» يرى ضرورة تقديم المساعدة العسكرية لأسبرطة حتى تتمكن من قمع تمرّد الهيلوتس، وهم الفلاحون الفقراء الذين لا يملكون أرضًا. وقد نشأ خلاف عميق داخل الهيئة الحاكمة في أثينا بين «المجمع العام»، الذي كان يمثّل معقل القوى المؤيّدة للديمقراطية الكلاسيكية في أثينا، و«أريوباغوس»، وهو مجلس كان ينشط فيه أنصار تعزيز الطابع الأوليغارشي للديمقراطية الأثينية. في النهاية، نجح سيمون في فرض رأيه، وبذلك تمّ إرسال مجموعات من الهوبليت الأثينيين لدعم الدولة الأسبرطية في قمع التمرّد. غير أنّ حكومة أسبرطة، وبسبب القلق والارتياب من احتمال أن يكون الجنود الأثينيون قد أُرسلوا سرًّا لمحاربة أسبرطة والانحياز إلى جانب المتمرّدين، قرّرت إعادتهم إلى أثينا بحجة أنّ الحاجة إليهم لم تعد قائمة. أثار هذا التصرف غضبًا شديدًا بين الهوبليت الأثينيين وسائر سكّان أثينا، إذ رأوا فيه إهانة مباشرة لمدينتهم. وقد زاد من تأجيج نيران هذا الغضب الخطابات الحماسية التي ألقاها إفيالتيس ومعاونه الشاب «بريكليس»، مما دفع الأثينيين إلى موقف أكثر عدائية تجاه أسبرطة. في ظل هذه الأجواء، طالب إفيالتيس في سنة ٤٦١ ق.م بنفي سيمون، وهو ما تحقّق بالفعل بعد صدور قرار نفيه. ونتيجة لذلك، فقدت المجموعة البرية احتكارها للسلطة، فيما تولّت المجموعة البحرية بقيادة إفيالتيس، الذي كان من أشدّ أنصار توسيع وتعميق نموذج البوليس الديمقراطي الكلاسيكي، السيطرةَ الكاملة على الحكم في أثينا. عقب استحواذه على السلطة، بادر إفيالتيس فورًا إلى مهاجمة مجلس أريوباغوس وقلّص نطاق صلاحياته إلى حدّ بعيد. وكان يسعى

إلى إدخال مجموعة من التغيـيرات الهيكلية الأخرى في بنية الهيئة الحاكمة ونظام البوليس الأثيني، غير أنّه اغتيل في أواخر سنة ٤٦١ ق.م على يد جماعات مرتبطة بالجناح الأوليغارشي في البوليس الأثينية[1]. بعد اغتيال إفيالتيس، تولّى مستشاره ومسـاعده، بريكليس، الذي كان آنذاك رجلًا في الرابعـة والثلاثين من عمره، زمامَ السـلطة ليكون خليفته. وقد اسـتلم قيادة المجموعة البحرية، بل وتجاوز ذلك إلى قيادة أثينا بأسرها، وسـار في نهج تعميق نموذج البوليس الكلاسـيكي الأثيني. ينظر المؤرخـون الحداثيّون، بحماس مبالغ فيه، إلى أكثر من ثلاثة عقود من حكم بريكليس، الذي كان اسـتبدادًا يسـتند إلى الديمقراطية الكلاسيكية، ويكيلون له المدح تحت مسـمّيات مثـل عصر بريكليس، في إطـار نظرة مثالية تتجاوز واقع تلك المرحلة.

ظهور بريكليس في السياسة الأثينية

سعى إفيالتيس، في إطار تعميق الديمقراطية الكلاسيكية القائمة على العبودية في أثينا، إلى إحداث تغييرات في البنية الاقتصادية والطبقات والتسلسل السياسي-المدني في المدينة. ومن خلال بعض الإصلاحات التي صبّت في مصلحة الطبقات الدنيا، كان يهدف إلى ترسيخ أسس البوليس الكلاسيكي الأثيني، بحيث يستند النظام الاسـتعماري القائم على العبودية في أثينا إلى قاعدة دعم اجتماعية أوسع. بعد اغتيال إفيالتيس، واصل بريكليس، الذي ورث السلطة عنه، هذه السياسة الراميـة إلى اسـتقطاب المؤيّديـن داخل النسـيج الاقتصادي-المـدني للبوليس الأثيني، خدمةً للأهداف التوسّعية للدولة. لكنّه اتّبع نهجًا أكثر اعتدالًا، موجّهًا

1. Ehrenberg, From Solon to Socrates: Greek History and Civilization During the Sixth and Fifth Centuries B.C., 266-67.

إصلاحاته نحو كسب دعم التجار الأثرياء وأصحاب المتاجر والحرفيّين، إضافة إلى فئة ملّاك الأراضي الذين أبدوا انسجامًا مع سياسات المجموعة البحرية. كان بريكليس ممثّلًا ومدافعًا عن النظـام العبودي في أثينا، ويعتقد أنّ منح امتيازات محدودة وصغيرة للطبقات الوسـطى يمكن أن يعزّز تماسك النظام القائم ويزيد من سـلطته. وخلال فترة حكمه، اتّجه أكثر فأكثر نحو أسلوب حكم استبدادي وانفـرادي، حتى أصبحت الديمقراطية الكلاسـيكية الأثينيـة في نهاية المطاف مرادفة لحكم فرديّ يتمثّل في شخص بريكليس نفسه.

«بريكليـس» كان يتمتّع بسـيطرة مطلقة عـلى أثينا. وباختصـار، ارتبطت الديمقراطية باسمه، إذ كان الحكم عمليًّا بيد المواطن الأول. لقد سعى بريكليس ومحيطه إلى الحفاظ على وحدة الطبقة المالكة للعبيد»[١].

قام بريكليس بتحديد مخصّصات مالية للجنود والبحّارة والضباط.

«على سبيل المثال، كان يتقاضى مُجدّف السفينة «دراخمًا» واحدًا يوميًا، فيما كان الضباط يتلقون ضعف أو ثلاثة أضعاف هذا المبلغ. وكان أسلوب الدفع المباشر يُطبَّق على نطاق واسع، حيث كان كل فرد يحصل على مبلغ يتراوح بين اثنين من «الأبول» إلى دراخم واحد لشراء تذكرة المسرح، لكنّه كان حرًّا في إنفاق المال كما يشـاء. وفي بعض الأحيان، كانت توزَّع أرغفة الخبز مجانًا كهدايا قادمة من مصر ومنطقة البوسفور»[٢].

فترة الحكم الطويلة لبريكليس في أثينا كانت فترة توسّع وتعميق الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية في صورتها النهائية والمثالية. فقد حكم بريكليس البوليس

١. دياكوف وغيره، تاريخ يونان، ١٢٢.
٢. م. ن، ١٢٣.

الأثيني الكَونَـويّ الذي كان قائمًا على العبودية، لأكثر مـن ثلاثة عقود بطريقة مطلقة واسـتبدادية، مسـتأثرًا بسلطات واسعة. وقد شـهدت هذه الحقبة ذروة نضوج وازدهار البوليس الكلاسيكي اليوناني، لكن نهايتها تزامنت مع أفول هذا النظام وبدء انحطاط أثينا. السياسات الاستعمارية والقمعية التي انتهجتها أثينا تجاه أعضاء رابطة ديلوس والمدن اليونانية الأخرى من جهة، ومساعي بريكليس في توسـيع وتعميق الديمقراطية الكلاسـيكية الأثينية، التي أسـهمت في إبراز النزعات العدمية الكَونَويّة في الفكر اليوناني عبر النسبية السفسطائية وتجليّاتها في التراجيديا الأدبية من جهة أخرى، أدّت إلى تفعيل التناقضات الداخلية الكامنة في الديمقراطية الكلاسيكية وكشفها للعيان. وقد وضعت هذه العوامل مجتمعة أثينـا، عند نهاية حكم بريكليس، في أزمة عميقة يمكن وصفها بأزمة الانحطاط التي عصفت بالمدينة الأثينية.

الآن حان الوقـت للحديث قليلًا عن حياة بريكليس وشـخصيته. من هو بريكليس؟

يكتب بلوتارخ في كتاب حياة الرجال العظماء:

«بريكليس ينحدر من عشيرة الأكامانتيد، من قرية كولارغوس، ومن أعرق السلالات وأفضل العائلات في مدينة أثينا، سواء من جهة أمّه أو من جهة أبيه. فوالده كزانثيب، الذي ألحق الهزيمة بقادة ملك الفرس في معركة ميكال، تزوّج من أغاريسـتي، التي كانت من نسـل كليسـثينيس... [بريكليس] كان رأسـه طويلًا بعض الشيء، وكان يبدو غير متناسق وكبيرًا مقارنةً ببقية أعضاء جسده، ولهذا السـبب، يظهر في جميع تماثيله اليونانية واضعًا قبعة على رأسه، إذ يبدو أنّ النحّاتـين أرادوا إخفاء هذا العيب وعدم إظهـاره... كان بريكليس رجلًا ثريًا

للغاية ومن أنبل العائلات الأرستقراطية، وكان أصدقاؤه من بين أولئك الذين لهم نفوذ في جميع المجالات ... أما الشخص الذي كان أكثر من غيره قربًا من بريكليس، والذي علّمه ذلك الوقار والأسلوب الجادّ الذي تميّز به في حديثه وسلوكه، وجعله يبدو أكثر مهابةً وحزمًا ممّا اعتاده الخطباء في مجتمع حرّ، فهو أنكساغوراس، الفيلسوف القادم من كلزومينى»[١].

أنكساغوراس كان فيلسوفًا يونانيًا مادّي النزعة ومعتقدًا بمحورية الكون، كما كان من الناحية السياسية من أنصار الديمقراطية الكلاسيكية. يُعدّ واحدًا من الشخصيات المؤثرة ضمن مجموعة المفكّرين اليونانيين الذين تبنّوا رؤية ميتافيزيقية حصولية للطبيعة، وكان من أصدقاء بريكليس ومقرّبيه. كان بريكليس ابن عائلة أرستقراطية، ورغم الضجيج الدعائي الذي أثاره المؤرخون والصحفيون الحداثيون حول فكره الحرّ، وما يصفونه بـ«التسامح» الذي ميّز عصره تحت مسمى «العصر الذهبي لبريكليس»، فإنّ نظامه، حتى في نظر مؤرخين مثل بلوتارخ وثوقيديدس، كان ذا طابع أرستقراطي ومطلق السلطة. يكتب بلوتارخ:

«لكن حين يصف ثوقيديدس نظام الحكم في عصر بريكليس، يقول إنه كان نظامًا أرستقراطيًا، لكنه بدا ظاهريًا وكأنه موجّه من قبل عامة الشعب، بينما كان في حقيقته جهازًا سياسيًا يدور وفق تدبير وحكمة المواطن الأول في المدينة»[٢].

ويل ديورانت يصف شخصية بريكليس وخلفيّته على النحو التالي:

«كان والده، كزانثيبوس، قد شارك في معركة سلاميس، وتولّى قيادة

١. بلوتارك، حيات مردان نامى، ١: ٤١٢ – ١٣؛ ٤١٥؛ ٤١٨.

٢. م. ن، ٤٢٢.

الأسطول الأثيني في معركة موكالي (ميكالي)، حيث أعاد مضيق الدردنيل إلى سيطرة اليونانيين. أما والدته، آغاريست، فكانت حفيدة كليستينيس المصلح، ولذلك كان بريكليس من جهة الأم ينتمي إلى عائلة الألكميونيين العريقة ... تعلّم بريكليس الموسيقى على يد دامون، أعظم موسيقيّي ذلك العصر، كما تلقّى دروسًا في الأدب والموسيقى من برتوكليدس. وكان يرتاد حلقات زينون الدراسية في أثينا، وكان من بين أصدقاء وتلاميذ أنكساغوراس الفيلسوف... جميع الروايات تجمع على أنّ حديثه كان يخلو من الانفعال العاطفي، وكان أسلوبه في الخطاب يروق فقط للنخب المثقّفة. أما أثينا تحت حكم بريكليس، فقد تمتّعت بجميع فوائد الديمقراطية، إلى جانب كافة امتيازات الأرستقراطية والاستبداد»[١].

تميستوكلس، الزعيم السابق للمجموعة البحرية والجناح المؤيد للديمقراطية الكلاسيكية، كان متورطًا في الفساد المالي والرشوة. أما بريكليس، فرغم أنّه كان نزيهًا من الناحية المالية، إلا أنّه وقع في علاقة غير شرعية وغير أخلاقية أثارت استياء سكان أثينا. فبالرغم من كونه متزوجًا ولديه أبناء، وقع في حبّ عاهرة وفيلسوفة تُدعى «أسباسيا».

يبدو أنّ معارضي بريكليس استغلّوا الوضع الذي نشأ عن علاقته مع أسباسيا للهجوم عليه، بل واتّهموه حتى بإقامة علاقة غير شرعية مع زوجة ابنه[٢]. كما جرى استدعاء أسباسيا إلى المحكمة لمحاسبتها. وكما يذكر ويل ديورانت:

«وُجِّهَت إليها [أسباسيا] تهمة الفجور والإساءة إلى آلهة اليونان، فتمّت

١. دورانت، يونان باستان، ٢٧٤-٧٥.

٢. م. ن، ٢٨٠.

ملاحقتهـا قضائيًا. وتعرّضت لهجـوم قاسٍ من قِبَل شـعراء الكوميديا، الذين هجوهـا بلا رحمة، وأطلقوا عليها لقب «ديانيرا» [زوجة هرقل التي أهدته رداءً مسمومًا تسـبب في موته]، باعتبارها المرأة التي قادت بريكليس إلى الهلاك، كما وصفوها صراحة بالبغيّة. أحد هؤلاء الشعراء، ويدعى هيرميبوس، وكان نفسه شـاعرًا وضيعًا، اتّهم أسباسـيا بأنّها قوّادة بريكليس، وزعم أنّها كانت تجلب له النساء الحرائر من أجل ملذّاته»[1].

عـلى أيّ حال، على الرغـم من لهجة ويـل دورانت المتحيّزة تجاه أسباسـيا وبيريكليـس، والتـي تنبع مـن وجهة نظره الحديثـة، فإنّ شـخصية بريكليس وأسباسـيا، وأفعالهما، وحياتهما، تكشـف بوضوح عن البعد الأخلاقي المعادي للقيم والتوجّه الدنيوي العدمي الذي تميّزت به الرؤية الكَونَويّة اليونانية. بطبيعة الحال، هذا العداء للقيم الأخلاقية، الممزوج بانحلال دنيوي مفرط، ليس حكرًا على النزعة الكَونَويّة اليونانية، بل هو ملمح مشـترك بين جميع التيارات الفكرية غير الدينية والمنقطعة عن الوحي. أما معارضة بعض الجماعات والشـخصيات والتيّارات لبريكليس وأسباسيا، فقد كانت في الغالب مدفوعة بمصالح سياسية وسـعي إلى النفوذ والقـوة، إذ اتّخذت هذه الأطراف من الشـعارات الأخلاقية سـتارًا لمآربها، بينما لم تكـن في واقع الأمر أقلّ تلوّثًا من بريكليس وأسباسـيا في سـلوكها. بل يمكن الجـزم بأنّ أيًّا من هـؤلاء لم يكن معنيًّا حقًـا بالأخلاق أو الروحانية أو التقوى، وإنما لجأوا إلى تلك الشـعارات الأخلاقية كوسيلة لتغطية أهدافهم الخاصة وتحقيق مكاسـبهم. الحقيقة أنّ جوهر ومـدار المدينة اليونانية المتمحورة حول الكون كان فاسدًا بشكل عميق وشامل، وأنّ هذا الفساد لم يكن

١. م. ن، ٢٨٠ - ٨١.

ظاهرة سطحية أو عرضية، بل كان متجذّرًا في القطيعة التامة التي عاشها العالم اليوناني مع الارتباط الديني، وفي انعدام أيّ التزام بالفكر الوحياني، وفي نسيانه وإنكاره للولاية الإلهية. هذا الفساد لم يكن محصورًا في جانب معيّن من الحياة اليونانية، بل كان ساريًا في جميع أوجهها ومستوياتها، وامتدّ عبر مختلف مجالاتها، متناميًا عبر مراحلها المتعددة. لم يكن هذا الانحراف مقتصرًا على شخص بعينه أو على فئة محدّدة أو على فترة زمنية واحدة، بل كان يتجلّى في صورٍ وتجلياتٍ مختلفة، وفقًا للظروف التاريخية والحوادث والوقائع، وفي سياقات متعدّدة تتصل بأشخاص وفئات وأحداث متنوعة. ومع أنّ مظاهر هذا الفساد قد اختلفت في تفاصيلها وأشكالها، إلا أنّ جوهرها ظلّ ثابتًا في مختلف العصور التي شهدها العالم اليوناني.

غير أنّ ما جرى في أثينا خلال فترة حكم بريكليس يتجاوز مجرد الحديث عن حياته الشخصية وعلاقته بأسباسيا. فقد دخلت أثينا، في ظلّ قيادته، مرحلة جديدة من توسّعها الاستعماري وظلمها المتزايد تجاه حلفائها في رابطة ديلوس، وكذلك ضدّ سائر البوليسات اليونانية وجيرانها غير اليونانيين، سواء القريبين منهم أو البعيدين. في عهد بريكليس، تجلّت أثينا أكثر من أيّ وقت مضى كقوة توسعية استعمارية ظالمة، تتّسم بالعدوانية والهيمنة، متورطة في الحروب والغزوات والتعديات والجرائم. فقد سلكت طريقًا يقوم على فرض نفوذها بالقوة، وسَعَت إلى إحكام قبضتها العسكرية والسياسية على محيطها، مما جعلها واحدة من أبرز القوى الاستعمارية التي لم تتورّع عن استخدام العنف والقهر لتحقيق مآربها التوسعية.

حتى داخل البوليس الأثيني ذاته، تحوّل بريكليس، خلال أكثر من ثلاثة

عقود من الحكم، ولا سيما بعد نجاحاته العسكرية في أربعينيات القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حاكم مستبد مطلق السلطة. فقد أصبح شخصية احتكارية مخادعة، طموحة وماكرة، لا تتورّع عن التلاعب والتضليل من أجل تحقيق أهدافها. لم يكن بريكليس يخفي نزوعه الاستعماري، بل كان في بعض الأحيان يعبّر عنه بصراحة، مُعلِنًا عن نواياه تجاه الشعوب غير اليونانية. فقد كان يرى في استعبادهم وإخضاعهم للخراج ونهب ثرواتهم وإذلالهم أمرًا طبيعيًا، معتبرًا أنّ ذلك نتيجة مباشرة لتفوّق الأثينيين الفطري واستحقاقهم للهيمنة، وفقًا لمنطقه الذي كان يبرّر العدوان والاستغلال كحق مكتسب للقوة الأثينية[1].

دان ناردو يكتب عن تزايد قوة بريكليس باستمرار:

«هو [بريكليس]، مع ازدياد شهرته السياسية وجمعه لعدد كبير من المؤيّدين، أصبح تدريجيًا، ولكن بلا شك، القائد الأهم والأقوى في أثينا، بل وفي اليونان بأسرها. خلال المراحل الأولى من مسيرته، كان منشغلًا على الدوام بالقضايا والنشاطات الخارجية المتعددة لأثينا.

كان الأثينيون، المتحمسون والطموحون، يتحركون كإعصار يندفع خارجًا من قلب العالم اليوناني. وقد اندفعوا بحماس إلى الانخراط في مشاريع ضخمة إلى حدّ لم يكن باستطاعة معظم دول المدن حتى مجرد التفكير بها. ومن بين هذه المساعي الجريئة، كان المشروع الهائل لإدارة التوسّع السريع للإمبراطورية البحرية الأثينية. بلغ هذا المشروع ذروته في أربعينيات القرن الخامس قبل الميلاد، عندما قامت أثينا بإنزال قوة عسكرية ضخمة في أراضٍ بعيدة، وخاضت حربًا باهظة التكاليف ضد الأسبرطيين وأعضاء آخرين من التحالف البلوبونيزي...

1. Robinson, Everyday Life in Ancient Greece, 136.

ولهذا السبب، وصف بيتر لوي، الباحث في تاريخ اليونان وروما القديمة، عقد الأربعينيات من القرن الخامس قبل الميلاد بأنه «المحور الأساسي لهذا القرن»[١].

بريكليس، من خلال تركيزه للسلطة في يديه داخل أثينا، قام على مدى ما يقارب ثلاثة عقود بقمع وعزل معارضيه داخل الدولة الأثينية القائمة على العبودية. كان يتعامل بوحشية شديدة مع العبيد داخل إمبراطورية أثينا، كما مارس القمع والقهر ضدّ سائر دول المدن والشعوب، سواء اليونانية أو غير اليونانية، ولا سيما أولئك الذين احتجّوا على مظالم أثينا.

اعتمد بريكليس على أساليب ماكرة وغير نزيهة في سياسته، مستغلًا تحالفًا واسعًا مع أغنى طبقات التجار ومالكي العبيد الأثينيين، حيث قام بنفي معارضيه أو عزلهم وإقصائهم من الحياة العامة، أو تشويه سمعتهم وتجريدهم من مكانتهم. ومن خلال قمع سياسي شامل، تمكّن، بصفته المهندس الرئيسي للديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، من أن يصبح الحاكم المطلق والمستبد الأبرز في اليونان بأسرها[٢].

أثينا خلال عهد بريكليس تصرّفت وكأنّها تعتبر نفسها المركز المحوري للعالم اليوناني، وهو ما كان، إلى حدّ ما، واقعًا فعليًا. فقد كانت أثينا، إلى جانب إسبرطة، أحد القطبين الأساسيَّين للسلطة في اليونان الكلاسيكية. وسعيًا منها لأن تصبح القوة الأولى والمهيمنة في العالم اليوناني، تبنّت أثينا سياسات طموحة توسّعية، مدفوعة برغباتها العسكرية والاستعمارية، بينما حاولت إسبرطة بكلّ قوتها التصدي لهذا النهج التوسعي، للحفاظ على موقعها كمركز رئيسي للقوة في اليونان الكلاسيكية.

---

١. ناردون، عصر پريكلس، ٤٨ – ٤٩.

2. King, Pericles.

في سنة ٤٦٠ ق.م، قاد «إيناروس»، وهو أمير ليبي، ثورة ضدّ الإمبراطورية الأخمينية التي كانت تسيطر على مصر وليبيا. وبناءً على طلبه، أرسلت أثينا أسطولًا لدعم المتمرّدين، حيث أبحرت مئات السفن اليونانية وعلى متنها آلاف الهوبليت الأثينيين إلى الأراضي المصرية. وبالتحالف مع قوات إيناروس، نجح الهوبليت اليونانيون في طرد القوات الأخمينية من مدينة «منف» في مصر، محقّقين بذلك نصرًا كبيرًا للسياسة الأثينية العدوانية والتوسّعية.

على الجبهة الأخرى من اليونان الكلاسيكية، كان الإسبرطيون يشعرون بقلق عميق إزاء النجاحات العسكرية لأثينا ونهجها التوسعي العدواني. وخلال الفترة الممتدة بين عامي ٤٦٠ و٤٥١ ق.م، اندلعت سلسلة من الاشتباكات العسكرية، سواء المنفردة أو الجماعية، بين أثينا وإسبرطة (إلى جانب معظم حلفائها). وقد أشار بعض المؤرخين إلى هذه المواجهات باسم «الحروب البيلوبونيسية الأولى».

في سنة ٤٦٠ ق.م، قامت أثينا بمحاصرة مدينة «ناوباختوس»، الواقعة على الساحل الشمالي لخليج كورنث، وأسّست هناك قاعدة بحرية:

«باتت أثينا الآن تمتلك وسيلة لاعتراض السفن التجارية الكورنثية وشنّ هجمات متكررة عليها، وهي السفن التي كانت تنقل بضائعها إلى أقصى الغرب»[١].

بعد فترة وجيزة، وفي سنة ٤٥٩ ق.م، انسحبت ميغارا من التحالف البيلوبونيزي بسبب خلافها مع كورنث. وسرعان ما استغلّ الأثينيون هذا الموقف، مطالبين ميغارا بالانضمام إلى رابطة ديلوس. ونتيجة لذلك، تصاعد التوتر بين أثينا وكورنث، حتى بات البلدان على شفا الحرب. في هذه الأثناء،

١. ناردو، عصر پريكلس، ٥٢.

بــدأ الأثينيون في بناء جدار عند أحد المضائق الواقعة ضمن أراضي ميغارا. وقد أدّى هذا الجــدار عمليًا إلى عزل منطقة البيلوبونيز، مما حال دون تنقّل ســكانها باتجاه شمال أتيكا وبقية اليونان. وقد أثار هذا الإجراء غضب الإسبرطيين، الذين اعتبروه إعلان حرب ضدّهم.

في ظلّ هــذا الوضع المتأزّم والأزمة المتفاقمة، وقع حــدث آخر مهّد الطريق لنشوب الحرب بين أثينا وعدد من بوليسات التحالف البيلوبونيزي. كان بجوار أثينا جزيرة صغيرة لكنّها غنيّة تُدعى إيجينا. لطالما كانت إيجينا في منافســة شديدة مــع أثينا على الســيطرة التجارية في بحر إيجه. أدّى اندلاع النزاع العســكري بين أثينا وكورنث إلى تصاعد قلق إيجينا من احتمال أن تســعى أثينا، بعد صدامها مع كورنث، إلى مهاجمتها. وبسبب هذه المخاوف، قررت إيجينا الانضمام إلى كورنث في حربها ضد أثينا. أين تقع إيجينا وما هي طبيعة النظام الديمقراطي فيها؟ مايكل غرانت، المؤرخ المتخصص في تاريخ اليونان وروما القديمة، يكتب في هذا الصدد:

«هذه الجزيرة الجبلية، البركانية، والتي كانت في بعض أجزائها وعرة وصعبة الوصول، تقع في خليج ســارونيك، في منتصف الطريق بين أتيكا والبيلوبونيز. ورغم صغر مســاحتها–حوالي خمســين كيلومــترًا مربعًا–فقد ضمنت لنفســها مكانة مهمة في التجارة المتوســطية منذ العصور القديمــة... أقامت إيجينا نظام حكم أوليغارشي مســتقر يقوم على التجارة. وضمن هذا التنظيم الإداري، أنشأ الإيجينيون نوعًا مــن التجارة المربحة التي كانت تعتمد على التنقل والترحال... ولا شكّ أنّ أثينا كانت مضطرة للتخطيط من أجل تحطيم القوة البحرية والنجاح التجاري للإيجينيين، الذين كانوا يتمركزون على مقربة مزعجة منها. لم يكن هناك أيّ تفاهم بين حكومة إيجينا الأوليغارشية ودولة أثينا»[١].

١. م. ن، ٥٤.

إيجينا كانت بوليسًا يقوم على ديمقراطية أوليغارشية، بينما كانت أثينا بوليسًا يستند إلى الديمقراطية الكلاسيكية. وإلى جانب الاختلاف الجوهري في النظام السياسي، والذي كان مصحوبًا بتنافس وعداء بين الطرفين، كانت هناك أيضًا منافسة اقتصادية شديدة بين أثينا وإيجينا. أثينا كانت القوّة المحورية وزعيمة رابطة ديلوس، وكانت تطمح إلى الهيمنة المطلقة على العالم اليوناني. وقد دفعتها سياساتها التوسّعية إلى التدخل في مصالح وأراضي الشعوب غير اليونانية. في المقابل، كانت إيجينا حليفًا ثريًّا ضمن التحالف البيلوبونيزي، وكانت تشعر بقلق عميق إزاء النزعة التوسّعية لأثينا، التي كانت تهدّد مصالحها وأمنها.

في سنة ٤٥٨ ق.م، خاض الأثينيون حربًا ضد كورنث، وتمكّنوا من هزيمة قوّاتها التي كانت تحاول مهاجمة ميغارا، ممّا حال دون دخولهم إليها. كان الأثينيون يُكنّون عداءً خاصًا لإيجينا، وكان بريكليس يصفها بأنّها «المنظر القبيح لبيرايوس»[١]. على هذا الأساس، نشبت حرب بحريّة كبرى بين أثينا وإيجينا في خليج سارونيك، انتهت بانتصار أثينا. قاد القوات الأثينية في هذه المعركة القائد ليوكراتيس، الذي فرض حصارًا على جميع التحصينات الرئيسية في إيجينا، مما أدّى في النهاية إلى استسلام المدينة. حقّق الأثينيون انتصارات كبيرة في حربهم ضدّ كورنث وإيجينا. وبعد انتصارهم على إيجينا، أجبروا المدينة على الانضمام إلى رابطة ديلوس، كما فرضوا عليها ضرائب باهظة، ممّا جعلها خاضعة عمليًّا لسيطرة أثينا كمستعمرة خاضعة للضرائب[٢].

في الواقع، كانت أثينا، طوال عامي ٤٥٩ و٤٥٨ ق.م، تخوض حروبًا على جبهة واسعة امتدّت لتشمل مناطق مثل قبرص، مصر، فينيقيا، بحر إيجه،

١. م. ن، ٥٣.

2. Connolly, The Greek Armies, 98.

وميغـارا. وقد كانت هذه الحـروب المتعدّدة والمتنوّعة جميعهـا تصبّ في خدمة الأهـداف الاسـتعمارية والطموحات التوسّـعية والنزعة الهيمنيـة التي كانت تحرّك الديمقراطية الكلاسـيكية الأثينية. تميّزت هذه الحروب بطابعها العدواني والتوسّعي والظالم، وكانت في جوهرها أشكالًا من الغزو والاحتلال، تنتمي إلى فئة الحروب غير العادلة التي لم تكن تسعى سوى إلى فرض سيطرة أثينا بالقوة.

كان بريكليـس وقادة أثينا الآخرون يدركون أنّ السياسـات الاسـتعمارية والعدوانية التي انتهجتها أثينا ستؤدّي قريبًا إلى وضعٍ لا يمكن لإسبرطة تحمّله، ممّا سيدفعها إلى الدخول في مواجهة عسـكرية مع أثينا. كان القادة العسكريون الأثينيون يعتقدون أنّ الجـدران الدفاعية التي كانت تحيط بأثينا لم تكن فعّالة بما يكفـي، لأنّها لم توفّر للمدينة منفذًا آمنًا إلى البحر. فالإسـبرطيّون كانوا قادرين على فـرض حصار على أثينـا والتخييم خلف أسـوارها، ممّا كان من شـأنه أن يـؤدّي في النهاية إلى استسـلام الأثينيين تحت وطأة الجـوع ونقص الإمدادات. رأى الاسـتراتيجيون الأثينيون أنّه لا بدّ من بناء جدران لا تقتصر وظيفتها على حمايـة المدينة، بل تضمن أيضًـا الحفاظ على طريق أثينـا إلى البحر. وكان ينبغي إنشـاء جدران دفاعيّة تعمل كحماية مزدوجة، تحصّـن المدينة من جهة، وتحافظ عـلى ارتباطها بالممـرّات البحرية وخطوط الإمداد في مينـاء بيرايوس من جهة أخرى. هكـذا، في صيف عام ٤٥٨ ق.م، أصدر بريكليـس أمرًا ببناء الجدران التي أصبحت تُعرف باسم «الجدران الطويلة». كان إنشاء هذه الجدران سيضمن لأثينا، في حال اسـتمرار سـيطرتها على البحر، أن تتحـوّل إلى منطقة منيعة على الأرض. كان الأسطول الأثيني، الذي يُعدّ أقوى قوة بحريّة في اليونان وحوض البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه، قادرًا على تأمين جميع الإمدادات التي تحتاجها

أثينا خلال فترات الحرب. وعلى الرغم من أنّ إسبرطة امتلكت أقوى جيش برّي في اليونان، فإنّ وجود الجدران الطويلة كان من شأنه أن يجعل أثينا حصينة ضدّ أيّ غزو أو حصار برّي.

في مواجهة هذه التصرفات من أثينا، التي اعتبرتها إسبرطة نوعًا من إعلان الحرب عليها، قررت إسبرطة التحرّك بالتعاون مع حلفائها. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، اختارت إسبرطة الحدود الشمالية لإقليم أتيكا، أي أراضي بيوتيا، كنقطة انطلاق لعمليّاتها العسكرية. كانت بيوتيا خاضعة لسيطرة بوليس طِيبة، التي كانت على عداء قديم مع أثينا. في صيف عام ٤٥٧ ق.م، عَبَر ما يقرب من اثني عشر ألف جندي من قوات إسبرطة والتحالف البيلوبونيزي خليج كورنث واتّجهوا إلى بيوتيا. وفي إحدى بعد الظهيرات الصيفية من ذلك العام، التقى الجيش الأثيني بقوات إسبرطة وحلفائها من التحالف البيلوبونيزي في سهل تاناغرا، الواقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومترًا شرق بوليس طِيبة. انتهت هذه المعركة بانتصار إسبرطة وحلفائها، إلا أنّ الخسائر التي تكبدها الجيش المنتصر كانت فادحة إلى حدّ جعلهم يعدلون عن متابعة الحرب، ويقرّرون العودة إلى البيلوبونيز عبر طريق مارا.

في ظلّ الظروف العصيبة والمعركة الشرسة في تاناغرا، جاء سيمون إلى معسكر الأثينيين ليقاتل معهم ضد إسبرطة، غير أنّ أنصار بريكليس تعاملوا معه بخشونة وأبعدوه من صفوف الجيش الأثيني. هذا التصرف المشين من قبل دعاة الديمقراطية الكلاسيكية الأثينية أثار استياء وحزن بعض سكان أثينا. عند النظر في مجريات الأحداث والسياسات المتّبعة من قِبل المجموعتين الأرضية والبحرية، يبدو أنّ بعض اعتبارات سيمون بشأن ضرورة الحفاظ على الوحدة

العامــة لليونان، وتجنّب الحرب بين أثينا وإســبرطة، كانــت تنطوي على حكمة وتدبير عقلاني. فالنهج الذي اتّبعه بريكليس وأنصار الديمقراطية الكلاسيكية، والذي كان يهدف إلى توسـيع إمبراطورية أثينا من خلال التوسّــع العسكري، والاستعمار، والاعتداء على سائر البوليسات والشعوب الأخرى، أدّى في النهاية إلى اندلاع حرب أهليــة مدمّرة في اليونان. بعد حوالي ســتين عامًا، انتهت هذه الصراعات باستســلام اليونان بالكامل أمام مقدونيــا. بالطبع، لا يمكن اعتبار سياسات بريكليس أو حرب البيلوبونيز السبب الوحيد لانحطاط العالم اليوناني وسقوطه، إلا أنّ التوجه الاستعماري، والطموحات التوسّعية، والموقف العدائي الذي تبنّاه بريكليس والتيار الســياسي المؤيد له ضد إســبرطة وبقية البوليسات اليونانيــة، كانت من العوامل الحاســمة في نشــوب حــرب البيلوبونيز المدمّرة، والتي، كما وصفها ويل ديورانت، أدّت إلى «انتحار اليونان»[1].

بعد شهرين من معركة تاناغرا، وبعد أن عاد الإسبرطيون إلى أراضيهم، شنّ الجيش الأثيني، بقيادة مورونيدس، هجومًا على جيش طيبة وبعض حلفائها من التحالف البيلوبونيزي (دون مشــاركة الجيش الإسبرطي) في منطقة أوينوفيتا، الواقعــة على بعــد بضعة كيلومترات مــن تاناغرا. انتهت المعركــة بهزيمة ثقيلة لقوات طيبة وحلفائها، مما مكّن الأثينيين من السيطرة على جزء كبير من بيوتيا.

غير أنّ سلســلة الانتصارات العســكرية الأثينية توقّفت بعد عام واحد من معركة أوينوفيتا. ففي سنة ٤٥٦ ق.م، قاد أردشير، ملك الإمبراطورية الأخمينية، حملة عسكرية لقمع الثائرين واستعادة السيطرة على مصر وطرد القوّات الأثينية منهــا. حقّق الجيش الأخميني انتصارات كبرى خــلال هذه الحملة، حيث نجح

١. دورانت، يونان باستان، ٤٩٠.

في إخراج القوات الأثينية من منف. وقد كانت الضربات التي وجّهتها قوّات أردشير إلى الجيش الأثيني في هذه الحرب ثقيلة وعنيفة. لجأ الأثينيون المنهزمون إلى إحدى جزر نهر النيل، حيث وجدوا أنفسهم محاصَرين من قبل القوات الأخمينية.

لكن بعد نحو عامين، أي في سنة ٤٥٤ ق.م، تعرّضت القوات الأثينية في مصر لضربة أشد قسوة، حيث مُني الأثينيون بهزيمة ساحقة أمام الجيش الأخميني، ما أدّى إلى تدمير كامل تقريبًا للقوات الأثينية المتواجدة هناك. تشير التقديرات إلى أنّ خسائر الأثينيين في هذه المعركة بلغت نحو خمسين ألف قتيل، كما تمّ تدمير أكثر من مئتي سفينة حربية أثينية. كانت لهذه الهزيمة العسكرية في مصر آثار مدمّرة على أثينا، إذ أدّت إلى زعزعة هيبتها وتقويض نفوذها بين البوليسات اليونانية. ومع ذلك، لم يتراجع بريكليس عن سياساته الاستكبارية، بل أقدم على نقل خزينة رابطة ديلوس إلى أثينا، لضمان استغلالها الحصري وتأمين سيطرة أثينا الكاملة عليها. أثارت هذه الخطوة غضب العديد من أعضاء الرابطة، الذين رأوا فيها تصرّفًا تعسفيًا من جانب أثينا. لكن اللافت أنّ هذا القرار لم يلقَ معارضة فقط خارج أثينا، بل قوبل كذلك باستياء واسع داخل المدينة نفسها. إذ وصفه بعض معارضيه بـ«اللص»، غير أنّ بريكليس لم يُعر اعتراضاتهم أيّ اهتمام، وظلّ يتحدّث عن بقية أعضاء الرابطة بنبرة استعلائية، تعكس نظرته المتفوّقة والمتسلّطة تجاههم.

«كان معارضو بريكليس من الأثينيين يصفونه باللصّ، متّهمين إيّاه بأنّه يسعى إلى استخدام أموال خزينة رابطة ديلوس وفقًا لما يراه هو وحلفاؤه مناسبًا، دون أيّ اعتبار لحلفاء أثينا. يذكر بلوتارخ أنّ المعارضين السياسيين لبريكليس

كانوا يصرخون في المجمع، قائلين إنّ الأثينيين قد فقدوا سمعتهم الطيبة، وأنّ نقل الأموال من ديلوس جعلهم مكشوفين للعار والفضيحة. وكانوا يرفعون أصواتهم مردّدين: «يجب على اليونانيين أن يغضبوا، وعليهم أن يعتبروا هذا الفعل استبداديًا وسافلًا!» أما ردّ بريكليس، فكان ينمّ عن استعلاء واضح، حيث قال إنّ أثينا غير ملزمة بتقديم أيّ تبرير لحلفائها بشأن كيفية استخدام هذه الأموال. وقال للأثينيين: «لم يعطونا حصانًا، ولا جنديًا، ولا حتى سفينة واحدة. الشيء الوحيد الذي قدّموه هو المال، وهذا المال لا يعود إلى من دفعه، بل إلى من استلمه»»[١].

بعد هزيمتين ثقيلتين في مصر، واندلاع احتجاجات، بل وحتّى تمرّدات ضدّ هيمنتها الاستعمارية داخل رابطة ديلوس، وجدت أثينا نفسها في وضع خطير، حيث باتت مهدّدة من جهتين: فمن جهة، كان هناك احتمال وقوع هجوم عسكري من قِبل الإمبراطورية الأخمينية، ومن جهة أخرى، كانت إسبرطة وحلفاؤها يمثّلون تهديدًا قائمًا. في الداخل الأثيني، تصاعدت المعارضة ضد بريكليس، ممّا دفعه إلى الشعور بالحاجة إلى تنفيذ بعض الإصلاحات السياسية والاقتصادية من أجل ترسيخ سلطته. غير أنّ تحقيق هذه الإصلاحات كان يتطلّب بيئة مستقرة وخالية من التوتر مع الدول الأخرى، بحيث لا يكون هناك خطر اندلاع حرب مفاجئة تعكّر صفو الوضع الداخلي. لذلك، قرّر بريكليس أن تكون خطوته الأولى إبرام معاهدة سلام مع إسبرطة، بهدف تحييد أحد التهديدات الكبرى التي تواجه أثينا وتأمين الأجواء اللازمة لتنفيذ سياساته الداخلية.

هكذا، كلّفت حكومة أثينا سيمون بمهمّة إبرام معاهدة سلام مع إسبرطة.

---

١. ناردو، عصر پريكلس، ٥٩ – ٦٠.

وكان سيمون، الذي انتهت مدة نفيه التي استمرت عشر سنوات، قد عاد إلى أثينا، حيث تولّى ترتيب عقد هدنة لخمس سنوات بين أثينا وإسبرطة، وهي الاتفاقية التي أبرمها عام ٤٥١ ق.م. سعت أثينا إلى استغلال هذه الهدنة لخمس سنوات من أجل تنفيذ إصلاحات سياسية واقتصادية، وتعزيز البنية التحتية الدفاعية، وتحقيق أهداف أخرى. غير أنّ تحقيق هذا الاستقرار المنشود كان يتطلّب أيضًا إبرام معاهدة سلام مع الإمبراطورية الأخمينية، لضمان عدم نشوب حرب جديدة على الجبهة الشرقية. في عام ٤٥٠ ق.م، توفّي سيمون، فتولّى كالياس، شقيقه بالتبنّي، مهمّة التفاوض من أجل إبرام معاهدة السلام مع الدولة الأخمينية.

تمّ إبرام صلح كالياس في عام ٤٤٩ ق.م، وتضمّن هذا الاتفاق اعتراف الإمبراطورية الأخمينية بهيمنة أثينا وتفوّقها في منطقة بحر إيجه. وفقًا لبنود هذه المعاهدة، التزمت أثينا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للأراضي والدول الخاضعة للحكم الأخميني، وعدم شنّ أيّ حملات عسكرية عليها، بشرط أن تقبل الدولة الأخمينية باستقلال جميع البوليسات والمدن اليونانية والمستوطنات اليونانية في آسيا الصغرى، وألّا تبسط سيطرتها على أيّ منطقة في البحر الأبيض المتوسط تكون ضمن مسافة سفر بحرية مقدارها ثلاثة أيام عن اليابسة اليونانية[1]. بعبارة أخرى، نصّت المعاهدة على أنّ الجيش الأخميني لا يمكنه الاقتراب من الأراضي اليونانية إلى ما دون المسافة التي يمكن قطعها في ثلاثة أيام. وبهذا، ضُمنت استقلالية الدول-المدن اليونانية في آسيا الصغرى من جهة، ومن جهة أخرى، تخلّصت الدولة الأخمينية من التدخلات والتوسعات العدوانية لأثينا في أراضيها، مما جعل بحر إيجه منطقة يونانية خالصة.

1. Robinson, Athens in the Age of Pericles.

بعد ثلاث سنوات من صلح كالياس، أبرمت أثينا مع إسبرطة في عام ٤٤٦ ق.م معاهدة سلام عُرفت بـ«معاهدة السلام الثلاثينية». وفقًا لهذه الاتفاقية، التزمت أثينا بعدم التدخل في شؤون البيلوبونيز، وفي المقابل، اعترفت إسبرطة بالكيان السياسي للإمبراطورية الأثينية في إطار رابطة ديلوس. كانت الروح السائدة في هذه المعاهدة هي الإقرار بحقيقة أنّ اليونان قد انقسمت إلى قطبين متخاصمين، تتزعمهما أثينا وإسبرطة على التوالي. وكان السلام الثلاثيني بمثابة سلام مسلح، حيث قَبِل الطرفان، رغم استمرار التنافس والعداء العميق بينهما، الامتناع عن الدخول في حرب مباشرة لفترة محددة، مع الإبقاء على التوازن القائم للقوى بينهما. لكن كلا الجانبين كانا يدركان جيّدًا أنّ العداوة والخصومة لم تُحسم، وأنّ أيّ تغيير في موازين القوى أو الظروف قد يؤدّي إلى انهيار الاتّفاقية واندلاع حرب جديدة.

في سنوات العقد الخامس من القرن الخامس قبل الميلاد، ظهرت موجة جديدة من النضالات والصراعات السياسية داخل الهيئة الحاكمة لأثينا. كان أنصار الديمقراطية الأرستقراطية، بعد نفي سيمون، يسعون إلى العثور على زعيم سياسي جديد لهم، فاختاروا في نهاية المطاف ثوقيديدس الألوبيكي (وهو يختلف عن ثوقيديدس المؤرخ اليوناني الشهير) زعيمًا للمجموعة الأرضية. وكما يذكر بعض المؤرخين، فمن المحتمل أن يكون ثوقيديدس الألوبيكي أخًا بالتبنّي لسيمون. تولّى ثوقيديدس في عام ٤٥٠ قبل الميلاد قيادة أنصار الديمقراطية الأوليغارشية. وكانت الساحة الرئيسية للتجمعات واتخاذ القرارات السياسية في أثينا خلال منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تقع في منطقة قريبة من الأكروبوليس، فوق تلّ يُعرف باسم «البنيكس». وفي هذا الموقع، كان مواطنو

أثينا يجتمعون كل عشرة أيام ليستمعوا إلى خطب زعماء الجناحين الرئيسيين في الهيئة الحاكمة، ويتّخذوا قراراتهم بشأن القضايا السياسية.

كان ثوقيديدس ورفاقه في جناح الديمقراطية الأرستقراطية في أثينا يرون أنّ السياسات التوسعية لبريكليس ستؤدّي في نهاية المطاف إلى وقوف جميع اليونانيين في مواجهة أثينا. فقد كانوا يقولون إنّ أثينا، من خلال استغلالها لنمطٍ من العلاقات غير المتكافئة مع باقي المدن اليونانية، وكذلك عبر اتّباعها سلوكًا استعماريًا تجاه شعوب الأراضي المجاورة، قد أغرقت أسواقها بمختلف السلع المتنوعة. وكانوا يعتقدون أنّ هذا النهج الذي انتهجه بريكليس يعاني من عدّة إشكالات جوهرية: أولًا، أنّه دفع الأوضاع إلى اتّجاهٍ جعل الأثينيين أقل اهتمامًا بالإنتاج وباستهلاك ما ينتجونه بأنفسهم. وثانيًا، أنّ سلوك أثينا الظالم تجاه سائر دول المدن اليونانية والشعوب الأخرى القريبة والبعيدة قد أدّى إلى تراكم الغضب والحقد والاستياء في نفوسهم، الأمر الذي كان يوجّه الأوضاع تدريجيًا نحو اصطفاف جميع اليونانيين، وربما حتى بعض غير اليونانيين، في مواجهة أثينا والاستعداد لمقاومتها. عند النظر في الادعاءات والانتقادات التي طرحها أنصار الديمقراطية الأرستقراطية، ينبغي الالتفات إلى نقطة مهمة، وهي أنّهم، شأنهم شأن خصومهم السياسيين من أنصار الديمقراطية الكلاسيكية، كانوا يشتركون في جوهر واحد، ويتصرّفون جميعًا ضمن إطار الصورة النوعية للعدمية الكَونَويّة اليونانية ومن منظور الاستكبار الكَونَويّ والاستغلال العبودي. فقد كان كلٌّ من بريكليس ورفاقه ومعارضيه ينتمون إلى عالم الاستكبار الكَونَويّ الغربي اليوناني، وكانت حقيقتهم وجوهرهم قائمَين على الشرك والظلم. ولا شكّ في أنّ ثوقيديدس ورفاقه ومؤيّديهم لم يكونوا معنيّين حقًا بمصير العبيد أو الفئات

المستضعفة والمظلومة في اليونان أو غيرها من الأراضي. بل كانوا يستخدمون هذه الادّعاءات والمواقف أداةً في صراعهم ضد بريكليس وأنصاره، وكان هدفهم الأساسي والنهائي هو الوصول إلى السلطة بديلًا عن الجناح البحري، حتى يتمكّنوا من فرض تصوراتهم الاستكبارية الخاصة بجناحهم (كما أنّ أفكار بريكليس وأنصار الديمقراطية الكلاسيكية لم تكن إلّا ذات طبيعة استكبارية ومشركة كذلك)، فضلًا عن الاستفادة من الموارد والمنافع التي تمنحها السلطة لمن يتربع على قمتها.

وعليه، فإنّ التنافس والصراع السياسي بين جناحَي الديمقراطية الكلاسيكية والديمقراطية الأرستقراطية كان في جوهره صراعًا على السلطة، وعلى الرغم من الاختلافات والتباينات العَرَضية والهامشية بينهما، فإنّ ماهيتهما كانت واحدة. فكلا الجناحين كانا يدافعان عن العدمية الكَونَويّة اليونانية وعن الكفر والشرك والظلم السائد فيها، وكلاهما كان ينتمي جوهريًا إلى دولة أثينا العبودية الظالمة، التوسّعية والمعتدية. غير أنّ الجماعة الأرضية بقيادة ثوقيديدس كانت ترى في بعض المسائل أنّ السياسات التوسّعية، التي كانت وسيلة متّفقًا عليها بين الجناحين لتحقيق الأغراض الاستكبارية، ينبغي أن تُنفَّذ بطريقة لا تؤدّي في نهاية المطاف إلى نشوء اصطفاف شامل ضد أثينا.

«فيكتور إرنبرغ» يكتب عن شخصية بريكليس ونهجه السياسي قائلًا:

«في عقد الخمسينيات وبداية الأربعينيات قبل الميلاد، أصبح بريكليس أكثر وعيًا، ولكنّه في الوقت ذاته ازداد استبدادًا. ولا شك أنّ هذا «الأولمبي» [وهو أحد ألقابه] كان رجلًا وحيدًا. فلم يكن له أيّ أصدقاء بين السياسيين، حتى بين أنصاره. كان يتجنّب تمامًا جميع الأنشطة الاجتماعية، ولم يترك أيّ كتابات خلفه.

لم يكن يغادر منزله إلا من أجل أداء مهامه الرسمية وإلقاء خطاباته، التي كانت دائـمًا ذات تأثير بالغ. لم يتحـدث عن الآلهة، ولا عن أيّ معتقـد تقليدي آخر. كان يُظهر الاحترام حيثما وحينما كان ذلك ضروريًا، لكنه لم يكن يمتلك الإيمان الدينـي الذي كان يتوقّعه النـاس. وقد كان هذا الجانب من شـخصيته ذا دورٍ مهم في موقف خصومه منه، حيث كانوا يصفونه بعدم الإيمان بالدين الرسـمي والإلحاد... أمّا النزعة الوحيدة التي كانت تملأ عقل بريكليس الخالي من التكلّف والحذر، فكانت اهتمامه العميق بالشـأن السـياسي، بما في ذلك إدارة السياسات اليومية»[١].

كان بريكليس، من خلال تأكيده على السياسات التفوّقية لأثينا تجاه باقي المدن اليونانية، يدّعي أنّ «أثينا هي مدرسة اليونان». فقد كان يرى أنّ اليونان تتعلّم من مدرسة أثينا دروس الديمقراطية [الكلاسيكية]. لكنّ معارضيه كانوا يقولون: «أثينا هي طاغية اليونان، لا مدرسـتها»، وكانوا يعتبرون أنّ حكم بريكليس في أثينا وفي سائر أنحاء اليونان ليس سوى حكم تيرانوس (جبّار)، يقوم على خداع بعـض الفئات الفقيرة ومنح امتيازات مالية للطبقات المتوسـطة[٢]، بينما يخدم في مجمله مصالح مالكي العبيد والتجّار ومُلّاك الأراضي الكبار في أثينا.

إمبريالية أثينا في عهد بريكليس

لمصطلح «الإمبريالية» تعريف ومفهـوم تخصصي تُوجَّه فيه العناية، في المقام الأول، إلى المجـال الاقتصادي. ففي التعريف الاقتصـادي المتخصص، يُطلَق مصطلح الإمبريالية عادةً على مرحلة من مراحل توسّع الرأسمالية الحديثة خلال

١. ناردو، عصر پريكلس، ٦٦.

2. King, Pericles, 72.

أواخر القرن التاسع عشر وما بعده، وهي المرحلة التي ترافقت مع ظهور وهيمنة الاحتكارات الاقتصادية الكبرى. ويُذكر لهذه المرحلة عدد من الخصائص، مثل نشوء رأس المال المالي، وتصدير رأس المال إلى البلدان الواقعة تحت الهيمنة، وتقسيم العالم وإعادة تقاسمه، وغير ذلك. وقد ناقش اقتصاديّون ومفكرون أيديولوجيون، مثل «هيلفردينغ» و«فلاديمير لينين» و«روزا لوكسمبورغ» و«شومبيتر» وغيرهم، المفهوم الاقتصادي المتخصص للإمبريالية بوصفه مرتبطًا بالرأسمالية الحديثة ويمثل مرحلة من مراحل تطورها. إلّا أنّ مقصودنا من تناول مسألة الإمبريالية اليونانية لا يتعلّق بالمفهوم الاقتصادي التخصصي لهذا المصطلح، بل نحن نعتمد في حديثنا عنه على معناه اللغوي، أي «الإمبراطورية»، وما يستحضره من دلالات استكبارية واستعمارية ترتبط بهذا المفهوم.

بوليس أثينا في عهد بريكليس كانت قوّة إمبرياليّة بكلّ ما للكلمة من معنى. صحيحٌ أنّ جذور هذه الإمبريالية وبعض ملامحها وتجلياتها كانت موجودة منذ القرن السادس قبل الميلاد، إلّا أنّ أثينا في عهد بريكليس تحوّلت إلى قوّة إمبريالية متكاملة الأركان. والمقصود هنا لا يمتّ بصلة إلى التعريف الاقتصاديّ والحديث للإمبريالية، بل نقصد بها نظامًا إمبراطوريًّا توسّعيًّا وعدوانيًّا استكباريًّا. فالإمبريالية الأثينية لا تمتدّ جذورها إلى الرأسمالية الحديثة ولا إلى نشوء الاحتكارات الاقتصادية وسيطرتها، كما أنّها لم تكن تجسيدًا للاستكبار الإنسانيّ النزعة. بل كانت نظامًا استعماريًّا قائمًا على الاقتصاد العبوديّ؛ وبوصفها نظامًا استكباريًّا، فقد مثّلت شكلًا من أشكال العدمية الكَونَويّة.

الإمبريالية الحديثة هي الشكل الاقتصادي-السياسي للاستكبار الحديث، والذي يتجذّر في الفلسفة الإنسانية والذاتية. أمّا الإمبريالية الأثينية (التي بلغت

في عهد بريكليس ذروة قوّتها ونضجها وفعليّتها)، فقد كانت شكلًا سياسيًا للاستكبار الكَونَويّ، حيث عبّرت عن نفسها في بُعدها النظري من خلال ميتافيزيقا حصوليّة تقوم العدمية الكَونَويّة. وهذا التمايز الجوهري، رغم كونه يكشف عن الوجه الاستكباري المشترك بين الإمبريالية الحديثة والإمبريالية الأثينية، فإنّه يؤكّد أيضًا على اختلافهما الجذري وانتمائهما إلى عوالم تاريخية متباينة.

الإمبرياليّة الأثينيّة متجذّرة في العدمية الكَونَويّة، وهذا ما كان يجعل دور الاقتصاد وأهمّيته وتأثيره في الحياة السياسيّة-المدنيّة لأثينا (وبالتبع في مجمل عالم الغرب اليوناني) أقلّ شأنًا مقارنةً بدور الاقتصاد وتأثيره في عالم الغرب الحديث وتجليّاته المتعدّدة والمتنوّعة، ومنها الإمبرياليّة الحديثة. فهل يعني هذا أنّنا ننكر وجود الدوافع الاقتصاديّة ودورها المؤثّر، بل أحيانًا البالغ الأهميّة، في حياة عالم الغرب اليوناني-الروماني، والبوليسات اليونانيّة، وسياسات أثينا وحروبها وإمبرياليّتها؟ ليس الأمر كذلك على الإطلاق. مقصودنا شيء آخر تمامًا. إنّما نريد التأكيد على هذه النقطة المهمّة، وهي أنّ أحد أسباب التمايز الجوهريّ بين الإمبرياليّة الرأسماليّة الحديثة وإمبرياليّة أثينا في عصر بريكليس يكمن في أنّ الإنسان في عالم الغرب الحديث يتحقّق بوصفه «حيوانًا اقتصاديًّا»، ويُعرَّف كذلك، كما أنّ الصورة المثاليّة للإنسان الحديث هي «الإنسان البورجوازيّ»، الذي يُعرَّف، قبل أيّ شيء آخر وأكثر من أيّ شيء آخر، بقدرته على تصنيع الأدوات لأجل الإنتاج الاقتصاديّ، في حين أنّ الدوافع الأساسيّة التي تحكم حياته وخياراته وأفعاله مستمدّة من سيطرةٍ مزدوجةٍ واعيةٍ وغير واعيةٍ لمنطق «التركيز على الربح والبحث عن اللذة». في الغرب الحديث، وفي العالم الحديث المتغرِّب وشبه الحديث، يكتسب البُعد الاقتصادي أصالةً ومحوريّةً في إطار

التصـوّر القائم على « التركيز عـلى الربح والبحث عن اللذة»، سـواء في ماهيّة الإنسـان أو في مختلف شـؤون حياته. فلا يمكن فهم العـالم الحديث، ومن ثمّ العالم المقلِّد شـبه الحديث، إلّا من منظور هيمنة المنفعة وإنتاج المضاربة وتراكم رأس المال في سـياق جني الأرباح والسعي إلى الربح المتزايد غير المشروع وغير المحدود وغير المشروط (وهو ما يسـمى النفعية الذاتيـة)، وهذه النفعية الذاتية هي التي تسود في الإنسان الحديث كحيوان اقتصادي. المحرك الرئيسي والنهائي للعالم الحديث هو محرك «المنفعة – اللذة» الذاتي، الذي يظهر بشـكل أكبر وأول في المفهوم الحديث للاقتصاد، وهذا العامل الاقتصادي (بمفهومه الحديث) هو الذي يشكّل هيكل السياسة والمدنيّة والفنّ والأدب والعلم والجوانب الأخرى للمجتمعات والحضـارات الحديثـة. إنّ المحرّك الأسـاسيّ، والغاية القصوى والنهائيّـة للعالم الحديث، هـو الدافع القائم على «المنفعـة – اللذة» ذات الطابع الـذاتيّ، والذي يجد أول وأبرز تجلّياته في مفهـوم الاقتصاد الحديث. بل إنّ هذا العامل الاقتصاديّ، بمفهومه الحديث، هو الذي يشكّل بنية السياسة، والمدنيّة، والفنّ، والأدب، والعلم، فضلًا عن سائر جوانب الاجتماع والحضارات الحديثة.

أما عالم الغرب اليوناني فذو طابع كَونَويّ، وهو يرى السياسة بوصفها «ساحةً للحرية»، متحـرّرةً من الهواجس الاقتصاديّة. وبالطبع، فـإنّ في العالم اليوناني، وفي الإنسـان اليوناني، وفي الإمبرياليّة الأثينيّة، تلعب الدوافع الاقتصاديّة دورًا وتأثـيرًا، بل أحيانًا تأثـيرات مهمّة، إلا أنّ مفهوم الاقتصـاد في الغرب اليوناني يختلف من بعض الوجوه عن مفهـوم الاقتصاد الحديث، كما أنّ الصورة المثاليّة للإنسان اليوناني، بوصفه «البطل–المواطن»، تختلف جوهريًّا عن الصورة المثاليّة للإنسـان الحديث. وعالم اليونان، بوصفه عالمًا ذا طابع كَونَويّ، يختلف جوهريًّا

عن العالم الحديث، الذي يتحدّد بوصفه عالمًا إنسانيّ النزعة. وبالرغم من أنّ كلًّا من العالم اليوناني والعالم الحديث يندرجان ضمن التاريخ الغربيّ ويمثّلان صورًا من هذا التاريخ وتجليّاتٍ من الاستكبار العدميّ الغربيّ، فإنّ لكلٍّ منهما صورته النوعيّة الخاصّة، إذ ينتمي كلّ واحد منهما إلى مرحلة خاصّة من تاريخ الغرب.

إمبرياليّة أثينا هي إحدى صور تجلّي الجوانب السياسيّة والثقافيّة للاستكبار الكَونَويّ اليونانيّ؛ وبالطبع، فإنّ لهذا الاستكبار وجهًا اقتصاديًّا أيضًا. غير أنّه، كما يختلف مفهوم السياسة في العالم اليوناني عن مفهومها في العالم الحديث، فإنّ مفهوم الاقتصاد وتجليّاته في الغرب اليوناني يختلفان كذلك عن نظيرَيهما في الغرب الحديث.

لقد كانت الإمبرياليّة الأثينيّة متجذّرةً في العالم اليونانيّ، بل كانت في جوهرها إحدى صور ظهوره وتحقّقه الفعليّ. فجوهر الغرب اليونانيّ هو جوهر استكباريّ، وقد تجلّى هذا الجوهر الاستكباريّ في البوليسات اليونانيّة وفي مختلف شؤون حياتها ومظاهرها. إلّا أنّ هذا الجوهر الاستكباريّ للغرب اليونانيّ قد ظهر في بوليس أثينا في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، وتحديدًا في أثينا عصر بريكليس، بل وحتى في شخص بريكليس نفسه، على هيئة إمبرياليّة ذات مفهوم يسبق المفهوم الحديث للإمبرياليّة. إمبرياليّة أثينا كانت إحدى مظاهر وتجلّيات الاستكبار الكَونَويّ اليونانيّ. غير أنّ الجوهر الاستكباريّ للعالم اليوناني لم يظهر في بوليس أخرى، مثل بوليس إليس، في هيئة إمبرياليّة، بينما تجلّى في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد، ولا سيّما في أثينا عصر بريكليس، في صورة إمبرياليّة واضحة. لماذا كانت هذه النزعة الإمبرياليّة أقلّ حضورًا في إسبرطة؟ ولماذا لم تتجلَّ هذه الخصيصة الإمبرياليّة في العديد من البوليسات اليونانيّة الأخرى،

رغـم أنّ اليونـان كانت تضمّ عددًا كبيرًا من البوليسـات، صغـيرةً وكبيرة؟ لا شـكّ أنّ العوامل الاقتصاديّـة، إلى جانب القوّة والقـدرات الخاصّة لمدينة أثينا بوصفها قوّةً عسـكريّةً بحريّةً، وأيضًا إلى حدٍّ كبير قـوّةً بريّة، قد لعبت دورًا في ظهور هذه النزعـة الإمبرياليّة. ويمكن إضافة الانتصارات العسـكريّة لأثينا، فضلًا عن الطموحات التوسّعيّة لقادتها السياسيّين (الآرخونات) وسكّانها، إلى العوامـل المذكورة آنفًا. ولكن يبقى هذا السـؤال مطروحًا: لماذا لم يظهر هؤلاء القادة الطموحون في بوليسات يونانيّة أخرى؟ أو إن ظهروا، لماذا لم يتمكّنوا من الوصول إلى السـلطة ولم يجدوا الفرصة لإبراز نفوذهم؟ ولماذا لم تستطع العديد من البوليسـات اليونانيّة الأخرى، عـلى كثرتها، أن تصبح قوّةً عسـكريّةً ذات انتصارات حربيّة وقدرات اقتصاديّة؟ إنّ مدينة أثينا لم تكن واسعة المساحة، ولم تكن تمتلك، مقارنةً بسائر البوليسـات اليونانيّة، موارد استثنائيّةً تحت الأرض، أو أراضي زراعيّـةً غنيّـة، أو ظروفًا جغرافية متميّزةً تفوّقهـا على غيرها. بل إنّ أثينا، من حيث الموارد الطبيعيّة والمقوّمات الجغرافيّة، لا تختلف كثيرًا عن العديد من البوليسـات اليونانيّة الأخرى. والمقصـود هنا أنّ أثينا لم تكن تمتلك مجموعةً مـن العوامل الطبيعيّة والجغرافيّة المتفوّقة التي تجعلهـا كيانًا فريدًا تمامًا عن بقيّة البوليسـات اليونانيّة أو تمنحها امتيازًا واضحًا عليها. فكما أنّ أثينا تمتلك بعض المـوارد والإمكانات الطبيعيّة، فإنّها كانت تفتقر إلى العديد من الموارد الأخرى، وكانت ظروفها الجغرافيّة تهيّئ لها في بعض الأحيان سُبل العيش والإنتاج، بينما تجعل ذلك في أحيان أخرى صعبًا أو حتى مسـتحيلًا. لقد كانت أثينا، في القرن الثامـن قبل الميلاد، عند ولادة التاريخ الغربيّ في اليونان وبروز الغرب اليونانيّ، مدينةً ضمن منظومة المدن اليونانيّة، لا أكثر.

إنّ عالم الغرب اليوناني قد نشأ على أساس النسيان للولاية الإلهيّة وإنكارها، وارتكــز على العهد الكَونَويّ، وظهر بوصفه عالمًا طاغوتيًّا. فالغرب اليوناني ذو ماهيّــة عدميّة، وتتجلّى عدميّته من خلال الكَونَويّة، حيث تتحقّق وتجد فعاليّتها عبر هذا الإطار. إنّ الصورة النوعيّة للتفكير اليوناني هي العدميّة الكَونَويّة، التي نظّمت نفسها، لا سيّما منذ القرن السادس قبل الميلاد، في هيئة تفكير ميتافيزيقيّ عدمــيّ كَونَويّ ذي نزعة حصوليّــة. إنّ الجوهر الاســتكباريّ للغرب اليونانيّ متجذّر في ماهيّته العدميّة، وقد تحقّقت كلٌّ من أثينا وإسبرطة، وسائر البوليسات اليونانيّة، في إطار هذا العدميّة الكَونَويّة. وكلٌّ منها، بطريقتها الخاصّة، تجلّت فيها شؤون ومراحل ووجوه ومظاهر هذا العدميّة الكَونَويّة وجوهرها الاستكباريّ، وأسهمت في تفعيلها وإبرازها.

بناءً على ما ســبق، فإنّ العنصر أو الســمة التي ميّزت أثينا تدريجيًّا، لا ســيّما منذ أواخر القرن الســادس قبل الميلاد، وبشــكل أدقّ منذ أوائل القرن الخامس قبــل الميلاد، وجعلتها تختلــف إلى حدّ كبير عن العديد مــن دول المدن اليونانيّة الأخرى، هو ذلك العامل الذي أدّى إلى نشــوء وضــعٍ جعل أثينا، بحلول عام ٤٦٠ ق.م تقريبًا، تتحوّل إلى قوّة إمبرياليّة (بالمفهوم القديم للإمبرياليّة)، وسمح لشــخصيّة مثل بريكليس بأن تمتلك في تلك المدينة ســلطةً شــاملةً، تكاد تكون مطلقة، وامتــدّت لفترة طويلة. للإجابة عن هذا الســؤال، لا بدّ من البحث في العلاقة بين الميتافيزيقا اليونانيّة وإمبرياليّة أثينا، والكشف عن طبيعة هذه العلاقة من خلال تحليل شخصية بريكليس ودوره في هذا السياق.

الميتافيزيقا اليونانيّة وإمبرياليّة أثينا

في القــرن الخامس قبل الميلاد، كانت أثينا مركزًا ومحورًا للميتافيزيقا العدميّة الكَونَويّة ذات النزعة الحُصوليّة في الفكر اليونانيّ. فلو سلّمنا بأنّ الفكر العدميّ الكَونَــويّ اليونانيّ قد ظهر في القرن الثامن قبــل الميلاد عبر المنظومات الهومريّة والهســيوديّة، واتّخذ هيئة الأدب الإيونيّ واتّســع في إطاره (وهو اعتقادٌ صحيح ومتوافق مع الواقع)، فإنّ من المســلّم به أيضًا أنّ هــذا الفكر العدميّ الكَونَويّ اليونــانيّ قد تطوّر خلال القرنين الســابع والســادس قبل الميــلاد في ميليتوس وبعض البوليســات اليونانية الأخرى في آســيا الصغرى، حيث تجسّــد في آراء مجموعــة من المفكّرين، ليأخذ صــورة الفكر العدميّ الكَونَــويّ الحصوليّ. لقد تأسّســت الميتافيزيقا العدميّة الكَونَويّة ذات النزعــة الحصوليّة على يد مفكّرين أمثال طاليس، وأناكسيماندر، وأناكســيمينيس، وأمبادوقليس، وكسينوفانيس، وغيرهم، حيث وُضعت أســسها الأولى في ميليتوس واستمرّت في الانتشار في البوليسات اليونانيّة الأخرى. وفي جوهرها، كانت هذه الميتافيزيقا بمثابة مرحلة جديدة من مراحل تطوّر الفكر العدميّ الكَونَويّ اليونانيّ، لكنّ الســمة الفارقة لها أنّها شــكّلت تجلّيًا للحالة الحُصوليّة في الفكر العدميّ اليونانيّ. إلّا أنّ مســار تطوّر الفكــر العدميّ الكَونَويّ في صيغته الحُصوليّة لم يتوقّف عند آراء طاليس، وأناكسيماندر، وكســينوفانيس، وغيرهم. فقد اســتمرّت حركة انتشار وتوسّع الفكــر العدميّ الكَونَويّ اليونانيّ في القرن الخامــس قبل الميلاد، متجلّيةً في آراء السفســطائيّين، ثمّ في التيّار السقراطيّ-الأفلاطونيّ، ولاحقًا في فلسفة أرسطو، حيــث بلغ هذا الفكــر ذروة امتداده وانتشــاره. إنّ الصــورة النهائيّة والمكتملة للفكر العدمــيّ الكَونَويّ اليونانيّ، ظهرت وتحقّقت في القرنين الخامس والرابع

قبل الميلاد، حيث تجسّدت في السفسطائيّة، والفلسفة السقراطيّة-الأفلاطونيّة، وصولًا إلى الحلقة المكمّلة لها، أي فلسفة أرسطو، وكلّ ذلك في أثينا. من هنا، ليس من قبيل المبالغة اعتبار أثينا المركز والمحور الأساسيّ للميتافيزيقا اليونانيّة.

ما الميتافيزيقا؟ لفهم معناها بوضوح، لا بدّ من الإشارة إلى العلاقة بين العدمية والغرب. فالغرب ليس مجرّد مفهوم، بل هو حقيقة تاريخيّة. أما العدمية بالنسبة إلى الولاية الإلهيّة، فهي باطن الغرب، بينما الميتافيزيقا هي ظاهره. فالغرب، بوصفه تاريخًا متعيّنًا، لا يظهر باطنه العدميّ إلّا من خلال الميتافيزيقا، التي تجعله يتجلّى في هيئة ظواهر عينيّة ومُنضمّة ضمن سيرورة الزمن والتاريخ. الميتافيزيقا هي الصورة النوعيّة التي، بوصفها ظاهر الغرب، تهيمن على مجمل تاريخ الغرب، وعلى مراحله وأدواره، كما على جميع شؤونه وسياقاته ومستوياته وأبعاده. وبما أنّها ظاهر الغرب، فهي الإطار الذي يتحقّق من خلاله تاريخ الغرب، إذ تسعى إلى تنظيم جميع جوانب الحياة الفرديّة والجماعيّة للإنسان على أساس إنكار الولاية الإلهيّة (العدمية)، أو بعبارة أخرى، على أساس ولاية الطاغوت. إنّ جوهر الميتافيزيقا وروحها، بوصفها ظاهر الغرب، هو النسيان لعهد الأمانة وإنكار الولاية الإلهيّة. فالروح العدميّة للغرب تتمثّل في هذا النسيان والإنكار، ولذلك فإنّ الميتافيزيقا، بوصفها الظاهر التاريخيّ للغرب، تُعبّر عن هذه الروح في مختلف مراحل التاريخ الغربيّ. ومن هنا، فإنّ ذات الميتافيزيقا وجوهرها هو الغفلة عن الولاية الإلهيّة وإنكارها، لأنّ روح الغرب وباطنه إنّما هو الغفلة عن هذه الولاية، والنسيان لها، وإنكارها.

الميتافيزيقا، بوصفها ظاهر الغرب وصورته النوعيّة الحاكمة على تاريخه، تفرض سلطتها على النظر والعمل، كما على جميع أنماط الفكر والعقل، والفنّ،

والأدب، والثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وحياة الإنسان الفرديّة والجماعيّة، في مجمل المسار التاريخيّ للغرب. إنّ الميتافيزيقا ليست نوعًا من التفكير، بل هي، بوصفها ظاهر الغرب، الإطار الحاكم على مختلف صور الفكر ومستوياته في التاريخ الغربيّ. وكما تهيمن الميتافيزيقا، بصفتها ظاهر الغرب، على أنماط الفكر، فإنّها تفرض سلطتها أيضًا على مختلف صور وأنواع ومستويات الفنّ، والأدب، والثقافة، والسياسة، والاقتصاد، وسائر أوجه الحياة الفرديّة والجماعيّة في تاريخ الغرب.

عند البحث في مفهوم وتعريف الميتافيزيقا، لا بدّ من التأكيد على أنّ المقصود هنا ليس بأيّ حالٍ من الأحوال المعنى اللغويّ للميتافيزيقا. كما أنّه ليس المقصود بها «الفلسفة الأولى» أو «ما بعد الطبيعة». إنّ الاستخدام الذي نعتمده لهذا المصطلح يتجاوز حدود ما بعد الطبيعة والفلسفة الأولى، فالمفهوم الذي نشير إليه عند الحديث عن الميتافيزيقا لا يعادل بأيّ وجهٍ مفهوم «ما وراء الطبيعة» أو أيًّا من التعريفات المشابهة. نحن في تناولنا للميتافيزيقا نركّز على معناها الاصطلاحيّ. ففي هذا المعنى الاصطلاحيّ، تعني الميتافيزيقا ظاهر الغرب وصورته النوعيّة الحاكمة على تاريخه، كما أشرنا سابقًا. ولهذا، نعيد التأكيد على أنّ مقصودنا من الميتافيزيقا، بوصفها ظاهر الغرب وصورته النوعيّة الحاكمة على تاريخه، لا يمتّ بأيّ صلة إلى معانٍ مثل: ما بعد الطبيعة، الفلسفة الأولى، ما وراء الطبيعة، أو المفهوم الأرسطيّ للميتافيزيقا كما ورد في رسالته الموسومة بهذا الاسم. كذلك، فإنّ مفهوم الميتافيزيقا الذي نعتمده هنا لا يتطابق مع المفهوم الذي قصده مارتن هايدغر عند استخدامه لهذا المصطلح. كما أشرنا سابقًا، فإنّ استخدامنا لمصطلح الميتافيزيقا يشير إلى الميتافيزيقا بوصفها ظاهر الغرب. وفي

هذا المعنى، فإنّ الميتافيزيقا هي النفس المدبّرة لتاريخ الغرب، وهي ذات باطنٍ يتمثّل في العدمية، أي نسيان وإنكار الولاية الإلهيّة. وبالتالي، يمكن القول إنّ العدمية وإنكار الولاية الإلهيّة هما باطن الغرب وروحه، بينما الميتافيزيقا هي ظاهر الغرب. فالميتافيزيقا، بوصفها ظاهر الغرب، هي النفس المدبّرة والصورة الحاكمة على تاريخ الغرب، وهي في هذا الإطار تمتلك معنى يتجاوز كونها مجرّد صيغة فكريّة، إذ تفرض سلطتها على التاريخ الغربيّ من بدايته إلى نهايته.

الميتافيزيقا في تجلّياتها، من المنظور النظري وباعتبارها فكرًا، ظهرت في أنماط وأشكال متعدّدة، نشير إليها فيما يلي:

١. الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني-الروماني

٢. الفكر الميتافيزيقي الإلهي في العصور الوسطى (الفلسفة الوسيطية)

٣. الفكر الميتافيزيقي الإنساني الحديث (الفلسفة الإنسانية)

٤. الفكر الميتافيزيقي المأزوم فيما بعد الحداثة

موضوع بحثنا يتناول الميتافيزيقا الكَونَويّة اليونانية وبعض تجلّياتها النظرية، وبخاصةٍ البحث في العلاقة بين الإمبريالية الأثينية والميتافيزيقا اليونانية. في العالم الغربيّ اليوناني، من الناحية النظرية وبوصفها أشكالًا تفكيرية، ظهرت الميتافيزيقا، باعتبارها النفس المدبّرة لتاريخ الغرب، في تجلّيات متعدّدة نشير إليها فيما يلي:

١. الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ الهومري - الهسيودي

٢. الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ الطبيعيّ الحصولي (طاليس وأناكسيماندر وسواهما)

٣. الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ السفسطائي والفكر الفلسفي السقراطي-الأفلاطوني-الأرسطي

الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ السفسطائي والفلسفي، الذي ظهر بشكل رئيسي في أثينا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، كان أكمل تجلٍّ للفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني، حيث تجلّى في هيئتَي السفسطة والفلسفة وفي التقابل بينهما، ثم تطوّر ضمن هذا السياق. وقد بلغ الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني ذروته في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، لكنّه في القرن الرابع قبل الميلاد وقع في أزمة انحطاطية عميقة. وهي الأزمة التي تزامنت على وجه الدقة مع أزمة انحطاط المدينة الأثينية في القرن الرابع قبل الميلاد وكانت وثيقة الصلة بها.

كانت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد مركز الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني. وقد تجلّى الفكر الميتافيزيقي اليوناني في أثينا خلال ذلك القرن في صورتين متقابلتين من التيارات الفكرية: التيار السفسطائي والتيار الفلسفي السقراطي. وكلا التيارين كانا يندرجان تحت الميتافيزيقا العدميّة الكَونَويّة (الفكر الميتافيزيقي اليوناني). وكلاهما كانا تابعَين للتفكير الحصولي، وسارا في مسار تعزيز وتعميق وتطوير تاريخ الغرب. كما كانا مدافعين عن كليّة العالم الغربيّ اليوناني، ومن ثمّ عن الاستكبار الكَونَويّ. كذلك كانا مخلصين للمدينة–الدولة الأثينية وللديمقراطية ذات الطابع البوليسي اليوناني. ومع ذلك، فقد كانت بينهما فروقٌ واختلافاتٌ جوهرية.

كانت الإمبراطورية الأثينية نوعًا من المدينة–الدولة الديمقراطية اليونانية التي قامت على أساس الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية وكانت تجسيدًا لها. فالديمقراطية الكلاسيكية، وكذلك الأشكال الأخرى من الديمقراطية اليونانية، بل وجميع أنواع المدن–الدول اليونانية تقريبًا، كانت تجلّيات مختلفة

للميتافيزيقا الكَونَويّة اليونانية، وتغذّت من الفكر الميتافيزيقي اليوناني بصور ودرجات وأنحاء شتى. وبهذا، تتجلّى بوضوح العلاقة بين الإمبراطورية الأثينية والميتافيزيقا العدميّة الكَونَويّة والفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني.

إنها حقيقة ثابتة أنّ العالم اليوناني بأسره كان يقع تحت مظلّة الميتافيزيقا الكَونَويّة اليونانية وأنّه تحقّق في إطارها. كما أنّها حقيقة أخرى أنّ اليونان، بجميع مدن-دوله الكثيرة والمتنوّعة، كان يستلهم الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني ويتغذّى منه ويرجع إليه في المجال النظري بأنحاء وصور ودرجات مختلفة. ولكن هناك حقيقة ثالثة ينبغي الالتفات إليها: وهي أنّ أثينا كانت مركز أعلى وآخر مرحلة من الديمقراطية اليونانية، أي الديمقراطية الكلاسيكية، كما كانت مركز أعلى وآخر صورة ومرتبة من صعود وازدهار الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني. هذان العاملان المتلازمان هما تحديدًا ما حوّل أثينا إلى إمبراطورية استعبادية توسّعية معتدية، أو في عبارة مختصرة، إلى إمبريالية غربية قديمة. كان بريكليس، من حيث شخصيّته وأفكاره، متوافقًا ومتجانسًا تمامًا مع الديمقراطية الكلاسيكية، وكذلك مع الصورة السفسطائية والفلسفية للفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ اليوناني. كان بريكليس صديق فيدياس وأنكساغوراس وبروتاغوراس، ومؤمنًا بالديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، كما كان مهتمًّا ومعتقدًا بالفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ السفسطائي الفلسفي. (إنّ الجمع بين الفكر السفسطائي والفكر الفلسفي هنا لا ينبغي أن يُوحي بأنّ هذين النوعين من الفكر متطابقان أو أنّ بينهما تماثلًا جوهريًّا. فالفكر السفسطائي والفكر الفلسفي، وإن كانا من نتاج تطوّر وبسط الميتافيزيقا الكَونَويّة اليونانية، وإن كانا قد ظهرا في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، بصورة تكاد تكون متزامنة

وإلى حـدٍّ ما مترابطة، فإنّهما مـع ذلك قد تمايزا في إطار الصـورة النوعية للفكر الميتافيزيقـي اليونـاني، إذ كان بينهما اختلافات جوهريـة وتقابل دائم، ولذلك لا ينبغـي بأيّ حال اعتبارهُما متطابقين أو متماثلين.) كان بريكليس، في سـلوكه وفكره، إلى حدٍّ بعيد تجسيدًا للصورة المثالية لـ«البطل-المواطن»، إذ تمثّل في ذاته العديد من الخصائص المنشودة في الديمقراطية الكلاسيكية والفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ، وعمل على تجسيدها في الواقع.

كانت الديمقراطية اليونانية، بجميع صورها وأنواعها، ذات طبيعة استكباريّة بحكم طابعها الكَونَويّ، وكانت في كلٍّ من صور تحقّقها (الديمقراطية الأولية، الديمقراطيـة الأرسـتقراطية...) تفـرز نموذجًا مـن المدينة-الدولـة والنظام الاسـتكباري. غير أنّ التجلي النهائيّ والأكمل للديمقراطيـة والمدينة-الدولة والفكـر الميتافيزيقي اليوناني قد تحقّق في أثينا خـلال القرن الخامس قبل الميلاد (وهو تجلٍّ كانت جذوره ممتدّة في تطوّرات العالم اليوناني السـابقة، ولا سـيّما في القرن السادس ق.م)، مما جعل من الممكن أن تظهر أثينا بهيئة الإمبريالية اليونانية. كانـت الإمبريالية القديمة واحدةً من صور تجلّي الاسـتكبار الكَونَويّ القديم. فالمآل النهائيّ لحركة أيّ مدينة اسـتكباريّة (سـواء كانت مدينة أثينا أو إسبرطة أو أيّ مدينة أخرى ضمن العالم الاسـتكباري اليوناني-الروماني) هو أن تتحوّل إلى قوّة ظالمة متسـلّطة، مستعمرة ومسـتعبدة، في إطار الكَونَويّة، بحيث يصبح تجلّيها السـياسيّ (ومن بعض الجوانب، الاقتصاديّ) هو الإمبريالية. وقد أتيح لأثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد أن تحقّق هذه الإمكانية وتجسّـدها واقعًا. ولو امتلكت مـدن-دول يونانية أخرى هذه الإمكانية، لكانت هي الأخرى قد حقّقتها وجسّدتها في الواقع.

كانت أثينا، وبريكليس، والإمبريالية الأثينية مظاهر مترابطة للمرحلة الأخيرة من بسط العدمية الكَونَويّة اليونانية، وكانت تستمدّ تغذيتها الفكرية، إلى حدٍّ ما، من الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ السفسطائي-الفلسفي ومن تجلّياته وصراعاته وتقابلاته. وعلى الرغم من أنّ أثينا، وبريكليس، وإمبريالية أثينا استفادوا من الفكر الميتافيزيقي الحصولي اليوناني، فإنّ انزلاق هذا الفكر إلى أزمة انحطاطية، وانخراطه في صراعات حادّة بين الفكر السفسطائي والفكر الفلسفي، قد جعلهم يتأثرون سلبًا بمضاعفات هذه الأزمة وتداعياتها وآفاتها.

أمّا في ما يتعلّق بأسباب نشوء الأزمة الانحطاطية التي انتهت بإهلاك أثينا، بل وحتّى اليونان بأسرها، فيمكن الإشارة إلى العوامل التالية:

١. كانت أثينا، بصفتها مركزًا ومحورًا للفكر الميتافيزيقي اليوناني، تستمدّ من هذا الفكر طاقته وإلهامه وحيويّته وقدرته على الإنعاش. غير أنّه مع وصول هذا الفكر إلى مرحلته الأزمة الانحطاطية-وهي أزمة تجلّت خصوصًا في النتائج المترتّبة على بعض آراء السفسطائيين، وفي الصراع العميق بين السفسطائيين وسقراط، وفي انتشار الأزمة القيمية والأخلاقية، وفي تزعزع أسس المعتقدات والقيم الكلاسيكية-وقعت أثينا نفسها في دوّامةٍ من الذبول الفكري، وانحدرت إلى أزمة تفكير، وتراجعت بصيرتها، وعمّها الاضطراب والتخبّط، بسبب انطفاء وهج الفكر الذي كان يغذّيها.

٢. أما الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية (التي تجلّت بأكمل صورها في أثينا وبلغت فعليّتها هناك)، فقد كانت، بحكم طبيعتها الكَونَويّة وبحكم خصيصتها الاستعبادية، محدودة الإمكانات، ولم يكن بوسعها، بعد أن وصلت إلى أوجها في عهد بريكليس، أن تواصل بسط نفسها أو تحقيق المزيد من التقدّم. ولهذا،

وجدت نفسها أمام أفقٍ مسدود، مما فاقم تناقضاتها الداخلية وأدّى إلى تفجّر أزماتها من الداخل.

٣. كانت أثينا مدينة-دولة صغيرة، وبلدًا يفتقر نسبيًّا إلى الموارد الطبيعية، ولولا تضافر العوامل التي سبقت الإشارة إليها، لما كان لها أن تظهر بهيئة قوّةٍ إمبريالية في العالم القديم.

ولكن، على أيّ حال، تحوّلت أثينا خلال عصر بريكليس فعلًا إلى قوّة إمبريالية في الغرب القديم، وهي مسيرةٌ كانت قد بدأت بوادر تبلورها قبل تولّي بريكليس الحكم بقرابة عقدين من الزمن. والأمر المهمّ الذي ينبغي الالتفات إليه هو أنّ أثينا، رغم صغر مساحتها وفقرها النسبي في الموارد الطبيعية، ورغم تناقضاتها الداخلية، لم تكن تمتلك القدرة على تحمّل الأعباء الثقيلة الناجمة عن تحوّلها إلى قوّة إمبريالية في إطار الغرب الكَونَويّ. ولو كان غير ذلك، لكان ينبغي أن تتمكّن من إيجاد الإمكانات التي تخوّلها الصمود والانتصار في مواجهة الهجوم الإسبرطي خلال الحرب البيلوبونيسية، بدلًا من أن تُقصى عن المشهد منهزمةً.

الفكر الميتافيزيقي الكَونَويّ الذي حوّل أثينا إلى قوّةٍ إمبريالية استعبادية ضمن الإطار الكَونَويّ، كان قد بلغ مرحلةً من توسّعه باتت فيها حقيقته الباطنية العدمية، الفاسدة والطاغوتية، تتجلّى باستمرار كسلسلةٍ متتابعةٍ من التناقضات والتقابلات، تظهر في الساحة النظرية والمباحث المستلهمة من الفكر الميتافيزيقي الحصولي. وكانت هذه التناقضات والتقابلات، في كلا طرفيها، باطلةً، ولم يكن بالإمكان تجاوزها وحلّها بشكلٍ حقيقي إلا عبر انهيار العالم الطاغوتي الكَونَويّ وانهيار الفكر الميتافيزيقي اليوناني الطاغوتي الذي كان يفرزها بشكلٍ مستمر ويعيد إنتاجها. وهكذا، مع تفاقم الأزمة الانحطاطية في العالم الغربيّ

اليوناني، والتي تجلّت في مظاهر عديدة، مثل تصاعد الأزمة الأخلاقية والقيمية واتّساعها، وتعميق الاضطراب والفوضى، وافتضاح انعدام البصيرة الباطنية للعقل الميتافيزيقي الحصولي اليوناني، بالإضافة إلى تصاعد التناقضات الداخلية الشاملة في العالم الغربيّ اليوناني، ولا سيّما في أثينا، أدّى ذلك كلّه إلى طيّ صفحة الحضارة اليونانية الكلاسيكية، وكنتيجةٍ لذلك، إلى القضاء على الإمبريالية الاستعبادية القديمة التي تجسّدت في أثينا.

تجديد بناء أثينا في عهد بريكليس المستبدّ

تمكّن بريكليس، في صراعه على السلطة مع ممثّلي الديمقراطية الأرستقراطية، من إقصاء منافسه السياسي ثوقيديدس الألوبيكي من الساحة السياسية الأثينية ونفاه خارج المدينة. ويُطلق بلوتارخس بعد هذا الحدث على بريكليس لقب «الزعيم (الشيخ) المستبدّ».

يكتب بلوتارخس عن بريكليس وتعاظم سلطته قائلًا:

«بعد أن قضى [بريكليس] على كلّ أشكال الصراع السياسي والانحيازات المختلفة، وأحكم قبضته على جميع شؤون المدينة، حكم أثينا بسلطةٍ مطلقة. كما عمل على تركيز وإدارة كافة الموارد المالية والأسلحة والقوّات العسكرية والأسطول البحري وشؤون الجزر، بحيث أصبحت سلطته تمتدّ على جميع اليونانيين والأجانب. ومنذ ذلك الحين، غيّر أسلوبه في التعامل مع الشعب، فلم يعد كما كان من قبل، بل أصبح أكثر صرامةً ودقّة، ولم يعد حديثه للشعب كموسيقى هادئة كما كان في السابق»[١].

كان بريكليس، بوصفه رمزًا للديمقراطية الكلاسيكية، كثير الترويج والدعاية

١. ناردو، عصر پريكلس، ٧٢.

حول مشاركة الشعب وتوسيع نطاق انخراطهم في مختلف الفئات والشرائح الاقتصادية-المدنية داخل دولة-مدينة أثينا. غير أنّ ما كان يجري في الواقع ضمن نظام وهيكل السلطة السياسية الأثينية، كان أمرًا مختلفًا. في دولة-مدينة أثينا، كانت المؤسسات والأركان الرئيسية للسلطة في أيدي الفئات والمجموعات الاقتصادية من تجار-ملّاك العبيد، في حين أنّ المجموعات ذات الدخل المنخفض أو الشرائح المتوسطة (من حيث الممتلكات والدخل)، رغم أنّها تمتعت بحضور أكبر وإمكانية مشاركة أوسع في التسلسل الهرمي للسلطة وصنع القرار السياسي في دولة-مدينة أثينا الكلاسيكية، فإن العنصر المهيمن في هيكل السلطة السياسية فيها كان ولا يزال ملّاك العبيد والتجار الأثرياء النافذين. ولم تكن الآليات التي أطلقها بريكليس تحت مسمّى «الإصلاحات»، والتي هَدَفت إلى توسيع وتعميق الديمقراطية، سوى إجراءات زادت بدرجة محدودة فقط من هامش الحركة والمشاركة السياسية للفئات الوسطى. أمّا هذا التوسّع في المشاركة والحراك السياسي لهذه الشرائح، فلم يؤدِّ إلى أيّ تغيير جوهري أو أساسي في بنية السلطة السياسية الأثينية. بل كان أشبه بعرض ديمقراطي مزيّف يهدف إلى إرضاء الفئات الوسطى وطمأنتها، دون أن يمسّ أو يُلحِق ضررًا بالهيمنة المطلقة لمالكي العبيد والتجّار وسائر الأثرياء المسيطرين على النظام السياسي والمدني في أثينا.

في عام ٤٤٣ ق.م، قام بريكليس بنفي ثوقيديدس من أثينا. وخلال سنوات العقد الرابع من القرن الخامس قبل الميلاد، واستغلالًا للفرصة التي أتاحها السلام مع إسبرطة، شرع في تنفيذ مشروع إعادة إعمار أثينا. خلال هذه الفترة، شهدت المدينة حركةً هائلة من النشاط، تمحورت حول تشييد المعابد الضخمة، وبناء المباني المختلفة، ونحت التماثيل والمجسّمات، إلى جانب إنتاج الأعمال

التصويرية والفنّية. لكنّ جوهر هذا الحراك الفنيّ العظيم كان بلا شكّ العمارة. فقد كانت الحقيقة أنّ أثينا وبريكليس أرادا، من خلال هذا الإنتاج الفنيّ الواسع النطاق، أن يجسّدا روح الميتافيزيقا الكَونَويّة اليونانية (في صورتها الكلاسيكية التي تجلّت في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد) في كلّ أرجاء المدينة، لتظلّ حيّةً خالدةً للأجيال القادمة.

«كانت أعظمُ ثمرةٍ لهذه الجهود برنامجَ تشييدٍ واسعٍ شمل المعابدَ والتماثيلَ والبوابةَ التاريخيةَ لمدخل أكروبوليس أثينا. في هذه الفترة، لم يكن مجمعُ الأكروبوليس، الذي يضمُّ معبدَ البارثينون الشهير المكرَّس للإلهة أثينا، مجردَ إنجازٍ معماريٍّ وفنيٍّ فحسب، بل كان رمزًا لقوة الإمبراطورية الأثينية، وتذكيرًا لسائر المدن ولغير اليونانيين بأنّ أثينا لا تُقهر وتحظى دومًا بعناية الآلهة وبركتها. غير أنّ التاريخ أثبت أنّ أثينا، كسائر المدن والدول الأخرى، لم تكن عصيَّةً على الهزيمة إلى ذلك الحدّ... كان أولُ ما يواجهه أيُّ زائرٍ للأكروبوليس هو المدخلُ المهيبُ المتمثلُ في «البروبيلايا». وقد قام المعماريُّ «منيسكليس» بتصميمه وبنائه بين عامي ٤٣٧ ق.م و٤٣٢ ق.م. تألّف هذا البناءُ من ساحةٍ واسعةٍ تتوسطها قاعةٌ ذاتُ ثلاثة ممرّات، وكانت خمسُ بواباتٍ تفضي إلى خمسةِ سلالمَ تؤدّي إليها، باستثناء البوابةِ الوسطى التي كانت تُفضي إلى منحدر. كان «البروبولايا» مزيجًا من الطراز الدوري والتصميم الأيوني الأكثر رِقّةً... وكان الطراز الأيوني – الذي نادرًا ما شوهد سابقًا في غرب بحر إيجة – تذكيرًا بادّعاء أثينا أنّها المؤسِّسة والقائدة لجميع الدول–المدن الأيونية في غرب آسيا الصغرى. هذا الطراز كان يجمع بين الأروقة المدخلية ذات الأعمدة الستة على الطراز الدوري، التي كانت تخلق توازنًا بين الداخل والخارج، والأعمدة الفاصلة بين القاعات، التي جاءت

على الطـراز الأيوني، إلى جانب الرواق الخارجي للشـارع الممتـدّ حتى البوابةِ المركزية، حيث اصطفّت الأعمدة من ذات الطراز. نظرًا إلى كون الأكروبوليس المحـورَ البصريَّ والمركزَ الطقسيَّ لهـذه الدولة-المدينة، فقد غدا مسرحًا لأفخم الإنجازات العمرانية. كان المعبدُ البارثينونيُّ الأصليُّ وسـائرُ المعابدِ الأخرى في هذه القلعة قد دُمّرت عام ٤٨٥ ق.م، عندما احتلَّها الفرس لفترةٍ وجيزة، ولذلك أُعيد بناؤها بتشييداتٍ أشـدَّ روعةً وعظمةً. من خلال العمل اليوميّ والمستمرّ عامًا بعد عام، اسـتطاع جيشٌ من المعماريين والنحاتـين والنجارين وحجّاري الحجـارة تحويلَ الكتـل الصخرية الرمادية غير المشـذّبة إلى مشـاهدَ مبهرةٍ من حيث الشكل واللون. كتب «جان كرو» عن مجمّع الأكروبوليس قائلًا: «إنه قلبُ وروحُ ما تبقّى من العصر الذهبيّ لفنّ اليونان». بدأ تشـييد البارثينون في العقد الرابع من القرن الخامس قبل الميلاد، وأُكمِل عام ٤٣٨ ق.م. كان هذا المعبد من تصميم المعماري «إيكتينـوس» والنحّات «فيدياس»، وبلغ طوله ٧٢.٢٣ مترًا، وعرضـه ٣٣.٥٣ مترًا، وارتفاعه ١٨.٢٩ مترًا، وقد اسـتُخدم في بنائه أكثر من ٢٢ ألف طنٍّ من الرخام الفاخر. في داخل المعبد، نُصب تمثالٌ هائلٌ للإلهة أثينا، بينما وُضعت خارجه عـدة مذابح حجريةٍ كان المواطنون يؤدّون عندها طقوسَ عبادتهـم للإلهة. كان البارثينون، في آنٍ واحد، بسـيطًا وفخـمًا، يجمع بين تحفظٍ معتدلٍ وجرأةٍ لا تعرف التردّد، مما جعله تجسـيدًا بصريًّا للروح الأثينية الفريدة. وفي الربع الغربيّ من المدينة، حيث كان يمكن رؤيته بوضوحٍ من الأكروبوليس، شُيّد معبد هيفايستوس، إله الحِرَف والصناعة، والإلهة التي كان يُعتقد أنّها حدّادة الآلهة»[١].

١. م. ن، ٧٨ - ٨٢.

إنّ إعادةَ إعمارِ أثينا، التي كانت عمليةً باهظةَ التكاليف، قد تحقّقت أساسًا على حساب استغلال العبيد بوحشيّة وظلم، واستغلال الفقراء الأثينيين بشكل مكثّف، بالإضافة إلى النهب والسطو الواسع النطاق الذي دمّر حياة العبيد وأهل المدن اليونانية الأخرى (المدن التي كانت خاضعةً بشكلٍ أو بآخرَ لهيمنةِ أثينا). وبفضلِ هذا الإعمار، تحوّلت أثينا إلى مدينةٍ زاخرةٍ بالفخامةِ والجمال، وفقًا لمعاييرِ الفنِّ الوثنيِّ ذي الطابعِ المتافيزيقي-الكَونَويّ، ذلك الفنِّ الذي كانت أثينا بحقٍّ رائدةً فيه ومركزَه الأساسيّ.

إنّ المشهدَ العمرانيَّ لأثينا بعد إعادة إعمارها، الذي عكَسَ روحَ متافيزيقا الكَونَويّةِ بوضوحٍ أكبرَ ممّا كان عليه في الطرزِ المعماريةِ وأنماطِ التخطيطِ الحضريِّ السابقة، كان في الوقت نفسهِ منجزًا على أيدي الفنانينَ والصنّاعِ خلالَ عهدِ الإمبراطوريةِ الأثينية، ونُفِّذ تحديدًا بهدفِ تحقيقِ الصورةِ الكلاسيكيةِ للميتافيزيقا الكَونَويّةِ اليونانيةِ وتجسيدِها واقعًا، وذلك تحت إشرافِ وإدارةِ السياسيينَ في الدولةِ الاستعماريةِ الاستبداديةِ القائمةِ على العبوديةِ في أثينا. وقد جعلَ هذا الواقعُ، أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، البنيةَ الملموسةَ لأثينا غارقةً في فضاءِ الغفلةِ والعدميةِ الوثنيةِ ذاتِ الطابعِ الكَونَويّ، على الرغم من أنّ هذه البيئة المشبعة بغبار الشرك والغفلة والضلال كانت تبدو جذّابة وجميلة ومطلوبة جدًّا للمؤرخين والفنانين والنقاد الفنّيين المنتمين إلى تاريخ الغرب والحداثة. ويل ديورانت يروي قصةَ إعادةِ إعمارِ أثينا خلالَ عهدِ بريكليس على النحوِ الآتي:

«كانت أتيكا، في القرن الخامس قبل الميلاد، الرائدةَ في عمومِ اليونانِ من حيثُ وفرة وكمال إنجازاتها المعمارية. فالطراز الدوري، الذي كان في المناطقِ الأخرى يُبرز هيئاتٍ ضخمةً ومتينة، اكتسبَ هنا رشاقةً ورقّةً أيونية، حيثُ

أُضيف اللونُ إلى الخطوط، والزخرفةُ إلى النظامِ والتناسق. أولئك الذين غامروا بالسفرِ عبر البحرِ وابتعدوا عن ديارهم، شيّدوا على جُرفٍ شاهقٍ في «سونيون» معبدًا للإله «بوسيدون» [إله البحارِ والمحيطاتِ في الأساطيرِ اليونانية]، ولا تزالُ منهُ إحدى عشرةَ عمودًا قائمةً إلى اليوم. بلغت تكلفةُ بناءِ البارثينون سبعمئةِ تالنت (ما يعادلُ ٣٢٠٠٥٥٥ دولارًا)، بينما قُدّرت قيمةُ تمثالِ «أثينا بارثينوس» (الذي كان يُعَدُّ في الوقتِ نفسهِ مخزونَ الذهبِ في أثينا) بنحوِ ٦٠٠٠٠٠ دولار. كما أُنفِقَ مبلغٌ يعادلُ ٢٣٠٠٠٠٠ دولارٍ على بناءِ «البروبولايا» غيرِ المُكتمل، في حينِ خُصِّصَ مبلغٌ يصلُ إلى ١٨٠٠٠٠٠٠ دولارٍ لإنشاءِ المباني الأصغرِ في أثينا وبيرايوس خلالَ عهدِ بريكليس. أما تكاليفُ النقوشِ والزخارفِ، فقد بلغت ١٦٢٠٠٠٠٠ دولار. وبالمجمل، أُنفِقَ خلالَ ستةَ عشرَ عامًا، أي بين عامي ٤٤٧ ق.م و٤٣١ ق.م، ما مجموعهُ ٥٧٦٠٠٠٠٠ دولارٍ على تشييدِ المباني العامةِ والتماثيلِ واللوحاتِ الفنّية... كانت إعادةُ إعمارِ الأكروبوليس أفضلَ وأهمَّ ما تبقّى للمعماريّينَ في عصرِ بريكليس». كان الأكروبوليس، منذ القِدَم، مقرَّ الحكمِ في أثينا ومركزَ شؤونها الدينية. وفي عهدِ بريكليس، شيّد الفنانون على السفحِ الجنوبيِّ الغربيِّ للأكروبوليس «أوديونًا»، أو قاعةً موسيقية، تميّزت بينَ مباني أثينا بقبتها المخروطيةِ الفريدة. في هذه القاعة، كان الموسيقيونَ والعازفون يُقدّمونَ ألحانَهم للمستمعين، كما كانت تُعرَضُ فيها المسرحياتُ الديونوسوسية. وفوقَ درجاتِ الأكروبوليس، شيّد «منسيكليس» مدخلًا فخمًا على طرازِ بواباتِ موكينا، يضمُّ خمسَ مداخلَ أصغر، وكانَ أمامَ كلٍّ منها رواقٌ ذي أعمدةٍ مشيّدةٍ على الطرازِ الدوريّ. بعد ذلك، وبسبب هذه الأروقة ذات الأعمدة، اشتهر هذا البناء بأكمله باسم «بروبولايا» أو «أمام البوّابات»... في عام ٤٧٧ قبل الميلاد، شرع

«إيكتينوس»، بمعاونة «كاليكراتس» وتحت إشراف «فيدياس» و«بريكليس»، في بناء معبد جديد لأثينا بارثينون. كان هذا البناء على الطراز الدوري الخالص وتميّز ببساطة المباني في العصر الكلاسيكي. كان مخطّطه مستطيلًا، إذ إنّ الإغريق لم يولوا اهتمامًا بالأشكال المستديرة أو المخروطية، ولذلك لم يكن القوس شائعًا في العمارة اليونانية. وكما هو معلوم في علم الفيزياء، فقد كانت كل خط مستقيم في بناء البارثينون يحمل انحناءً طفيفًا، وكان كل جزء منه موجّهًا بدقّة هندسية نحو مركز معين. أما الزخارف التي زيّنت الإفريز، الذي كان يقع فوق القسم الأملس من الكتابة، فقد تكوّنت من صف واحد من الشقوق العمودية ذات الشكل المثلث، وكانت تتخلّلها على مسافات متساوية نقوشٌ مربعة الشكل. كان مدخل المعبد الداخلي تحت إفريزٍ يحمل نقوش الآلهة. وكان القسم الداخلي للمعبد صغيرًا نسبيًا، إذ احتلّته صفّان من الأعمدة الدورية التي كانت تحمل السقف، مما أدّى إلى تقسيم المعبد إلى صحن مركزي وممرّان جانبيّان. ولكن في النهاية الغربية، كانت أثينا بارثينون تبهر عيون عابديها ببريق الذهب الذي يكسو ثوبها، أو تثير فيهم الرعب برمحها ودرعها والأفاعي التي كانت تصاحبها. وراءه كانت تقع قصر العذارى، التي كانت تزينها أربعة أعمدة أيونية. وقد طُليت العديد من أجزاء المعبد بألوان زاهية، كالأصفر والأزرق والأحمر، فيما اكتسب الرخام ألوان اللبن والزعفران. أما جزء من النقوش وخلفيّة الإفريز وأخاديده العمودية، فقد اتّخذ لونًا أزرق، في حين كان لون خلفيّة النقوش المربّعة في الإفريز أحمر، أما الأشكال التي تخلّلتها فقد كانت بألوان متباينة. إنّ الشعوب التي اعتادت سماء البحر الأبيض المتوسط، تفضّل الألوان الزاهية أكثر من الألوان الداكنة، التي تتلاءم مع الأجواء الغائمة في شمال أوروبا... وكما هو

حـال كل النتاجات البشرية، لم يكن الفنّ اليوناني خاليًا من الخطأ أو النقص، إذ ركّز النحت فيه بشـكل مفرط على الجسـد، ولم يتناول الـروح إلا نادرًا. فنحن غالبًـا مـا نُذهل من كمال هذه التماثيل، لكنّنا لا نشـعر فيها بالحيـاة. أما العمارة اليونانية، فقد كانت تفتقر إلى التنوّع في الشـكل والأسلوب، إذ ظلّت على مدى ألف عام ملتزمة بالمخطط المسـتطيل البسـيط للقاعة الموكينية الكبرى. لقد كان الفنّ اليوناني هو الذي أوجد الأسـلوب الكلاسيكي، إذ كانت أسسه تقوم على النظام والشـكل، أي المحافظة على التـوازن في التصميم، وفي الوضعيّات، وفي الزخرفة، مع مراعاة التناسـب في الأجزاء، وتحقيق الوحدة في التكوين العام... لقد جسّد الفنّ اليوناني حياة العقل، وكان الأسلوب الكلاسيكي أكثر ما تميّزت به عطايا اليونان»[١].

لقـد حان الوقت الآن لإلقاء نظرة على خصائـص الفن اليوناني، والنظر في علاقته بالعقل اليوناني.

المؤلِّفات الأساسيّة للفنّ اليونانيّ

هل يُعَدّ الفنّ اليوناني تجسـيدًا للعقل كما يقول وِل ديورانت؟ لنبدأ بالكلام قليلًا حول مفهوم العقل اليوناني. إنّ «العقل» في معناه الأصيل والحقيقي حقيقةٌ وذاتٌ معنويّـةٌ مسـتقلّة، وهو متعلّق بعالم الذوات المجـرّدة. وكما هو الحال مع كثيرٍ من الذوات المجرّدة والماهيّـات التي تحضر وتتحقّق في عوالم أعلى من عالم الناسـوت، فإنّ «العقل» يُشـعّ بأنواره على الموجودات والبشر في سـاحة العالم الناسـوتيّ، بحيث يتلقّى الإنسان هذه الأنوار وفق الأفق الذي ينتمي إليه. فبناءً على الموقع التاريخيّ للأفراد والمجتمعات، سواءً كان ذلك في إطار التاريخ الدينيّ،

١. دورانت، يونان باستان، ٣٦٦ - ٣٦٨؛ ٣٧٠، ٣٧٢ - ٣٧٤.

أو تاريخ الشرق، أو تاريــخ الغرب، أو وفق العالَم الذي يجولون فيه ضمن هذه الآفــاق التاريخيّة، يواجه البشر أنوار العقل بطريقــةٍ ما، ويصبحون مُصغين إلى منطقه. إنّ الأرواح والأنفس البشريّة تتبع العالَم الذي تنتمي إليه، ومن ثمّ ينبغي عند الحديث عن العقل إدراك أنّه في أصله وحقيقته كيانٌ يتجاوز الإنسان، وذاته معنويّة. أمّا العقل البشريّ، ففي أفضل حالاته، إذا تمكّن الإنســان من التأمّل في أنوار العقل دون حجابٍ وسماع منطقه، فإنّه يكون مُصغيًا إلى الحقائق التي يبيّنها «العقل». إنّ تعاليم «العقل»، بوصفه ذاتًا معنويّةً مجرّدةً متعلّقةً بعالم الذوات، في السلسلة الطوليّة لنظام الخلق، تؤدّي دور الدليل والمرشد إلى التعاليم الوحيانيّة، ولا تتعارض معها بأيّ شكلٍ من الأشكال.

إنّ العقــل، بهذا المعنى، ذو ظهــورٍ تاريخيّ. وبعبارةٍ أدقّ، فإنّ الإنســان، في كلّ عــالَمٍ تاريخيّ، ينال نصيبه مــن أنوار «العقل» أو يُحرم منهــا أو يواجهها من خلف حُجُبٍ مختلفة، وذلك بحسب نسبته إلى عهد الأمانة (الولاية الإلهيّة). فإذا أصغى الإنســان إلى «العقل» من وراء حجابِ النَّفس الأمّارة، فإنّه لا يدرك من حقيقة «العقل» شــيئًا، بل يجد نفسه محاورًا لصورةٍ من «النكراء»، ولا يحصد من ذلك سوى الضلال. إنّ «العقل» لا يُضلّ الإنسان، ولكن حينما تُسدل الحُجُب المختلفة، وعلى رأسها حجاب الذاتانيّة، على قلب الإنسان وسمعه وبصره، فإنّ أنوار «العقل»، مهما اشــتدّ إشراقها، لا تصل إلى الإنســان، وحينها لا يجني من مواجهته لها سوى ثمرة الضلال. وهذا راجعٌ إلى حالة الاحتجاب والغفلة التي تلازم الإنسان الغارق في الذاتانيّة.

إنّ الإنســان اليوناني أصغى إلى رســالة «العقل» من وراء حجاب الكَونَويّة والماديّة الدنيويّة، فلم يكن حاصل ذلك ســوى التفكــير الميتافيزيقيّ الكَونَويّ.

وكلّما توسّع هذا التفكير الميتافيزيقيّ الكَونَويّ اليونانيّ وتفصّل، ازداد تطرّفه وتعمّقت مراتب ضلاله، وازداد بُعده واحتجابه عن الحقّ والحقيقة. والإنسان الذي كان أسيرًا للكَونَويّة تلقّى ماهيّةً يمكن تسميتها بـ«العقل الكَونَويّ» أو «العقل اليونانيّ». إنّ العقل الكَونَويّ هو الذي قوامه الميتافيزيقا اليونانيّة، وهو لا يدّعي بأيّ حالٍ أنّه دليلٌ يرشد الإنسان إلى الحقّ والدين والعدل والقرب الإلهيّ. بل على العكس، فإنّ العقل اليونانيّ يدعو الإنسان إلى ولايةٍ طاغوتيّةٍ تُدعى «الكون» (الكاسموس). وعقل اليونان قائمٌ على نفي الوجود الحقيقيّ، ويبحث عن مثاله السياسيّ والمدنيّ في نموذج «البوليس» اليونانيّة، لا سيّما في صورتها الكلاسيكيّة. إنّ العقل اليونانيّ هو المُقوِّم للشِّرك الكَونَويّ، إذ يجعل حقيقة الإنسانيّة تابعةً للبوليس ومتعلِّقةً بها. والحقيقة أنّ العقل اليونانيّ ليس «عقلًا» على الإطلاق، بل هو مجرّد تصوّرٍ محجوبٍ ومشوَّشٍ ومختلطٍ بوهمٍ وغفلة، وهو الصورة التي بلغها الإنسان اليونانيّ من وراء حجاب دنيويّةٍ شركيّةٍ نافيةٍ للوجود الحقيقيّ. هذا الذي يُسمّى «العقل اليونانيّ» ليس سوى أداةٍ للضلال، إذ يعمِّق حالة الغفلة ويُرسِّخ الأسر في الحجاب الشركيّ الكَونَويّ. لكنّ الإنسان اليونانيّ، لشدّة استغراقه في سجن اللّاعقلانيّة، لا يدرك أنّ ما يسمّيه «عقلًا» ليس العقل الحقيقيّ، أي «عقل الهداية»، وإنّما هو في حقيقته صورةٌ من الغفلة والجهل والضلال، ظهرت له بهيئة العقل.

إنّ الفنّ اليونانيّ، كغيره من شؤون ومظاهر العالَم اليونانيّ، ذو ماهيّةٍ كونَويّةٍ، وهو يسعى، في جوهره، إلى إعادة تمثيل النِّسَب والعلاقات والنُّظم التي يُصوِّرها التفكير اليونانيّ عن الكون، مستلهمًا منها في أعماله الفنيّة. ومن هنا، فإنّ التركيز على النُّظم والتناسب وبعض الأطر الهندسيّة والرياضيّة يظهر بوضوحٍ في الفنّ

اليونانيّ. ويبدو أنّ هذه الميزة، أي إبراز النَّظم والعلاقات والنِّسَب العدديّة والهندسيّة، هي التي دفعت بعض المؤرّخين، ومن بينهم وِل ديورانت، إلى الادّعاء بأنّ «الفنّ اليونانيّ تجسيدٌ للعقل». وعند البحث في المؤلِّفات الأساسيّة للفنّ اليونانيّ، قد يكون من الممكن إدراج الخصائص التالية:

١. إنّ الفنّ اليونانيّ ذو جوهرٍ علمانيٍّ (علمانيّة كونويّة). وأفقه أفقٌ ناسوتيّ.

٢. السمة البارزة في الفنّ اليونانيّ هي تأكيده على النَّظم والحرص على مراعاة تناسباتٍ هندسيّةٍ خاصّةٍ في الأعمال الفنيّة.

٣. قد يكون مركز الفنّ اليونانيّ هو العمارة، وإلى حدٍّ ما، فنّ النحت. فالعمارة اليونانيّة تقوم على نوعٍ من النَّظم الإقليديسيّ والمنطقيّ، وهي تجسيدٌ ماديٌّ ومرئيٌّ للميتافيزيقا الكونويّة الكلاسيكيّة اليونانيّة. ويمكن إدراك الروح العلمانيّة الكونويّة لليونان في التجلّيات العينيّة المتجسّدة في الأعمال المعماريّة. إنّ الروح الشركيّة للميتافيزيقا الكونويّة اليونانيّة تتجلّى في المعابد والمباني والآثار والمظاهر المعماريّة اليونانيّة، حيث تتحقّق من خلال اعتماد النظام الهندسيّ الإقليديسيّ.

٤. تحتلّ المعابد مكانةً خاصّةً بين الأعمال المعماريّة اليونانيّة. فتصميمها المعماريّ يُبرز بوضوحٍ الروح الدنيويّة والعقلانيّة الصارمة (أي العقلانيّة المتوافقة مع الميتافيزيقا الكونويّة الكلاسيكيّة اليونانيّة)، كما يُجسِّد تأثيرات الرياضيّات والهندسة الإقليديسيّة اليونانيّة. إنّ سيطرة النزعة الظاهريّة والاهتمام بالمظهر الجسديّ في عمارة المعابد اليونانيّة فرضت عليها طابعًا ناسوتيًّا خالصًا. وغالبًا ما تكون المعابد اليونانيّة خاليةً من أيّ بُعدٍ متعالٍ أو قدسيٍّ أو ملكوتيّ، ممّا يجعل الحضور في فضائها تجربةً تغرق الإنسان في تأثيرات البهرجة والتألّق الدنيويّ والناسوتيّ، بدلًا من أن تمنحه سكينةً أو طمأنينةً أو تجربةً روحانيّةً تأمّليّةً.

وهكـذا، فإنّ الحضور في المعابد اليونانيّة يُبعد الإنسـان تمامًا عن أيّ صورةٍ من صور الخلوة المعنويّة.

٥. يمكن ملاحظة التصوّر الكونـويّ للفنّ اليونانيّ بوضوحٍ في عمارة معبد البارثينـون. ففي تصميمه المعـماريّ، تمّ تحديد جميع التناسـبات وفقًا لدورات النجـوم والأفلاك، وبالاعتماد على التصوّر الفلكيّ اليونانيّ لنظام العلاقات بين الأجرام السـماويّة. ويُحاول هذا التصميم إيهام الناظر بـأنّ معبد البارثينون هو تجسيدٌ أرضيٌّ مكوَّنٌ من التراب والحجر والرخام والجير، يُحاكي الكون.

٦. يعكس فنّ النحت اليونانيّ أيضًا الرؤية الناسوتيّة-الكونويّة التي تميّز هذا الفـنّ. فالتّماثيل التي صنعها النحّاتون اليونانيّون تسـعى، في الغالب، إلى إبراز الكمال الجسديّ والقوّة الحيويّة الناسوتيّة في التمثال البشريّ. ولا تتميّز التماثيل اليونانيّة عادةً بسماتٍ فرديّةٍ بارزة، بل تهدف، بالأحرى، إلى تجسيد صورة الإنسان النموذجيّ وفق التصوّر اليونانيّ. وأشـهر نحّاتي اليونان في العصر الكلاسيكيّ هو فيدياس.

فيدياس والديمقراطية الأثينيّة الكلاسيكيّة

مـن هو فيدياس؟ كان فيدياس ابن رجلٍ احترف فنّ الرسـم، وقد نقل إليه شغفه بهذا الفنّ. في شـبابه، تتلمذ على يد الرسّام «بولوجنوتوس»، حيث تعلّم منه أصول التصميم وكيفيّة توزيع العناصر داخل اللوحة بطريقةٍ مؤثّرة. غير أنّه، بعد مدّةٍ، هجر فنّ الرسـم واتّجه إلى النحت. قصـد «أجيلاداس» فتعلّم منه فنّ البرونز، ثمّ كرّس حياته للنحت، حتّى أصبح مع مرور الزمن واحدًا من أشـهر النحّاتين وأكثرهم كفاءة.

في عـام ٤٣٨ قبل الميلاد، بدأ فيدياس في نحت تمثـال «آتينا بارثينوس». في

ذلك الوقت، كان شيخًا متقدّمًا في السنّ، ويُقال إنّ ملامحه، التي نقشها على درع التمثال، كانت تعكس معاناته وتجارب حياته. صنع فيدياس ثلاثة تماثيل للإلهة «آتينا» لصالح الأكروبوليس. الأوّل هو «آتينا ليمْنوس»، الذي نحته بتكليفٍ من الأثينيّين المقيمين في ليمْنوس، والثاني «آتينا برومَاخوس»، وهو تمثالٌ برونزيٌّ وضعه بين بوّابة «البروبيلْيا» ومعبد «إريختيوم»، أمّا الثالث، وهو الأشهر بينها، فهو «آتينا بارثينوس»، الذي وُضِع داخل معبد البارثينون. وقد صُنع هذا التمثال من الذهب والعاج.

كان فيدياس في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد واحدًا من مشاهير الفنّ اليونانيّ، ومن أبرز رموز الفنّ الميتافيزيقيّ الكلاسيكيّ الكونويّ في تاريخ الغرب. كان صديقًا لبريكليس وشاركه في أفكاره ورؤاه. وكما كان بريكليس، بصفته رجل سياسة، تجسيدًا لروح الاستكبار والعدوانيّة والوحشيّة والنزعة الحربيّة للإمبرياليّة الأثينيّة وللديمقراطيّة الكلاسيكيّة التي قامت على العبوديّة، كان فيدياس، في مجال النحت، مظهرًا للفكر الشركيّ العدميّ الكونويّ اليونانيّ. أدّت علاقة فيدياس الوثيقة ببريكليس وصِلاته بالديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة إلى تعرّضه لهجوم معارضي هذه الديمقراطيّة، فاتّهموه بسرقة جزءٍ من الذهب والعاج الذي وُضع تحت تصرّفه لصنع تمثال «آتينا بارثينوس». عُرضت قضيّته أمام المحكمة، وسُجن لفترة، ثمّ افتداه أنصاره بدفع مبلغٍ ماليٍّ لإطلاق سراحه. بعد ذلك، توجّه فيدياس إلى أوليمبيا، حيث طلب منه سكّان تلك البوليس أن ينحت تمثالًا للإله زيوس، فقام بصنع التمثال الشهير «زيوس الجالس»، الذي بلغ ارتفاعه ثمانية عشر مترًا. لا توجد معلومات دقيقة عن السنوات الأخيرة من حياة فيدياس. يعتقد البعض أنّه عاد إلى أثينا وتوفّي في السجن، بينما يروي بعض المؤرّخين أنّه انتقل إلى إليس وأُعدم هناك عام ٤٣٢ قبل الميلاد. ويبدو أنّه، كما

لا تتوافر معلوماتٌ موثوقةٌ ودقيقةٌ عن طفولة فيدياس، فإنّ مصيره في سنواته الأخيرة يظلّ كذلك غير واضحٍ تمامًا وغامضًا.

أحدث فيدياس، في فنّ النحت اليونانيّ، أسلوبًا يُمثّل إلى حدٍّ بعيد تجلّي روح الميتافيزيقا الكونويّة الكلاسيكيّة اليونانيّة، ولكن في مجال فنّ النحت. ومع انطفاء شعلة الديمقراطيّة الكلاسيكيّة اليونانيّة وانحدار أثينا نحو التراجع والانحطاط، وهي التي كانت الممثّل الأساسيّ لهذه الديمقراطيّة، بدأ أسلوب فيدياس يفقد مكانته، ولم يعد يحظى بالاهتمام ذاته، حتّى وقع في طيّ النسيان.

البنية السياسيّة لأثينا في العصر الكلاسيكيّ خلال السنوات الأخيرة قبل حرب البيلوبونيز

في السنوات الأخيرة التي سبقت حرب البيلوبونيز، وتحديدًا خلال العقد الممتدّ بين عامي ٤٤٠ و٤٣٠ قبل الميلاد، تحوّلت أثينا تدريجيًّا إلى نظامٍ استبداديٍّ قائمٍ على سلطة بيريكليس المطلقة. غير أنّ براعة بيريكليس تمثّلت في تنظيم استبداده الفرديّ بطريقةٍ تجعل من الهيكليّة الهرميّة للمؤسّسات الديمقراطيّة، التي كانت تشكّل الواجهة الرسميّة لحكم أثينا، تُقدّم صورةً جذّابةً عن ديمقراطيّةٍ واسعةٍ في نظر من كان بعيدًا عن أثينا أو لا يملك إلمامًا بآليّات عمل هذه المؤسّسات وطريقة ترتيبها وتنظيمها[1].

في النظام السياسيّ لأثينا الكلاسيكيّة، كانت السلطة الأساسيّة، نظريًّا، بيد المجلس العامّ، الذي كان يمتلك الحقّ في التدخّل واتّخاذ القرارات في جميع القضايا والمسائل المتعلّقة بالبوليس الأثينيّة. كان هذا المجلس هيئةً لم تكن مفتوحةً على نطاقٍ واسعٍ أمام الفئات الوسطى من المواطنين، بل كان أعضاؤه يتألّفون

1. King, Pericles.

في الغالب من تحالفٍ بين مؤيّدي مالكي العبيد والتجّار الأثينيّين الأثرياء، الذين مثّلهم بيريكليس لعقود. في العديد من الحالات، كان الخطباء وأصحاب الفصاحة البلاغيّة، وهم من الشخصيّات البارزة، يستميلون، من خلال قوّة خطابهم وقدرتهم العالية على الجدل والمناقشة، بعضَ الأفراد المنتمين إلى الفئات الوسطى من المواطنين الذين تمكّنوا من الوصول إلى المجلس العامّ، ممّا كان يؤدّي إلى استقطابهم إلى صفوفهم. على أيّ حال، فإنّ الحصيلة العامّة لقرارات هذا المجلس، على مدى أكثر من ثلاثة عقود، لم تكن سوى تأييدٍ للسياسات التي انتهجها بيريكليس، وترسيخٍ لسلطة مجموعته السياسيّة، وتعميقٍ للنموذج الديمقراطيّ الكلاسيكيّ الذي كان يتبنّاه.

من بين المؤسّسات الأخرى في بنية السلطة ضمن الديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة كان «الإكليزيا»، الذي كان مسؤولًا عن تعيين عشرة «ستراتيجوي»، أي القادة العسكريّين. وكان نشاط هؤلاء القادة العسكريّين خاضعًا لإشراف المجلس العامّ، الذي كان يمتلك، عند الحاجة، صلاحيّة تأديب أيٍّ منهم أو عزلهم أو حتّى محاكمتهم. يكتب بعض المؤرّخين، عند تقييم الديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة باعتبارها النموذج الأساسيّ والأرقى للديمقراطيّة اليونانيّة، ما يلي:

«عند تقييم الديمقراطيّة اليونانيّة القديمة، التي كانت في جوهرها ديمقراطيّة قائمةً على العبوديّة، ينبغي الحذر من المبالغة. ففي مجتمعٍ كان العبيد هم المنتجون الأساسيّون فيه، لم يكن المواطنون الأحرار إلّا جزءًا ضئيلًا من الطبقات الكادحة. وكان العبيد، المحرومون تمامًا من أيّ حقوقٍ سياسيّة، مسحوقين تحت وطأة المؤسّسات الحكوميّة التي كانت تُحطِّم أيّ محاولةٍ للمقاومة. وبهذا، فإنّ العبيد، الذين كانوا من دون شكٍّ أكثر عددًا من الأحرار في أثينا، كانوا

محرومين من الحقوق الإنسانيّة. أمّا النساء، اللواتي شكّلن ما يقارب نصف السكّان الأحرار، وكذلك الأجانب، فلم يكن لهم امتيازٌ سياسيٌّ يُذكر. ونتيجةً لذلك، لم يكن أكثر من سدس أو سبع سكّان أتيكا يتمتّعون بحقوقٍ اجتماعيّة ... لم تكن ديمقراطيّة أثينا تهدف إلى تحقيق الحريّة، بل على العكس، كانت قائمةً على فكرة التوسّع واستغلال العبيد الجدد والحلفاء الجدد. كانت أثينا تحصل على دخلها من الرسوم الجمركيّة، ومرافئها، وأسواقها، والقضاء، والتجارة، وتداول العبيد، وفرض الضرائب على الغرباء، فضلًا عن الممتلكات العامّة. في عهد بيريكليس، تراجعت النزعة الهجوميّة في السياسة الخارجيّة الأثينيّة إلى حدٍّ ما، غير أنّ السياسة التوسّعيّة التي غذّت حروبًا دمويّةً جديدة ظلّت قائمةً. تتميّز «الهجمة السلميّة» التي انتهجها بيريكليس بالأهداف التالية: تعزيز القوّة البحريّة لأثينا وتوسيعها عبر وسائل سياسيّة مثل الاتفاقيّات وغيرها، وتعميق نفوذ أثينا في الشرق والغرب ضمن العالَم اليونانيّ، وخصوصًا في بونت-أوكسين، وإيطاليا، وصقلية، عبر إبرام التحالفات. لم يكن الهدف من هذه السياسة تعزيز التجارة والقوّة العسكريّة الأثينيّة فحسب، بل ضمان التفوّق الأثينيّ داخل العالَم اليوناني أيضًا. وهكذا، تمّ إنشاء «الكلورُكيا»، وهي مستوطناتٌ كان سكّانها من مواطني أثينا، وقد أُقيمت لتوسيع الثقافة وأساليب الحياة الأثينيّة، فضلًا عن تحقيق المصالح الاستعماريّة لأثينا، فكانت بمثابة قواعد عسكريّة-ثقافيّة للإمبرياليّة الأثينيّة. بعد معاهدة السلام مع الفرس، استُقِرّ بهذه المستوطنات في خيرسونيز التراقيّة، وفي ليمْنوس وإمبروس، اللتين تتحكّمان في مدخل بونت-أوكسين، إضافةً إلى مصبّ ستريمون في تراقيّة، وهي منطقةٌ اشتهرت بثرائها بالموارد الطبيعيّة. كذلك، امتدّت هذه المستوطنات إلى أراضي الجماعات المتّحدة،

حيث كانت تُواجه أيّ محاولةٍ للتمرّد بإرسال وحداتٍ عسكريّةٍ قمعيّة»[١].

كان الاجتياح العسكريّ لساموس والتدخّل في النزاع القائم بين ساموس وميليتوس من قِبل بيريكليس، فضلًا عن قمع سكّان ساموس وحكومتها، بل حتّى تغيير طبيعة نظام الحكم فيها وإقامة نظامٍ موالٍ لأثينا في تلك البوليس عام ٤٤٠ ق.م، مثالًا واضحًا على الممارسات العدوانيّة التي قامت بها الكلورُكيا. عندما انتفض سكّان ساموس ضدّ النظام الموالي لأثينا وسَعَوا إلى استعادة نظامهم الأوليغارشيّ الديمقراطيّ القديم بدلًا من النظام الديمقراطيّ الكلاسيكيّ الذي كان يحاكي أثينا، أرسل بيريكليس جيشًا قمعيًّا أَثينيًّا لغزو ساموس. شنّت القوّات الأثينيّة حملةً عسكريّةً وحشيّةً لقمع الانتفاضة، فتوجّه بيريكليس بأسطولٍ ضخمٍ من السفن إلى ساموس وحاصر المدينة. وقد بلغ عدد السفن الحربيّة الأثينيّة التي فرضت الحصار على ساموس أكثر من مئتي سفينة. بقي سكّان ساموس تحت الحصار التامّ لمدّة تسعة أشهر، وانتهى بهم الأمر إلى الاستسلام. أجبر بيريكليس أهالي ساموس على هدم أسوار مدينتهم بأنفسهم، وتسليم سفنهم إلى الجيش الأثينيّ. كما فُرضت عليهم غراماتٌ باهظةٌ لصالح أثينا، وأُلزم جنودهم بالخدمة في الجيش الأثينيّ تحت قيادة ضبّاطٍ أثينيّين.

بعد الهزيمة الكاملة لساموس في الحرب عام ٤٣٩ ق.م، واصل بيريكليس تأسيس كلوروكيات جديدة على امتداد السواحل المختلفة. ومن الواضح أنّ هذه الإجراءات التوسّعيّة والطموحة والعدوانيّة التي قامت بها أثينا كانت تؤجّج غضب إسبرطة وحلفائها في البيلوبونيز، وتزيد من مخاوفهم وشكوكهم تجاه نوايا أثينا وأهدافها.

---

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان (يونان)، ١٢٣ – ٢٤؛ ١٢٧ – ٢٧.

في عهد بيريكليس، اعتبرت أثينا نفسها الممثّل الأساسيّ والناطق الرسميّ باسم الروح العلمانيّة-الكونويّة اليونانيّة، وحاملة راية الفكر الميتافيزيقيّ الكونويّ في جميع أنحاء اليونان، وقد كانت محقّةً في كلا الأمرين. نعم، كانت أثينا التجسيد الأبرز لروح العلمانيّة-الكونويّة الشركيّة التي ميّزت الغرب اليونانيّ، وكانت المركز الأهمّ للفكر والفنّ الميتافيزيقيّ الكونويّ اليونانيّ. في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد، بلغ الفكر الميتافيزيقيّ اليونانيّ، القائم على النظرة الطبيعيّة الطاليسيّة-الكسينوفانيّة، مرحلةً من التوسّع، وانتقل إلى مستوى الفكر السوفسطائيّ، ليأخذ بعد ذلك شكل الفكر الفلسفيّ، حيث حقّق ظهورًا جديدًا، ومرّ بمرحلةٍ مهمّةٍ من التفعيل والتفصيل والتوسّع. كانت أثينا في العصر الكلاسيكيّ، أكثر من أيّ بوليس يونانيٍّ آخر، التجسيد الأتمّ للنفي الوجوديّ المؤسّس (الكونويّ) وللروح الاستكباريّة والظالمة التي ميّزت عالَم الغرب اليونانيّ، وذلك في جميع مجالاتها وميادينها الوجوديّة، من الفكر والفنّ المعماريّ والنحت، إلى المسرح والأدب والتراجيديا، ومن التشريع والقانون، إلى النزعة العسكريّة والتوسّع الإمبرياليّ. سعى بيريكليس، بالتعاون مع المفكّرين المروّجين للميتافيزيقا الكَونويّة والديمقراطيّة الكلاسيكيّة، مثل إمبيدوكليس، وأنكساغوراس، وبروتاغوراس، إلى تنظيم مشروع الوحدة اليونانية يُعزّز نشر الثقافة والفنّ والفكر والنظام السياسيّ-الاقتصاديّ، ويعمّم الروح والجوهر اليونانيّ، مع جعل أثينا مركزه الأساسيّ. كان بيريكليس يطمح إلى وضع اليونان في موقع الهيمنة على العالم المعروف في زمانه، وجعل أثينا محور اليونان وحاكمتها. كان مؤمنًا بعمقٍ بتفوّق اليونان (وروح الغرب) على سائر الأمم والشعوب، كما كان يؤمن بتفوّق أثينا على سائر المدن اليونانيّة. لذلك، سعى إلى تحقيق هذا

الحلم المتوهّم والواهم لنظامٍ داعم للوحدة اليونانية تقوده أثينا، وإضفاء الواقعيّة والشرعيّة عليه.

حرب البيلوبونيز وآثارها المدمّرة

في عقد الثلاثينيّات من القرن الرابع قبل الميلاد، تصاعدت النزاعات بين المدن اليونانيّة إلى حدٍّ غير مسبوق، ممهّدةً الطريق لاندلاع حروبٍ كبيرةٍ ومدمّرة. وكان الخلاف المتزايد بين أثينا وإسبرطة، باعتبارهما القطبين الأساسيّين في عالَم الغرب اليونانيّ، يزداد شدّةً ويتعمّق أكثر فأكثر. يبدو أنّ التناقضات الجوهريّة التي كانت تحكم العالَم اليونانيّ الغربيّ، والتي تمثّلت خصوصًا في المساعي الاستعماريّة لأثينا الكلاسيكيّة وتصادمها الشامل مع إسبرطة والاتّحاد البيلوبونيزّي واختلاف أنماط حياتهم وأساليب سلوكهم، كانت تهيّئ الأرضيّة لانفجارٍ داخليٍّ من داخل الغرب اليونانيّ نفسه. وقد تحقّق هذا الانفجار في نهاية المطاف على هيئة حرب البيلوبونيز الطويلة، التي أسفرت عن دمار أثينا، ثمّ، بعد فترةٍ وجيزة، عن انهيار إسبرطة، ممّا أدّى إلى نهاية العصر «الذهبيّ» للحضارة اليونانيّة الكلاسيكيّة.

ليس من الخطأ اعتبار السياسات الاستعماريّة لأثينا السبب الرئيسيّ وراء دفع اليونان نحو الحرب. والحقيقة أنّ السلوك الظالم والإمبرياليّ الذي انتهجته أثينا تجاه سكّان الدول-المدن التابعة لرابطة ديليوس، التي كانت خاضعة لهيمنتها، وكذلك تجاه سكّان المدن اليونانيّة الأخرى، التي كانت إمّا تحت نفوذ إسبرطة أو متحالفةً معها، قد أثار موجةً عارمةً من الغضب والكراهية والنقمة ضدّ أثينا في مختلف أرجاء اليونان. كان العديد من اليونانيّين ينظرون إلى حكم أثينا بوصفه «استبداديًّا».

«المؤرّخ هـ. دي. إف. كيتو يكتب: «في ذلك الوقت، كان العالَم اليونانيّ قد

انقسم إلى شطرين: فمن جهة، كانت هناك إمبراطوريّة أثينا، التي كان الناس يصفونها علنًا بأنّها حكمٌ استبداديّ، ومن الجهة الأخرى، كانت إسبرطة، والاتّحاد البيلوبونيزي، وعددٌ من الولايات (وخاصةً في بيوتيا) التي كانت تتعاطف مع إسبرطة.» كان معظم اليونانيّين، بل وحتّى عددٌ كبيرٌ من حلفاء أثينا، يعتبرون طموح أثينا وعنفها السبب الرئيسيّ لتفاقم التوتّرات، لا سيّما عند النظر إلى الأحداث الأخيرة والمفاجئة آنذاك. قبل اندلاع الحرب بفترةٍ وجيزة، لخّص ممثّل كورنث المشاعر المعادية لأثينا في ذلك الوقت خلال خطابٍ ألقاه أمام زعماء إسبرطة، إذ وجّه اللوم إلى الإسبرطيّين على بطئهم في مواجهة أثينا، قائلًا: «لقد نبّهناكم مرارًا إلى أنّنا جميعًا سنتضرّر بسبب أثينا. نحن نعرف أسلوبهم، ونعلم كيف يبتلعون جيرانهم شيئًا فشيئًا... خلاصة القول، إنّ الأثينيّين لا ينعمون بالراحة لحظةً، ولا يسمحون لغيرهم بالراحة»[١].

ويل ديورانت يرى أيضًا أنّ السبب الأساسي لحرب البلوبونيز كان نموّ الإمبراطوريّة الأثينيّة، وفي الواقع، سياساتها التوسّعيّة:

«كان السبب الأساسيّ للحرب نموّ الإمبراطوريّة الأثينيّة وسيطرتها على الحياة السياسيّة والاقتصاديّة في منطقة إيجة. لقد تركت أثينا التجارة هناك حرّةً زمن السِّلم، غير أنّها اشترطت الطاعة وكسب رضا تلك الإمبراطوريّة. لم يكن لأيّ سفينةٍ أن تدخل مياه ذلك البحر من غير إذن أثينا. أمّا السفن التي كانت تُحمَّل بالحبوب والغلال من الموانئ الشماليّة، فكانت تُوجَّه فقط إلى الجهات التي يحدِّدها وُلاة الدولة الأثينيّة. وقد اضطُرَّت مدينة «ميثوني»، التي أصابتها المجاعة والجفاف وأرادت أن تستورد شيئًا من الغلّة والحبوب إلى أراضيها، إلى

١. ناردو، عصر پريكلس، ٩٤ - ٩٥.

أن تطلب الإذن من أثينا. الأموال التي دفعتها دول-مدن اليونان لمواجهة الفرس كانت تُنفَق على تزيين أثينا، بل كانت تُستخدم حتّى في حربها ضدّ المدن اليونانيّة الأخرى. ومع مرور السنين، كانت الضرائب تزداد ثِقَلًا. وأيّ قضيّةٍ يكون أحد طرفيها من مواطني أثينا، أو تتعلّق بالجرائم الكبرى، كان يجب أن تُعرض على محكمة أثينا. وإذا رفضت مدينةٌ الامتثالَ لحكم أثينا، فكانت تُجبر على الطاعة بالقوّة. وهكذا، قام بريكليس بقمع ثورات إيجينا (٤٥٧ ق.م)، وإيوبويا (٤٤٦ ق.م)، وساموس (٤٤٠ ق.م) بسرعة. وكما يُستفاد من كلام ثوقيديدس، فإنّ زعماء أثينا الذين رفعوا شعار الحرّيّة، واتّخذوا حرّيّة الأثينيّين هدفًا لسياستهم، كانوا يعترفون صراحةً بأنّ رابطة المدن الحرّة قد تحوّلت إلى إمبراطوريّةٍ قائمةٍ على القوّة والسطوة. يقول ثوقيديدس نقلًا عن «كلئون» في خطابه أمام المجلس عام ٤٤٧ ق.م: «يجب أن تتذكّروا أنّ إمبراطوريّتكم هي حُكمٌ استبداديٌّ على شعوبٍ لا تكفّ عن التآمر عليكم والتخطيط للقضاء عليكم. إنّ طاعتهم ليست لأنّهم لَقُوا منكم مودّةً، ولا لأنّكم تحمّلتم المشقّة والخسائر من أجل منفعتهم ورفاههم، بل إنّهم لا ينحنون إلّا لأنّهم يرونكم متسلّطين عليهم. ليس لديهم أيّ ولاءٍ لكم، والعامل الوحيد الذي يجعلهم مطيعين وخاضعين هو القوّة والإجبار». كادت جميع دول اليونان أن تقاوم سياسة أثينا. فقد سعت أثينا إلى ضمّ كورونيا إلى إمبراطوريّتها، غير أنّ بيوتيا وقفت في وجه قوّتها عام ٤٤٧ ق.م، وعملت على الدفاع عن كورونيا. ولجأت بعض المدن الخاضعة، إضافةً إلى مدنٍ أخرى خشيت من توسّع أثينا، إلى إسبرطة طلبًا للحماية. لكنّ الإسبرطيّين تجنّبوا الحرب، إذ كانوا يدركون جيّدًا قوّة الأسطول الأثينيّ وبراعة مقاتليه»[1].

١. دورانت، يونان باستان، ٤٩٣ - ٩٤.

كانت أثينا، بوصفها قوّةً إمبرياليّةً، ثمرةً وتجسيدًا للرّوح الاستكباريّة التي ميّزت الديمقراطيّة الكلاسيكيّة والميتافيزيقا الكَونويّة الكلاسيكيّة اليونانيّة. لقد انبثقت نزعتها المتوحّشة والعنيفة والتوسّعيّة والاستعماريّة من صميم ذلك العدميّة الكَونويّة الاستكباريّة، وهي النزعة الاستغلاليّة الظالمة التي فرضت حتّى على سُكّان البوليسات اليونانيّة نظامًا شبيهًا بالكابيتولاسيون لصالح أثينا. وعلى الرّغم من الضجّة والدّعاية التي يروّجها المؤرّخون الحداثيّون بشأن الديمقراطيّة اليونانيّة وما يُسمّى بـ«العصر الذهبيّ»، وما يدّعونه من أنّ اليونان كانت مثالًا للحرّيّة والعقلانيّة واحترام القانون في مواجهة ما يسمّونه بـ«الاستبداد الشرقيّ»، فإنّ الحقيقة هي أنّ أثينا وإسبرطة كانتا قوّتين استكباريّتين كَونويّتين، وقطبين إمبرياليّين قديمين. كانت الديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة (وكذلك الأشكال السابقة لها) ذات طبيعةٍ ظالمةٍ واستعماريّةٍ وتوسّعيّةٍ واستبداديّةٍ، وقد ارتكزت قواعد هيمنتها الجائرة على جريمةٍ واسعة النطاق، منظّمةٍ ومكتملة الأركان، بحقّ مئات الآلاف من العبيد، وجموعٍ غفيرةٍ من النّساء والأطفال المستضعفين والمظلومين. لقد بدأ تاريخ الغرب، الذي يحمل في باطنه جوهرًا عدميًّا واستكباريًّا، مع العالم اليونانيّ الاستعماريّ القائم على العبوديّة، واستمرّ عبر مختلف مراحله، حتّى يومنا هذا–حيث بلغ الغرب نهاية تاريخه وتعمّقت أزمته الانحطاطيّة–في مسارٍ متّصلٍ من الكفر والظّلم والجريمة، وفي درب العدميّة الظّلاميّة والاستكبار الظّالم.

يصف دياكوف كيفيّة اندلاع حرب البلوبونيز على النحو التالي:

«كان أوّل ذريعةٍ للحرب تدخّل أثينا في الصراع بين كورسير وكورينث على أبيدامن، المدينة التجاريّة الثريّة في الأدرياتيك. فقد دعمت أثينا كورسير

وأرسلت أسطولها لمواجهة الكورينثيّين. وكانت النتيجة الأساسيّة لهذا التدخّل انضمام كورسير، التي اشتهرت بثروتها الطائلة وقوّة أسطولها، إلى الاتّحاد البحريّ الأثينيّ، الأمر الذي زاد من حدّة العداء بين أثينا وكورينث. أمّا الذريعة الثانية، فكانت أيضًا متعلّقةً بكورينث. فقد كان سبب التصادم مدينة «بوتيدا» في شبه جزيرة خالْكيديك، وهي مستوطنةٌ أسّسها الكورينثيّون، لكنّها وجدت نفسها مضطرّةً إلى الانضمام إلى الاتّحاد البحريّ الأثينيّ، ما زاد من حدّة العداء بين أثينا وكورينث. وأمّا الذريعة الثالثة للحرب، فكانت قرار الجمعيّة العامّة الأثينيّة عام ٤٣٢ ق.م، الذي قضى بحظر دخول سكّان ميغارا، حليفة كورينث، إلى موانئ الاتّحاد البحريّ، الأمر الذي ألحق ضررًا قاسيًا لا يمكن تعويضه بسكّان ميغارا»[١].

في الواقع، كانت اليونان بأسرها في منتصف العقد الرابع من القرن الخامس قبل الميلاد أشبه بمستودع بارودٍ لا يحتاج سوى لشرارةٍ واحدةٍ كي يشتعل. ففي عام ٤٣٥ ق.م، اتّخذ الصراع السياسيّ-المدنيّ بين الفئات والشرائح الاقتصاديّة-السياسيّة المختلفة في جزيرة كوركورا طابعًا حادًّا وعنيفًا وصداميًّا. كانت كوركورا جزيرةً تقع على الساحل الشماليّ الغربيّ لليونان، وكانت منذ القدم من المستعمرات التابعة لكورينث وتخضع لسيطرتها. استغلّ أنصار الديمقراطيّة الكلاسيكيّة الحضور الفعّال للشرائح الوسطى وصغار الملاّك والتجّار متوسّطي الحال في الحراك الاحتجاجيّ، ونجحوا في توجيه هذا الحراك بما يخدم مصالحهم، مسرّعين به نحو تحقيق مطالبهم وإقامة شكلٍ من الديمقراطيّة الكلاسيكيّة. في المقابل، طلب أنصار الديمقراطيّة الأوليغارشيّة المساعدة من كورينث. غير أنّ

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان (يونان)، ١٣٣.

المحتجّين نجحوا في سحق الأسطول والقوّات التي أرسلتها كورينث والقضاء عليها. وردًّا على ذلك، أرسلت كورينث قوّاتٍ أكبر دعمًا لأنصارها الأوليغارشيّين في كوركورا، فما كان من زعماء الديمقراطيّة الكلاسيكيّة في كوركورا إلّا أن طلبوا العون من الإمبراطوريّة الأثينيّة. وفي عام ٤٣٣ ق.م، هزم الأسطول العسكريّ الأثينيّ مع المتمرّدين الكوركوريّين القوّات التي أرسلتها كورينث. عندئذٍ، لجأ الكورينثيّون إلى الملك أرخيداموس حاكم إسبرطة طلبًا للمساعدة، ولاموه بشدّةٍ على ما اعتبروه تهاونًا وتباطؤًا في مواجهة أثينا. لكنّ أرخيداموس، الذي كان على ما يبدو مدركًا للعواقب الكارثيّة التي قد تترتّب على نشوب حربٍ شاملةٍ في اليونان، سعى إلى تجنّب الانخراط في مواجهةٍ عسكريّةٍ مباشرةٍ مع أثينا قدر الإمكان.

في عام ٤٣٢ ق.م، تمرّدت بوتيدايا، وهي دولة-مدينةٌ في جزيرة خالْكيديك سكّانها من أصولٍ كورينثيّة، وكانت خاضعةً لدفع الجزية لأثينا، على سيطرة الأخيرة ورفعت راية الاستقلال. أرسل بريكليس قوّةً عسكريّةً إلى بوتيدايا وحاصرها، غير أنّ سكّانها صمدوا في وجه الضغط العسكريّ الأثينيّ وواصلوا مقاومتهم للحصار. سعت كورينث إلى مساعدة المحاصَرين في بوتيدايا، غير أنّ إخفاق القوّات التي أرسلها بريكليس في القضاء على الاستقلاليّين هناك أدّى إلى تقويض سمعة الجيش الأثينيّ بين اليونانيّين. وفي خضمّ هذه الأحداث، حاولت ميغارا تقديم العون إلى كورينث وسكّان بوتيدايا، فما كان من بريكليس، وقد اشتدّ به الغضب، إلّا أن فرض على ميغارا حصارًا اقتصاديًّا، ومنع دخول بضائعها إلى أسواق أثينا أو عرضها في أسواق أتيكا. عندئذٍ، ناشدت كلٌّ من كورينث وميغارا إسبرطة أن تتخلّى عن عدم تحرّكها، وأن تواجه أثينا مباشرةً.

طلبت إسبرطة من أثينا أن ترفع الحصار عن ميغارا، فردّ بريكليس بأنّه لن يفعل ذلك إلّا إذا سمحت إسبرطة لأثينا بإرسال بضائعها إلى أسواق إسبرطة ومناطق لاكونيا الأخرى ومزاولة التجارة هناك. كان واضحًا أنّ إسبرطة لن تقبل بهذا الشرط، إذ إنّ أساس اقتصادها ونمط حياتها كان قائمًا على عدم الانخراط في العلاقات الاقتصاديّة مع الدول-المدن والبوليسات خارج لاكونيا واتّحاد البلوبونيز. رفضت إسبرطة عرض أثينا، وطالبت بريكليس بأن يتخلّى عن سياساته التوسّعيّة والاستعماريّة، وأن يحترم استقلال المدن-الدول اليونانيّة. «دفع بريكليس سكّان أثينا إلى رفض مطالب إسبرطة، فردّت إسبرطة بإعلان الحرب»[١].

على الرغم من أنّ حرب البلوبونيز بدأت بهجوم إسبرطة على أثينا عام ٤٣١ ق.م، فإنّ الحقيقة هي أنّ أرخيداموس أبدى صبرًا وضبط نفسٍ كبيرين في مواجهة السلوك المتكبّر والتوسّعيّ لأثينا، وسعى، قدر الإمكان، إلى تجنّب الدخول في الحرب معها. حاول إقناع أعضاء اتّحاد البلوبونيز بعرض انتقاداتهم على أثينا، على أمل التوصّل إلى نوعٍ من التسوية السلميّة معها. لكنّ مجلس شيوخ إسبرطة تدخّل هذه المرّة بشكلٍ مباشرٍ، وفرض على أرخيداموس القبول بالحرب ضدّ أثينا. وقد أعلن المجلس أنّ الحصار والعقوبات التي فرضتها أثينا على ميغارا يمثّلان انتهاكًا لاتّفاقيّة السلام التي استمرّت لمدّة ثلاثين عامًا، وأنّه لم يعد من الممكن السكوت أمام طموحات أثينا التوسّعيّة وسلوكها العدوانيّ. وبناءً على ذلك، أجبر مجلس الشيوخ أرخيداموس على الدخول في الحرب ضدّ أثينا، وهكذا اندلعت حرب البلوبونيز في مايو عام ٤٣١ ق.م.

---

١. دورانت، يونان باستان، ٤٩٥.

في حـرب البلوبونيز، قادت أثينا تحالفًا ضـمّ العديد من المدن-الدول، مثل كوركورا، تساليا، ديلوس، ناكسوس، لمنوس، أندروس، العديد من المستعمرات الأثينيّـة في البحر المتوسّـط، ومدن إيونيا. في المقابل، كانت إسـبرطة على رأس تحالفٍ يضمّ كورينث، ميغارا، لوكريس، فوكيس، بيوتيا، وجميع مدن البلوبونيز باستثناء أرغوس.

قسّـمت هذه الحرب اليونان بأسرها إلى معسكرين متعارضين ومتحاربين. وعند اندلاعها، لم يكن أحدٌ يتوقّع أنّها ستسـتمرّ طويلًا بهذه الدرجة من العنف والدمـار. فقد كانت حـرب البلوبونيز مدمّرةً إلى حدٍّ أنّهـا، وبعد ربع قرنٍ من الـصراع الدامي، تركت اليونان منهكةً، ضعيفةً، محطّمةً، وعاجزةً عن النهوض من جديد. وهكذا، عندما تنفّست اليونان الصعداء بعد خمسٍ وعشرين سنةً من حرب البلوبونيز المُنهِكة والمُدمِّرة، لم تكن تملك القدرة على الدفاع عن استقلالها أمام الغـزو الخارجيّ. فسرعان ما خضعـت أمام تقـدّم المقدونيّين، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى استسـلمت أمام روما. لقد دفعـت الحرب الطويلة والمرهقة والمُدمِّـرة اليونان نحو هاويـة الانهيار والفناء. فبعد انتهائهـا، بدأ أوّلًا انحلال أثينا الكلاسـيكيّة، ثمّ بعد بضعة عقودٍ، جاء الدور على إسبرطة، إلى أن دخلت الحضارة اليونانيّة بأكملها في مسار الاندثار الكامل.

كانت استراتيجيّة إسبرطة في حرب البلوبونيز تعتمد على استغلال تفوّقها في القوّات البريّة والتقدّم داخل أراضي أثينا. في المقابل، سعى بريكليس إلى تحويل الحرب إلى صراعٍ اسـتنزافيّ، معتمدًا على قوّة الأسـطول الأثينيّ لضرب أراضي إسـبرطة وحلفائها. ووفقًا للاستراتيجيّة التي وضعها بريكليس، كان من المقرّر أن ينسـحب جميع سـكّان القرى والمدن الصغيرة في أتيكا إلى داخل أسوار أثينا

المحصّنة، في انتظار أن تتمكّن القوّات البحريّة الأثينيّة، عبر حربٍ طويلة الأمد، من إنهاك الإسبرطيّين وإخضاعهم.

وأثناء تقدّمهم نحو أثينا، وجد جنود إسبرطة القرى والأراضي مهجورةً، فقاموا بتدمير المزارع وإحراق المحاصيل. غير أنّ الأثينيّين كانوا متحصّنين خلف أسوار مدينتهم الطويلة، بينما كانت السفن تجلب لهم المؤن. في داخل أثينا، كانت طبقات التجار الميسورين والمتوسطين، بالإضافة إلى شريحة واسعة من الحرفيّين الذين كانوا في الغالب مؤيّدين للديمقراطية الكلاسيكية، يؤيّدون استمرار الحرب، إذ إنّهم اعتقدوا أنّ الانتصار على إسبرطة واتّحاد البلوبونيز سيؤدّي إلى القضاء على كورينث وميغارا، اللتين كانتا تُعتبران المنافسَين الرئيسيَّين لأثينا في التجارة والصناعة، ممّا سيمهّد الطريق أمام ازدهار أعمالهم. كانت هذه الفئات، إلى جانب جماعة أنصار القوّة البحريّة الأثينيّة، التي تبنّت الديمقراطيّة الكلاسيكيّة، تدفع باتّجاه استمرار الحرب، بقيادة بريكليس، الذي كان المعبّر السياسيّ الأساسيّ عن مصالحها.

في مواجهة بريكليس وأنصاره، وقف الأشراف مُلّاك الأراضي، بالإضافة إلى العدد الكبير من الفلّاحين الذين دمّر الإسبرطيّون منازلهم وحقولهم، وأجبروا على مغادرة قراهم واللجوء إلى أثينا خلف أسوارها الطويلة. هؤلاء كانوا يعارضون استمرار الحرب، إذ وجدوا أنفسهم مشرّدين، محاصرين داخل المدينة، بينما كانت أراضيهم تحترق تحت أقدام العدوّ.

استمرّ الجيش الإسبرطيّ في هجماته على القرى والأراضي الزراعيّة طوال صيف عام ٤٣١ ق.م. ومع حلول الشتاء، انسحب المهاجمون من أتيكا، وخرج الأثينيّون من ملاجئهم. غير أنّه في ربيع عام ٤٣٠ ق.م، عاودت القوّات البرّيّة

الإسبرطيّة هجماتها، فعاد سكّان أثينا، ومعهم جموعٌ كبيرةٌ من الفلّاحين وسكّان المناطق الأخرى في أتيكا، إلى داخل المدينة، ليحتموا مجدّدًا خلف أسوارها الطويلة، منتظرين حلول الشتاء. كان الأثينيّون على قناعةٍ بأنّ استراتيجيّتهم القاضية بتحويل الحرب إلى صراعٍ استنزافيٍّ طويل الأمد ستُنهك الإسبرطيّين في النهاية، وستقود إلى هزيمتهم. وربّما لو سارت الأمور وفقًا لما كان مخطّطًا له، لكانت استراتيجيّة بريكليس قد نجحت، ولانتهت الحرب بانتصار أثينا. لكنّ الأثينيّين واجهوا مشكلةً جسيمةً لم يكن لها حلّ، إذ ظهر مرضٌ وبائيٌّ قاتلٌ قلب موازين الحرب رأسًا على عقب: الطاعون، أو ربّما الملاريا.

أدّى إهمال بريكليس لمحنة الفلّاحين، ودمار القرى والحقول، وتدفّق أعدادٍ هائلةٍ منهم إلى أثينا، إلى تفاقم الأزمة. فقد ازداد عدد السكّان في المدينة بشكلٍ هائلٍ بسبب الهجرة القسريّة للفلّاحين، ما دفع الكثيرين إلى الإقامة في الأكواخ والسياجات، ونُصبت الخيام في الساحات والمعابد، وتحوّلت العديد من الأماكن إلى ملاجئ مؤقتة. وفي ظلّ هذه الظروف، حلّت الكارثة: تفشّى الطاعون. يُقال إنّ الطاعون انتقل إلى أثينا من مصر عبر ميناء بيرايوس. سرعان ما واجه عددٌ كبيرٌ من سكّان المدينة هجومًا مُرعبًا من هذا الوباء الفتّاك، ومع مرور الأيام، كان عدد المصابين يزداد بسرعةٍ مخيفةٍ. بدأت الأعراض بإحساسٍ بحرارةٍ شديدةٍ في الرأس، واحمرارٍ وتورّمٍ في العينين، بينما كانت ألسنة المصابين تكتسب لون الدم، ويعانون من قيءٍ متواصلٍ ورائحة نَفَسٍ كريهةٍ متعفّنةٍ. كان المرضى يتلوّون من آلامٍ مُبرّحة، وغالبًا ما كان مصيرهم الموت. أمّا القلّة التي نجت، فقد كانت تعاني من مضاعفاتٍ خطيرةٍ، إذ فقد بعضهم أيديهم أو أقدامهم أو أعضائهم التناسليّة أو أجزاءً أخرى من أجسادهم. أدّى الطاعون إلى وفاة نحو ثلث سكّان أثينا، ما أشاع الذعر في نفوس الأثينيّين. وأصبحت الكثافة السكّانيّة المرتفعة

بسبب توافد الفلّاحين عاملًا أساسيًّا في تفشّي المرض وانتشاره بسرعةٍ أكبر.

وجّه الأثينيّون غضبهم نحو بريكليس، وحمّلوه مسؤوليّة اندلاع الحرب وما تبعها من مجاعةٍ وكوارث. عزلوه من قيادة أثينا، ولم يكتفوا بذلك، بل اتّهموه بالاختلاس وقدّموه للمحاكمة. وفي خضم هذه الأحداث، أُصيب بريكليس نفسه بالطاعون.

بعد عزله، أدرك الأثينيّون أنّهم لا يملكون بديلًا عنه كقائدٍ سياسيٍّ وعسكريّ. وفي عام ٤٢٩ ق.م، فقد بريكليس شقيقته وولديه من زوجته الشرعيّة (غير أسباسيا) بسبب الطاعون. عندئذٍ، أعاد سكّان أثينا طلبهم منه أن يتولّى القيادة مجدّدًا، ولمواساته، ألغوا قانونًا كان هو نفسه قد وضعه، وبذلك اعتبروا ابنه من أسباسيا مواطنًا أثينيًّا يتمتّع بكامل حقوق المواطنة. غير أنّ المرض كان قد أضعف بريكليس بشدّةٍ، وكانت حالته تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ولم يلبث أن تُوفّي متأثّرًا بالطاعون. بموت بريكليس، انتهت بلا شكّ مرحلةٌ مفصليّةٌ في تاريخ اليونان، وتحديدًا بلغت الإمبراطوريّة الأثينيّة ذروتها الأخيرة قبل أن تدخل مرحلة الأفول والانحدار. لقد بدأت أزمة الغرب اليونانيّ فعليًّا منذ حوالي عام ٤٦٠ ق.م، وكانت الحرب المُدمِّرة للبلوبونيز، إلى جانب العديد من الأحداث التي سبقتها وتبعتها، جميعها نتائجَ وتَبِعاتٍ لهذه الأزمة الانحطاطيّة التي اجتاحت العالم اليونانيّ الغربيّ. يكتب ويل ديورانت عن عصر حكم بريكليس:

«بلغت أثينا في عهد بريكليس ذروة عظمتها. لكن أحد أسباب هذا الازدهار كان الثروة الطائلة التي جُمعت من المدن الحليفة دون رضاها، أمّا السبب الآخر فكان القوّة العسكريّة التي أثارت عداوةَ معظم الدول ضدّها. ولهذا، فإنّ العصر الذهبيّ لليونان لم يكن قائمًا على أسسٍ سليمةٍ ومتينة»[١].

١. م. ن، ٤٩٦.

أثينا: من وفاة بريكليس إلى الهزيمة في حرب البلوبونيز

«كان بريكليس يجسّد روح اليونان التي كانت في طريقها إلى الزوال، وكان موته، مثل بداية الحرب الكبرى، نقطة تحوّلٍ حاسمة»[١].

أدّى فقدان قيادةٍ كفؤةٍ إلى تعميق الأزمة السياسيّة في أثينا، إذ تفاقمت الصراعات بين الفصائل المختلفة وازدادت حدّة التنافس بين التيّارات المتصارعة. بعد وفاة بريكليس، واجه الأثينيّون سؤالًا مصيريًّا: هل ينبغي مواصلة الحرب أم إنهاؤها؟ في أثينا، برز تيّاران سياسيّان متعارضان بشأن مستقبل الحرب:

أ) الجناح الديمقراطيّ الكلاسيكيّ، بقيادة دبّاغٍ ثريٍّ يُدعى كلِيون، وبمشاركة أيوكراتيس، الذي كان يعمل في تجارة الحبال، وهيبربولوس، صانع المصابيح. كان هذا التيّار مؤيّدًا لمواصلة الحرب، وكان كلِيون، أبرز قادته، مشهورًا بفساده الماليّ بين الأثينيّين.

ب) الجناح الذي أطلق على نفسه اسم «المعتدلين»، والذي كان، في الواقع، يمثّل مصالح الطبقة المالكة للأراضي، بقيادة نيكياس. كان نيكياس رجلًا ثريًّا، يمتلك أعدادًا كبيرةً من العبيد، وكان أحد كبار ملّاك الأراضي في أثينا.

كان كلِيون وأنصاره مصرّين على مواصلة الحرب، بينما كان نيكياس ومؤيّدوه يطالبون بالصلح مع إسبرطة واتّحاد البلوبونيز.

يصف ويل ديورانت كليون بأنّه «أوّل حلقةٍ في سلسلة الديماغوجيّين» الذين «حكموا أثينا منذ وفاة بريكليس وحتى فقدانها استقلالها في معركة خيرونيا عام ٣٣٨ ق.م»[٢]. ومع ذلك، فإنّ كلِيون استطاع تحقيق نصرٍ عسكريٍّ بارزٍ في عام

---

١. ناردو، عصر پريكلس، ١٠٥.

٢. دورانت، يونان باستان، ٤٩٦.

٤٢٥ ق.م عندما واجه الجيش الإسبرطيّ بالقرب من بولوس في ميسينيا، وهو نصرٌ كبّد إسبرطة خسائر جسيمةً. كانت الضربة التي تلقّتها إسبرطة شديدةً إلى حدّ أنّها سارعت إلى تقديم عرضٍ للصلح، بل ووافقت، مقابل استعادة أسراها، على الانضمام إلى الاتّحاد الديلوسيّ الخاضع لهيمنة أثينا. لكنّ كلِيون وسكّان أثينا رفضوا العرض، وقرّروا مواصلة الحرب.

بعد فترةٍ وجيزةٍ، قُتل كلِيون خلال معركته ضدّ القائد الإسبرطيّ براسيداس عام ٤٢٢ ق.م. ومع مقتله، حاول نيكياس إقناع الأثينيّين بعقد هدنةٍ مع إسبرطة. من جهتها، كانت إسبرطة تواجه خطر تمرّد الهيلوتس داخل أراضيها، ما دفعها مجدّدًا إلى تقديم عرضٍ للصلح. وهكذا، تمّ إبرام اتفاقيّة السلام بين أثينا وإسبرطة عام ٤٢١ ق.م، والتي عُرفت بـ«صلح نيكياس»، نظرًا للدور الذي لعبه في التوصّل إليها. أعلن الطرفان أنّ مدّة هذه المعاهدة ستستمرّ خمسين عامًا، لكنّها لم تصمد أكثر من ستّ سنوات قبل أن تنهار مجدّدًا.

أدّى صعود ألكِيبِيادِس، وهو قائدٌ عسكريٌّ طموحٌ ومولعٌ بالحرب، إلى السلطة في أثينا، إلى جانب المساعي الاستفزازيّة لأثينا للسيطرة على المستعمرات الدوريّة في صقلية، وضغوط بعض حلفاء إسبرطة-مثل كورينث وطيبة، اللتين كانتا تضمران عداءً شديدًا لأثينا وتأملان في القضاء عليها عبر استمرار الحرب- إلى إشعال نيران حرب البلوبونيز من جديد.

من هو ألكِيبِيادِس؟ يُعدّ ألكِيبِيادِس من أكثر الشخصيّات غرابةً وإثارةً للجدل في تاريخ اليونان، بل وربّما في العالم القديم. كان والده، كلينياس، رجلًا ثريًّا، بينما كانت والدته من أقارب بريكليس. يبدو أنّ ألكِيبِيادِس كان يتمتّع بذكاءٍ حادّ، غير أنّه، منذ طفولته، عُرف بروحٍ متمرّدةٍ وعنيفة. كان في صباه

شابًّا وسيمًا وفصيح اللسان بطبيعته، وفي صغره، وُكِل إلى سقراط ليكون تحت إشرافه وتربيته، حيث كان عشيقًا له. لاحقًا، اعتُبر هذا الأمر، بطريقةٍ ما، ضمن «السوابق المشرفة» التي نُسبت إليه. يكتب ويل ديورانت عن تعلّق سقراط بـ ألكِيبِيادِس قائلًا:

«يبدو أنّ سقراط كان شديد التعلّق بهذا الشابّ، وكما يقول بلوتارخ: كان ألكِيبِيادِس أحيانًا ينخدع بملاطفة المتملّقين ويترك سقراط لينغمس في اللهو والملذّات. فكان سقراط يتبعه، كما لو كان يلاحق عبدًا هاربًا»[١].

كما يصف شخصيّة ألكِيبِيادِس بقوله:

«كان ألكِيبِيادِس رجلًا مولعًا بالترف والبذخ، وقد قيل عنه: كان محرّرًا من نداء الضمير ومن قيود الأعراف والتقاليد، ولم يكن للخوف مكانٌ في قلبه... انتهك مئات القوانين وأغضب مئات الأشخاص، لكن لم يكن هناك من يجرؤ على تقديمه للمحاكمة. كانت بائعات الهوى جميعهنّ مفتوناتٍ به. وقد رسم على درعه صورة إله الحبّ ولهب الصاعقة، وكأنّه أراد أن يُجسّد انتصاراته في عالم العشق بهذه الصورة»[٢].

وصل ألكِيبِيادِس إلى قيادة أثينا عام ٤٢٠ ق.م، وسرعان ما أعادها إلى الحرب ضدّ إسبرطة عام ٤١٨ ق.م. كان ألكِيبِيادِس صديقًا ومستشارًا مقرّبًا لـ بريكليس، وبعد وفاة الأخير، وكذلك بعد مقتل كلِيون، تولّى قيادة الجناح البحريّ، وهو التيّار المؤيّد للديمقراطيّة الكلاسيكيّة في أثينا. لقد جسّد ألكِيبِيادِس في حياته ونهجه الشخصيّ والسياسيّ روح التسلّط، والتوسّع، والماديّة الفوقيّة

١. م. ن، ٤٩٩.

٢. م. ن، ٤٩٩ – ٥٠٠.

التي اتّسمت بها الميتافيزيقا العدميّة الكَونويّة اليونانيّة. كان تلميذًا لـ سقراط، ومستشارًا سياسيًّا، وصديقًا مقرّبًا لبريكليس، وكان يشاطره أفكاره ورؤاه. غير أنّ حياته الشخصيّة كانت انعكاسًا لنهج اللذّة، والانفلات، والتفلّت من أيّ التزام أخلاقيّ. في كلٍّ من مسيرته الشخصيّة والسياسيّة، لم يكن للالتزام بالمبادئ الأخلاقيّة، أو الإيمان بالضمير وأحكامه، أيّ موضع أو اعتبارٍ لديه.

بالنسبة إلى ألكِيبِيادِس، لم يكن هناك شيءٌ أكثر أهميّةً من تحقيق طموحاته السلطويّة وتطلّعاته الشخصيّة نحو المجد. وبوصفه قائدًا عسكريًّا، وزعيمًا للجناح الديمقراطيّ الكلاسيكيّ، وصاحب القرار الأوّل في المدينة-الدولة الأثينيّة خلال السنوات الأولى من عقد ٤٢٠ ق.م، سعى إلى تحقيق مكاسب لصالح أثينا وديمقراطيّتها الكلاسيكيّة، إلى جانب تحقيق مجده الشخصيّ. يبدو أنّ ألكِيبِيادِس كان يمتلك قدرًا من الذكاء العسكريّ، وربّما شيئًا من العبقريّة الاستراتيجيّة، لكنّ الظروف السياسيّة في أثينا، إلى جانب أخطائه الجسيمة وسلوكه غير الأخلاقيّ في المجال السياسيّ، لم تمنحه الفرصة الكافية لإبراز هذا النبوغ وتحقيقه على أرض الواقع. في الحروب والفتوحات العسكريّة، وكذلك في تعامله مع النساء والأطفال في المدن التي سقطت تحت سيطرته، وفي معاملته للأسرى، أظهر ألكِيبِيادِس قسوةً بالغةً وسلوكًا دمويًّا إجراميًّا. ويكفي مثالٌ واحدٌ على ذلك: طلبه قتل جميع الرجال والصبيان في مدينة ميلوس، عقابًا لها على مقاومتها غزو أثينا.

نجح ألكِيبِيادِس في زرع الخلاف بين أعضاء اتّحاد البلوبونيز، حيث تمكّن من استمالة إليس ومانتينيا وأرغوس إلى جانبه، ما أدّى عمليًّا إلى تفكيك تحالف المدن-الدول ضمن ذلك الاتّحاد. قام ألكِيبِيادِس بتغيير الاستراتيجيّة العسكريّة

الأثينيّة، إذ تخلّى عــن نهج بريكليس القائم على الحرب الاســتنزافيّة والتحصّن خلف أسوار أثينا الطويلة، واتّجه إلى استراتيجيّةٍ هجوميّة، فوضع القوّات الأثينيّة في وضعيّــةٍ هجوميّةٍ فعليّة. تزعّم ألكِيبِيادِس حملةً عســكريّةً كبرى متّجهةً نحو سيراقوســة وصقلية بهدف إخضاعهما. وفي عام ٤١٥ ق.م، انطلق الأســطول الأثينيّ، تحت قيادته، نحو معركةٍ بحريّةٍ حاسمة. غير أنّ الجمعيّة العامّة الأثينيّة، رغم تكليفها ألكِيبِيادِس بهذه الحملة، قرّرت تعيين منافســه السياسيّ، نيكياس، قائدًا مشــاركًا معه. لم تمضِ ســوى أيّامٍ قليلةٍ على انطلاق الحملة، حتّى اندلعت قضيّــةٌ قانونيّةٌ ضــدّ ألكِيبِيادِس بتحريضٍ من خصومه السياســيّين، حيث اتُّهم بالإلحاد وإنكار الآلهة الرســميّة للدولة الأثينيّة. على إثر ذلك، استُدعي للمثول أمام المحكمة للمحاكمة.

اختــار ألكِيبِيادِس الهروب بدلًا من مواجهة المحاكمة، ففرّ على الفور وتخلّى عن القوّات الأثينيّة، ليحتمي في معســكر إســبرطة. في صفوف الإســبرطيّين، أصبح ألكِيبِيادِس مستشــارًا للملك الإســبرطيّ، وقدّم لهم نصيحةً استراتيجيّةً مهمّةً، إذ اقترح عليهم إرسال قوّةٍ عسكريّةٍ للسيطرة على ديكيليا في منطقة أتيكا، الواقعــة بالقرب من أثينا. وأوضح أنّ الســيطرة على ديكيليــا، التي كانت غنيّةً بمناجم الفضّة، ســتوجّه ضربةً اقتصاديّةً موجعةً لأثينا، إذ إنّها كانت تعتمد على اســتخراج وبيع الفضّة كمصدرٍ أساسيٍّ لتمويل مواردها الماليّة. نفّذت إسبرطة هذا الاقتراح، ونجحت في السيطرة على ديكيليا، ما ألحق ضررًا بالغًا بالاقتصاد الأثينيّ، وجعل الدولة تواجه أزمةً ماليّةً حادّة.

الأســطول العســكريّ الأثينيّ، الــذي كان ألكِيبِيادِس قد تخــلّى عنه، وجد نفســه تحت قيادة نيكياس، الذي لم يكن يمتلك موهبةً عســكريّةً تُذكر، بل كان

مجرّد قائدٍ عاديّ. دخل الأسطول في مواجهةٍ مع قوّات سيراقوسة، لكنّه تكبّد هزيمةً ساحقةً في خريف عام ٤١٣ ق.م. تمكّنت القوّات البريّة الإسبرطيّة والسيراقوسيّة من محاصرة الجيش الأثينيّ، ما أدّى إلى مقتل عددٍ كبيرٍ من الجنود الأثينيّين وأسر الآلاف منهم. أُعدم نيكياس وعددٌ من قوّاده، في حين أُرسل الأسرى الأثينيّون للعمل كعبيدٍ في ظروفٍ قاسيةٍ داخل محاجر صقلية. كانت هزيمة سيراقوسة ضربةً قاصمةً حطّمت معنويّات الجيش الأثينيّ وغيّرت مسار الحرب لصالح إسبرطة. ورغم ذلك، واصل الأثينيّون القتال لما يقرب من عشر سنوات أخرى. غير أنّهم واجهوا كارثةً كبرى في عام ٤٠٥ ق.م، عندما نجح الجيش الإسبرطيّ في تحطيم الأسطول الأثينيّ في معركة إيغوسبوتامي بالقرب من مضيق هيليسبونت. أدّى هذا الانتصار الإسبرطيّ إلى قطع طرق إمداد الحبوب عن أثينا، ما أدخل سكّانها في مجاعةٍ قاسية. أُصيب الأثينيّون بالرعب والإرهاق، ولم يعودوا راغبين أو قادرين على الاستمرار في الحرب. وهكذا، في عام ٤٠٤ ق.م، اعترفت أثينا بهزيمتها واستسلمت لإسبرطة، منهيةً بذلك حرب البلوبونيز بعد عقودٍ من الصراع الدمويّ.

بعد انتصار إسبرطة في حرب البلوبونيز، أَجبرت الأثينيّين على هدم الأسوار الطويلة التي كانت تحصّن مدينتهم. في أثينا المهزومة، تولّت السلطةَ مجموعةٌ من ثلاثين رجلًا من أنصار الديمقراطيّة الأوليغارشيّة، بقيادة كريتياس. عُرف هذا النظام بـ«حكم الثلاثين جبّارًا»، وقد فرض حكمًا استبداديًّا دمويًّا، حيث قام باعتقال ونفي وإعدام عددٍ كبيرٍ من أنصار الديمقراطيّة الكلاسيكيّة، إضافةً إلى أيّ شخصٍ يُشتبه في إمكانيّة معارضته لهذا النظام. كانت أثينا خلال فترة حكم الأوليغارشيّين تعيش في بؤسٍ شديد، إلى درجة أنّ سكّانها نسوا جرائم

الديمقراطيّين الكلاسيكيّين ومفاسدهم، وصاروا يتطلّعون إلى عودتهم من جديد، بعد أن وجدوا أنفسهم في ظلّ استبدادٍ أشدّ قسوةً مما سبق. في أثينا، اندلعت مواجهةٌ سياسيّةٌ عنيفةٌ ودمويّةٌ بين الفصائل السياسيّة-الاقتصاديّة المختلفة، فضلًا عن الشرائح والجماعات المدنيّة-السياسيّة المتصارعة. في النهاية، أدّى هذا الصراع إلى الإطاحة بحكم الثلاثين جبّارًا وقيام نظامٍ جديدٍ مستوحًى من نموذج الديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة. إلّا أنّ النظام الذي تولّى السلطة عام ٤٠١ ق.م لم يكن سوى ظلٍّ باهتٍ وكاريكاتورٍ باهتٍ من الديمقراطيّة الكلاسيكيّة التي ميّزت ما يُسمّى بـ«العصر الذهبيّ». لقد كانت أثينا منهارةً بالكامل، ولم تعد قادرةً على لعب دورها المحوريّ كما في السابق. في الوقت نفسه، كانت إسبرطة غارقةً في أزماتٍ وصراعاتٍ داخليّةٍ عميقة، قادتْها، خلال بضعة عقودٍ لاحقة، إلى حافّة الانهيار والفناء. لقد انتهى عصر المجد والقوّة اليونانيّة، وأصبحت هذه الحضارة، بفعل أزمتها الانحطاطيّة المتفاقمة، تسير نحو الاندثار الكامل.

٢. الاقتصاد، الثقافة، والأدب في أثينا خلال العصر الكلاسيكي

كانت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد أهمّ مدينة يونانيّة، وأبرز تجسيدٍ لنموذج البوليس الكلاسيكيّ. وبلا شكّ، وفقًا لأفق العالم الغربيّ اليونانيّ ومعاييره التاريخيّة، كانت أثينا ذروة التحوّل في تاريخ الغرب خلال المرحلة اليونانيّة. لذا، فإنّ دراسة المدينة والديمقراطيّة الكلاسيكيّة الأثينيّة تتيح فهم جوهر وحقيقة اليونان الكلاسيكيّ وحضارته. ولأجل رسم صورةٍ أكثر دقّةً عن العالم الغربيّ اليونانيّ، ولا سيّما الحضارة اليونانيّة الكلاسيكيّة، نعرض فيما يلي السمات النموذجيّة والعامّة للبوليس الكلاسيكيّ الأثينيّ، من خلال ثلاثة مجالات: الاقتصاد، الثقافة بمفهومها الشامل (بما في ذلك الأخلاق والعلاقات

الأسريّة والعلم...)، والأدب، الذي كان أحد أبرز تجلّيات العدميّة الكَونويّة اليونانيّة، وواحدًا من أهمّ ساحات تجلّي الروح اليونانيّة في شكلها العينيّ.

الاقتصاد في أثينا الكلاسيكيّة

كان اقتصاد أثينا، وكذا اقتصاد العالم الغربيّ اليونانيّ عمومًا، قائمًا على عمل العبيد ونظام الإنتاج القائم على العبوديّة. ومع ذلك، فإنّ درجة سيطرة هذا النمط من الإنتاج، ودور العبيد في المجال الإنتاجيّ، قد شهدت تفاوتًا بين المدن-الدول اليونانيّة. لكن، بلا شكّ، كانت السيادة الاقتصاديّة في العالم اليونانيّ تقوم على العبوديّة، رغم وجود بعض المناطق التي عرفت أنماط إنتاجٍ أخرى. عند الحديث عن اقتصاد أثينا واليونان الكلاسيكيّة، ينبغي الانتباه إلى نقطةٍ جوهريّة: لأنّ العالم الغربيّ اليونانيّ يحمل طابعًا كونويًّا، فإنّ الصورة المثاليّة للإنسان اليونانيّ هي صورة «البطل-المواطن»، بخلاف العالم الغربيّ الحديث، الذي يتمتّع بطابعٍ إنسانويّ، وتكون فيه الصورة المثاليّة للإنسان صورة «الإنسان البرجوازيّ»، حيث يُعرَّف جوهر الإنسان وحقيقته باعتباره «حيوانًا اقتصاديًّا»، ويتجلّى في هذا التعريف. بناءً على ذلك، فإنّ مفهوم الاقتصاد في العالم الغربيّ اليونانيّ يختلف اختلافًا جوهريًّا عن المفهوم الحداثيّ للاقتصاد. في العالم الحديث، يمثّل الاقتصاد مجالًا للسعي وراء تراكم رأس المال (مع الإشارة إلى أنّ رأس المال يختلف عن الثروة، إذ إنّه نتاج العالم الغربيّ الحديث، وسنناقشه بمزيدٍ من التفصيل عند تناولنا العالم الحديث في هذه السلسلة إن شاء الله). في النظام القيميّ للعالم الغربيّ الحديث، يُعَدّ السعي اللانهائيّ وغير المشروط وغير المشروع وراء الربح والتوسّع الماليّ أمرًا محمودًا، إذ تُعرَّف الصورة المثاليّة للإنسان الحديث بكونه «حيوانًا اقتصاديًّا»، ويُنظر إلى أيّ محاولةٍ للاستفادة من فرص

التراكم الماليّ على أنّها سلوكٌ يُمتدَح ويُشاد به. في العالم الغربيّ الحديث، يُنظر عمومًا إلى السعي وراء المعيشة والربح اللامحدود غير المشروط باعتباره مظهرًا من العقلانيّة، والذكاء، والتدبير، والحنكة، بل ويُعتبر واجبًا عقلانيًّا وضروريًّا على الإنسان الحديث.

حال أنّه في العالم الغربي اليوناني، وإنْ كانت السعي وراء المنفعة والطمع في الربح والتطلّعات الاقتصادية والعسكرية والمنافسات والصراعات الجشعة والتجارية والنفعية قائمة بين الأفراد والدول، وقد اتّخذت هذه المنافسات النفعية في كثير من الأحيان طابعًا حادًّا وعنيفًا وعدائيًّا وجادًّا، إلّا أنّه، وبالرغم من كلّ ذلك، فإنّ السعي لكسب المعيشة والسعي لاكتناز الثروة والربح المحض كان يُستنكر ويُعدّ أمرًا بعيدًا عن مقام الأرستقراطيين (الأفضلين) والمواطنين في العالم الغربي اليوناني. في العالم الغربي اليوناني، لم يكن الإنسان يُعرَّف بأنّه كائن اقتصادي، ولم تكن الجهود المبذولة في سبيل المعيشة أو أيّ حركة تجارية أو نفعية، وإنْ كانت تُعتبر ضرورية ولازمة في بعض الحالات، محلّ إشادة أو تمجيد. في النظام القيمي للعالم الغربي اليوناني، لم يكن فخر اليوناني في أن يكرّس حياته (أو غالبًا أهداف حياته) للمساعي النفعية والسعي وراء المعيشة وما يُطلق عليه اليوم «الاقتصاد». بل كان فخر اليوناني في أن يمتلك عددًا كبيرًا من العبيد وأولئك الذين يتحمّلون عنه مشقّة السعي لكسب المعيشة، فيتحرّر بذلك من ميدان الحاجات والرغبات الاقتصادية (الذي كان يُسمّى ميدان الضرورة) ويدخل في ميدان الحرية، أي ميدان التحرّر من السعي وراء المعيشة والاقتصاد، الذي يتجلّى في السياسة والبوليس، ليكون فاعلًا في هذا الميدان. ومن هنا، فإنّ الاقتصاد في الفكر اليوناني كان يركّز بالدرجة الأولى على رفع هموم المعيشة (مع

بعض النزعات النفعية والرغبة في اكتناز الثروة). أمّا في العالم الغربي الحديث، فإنّ الاقتصاد منصبّ على الجهد المطلق لتحقيق الغايات النفعية الرأسمالية، أي الربح اللامحدود وغير المشروط والمستمرّ، الذي يشكّل جوهر كلّ سلوك اقتصادي في الغرب الحديث. والاقتصاد، بهذا المعنى، يحتلّ دورًا محوريًّا وأساسيًّا في حياة الإنسان الحديث، بحيث يُعرَّف الإنسان الحديث، في الغالب وعلى نحو جوهري، بأنّه كائن اقتصادي. وهذا النمط من السلوك الاقتصادي النَّهم، غير المشروع، غير المشروط، غير المحدود، والمتزايد باستمرار، يُعتبر الركن الأساسي وجوهر الحياة وحقيقة الوجود الإنساني.

وبناءً على الفوارق الجوهرية المهمّة في تعريف الاقتصاد ومقامه ومفهومه في عالَمي الغرب اليوناني والغرب الحديث، وكذلك الاختلافات في تعريف الإنسان في هذين العالمين (حيث يُعرَّف الإنسان في الغرب الحديث بأنّه كائن اقتصادي)، نُلقي نظرة على بعض الجوانب والمكوّنات المهمّة للحياة الاقتصادية في أثينا خلال العصر الكلاسيكي. في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، كان الإنتاج الزراعي يلعب دورًا مهمًّا في دوران الحياة الاقتصادية. وكانت الأراضي الزراعية آنذاك مملوكة ملكيةً خاصة، وقد أُلغيت ملكية القبائل للأراضي. ومع ذلك، لم يكن يُسمح بامتلاك الأراضي إلّا لمن كان يُعدّ مواطنًا. وإلى جانب الملكيات الخاصة الكبيرة للأراضي الزراعية، كان هناك أيضًا فلاحون محدودو الإمكانات يمتلكون أراضي ومزارع صغيرة. وكان مواطنو أثينا يعتبرون العمل الزراعي أكثر قيمةً من التجارة والتبادل التجاري، رغم أنّه يبدو أنّ الركن الأساسي لاقتصاد أثينا كان قائمًا على التجارة والقرصنة البحرية.

تربة أرض أتيكا لم تكن خصبة إلى حدّ كبير، حيث كانت أكثر من ثلث مساحتها

غير صالحة للزراعة. وفي أثينا خلال عصر بريكليس، كانت أشجار الزيتون تغطّي مساحات واسعة من الأرض في أغلب أنحاء المدينة. وكان بيسيستراتوس (زعيم الديمقراطيــة الجبّارية في أثينا خلال القرن الســادس قبل الميلاد) أوّل من أدخل زراعة الزيتون في أثينا، ثم واصل سولون هذا النهج من بعده.

كانت الحبوب وزيت الزيتون والتين والعنب تشكّل الغذاء الأساسي لسكان أثينا. وكان اللحم يُعدّ طعامًا فاخرًا لمعظم الأثينيين، حيث لم يكن الفقراء الكُثُر في أثينا قادرين على تناوله إلّا في الأعياد. أمّا السمك، فكان متاحًا حتّى للفقراء. وكان مالكو العبيد والأثرياء في أثينا يستهلكون لحم سمك الكلب البحري والأنقليس الطازج، في حين أنّ الفقراء كانوا في الغالب يتناولون الأسماك المجففة والمملّحة. ورغم أنّ المياه الصالحة للشرب كانت متوفّرة لســكان أثينا وكانوا يستخدمونها، إلّا أنّ عادة تعاطي الخمر كانت منتشرة في أثينا وسائر أنحاء اليونان.

لم يكن اليونانيــون ينظرون إلى المناجم بوصفها مصــدرًا لتأمين الوقود، بل كان اهتمامهم منصبًّا على استخراج المعادن النفيسة مثل الفضّة والذهب، حيث حظيــت الفضّة بأهمية خاصــة في أثينا، نظــرًا لوجود مناجم غنية بهــا. غير أنّ استخراج المعادن كان حكرًا على من يُعدّ مواطنًا (وفي الواقع، إنسانًا)؛ إذ لم يكن يُسمح إلّا للمواطنين باســتخراجها، بينما كانت الأعمال الشاقة والمتعبة المرتبطة بالتعديــن تُلقى على عاتق العبيد. كان نحو عشرين ألف عبد يعملون في مناجم أثينا، وكان العمل فيها يجري على مدار الساعة دون توقّف. فإذا غلب النوم أحد العبيد أثناء العمل، أيقظه المشرف بالضرب بالسوط. وإذا حاول أحدهم الفرار، كانوا يقيّدونه بسلاســل حديديّة إلى مكان عمله، أمّا إن نجح في الهرب ثم أُلقي القبض عليه، فكانوا يوســمون جبهته بالحديد المحمّى. وكان العبيد مضطرّين

للتحرّك زحفًا على بطونهم، أو راكعين، أو مستلقين على ظهورهم داخل أنفاق المناجم. وكانت أحجار الفضّة المُستخرَجة تُنقل يدًا بيد في أكياس أو سلال إلى خارج الأنفاق. وكانت الممرّات تحت الأرض ضيّقة جدًا ومنخفضة الارتفاع بحيث لم يكن بمقدور شخصين السير جنبًا إلى جنب بسهولة، ولم يكن للعبيد أيّ إمكانية للتحرّك بشكل قائم داخلها[١].

كان النظام الاقتصادي في أثينا ومعظم البوليسات اليونانية الكبرى قائمًا على العبودية، حيث شكّلت أعمال العبيد القوّة المحرّكة الأساسية للاقتصاد اليوناني. ومع ذلك، في المناطق الريفية، كان المزارعون، إلى جانب نسائهم وأبنائهم والعمّال الأُجراء الذين كانوا يؤدّون خدمات مقابل أجر، يشكّلون جزءًا من عملية الإنتاج الاقتصادي. لكنّ العبء الرئيسي للعملية الاقتصادية في المدن كان يقع على عاتق المهاجرين والأجانب والعبيد المحرَّرين، وبشكل خاصّ العبيد. في أثينا، كان الدكّانون والصنّاع والتجّار والصيارفة (بالمعنى المحدود جدًّا الذي كان موجودًا في الغرب القديم) محرومين من حقّ التصويت. وكان العمل لكسب العيش يُعدّ أمرًا مُهينًا في أثينا. وحتى تعليم الموسيقى والعمارة والرسم، أو الاشتغال بهذه الفنون كمهنة، كان يُنظر إليه في أثينا على أنّه «عمل وضيع ودنيء». كان اليونانيون يرون أنّ الإنسان الحرّ يجب أن يكون متحرّرًا من المسؤوليات المالية والاقتصادية، وحتى إنْ كان قادرًا على حفظ وإدارة أمواله بنفسه، فعليه أن يُوكل هذه المهام إلى عبد أو شخص آخر. وبفضل هذا النمط من الفراغ والتحرّر، كان المواطنون وحدهم هم القادرين على المشاركة في الحروب والأعمال الحكومية والتفرّغ للأدب والفلسفة[٢].

---

١. م. ن، ٢٩٩.

٢. م. ن، ٣٠٦ - ٧.

في أثينا، كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية:

١. المواطنون

٢. الأجانب المقيمون

٣. العبيد المحرَّرون

وتأتي بعد هذه الطبقات فئة العبيد، حيث يقدّر ويل دورانت عددهم في أثينا بحوالي مئة وخمسة عشر ألفًا[١].

وفيما يتعلّق بمفهوم «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية» بالمعنى الذي ظهر في الغرب الحديث والذي نجده في المجتمعات الحديثة وشبه الحديثة، وكذلك بما كان موجودًا في عالم الغرب اليوناني-الروماني، والذي أطلقنا عليه -بتسامح- مصطلح «طبقة»، وسبق أن أشرنا إليه تحت عناوين مثل «الشرائح والفئات الاقتصادية-السياسية» أو «الشرائح والفئات والطبقات السياسية-المدنية» ونحو ذلك، فإنّ تقديم تفسير نظري لهذا المفهوم يُعدّ أمرًا ضروريًا ومفيدًا. إنّ «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية»، بالمفهوم الذي يجري تناوله في علم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وسائر مجالات العلوم الإنسانية، هي ظاهرة خاصّة بالعالم الحديث وشبه الحديث، ومرتبطة بالمجتمعات الغربيّة والحديثة المتأثّرة بالغرب، ولم تكن لها أيّ ظهور أو تجلٍّ في العوالم السابقة على الحداثة في تاريخ الغرب، أي في الغرب اليوناني-الروماني والغرب في العصور الوسطى، وكذلك في العوالم التابعة للتاريخ الديني والتاريخ الشرقي للبشرية.

ومع ذلك، فإنّ تاريخ الشرق والعوالم التابعة له، وكذلك تاريخ الغرب وعوالمه السابقة على الحداثة، لم يكن خاليًا من التفاوت بين الفقير والغني،

---

١. م. ن، ٣٠٨.

أو الفقـر والثـروة، كـما لم يكن خاليًا مـن الفروقات بين الجماعـات والشرائح والطبقـات والأفراد في مقـدار الثروة التي يملكونها، وفي كيفية اكتسـابها، وفي طبيعة المهن والأعمال التي يمارسـونها، فضلًا عن الفروق في الأدوار التي كانت تضطلع بها الأفراد والجماعات والعائلات في عمليات الإنتاج والتوزيع والتبادل والاسـتهلاك، وما يتصل بذلك من قضايا. غير أنّ هـذه الفروقات في الثروة، وما رافقها من حالات عدم المسـاواة والظلم، وكذلـك التنافس والصراعات التي كانت تنشأ بين المحرومين والمستضعفين والمعدَمين من جهة، وبين الأثرياء والمُلّاك والمسـتغلّين من جهة أخرى، والتي شكّلت جزءًا مهمًّا من تاريخ العوالم الشرقية والغربية قبل الحداثة، لا تـدلّ على وجود مفهوم «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية الحديثـة». إنّ «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية الحديثة» هي شـكلٌ من أشكال انعدام المسـاواة والظلم في التراتبيات والعلاقات الاجتماعية، وهو المفهوم الذي ظهر في العالم الغربي الحديث، وتجلّى في المجتمعات الغربية والحديثة المتأثّرة بالغرب، بأشكال وصور وأنواع متعدّدة. لذلك، فإنّ مجرّد وجود الفقير والجائع في مقابل الغني والمُكتفي، أو مجرّد وجود التفاوت وعدم المساواة والظلم الاجتماعـي والاقتصادي، والفجوة بين الأثريـاء والمحرومين عبر تاريخ الأمم والشـعوب المختلفة، لا يمكن اعتباره معادلًا لوجود الطبقات بالمعنى الحديث لهذا المفهوم، كما ظهر وتبلور في العالم الحديث والمجتمعات شـبه الحديثة التابعة له. إنّ «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية» هي ظاهرة نشـأت وتحقّقت في سـياق تصوّر الإنسـان بوصفـه حيوانًا اقتصاديًّا، وهي ظاهـرة خاصّة بالعالم الحديث وشـبه الحديث. ويمكن اعتبار تجلّي الظلـم الاجتماعي-الاقتصادي في صورة الطبقات الاقتصادية-الاجتماعية الحديثة أسـوأ أشـكال الظلم الاقتصادي في

تاريخ البشرية، غير أنّه يبقى ظاهرة متّصلة بالنزعة الإنسانية (الأومانيّة) وبمفهوم الإنسان بوصفه كائنًا قائمًا على ذاته، وبالتصوّر الذاتيّ للإنسان. إنّ ظهور، تشكّل، وتحقّق مفهوم «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية»-كما يجري بحثه وتحليله في العلوم الاجتماعية الحديثة-والحضور الفعليّ لهذا المفهوم وتأثيره الواضح في مختلف مجالات الحياة داخل المجتمعات الحديثة وشبه الحديثة، لم يكن ممكنًا إلّا في سياق التصوّر الذاتي والأناني للإنسان، وفي إطار تصوير الإنسان باعتباره حيوانًا اقتصاديًّا. ومن هنا، فإنّ استخدام مفهوم الطبقة والطبقات الاقتصادية-الاجتماعية بالمعنى الذي نجده في العلوم الإنسانية العلمانية-الحداثية عند دراسة الحضارات والمدن والمجتمعات السابقة على الحداثة، يُعدّ أمرًا غير دقيق وغير مناسب، وقد يؤدّي إلى وقوع التباسات في الطروحات النظرية وأخطاء مفاهيمية في التحليل[١].

في الغرب اليوناني، ورغم عدم وجود الطبقات بالمعنى الحديث، فقد كانت هناك تفاوتات واختلافات جوهريّة بين الفقراء والأغنياء، كما وُجدت صراعات ومواجهات بينهم، وهي ما نُطلق عليه مصطلحات مثل الشرائح والفئات السياسية-المدنية أو الشرائح والمجموعات الاقتصادية-السياسية، ونظائر هذه التعابير. إنّ الصورة المثالية للإنسان اليوناني-على خلاف الصورة المثالية للإنسان الحديث، الذي يتحقّق بوصفه الإنسان البورجوازي ضمن مفهوم «الإنسان بوصفه حيوانًا اقتصاديًّا»-هي صورة البطل-المواطن، وهذا الأمر كان يؤثّر بشكل كبير على مكانة ودور وأهمّية العوامل الاقتصادية في العالم

١. للاطّلاع بشكل أوسع على مفهوم «الطبقة الاقتصادية-الاجتماعية الحديثة»، يمكنكم الرجوع إلى المؤلّفات التالية للكاتب: زرشناس، إشارات وتنبيهات؛ زرشناس، نقد حال.

اليوناني مقارنة بالعالم الحديث. وبما أنّ الإنسان اليوناني لم يظهر ويتحقّق بوصفه كائنًا اقتصاديًّا، فإنّه، على خلاف الإنسان الحديث، لم يكن واقعًا تحت سطوة الطمع اللامحدود وغير المشروط والمتزايد باستمرار. ومن حيث الجوهر، فإنّ دور الدوافع الاقتصادية ومعنى الاقتصاد بالنسبة إليه وفي حياته كان مختلفًا جوهريًّا عمّا هو عليه بالنسبة للإنسان الحديث وفي حياة البشر في العالم الحديث.

لكن، وعلى أيّ حال، فإنّ تقسيم العمل في نطاق الأنشطة الاقتصادية، وكذلك التفاوت في مستوى الاستفادة من الإنتاج والخيرات المادّية، إضافة إلى الاستغلال والظلم والاستعباد، كانت كلّها ظواهر قائمة في العالم اليوناني. وكان العبيد، على وجه الخصوص، الأكثر عرضة للظلم والاستغلال، حيث كانوا محرومين تقريبًا من جميع الحقوق الإنسانية، وكانوا أضعف الفئات في أثينا وسائر البوليسات اليونانية. ومع ذلك، فإنّ الاقتصاد اليوناني ككلّ كان قائمًا على عمل العبيد، كما كانت تجارة العبيد تُعدّ من أكثر المهن ربحًا، حيث كان تجّار العبيد في أثينا من بين أغنى الفئات والشرائح داخل التراتبية الاقتصادية في اليونان القديمة.

كما أشرنا سابقًا، فإنّه في الاقتصاد اليوناني (حتّى في ذروة نمط الإنتاج القائم على العبودية)، إلى جانب هذا النمط الغالب والمهيمن، كانت هناك أنماط إنتاج أخرى غير مهيمنة وغير مسيطرة، ولكنّها وُجدت في بعض المناطق على نطاق واسع. ومع ذلك، لم يكن لها وزن نوعيّ أو تأثير حاسم في مجمل الاقتصاد اليوناني. في بعض المناطق من اليونان، مثل إبيروس (جنوب غرب مقدونيا)، أكارنانيا (على الساحل الشرقي للبحر الأيوني)، وإيتوليا (غرب اليونان القارّية)، كان الاقتصاد الرعوي هو النمط السائد. بينما في مناطق أخرى، مثل تساليا،

بيوتيا، ولوكريس (الممتدّة على ساحل بحر إيجة)، كان الاقتصاد الزراعي يعتمد بدرجة كبيرة على الإنتاج المباشر من قبل الفلّاحين، وكان دور العبيد فيه أقلّ بروزًا. لكن مع ذلك، فإنّ نمط الإنتاج السائد في أثينا والمناطق المركزية والمهمّة في اليونان، وباختصار في كليّة العالم اليوناني، كان نظام العبودية. ففي أثينا، وكذلك في البوليسات الكبرى مثل كورينث، ميغارا، وميليتوس، كان الاقتصاد التجاري هو الغالب، إلّا أنّه كان يعتمد أساسًا على عمل العبيد، وكذلك على تجارة العبيد.

كانت الصناعة والحِرَف في اليونان–التي تختلف جوهريًّا عن التقنية الحديثة– مزدهرةً بشكل كبير، لا سيّما في القرن الخامس قبل الميلاد. وكما يتّضح من آثار المؤرّخين والكُتّاب القدماء، فقد كان الصنّاع والحِرَفيّون في اليونان يعملون في مهن مثل النجارة، النحت الحجري، صناعة النحاس، البناء، الصياغة، الرسم، النقش، الدباغة، حياكة الحبال، الخَبز، صناعة الحلويات، وشقّ الطرق. وفي أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، كان هناك العديد من الورش الصغيرة، حيث كان يعمل الحِرَفيّ إلى جانب أفراد عائلته، وربما بمساعدة عبد أو اثنين. ولكن بعد الحروب اليونانية مع الدولة الأخمينية، وخاصّةً في القرن الرابع قبل الميلاد، ظهر إلى جانب هذه الورش الصغيرة عدد كبير من المشاغل الصناعية الكبرى، حيث كان يعمل فيها عشرات أو حتّى مئات العبيد. على سبيل المثال، يُمكن الإشارة إلى ديموستين، الخطيب اليوناني الشهير، الذي ورث عن والده ورشة لصناعة الأسلحة يعمل فيها اثنان وثلاثون عبدًا. كما يمكن ذكر ورشة أخرى لصناعة الدروع كانت تضمّ حوالي مئة عبد، وكانت مملوكة لرجل يُدعى باسيون[1]. ومع

1. Robinson, Everyday life in Ancient Greece, 105.

ذلك، لم يكن العمل في الورش الإنتاجية والصناعية مقتصرًا على العبيد فقط، بل كان هناك أيضًا عمّال أُجراء يعملون فيها. أمّا في المناجم، فقد كان العبيد وحدهم هم الذين يُجبرون على العمل، إذ كان العمل في المناجم بالغ المشقّة والخطورة، وكان اليونانيون يرفضون الانخراط فيه. في اليونان القديمة، كان التجارة الخارجية–أي تبادل السلع بين البوليسات في اليونان الوسطى والمستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى، وكذلك مع مصر، مقدونيا، تراقيا، وغيرها–ذات أهمية أكبر من التجارة الداخلية. وقد دفعت الظروف القاسية التي كان يعيشها العبيد في اليونان العديد منهم إلى محاولة الفرار، ولهذا السبب، كانت البوليسات المختلفة، بما في ذلك أثينا، تفرض عقوبات صارمة على هروب العبيد. وقد سجّل تاريخ العالم الغربي اليوناني عدّة انتفاضات للعبيد، ومن أبرزها: ثورة أكثر من عشرين ألف عبد عام ٢١٣ قبل الميلاد بعد أن استولت إسبرطة على ديكيليا (وهي منطقة تابعة لأثينا)، الانتفاضة الكبرى للعبيد في أرغوس عام ٤٩٢ قبل الميلاد، وتمرّد واسع للعبيد الإسبرطيين عام ٤٩٤ قبل الميلاد، والذي وقع بعد زلزال مدمّر ضرب إسبرطة.

عقب اندلاع احتجاجات وتمرّدات العبيد، سُنَّت قوانين سعت إلى التخفيف جزئيًّا من شدّة الضغوط المفروضة عليهم. على سبيل المثال، صدر في أثينا قانون أبطل ما يُسمّى «حق» قتل العبد على يد سيّده. وفي مثال آخر، مُنح العبيد الحقّ في ارتداء الملابس في الشوارع وأماكن المدينة العامة مثل غيرهم من الناس. في العلاقة بين السيّد والعبد، ورغم أنّها كانت في الغالب قائمة على الظلم والعنف والاستغلال، حيث كان السيّد يستغلّ العبد ويتسبّب له في أنواع مختلفة من الأذى الجسدي والنفسي، إلّا أنّه من الحقائق أيضًا أنّ العبد، طالما كان قادرًا

على العمل، كان يتمتّع ببعض الأساسيات مثل الغذاء، والمسكن، والملبس، وما شابه ذلك. وعندما كان العبد يشيخ أو يُصاب بالمرض، كان السيّد وأفراد عائلته يتكفّلون برعايته. وأحيانًا، بعد سنوات طويلة من الصحبة والمعايشة بين العبد وسيّده، كان العبد يُعامل تقريبًا كأحد أفراد العائلة. في الواقع، يمكن القول إنّه على الرغم من أنّ نظام العبودية في العالم الغربي القديم، وخاصّة في اليونان الكلاسيكية، كان قاسيًا وظالمًا للغاية، فإنّ العلاقة الطويلة والمستمرّة بين السيّد والعبد، من خلال العِشرة والمعايشة على مدى سنوات، كانت تُفضي في بعض الحالات إلى نشوء ارتباط عاطفي بينهما. هذا التقارب كان يُخفّف إلى حدٍّ ما من حدّة العلاقة الجافّة والقاسية التي طبعت هذه المنظومة، ويُقلّل، ولو نسبيًّا، من طبيعتها الظالمة. أمّا في الغرب الحديث، وفي إطار علاقاته الاقتصادية-الاجتماعية، فإنّ «العبودية الحديثة»-التي تنبع أساسًا من اضطرار الإنسان إلى بيع قوّة عمله إلى ربّ العمل للخلاص من الجوع والفقر والبطالة-قد اتّخذت شكلًا آليًّا وغير شخصيّ، واتّسمت ببرودتها وتعقيدها، وانفصالها التامّ عن أيّ بُعد إنسانيّ. لدرجة يمكن معها الجزم بأنّ العبودية الحديثة أشدّ مرارةً وقسوةً من العبودية الكلاسيكية.

في الواقع، عند دراسة الفروقات الجوهرية بين الأوجه الاقتصادية في الغرب اليوناني – الروماني والغرب الحديث، ينبغي الالتفات إلى هذه الفروق الجوهرية بين العالمين في المجال الاقتصادي:

١. في الاقتصاد الحديث، وفي إطار التصور الذي يرى الإنسان كحيوان اقتصادي، تكتسب النزعةُ اللامحدودةُ وغيرُ المشروطة نحو تحقيق الربح المتزايد أهميةً قصوى. وهكذا، فإنّ الصيغة التالية: «العمل لتلبية الحاجة الاقتصادية

حتى التفرّغ من أجل الحضور في ساحة المدينة (بوليس) والانشغال بالمقاصد البطولية والمواطنة»، والتي كانت الصيغة الغالبة في النظر إلى الاقتصاد في العالم اليوناني، تحلّ محلّها الصيغةُ التالية: «العمل من أجل تحقيق المزيد من الربح، والحصول على مزيد من رأس المال، ثم تدوير ذلك الرأس المال المتزايد لتحقيق ربح أكبر، وفي سياق السير نحو الربح المتزايد بلا انقطاع، خلق حاجات جديدة لتوفير أرضية مناسبة لتحريك العوامل الاقتصادية». ومن خلال دراسة هاتين الصيغتين، يتجلّى الفارق الجوهري بين تصور العالم اليوناني والعالم الحديث للاقتصاد.

٢. في عالم الغرب اليوناني، أشرف العلوم هو العلم الذي لا تكون له غايةٌ عمليةٌ نفعيّة. فبالنسبة للإنسان اليوناني، كان العمل من أجل تحقيق الربح– وهو الأمر الذي يُمَجَّد في عالم الغرب الحديث وفي آراء فلاسفة مثل مكيافيلي، هوبز، لوك، هلفيتيوس، وكذلك في الرؤية المعروفة بالتنوير وفي الإيديولوجيا الليبرالية، بحيث يمكن اعتبار السعي إلى الربح الغايةَ الأساسية للاقتصاد الحديث–أمرًا دنيئًا، مدعاةً للخزي، ومستوجبًا للإدانة. ففي الغرب اليوناني، كان العمل بقصد تحقيق هدفٍ عملي أو السعي وراء الربح أمرًا مذمومًا. أما في العالم الحديث، فإنّ روح التاجر، التي تحكمه، ترفع السعي إلى الربح، بنظرة إعجاب، إلى مرتبة الجوهر الإنساني، حتى يصبح في نظره الغاية الأهم لسلوك الإنسان والميزة الأساسية للأخلاق الحديثة، فتُمنَح له مكانة التقدير والتمجيد.

٣. في العالم اليوناني، كما هو الحال في أيّ عالم تاريخي آخر، كان البشر بحاجة إلى الإنتاج والتبادل والاستهلاك. وقد دفعتهم دوافعُ مثل الحاجة إلى سدّ الجوع، وتوفير الغذاء، والكساء، والمسكن، وما شابه ذلك إلى العمل الإنتاجي وإلى

الدخـول في علاقـات اقتصادية. غير أنّه لا بدّ من الانتبـاه إلى أنّ البشر، في كلّ حقبة زمنيّة، يدركون حاجاتهم، ويسـتجيبون لها، من خـلال الطبيعة التاريخية السـائدة التي تفرض نفسـها عليهم. فاستجابة الإنسـان لحاجات مثل الغذاء، والمسكن، والملبس، والتزاوج، وغير ذلك، اكتسبت خصائصَ، بل حتى ماهياتٍ مختلفة، تبعًا للعالم الذي وجد فيه والطبيعة التاريخية التي خضعت له. إنّ الطبيعة التاريخيـة الحاكمة على الإنسـان اليونـاني، والتي فرضت عليه الصـورة المثالية للبطل-المواطـن، هي التي أضفت على سـلوكياته الاقتصاديـة طابعًا وجوهرًا مَيَّزاه تمامًا عن السلوكيات الاقتصادية للإنسان الحديث، الخاضع بدوره لهيمنة طبيعة تاريخية أخرى مختلفة.

٤. في اليونان القديمة، كانت القوّة العاملة الأساسـية في الإنتاج والاقتصاد تتألّـف مـن العبيـد. وكان العبـد في اليونان مجـبَرًا على العمل بفعـل الضغط والاضطرار الصارم الناجم عن القوانين القاسية، وسياط المشرفين، والخوف من الوسم بالمعدن المحمّى. وكان العبد في اليونان القديمة إما أسير حرب، أو مختطفًا على أيدي قراصنة ولصوص البحر ليُباع كعبد، أو مولودًا لأب وأمٍّ مستعبدين، فيُتداوَل في أسـواق النخاسة. وعلى أيّ حال، فإنّ أسـاس العبودية (وبالتبعية، أسـاس الاقتصاد في الغـرب القديم، القائم على عمل العبيـد) كان يرتكز على الضغط، والاضطرار، والقهر، والعنف الناجم عن الحروب والسرقة والسياط. أما في العالم الحديث وما يتبعه من عوالم شـبه حديثة، فإنّ العبيد المعاصرين-أي أولئك الذين لا يملكون رأس مالٍ، وليس لديهم سوى قوّة عملهم ليعرضوها في السـوق ويبيعوهـا-لا يُجبَرون على الامتثـال لشروط وقوانـين العمل التي يضعها المسـتغِلّون بسبب الخوف من السياط، أو الوسم، أو القيود المربوطة إلى

الأيدي والأقدام، بل إنّ ما يُرغِم العبيد المعاصرين على الخضوع لنظام العبودية هو تحوّل قوّة العمل إلى سلعة في العصر الحديث. فأيّ إنسان يفتقر إلى «رأس المال» لا يجد أمامه سوى قوّة عمله ليقدّمها في السوق، وليس له من سبيل سوى بيعها كسلعة، بغية الحصول على المال وتلبية حاجاته الأساسية، مثل تأمين الغذاء، والكساء، والمسكن، والزواج، والرعاية الصحية... وهكذا، فإنّ هذا الاضطرار الاقتصادي هو الذي يدفع العبد الحديث إلى العمل والمشاركة في النشاط الاقتصادي، وهو ذاته الاضطرار الذي يشكّل عنصرًا جوهريًا في تكوين باطن الإنسان الحديث بوصفه حيوانًا اقتصاديًا. ومن هنا، فإنّ الإنسان الحديث وعبوديّته الحديثة يختلفان اختلافًا جوهريًا عن الإنسان اليوناني وعبوديّته في العالم القديم.

الثقافة والأخلاق العامة في أثينا الكلاسيكية

لم يكن في أثينا مدرسة أو أكاديمية شاملة تُدار بتمويل حكومي وعام، بل كانت التربية والتعليم مسألةً شخصية تتعلّق بالفرد وعائلته، وإن كان هناك إشراف على عمل المعلّمين. كان المدرّسون المحترفون يؤسّسون مدارس، وكان الأحرار يرسلون أبناءهم إليها، مقابل دفع رسوم دراسيّة، لتعلّم الكتابة، والموسيقى، والرياضة. وقد حظي تعليم اللغة اليونانية الصحيحة باهتمام خاص في مدارس أثينا، إلا أنّ تعلّم اللغات غير اليونانية لم يكن له أيّ مكان في مناهجها الدراسية. أما الفتيات، فكنّ يتلقين تعليمهنّ غالبًا في المنزل، وشمل ما كنّ يتعلّمنه القراءة، والكتابة، والغزل، والنسيج، والتطريز، والرقص، والموسيقى. وفي إسبرطة، وعلى خلاف بقية المدن اليونانية، كانت الفتيات يشاركن الفتيان في الرياضات العامة.

كان شحّ المياه في اليونان سببًا في تقليل معدّلات الاستحمام بين الناس. وكان الأثرياء، بفضل ما توفّر لديهم من إمكانيات في منازلهم، يستطيعون الاستحمام مرة أو مرتين في اليوم، إلا أنّ معظم الناس، الذين لم يكن في متناولهم ما يكفي من الماء لغسل أجسادهم، كانوا يدهنونها بالزيت، ثم يزيلونه باستخدام شفرات هلالية الشكل.

كانت ملابس أهل اليونان تتألّف بالكامل من قطعتين من القماش ذي الشكل المربّع، وكانوا يلفّونها حول أجسادهم بحرّية. في أثينا، كان اللباس الأساسي للرجال شبيهًا بالرداء، في حين كانت ملابس النساء عبارة عن شال طويل يُلقَى على الأكتاف. وفي الأيام الباردة، كانوا يضعون رداءً إضافيًا على أكتافهم بشكل حرّ. كما كانت النساء أحيانًا يغطّين رؤوسهنّ بقطع قماش ملوّنة. وقد عُثِر في تاناغرا (وسط اليونان) على تمثال لشابّة يغطي جسدها بالكامل غطاءٌ يشبه الحجاب، وهو مثال لامرأة ترتدي حجابًا كاملًا[1]. ومع أنّ ارتداء الحجاب والعباءات الأخرى لم يكن شائعًا بين النساء في اليونان-أو على الأقل لم يكن منتشرًا في جميع المناطق، وخصوصًا في أثينا-إلّا أنّه يبدو أنّ بقايا الموروثات الدينية والروحية العائدة إلى التاريخ الديني القديم جعلت المجتمع اليوناني غير غريب عن الأزياء والملابس المتوافقة مع المعايير الدينية.

لم يكن أهل أثينا يتمتّعون بأخلاق سامية. ففي الواقع، خلال القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده، وبالتبعية نتيجة انتشار الفكر الميتافيزيقي الكَونَوي الحصولي للفكر السفسطائي، برز نوع من الشكّ والتردّد تجاه المفاهيم والأحكام الأخلاقية، وأدّى ذلك إلى زعزعة أركان الأخلاق في مدينة أثينا. وكما يقول ويل ديورانت:

١. ناردو، زنان يونان باستان، ١٣.

«لم يكن الأثينيون في القرن الخامس نموذجًا للأخلاق المستحسنة... [و] لم يكونوا يعانون كثيرًا من وخز الضمير. ففي رسالة كتبها زينوفون حول التربية والتعليم، يوصي صراحةً بأنّه لا ينبغي تجنّب السرقة والكذب عند التعامل مع أعداء الوطن. أما ثوقيديدس، فيذكر أنّ اليونانيين كانوا يفضّلون أن يُعرفوا بالدهاء والذكاء الحادّ بدلًا من الأمانة والاستقامة، وكانوا يعتقدون أنّ الأمانة ليست سوى سذاجة. وفي اليونان، كان من السهل العثور على من لا يتورّع عن خيانة الوطن. ويقول باوسانياس إنّه لم يكن هناك نقص في عدد الذين كانت لديهم نزعة للخيانة في اليونان... لم تكن الأعراف الاجتماعية ولا الدين تحدّ من تصرّفات الفاتحين في الحروب بين اليونانيين. بل إنّه حتى في الحروب الأهلية، كان من المعتاد نهب المدن المهزومة، وقتل الجرحى، وإعدام الأسرى الذين لا يدفعون الفدية، أو استعبادهم إن كانوا من المدنيّين، فضلًا عن إحراق المدن، وتدمير الأشجار المثمرة والمحاصيل الزراعية، وإبادة كلّ ما هو حيّ، بحيث لا يُترَك أيّ أثر لما قد ينمو مجدّدًا في المستقبل»[١].

كانت الأخلاقيات اليونانية ذات طبيعة دنيويّة بحتة. ومع ذلك، وعلى عكس الأخلاقيات الحديثة التي تقوم على المنفعة كأساس، لم تكن الأخلاقيات اليونانية تحمل تصوّرًا نفعيًّا للدنيوية. فقد كانت دنيويّة اليونانيين قائمة على مزيج من السعي وراء الشهرة، والرغبة في المجد، والسمات القتالية، وهو ما كان يُنظر إليه إجمالًا بوصفه «مثالًا للحياة الجمالية» أو نوعًا من تمجيد البعد الجمالي للحياة. في أثينا وغيرها من المدن اليونانية، كانت البغاء منتشرة على نطاق واسع. وفي أثينا، كان للبغايا مراتب ودرجات متفاوتة.

١. دورانت، يونان باستان، ٣٢٥؛ ٣٢٧ – ٢٨.

إحدى العادات والسمات القبيحة لدى أهل أثينا وفي مجمل الثقافة الكَونَوية اليونانية، كانت انتشار مرض أخلاقي يعدّ من الكبائر الشنيعة، وهو الممارسة المثلية. فقد كانت هذه العادة السيئة شائعة بين الرجال وكذلك بين النساء، وكان هناك شعراء معروفون ينظمون الأشعار في مدح وتمجيد الحبّ المثليّ. بل إنّ الأمر في أثينا بلغ حدّ ظهور تجارة قائمة حول استغلال الغلمان والممارسات المرتبطة بهم.

مع بالغ الأسف، فإنّ الأجواء الثقافية في اليونان، وكذلك قطاعات من سكّانها وفئات من أهلها، إلى جانب معظم فلاسفتها وشعرائها وفنّانيها، كانوا يظهرون نوعًا من التعاطف والتأييد لهذه الانحرافات الأخلاقية الشنيعة، ربما لأنّ كثيرًا من هؤلاء الفلاسفة والشعراء كانوا مبتلين بها على نحوٍ ما. والأسوأ من ذلك أنّهم لم يكتفوا بمجرد القبول بها، بل سعوا إلى تقديم تبريرات نظرية لها، ومدحها، والترويج لها.

أزمة الميتافيزيقا اليونانية

في القرن الخامس قبل الميلاد، بلغ الفكر الميتافيزيقي اليوناني الكَونَوي الحصولي، إحدى مراحل توسّعه، فأنتج صورة من التفكير الميتافيزيقي الحصولي ذات إطار محدّد ونطاق واضح المعالم، تمثّل في «المنطق»، وقد تجلّى هذا الفكر بصورة متماسكة في القرن الرابع قبل الميلاد من خلال أعمال وأفكار أرسطو، وأُطلق عليه اسم «الفلسفة». وهكذا، ظهرت الفلسفة في القرن الخامس قبل الميلاد كصورة من التفكير الميتافيزيقي اليوناني الحصولي، ثمّ امتدّت وتوسّعت في القرن الرابع قبل الميلاد، حتى بلغت شكلًا مكتملًا.

غير أنّ الحقيقة هي أنّ الفلسفة اليونانية، التي ظهرت وتحقّقت فعليًّا مع سقراط وفي مناقشاته، لم تكن سوى محاولة جادّة وهادفة لإنقاذ الحضارة الأثينيّة

الكلاسيكيّة، وبالتالي مجمل العالم اليوناني الغربي، من الأزمة التي كانت تعصف بـه. فقد كان فضاء الديمقراطية الكلاسـيكية في أثينا (وكذلـك، إلى حدّ كبير، بقيّة أشـكال الديمقراطية في اليونان)، بالنظر إلى تعريفه لمفهوم المواطن وصلته بالمدينة، وباعتبار المعايـير التي اعتمدها في تحديد معنى «الديموس»، وبالأهميّة التي منحها لفنّ الخطابة وللكلام والاسـتماع إلى اللوغوس في الشـأن السياسي (بوصفـه ميدان الحرّية وأكمل صورة لتحقّق الإنسـانية)، لم يكن ليجد سـبيلًا آخر للتحقّق سـوى في صورة الجدل السقراطي، والطريقة التي كان يخوض بها سقراط المسائل، وطرحه للأسئلة الفلسفية، وهو ما حدث بالفعل.

ظهرت الفلسـفة اليونانية في مدينة أثينـا خلال القرن الخامس قبل الميلاد في سياق صراعها مع السفسطائيين، وسـعت، من بعض الوجوه، إلى الاستناد إلى بعض تعاليم الفلاسفة الأيونيين وتوجيهاتهم، في محاولة لمعالجة الأزمة الميتافيزيقية الكَونَوية الكلاسيكية لليونان. وهي أزمة تجلّت في مشكلات الإمبريالية الأثينية، حيث أدرك سقراط وبعض تلاميذه، مثل أفلاطون، أنّ هذه الأزمة إن لم تُعالَج، فسـتؤدّي إلى هلاك أثينا العزيزة عليهم، وإلى انهيـار المدينة اليونانية وحضارتها بأسرها، وهو ما حدث في نهاية المطاف.

وفي إطـار تفكيرهم الميتافيزيقي الكَونَوي الحصـولي، الذي امتزج بالتصوّر الفلسـفي الذي كان قد ظهر وبدأ بالتبلور تدريجيًّـا، ابتكر اليونانيّون أيضًا علمًا خاصًّا بهم، يختلف جوهريًّا عن العلم الحديث. إحدى الفروع الأساسية للعلم اليوناني كانت الهندسة، إلى جانب نوع من الرياضيات التي ابتكرها اليونانيّون، والتي تختلف عن الرياضيات التي نشـأت بعد ديكارت وانتشرت وتوسّعت في العالم الحديث. لم تكن الرياضيات في الفكر اليوناني ذات طابع عملي أو حسـابي

بارز، ولم تُستخدم لتحقيق أغراض عمليّة أو للسيطرة على الطبيعة والبيئة. أما في العالم الحديث، فالرياضيات تُعدّ بمثابة مخطّط يفرضه الذهن الحديث على الطبيعة، بغية إخضاعها وإدارتها، مستفيدًا من صورة كمّية اعتباريّة يصنعها، ليحقّق من خلالها أهدافه ورغباته في التحكّم بالطبيعة والبيئة. في المقابل، كانت الرياضيات في العالم اليوناني تؤدّي دورًا تنظيميًّا وترتيبيًّا، يسعى من خلاله الفيلسوف اليوناني إلى التمرّس على إدراك دقائق العلاقات العددية وفهم النظام الكَونَوي، والذي يسري في الطبيعة، ليكتسب بذلك نوعًا من التمرّس الذهني، والاستعداد الفكري، والطمأنينة العقلية.

«في نظر اليونانيّين، لم تكن الرياضيات الرفيعة وسيلةً للعمل والحساب، بل كانت تُعدّ من لوازم المنطق، وكانت تُوظَّف أكثر في بناء وتركيب عالمٍ ذهنيٍّ مجرّد، دون أن يكون لها اهتمامٌ بتسخير البيئة الطبيعية والمادية... كانت الهندسة علمًا يحظى باهتمام بالغٍ من قِبَل الفلاسفة، ولكن ليس لفوائدها العمليّة، بل لأنّها كانت ذات طابع نظري، تشتمل على استدلال منطقي، وتمزج بين الدقّة والوضوح، وتضطلع بمهمّة بناء الفكر»[1].

إنّ الرياضيات اليونانية تختلف جوهريًا عن الرياضيات الحديثة، تمامًا كما أنّ الفلسفة الإنسانية الحديثة تختلف من حيث الجوهر عن الفلسفة الكَونَوية اليونانية. وقد كتب «رنيه ديكارت»، الذي كان أوّل من قدّم تفسيرًا ميتافيزيقيًا ممنهجًا ومتكاملًا لجوهر الفكر الإنساني في العالم الغربي الحديث، عن الفرق بين الرياضيات اليونانية والرياضيات الإنسانية في العالم الحديث، قائلًا:

«... لكن لاحقًا، عندما تأمّلت، قلت لنفسي: لماذا كان أوائل روّاد الفلسفة في

---

١. م. ن، ٣٧٦ - ٧٧.

العصور الماضية لا يقبلون أحدًا لتعلّم الحكمة والتتلمذ عليهم ما لم يكن متمكّنًا من الرياضيات؟... ازداد يقيني حينها بأنّهم كانوا يعرفون نوعًا من الرياضيات يختلف تمامًا عن تلك التي تسود في زماننا»[١].

لم تتجلَّ أزمة الفكر اليوناني فقط في الفلسفة والتفكير الميتافيزيقي الكَونَوي الحصولي، بل إنّ أحد أبرز مظاهر أزمة العالم اليوناني وفكره يمكن ملاحظته بوضوح في أدبه المنظوم.

أدب أثينا في العصر الكلاسيكي

يبدو أنّه في عام ٥٣٤ قبل الميلاد، ولأوّل مرّة، أُقيم في أثينا مهرجان مخصّص للإله ديونيسوس (إله اللذات الدنيوية، والخمر، والسُّكر)، وتزامن معه تقديم عروض شعرية مُنَظَّمة، نشأت منها التراجيديا. كان ديونيسوس، بطبيعة الحال، من الآلهة التي حظيت بالتبجيل منذ القدم في مختلف المدن اليونانية، حيث كانت تُقدَّم له القرابين وتُقام على شرفه طقوس ومراسم متنوّعة. غير أنّ احتفالات عام ٥٣٤ ق.م تميّزت بكونها قد رافقتها عروضٌ شعرية، لم تكن مجرّد امتداد لفنون السرد والإنشاد الجائل، ولا اقتصرت على أداء الطقوس الدينية الخاصة بالإله ديونيسوس. في هذا العام، قدّم الشاعر ثيسبيس عروضًا شعريّة على المسرح، استلهمت في معظمها من الملاحم والأساطير اليونانية، وتطرّقت، عبر سرد الأحداث والوقائع، إلى الحديث عن المآسي والمعاناة التي تعتري الحياة البشرية.

على الرغم من أنّ ثيسبيس كان أوّل من قدّم الشكل الأولي للعروض التراجيدية، فإنّ الظهور الجادّ والأساسي للأدب التراجيدي، والصورة الأدبية التي نعرفها باسم التراجيديا، يرتبط بالفترة الزمنية الممتدّة بين انتصار اليونانيين

١. كلاين، نقش رياضيات در فرهنگ غرب، الخامسة.

في سلاميس عام ٤٨٠ ق.م، وتثبيت الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، وانتهاءً بعام ٤٠٤ ق.م، وهو العام الذي شهد نهاية حرب البيلوبونيز ودمار المدينة الكلاسيكية الأثينية بالكامل. ولهذا، يمكن القول بثقة إنّ التراجيديا اليونانية، باعتبارها الشكل الأدبي المنظوم الأبرز في أثينا واليونان الكلاسيكية-وبما أنّ الأدب النثري كان نادر الوجود آنذاك-تمثّل في الواقع الصيغة الأدبية الأساسية لليونان القديمة، التي كانت وثيقة الصلة بالملاحم اليونانية، وهي في أصلها نتاج مباشر للمدينة اليونانية الكلاسيكية والفكر الميتافيزيقي الكَونَوي الكلاسيكي. غير أنّه، بما أنّ العالم اليوناني وفكره الميتافيزيقي الكلاسيكي كانا يعيشان أزمةً متفاقمة في الفترة التي نتناولها، وكانا يغرقان أكثر فأكثر في مستنقع أزمة ميتافيزيقية عميقة، فقد نشأت التراجيديا اليونانية في ظلّ هذه الأزمة، بل يمكن القول إنّها وُلدت من رحمها، وكانت تجسيدًا لها، وللمأزق الذي أنتجته، ولليأس الذي نجم عنها.

الطابع الغالب والأساسي للأدب اليوناني الكلاسيكي هو الأدب التراجيدي المنظوم، الذي كانت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد موطنه الرئيس، وأبرز شخصياته ثلاث: أسخيلوس، سوفوكليس، ويوربيديس. وُلد أسخيلوس، على الأرجح، عام ٥٢٥ ق.م، وشارك في معركتي ماراثون وسلاميس. وفي عام ٤٧٢ ق.م، أطلق التيّار القوي للحركة التراجيدية في أثينا من خلال تأليفه لمسرحيّة «الفرس». كتب نحو تسعين مسرحية، لم يصلنا منها سوى عدد قليل. ويُعتبر أسخيلوس المؤسّس الفعلي للتراجيديا اليونانية. توفي عام ٤٢٥ ق.م.

ثاني أشهر كُتّاب التراجيديا اليونانية، من بين الثلاثة البارزين، هو سوفوكليس، الذي وُلد عام ٤٩٦ قبل الميلاد في عائلة ميسورة. كتب ١٢٣

مسرحية، لكن لم يصلنا منها سوى سبع فقط. ومن أشهر أعماله التراجيدية «أوديب المَلِك» و«أنتيغون». توفّي سوفوكليس عام ٤٠٦ قبل الميلاد.

أما الحلقة الثالثة في سلسلة أعلام التراجيديا اليونانية، فهو يوربيديس. مع يوربيديس، أصبحت النزعة الشكّية في التراجيديا اليونانية أكثر وضوحًا، وبدأت تتجلّى فيها ملامح العدمية المستوحاة من الميتافيزيقا الكَونَوية. توفّي يوربيديس عام ٤٠٦ قبل الميلاد. منذ أواخر حياة يوربيديس وسوفوكليس، كانت مدينة أثينا والعالم اليوناني الغربي بأسره يندفعان بسرعة نحو الانحطاط والانهيار، إلى حدّ لم يَعُد معه أيّ أساس لاستمرار التساؤل الفلسفي أو السعي لمواجهة هيمنة العدمية الكَونَوية عبر التراجيديا.

التراجيديات اليونانية تصف قضايا الإنسان ومآسي الحياة الإنسانية في عالمٍ منقطع عن الوحي. قد تكون هناك بعض أوجه التشابه بين مشكلات ومآسي الإنسان اليوناني، الذي تشكّلت هويّته وفق الصورة المثالية للبطل – المواطن، وبين مشكلات ومآسي الإنسان الحديث، الذي يشكّل البعد الاقتصادي جوهره الداخلي، لكنّ الفوارق العميقة التي تنبع من انتمائهما إلى عالمين مختلفين تجعل طبيعة قضاياهم ومآسيهم متباينة تمامًا. ولهذا السبب تحديدًا، يمكن القول إنّ التراجيديا تقتصر على العالم اليوناني، وكما أنّ هذا العالم لن يتكرر، فإنّ التراجيديا أيضًا تظلّ غير قابلة للتكرار.

التراجيديّات تُصوِّر الألم والمآسي، لكنها لا تدرك أنّها تنبع من عالمٍ أنكر الولاية الإلهية. ففي التراجيديا، تُعرَض مشكلات وصراعات أناسٍ يتحدّثون عن الآلهة، وفق النمط اليوناني للعالم الكوني، لكنّهم في الوقت ذاته يعيشون في حالة من الشكّ تجاهها. إنّهم يسعون إلى تغيير أوضاعهم وأقدارهم، لكنّهم

يدركون أيضًا أنّ دوامة القدر تحكمهم، كما تحكم الآلهة وسائر الأمور، وأنّ هذه السيطرة، مع محاولاتهم العنيدة لتحقيق رغباتهم، والتفاعل المتوتّر بين الجانبين، تشكّل معًا عناصر من التركيب الغريب والساحر لنظام العالم. هذا النظام، رغم كونه قويًّا، محوريًّا، وحاكمًا، ويتعيّن الإصغاء إليه، لا يحمل صفة التقديس أو السموّ، بل يظلّ في ذاته لغزًا غامضًا. ومع ذلك، فإنّ الفكر الميتافيزيقي الكَونَوي الكلاسيكي لليونان لم يكن يميل إلى إضفاء طابع رمزي أو غامض عليه.

التراجيديات اليونانية، كمرآة تعكس القلق والشك واليأس الناجم عن أزمة الميتافيزيقا الكلاسيكية اليونانية ومأزقها، إلا أنّها، على عكس العدمية المتأزّمة في القرن العشرين، لا تتّسم بطابع العبثيّة. ففي التراجيديا اليونانية، يمتزج الألم والاضطراب بالشك والأزمة الوجودية، لكن العدمية العبثية، التي تقوم على اليأس المطلق، ليست جزءًا منها. وهذا أمر مفهوم، لأنّ العبثيّة هي نتاج المرحلة الأخيرة من تطوّر الفلسفة الإنسانية، ومن الواضح تمامًا أنّ البحث عنها في تراجيديات الميتافيزيقا الكونيّة الكلاسيكية اليونانية سيكون ضربًا من العبث.

التراجيديات اليونانية هي نوع من إعادة سرد أدبيّة للحالة المؤلمة والمعاناة التي عاشها الإنسان اليوناني في ذروة أزمة الميتافيزيقا الكونوية الكلاسيكية، حيث أيقظت الأمواج العاتية للقلق والشك، وجعلتهما في حالة من النشاط والتأجّج. كانت التراجيديا اليونانية بمثابة مرآة تعكس اضطراب الميتافيزيقا الكلاسيكية اليونانية في زمنٍ بدأ فيه هذا الاضطراب يتّخذ شكلًا فعليًّا، ويُظهِر آثاره ونتائجه بشكل تدريجي. في التراجيديات اليونانية، يظهر في الوقت ذاته نوعٌ من طرح القضايا، وربما إلى حدٍّ ما، إشارات إلى محاولات البحث عن إجابات

وحلول للمآسي والمشكلات. ففي هذه التراجيديات، وبينما يستمرّ الأبطال في سعيهم الحثيث لإيجاد الإجابات، ويظهر نوعٌ من مسعى الحلّ، يغيب تمامًا ذلك اليأس البارد القاتم والجافّ الذي يميّز الدراما والأعمال الأدبية العبثيّة في القرن العشرين. وبدلًا من ذلك، يبدو وكأنّ هناك نوعًا من القبول الضمني بعدم وجود إجابة نهائية، واستحالة إيجاد الحلول، والاستسلام لقدَرٍ لا مهرب منه، وهو أمرٌ، رغم تشابهه السطحي، يختلف جوهريًّا عن العدميّة السلبية الهدّامة التي تميّز الأدب العبثي.

في الواقع، يبدو أنّ عجز الفكر الميتافيزيقي الحصولي اليوناني، بطريقة غير مباشرة وغير صريحة، يمنح أبطال التراجيديا وجمهورها إحساسًا بعدم جدوى انتظار إجابة أو حلّ. كما أنّ الحضور المبهم للآلهة والقدر في أجواء التراجيديات، رغم كونه تذكيرًا بضعف الإنسان وعجز فكره وفلسفته، فإنّه، عبر طرح مفهوم القدر، يمنع إلى حدٍّ ما هيمنة الإحساس العدمي العبثي على المتلقّي. لقد كانت التراجيديات اليونانية، المتداخلة مع الفكر الميتافيزيقي الكلاسيكي اليوناني، جزءًا من الأزمة الانحطاطية التي عصفت بالعالم اليوناني وبمدينة أثينا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وهي الأزمة التي أدّت، بعد ما يزيد قليلًا على نصف قرن، إلى نهاية الحضارة اليونانية الكلاسيكية، مع هزيمة اليونان أمام مقدونيا خلال عقدَي ٣٤٠ و٣٣٠ ق.م، وفقدانها لاستقلالها. ومن هنا، فإنّه لم يكن من قبيل الصدفة أنّ التراجيديا اليونانية اندثرت تمامًا مع زوال المدينة الكلاسيكية الأثينية عام ٤٠٤ ق.م.

٣. اليونان في نهاية الطريق

ألحقت حرب البيلوبونيز خسائر فادحة بالمدن اليونانية المختلفة. خضعت أثينا لفترة من الزمن لهيمنة إسبرطة، ثمّ واجهت بعدها مشكلات وصعوبات عديدة، ولم تستعد قطّ سلطتها، أو هيبتها، أو قدرتها على الإنتاج الثقافي ضمن الإطار الكونوي الذي كانت تنتمي إليه سابقًا.

أما إسبرطة، رغم كونها الطرف المنتصر في الحرب، فقد وجدت نفسها بدورها غارقة في أزمات ومشكلات مدمّرة. ومن الأمثلة على ذلك محاولة تمرّد الهيلوتس والفلاحين الفقراء من أصحاب الأراضي ضد الحكّام الإسبرطيين عام ٣٩٩ ق.م، وهي انتفاضة جرى قمعها قبل أن تتخذ شكلًا كاملًا للثورة.

بعد الحرب، ازداد استغلال العبيد بشدّة، وأدّى الاعتماد المتزايد على عملهم، إلى جانب ازدياد أعدادهم، إلى تقليص الفرص المتاحة للفلاحين الأحرار في العمل. وأسفر تفاقم استغلال العبيد عن تعميق الفجوة بين الفقراء والجياع من جهة، وبين الأثرياء ومُلّاك العبيد من جهة أخرى.

وفي مدن مثل أثينا، وأرغوس، وطيبة، ومدن أخرى، اتّجه العديد من مسؤولي الإمدادات العسكرية، والمرابين، ومُلّاك العبيد، والتجّار الأثرياء، الذين شهدت ثرواتهم وأملاكهم تضخّمًا كبيرًا، إلى بناء منازل فاخرة وشراء أراضٍ شاسعة. وفي المقابل، كان هناك تزايد في أعداد صغار مُلّاك الأراضي الذين تعرّضوا للإفلاس، وانحدروا إلى صفوف الفئات الفقيرة والمعدمة في مجتمعاتهم. وهكذا، خلال عقدَي ٣٩٠ و ٣٨٠ ق.م، تصاعدت الصراعات السياسية – الاقتصادية داخل المدن اليونانية وازدادت حدّتها. وفي هذه الفترة، شهدت اليونان ثورات مثل انتفاضة المحرومين في كورنث عام ٣٩٢ ق.م، والحركة الثورية ضد مُلّاك

العبيـد والأثرياء في أرغوس عام ٣٧٠ ق.م. وقد لجـأ الفقراء الثائرون في هذه الانتفاضات إلى مستويات غير مسبوقة من العنف ضد مُلّاك العبيد والأغنياء.

خلال العقود والسـنوات التي شكّلت النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، عانت مختلف أنحاء اليونان من حالة من عدم الاسـتقرار، تفاقمت فيها الاضطرابـات الأمنية، والثـورات، والحروب الداخلية، إضافـة إلى النزاعات بين المدن المختلفة. في عقد ٣٩٠ ق.م، حاولت إسـبرطة توحيد اليونان بزعامة عسـكرية إسـبرطية، لكنّها فشـلت عمليًّـا في تحقيق ذلك. وقـد أظهر ضعف الجيش الإسـبرطي في مواجهة قوّات كورنث مدى التراجع الذي أصاب قوّتها العسـكرية، ممّا أدّى إلى تـآكل هيبتها وفقدانها للمصداقية السياسـية. وفي هذه السنوات، تزايد التدخل المباشر للإمبراطورية الأخمينية في شؤون المدن اليونانيّة، وفي بعض الحالات، برز نوع من التعاون والتحالف الاسـتراتيجي بين إسبرطة والإمبراطورية الأخمينية، حيث أصبحت إسبرطة تحت النفوذ السياسي للمَلِك الأخميني، في إطار ترتيبات فرضتها المصالح المتبادلة.

في عام ٣٨٢ ق.م، هزمت إسبرطة مدينة طيبة في الحرب واحتلّت أراضيها. لكن بعد ثلاث سنوات، في ديسمبر ٣٧٩ ق.م، نظّم عددٌ من العسكريّين الطِيبيّين انتفاضةً ضد إسبرطة، انتهت بهزيمتها.

في عـام ٣٧٨ ق.م، حاولت أثينا مجدّدًا إنشـاء تحالف بحريّ. لكن الأثينيين زعمـوا هذه المرّة أنّهم لا ينوون متابعة أهدافهم الإمبريالية التي كانت جزءًا من تحالف ديلوس السابق. ومع ذلك، كان «الاتحاد البحري الأثيني» الجديد أصغر حجمًا وأضعف مقارنةً بتحالف ديلوس، وأدّى تأسيسه إلى اندلاع حرب بحرية – برّية بين إسـبرطة والتحالف الأثيني عـام ٣٧١ ق.م. انتهت الحرب بهزيمة

إسـبرطة أمام قوّات الاتحاد، وكانت هذه الهزيمة بدايةً لانهيار المدينة الإسبرطية الذي كان وشيكًا.

في عـام ٣٧١ ق.م، وقع انقلاب في طيبة، وصل من خلاله إلى السـلطة تيّار سياسي يتبنّى أفكارًا توسّعية وطموحات هجومية. وسرعان ما اندلعت الحرب بين طيبة وإسبرطة، وفي تطوّر غير متوقّع، مُني الجيش الإسبرطي بهزيمة ساحقة، انتهت بانتحار قائده. في الوقت ذاته، اندلعت انتفاضة واسعة النطاق في إسبرطة ولاكُونيا، حيث ثـار الهيلوتس والفلّاحون الفقراء الذين لم يكن لهم أيّ حقوق سياسـية. وأدّى هذا التمرد إلى تفكّك الاتّحاد الإسـبرطي بالكامل. ومع انهيار اتّحاد البيلوبونيز، نشـأت مدن جديدة: أصبحت أركاديا مدينة-دولة مسـتقلّة، واتّخذت من «ميغابوليس» عاصمة لها، فيما فقدت إسبرطة مكانتها كمدينة-دولة مستقلة عام ٣٧١ ق.م.

وهكذا، خلال عقد ٣٦٠ ق.م، وبعد سقوط إسبرطة، أصبحت أثينا وطيبة القوّتـين الرئيسـيّتين في اليونان، ودخلتا في منافسـة مباشرة. لكـن الحقيقة أنّ اليونان، بجميع مدنها، كانت قد فقدت قوّتها ولم تعد تمتلك القدرة على الهيمنة. وفي عـام ٣٥٥ ق.م، تفكّك التحالف البحري الأثيني، وانفصلت مدنه بعضها عن بعض. بحلول منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، تحوّلت اليونان إلى مجموعة من المدن-الدول المتفرّقـة، المتناحرة، والضعيفة، وفقدت ما تبقى لها من وحدة وقوّة وتماسـك. وكما قال ألبر ماله وجول إيزاك: فقـد «حان الوقت لأن تخرج زمام الأمور من أيدي المدن اليونانية الضعيفة، لتنتقل إلى دولة شبه يونانية تُعرف باسم مقدونيا»[١]. لقد وصلت اليونان إلى نهاية طريقها.

١. ماله و ژول، تاريخ ملل شرق و يونان، ٣٠٠.

الفصل الثالث: العصر الهلنستي

١. صعود مقدونيا

بعد حروب البيلوبونيز والهزيمة القاسية التي مُنيت بها أثينا، أصبحت إسبرطة القوّة المهيمنة على اليونان لفترة من الزمن، وتبوّأت موقع الدولة-المدينة الرئيسية والمهيمنة على الحضارة اليونانية. لكنّ فترة قوّة إسبرطة ومحوريّتها لم تدم طويلًا. في الواقع، خلال النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى صعود مقدونيا كقوّة مسيطرة وموحّدة، ظلّت المدن اليونانية في حالة دائمة من الصراع والتنافس والحروب فيما بينها. وكان تاريخ اليونان خلال هذه المرحلة تاريخًا من التنافس، والنزاعات، والمواجهات المستمرة بين المدن-الدول اليونانية. في هذا السياق، كانت المنافسة الأبرز تدور بين ثلاث مدن رئيسية: أثينا، التي بدأت تدريجيًّا إعادة بناء نفسها في العقد الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وإسبرطة، وطيبة. وخلال النصف الأول من هذا القرن، وبينما كانت هذه المدن تخوض صراعاتها العنيفة والدامية فيما بينها، كانت المدن اليونانية تشهد في داخلها أيضًا موجات من الصراعات الاجتماعية والاقتصادية، إلى جانب الثورات، والتمرّدات، والمصادرات، والقمع، والمجازر.

كان القرن الرابع قبل الميلاد في اليونان بأسرها زمن أزمة شاملة ومستحكمة. فمنذ النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، أخذت أزمة الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية في الاتّساع. في هذه الفترة، أدّى انتشار العدميّة الكونوية إلى

بروز مظاهر من اللامبالاة، والانحلال الأخلاقي، والنسبية المعرفية والأخلاقية، التي ظهرت بوضوح في أفكار الشخصيات البارزة بين السفسطائيين، وكان لهذه التوجّهات أثر مدمّر على المدينة اليونانية. وعلى الرغم من أنّ السفسطائيين كانوا يمثّلون وجهًا من أوجه الميتافيزيقا العدميّة الكونوية، فإنّ تعاليمهم، عن غير قصد، أسهمت في إضعاف أسس المدينة الأثينية الكلاسيكية ونموذج المدينة الكلاسيكية اليونانية بأكمله. كانت أفكار السفسطائيين نتيجة مباشرة لتوسّع الميتافيزيقا العدمية الكونوية اليونانية، التي كانت بمثابة الروح المدبّرة للعالم اليوناني – الروماني. غير أنّ هذه الأفكار نشأت في المرحلة المبكرة من أزمة المدينة اليونانية وديمقراطيتها الكلاسيكية، وأسهمت في تفاقم هذه الأزمة وتعميقها. فقد كان التيّار الفكري السفسطائي يمثّل أعراض أزمة المدينة اليونانية، ويجسّد خطابها. لكن، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن السفسطائيون يسعون عمدًا إلى تقويض أسس أثينا أو غيرها من المدن اليونانية، بل كانوا يظنّون أنّهم يسهمون في توسيع وتعميق الديمقراطية اليونانية. غير أنّ الواقع كان مغايرًا تمامًا. فقد كشفت آراؤهم، في المجال النظري، عن القلق الذي أحدثته الميتافيزيقا العدميّة الكونوية، تمامًا كما كانت الفوضى المتزايدة، والانقسامات المتفاقمة، واحتدام التنافس والصراع بين المدن اليونانية، فضلًا عن تصاعد النزاعات بين الفئات والطبقات الاجتماعية والاقتصادية داخلها، مؤشّرات واضحة على تجلّي الأزمة في المجال العملي. وكانت هذه الأزمة هي التي انتهت بإسقاط المدن اليونانية في قبضة مقدونيا.

الوضع العام في اليونان من ٤٠٤ ق.م إلى ٣٥٥ ق.م

خلّفت حرب البيلوبونيز اليونان في حالة من الدمار الشامل. لم تقتصر الأضرار الجسيمة على أثينا، التي كانت الطرف الخاسر في الحرب، بل حتى إسبرطة، رغم انتصارها، وجدت نفسها غارقة في أزمة عميقة مدمّرة. ففي عام ٣٩٩ ق.م، شهدت إسبرطة محاولة للإطاحة بالطبقة الحاكمة، لكنّها قُمعت بشدّة.

«بعد الحرب، تفاقم استغلال العبيد إلى حدٍّ كبير، مما أدّى إلى اتّساع الفجوة الطبقية بشكل صارخ. ففي أثينا، وأرغوس، ومدن يونانية أخرى، برزت طبقة جديدة من مُلّاك العبيد الأثرياء، التي تشكّلت من مورّدي الجيش، وتجّار الحبوب، والمرابين. أصبح هؤلاء يشترون الأراضي ويبنون القصور الفاخرة، في حين تصاعد التوتّر داخل المدن بسبب تفاقم الصراع السياسي والاجتماعي. بدأت الطبقات الدنيا بالانتفاض ضد الأثرياء، وتزايدت الدعوات إلى إعادة توزيع الأراضي وإلغاء الديون. وفي عام ٣٩٢ ق.م، ارتكب المحرومون في كورنث مجزرة ضد عدد كبير من النبلاء والنخب الاجتماعية. وفي عام ٣٧٠ ق.م، اندلعت حركة مشابهة في أرغوس، حيث قتل الفقراء ما يقارب ١٥٠٠ شخص من الأغنياء بضربات «السيتال» (الهراوة)، ويقومون بتقسيم ممتلكاتهم. تنتشر قوّة الهراوة لتشمل مدنًا أخرى في البيلوبونيز. وكما قال إيزوقراط، خطيب أثينا ومفكّرها السياسي في القرن الرابع قبل الميلاد: «لم يكن لدى الفقراء أيّ فكرة سوى نهب ثروات الأغنياء». في هذه الفترة، شهدت الحياة السياسية اليونانية مرحلة من التدهور والانقسامات الداخلية. وقد تسبّبت حملة المرتزقة اليونانيّين بقيادة كورش الثاني في اندلاع صراع بين إسبرطة والفرس، ما دفع إسبرطة

إلى تعزيز نفوذها في اليونان بحجّة الدفاع عن استقلال المدن اليونانية في آسيا الصغرى، فعملت على حشد كافة القوى العسكرية اليونانية لتحقيق هذه الغاية. استئناف هذه الحملة العسكرية ذات طابع الوحدة اليونانية عام ٣٩٧ ق.م تحت قيادة ملك إسبرطة لم يفضِ إلى نتيجة. فقد استفاد جميع معارضي إسبرطة من ذلك، وفي مقدّمتهم طيبة، ثم أثينا، وأرغوس، وكورنثوس، حيث جاهروا بعدائهم لها. أما الفرس [المقصود هو النظام الأخميني] فقد أقاموا صلة مع التحالف المناوئ لإسبرطة، فيما قبلت الدول اليونانية المعونات المالية السخيّة من عدوها السابق. لقد كشفت حرب كورنثوس (٣٩٥ ق.م – ٣٨٧ ق.م) عن ضعف إسبرطة، حيث حال التحالف المؤلّف من أثينا وطيبة وأرغوس وكورنثوس دون تقدّم الإسبرطيّين في مضيق كورنثوس، فوجدت إسبرطة نفسها شبه معزولة في البيلوبونيز. وقد استغلّ الفرس هذا الحدث ليكثفوا تدخلّهم الجريء في شؤون اليونان. وإذ رأت إسبرطة نفسها في موقف غير مؤاتٍ، أرسلت قائد أسطولها، أنتالسيداس، لطلب العون من الفرس [بلاط النظام الأخميني]... وبعد فترة من الزمن، تمكّن الفرس، بمساندة إسبرطة، من فرض هيمنتهم على الأوضاع، وأخضعوا اليونانيين لسلطة ملكهم... لقد أُبرِمَ «صلح أنتالسيداس» أو «صلح الملك» عام ٣٨٧ ق.م، واضعًا اليونان فعليًّا تحت حماية الفرس، وهي نتيجة لم يستطع لا داريوس ولا خشايارشا تحقيقها بالسلاح»[١].

لقد انصبّ جزءٌ مهم من جهود اليونانيين بعد انعقاد «صلح أنتالسيداس» على التخلّص من نفوذ وسلطة النظام الأخميني. وبعد بضعة عقود من هذا الصلح، وفي زمن الحملة العدوانية للإسكندر على إيران، يمكن تمييز بُعدين رئيسيين

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان (يونان)، ١٦٢ – ٦٥.

مترابطين في مضمون هذا الغزو: أوّلًا، إنّ غزو الإسكندر، بل وشخصيّته وسلوكه السياسي في جوهرهما، يُجسّدان الوجه الاستبدادي والتوسّعي والعدواني لروح العالم الغربي القديم، الذي تجلّى بوضوح عبر سلسلة الحروب والاعتداءات العسكرية التي شنّها، وهي صفة كانت قد ظهرت بوادرها في مراحل مختلفة من تاريخ الحضارة اليونانية. في الواقع، إنّ الإمبريالية الاستبدادية والمتفرّدة للإسكندر تمثّل امتدادًا وتوسّعًا للاستعمارية العدوانية التي تجسّدت في سياسات بريكليس، ولها جذورها العميقة في جوهر الكيان اليوناني، بحيث لا يمكن اعتبارها ظاهرة منفصلة عن النظام المدنيّ اليونانيّ ذاته. ثانيًا، في غزو الإسكندر لإيران، يمكن تلمّس بُعد آخر يتمثّل في نهضة اليونانيّين ضدّ صلح أنتالسيداس، وهو ما يمكن إدراجه ضمن امتداد الصراع التاريخي الطويل بين اليونان والإمبراطورية الأخمينية.

في عام ٣٧٨ ق.م، أسّست أثينا اتحادًا بحريًّا، ممّا أدّى فعليًّا إلى نشوء إمبراطوريّتها الثانية، غير أنّ هذه الإمبراطورية لم تبلغ قوّة إمبراطورية أثينا في القرن الخامس ق.م، ولم تدم طويلًا، إذ انهارت عام ٣٥٣ ق.م. أمّا إسبرطة، فقد شهدت خلال عقد السبعينيّات من القرن الرابع ق.م انحدارًا أكثر حدّة. ففي عام ٣٧١ ق.م، مُنيت بهزيمة قاسية في ليوكترا، بالقرب من بلاتايا، أمام جيش طيبة بقيادة إبامينونداس. إثر هذه الهزيمة، تقدّم جيش طيبة، بقيادة إبامينونداس، نحو البيلوبونيز، فانتزع ميسينيا من سيطرة إسبرطة، وبسط نفوذه على لاكونيا، كما أسّس مدينة مغابوليس في ميسينيا، مما أدّى إلى تدمير النظام الإسبرطيّ بالكامل. وفي عام ٣٦٢ ق.م، خاض إبامينونداس معركة مانتينيا ضد أثينا، حيث خرج منتصرًا، لكنّه أُصيب بجروح قاتلة قضت عليه. ومع وفاته،

سرعان ما بدأ تراجع قوّة دولة طيبة. يصف أولريش فيلكن ويُوجين بورزا حال اليونان في هذه الفترة قائلين:

«إن كان هـذا الـصراع بين الدول اليونانيـة مؤلمًا، فإنّ الأوضـاع الداخلية للبوليسـات لم تكن أقلّ إيلامًا منه. فقد اشـتدّ النزاع بين الأحزاب المتخاصمة يومًـا بعد يوم، وأدّى تغلّب الطرف المنتصر إلى تدمـير الطرف المغلوب بدرجة متزايدة. أمّا النزعات المتطرّفة في الديمقراطيات، مثل أثينا، التي بدأت في القرن الخامس ق.م، فقـد أصبحت أكثر إفراطًا تدريجيًّا. لقـد أدّى حكم البروليتاريا [أي الشرائح محدودة الدخل والمعدمة في اليونان القديمة]، تحت قيادة زعمائها، إلى فـرض هيمنة طبقيّة متعاظمـة... في الواقع، كان هنـاك صراع بين الأغنياء والفقـراء، طُرحت خلالـه مطالب جوهريـة، مثل إعادة توزيـع الأراضي أو إلغـاء الديون ونحو ذلك. أمّـا في الدول التي كانت تحكمهـا أقليّة، فقد كانت الحرب الطبقية مستعرة بنفس الحدّة من الطرف المعارض. وهكذا، كان المنفيّون والمفلسـون يشـكّلون طبقة بروليتارية متزايدة، بلا مـورد أو مهنة... وأضحى هذا تهديدًا لكلّ بلاد اليونان. فقد انخرط الكثير منهم في أعمال اللصوصية على الطرقات، أو جعلوا البحار غير آمنة عبر أعمال القرصنة. غير أنّ معظمهم، بدافع الحاجة، اسـتأجروا أنفسهم كجنود مرتزقة في خدمة أيّ قوّة كانت تعرض أعلى الأجور. لقد كان نظام الارتزاق هذا بـلاءً حلّ بالأمة اليونانية بأسرها... لكنّ اليونان لم تكن تُزوّد الجيوش بالجنود فقط، بل بالأمراء والقادة أيضًا. فكثير من القـادة البارزين في ذلك العصر، إن لم يجدوا في الداخل ما يرضيهم سياسـيًّا، أو إذا سـئموا من أوضاع بلادهم، كانوا يلجؤون إلى الخدمة في الخارج. لكنّ أسوأ عاقبة لهـذه الأوضاع كانت تدهور المفهوم القديـم للدولة، ذلك المفهوم الذي

لطالما ألهمَ اليونانيين هذا الإحساس الفخور بأنّ أعظم واجبٍ وأسمى مسؤوليّة لهم هي التضحية بأموالهم وأرواحهم دفاعًا عن دولتهم... وهكذا، فقدت فكرة البوليس قيمتها وسط متطلّبات الحياة اليومية، وازدادت اهتزازًا بفعل الأفكار التي روّجها مفكّرو العصر التقدّميّون»[١].

كان ظهور السوفسطائيين وصعودهم كتيّار فكري في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م، في آنٍ واحد، مؤشّرًا على تعمّق أزمة العالم اليوناني وعاملًا في تفاقمها وانتشارها. فقد قاموا، عبر نشرهم للنسبية المعرفية والأخلاقية، بالتعبير عن نزعة شكّية ولا أخلاقية متولّدة من رحم الفكر الكونيّ المركزيّ، وفي الوقت ذاته–سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه–ساهموا في زعزعة الأسس التي قامت عليها الحضارة اليونانية، والتي كانت مبنيّة على مبدأ البوليس ومتمثّلة في صيغتها الكلاسيكية النهائية. في الواقع، كان السوفسطائيّون، بوصفهم التجسيد الفكري والنظري والثقافي للأزمة التي عصفت بالعالم اليوناني، يؤدّون دورًا في استكمال اضطراباته وتعميق أزمته وانحطاطه الفعليّ.

لقد حاول سقراط، بالاستناد إلى النزعة الديمقراطية الأرستقراطية ونموذج المدينة القائم عليها في العالم اليوناني، ومن خلال مجابهته الفكرية مع السوفسطائيّين (تحت راية حبّ الحكمة والفلسفة)، أن ينبّه أثينا وسائر اليونانيين إلى الأزمة الانحطاطية التي كانت تهدّدهم وإلى خطر اندثارهم، لكنّه أخفق في ذلك، وانتهى به الأمر بأن فقد حياته.

أسّس أفلاطون (تلميذ سقراط) أكاديميّته في أثينا عام ٣٨٦ ق.م، وسعى من خلالها، بجدّية وصراحة أكبر وبأسلوب أكثر تنظيمًا، إلى مواجهة السوفسطائيين

١. ويلكن وبرزا، اسكندر مقدوني، ٤٣ – ٤٥.

وإثارة وعي بخطر الانهيار الذي كان يهدّد اليونان. كما حاول، من خلال تفعيل النزعة الديمقراطية الأرستقراطية للعالم اليوناني، احتواء الأزمة الانحطاطية أو التقليل من آثارها. كان أفلاطون يرى أنّه إذا تخلّى العالم اليوناني عن مسار البوليس الكلاسيكي والديمقراطية الكلاسيكية المرتبطة به، فثمّة إمكانية لإنقاذه من الفناء الوشيك الذي كان يتربّص به، وذلك من خلال انتهاج طريق آخر، كنوعٍ من الديمقراطية الأرستقراطية شبيهة بالنموذج الإسبرطي، أو نظام ملكيّ مستوحًى من الفكر الفلسفي المناهض للسوفسطائيين. كان أفلاطون ملتزمًا ومؤمنًا بأسس الفكر الكونويّ اليوناني، وسعى، في إطار هذا الالتزام، إلى مواجهة النزعة النسبية في الأخلاق، والشكّ المعرفي، واللامبالاة، والتنصّل من الالتزام والمسؤولية، والفوضوية، التي كانت جميعها من إفرازات التعاليم السوفسطائية. بل إنّه بذل محاولات لإقناع حاكم سيراكيوز بتطبيق نموذج المدينة الذي اقترحه، لكنها باءت بالفشل. توفّي أفلاطون عام ٣٢٧ ق.م.

لقد أدّت التناقضات الداخلية في الاتحاد البحري الثاني لأثينا في نهاية المطاف إلى انهياره. فقد أعلنت بوليسات رودس وكوس وخيوس عن نزعاتها المناهضة لأثينا وانسحبت من الاتحاد. وفي عام ٣٥٥ ق.م، شنّت أثينا حملة عسكرية ضدّها، لكنّها مُنيت بالهزيمة، وكانت هذه الضربة قاصمة لهيبتها وقوّتها العسكرية والسياسية، حيث شكّلت إيذانًا بنهاية عصر ازدهارها، ودَفَعَتها أكثر فأكثر في مسار الانحدار والتراجع.

وبعد عام ٣٥٥ ق.م، لم تتمكّن أثينا مجدّدًا من أن تصبح قوّة سياسية-عسكرية ذات شأن في العالم اليوناني أو خارجه، واستمرّ مسار تدهورها حتى بلغ بها الأمر، في عام ١٤٦ ق.م، وبعد تدمير كورنثوس، أن فقدت استقلالها

بالكامل مع احتلال الرومان لليونان، حيث فرضوا سيطرتهم على وسطها وجنوبها، منهين بذلك استقلال أثينا وباقي المناطق اليونانية نهائيًّا.

ومع ذلك، بعد عام ٣٥٥ ق.م، ظلّ النفوذ الثقافي والفكري لأثينا قائمًا، بل ازداد اتساعًا، حيث انتشر، عبر حملات فيليب المقدوني والإسكندر، في مناطق شاسعة من الشرق الأدنى، ومصر، وإيران، وأجزاء من الهند، بالإضافة إلى مناطق من آسيا الوسطى، وبلخ، وسُغد. وهكذا، بدأ العصر الهلنستي واتّسع نطاق تأثير الثقافة والأدب، ولا سيّما الفلسفة اليونانية، ليشمل أجزاءً من أوروبا وروما. في الواقع، نشر التيّار الهلنستي روح الحضارة اليونانية في فضاء جغرافيّ واسع، وفقًا لمقاييس الترابط في العالم القديم، وعزّز انتشار الثقافة والأدب والفلسفة اليونانية بشكل غير مسبوق. ولذا، تُعدّ الهلنستية، في تاريخ الغرب القديم (العالم اليوناني–الروماني)، إحدى الفترات البارزة التي شكّلت مسار تطوّر الحضارة الغربية القديمة.

كان للعالم الغربيّ القديم ثلاث فترات رئيسية ومهمّة:

١. فترة ظهور وازدهار اليونان القديمة.

٢. فترة الهلنستية، التي بدأت مع هيمنة المملكة المقدونية واستمرّت لعدّة قرون، من عام ٣٣٨ ق.م إلى عام ٣١ ق.م.

٣. فترة ظهور، توسّع، ثم انحطاط روما القديمة.

وعلى أيّ حال، فقد دخلت اليونان، بعد عام ٣٥٥ ق.م، في مسار انتهى بها إلى الخضوع للهيمنة السياسية المقدونية، وإلى بدء العصر الهلنستي، وهو ما تحقّق فعليًّا بعد هزيمتها أمام مقدونيا في «معركة خيرونيا» عام ٣٣٨ ق.م، ثمّ قبولها سيطرة فيليب المقدوني وانعقاد المؤتمر الكبير في كورنثوس عام ٣٣٧ ق.م.

«وهكـذا، وجدت هـلاس [اليونان] نفسـها، عـام ٣٥٥ ق.م، رغم جميع المحاولات لترسـيخ وحدتها، مشرذمة ومفكّكة: ففي الشـمال، باتت ثيسـاليا أكثر فأكثر تحت سـيطرة مقدونيا. وفي وسـط اليونان، تبنّت العديد من المناطق سياسات مستقلّة. أمّا في البيلوبونيز، فقد كان القتال محتدمًا بين البوليسات التي باتت مسـتقلّة بعد انهيار إسبرطة. فيما شهدت البوليسـات الجزريّة والساحليّة انقسامًا سياسـيًّا واضحًا... وهكذا، بحلول منتصف القرن الرابع ق.م، كانت اليونان بأسرها قد دخلت في أزمة سياسية حادّة لم يكن ثمّة مخرج واضح منها.»

مقدونيا ومعركة خيرونيا

بعـد انتهاء حروب البيلوبونيز، بدأت الأراضي والشـعوب التي كانت على هامش العالم اليوناني تشـهد تحوّلات تدريجية، حيـث لعب بعضها لاحقًا دورًا مهمًّا، بل محوريًّا، في هـذا العالم. ومن بين هذه المناطق، برزت إبيروس وأركاديا ومقدونيا، التـي اتّجهت نحو تغييرات اقتصادية وإعـادة تنظيم هيكليّ في بنيتها المدنية-السياسـية. غير أنّ دور مقدونيا تميّز عن غيره، إذ شهدت هذه المملكة، خلال النصف الأوّل من القرن الرابع ق.م، تحوّلات عميقة، وأصبحت، خلال عقدَي ٣٥٠ و٣٤٠ ق.م، قوّة حاسمة في العالم اليوناني القديم.

أين تقع مقدونيا من الناحية الجغرافية؟ مقدونيا هي أرض صغيرة في جنوب أوروبا، تشـكّل الجزء الجنوبي من شـبه جزيرة البلقان، وهي محاطة باليابسة من جميع الجهات دون منفذٍ بحريّ. وتتألّف في معظمها من تضاريس جبلية. استوطن أسلاف المقدونيّين هذه المنطقة منذ الألفيّة الرابعة والثالثة ق.م.[١] كانت مقدونيا تحدّها من الجنوب والجنوب الغربي إبيروس وثيساليا وشبه جزيرة خالكيديكي،

١. انظر: مؤسسة جغرافيايى و كارتوگرافى گيتاشناسى، گيتاشناسى نوين كشورها، ٤٢٣.

بينما كانت من الشرق مجاورة للقبائل التراقية، التي كانت قد توحّدت في القرن الرابع ق.م. كانت لغة أهل مقدونيا لهجة من اللغة اليونانية، لكنّها لم تكن مفهومة تمامًا لليونانيين. وقد أسهمت العزلة الجغرافية، بفعل الغابات والجبال والسهول الخصبة، في خلق نوع من الفاصل بين المقدونيين واليونانيين. سادت في مقدونيا بنية من القَبَلية العسكرية، شبيهة إلى حدّ ما بالنموذج الأرستقراطي الذي كان سائدًا في العصر السابق لهوميروس، لكنّ وجود قيادة عسكرية موحّدة تحت سلطة الملك جعلها مختلفة عن نظام البوليس اليوناني، لا سيّما النموذج الكلاسيكي منه. كانت سلطة الأرستقراطية القَبَلية، رغم ارتباطها بسلطة الملك، تحدّ من نفوذه، لكنّها بدورها كانت مقيّدة بتأثير الملك عليها. ومن الناحية النظرية، لم تكن هذه البنية تُولي أهمية كبيرة لمفهوم ديموس، على الرغم من اختلافها عن الأنظمة الملكية التقليدية المعروفة.

كانت مقدونيا جزءًا من المجال الناطق باليونانية، لكنّها، عبر القرون، تباعدت تدريجيًا عن اليونان، حتى باتت في القرن الرابع ق.م في وضعيّة جعلتها تبدو غريبة بالنسبة لمعظم اليونانيّين، رغم أنّ جذورها الهويّاتية، والقومية، والثقافية كانت يونانية. والحقيقة أنّ مقدونيا، وإن كانت يونانية من حيث اللغة وبعض الجوانب الثقافية الأساسية، إلا أنّها طوّرت، في المجمل، هويّةً متميّزة عن البوليسات اليونانية في البرّ اليوناني والأناضول. كان المقدونيّون أشبه بيونانيّين ابتعدوا عن اليونان وهويّتها، حتى باتوا غرباء في نظر اليونانيّين القائمين على نظام البوليس. لم تكن مقدونيا يونانًا، لكنّها كانت يونانية.

«إنّ بدايات تاريخ مقدونيا غارقة في ظلامٍ مطبق. ولا يزال هناك جدلٌ بين علماء الأجناس عمّا إذا كان المقدونيون يونانيين أم لا. فاللغويون لا يمتلكون

سوى عددٍ قليلٍ جدًّا من الكلمات المقدونية، فيما لا تزال الحفريات الأثرية في مقدونيا في مرحلةٍ سابقة على بدايتها الفعلية. ومع ذلك، عندما نأخذ في الاعتبار الأوضاع السياسية والدينية والأخلاقية للمقدونيّين، نزداد يقينًا بأنّهم كانوا قومًا يونانيّين يرتبطون بصلة قرابة مع الدوريّين. غير أنّ عزلتهم في أقاصي الشمال جعلتهم عاجزين عن المشاركة في الحضارة المتقدّمة للقبائل التي استوطنت الجنوب، ولهذا، عندما برزوا أمام أنظار سائر اليونانيين خلال الحرب مع فارس، بدوا وكأنّهم شعبٌ غير يوناني. وبصرف النظر عن العزلة الجغرافية التي فصلت اليونانيين عن المقدونيين، فإنّ النظرة إلى المقدونيّين على أنّهم برابرة تعود، إلى حدٍّ ما، إلى صلتهم الوثيقة والطويلة بجيرانهم من الشعوب غير اليونانية، مثل الإيليريين (أسلاف الألبان المعاصرين) في الغرب، والتراقيين في الشرق. ولهذا السبب، يمكن تمييز أثر واضح من الطابع الإيليري والتراقي في لهجة المقدونيّين وسلوكهم. ومع ذلك، فإنّ هذه التأثيرات تُعدّ ضئيلة عند مقارنتها بالطابع اليوناني للأمّة المقدونية. فعلى سبيل المثال، كانت الأسماء المقدونية، لا سيّما أسماء الأمراء والنبلاء، ذات بنية وأصوات يونانية خالصة. والأهمّ من ذلك، أنّ السمات الأساسية للمؤسّسات السياسية المقدونية لم تكن يونانية فحسب، بل يونانية قديمة. فقد استمرّ نظام الملكية الأبوية على الشعب والجيش هناك حتى عهد فيليب والإسكندر. وهذا النمط من الحكم كان موجودًا في جميع القبائل اليونانية قديمًا، إلى أن أفسح المجال أمام الأشكال الأرستقراطية من الحكم تحت تأثير نظام البوليس الذي أدّى إلى تآكله التدريجي»[١].

في مقدونيا، كانت هناك قبائل متعدّدة تعيش في تنافس فيما بينها قبل تأسيس

١. ويلكن وبرزا، اسكندر مقدوني، ٥٦ – ٥٨.

المملكة الموحّـدة، وكان لكلٍّ منها مملكته الخاصّة. ومن بين هذه القبائل، برزت أربع قبائل رئيسـية: الأرغياد، اللينكِستيّون، الأورِسـتيّون ، والإليميّون. ومن بين هـذه القبائل الأربع، كانـت قبيلة الأرغياد هي التي تمكّنـت في النهاية من فـرض سـيطرتها واتّخاذ دور محـوري في توحيد مقدونيـا. في العقد الأخير من القرن الخامـس ق.م، قام أرخِلاوس، بصفته ملك مقدونيا، بتأسـيس نوع من الحكم المركـزي الموحّد. كان أرخِلاوس شـديد الإعجاب بالثقافـة اليونانية، وكان بحـقٍّ هيلينوفيـليّ (محبًّا لليونان). فقد أولى اهتمامًا أكبر من أسـلافه بنشر الثقافة اليونانية في مقدونيا، ودعا أشهر الفنّانين والشعراء اليونانيين إلى العاصمة الجديدة، بيلا، حيث اسـتقرّوا هناك. وكان من بين هؤلاء الشـاعر التراجيدي الشهير يوريبيديس، الذي قضى سنواته الأخيرة في البلاط المقدوني. إلّا أنّ اغتيال أرخِلاوس عام ٣٩٩ ق.م أدخل مقدونيا في أربعة عقود من الصراعات الداخلية والخارجيـة، والتنافس بين عدّة طامحين إلى العـرش. غير أنّ هذه الاضطرابات انتهـت مع صعود فيليـب الثاني إلى الحكم عام ٣٥٩ ق.م، حيث أسّـس مملكة مركزية موحّدة وقويّة، ممّا دشّن مرحلة جديدة في تاريخ الغرب القديم. لقد كان إنشـاء المملكة الموحّدة على يد فيليب الثاني الخطوة الأخيرة التي سـبقت ظهور العصر الهلنستي، وهو العصر الذي بدأ فعليًّا مع حملات الإسكندر، ابن فيليب، العسكرية.

من هو فيليب؟ يصفه وِل ديورانت على النحو التالي:

«كان يمتلـك كلّ شيء باسـتثناء مظاهر الحضارة. كان رجـلًا قويّ البنية، شديد الإرادة، رياضيًّا، جميل الملامح. كان أشبه بحيوانٍ جميل يحاول أحيانًا تقليد نبلاء اليونان. أحبّ الحرب وعشـق الخمر الفتّاك أكثر. أحبّ الفتيان، لكنّه كان

مولعًا أكثر بالنساء، فتزوّج منهنّ ما استطاع. في البداية، اكتفى بامرأة واحدة، أوليمبياس، تلك الأميرة الجميلة الجامحة التي أنجبت له الإسكندر، لكن شهواته دفعته لاحقًا إلى نساء أخريات... كان فيليب رجلًا ذكيًّا، حاذقًا، صبورًا، قادرًا على الانتظار طويلًا حتى تحين الفرصة المناسبة، وعازمًا على اللجوء إلى أصعب الوسائل لتحقيق أهداف بعيدة المدى. في السياسة، كان مخادعًا وخائنًا، ولم يكن يجد حرجًا في نكث وعوده بضمير مرتاح»[١].

أسّس فيليب جيشًا قويًّا، واستغلّ حالة التشرذم والأزمة التي كانت البوليسات اليونانية غارقةً فيها، مترقّبًا الفرصة المناسبة لفرض الهيمنة السياسية المقدونية على اليونان، رغم أنّه كان، من الناحية الثقافية، يونانيًّا يسعى إلى نشر الثقافة اليونانية. في عام ٣٥٦ ق.م، وفّرت الحرب المعروفة بـ«الحرب المقدّسة» فرصة استثنائية لفيليب للتدخّل في الشؤون الداخلية لليونان. بدأت الأحداث عندما استولى الفوسيديّون (سكّان فوسيد) على ممتلكات معبد دلفي، فقامت ثيساليا بمحاربتهم لاستردادها. وسرعان ما توسّع نطاق الحرب، وامتدّ ليشمل عدّة بوليسات أخرى. طلب أهل ثيساليا المساعدة من فيليب، وبعد عشر سنوات من القتال العقيم، أُبرم عام ٣٤٦ ق.م اتّفاق سلام عُرف باسم «صلح فيلوكريتس»، الذي أفاد فيليب أكثر من غيره، إذ تمّ بموجبه الاعتراف رسميًّا بسيطرة مقدونيا على تراقيا، كما وضع فيليبَ عمليًّا في موقع المنقذ والحَكَم والعامل الموحِّد للدول-المدن اليونانية. لقد كان فيليب، في الواقع، يسعى إلى توحيد البوليسات اليونانية على أساس الثقافة اليونانية، تحت قيادة الجيش والملكية المقدونية، بهدف محاربة الشعوب غير اليونانية، أو ما كان اليونانيون

١. دورانت، يونان باستان، ٥٣٥.

يسـمّونهم «البرابرة»، وعلى رأسهم الفرس. لقد كان طموحه الحقيقي أن يكون الممثّل الفعلي للوحدة اليونانية في مواجهة الفرس وسائر الشعوب غير اليونانية.

كان فيليب يُبدي قدرًا كبيرًا من الصبر وضبط النفس في تعامله مع اليونان، وكان سلوكه يوحي وكأنّه يواجه قريبًا كبيرًا ومحترمًا. يبدو أنّه لم يكن يعتبر نفسه منفصلًا عـن اليونان، فقد كان يدرك جيّدًا أنّ مقدونيا، وإن لم تكن يونانًا، فإنّها يونانية.

خلال فترة حكمه، نفّذ فيليب إصلاحات عسـكرية واقتصادية واسـعة في مقدونيا، عزّزت قوّتَها تدريجيًّا. أنشأ نظامًا للمالية العامة للدولة، وحوّل مخزوناته من المعادن النفيسة، كالذهب والفضّة، إلى عملات متداولة. ارتكز حكم فيليب على اسـتغلال عمل الفلاحين الفقراء، وتسـخير قوّة العبيد، ونهب الشـعوب والأراضي الأخرى. وقد أدّى صعود السـلطة الملكية المقدونية خلال عهده إلى أن يتبنّى بعض اليونانيين فكرة الاسـتفادة من قوّته العسـكرية والسياسية، بغية توحيد اليونان المتأزّمة، المتشرذمة، والعاجزة، تمهيدًا لغزو فارس، مصر، وسائر المناطق والشعوب.

كانـت الأزمة العميقة التي عصفت باليونان آنـذاك قد دفعت الكثيرين إلى الاسـتنتاج بأنّه لا مفرّ من توحيـد اليونان للخروج من الوضـع المتردّي الذي وقعت فيه.

كما أدرك أنصار هذا التصوّر أنّ نموذج الديمقراطيات القائمة على البوليس، ولا سـيّما النموذج الكلاسـيكي للبوليس اليوناني، لم يكن مؤهّلًا على الإطلاق لتحقيق هذه الوحدة المنشودة. وهكذا، بدا أنّ الأرضية باتت مهيّأة تقريبًا لتقبّل شكل من أشكال النظام الملكيّ المركزيّ في اليونان. في نظر العديد من المفكّرين

اليونانيّين، فقدت فكرة البوليس الديمقراطي-بمختلف صورها، لا سيّما الصيغة الكلاسيكية منها-كلّ مصداقيّتها. كما أنّ النزعة الميتافيزيقية العدمية الكونويّة، في صيغتها الديمقراطية البوليسية، جنبًا إلى جنب مع التعاليم النسبية السوفسطائية، قد تعرّضت لانهيارٍ كامل، وكان معظم اليونانيين يشعرون بذلك.

كان أنتيستِنيس الكلبي أوّل من دافع علنًا، في ظلّ أوضاع العالم اليوناني آنذاك، عن تأسيس نظام ملكيّ. كان أنتيستنيس مفكّرًا وُلِد في أثينا نحو عام ٤٤٤ ق.م. تتلمذ لفترة على يد غورغياس السوفسطائي، ثمّ انضمّ لاحقًا إلى حلقة تلاميذ سقراط[١]. لكنّ جوهر آراء أنتيستِنيس يختلف عن أفكار سقراط وأفلاطون، ويقترب أكثر من مواقف السوفسطائيين واللاأدريين. فقد أنكر أنتيستِنيس وجود الماهيّات، وكان لهذا الادّعاء، في امتداده المنطقيّ، أن يؤدّي إلى نفي كلّ معرفة وعلم. وعلى الرغم من أنّه لم يدافع صراحة عن الشكّ، إلّا أنّ تعاليمه كانت متلازمة مع النزعة النسبية والشكّ، اللتين كانتا من الأزمات الفكرية الشائعة في العالم اليوناني آنذاك. كان أنتيستِنيس وأتباعه من الكلبيّين يدعون إلى نمط حياة قائمة على الإعراض عن العالم، ونوع من الزهد السلبيّ غير السويّ. ويمكن اعتبار تعاليم أنتيستِنيس والفلسفة الكلبيّة بأسرها إحدى العلامات والمظاهر الدالّة على الانحطاط الشامل الذي اجتاح العالم اليونانيّ، سواء على مستوى الفكر أو العمل.

بعد أن قدّم أنتيستِنيس رؤيته حول ضرورة النظام الملكي لليونان، تبنّى زينوفون أيضًا هذا الرأي، معتبرًا أنّ النظام الملكيّ هو السبيل لإنقاذ اليونان. وقد حاول، من خلال كتابه كوروبيديا، أن يُقنع اليونانيّين بضرورة التوجّه نحو نظامٍ ملكيّ.

١. انظر: مهدوي، شكاكان يونان، ٤٨ - ٥٢.

لم يكن زينوفون فيلسوفًا، بل هو المؤرّخ اليونانيّ الوحيد من القرن الرابع ق.م الذي وصلتنا أعماله. كان قد تتلمذ لفترة على يد سقراط، ثمّ انضمّ إلى الجيش، وشارك في القتال ضمن صفوف جيش إسبرطة ضدّ الجيش الأخمينيّ. وخلال ذلك، أسر أحدَ الأثرياء الفرس، وحصل على فدية ضخمة مقابل إطلاق سراحه، ممّا جعله ثريًّا، وعاش بعد ذلك في راحةٍ حتى وفاته. منحته حكومةُ إسبرطة قطعةَ أرض في إليس، حيث أقام حياةً أرستقراطية، وانشغل بالزراعة والتأليف. كتب زينوفون رسائل وكتبًا متعدّدة، وهو معروفٌ بصفته مؤرّخًا، لكنّه لم يكن مؤرّخًا عميقًا أو موثوقًا به. في كتاب كوروبيديا، الذي يعدّ روايةً خيالية عن حياة كوروش الأخمينيّ، عرض زينوفون رؤيتَه حول شكل الحكم المثاليّ لليونان، مستخدمًا سردًا شبه قصصيّ مليئًا بالمغامرات الرومانسية والأحداث المختلفة، ومن خلال الحوارات التي تدور بين شخصيّاته. يدّعي زينوفون في كوروبيديا أنّ أفضل نظامٍ سياسيّ لليونان هو نظامٌ ملكيّ قويّ، يستند إلى دعم الأرستقراطيين[1].

داخل اليونان، وخاصّة في أثينا، برزت رؤيتان متنافستان تجاه الأزمة التي كانت تعصف بالبلاد: الأولى، وهي التي كان يمثّلها ويقودها الخطيب الأثينيّ الشهير ديموستينيس، ظلّت متمسّكة بإرث الديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، وكانت تخشى بشدّة صعود فيليب وسلطنة مقدونيا، معتبرةً ذلك تهديدًا خطيرًا. الثانية، كانت ترى أنّ على اليونانيين السعي لتحقيق نوعٍ من الوحدة، بحيث يتمكّنون من التغلّب على أزماتهم الداخليّة، وفي الوقت ذاته، يواجهون الشعوب غير اليونانية، أو من كانوا يسمّونهم «البرابرة». في طليعة مؤيّدي هذا التوجّه

1. Synder, Alexander the Great, 96.

كان الخطيب إيسوقراطيس، الذي كان يعتقد أنّ فيليب الثاني قادرٌ على تحقيق المصالحة بين اليونانيين، مع الحفاظ على استقلال البوليسات وحرّيّتها، بحيث يجعل اليونان قوّة قادرة على مواجهة غير اليونانيين.

إيسوقراطيس كان خطيبًا أثينيًّا، وُلِد عام ٤٣٦ ق.م. كان والده يمتلك ورشة لصناعة الفلوت (الناي)، وهو أحد الآلات الموسيقية. لكن بعد حروب البيلوبونيز، تدهورت الأوضاع المالية لعائلته. في عشرينيّات عمره، بدأ إيسوقراطيس بالعمل في كتابة الخطب للآخرين لكسب قوته، ثمّ انتقل لاحقًا إلى ممارسة الخطابة بنفسه. في سنّ الخامسة والأربعين، أسّس مدرسةً لتعليم فنّ الخطابة في أثينا. وقد ساهمت الأزمة العميقة التي شهدتها اليونان في القرن الرابع ق.م، وما صاحبها من انحطاط فكريّ وأخلاقيّ، وانتشار التفاهة والشعبوية على نطاق واسع–وهي جميعها نتائج الديمقراطية البوليسية اليونانية–في ازدهار مهنة الخطباء والساسة. فقد كان بإمكانهم، عبر التلاعب اللفظيّ واستخدام تقنيّات الخطابة، التأثير على جمهورٍ واسع، واستغلال ذلك لتحقيق أهدافهم الخاصة، أو بلوغ الشهرة، والثروة، والقوّة. إيسوقراطيس، من خلال مدرسته، كان يدرّس الأدب والسياسة وفنّ الخطابة، كما عمل على نشر رؤية ثقافية محدّدة. كانت جوهر أفكاره الثقافية تقوم على نوعٍ من التفوّق الهلنستي، والسعي نحو الوحدة الهلنستية. يصف وِل ديورانت إيسوقراطيس وأفكاره على النحو التالي:

«كان يونانيًّا متكبّرًا، وكان، مثل اليونانيين القدماء، يعتقد أنّ الهلنستية لم تكن مجرّد انتماءٍ إلى عرقٍ معيّن، بل هي امتلاك حضارة وثقافة كانتا، في نظره، أسمى ما أبدعه البشر آنذاك. وفي محيط هذا المركز الحضاريّ–في إيطاليا، وصقلية، وأفريقيا، وآسيا، والأراضي التي تُعرف اليوم بالبلقان–كان يعيش «البرابرة». كان يشعر

بالألم حين يرى البرابرة يزدادون قوّة، والفرس يوسّعون نفوذهم ليشمل أيونيا، بينما كانت الولايات اليونانية تستنزف بعضها بعضًا في الحروب الداخلية... [كان إيسوقراطيس يقول:] «إذا كان لا بدّ لليونان أن تخوض الحروب، فلمَ لا تحارب عدوّها الحقيقيّ؟ لمَ لا تدفع الفرس إلى داخل هضبتهم؟... فمثل هذه الحرب المقدّسة ستوحّد اليونان. يجب تحقيق هذه الوحدة، أو الاستسلام لانتصار البرابرة»»[١].

كان موقف إيسوقراطيس من صعود فيليب وهيمنة مقدونيا على النقيض من موقف ديموستينيس. فقد كان ديموستينيس يعارض فيليب بشدّة، معتبرًا أنّ قوّته المتزايدة تمثّل تهديدًا لاستقلال اليونان وحريّته. وتشير بعض الشواهد إلى أنّ ديموستينيس كان يتلقّى دعمًا ماليًّا من الملك الأخمينيّ في حملته الدعائيّة ضدّ فيليب. أمّا إيسوقراطيس، فكان يرى في صعود فيليب فرصةً يمكن لليونانيين الاستفادة منها، بحيث يحقّقون نوعًا من التفاهم والتقارب فيما بينهم، ويتحوّلون، بالتعاون معه، إلى قوّة يونانية موحّدة. ومع ذلك، كان إيسوقراطيس في رؤيته المثاليّة يسعى إلى تحقيق هذا التوحيد مع الحفاظ، في الوقت ذاته، على استقلال البوليسات اليونانية وحرّيتها. وكان إيسوقراطيس بدوره يتلقّى دعمًا ماليًّا من فيليب الثاني، ملك مقدونيا، لمساعدته في الترويج لأفكاره السياسية. وقد كان متحمّسًا بشدّة لتحقيق مشروعه القائم على وحدة الشعوب اليونانية، إلى درجة أنّه كان يرى أنّه إذا عجزت البوليسات اليونانية عن التفاهم فيما بينها، فإنّ توحيدها تحت قيادة فيليب، في إطار نظام ملكيّ، يمكن أن يكون بديلًا مقبولًا. على هذا الأساس، كتب إيسوقراطيس عام ٣٤٦ ق.م رسالة مفتوحة إلى

١. دورانت، يونان باستان، ٥٤٧.

فيليب بعنوان «الملك»، التي كانت في جوهرها رسالة تهدف إلى ترويج الوحدة الهلنية.

بالطبع، قبل إيسوقراطيس، كان هناك خطيب يُدعى غورغياس، يُحتمل أنّه كان أوّل من طرح فكرة الوحدة اليونانية. ففي إحدى خطبه خلال اجتماع الألعاب الأولمبية، دعا غورغياس صراحةً اليونانيين إلى اتّخاذ موقف موحّد، وحثّهم على شنّ حرب ضدّ الفرس والتوسّع نحو الشرق غير اليوناني، بقيادة يونانية[1]. عند الحديث عن الفكر الوحدويّ الذي نادى به إيسوقراطيس وسائر المروّجين لهذه الفكرة في اليونان القديمة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ما كان يسعى إليه اليونانيون تحت عنوان وحدة العالم اليوناني، يختلف جوهريًّا عن مفهوم «الدولة القومية» القائمة على «الوحدة القومية» كما نشأ في العصر الحديث. فلم يكن لدى اليونانيّين، ولا لدى غيرهم من الشعوب في العصور السابقة على الحداثة، أيّ تصوّرٍ قوميّ لمفهوم الأمّة والهوية الوطنية، إذ لم يكن هذا التصوّر مطروحًا لديهم أساسًا. إنّ ما ظهر في الغرب الحديث، ثم انتقل منه إلى العالم المتأثّر بالحداثة الغربيّة بنسختيها الحديثة وشبه الحديثة، تحت عنوان الأمّة والهوية الوطنية، يستند إلى تفسيرٍ قوميّ للسيادة والسلطة السياسية، وهو خاصٌّ بالعصر الحديث، إذ يمثّل أحد الأشكال السياسية–الثقافية لظهور النزعة الإنسانية، التي لم تكن مطروحة في العالم اليوناني القديم. يكتب كلّ من فيلكن وبرزا حول آراء إيسوقراطيس و كتابة الرسالة إلى فيليب ما يلي:

«في السنوات اللاحقة، ومع تزايد النزاعات بين الدول اليونانية الكبرى، أدرك إيسوقراطيس أنّه من المستحيل على اليونان أن تحقّق السلام الداخلي

1. Synder, Alexander the Great, 105.

بمفردها، أو أن تهيّئ الظـروف اللازمة لحرب وطنية جامعة. فقد كانت النزعة الفردية، المتجذّرة في فكرة البوليس الحرّ والمستقلّ، عميقةً للغاية بين اليونانيين. لذلك، رأى هو، مثل آخريـن تحدّثنا عنهم، الحلّ في النظام الملكيّ، وبدأ يبحث عن رجلٍ قويّ لا يكون مقيّدًا بقوانين وقضاء أيّ بوليس، ويكون مهتمًّا بتحقيق مشروع الوحدة اليونانية. وعليه، وجّه نظره إلى أطراف العالم اليونانيّ ... في هذا السـياق، كان يشهد التوسّع المتنامي لمقدونيا في ظلّ حكم فيليب، وصعود هذه القوّة الكبرى في شـمال بلاده. وهكذا، في عام ٣٤٦ ق.م، رفع الرجل التسعينيّ قلمه وكتب رسـالةً مفتوحة بعنوان «فيليـب» وجّهها إلى الملك المقدونيّ، حيث عـرض عليه مشروع الوحدة اليونانية، ودعاه إلى مصالحة اليونانيين بعضهم مع بعض، وقيادتهم في حربٍ ضدّ الفرس، عدوّهم القديم... أنهى إيسـوقراطيس رسـالته بتحذيـرٍ لفيليب، مؤكّـدًا أنّ عليه أن يكـون مُعينًـا لليونانيين، وملكًا للمقدونيين، لا حاكمًا مستبدًّا»[١].

مـع وجود أرضيّة مهيّأة نسـبيًّا لتقبّل سـلطةٍ مركزية قـادرة على وضع حدٍّ للتشرذم، وانعدام الأمن، والفوضى، والحـروب الداخليّة التي مزّقت اليونان، وقعت معركة خايْرونيا بين مقدونيا من جهة، وتحالفٍ من قوات أثينا وطيبة من جهة أخرى، وذلك في أغسـطس عام ٣٣٨ ق.م. انتهـت هذه المعركة بانتصار فيليب، الذي أصبح عمليًّا القوّة المهيمنة على اليونان. حرص فيليب، في تعامله مع اليونانيّين، على اتخاذ موقفٍ مرن وودّي للغاية. فبعد أن ألحق الهزيمة بالجيش الأثيني-الطيبيّ المتحالف، لم يلاحق فلولهم، بل سمح لهم بالانسحاب والفرار دون عوائق. كما قام بإطلاق سراح الأسرى الأثينيّين دون المطالبة بفدية، وأوكل

١. ويلكن و برزا، اسكندر مقدونى، ٥٤ – ٥٥؛ ٧١.

إلى ابنه الإسكندر، وإلى قائده المقرَّب أنتيباتر، مهمّة إعادة رفات الجنود الأثينيين الذين سقطوا في المعركة إلى أثينا، مع إقامة مراسم رسميّة تكريمًا لهم. كذلك، قدّم وعودًا بمنح الاستقلال والحرّية لأثينا وسائر البوليسات اليونانية، مع اشتراط أن تتنازل أثينا لمقدونيا عن منطقة خرسونس في تراقيا. أثارت تصرّفات فيليب وسياسته المتسامحة تجاه اليونانيين، ولا سيّما تعامله المرن مع الأثينيين، دهشتهم، بل وجذبت إعجابهم إلى درجة أنّهم منَحوه، هو وابنه الإسكندر، المواطنة الأثينية، كما شيّدوا تمثالًا له في الأغورا، الساحة المركزية في أثينا التي كانت تضمّ السوق الرئيسيّ وتشكّل القلب المعماريّ للمدينة اليونانية.

كان فيليب الثاني، ملك مقدونيا، يعتبر نفسه يونانيًّا ومنحدرًا من نسل هراكليس، البطل اليونانيّ شبه الأسطوريّ. ولهذا، لم يكن يشعر بأيّ غربة تجاه اليونانيين، بل على العكس، كان يرى نفسه واحدًا منهم. كان فيليب ابن أمينتاس المقدونيّ، وأمّه امرأة من الإيليريين، إحدى القبائل المجاورة لمقدونيا، تدعى أوريديس، وهي ابنة أميرٍ إيليريّ يُدعى إيراس. ومن خلال نسبه الأبويّ، كان فيليب يعتقد أنّه من سلالة هراكليس، ومثلما كان العديد من اليونانيّين يعتبرون أنفسهم من ذرّيّة هراكليس، فقد عزّز ذلك شعوره بالانتماء إلى اليونان. علاوةً على ذلك، قيل إنّ المقدونيين أنفسهم ينحدرون من المهاجمين الدوريّين الذين اجتاحوا اليونان عام ١١٠٠ ق.م، ممّا جعل فيليب والأرستقراطيّة الحاكمة في مقدونيا يشعرون بصلة وثيقة باليونانيّين، ويرون أنفسهم أحد الفروع الأصيلة للشعوب اليونانية. وكما سبق ذكره، كانت اللغة المقدونيّة إحدى لهجات اليونانية. وقد تعرّف فيليب منذ طفولته على الأدب والثقافة اليونانية، وخاصّةً من خلال والدته، التي كانت قد تعلّمت اليونانية، فتشرّب بها منذ صغره وتلقّى تربيته على أسسها.

قام فيليب بنشر فكرة بين اليونانيين، بشكل سرّي، مفادها أنّه مستعدّ لتولّي قيادة حرب موحّدة ضدّ فارس. كان يسعى إلى إنشاء تحالف سياسي-عسكريّ يقوم على الثقافة اليونانية، وتكون مقدونيا مركز قوّته السياسية. وهكذا، تجسّد النظام المقدونيّ وملكه، أي فيليب، كإرادةٍ موحِّدة للعالم اليونانيّ في مواجهة الشعوب غير اليونانية، أي ما يُطلق عليه العالم غير الغربيّ، ليكون بذلك في خدمة مشروعٍ توسّعيّ واستعماريّ قائم على الغزو والفتح العسكريّ. إنّ جوهر الهلينيّة في الغرب القديم كان يقوم على نشر الثقافة والفكر اليونانيّ بين الشعوب غير اليونانية من خلال الحرب والاعتداء والتوسّع العسكريّ. ويمكن القول إنّه عام ٣٣٨ ق.م، وبعد معركة خايْرونيا، كما انتهت مرحلة الحضارة اليونانية الكلاسيكية والعالم اليونانيّ الغربيّ، بدأت مرحلة جديدة، هي مرحلة الهلنستية أو التوسّع الغربيّ-اليونانيّ. كان فيليب الثاني، بانتصاره في خايْرونيا وسعيه لإنشاء اتّحاد يونانيّ تحت قيادة مقدونيا، أوّل من وضع أسس هذا العصر. لكنّ ابنه، الإسكندر، هو الذي استطاع خلال فترة حكمه، عبر حروبه وحملاته التوسّعية، أن يُطلق هذه المرحلة ويدفع بها إلى الأمام. وبعد وفاة الإسكندر، استمرّ انتشار الهلنستية من خلال قادته العسكريّين، وعبر سلسلة من التحوّلات الثقافية والاقتصادية والسياسية، إلى أن بلغت هذه المرحلة نهايتها التامّة مع صعود الإمبراطورية الرومانية.

على أيّ حال، بانتصاره في خايْرونيا، اقترب فيليب الثاني خطوةً كبيرة نحو تحقيق فكرة توحيد العالم اليونانيّ وإحكام السيطرة عليه، وكان يسعى إلى إضفاء الطابع الرسميّ على هذا الإنجاز:

«وهكذا، أصبح فيليب الآن سيّد اليونان بأسرها، وكان عليه أن يسبغ على

سـلطته طابعًا قانونيًّا. لذلك، دعا جميع الدول اليونانية المستقلّة في البرّ الرئيسيّ (حتـى حـدود مقدونيا) وكذلـك الجزر، إلى إرسـال سـفرائها إلى كورنثوس للتباحث معه حول ترتيب الأوضاع المسـتقبلية في اليونان. في أواخر عام ٣٣٨ ق.م، انعقد اجتماع السـلام في كورنثوس، الذي شـكّل ذروة إنجازات فيليب. اسـتهلّ فيليب الجلسـة بقراءة بيانٍ قدّم فيه مقترحاته للمبعوثين المشاركين ... استمرّت المحادثات عدّة أشهر، وربّما حتى منتصف ربيع عام ٣٣٧ ق.م. ومن المسـلّم به أنّ هذا البيان كان مصوغًا بأكثر العبارات تودّدًا واستمالة، لأنّ فيليب كان معنيًّا قبل كلّ شيء باسـتقطاب اليونانيّين، إذ كان دعمهم حاسـمًا في تنفيذ خططه المسـتقبلية. وقد تمخّضت هذه المباحثات عـن اتّفاقية اتحادية بين فيليب والـدول اليونانية الممثَّلة في المؤتمر، وأُضفيت عليها الصفة الرسـمية من خلال أداء اليمين مـن قِبل الأطراف المعنيّة. كانت أبرز بنود هـذا الاتّفاق على النحو التـالي: أبرم فيليب مـع اليونانيّين معاهدة صداقة، كما عقد معهـم اتّفاقًا دفاعيًّا وهجوميًّا دائمًا... كان الاتّحاد اليونانيّ الذي نشأ عن هذا التحالف ممثَّلًا بمجلسٍ فيدراليّ، حيث كانت كلّ دولة ترسـل إليه عددًا من المندوبين يتناسب مع قوّتها العسـكرية. وكان هـذا المجلس الفيدراليّ يعقد جلسـاته العادية خلال الأعياد الأربعة الكـبرى للعالم اليونانيّ، وهـي الأولمبياد، واحتفـالات نيميا، ودلفي، وكورنثوس. أمّا الجلسات الطارئة، فمن المرجّح أنّها كانت تُعقد في كورنثوس، وهناك بالتحديد اسـتقرّت لجنة تجارية دائمة مكوّنة من خمسة رؤساء. وفي البند الأوّل ذاته، ضُمنت الحرّية والاستقلال لجميع أعضاء الاتّحاد، كما أُقرّت لهم، على الأرجح، الإعفاءات من الضرائب والمناصب العسـكرية الإلزامية. ومع ذلك، ورغـم أنّ الحاميات المقدونية لم تُنشر إلا في طيبة، فإنّ وجودها في أكروكورنت،

وخالكيس، وأمبراسيا، كان يتمّ بموافقة المجلس، وذلك لضمان مصالح الاتحاد ... إلى جانب المجلس الفيدراليّ، كان فيليب القائد الأعلى للقوّات الفيدرالية، حيث كان يُنتخب لهذا المنصب من قِبل الجمعية مدى الحياة. غير أنّ مملكته المقدونية لم تكن، بطبيعة الحال، جزءًا من الاتحاد اليونانيّ. لكن، وبما أنّ فيليب كان يحمل لقب القائد، فقد أصبح هذا الاتّحاد اليونانيّ، الذي كان يضمن حرية واستقلال كلّ دولة عضو فيه، مرتبطًا بالمملكة المقدونية من خلال رابطة شخصية دائمة. بهذه الطريقة، وجد فيليب الصيغة القانونية التي كان يسعى إليها منذ زمن طويل لترسيخ هيمنته على اليونان. يمكننا ملاحظة الجهد المبذول في التعامل مع الشعور العميق بالاستقلال لدى اليونانيين، حيث جرى الحرص على التعامل معهم بمنتهى اللطف. ويتجلّى إدراك فيليب لحسّاسية اليونانيين تجاه هذه المسألة في كونه اختار لقب القائد بدلًا من الملك في الاتفاقية. جرت قسمة المهام بين المجلس الفيدراليّ والقائد بحيث يتولّى الأول اتّخاذ القرارات، فيما يتكفّل الثاني بتنفيذها. وفي حالة الحرب، كان على القائد تحديد حصّة كلّ دولة عضو من الجيش، وقيادة العمليات العسكرية باسم الاتّحاد. وكما يظهر من توزيع الصلاحيات بين المجلس الفيدراليّ والقائد، فإنّ فيليب لم يكن قائدًا عسكريًّا للاتّحاد فحسب، بل كان أيضًا صاحب السلطة المطلقة على السياسة الخارجية لليونان. وبهذا، نجح فيليب في ضمّ جميع الدول اليونانية، باستثناء إسبرطة، ضمن اتحادٍ موحّد، ليكون بذلك أوّل من أنشأ كيانًا يونانيًّا موحّدًا في التاريخ ... »[١].

١. م. ن، ٨٠ - ٨٦.

التخطيط للتوسّع الغربيّ اليونانيّ-المقدونيّ نحو الشرق

مع تولّي فيليب العرش وإنشاء الاتّحاد اليوناني في كورنثوس، وقعت عدّة تطوّرات مهمّة:

أوّلًا، انخرطت مقدونيا ونظامها الحاكم بالكامل في العالم الغربيّ، الذي كانت اليونان آنذاك ممثّله الأساسيّ، ممّا أدّى إلى توسيع النطاق الجغرافيّ للعالم الغربيّ القديم. وقد استمرّت عمليّة اندماج مقدونيا وسكّانها في الكيان الغربيّ وتوسّعت بعد عهد فيليب.

ثانيًا، توحّدت اليونان تحت راية مقدونيا وسلطة فيليب، ممّا وفّر الوسائل والإمكانات اللازمة لتحقيق الأهداف التوسّعية والاستعماريّة للعالم الغربيّ، الذي أصبح الآن يونانيًّا-مقدونيًّا، في مواجهة الشعوب والأراضي الأخرى.

ثالثًا، في ظلّ هذا التحالف التوسّعيّ الذي أنشأه العالم الغربيّ القديم آنذاك ضدّ الشعوب غير الغربيّة، تداخلت الثقافة والفكر اليونانيّ مع القوّة العسكريّة والنظام السياسيّ المقدونيّ. وكانت الغاية من هذا الغزو العسكريّ تحقيق مكاسب ماديّة، وتوسيع نطاق النفوذ الغربيّ، وإخضاع الشعوب والأقاليم التي لم تكن جزءًا من هذا العالم حتّى ذلك الوقت لسلطته.

رابعًا، كان الهجوم الذي خطّط له العالم الغربيّ آنذاك ضدّ العالم غير الغربيّ ذا بُعدين: بُعدٌ عسكريّ، وبُعدٌ آخر أكثر استدامة وتأثيرًا وحسمًا، وهو البعد الثقافيّ، الذي تحقّق من خلال نشر الثقافة اليونانية، التي كانت آنذاك المظهرَ المركزيّ الوحيد للهوية الثقافية للعالم الغربيّ القديم.

***

بعــد عودته من كورنثــوس، شرع فيليب في تهيئــة الظروف لخوض الحرب التوسّــعية التي كان العالم الغربيّ يستعدّ لشنّها ضدّ الشــعوب الشرقية. غير أنّه اغتيل قبل تنفيذ خطّته. ولكن ما هي حقيقة مقتل فيليب؟

مقتل فيليب

بعــد عودته مــن كورنثوس، تعرّف فيليــب إلى امرأة مقدونيــة جميلة تُدعى كليوباترا، وكانت من أقارب أتالوس، أحد أقرب مستشــاريه، ووقع في حبّها. أثار هذا الأمر غضب أوليمبياس، والدة الإسكندر، بشدّة. خلال حفل الزفاف، حيث عقد فيليب زواجه رســميًّا على كليوباترا، تمنّــى أتالوس أن يكون الابن الذي سينجبانه هو وريث العرش. أغضب هذا التصريح الإسكندر، الذي كان يرى نفســه حتى ذلك الحين الوريث الشرعيّ لفيليب. نشــب خلاف بينه وبين أتالوس، وشعر الإسكندر بالإهانة والخذلان من قبل والده. نتيجة لذلك، غادر الإسكندر وأمّه مقدونيا. بعد فترة، وبوساطة بعض الشخصيات، بدا أنّ التوتّر بين الإســكندر وفيليب قد تلاشى، لكن يبدو أنّ الإسكندر ظلّ يحمل في داخله نوعًا من الاســتياء والخــوف من أن يفقد حقّه في وراثة العرش، وهو شــعور لم يتبــدّد تمامًا. لاحقًــا، أنجبت كليوباترا من فيليب ابنةً، ممّــا خفّف إلى حدٍّ ما من قلق الإسكندر. لكنّ أوليمبياس ظلّت تضمر كراهية شديدة لفيليب وكليوباترا، وكانت تتربّص الفرصة المناسبة للانتقام منهما.

داخل بلاط فيليب، كان هناك أيضًا استياء متزايد بين بعض أفراد الأرستقراطية المقدونية، الذين لم يكونوا راضين عن اســتئثار فيليب بجميع مفاصل السلطة، وتهميشــه لغيره من الطبقة الأرســتقراطية في إدارة شؤون المملكة. هؤلاء كانوا يبحثــون عن فرصة لتقويــض نفوذه، أو حتى إقصائه نهائيًا، من أجل اســتعادة دورهم المؤثّر في الحكم.

في الوقت ذاته، كان جواسيس النظام الأخمينيّ، الذين رأوا في صعود فيليب وسياساته تهديدًا مباشرًا لحكمهم، يعملون سرًّا على استغلال حالة الاستياء الداخليّ داخل البلاط، وإدارة هذه التوتّرات بعناية لتهيئة الظروف المناسبة لتنفيذ مؤامرة تُزيح فيليب عن المشهد.

كان رجال الدولة الأخمينيّون يعتقدون أنّه في حال التخلّص من فيليب، فإنّ ابنه الإسكندر، الذي لم يكن قد أتمّ العشرين بعد، لن يكون قادرًا على احتواء الأزمة الناجمة عن مقتل والده، ولن يتمكّن من ملء الفراغ السياسيّ الناتج عن اغتياله. وهكذا، كان النظام المقدونيّ سيدخل في دوّامة من الاضطرابات والصراعات الداخليّة، ممّا قد يؤدّي، إن لم يكن إلى إلغاء خطّة غزو فارس نهائيًّا، فعلى الأقلّ إلى تأجيلها إلى أجل غير معلوم[1].

وهكذا، تكوّن تيّارٌ خفيّ، لكنّه شديد النشاط، يضمّ قوى وعناصر متعدّدة، كان لكلٍّ منها دوافعه وأهدافه الخاصّة، التي قد تكون مختلفة أو حتى متعارضة مع أهداف الآخرين، لكنّهم جميعًا وجدوا مصلحة مشتركة في التخلّص من فيليب.

ظلّت تفاصيل المؤامرة، من حيث طبيعة تنظيمها، ومدى تورّط الأشخاص المختلفين فيها، وأساليب التخطيط والتنفيذ، غامضة تمامًا بالنسبة إلينا. كما لا توجد أدلّة قاطعة على تورّط أوليمبياس، أو خاصّةً الإسكندر، في هذه المؤامرة. صحيحٌ أنّ هناك بعض المؤشّرات والتلميحات التي أُثيرت منذ البداية حول احتمال تورّطهما، لكنّ حقيقة الأمر تظلّ محاطة بالغموض. ولذلك، لا يمكننا الجزم بشكلٍ قاطع حول الأبعاد الخفيّة لاغتيال فيليب، أو حول دور أوليمبياس والإسكندر، وخاصّةً الإسكندر، في هذا الحدث.

1. Synder, Alexander the Great, 119-121.

يروي المؤرّخون تفاصيل اغتيال فيليب على النحو التالي:

«في منتصف صيف عام ٣٣٦ ق.م، وأثناء تواجده في إيغاي، كان فيليب يسير بلا حراسة نحو المسرح، حيث كان يُقام حفل زفاف ابنته كليوباترا، حين تعرّض للطعن عدّة مرّات بخنجرٍ على يد شابٍّ أرستقراطيٍّ مقدونيّ يُدعى باوسانياس، ممّا أدّى إلى مقتله على الفور. كان لزواج فيليب من قريبة أتالوس علاقة مباشرة بمقتله. فقد أهان أتالوس باوسانياس، وعندما لم يستطع الأخير الانتقام منه، صبّ جام غضبه على فيليب، الذي تجاهل طلباته المتكرّرة للثأر من أتالوس. وعلى الرغم من أنّ دافع باوسانياس الظاهر كان شخصيًّا، إلّا أنّه لم يكن وحده، بل كان له شركاء في الجريمة»[١].

من غير الواضح إلى أيّ مدى كان باوسانياس على اتصالٍ بشبكة الأعداء الخفيّين لفيليب، أو حتّى إلى أيّ حدّ كان على دراية بوجودهم أصلًا. لكن، على أيّ حال، نجح تحالف غير متجانس من الأشخاص، ربّما دون أن يدرك باوسانياس ذلك، في استغلال دوافعه الشخصيّة ضدّ فيليب لتحقيق هدفهم الأهمّ، وهو التخلّص من الملك، وقد نجحوا في ذلك.

بعد مقتل فيليب، أعلن أنتيباتر، أحد القادة الموثوقين والنافذين في حكم فيليب، مع مجموعة من الضباط العسكريّين، دعمهم لوصول الإسكندر إلى العرش. وربّما كان بعض الأرستقراطيّين الذين شاركوا في المؤامرة ضدّ فيليب قد توصّلوا إلى اتّفاقٍ مع أوليمبياس بشأن تنصيب الإسكندر، إذ لم يُبدوا أيّ اعتراض على هذا الاختيار. في صيف عام ٣٣٦ ق.م، اعتلى الإسكندر عرش مقدونيا. وبعد أن استولى ابنُها الإسكندر على السلطة، انتقمت أوليمبياس

١. ويلكن و برزا، اسكندر مقدونى، ٩٨.

انتقامًا مروعًا من ضرّتها كليوباترا، إذ قامت بخنق ابنتها الرضيعة، التي أنجبتها من فيليب، وهي بين ذراعَي والدتها، ثمّ أجبرت كليوباترا على الانتحار. من جهته، أطلق الإسكندر، منذ اللحظة الأولى لجلوسه على العرش، موجةً من الاغتيالات السياسية، حيث أمر بقتل أتالوس، عمّ كليوباترا والقائد المقرَّب من فيليب. كما قضى على جميع من رأى فيهم تهديدًا لسلطته، أو ممّن كان يُحتمل أن يطالبوا بالعرش. ومن بين هؤلاء كان أمينتاس، ابن برديكاس، وأخوه غير الشقيق كارانوس (من زواج فيليب قبل أوليمبياس)، إضافةً إلى عدد من أقارب أتالوس وأفراد عائلته، الذين كان الإسكندر يرى فيهم مصدر خطر على حكمه.

مع تولّي الإسكندر العرش، بدأ التحرّك التوسّعيّ والاستعماريّ للعالم الغربيّ ضدّ الشعوب غير الغربيّة. كانت حملة الإسكندر العسكرية على فارس وبلاد الرافدين والهند أوّل غزو غربيّ موجّه نحو آسيا، التي كانت آنذاك جزءًا من العالم الشرقيّ. صحيحٌ أنّ مرحلة الهلنيّة قد بدأت فعليًّا منذ انتصار فيليب في خايْرونيا عام ٣٣٨ ق.م، لكنّ وفاته المبكّرة حالت دون أن يتمكّن من استخدام حملاته التوسّعية لترسيخ نفوذ العالم الغربيّ وتوسيع رقعة التاريخ الغربيّ القديم. في ذلك الوقت، كان العالم الغربيّ القديم يتمثّل أساسًا في الغرب اليونانيّ-المقدونيّ، رغم أنّ بذور التاريخ الغربيّ كانت قد بدأت بالتوسّع تدريجيًّا في روما أيضًا.

مع وفاة فيليب، كان الإسكندر هو من أطلق الهجوم الغربيّ ضدّ الشرق، وفعّل مسار تجسيد اليونانية المحدثة، وذلك عبر حملته التوسّعية الاستعمارية التي بدأت عام ٣٣٤ ق.م تحت شعار «نحو الشرق». وقد استمرّ هذا المسار حتى بعد وفاته عام ٣٢٣ ق.م، حيث واصل خلفاؤه توسعة نفوذ العالم الغربيّ القديم.

مع اجتياح الإسكندر وانتصاراته العسكرية، بدأت أوّل موجة من التغريب

في آسيا، وهي الظاهرة التي استمرّت بأشكال مختلفة في العصور اللاحقة. نظرًا لظهور جدالات متعـدّدة حول فكرة توحيد اليونـان لمواجهة الشرق، وظهور تيّارات فكرية مختلفة تدعم هذا الاتّجاه، سـواء في أثينا أو في بعض البوليسـات الأخرى، وقبل وصول الإسـكندر إلى الحكم، بل حتّى قبـل انتصار فيليب في خايْرونيا بعدّة عقود، يبرز تسـاؤل جوهريّ: ما الذي كانت تسعى إليه اليونان، بصفتهـا الممثّـل الرئيسيّ للعالم الغـربيّ آنذاك، مـن وراء هجومها على الشرق، وخاصّةً على آسيا؟ ولماذا ظهر هذا الميل العجيب، وهذا الشغف الغريب، بغزو الـشرق في وعي اليونانيين، في وقتٍ كانت فيـه حضارتهم غارقة في الانحطاط والفوضى والانقسـامات؟ يبدو وكأنّ إحساسًـا غامضًا كان يوجّه خطباءهم، وقادتهم السياسـيّين، بل وبعض فلاسفتهم، مفاده أنّ السبيل الوحيد لاستمرار اليونـان، وضمان ديمومة التاريخ الغربيّ، يكمن في تمدّده نحو أراضٍ ومناطق لم تكن جزءًا من عالمه آنذاك.

لماذا غزا الغرب آسيا؟

منـذ أواخر القرن الخامس ق.م، ثمّ خـلال النصف الأوّل من القرن الرابع ق.م، بـدأ يتشـكّل في العالم اليونانيّ شـعورٌ قـويّ، بل حاجةٌ ملحّة، لتوسـيع حدوده ونطاق وجوده. لكن لمـاذا كان الغرب اليونانيّ–وهو أوّل تجلٍّ للتاريخ الغربيّ–في حاجة ماسّـة إلى التوسّع والفتح؟ لا شـكّ أنّ أحد العوامل الدافعة وراء هذا النزوع إلى الغزو والتوسّـع كان العامل الاقتصاديّ، وما يرتبط به من دوافع الهيمنة والتوسّـع التقليديّة. لكنّ الأمر لم يكـن مقتصرًا على هذه الأبعاد المادّية وحدها. فالذين روّجوا للهجوم على الشرق، سواء على المستوى النظريّ عـبر الدعوة إليه، أو على المسـتوى العمليّ عـبر التخطيط والتنفيـذ، لم يكونوا

مدفوعين فقط بالمكاسب الاقتصادية والاستعماريّة. لقد كانت لديهم تطلّعات ورغبات أخرى، تتجاوز حدود المصالح الاقتصادية البحتة. كلٌّ من غورغياس وإيسوقراطيس، اللذين دافعا عن فكرة توحيد اليونان لمواجهة الشرق، ومن بعدهما سبوزيبوس (تلميذ أفلاطون، الذي تولّى رئاسة الأكاديميّة بعد وفاته)، وكذلك أنتيستنس، الذين دعموا هذا المشروع، لم يكونوا يرون في التوسّع مجرّد مشروعٍ عسكريّ أو اقتصاديّ. وبالمثل، فإنّ فيليب وأنتيباتر والإسكندر، ومن نفّذوا هذا الغزو لاحقًا، كانوا يحملون تصوّرات وأوهامًا أخرى، إلى جانب أهدافهم الاستراتيجية والماديّة.

منذ أمدٍ بعيد، كان أرسطو وأفلاطون ومعظم الفلاسفة والمفكّرين اليونانيين، بل وسكّان اليونان عمومًا، ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم أرقى من غير اليونانيين، الذين كانوا يعتبرونهم غير متطوّرين، أو متأخّرين عنهم في سلّم التقدّم. وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الشعوب مصطلح «البربر»، واعتبروا أنّ الوضع الطبيعيّ لهؤلاء هو أن يكونوا عبيدًا لليونانيّين. كان العالم اليونانيّ يؤمن، بكلّ ما في الكلمة من معنى، بأنّه حين يستعبد غير الغربيّين، فإنّه في الواقع يتفضّل عليهم، بوضعهم في «مكانهم الطبيعيّ». وحين أطلق الغرب اليونانيّ هجومه على الشرق، كان هدفه الأساسيّ إخضاع الشعوب الشرقية، وتحويلهم إلى عبيد. لقد شنّ الغرب هذه الحرب بهدف فرض ولايته على جميع الأمم غير الغربية، وكان يرى أنّ تحقيق هذه السيطرة لا يتمّ إلّا عبر استعباد من سمّاهم البربر. بدأ الغرب اجتياحه لآسيا بهدف فرض سلطته على جميع الشعوب غير الغربية. كان العالم الغربي يعتقد أنّ تحقيق هذه السلطة يتم من خلال استعباد «البرابرة». هاجم الغرب الشرق ليستعبده ويحقّق سلطة الغرب الكونوية الاستكبارية.

الأنشطة التي قام بها أرسطو وقادةُ الإسكندر بعد انتصارهم في إيران ومصر تدلّ على أنّ اليونانيّين، بوصفهم ممثّلي الغرب الاستكباري في ذلك الزمن خلال اعتدائهم على الشرق، كانوا يسعون إلى ما هو أبعد من الأغراض التوسّعية المعتادة؛ فقد كان لهم هدفٌ رئيسيّ في هذه الاعتداءات، وهو السعي إلى توسيع عالم الغرب. لقد كان اعتداءُ الإسكندر على آسيا اعتداءً استكباريًّا للغرب القديم، يهدف إلى توسيع عالمه التاريخيّ، ليضمن استمرارَ وجوده عبر هذا التوسّع الوجودي. في بداية عصور الهيلِنيّة، كانت لا تزال هناك إمكاناتٌ متاحة للتوسّع والامتداد، وكان الاعتداءُ على الأراضي والشعوب الأخرى، وإخضاعُها لسلطةِ الولاية الطاغوتية للغرب، وتوسيعُ نطاق نفوذ الغرب اليونانيّ وسيطرته من خلال تغريب الشعوب والغزوِ المتزامنِ العسكريّ-الثقافيّ، أحدَ السبلِ المهمّةِ لتحقيق هذا التوسّع الوجوديّ التاريخيّ.

إذا نظرْنا إلى التاريخ من منظور الحكمة المعنويّة، فإنّ تاريخ الغرب هو تاريخ تحقّق وبسط صور الولاية الطاغوتيّة المختلفة. تاريخ الغرب يتحقّق ويتوسّع من خلال نسيان العهد الإلهيّ وإنكاره، وعندما تُغفل الولاية الإلهيّة ويُنكر شأنها، تحلّ محلّها ولاية الشيطان. ولهذا يمكن القول إنّ روح التاريخ الغربيّ، باطنه، شيطانيّ، وهذا الباطن الشيطانيّ يتجلّى في صور متعدّدة ومتطوّرة، فيتحقّق في كلّ مرحلة بصيغة ما. الشيطان يسعى إلى التسلّط والسيطرة على البشر، ولا يتورّع عن فعل أيّ شيء لتحقيق هذه الغاية. تاريخ الغرب هو تاريخ بسط الشيطان وظهوره، وهو تاريخ قائم على الميل إلى التوسّع والطلب الدائم لمزيد من الامتداد. الهِلِنيّة الأولى كانت أوّل تجلٍّ لهذا الميل إلى التوسّع والهيمنة واستعباد الشعوب، وهو ميل متجذّر في ذات الغرب، وقد اتّخذ مع الهِلِنيّة صورتَه الأولى وتحقّق فعليًّا بها.

الهِلِنيّــة هــي بدايةُ الموجــةِ الأولى من موجــاتِ الهجومِ المتعدّدةِ التي شــنّها تاريخُ الغربِ بهدفِ عولمةِ ذاتهِ وعولمةِ ولايةِ الشيطان، أي نسيانِ الولايةِ الإلهيّةِ وإنكارِها. فهذا الاعتداءُ الذي بدأهُ الغربُ القديمُ مع الهِلِنيّةِ الأولى استمرَّ حتى اليومِ في صورٍ متعدّدةٍ وبأساليبَ وطرائقَ وأشكالٍ مختلفة.

لمــاذا أراد الغرب، ولا يزال يريد، إحكام ســيطرته على العالم؟ لأنّ الشــيطان قد أقســم وجعل من مهمّتــه إضلال البشر. فالتاريخ البــشري بأسره، منذ لحظة هبوط الإنســان، هو تاريخُ الصراع في ميدان الولاية: إمّا ولايةُ الله، وهو التاريخ الديني، وإمّا مســخُ الولاية الإلهية، وهو تاريخُ الشرقِ الأســطوريّ، وإمّا إنكارُ الولاية الإلهيّة، الذي يعني بالضرورة إثباتَ ولاية الشــيطان، وهو تاريخ الغرب. فكلّ تاريخ البشر على الأرض هو تاريخُ معركةٍ بين الحقّ والباطل، وقد تجلّى واتّخذَ فعليّته في صورة التقابل بين أتباع الولاية الإلهية وأتباع ولاية الشيطان. وعليه، فإنّ التضــادَّ والتقابلَ بين الغرب كتاريخٍ والتاريــخِ الدينيّ هو أمرٌ جوهريّ، نابعٌ من ماهيّته ذاتها. فقد نشأ الغربُ كتاريخٍ عقبَ ظهوره وتحقّقه الفعليّ، مدفوعًا بطلبٍ وحاجةٍ وشوقٍ داخليّ، مستندةٍ إلى الرغبةِ الظالمةِ للشيطان في الاستيلاء على البشر وتحقيقِ ولايته، فبدأ الغربُ حركةَ التوسّعِ والسعيِ إلى بسطِ وجوده التاريخيّ.

تاريخ الغرب يظهر ويتحقّق فعليًّا في القرن الثامن قبل الميلاد. وتمضي القرون الأربعة الأولى من هذا التاريخ في الغالب منشغلةً بتكوين صورته الأولى وتحقّقها واســتقرارها، أي عالم الغرب اليوناني. فهذا العالم، كما هو حال أيّ عالم تاريخي آخر، يحتاج إلى تحويل إمكاناته من القوّة إلى الفعل كي يتمكّن من بســط نفســه. إنّ سيطرة عالم تاريخي على عوالم أخرى تنتمي إلى تاريخ مغاير، كسيطرة الغرب اليوناني، بوصفه عالمًا ينتمي إلى تاريخ الغرب، على عالم الشرق الممســوخ، سواء

الإيراني أو الهندي، الذي ينتمي إلى تاريخ الشرق، تتطلّب أدوات وبُنى تمهيديّة. ومن بين هــذه الأدوات والبُنى، التي تُعدّ بالغة الأهمية، وربّما تكون حاســمة، تأتي الثقافة والأدب وسائر المظاهر والشؤون الثقافيّة، التي تنشأ على نحوٍ ما من داخل الفكر وتعود إليه.

يونان مع بداية القرن الرابع قبل الميــلاد، وبعد حروب البيلوبونيز، كان قد بلغ نهايته، لكنّ الغرب بوصفه تاريخًا، والغربَ القديم بوصفه عالمًا تاريخيًّا، كان لا يزال يمتلك إمكاناتٍ للتوسّــع. الهجومُ العدوانيُّ لليونان نحو الشرق، الذي بدأ عبر الغزو العســكري للإســكندر، وكان الصفحة الأولى من فترة الهِلِنيّة، لم يكن سوى ظهورًا وتحقّقًا فعليًّا لأحد الإمكانات التاريخيّة لعالم الغرب القديم، حيث تجلّى في صورة فترة الهِلِنيّة.

عند دراسة الهجوم الاســتعماريّ للغرب اليونانيّ بقيادة النظام المقدونيّ على العوالم غير الغربيّة، فإنّنا وإن كنّا نتحدّث عن وجود نوعٍ من الإحساسِ والرغبةِ والشوقِ والميولِ والدوافعِ والاستعدادِ لدى كثيرٍ من المفكّرين وكذلك بين عامّة اليونانيّــين، وإن كنّا نرى أنّ ما قام به الإســكندر، بل حتى فيليب قبله، في مجال نشر الثقافةِ والأدبِ وأسلوبِ الحياةِ اليونانيّةِ والترويج لها، يُظهر نوعًا من الوعي الذاتيّ–على الأقلّ لدى الإســكندر وقادته–بأداء مهمّةٍ محدّدةٍ لبسطِ عالم الغرب اليونانيّ في العوالم غير الغربيّة، إلا أنّه من الخطأ اختزال ظهور وغلبة فترة الهِلِنيّة، التي انبثقت بوضوحٍ من اســتعداداتٍ وإمكانــاتٍ متأصّلةٍ في الوجود التاريخيّ للغرب القديم وميتافيزيقاه العدمي الكونويّ، في مجرّد إرادةِ هذا الشــخصِ أو ذاك، أو في مؤامــرةٍ دبّرتها مجموعةٌ بعينها. عالم الغرب القديم أقدم على توسّــع عسكري وثقافي–ســياسي واسع النطاق ضدّ العوالم غير الغربية آنذاك (وكانت

آسـيا الأقرب إليه والأهمّ له في تلك المرحلـة)، لأنّ مقتضى وجوده آنذاك كان القيام بمثل هذا الفعل. لقد استثمر تاريخ الغرب جزءًا من استعداداته وقوّته في صورة تأسيس العالم اليوناني وترسـيخه، إلّا أنّ هناك إمكانات أخرى كامنة في صلب تاريخه، لم يكن لها أن تتجلّى إلّا إذا اتّسع الغرب بوصفه عالمًا تاريخيًّا، فمدّ وجوده التاريخيّ على امتداد الجغرافيا وبسطه. وبحكم ما يمتلكه تاريخ الغرب من استعدادات وقابليّات، كانت لديه إمكانيّة الظهور والتمدّد على نطاق أوسع، ومن الطبيعيّ جدًّا أن يسعى إلى تحقيق ذلك.

ذلك الاندفاع الذي كان يسـتعر في نفس الإسـكندر مـن أجل نشر الثقافة اليونانيّة إلى جانب حملاته العسكريّة الإجراميّة، وذلك الشعور والطلب والحاجة التي عبّر عنها كلّ من غورغياس وإيسوقراط وإسبوزيتو وغيرهم، كلٌّ بطريقته، لم يكن إلّا انعكاسًا لاستشعارهم حاجةً كانت حاجةَ العصر ذاته في عالم الغرب القديم، ودليلًا على إدراكهم أمرًا حوّلَه مسـارُ تاريخ الغرب في تلك المرحلة إلى ضرورة ورغبـة ومطلب حتميّ. وهكذا، كان أولئك الذين أنصتوا، بطريقة ما، إلى صوت التاريخ، يندفعون – وفقًا لما تقتضيه أحوالهم وطبائعهم وشخصيّاتهم وأفكارهم وانشغالاتهم – إلى محاولة تجسيده أو السعي في طريق تحقيقه.

وهكـذا نـرى أنّ جماعة من الفلاسـفة والخطباء والساسـة والعسـكريّين والمؤرّخين، بل وكثيرًا من عامة الناس، كلٌّ منهم يتحدّث، على نحوٍ ما وبطريقته الخاصّـة، عن وجه من أوجه طلبٍ واحد. ومع انتهـاء تاريخ اليونان، كان على عالم الغرب القديم، من أجل اسـتمرار وجوده، أن يتمدّد. ولأنّ تاريخ الغرب، ومن ثمّ عـالم الغرب القديم، كان يمتلك الإمكانيّـة التاريخيّة للتمدّد والتجلّي، فقـد كان بإمكانـه أن يتّجه نحو هـذا الأفق. وهكذا، خـرج تاريخ الغرب من قوقعتـه اليونانيّة، وتجلّى وظهر في الفترة الهلنسـتية. لقد قصد الغرب في مسـير

تمدّده التاريخيّ آسيا، التي كانت آنذاك أحد تجلّيات الشرق الأسطوريّ. ولو كان تاريخ الشرق وعوامله في أوج ازدهاره وقوّته، لأخذ هذا الصراع بين الغرب اليوناني-المقدوني المعتدي والعوالم الشرقيّة منحًى آخر. غير أنّ الغرب المعتدي حين توجّه إلى الشرق، كانت عمليّة المسخ التاريخيّ للشرق قد بدأت منذ فترة. وبطبيعة الحال، لم تكن العوالم الشرقيّة آنذاك، كالصين وإيران وغيرهما، متساوية في القوّة أو الضعف، ولا في الدرجة والمقدار الذي أصابها من المسخ. إلّا أنّه عندما وصلت جيوش الإسكندر المعتدي إلى بلاد الرافدين وإيران، كان الأخمينيّون قد أمضوا زمنًا طويلًا في مسار تدهورهم، وكان العالم الشرقيّ الأسطوريّ لإيران القديمة، إلى جانب معاناته من مسخٍ من نوعٍ خاصّ في تاريخ الشرق، يعيش إحدى لحظات انحداره المريرة. وهكذا، انتهت المواجهة الأولى للغرب المستكبر المتجاوز (الغرب القديم الكونويّ آنذاك) ضدّ الشرق والأمم غير الغربيّة، وللأسف، بانتصار الغرب.

٢. الإسكندر والهلنستية

كان الإسكندر من مقدونيا، لكنّه كان يمثّل تجسيدًا لتاريخ الغرب وعالم الغرب اليونانيّ. ففي شخصيّته وأفكاره وسلوكه، وفي عنفه ووحشيّته وجرائمه، وكذلك في روحه العدوانيّة القتاليّة التي لا تهدأ، وفي ولعه الخاصّ بالإلياذة وهوميروس وأبطالٍ مثل أخيل، تتجلّى أوجهٌ وشؤونٌ متعدّدة من الروح الغربيّة والانتماء إلى تاريخ الغرب، فتظهر بوضوحٍ وجلاء:

«الإسكندر يمثّل مجمل تيّار الحياة في اليونان، لأنّه يستمدّ من أخيل كما يستمدّ من إيبامينونداس، وله نصيبٌ من روح بريكليس أيضًا»[١].

---

١. م. ن، ٣٣.

كان الإسكندر ملكًا مقدونيًّا، ومحاربًا ربّما موهوبًا، وتجسيدًا لإرادة التوسّع والاستكبار لعالم الغرب القديم في أوّل غزوٍ شاملٍ قام به الغرب ضدّ الشرق، وفي بداية نشوء الهلنستية في تاريخ الغرب القديم. لم يكن الإسكندر صانع الهلنستية، لكنّه كان أبرز مظهرٍ لها وأهمّ رموزها وتجليّاتها الإراديّة. لقد كان الإسكندر هو عينه أوديسيوس، الذي انطلق في مسيره بقصد الغزو واستعباد الأمم غير الغربيّة، فارتدى لباس الحرب وقاد جيشًا إلى المعارك. كان الإسكندر تجسيدًا لنخوة الاستكبار اليونانيّ التي ترى في غير اليونانيّين بربريّين يستحقّون العبوديّة، وقد كانت هذه النخوة حاضرةً في عقل أفلاطون وأرسطو، وسَعَت إلى فرض نفسها على الشعوب غير الغربيّة من خلال سيف الإسكندر. إنّها لحقيقةٌ أنّ أوديسيوس وبريكليس والإسكندر يسيرون في اتّجاهٍ واحدٍ وعلى مسارٍ واحد. كان أخيل وأوديسيوس أوّل العسكريّين الغربيّين المعتدين، وكان بريكليس قائدًا لإمبراطوريّةٍ استعماريّة، تحدّث من موقع الاستكبار لا ضدّ غير اليونانيّين فحسب، بل حتّى ضدّ البوليسات الضعيفة والفئات اليونانيّة الفقيرة. أمّا الإسكندر، فقد كان تجسيدًا لإرادة الاستكبار في عالم الغرب القديم، في حقبةٍ شعر فيها الغرب بالحاجة وكذلك بالقدرة على التوسّع.

مع فتوحات الإسكندر، انتشرت الفلسفة الكونويّة، إلى جانب مختلف أوجه الفكر والثقافة اليونانيّة، بين الشعوب والقبائل الشرقيّة، وامتزجت تدريجيًّا بعناصر من الموروثات والمكوّنات الفكريّة للأسطورة الشرقيّة، ما أدّى إلى ظهور رؤيةٍ للعالم يمكن تسميتها بالرؤية الهلنستية. وتُعدّ أفكار «فيلون» (الفيلسوف اليهوديّ المتوفّى سنة ٤٠م) ومن بعده الآراء الفلسفيّة لأفلوطين أبرز التجلّيات الفكريّة لهذا التصوّر الهلنستي.

أدّى انتصار الإسكندر في إيران ومصر وبلاد الرافدين، وتأسيس الدول السلوقيّة في هذه المناطق، إلى نشوء ظروفٍ امتزجت فيها الفلسفة الكونوية اليونانيّة مع التعاليم اليهوديّة وبعض الأفكار الغنوصيّة. ويمكن رؤية تجلّي هذا التلاقح في فلسفة أفلوطين، وقبله في أفكار فيلون. في الواقع، في الفترة الهلنستية، تداخلت الفلسفة الكونوية (بوصفها الممثّل الرئيسيّ للفكر الغربيّ في تلك الحقبة) مع التعاليم اليهوديّة والقبّاليّة، وفي هذا السياق، خضع كلٌّ من أفلاطون وأرسطو لإعادة قراءة في فضاءٍ يهوديّ-غنوصيّ، كما اكتسبت التعاليم اليهوديّة التاريخيّة طابعًا فلسفيًّا، وامتزجت اليونانيّة واليهوديّة ضمن إطارٍ من الموروثات الغنوصيّة الوثنيّة، ما أدّى إلى نشوء تيّارٍ فلسفيّ يونانيّ-قبّاليّ شكّل تحالفًا مؤثّرًا حمل في طيّاته ملامح وثنيّة عميقة مغلّفة بلبوسٍ فلسفيٍّ جذّاب. ومن خلال انتشار وتطوّر هذا الفكر الفلسفيّ-القبّاليّ اليونانيّ-اليهوديّ، برزت في العصر الحديث النزعة الإنسانيّة، وتعاليم الأنسنة التي شكّلت الأساس لأكاديميّة أفلاطون الفلورنسيّة، كما تجلّت في آراء مفكّرين مثل: لورينزو فالّا، ونيكولاس الكوزاني، وجيوفاني بيكو ديلا ميراندولا، ومارسيلو فيتشينو، بل وحتّى قبلهما في أفكار إسحاق الأعمى وأوائل الإنسانيّين في عصر النهضة.

من هو الإسكندر؟

كان فيليب، والد الإسكندر، يدّعي أنّه من سلالة هرقل وينتمي إلى قبيلة الدوريين، ولذلك كان ذو أصلٍ يونانيّ. غير أنّ فيليب كان من جهة والدته بربريّ الأصل. أمّا والدة الإسكندر، أوليمبياس، فكانت أميرةً يعود نسبها إلى أخيل، بطل اليونانيّين في حرب طروادة. وقد أنجبت أوليمبياس الإسكندر عام ٣٥٦ ق.م وهي في العشرين من عمرها. وكان للإسكندر أخت تُدعى

كليوباترا، تصغره بعامٍ واحد. ووفقًا لما ينقله المؤرّخون، فقد وُلد الإسكندر في ٢٠ يوليو عام ٣٥٦ ق.م في بيلا، عاصمة مقدونيا. في طفولته، كان للإسكندر معلّم يُدعى ليونيداس، وهو من أقارب والدته أوليمبياس. وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره، عيّن فيليب الفيلسوف أرسطو ليكون معلّمًا له (عام ٣٤٣ ق.م). في ذلك الوقت، لم يكن أرسطو قد نال شهرته بعد، ولم يكن قد أسّس مدرسته (اللوقيون) في أثينا. أمّا المناخ الثقافيّ السائد في بلاط فيليب، فكان ذا طابعٍ هلنستي، حيث كان الأطفال في البلاط يتلقّون تعاليمهم باللغة اليونانيّة، ويتعرّفون على آدابها وعاداتها.

سعى أرسطو في تعليمه للإسكندر إلى تعزيز الشعور بالولاء لليونان وتنمية النزعة اليونانيّة لديه. فقد عرّفه على هوميروس وملحمة الإلياذة، بل وشرح له نسخةً منها ووهبها له، فكان الإسكندر يحتفظ بهذه النسخة معه في جميع حروبه وغزواته نحو الشرق. وكان الإسكندر مغرمًا بشكلٍ خاصّ بأخيل، بطل الإلياذة، لأنّه كان يرى فيه جدّه البعيد[1]. ويُقال إنّ أرسطو عمّق في الإسكندر الشعور بالانتماء إلى اليونان والهويّة اليونانيّة، بل وأجّج فيه نوعًا من الكراهية تجاه غير اليونانيّين، الذين كان أرسطو، شأنه شأن اليونانيّين، يصفهم بالبرابرة.

«المُسلَّم به أنّ أرسطو هو الذي أيقظ في الإسكندر حبًّا جامحًا للثقافة اليونانيّة، وجعل عقليّته يونانيّةً بالكامل، ما أثّر تأثيرًا عميقًا في حياته. فقد قدّم له أرسطو، على نحوٍ خاصّ، ذخائر الشعر اليونانيّ، ومكّنه من فهمها والتلذّذ بها. ومن بين الكتب التي كان الإسكندر يطالعها لاحقًا في آسيا، يُشار إلى أعمال كبار كتّاب التراجيديا الثلاثة، وكان أكثر إلمامًا بأعمال يوربيديس مقارنةً بالآخرين. كما كان

1. Weigall, Alexander the Great, 20.

يقرأ أعمال شعراء القرن الرابع قبل الميلاد، مثل فيلوكسينوس وتيليست، لكن لم يكن أيّ كتاب يحلّ محلّ الإلياذة لديه، إذ كانت نصَّه الدراسيّ الأساسيّ خلال سنوات تعليمه، وقد أعاد أرسطو تحريرها خصّيصًا له، فظلّت ترافقه في حملته الآسيويّة. لقد كان بطلان يونانيّان اثنان مرشدَين للإسكندر في مسار فتوّحاته: هرقل وأخيل، اللذان كان يعتبرهما من أسلافه. فمن جهة والده، كان ينحدر من سلالة هرقل، ومن جهة والدته، كان أياسيديًّا، من نسل أخيل، إذ كان يعود نسبه إلى أيكوس، جدّ أخيل»[١].

بعد مقتل فيليب، تمرّد اليونانيّون ضدّ هيمنة مقدونيا. فسارع الإسكندر إلى قمع التمرّد عبر حملةٍ عسكريّة إلى اليونان. ثمّ طالب جميع أعضاء اتحاد كورنثوس، بل وحتّى البيلوبونيسيّين الذين لم يكونوا جزءًا من تحالف فيليب، بإرسال ممثّلين إلى كورنثوس. رفض الأسبرطيّون التعاون، بينما أرسلت بقيّةُ البوليسات اليونانيّة ممثّليها. وفي خريف عام ٣٣٦ ق.م، عُقد اجتماعٌ تأسيسيّ جديد، حيث اعترفت الدول الأعضاء في الاتحاد بالإسكندر بوصفه القائد الأعلى للاتحاد. وأعلن الاتحاد الإسكندر «قائدًا ذا صلاحيّاتٍ غير محدودة» للحملة ضدّ فارس. لا شكّ في أنّ الإسكندر كان يشعر بهويّته اليونانيّة أكثر بكثير من فيليب، وكان يرى في غزوه لفارس تمثيلًا للسياسة والثقافة والقوميّة اليونانيّة، وتجسيدًا لليونانيّة ذاتها.

«الإسكندر، الذي جعل منه أرسطو عاشقًا للثقافة اليونانيّة، كان يحمل التزامًا حماسيًّا بفكرة الوحدة اليونانية، لأنّها أتاحَت له فرصة حمل الثقافة اليونانيّة معه إلى آسيا. وكان هناك أيضًا دافعٌ شخصيّ: المثال الذي قدّمه له أجداده الأبطال،

١. ويلكن و برزا، اسكندر مقدونى، ٩٣ – ٩٥.

وعلى رأسهم أخيل. وهكذا، انطلق إلى آسيا بهذا التصوّر المُلتهب بأنّه، مثل أخيل، كان يقود اليونانيّين إلى الحرب ضدّ البرابرة»[١].

عندما بدأ الإسكندر غزوه للشرق عام ٣٣٤ ق.م، كان في الثانية والعشرين من عمره:

«كان الإسكندر، في سنّ الثانية والعشرين، الحاكم المطلق لليونان. وعلى الرغم من أنّه لم يكن طويل القامة، إلّا أنّه كان ذا بنيةٍ عضليّة. وقد أشار بعض المراقبين إلى بشرته الفاتحة، وقالوا إنّ وجهه كان يحمرّ بسهولة. ووفقًا لما كتبه أثيليان، المؤرّخ الرومانيّ، فقد كان الإسكندر، بشعره الأشقر المجعّد، يُعدّ وسيمًا، لكنّه نوّه أيضًا إلى أنّ مظهره كان يحمل في طيّاته شيئًا من الرهبة»[٢].

شكّل غزو الإسكندر لآسيا بداية الموجة الأولى من التغريب بين الشعوب الآسيويّة، لا سيّما في بلاد الرافدين وإيران. وإذا كان بالإمكان القول إنّ الفترة الهلنستية بدأت في عالم الغرب القديم عام ٣٣٨ ق.م، فإنّها لم تدخل حيّز التطبيق الفعليّ إلّا مع غزو الإسكندر لبلاد الرافدين وإيران، والانتصارات العسكريّة-السياسيّة التي حقّقها. وقد استمرّ انتشارها وتوسّعها عبر تقاسم فتوحات الإسكندر بين قوّاده بعد وفاته، وإنشاء السلالات الهلنستية. ومن الناحية الزمنيّة، يمكن اعتبار أنّ الفترة الهلنستية بدأت عام ٣٣٨ ق.م، واستمرّت في التوسّع حتى نحو ٣١ ق.م.

الهلنستية هي مزيجٌ من الهيمنة الثقافيّة اليونانيّة (اليونانيّة بوصفها هويّة) والهيمنة السياسيّة المقدونيّة. بعد وفاة الإسكندر، وصلت سلسلةٌ من الأنظمة

---

١. م. ن، ١٠٤ - ٥.

٢. برگن، اسكندر مقدونى، ٣٥، ٣٧.

الهلنستية (التي قامت على يد قادته العسكريّين وأبنائهم المقدونيّين-اليونانيّين) إلى الحكم في إيران ومصر وبعض مناطق آسيا الوسطى. وأتاحت هذه الأنظمة ظروفًا مناسبةً لنشر الثقافة اليونانيّة وتوسيع نطاقها. لقد تأثّر الأدب والفكر في العصر الهلنستي تأثّرًا عميقًا بالفكر الفلسفيّ اليونانيّ، ولا سيّما فلسفات أفلاطون وأرسطو، لكنّه لم يكن مجرّد تكرارٍ للثقافة والفلسفة اليونانيّة. ولتحديد الفرق بين الفترة اليونانيّة والفترة الهلنستية في العالم الغربيّ القديم، يجب الإشارة إلى أنّه في الفترة اليونانيّة، ضمن الحضارة الكلاسيكيّة لليونان، كانت الفلسفة الكونويّة العدمية مترابطةً بالنظام الديمقراطيّ القائم على البوليس، وتجاوزت أنماط التفكير المتافيزقيّ الكونويّ الهومري-الهسيوديّ، كما تجاوزت النزعة الطبيعيّة، والسفسطائيّة، وأخيرًا الفلسفة السقراطيّة-الأفلاطونيّة والأرسطيّة. في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الفترة اليونانيّة، التي تمحورت حول نظام المدينة (البوليس)، قد وصلت إلى نهايتها، لكنّ الفكر المتافيزقيّ الكونيّ العدميّ ظلّ يمتلك إمكانيّة الاستمرار خارج إطار المدينيّة والديمقراطيّات البوليسيّة. وقد تمثّلت هذه الإمكانيّة في استمرار حياة عالم الغرب القديم وتوسّعه بعد تجاوز مرحلة الفترة اليونانيّة الكلاسيكيّة، لتظهر في الفترة الهلنستية. كانت الفترة الهلنستية أوّل موجةٍ من الاستلاب الغربيّ (الاستلاب الغربيّ القديم) التي اجتاحت الأمم والشعوب التي كانت خارج نطاق تاريخ الغرب. ومع غزو الإسكندر وانتشار الهلنستية، تحقّقت أوّل موجة من الغزو الثقافيّ الغربيّ ضدّ الشعوب والأمم غير الغربيّة، وتوسّعت رقعتها بشكلٍ متزايد.

الإسكندر والغزو نحو الشرق

كان الإسكندر، من حيث الهويّة، ينتمي إلى العقيدة اليونانيّة ويؤمن بها. فقد

كان يقـدّم القرابين للآلهة وفقًا للتقاليد اليونانيّة. كما كانت والدته، أوليمبياس، ذات إيمانٍ عميقٍ بالطقوس اليونانيّة، بل يُقال إنّها كانت من أتباع عبادة ديونيسوس (إله الخمر في الميثولوجيا اليونانيّة)، وكانت تشارك في طقوس عبادته، حيث كان يتمّ اسـتخدام الأفاعي الحيّة. قبل أن يبدأ غزوه للشرق، أقام الإسكندر طقوسًا تكريميّةً لزيوس[١]. لقد كان يمثّل التجسيد الحيّ للإرادة الاستعماريّة والتوسّعية العدوانيّة للغـرب القديم، الذي كانت الهيمنـة اليونانيّة في ذلك العصر مركزه الأسـاسيّ، فانطلق ليغزو آسيا. عندما بدأ الإسـكندر غزوه للشرق، كان بلاط الدولـة الأخمينيّة غارقًا في الاضطراب والغفلة. فقد اسـتهان داريوس الثالث، آخر ملوك السـلالة الأخمينيّة، بالتحرّكات العسـكريّة للمقدونيّين، ما أدّى إلى وقوعه في فخّ المفاجأة.

وقعت أوّل مواجهةٍ عسكريّة بين المقدونيّين والإمبراطوريّة الأخمينيّة في ربيع عام ٣٣٤ ق.م على ضفاف نهر الغرانيكوس، الواقع في شـمال غرب الأناضول (تركيا المعاصرة). كان الجيش الأخمينيّ بقيادة مِتراداتس آرشام. خلال المعركة، عـبر جيش الإسـكندر النهر، واندفع نحـو قلب الجيش الأخمينـيّ، حيث قُتل مِتراداتـس (مهرداد)، مـا أدّى إلى اضطراب الجيش الفـارسيّ وفقدانه للنظام، فانتهـى إلى هزيمةٍ سـاحقة. ومن الأمـور اللافتة في هذه المعركـة، التي عُرفت باسـم معركة الغرانيكـوس، أنّ الجنود اليونانيّين المرتزقـة الذين كانوا يقاتلون في صفوف الجيش الأخمينيّ أبدوا مقاومةً وشـجاعةً كبيرة، بل وواصلوا القتال بشراسة حتّى بعد مقتل مهرداد. عامل الإسكندر، بعد انتصاره، هؤلاء اليونانيّين بوحشـيّة، فقام ببيع القلّة الناجية منهم في سوق العبيد. كان هذا أوّل انتصارٍ له في مواجهة الجيش الأخمينيّ، وقد تحقّق في آسيا الصغرى. وبفضل هذا النجاح،

١. م. ن، ٢٠، ٣٦.

أخرج الإسكندر آسيا الصغرى من سيطرة الدولة الأخمينيّة، وضمّها إلى أراضي مملكته المقدونيّة، حيث بدأ في نشر سياساته الهلنستية فيها.

وقعت المواجهة التالية بين الإسكندر والجيش الأخمينيّ عام ٣٣٣ ق.م في إسوس (جنوب تركيا الحاليّة). ويُرجَّح أنّ السبب الرئيسيّ لهزيمة الجيش الأخمينيّ في هذه المعركة كان فرار داريوس الثالث في أثناء القتال، خوفًا من أن يُقتل، ما أدّى إلى انهيار صفوف الجيش الأخمينيّ وتفكّكه. بعد هذا الانتصار، استولى الإسكندر على سوريا، ثمّ توجّه نحو مصر، فتمكّن من إخضاعها أيضًا. ويُقال إنّه لو لم يفرّ داريوس الثالث من ساحة المعركة خوفًا، لكانت هناك فرصة كبيرة لانتصار الفرس، غير أنّ هروبه أفقدهم هذه الإمكانيّة[1].

بعد استيلائه على مصر، أقام الإسكندر هناك لمدّة عامين، حيث سعى إلى إيجاد نوعٍ من التفاعل والاندماج بين الثقافة المصريّة والثقافة اليونانيّة، لكن مع جعل اليونانيّة في موقع الهيمنة. وخلال إقامته، وَضَعَ خطّةً لتأسيس مدينة الإسكندريّة وأطلق العمل في بنائها. وكما يذكر ويل ديورانت، فقد حدّد الإسكندر بنفسه مخطّط الأسوار والشوارع وأماكن المعابد المصريّة واليونانيّة في الإسكندريّة، ثمّ أوكل تفاصيل تنفيذها إلى معمارِه دينوقراطيس[2]. شكّلت الإسكندريّة في مصر، إلى جانب مدنٍ أخرى أسّسها لاحقًا قادةُ الإسكندر تحت اسم الإسكندريّة في مناطق مختلفة من أراضيهم، مراكز أساسيّة لنشر الثقافة اليونانيّة وتعزيز الهيمنة الهلنستية. وقد كان للإسكندريّة المصريّة، على وجه الخصوص، خلال القرون السابقة للميلاد وما بعدها، دورٌ محوريٌّ في الفكر الفلسفيّ الهلنستي، حيث أصبحت أحد المراكز الأساسيّة لهذا التراث الفكريّ.

---

1. Green, The Gerco-Persian Wars, 82-84.

٢. دورانت، يونان باستان، ٦٠٨.

في عام ٣٣١ ق.م، واجه الإسكندر الجيش الأخمينيّ، بقيادة داريوس الثالث، مرّةً أخرى في منطقة غوغميلا، الواقعة بالقرب من نينوى في العراق الحاليّ. وفي هذه المعركة، مُني الجيش الأخمينيّ بهزيمةٍ أخرى على يد قوّات الإسكندر. ويرى المؤرّخون أنّ السبب الرئيسيّ لهذه الهزيمة، كما في المعارك السابقة، كان فرار داريوس الثالث من ساحة القتال، ما أدّى إلى انهيار جيشه. بعد هذا الانتصار، استولى الإسكندر على بلاد الرافدين، وأدّى انتصاره في معركة غوغميلا إلى تفكّك جزءٍ كبير من الجيش الأخمينيّ؛ كما سيطر على قصر شوش الملكيّ واستولى على كنوز الخزانة الأخمينيّة وما تضمّه من ذهب. بعد هزيمته، فرّ داريوس الثالث باتّجاه شرق إيران، آملًا في جمع قوّاتٍ جديدة بمساعدة الحكّام المحلّيّين، لكنّه قُتل خلال محاولته هذه[1].

في عام ٣٣٠ ق.م، توجّه الإسكندر نحو شرق إيران. وفي منطقة دربند فارس، واجه مقاومةً شديدة قادها القائد الإيراني آريوبرزن، الذي حارب مع عددٍ قليلٍ من الجنود، يُقدَّر عددهم بين ٧٠٠ و٢٠٠٠ مقاتل. أظهر آريوبرزن في هذه المعركة شجاعةً استثنائيّة، وهي الشجاعة ذاتها التي لو كان داريوس الثالث قد أبدَاها في معركتَي إسوس وغوغميلا، لما تكبّدت القوات الإيرانيّة تلك الهزائم. لكنّ السبب الرئيسيّ لهزيمة الإيرانيّين في معركة دربند فارس كان الفارق العدديّ الهائل بين القوّتين، إذ كان عدد جنود الإسكندر يفوق قوّات آريوبرزن بأكثر من سبعة أضعاف. بعد هذا الانتصار، واصل الإسكندر فتوحاته، مدفوعًا بروحه التوسّعيّة والعدوانيّة، فبلغ سُغد وبلخ، ووصل إلى أجزاء من الهند. ولم يوقف حملاته العسكريّة إلّا بعد اعتراضاتٍ شديدة من جنوده ومرافقيه، الذين أجبروه

1. Green, The Gerco-Persian Wars, 86-88.

أخيرًا على التراجع. وهكذا، قرّر العودة إلى قاعدته في بلاد الرافدين، حيث توفّي عام ٣٢٣ ق.م في بابل، بسبب المرض، ويُرجَّح أنّه كان الملاريا.

كان الإسكندر، في غزوه للشرق، يمثّل التجسيد الحيّ للإرادة الاستعماريّة-التوسّعيّة للغرب اليونانيّ، وكان مظهرًا للعدميّة الكونويّة للغرب القديم، حيث جسّد العنف، والوحشيّة، والروح العدوانيّة المحاربة التي ميّزت الغرب. لقد كان يرى في انتصاره على الفرس وسائر الشعوب الشرقيّة تحقيقًا لتمثيله لليونان والغرب، وكان يعترف بذلك صراحة. بعد انتصاره في معركة الغرانيكوس، أرسل الإسكندر إلى اليونان ثلاثمائة درعٍ حربيّة من الغنائم التي استولى عليها من الجيش الأخمينيّ، وأرفق بها رسالةً موجّهة إلى المقدونيّين واليونانيّين جاء فيها:

«الإسكندر، ابن فيليب، واليونانيّون... يُقدّمون هذه الغنائم التي أُخذت من الفرس القاطنين في آسيا.» ويقول المؤرّخ مايكل بركن إنّ الإسكندر كان يسعى إلى إقناع اليونانيّين بأنّه لم يكن يقاتل لأجل مجده الشخصيّ فحسب، بل من أجلهم أيضًا، وبهذا أدرك اليونانيّون أنّه قد تمّ الثأر لهزيمتهم قبل ١٥٠ عامًا في أثينا[١].

يذكر المؤرّخون أنّ الإسكندر كان أوّل غربيٍّ وطأت قدمُه سواحل آسيا. وقد كان شديد التمسّك بهويّته اليونانيّة، إذ كان يرى نفسه، بيقينٍ مطلق، من نسل أخيل، بطل اليونانيّين في حرب طروادة، كما ورد في الإلياذة. ولهذا، ما إن وصل إلى آسيا الصغرى حتّى توجّه مباشرةً إلى مدينة طروادة، حيث وقف عند قبر أخيل وقدّم قربانًا للإلهة أثينا (إلهة الحرب عند اليونان). كان الإسكندر يؤمن دائمًا بأنّه يمتلك صلةً خاصّة بزيوس، باعتباره أبًا لجدّه هرقل[٢].

---

١. برگن، اسكندر مقدونى، ٤١.

٢. م. ن، ٣٨، ٥٢.

في حروبه وحملاته العسكريّة، كان الإسكندر يمثّل الروح الغربيّة، وكان يجسّد في الوقت ذاته الوحشيّة والاستكبار الإجراميّ الذي طبع تاريخ الغرب. فقد تعامل خلال سنوات حكمه القصيرة بوحشيّةٍ مفرطة مع الشعوب غير الغربيّة التي أخضعها، بل وحتّى مع اليونانيّين والمقدونيّين الذين لم يوافقوه في نزعاته الاستبداديّة وأهوائه التوسّعيّة. ورغم التعاطف الذي يُظهره ويل ديورانت تجاه الإسكندر، وهو أمرٌ يبدو واضحًا في أعماله، فإنّه يُشير إلى بعض من هذه الممارسات الإجراميّة التي ارتكبها الإسكندر:

«كانت وحشيّة أمّه كامنةً في طبيعته، وكان مصيره المأساويّ أن يلقى حتفه على يد نوبات الغضب العارمة التي كانت تجتاحه أحيانًا. فعندما فتح غزة بعد حصارٍ وهجومٍ طويل، استشاط غضبًا من المقاومة العنيدة التي أبداها القائد الإيرانيّ الشجاع باتيس، فأمر بأن تُثقب قدماه وتُمرّر منهما حلقة نحاسيّة. ثمّ، وهو مخمورٌ بذكرى أخيل، قام بربط القائد الفارسيّ الذي كان قد قُتل آنذاك بعجلته الملكيّة، وجعله يُجرّ بسرعةٍ في أنحاء المدينة. كان إدمانه المتزايد على الخمر، الذي لجأ إليه لتهدئة أعصابه المتوتّرة، يدفعه، لا سيّما في سنواته الأخيرة، إلى ارتكاب أعمالٍ وحشيّة، سرعان ما كان يُصيبه الندم والاكتئاب بعدها»[١].

كما يذكر ويل ديورانت أمثلةً أخرى لهذه الممارسات:

«بعد أن استولى على دمشق وصيدا من دون إراقة دماء، حاصر صور، التي كان يحميها جيشٌ كبير من الفينيقيّين بتمويلٍ فارسيّ. وقد قاومت المدينة القديمة مقاومةً شديدة، وحين تمكّن الإسكندر من دخولها، استبدّ به الغضب، فأمر جنوده بذبح ثمانية آلاف من سكّانها، وبيع ثلاثين ألفًا آخرين في سوق النخاسة.

١. دورانت، يونان باستان، ٦٠٤.

أمّا أورشليم، فقد استسلمت دون مقاومة، فحظي أهلها بمعاملةٍ لطيفة. قاومت غزة حتى قُتل كلّ الرجال في المدينة، وتعرّضت كلّ النساء للاغتصاب ... وفي أواخر عام ٣٣١ ق.م، وصل الإسكندر إلى شوش. ولم يكن قد مضى وقتٌ طويلٌ على إقامته هناك ليستريح جنوده من عناء الحرب، حتّى قرّر التقدّم، فعبر الجبال وسط برد الشتاء القارس للسيطرة على تخت جمشيد. تقدّم بسرعةٍ كبيرةٍ حتّى وصل إلى قصر داريوس، فلم يمهل الفرس وقتًا كافيًا لإخفاء كنوز خزائنه. وهناك، فقد صوابه، فأحرق المدينة العظيمة الجميلة، وسوّاها بالأرض. اندفع جنوده إلى المنازل، نهبوا ممتلكات السكّان، اعتدوا على النساء، وقتلوا الرجال... وعند دخوله السغد، وصل إلى قريةٍ كان يسكنها أحفاد برانخيداس، الذي سلّم كنوز معبد ميليتوس إلى خشايارشا عام ٤٨٠ ق.م. وإذ استبدّ به الغضب، معتقدًا أنّه يأخذ بثأر إلهٍ مسلوب، أمر بقتل جميع السكّان، رجالًا ونساءً وأطفالًا (وهكذا، دفع الجيل الخامس من الأحفاد ثمن ما اقترفه أجدادهم) ... بالقرب من بخارى، تمكّن جنود الإسكندر من القبض على بسوس، قاتل داريوس. وفجأة، تحوّل الإسكندر إلى طالبِ ثأرٍ لملك الملوك، فأمر بجلده حتّى أشرف على الموت، ثمّ أمر ببتر أنفه وأذنيه، وأرسله إلى إكباتانا. وهناك، أصدر أمرًا بتقييد إحدى يديه وإحدى قدميه إلى شجرة، وتقييد اليد والقدم الأخريين إلى شجرةٍ أخرى، ثمّ أُطلقت الشجرتان، فتمزّق جسده إلى أشلاء»[١].

كانت جرائم الإسكندر ووحشيّته مظاهرَ لجوهريّة العنف والإجرام والاستكبار الكامنة في تاريخ الغرب، وهي التي وَجَدت آنذاك مجالًا للتجلّي في سلوكه، كما تجلّت لاحقًا في تصرّفات غيره من الغربيّين، بدءًا من الصليبيّين

١. م. ن، ٦٠٨ - ٦١٠.

في القرون الوسطى، مرورًا بالفظائع الإجراميّة التي ارتكبها كريستوفر كولومبوس، وفاسكو دا غاما، وماجلان، والاستعمار الوحشيّ الذي مارسته دول بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتّحدة، وصولًا إلى استكبار وطغيان شخصيّاتٍ مثل إليزابيث الثانية، وفيكتوريا، وتشرشل، وجورج واشنطن، ورونالد ريغان، ونابليون بونابرت، وجورج بوش الأب والابن، وأطياف الماسونيّة المختلفة، وأيزنهاور، وترومان، وغيرهم ممّن واصلوا هذا الإرث حتّى اليوم. نعم، لقد كان الإسكندر، بصفته ممثّلًا للاستعمار والعدوان والاستكبار الغربيّ ضدّ الشرق، مجرّد مجرمٍ متعطّشٍ للدماء. ويصف ويل ديورانت هذه النزعة اليونانيّة-الأوروبيّة (الغربيّة) التي حملها الإسكندر خلال حملاته ضدّ آسيا في قوله:

«عندما عبرت جيوشه مضيق الدردنيل من سيستوس إلى أبيدوس، اختار الإسكندر أن ينزل عند رأس سيجيوم، إذ كان يرغب في أن يسلك الطريق الذي ظنّ أنّ أغاممنون قد سلكه عند ذهابه إلى طروادة. وأينما توقّف، كان يتلو على أصدقائه مقاطع من الإلياذة، التي كان يحفظها عن ظهر قلب تقريبًا. وعند قبر أخيل، قام بمسحه بالزيت، ووضع عليه إكليلًا من الزهور... وأقسم بأنّه سيُكمل المعركة التي بدأت في طروادة بين آسيا وأوروبا، حتّى يُكلّلها بالنصر»[1].

في حروبه وانتصاراته العسكريّة، أظهر الإسكندر في كثيرٍ من الحالات وحشيّةً بالغةً في تعامله مع الأسرى، بل وحتّى مع المدنيّين العاديّين. يروي كورتيُوس، المؤرّخ، أنّه بعد أن فرض الإسكندر حصارًا طويلًا على صور، وأهلك عددًا كبيرًا من سكّانها بسبب الجوع الناجم عن الحصار، قام، بعد سقوط المدينة،

١. م. ن، ٦٠٧.

بصلب ألفَي ناجٍ من المجاعة والتجويع على امتداد الساحل[١]. ومن أبرز الأمثلة على الروح الإجراميّة التي طبعت سلوكه، ما وقع خلال غزواته في الهند، حين أصدر أمرًا بقتل مئات المرضى الذين كانوا يقيمون في إحدى المدن التي استولى عليها[٢]. بمعنى آخر، لم يرحم الإسكندر حتى المرضى والعاجزين.

في حادثةٍ أخرى، وبعد هزيمة الماليين في الهند، أصدر الإسكندر أمرًا بقتل جميع السكّان، رجالًا ونساءً وأطفالًا، فيما تمّ بيع عددٍ منهم في سوق العبيد[٣]. وفي عام ٣٢٤ ق.م، أُصيب هفاستيون، صديق الإسكندر المقرّب، بمرضٍ خلال مهرجانٍ رياضيّ-فنيّ في إكباتانا. لكنّه، بدل أن يتّبع الاحتياطات اللازمة، انغمس في الإفراط في الشهوات والشرب، فمات نتيجة الضعف الناجم عن ذلك. أصيب الإسكندر بحزنٍ شديدٍ لموته، وبدل أن يتعامل مع حزنه بعقلانيّة، قرّر شنّ حربٍ انتقاميّة للتنفيس عن آلامه، فهاجم أرض الكاسيّين، وأمر بقتل جميع ذكورها، مقدِّمًا إيّاهم كـ«قرابين» لصديقه الراحل هفاستيون. هذه أمثلة على تلك «الحضارة والديمقراطية» وشعارات مثل «اليونان، مهد الحرية» التي يتغنّى بها الغربيون.

قمع الإسكندر بعنف المعارضات

أدّت نزعة الإسكندر المستمرّة إلى الحروب، وسلوكه الاستبداديّ، وتشدّده العنيف إلى تذمّر بعض أصدقائه وقادته منه أو إلى انتقادهم له. وكان الإسكندر يُجابِه الانتقادات بأساليب قمعيّة، تصل أحيانًا إلى تصرّفات جنونيّة. وقد أدّت

١. برگن، اسكندر مقدونى، ٥١.
٢. م. ن، ٨٢.
٣. م. ن، ٨٦.

هــذه التفرّدات والتصرّفات غير الملائمة من قبله إلى تعاظم موجة الاعتراضات بين أوساط أصدقائه وقادته، حتى اتّخذت طابع التآمر والمكيدة لاغتياله.

ويمكــن العثور على أحد نماذج هذه التصرّفات الجنونيّة في طريقة تعامله مع أحد قادته المتمرّسين وأصدقائه المقرّبين، كليتوس. ففي مأدُبة عشاء عام ٣٢٨ قبل الميلاد، أسرف الإســكندر في شرب الخمر، كما غرق قادته وأصدقاؤه ومرافقوه في السُــكْر. وفي خضمّ ذلك، احتــدّ النقاش، فانتقد كليتوس نزعة الإســكندر إلى التفــرّد، وذكّره بأنّ الانتصارات المحقّقــة إنّما تعود إلى جيش مقدونيا، لا إلى الإسكندر وحده.

الإســكندر، الذي كان مَعْلَمًا من مَعالِم النزعة الاستبداديّة في روحه الغربيّة، كان بطبيعتــه قليل التحمّل تجاه أيّ نوعٍ مــن الانتقاد، فكان يَرُدُّ على أدنى انتقادٍ أو أقــلّ نصيحةٍ بعنفٍ ومرارة. وهذه المرّة، تحت تأثــير الخمر وما أثارته فيه من انفعــالات، ازداد اضطرابــه العصبيّ واختلّت مشــاعره، فاســتبدّ به الغضبُ والســخطُ. حاول بعض قادة الإسكندر التوسّــطَ لتهدئته، لكنّه ازداد احتدامًا لحظةً بعد أخرى، وشرع في توجيه الشــتائم إلى كليتــوس. وكما يذكر بلوتارخ، صرخ الإسكندر مخاطبًا كليتوس: «أيها الوضيع! أتظنّ أنّك تستطيع أن تتحدّث عنّي بهذه الطريقة... من دون أن تدفع الثمن؟» اســتمرّ الجدال بين الإســكندر وكليتوس، وفجأةً، انتزع الإسكندر رمحَ أحدِ حُرّاسه وطعن به كليتوس فقتله. غير أنّه، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ من انقشاع الغضب وزوال تأثير الخمر، شعر لفترةٍ وجيزةٍ بالندم على فعلته، لكنّه لم يلبث أن كرّر تصرّفاتٍ مماثلةً فيما بعد[١].

١. م. ن، ٧١ – ٧٢.

في عام ٣٣٠ قبل الميلاد، قرّر عدد من قادة الإسكندر وقوّاده، نتيجة استيائهم من سلوكه المتفرّد والعنيف، اغتياله. إلا أنّهم اعتُقِلوا قبل أن يتمكّنوا من تنفيذ مخطّطهم. وكان من بين المعتقلين فيلوتاس، قائد سلاح الفرسان، وهو ابن بارمينون، أحد القادة المقرّبين والمخضرمين لدى فيليب والإسكندر. يذكر المؤرخون أنّ فيلوتاس لم يكن ضالعًا في أيّ مؤامرة، بل إنّ جريمته الوحيدة كانت معرفته بالمخطّط دون الإبلاغ عنه. أما بارمينون، فلم يكن على علمٍ بأيّ شيء وكان مخلصًا تمامًا للإسكندر. ومع ذلك، أمر الإسكندر بإعدام جميع المتآمرين، كما أصدر أمرًا بقتل فيلوتاس وحتّى والده بارمينون[١].

في صيف عام ٣٢٤ قبل الميلاد، قام عدد من جنود جيش الإسكندر بالاعتراض على سياساته المتفرّدة والقمعيّة، فما كان منه إلّا أن أعدم جميع الضبّاط الذين قادوا التمرّد[٢]. وفي عام ٣٢٧ قبل الميلاد، حينما كان الإسكندر تملؤه أوهام الألوهيّة، طلب من قادته وجنوده أن يسجدوا له، فأعدم كلّ من امتنع عن تنفيذ هذا الأمر[٣]. وفي حادثة أخرى، عام ٣٢٥ قبل الميلاد، وبعد أن ارتكب مجزرة بحقّ سكّان مولتان، قاد الإسكندر جنوده عبر صحراء بلوشستان، ممّا أدّى إلى وفاة الآلاف منهم بسبب العطش والمرض نتيجة هذا القرار الخاطئ من جانب الإسكندر[٤].

---

١. م. ن، ٦٨.

٢. م. ن، ٨٩.

٣. كاتورن، ١٠٠ ديكتاتور تاريخ، ٢١.

٤. م. ن.

الإسكندر وأهدافه من حروبه

مــن الناحية العســكريّة، يبدو أنّ الإســكندر كان محاربًا قديــرًا، وإن كانت استراتيجيّاته القتاليّة تعتمد في جوهرها على التكتيكات العسكريّة التي ورثها عن والده. فقد كان فيليب نفسه قد تلقّى تدريبه العسكريّ في مدرسة إبامينونداس. غير أنّ الإســكندر أظهر ذكاءً كبيرًا في تكييــف النماذج والتكتيكات الحربيّة التي تبنّاها فيليب والمقدونيّون مع الظروف الجيوسياسيّة الخاصّة التي وجد نفسه فيها.

ومع ذلك، عند النظر في مكانة الإســكندر وتقييم إنجازاته، يبدو أنّ أهميّته وتأثــيره الأبرز يكمنان في قدرته على التنظيم الســياسيّ والاقتصاديّ بعد تحقيق الانتصارات العســكريّة، ودفع الأهداف الثقافيّة والسياسيّة طويلة المدى قُدُمًا، مستندًا إلى هذه الانتصارات، وإحداث تحوّلات هيكليّة على الصعيد الاقتصاديّ.

من هذا المنطلق، وعند تحليل الجوانب المختلفة لشخصيّة الإسكندر، يمكن القول إنّ أهميّته بوصفه اســتراتيجيًّا سياســيًّا وثقافيًّا، يســعى إلى تحقيق أهداف محدّدة لتوســيع الهيمنة اليونانيّة الغربيّة وتعزيز نوعٍ من النزعة الهلنســتيّة، تفوق أهميّته بصفته فاتحًا عسكريًّا. في الواقع، يعود جزء كبير من انتصارات الإسكندر العسكريّة إلى المنظومة العسكريّة المتماسكة والقويّة التي ورثها عن فيليب. ورغم أنّ الإســكندر اســتطاع في مختلف ميادين القتال الاســتفادة بمهارة من قدرات الجيــش الذي آل إليه، ورغم أنّــه أبدى في بعض مراحل حروبــه المتعدّدة قدرًا من الــذكاء في توظيــف تكتيكات عســكريّة إبداعيّة بما يتناســب مع الظروف الخاصّة التــي واجهها، إلّا أنّــه لا يمكن اعتباره عبقريًّا عســكريًّا، ولا تصنيفه ضمن القادة العســكريّين الأفذاذ في التاريخ. لعلّ الأدقّ القول إنّ الإســكندر كان قائدًا عســكريًّا بارعًا وذكيًّا ومتمكّنًا، لكنّه لم يكن عبقريًّا اســتثنائيًّا في هذا

المجال. غير أنّه، من ناحية أخرى، كان بلا شــكّ استراتيجيًّا وقائدًا سياسيًّا بالغ الكفاءة، وربّما عبقريًّا في هذا الميدان. لقد أتاح النبوغُ الخاصّ للإسكندر، بوصفه استراتيجيًّا ثقافيًّا وسياسيًّا، للتاريخ الغربيّ أن يُحقّق إمكانًا تاريخيًّا مكّنه من تجاوز الأزمة والانسداد اللذين أصابا العالَم اليونانيّ، وذلك من خلال توسيع وجوده التاريخيّ. وقد أدّى هذا التحوّل، في سياق تطوّر العالَم الغربيّ القديم، إلى إحلال النزعة الهلنســتيّة محلّ نموذج المدينة-الدولة (بوليس) الــذي كان يُميّز اليونان الكلاســيكيّة. هذا الإمــكان التاريخيّ، الذي تجلّى مع بروز النزعة الهلنســتيّة في أفــق الغرب القديم، أفضى إلى نتائج بعيدة المدى في مســار تطوّر التاريخ الغربيّ خلال القرون اللاحقــة. بحيث يمكن القول إنّ تحقّق العصر الهلنســتيّ أوجد ظروفًا لعبت، بلا شــكّ، دورًا فاعلًا في التمهيد لظهور العالَم الغربيّ في العصور الوسطى، وما رافقه من هيمنة النزعة الثيوسانتريّة.

الإســكندر، الــذي كان يســتغلّ فتوحاته العســكريّة كجسرٍ وذريعــةٍ لتحقيق أهدافه التوسّعيّة الهلنستيّة، لم يكتفِ بمجرّد الاحتلال، بل لجأ إلى النهب، والسلب، والاستغلال الاقتصاديّ، والاستيلاء على ثروات ومقدّرات الأراضي التي أخضعها، كما سعى إلى إشباع طموحاته الشــخصيّة الجامحة ونزعته الوحشيّة إلى الحرب. ومع ذلك، فإنّ الأهداف الأهمّ لحملاته في آسيا لم تكن محض أهداف عسكريّة، بل كانت ذات طبيعة ثقافيّة وحضاريّة، تصبّ في خدمة توســيع الهيمنة والاســتكبار اليونانيّ الغربيّ، الذي كان آنذاك المهد الرئيسيّ للغرب القديم وأبرز مراكزه.

«الإسكندر، تلميذ أرسطو، كان يدرك منذ البداية أنّ رحلته إلى آسيا لم تكن مجرّد حملة عســكريّة، بل كانت حدثًا حضاريًّــا عظيمًا... ومن الروايات المفصّلة حول اهتمام الإسكندر بتوسيع التجارة والتبادل التجاريّ، يتّضح أنّه كان يسعى

أيضًا إلى تحقيق أهداف اقتصاديّة محدّدة. لقد أسّس عددًا كبيرًا من المدن التي أراد لها أن تكون مراكز رئيسيّة لهذا النشاط التجاريّ المتنامي. وكان أبرز مشاريعه في هذا الصدد مدينة الإسكندريّة في مصر، التي شُيّدت منذ البداية لتكون مركزًا تجاريًّا محوريًّا. حتّى في المدن الجديدة التي أنشأها في أقاصي الشرق، كانت مواقع العديد منها تقع على طرق التجارة القديمة، ما يدلّ على أهدافها التجاريّة. ولهذا، فقد حافظت بعض هذه المدن، مثل هرات وقندهار وخجند، على ازدهارها حتى يومنا هذا. كما أوجد الإسكندر مسارات بحريّة جديدة للتجارة، حيث ربطت رحلة نيارخوس البحريّة بين مستعمراته الجديدة في الهند ومدينة بابل. وقبل وفاته بوقت قصير، كان يخطّط للربط بين بابل ومصر عبر الإبحار حول شبه الجزيرة العربيّة. كما جعل نهر دجلة صالحًا للملاحة، وأعدّ مخطّطًا لإنشاء مدينة فينيقيّة جديدة على سواحل الخليج الفارسيّ. وفي كلّ من باتالا وبابل، تمّ وضع تصوّرات لتشييد مرافق وموانئ عديدة بهدف تطوير التجارة والملاحة البحريّة. كلّ هذه المشاريع كانت إنجازات وبرامج ضخمة ذات أبعاد هائلة، تعبّر عن طموح رجلٍ كان يسعى إلى توجيه التجارة العالميّة لإمبراطوريّته وفق المسارات التي رآها مناسبة. كما أقدم الإسكندر على سكّ العملة مستخدمًا مخزون الذهب والفضّة الذي كان مكدّسًا في خزائن الفرس، ما أدّى إلى إيجاد عملة موحّدة في أرجاء إمبراطوريّته، وهو ما وضع أساسًا جديدًا تمامًا لتوسيع التعاملات النقديّة... لقد كان الإسكندر، حتى آخر أيّام حياته، عاشقًا للثقافة اليونانيّة. فهذا التلميذ الأرسطيّ لم يتخلَّ يومًا عن فكرة أن تكون حملاته العسكريّة العالميّة رحلةً استكشافيّة أيضًا، وذلك من خلال دراسة الأراضي المجهولة بمساعدة بعثة من الخبراء الذين رافقوه، وتسخير هذه المعرفة لخدمة العلم اليونانيّ. كما

ظلّ شـغفه بالأدب اليونانيّ قويًّا حتى النهاية. بـدأ بالإعجاب بهوميروس، ثم أرسل من أقاصي الشرق في طلب أعمال أدبيّة أخرى، قديمة وحديثة على السواء. كان يُكِنّ احترامًا كبيرًا لكتّاب التراجيديا الثلاثة العظام في اليونان: أسخيلوس، وسـوفوكليس، ويوريبيديس، وكان يعرف أعمال يوريبيديس معرفة عميقة إلى درجة أنّه كان يستطيع تلاوة مشاهد من مسرحيّاته عن ظهر قلب. أمّا إذا لم يكن الشـعراء الذين رافقـوه في بلاطه المتنقّل من الصـفّ الأوّل، فذلك لا يعود إلى ذوقه، بل إلى مسـتوى الشـعر اليونانيّ في ذلك العصر، الذي كان قد تراجع إلى درجة ملحوظة. وبالإضافة إلى الشـعراء، ضمّ معسكرُه فلاسفة ومفكّرين من مدارس فكريّة متنوّعة، من بينهم كَلْبيّون مثل أونيسيكريتوس وأناكسيمينيس، وديمقريطيانيّون مثل أناكسـارخوس وتلميذه بيرّو الشـكّاك. لقد كانت الحياة الفكريّة في بلاط الإسـكندر، التي نراها في غاية النشاط، يونانيّة خالصة، شأنها شـأن اهتمامه بالأدب، الذي ظلّ يونانيًّا بحتًا، والفنّ، الذي لم يكن يعترف بغير الفنّ اليونانيّ»[١].

سياسات الإسكندر في التخطيط الحضري

سـعى الإسـكندر إلى تحقيق مشروعه لتوحيد العالم اليوناني من خلال تبنّيه سياسة تخطيط حضري وفق النمط اليوناني، وتحويل هذه المدن إلى مراكز رئيسية للحياة الاقتصادية والثقافية، ومنحها دورًا محوريًا في إدارة شؤون الأراضي التي كان يستولي عليها وتسييرها. وقد أُنشئت العديد من المدن بناءً على نموذج مدينة الإسـكندرية في مصر، في مناطق مختلفة، لا سيما في شرق إيران والهند، بأمرٍ من الإسـكندر. وكان غالبًا ما يطلق على هذه المدن اسـم «بوليس»، ويُسـكن فيها

١. ويلكن و برزا، اسكندر مقدونى، ١٢٠-٢١؛ ٣١٣-١٦.

المهاجرين اليونانيّين والمقدونيّين. كما أسكن الإسكندر في هذه المدن عددًا كبيرًا من الفقراء والمشرّدين من أبناء المدن اليونانية والمقدونية. في معظم الأحيان، كان الإسكندر، بعد استيلائه على منطقة ما، يطّلع على المخطّط الأساسي للمدينة، وبعد موافقته، كانت قوّات الجيش تبني أسوار المدينة الرئيسية، في حين كان المهاجرون يتولّون بقيّة مراحل البناء والتشييد. أما النظام الإداري العام لهذه المدن، فكان مرتبطًا بالإسكندر نفسه من خلال المجمع العام لكل مدينة عبر عدة وسائط. في هذه المدن التي كان الإسكندر وقادته يؤسّسونها، لم يكن السكان الأصليّون للمناطق المحتلّة من قِبَل جيش الإسكندر يُعتبرون من مواطني البوليس، إذ كانت المواطنة في هذه المدن مقتصرة على اليونانيّين والمقدونيّين فقط. في هذه المدن، كانت القوانين والتقاليد اليونانية هي السائدة، وكان يُعبد الآلهة اليونانية. وقد أُنشئت هذه المدن عادةً بجوار المستوطنات المحلّية القائمة، مما أتاح للإسكندر تهيئة الظروف بشكل تدريجي لإيجاد نوع من الارتباط والاندماج بين المهاجرين اليونانيّين والمقدونيّين والسكّان الأصليّين.

في الواقع، انتهج الإسكندر سياسة تهدف إلى تهيئة الأوضاع للتقارب، بل وإلى الاندماج بين المهاجرين اليونانيّين والمقدونيّين والسكّان الأصليّين، لا سيّما الإيرانيّين. ومن أبرز مظاهر هذه السياسة إجبار قادته على زواج جماعي من نساء إيرانيّات، وزواجه هو نفسه من أميرتين فارسيّتين، ستاتيرا وباروساتيس. ومن خلال هذه المصاهرات والاندماجات، سعى الإسكندر إلى نشر الثقافة والعادات اليونانية، وفي الوقت ذاته، إلى تنشئة جيل من الإيرانيّين الذين نشأوا في ظل الثقافة اليونانية وتشرّبوا مبادئها، بحيث يكونون موالين للدولة المقدونية، فيساعدوا الإسكندر وجيشه في إدارة الأراضي الشاسعة التي استولى عليها، ويعملوا كوكلاء للإدارة المقدونية.

في الواقع، يمكن القول إنّ الإسكندر كان يسعى، من خلال سياسته في التخطيط الحضري، إلى تحقيق هدفين رئيسيين، أحدهما ثقافي والآخر اقتصادي، وكلاهما كانا في خدمة مشروعه لتوحيد العالم اليوناني. فقد أراد من خلال إنشاء هذه المدن أن يسهم في توسيع الهيمنة السياسية لليونان وتعزيز الوحدة اليونانية في العالم غير اليوناني، عبر مراكز ثقافية واقتصادية.

«عند تأسيس المدن في شرق إيران، كان الإسكندر يفكر في تقريب الإيرانيّين من المقدونيّين واليونانيّين، ولم يطل الوقت حتى بدأ يفكّر في اندماجهم أيضًا... رأينا أنّه، على الرغم من جميع الامتيازات السياسية التي منحها للإيرانيّين، ظل حتى آخر حياته ممجدًا للثقافة اليونانية، لذلك لم يكن من الممكن ألّا يبقى متطلّعًا إلى نشر الثقافة اليونانية على نطاق أوسع. وكان لا بد، قبل أيّ شيء آخر، من إيجاد مراكز تكون منطلقًا لهذا الانتشار، وهذه المراكز لم تكن سوى المدن التي أنشأها. وإذا كان امتزاج الثقافات أمرًا غير مستبعد، فإنّ حبّه العميق للثقافة اليونانية جعله، دون شك، يتوقّع بكل اطمئنان أن تكون هذه الثقافة هي المهيمنة في نهاية المطاف... [ولتحقيق هذا الطموح] كان التخطيط الحضري للإسكندر هو الشرط الأول الذي أتاح ذلك»[١].

كانت مدن العصر الهلنستي، من جوانب مختلفة، ممثّلة لروح هذا العصر، كما كانت تجسيدًا لظروفه وخصائصه ومميّزاته الجوهرية:

«[في العصر الهلنستي] فقدت المدينة دورها كمسرح لدراما فعّالة ومؤثرة، وتحوّلت إلى معرض فاخر ومترف لاستعراض القوة. أما شوارعها، فقد أصبحت بواجهاتها ذات البُعدَين بمثابة قناع يُخفي ملامح نظامٍ استغلالي

١. م. ن، ٣١٩.

متغلغل، صـارمٍ ومتصلّبٍ في قوالب نمطية. ما تجلّى في العصر الهلنسـتي تحت مسـمى التخطيط الحضري لم يكـن بعيدًا عن الأكاذيـب المهدئة والانحرافات الخادعة، التي لا تختلف كثيرًا عمّا نعرفه اليوم في إطار العلاقات العامة والدعاية في الاقتصـاد الأمريكي. ويمكننا أن نجد أثر هذه المدينة الجامدة، التي كانت في آنٍ معًـا متحجرةً وباهتةً لكنّها مهيبـة، في ملطية، وفي المجتمعات الحضرية التي خضعت للسلطة المركزية لممالك عدة، والتي بسطت سيطرتها في نهاية المطاف على منطقة إيجة وحوض البحر المتوسط، أي في ظل استبداد المقدونيّين، والسلوقيّين، والبرغامين، والبطالمة. ومع تدهور الحياة الداخلية للمدينة اليونانية، بدأ مظهرها الخارجي يعكس درجةً أعلى بكثير من التنظيم الشكلي والترابط الهندسي. ورغم أنّ المدينـة الهلنسـتية باتت أكثر صرامـةً ورتابةً، إلا أنّها بـدت على الأقل أجمل للعين. لقد كان حلم المخطّطين الحضريّين متجسـدًا في مدينة القرن الثالث قبل الميلاد: مدينة التجارة والاسـتغلال السـياسي، لا مدينة الثقافة؛ مدينة السلطة المتبجحـة والثـروة المتفاخرة، لا مدينة الإنسـان الحر. اتّخذت المدينـة اليونانية الهلنستية طابعًا اسـتعراضيًا، حيث أصبحت مسرحًا لعرض قوة وهيبة الحكام الملكيّين أو السلطات ذات النزعة التجارية، بهدف إثارة احترامٍ مشوبٍ بالخوف لدى رعاياها، وفي الوقت ذاته، لإلهائهم. كانت المدينة الهلنسـتية، رغم نشاطها المحموم وتنظيمهـا الدقيق، تعاني من اضطراب داخلي وعـدم توازن، وكانت فنونها، التي ازدهرت بألوان نابضة بالحياة، تتزامن مع جفاف جذورها الإنسانية العميقة. وهكذا، وصلت إلى كمالها الخاص. لا شـك أنّ المدينة الهلنستية كانت تدير شـؤونها التجارية بكفاءة أكبر، أو على الأقل بترتيب وتنظيم يفوق ما كان عليه الحال في المدن الهلنية–اليونانية الكلاسـيكية. فقبـل كل شيء، كانت هذه

المدينة سـوقًا تجارية كبرى، أو ما يمكن تسميته «إمبريوم». لكن ربما كان أفضل ما قامت به هو توفيرها لمشـهدٍ مسرحي ضخم، إذ صارت أشبه بوعاءٍ مخصّصٍ للجماهـير. ويمكن فهم الخطوط العريضة للمدينة الهلنسـتية من خلال مفهوم تلك الاحتفالات الفاخرة والاسـتعراضات المهيبة التي تكرّرت مرارًا بأشكالٍ مختلفـة، دون أن يكون هناك حاجة حقيقية أو ضرورة فعلية لوجودها. لقد كان تحقيق العظمة هدفًا مشتركًا بين الحاكم والمخطّط الحضري»[1].

كانت مدن الإسـكندرية التي نشـأت في فترة الهلنسـتية تعكس، من حيث هندسـتها المعمارية وبنيتها الهندسـية ونظامها الداخلي، روح الاستبداد العنيف والنهب والقمع الذي طبع الغـرب اليوناني-المقدوني. وفي الوقت ذاته، كانت هذه المدن تكشف عن الأزمة الروحية والأخلاقية والمعنوية التي أفرزتها الفلسفة الكونويـة العدمية، النافرة من الدين والمنقطعة عـن الوحي، في الفكر اليوناني. وقد تجلّى كل ذلك في الجوهر الفارغ، الظاهري والاستعراضي، لمعمار هذه المدن، وفي هويّتها الزائفة والمخادعة، التي انطوت على جوهر مناهض للإنسانية.

الإسكندر وتوهمّه الاستكباري بالألوهية

بعد الانتصارات التي حقّقها في الحرب ضد إيران الأخمينية، وتوسـيع رقعة سـيطرته حتى أجزاء من الهند، بعث الإسكندر برسالة من شوش إلى حلفائه في رابطة كورنـث، طالبًا منهم أن يعدّوه إلهًا. ومن المعلوم أنّ مفهوم الإله في العالم اليونـاني الغربي يختلف عمّا نعرفه وندركه في الدين التوحيدي عن الذات الإلهية المقدّسـة. ففي الفكر اليوناني، كان الإله مجرّد قـوّة حيّة محرّكة للوجود، وكانت الآلهة تُتصوَّر ككائنات شـبيهة بالبشر، لكنّها أقوى منهم، وتتميّز عنهم بأنّها لا

١. ممفورد، شهر در بستر تاريخ، ٢٨٥ - ٨٦.

تموت أبدًا. ولأنّ الإسكندر كان ينتمي إلى هذا العالم اليوناني، فقد كان يتحدّث عن الإله وفق هذا التصوّر اليوناني.

بخصوص هذا الادعاء العجيب والجنوني للإسكندر المقدوني، حيث طلب - بل بالأحرى أمر - من شعب اليونان وقادته وكل من كان على صلة به أن يعدّوه إلهًا ويسجدوا له، فقد قُدّمت تفسيرات متعددة. بعض المؤرخين المتحيّزين للغرب والثقافة اليونانية زعموا أنّ الإسكندر طرح هذا الادعاء متأثرًا بملوك الشرق القديم وتحت تأثير التقاليد والمعتقدات الشرقية. أولئك الذين يعتبرون ادعاء الإسكندر الجنوني بالألوهية مجرّد تقليد لعادات ومعتقدات شرقية يهدفون أولًا إلى ازدراء الشرق والشرقيّين، أي غير الغربيّين في الواقع، وثانيًا يتناسون أنّ الإسكندر كان منذ طفولته يعدّ نفسه من سلالة زيوس وهيراكليس، وكان أسيرًا لهذا الوهم المتعجرف المتكبّر والشركي، حيث تخيّل أنه من نسل الآلهة.

المسألة المهمة هنا هي أنّ الدراسات التاريخية تُظهر بوضوح بطلان وعدم وجاهة ادعاء أولئك المؤرّخين الذين اعتبروا فكرة «تأليه الملك» معتقدًا شرقيًا. والمثير للاهتمام أنّ الأبحاث التاريخية تشهد على حقيقة أنّ هذا الاعتقاد الشركي، المتمثّل في اعتبار الملك إلهًا - وهو الاعتقاد الذي تبنّاه الإسكندر - هو في جوهره وبنيته فكرة يونانية، وليس معتقدًا أصيلًا في الشرق، ذلك الشرق الأسطوري المشرك والممسوخ قبل الإسكندر وبعده، حيث لم يكن هذا التصور متجذرًا كإيمان جاد. الشعب الشرقي الوحيد الذي وُجدت فيه هذه العقيدة الشركيّة إلى حدّ ما هم المصريون، لكنّها لم تكن لديهم سوى معتقدٍ محلّي ضعيف التأثير، خصوصًا على مستوى القارة الآسيوية الكبرى أو حتى في بلاد الرافدين وإيران والهند. وعليه، فقد حمل الإسكندر هذا الادّعاء الشركي المتعجرف بوصفه إرثًا

مستمدًّا من الشرك الاستكباري اليوناني. التفسيرات التي يقدّمها المؤرخ الغربي المعاصر «أولريش فيلكن»، الذي يُظهر تعلّقًا ملحوظًا بالإسكندر ويتناول الموضوع من منظور الحداثة، فهي جديرة بالاهتمام، خاصةً لأنّها تصدر عن باحثٍ غربي معاصر ومتخصص في تاريخ الغرب القديم، مما يجعلها ذات فائدة كبيرة وجديرة بالقراءة:

«تصوّرٌ باطلٌ آخر كان شائعًا في الماضي، وما زال البعض يعتقدون به حتى اليوم، هو أنّ الإسكندر استقى فكرة الألوهية من الشرق. ولهذا السبب، يعتبرون هذا الأمر علامةً على ازدياد تأثّره بالشرق. يمكننا أن نستبعد من نقاشنا الملكية الإلهية الخاصة بمصر، والتي حتى لو أثّرت في الإسكندر - كما رأينا - فقد ظلّ تأثيرها محدودًا ومحلّيًا تمامًا. المسألة الجوهريّة هنا هي أنّ رعايا الأخمينيّين لم يعتبروا ملوكهم يومًا آلهةً ولم يعبدوهم. لذلك، كان هذا المفهوم مجهولًا تمامًا في الشرق في زمن الإسكندر، وبالتالي لم يكن بالإمكان أن يستقيه من هناك. وقد بيّنت الأبحاث الحديثة أنّ هذا المفهوم يوناني خالص، وأنّ الإسكندر أعاد إحياءه وأضفى عليه طابعًا جديدًا. ففي الفكر اليوناني، وكما يظهر من الأساطير والمرويّات القديمة، لم يكن الحدّ الفاصل بين الإنسان والإله واضحًا وثابتًا، بل كان دائم التذبذب. وكما استطاع هرقل أن يثبت مكانه بين الأولمبيّين من خلال أعماله، كان الإنسان الذي يقوم بأفعال تفوق قدرات البشر في نظر معاصريه يكتسب منزلةً إلهيةً في حياته. على سبيل المثال، حين كان ليساندر في ذروة سلطته، أقام له حكّام ساموس مديحًا ومذابح واعتبروه إلهًا. أما كليارخوس، الطاغية الحاكم في هيراكليا، والذي كان تلميذ إيسوقراط، فقد أجبر رعاياه على عبادته بوصفه ابن زيوس. حتى أنّ أنصار فيليب أقاموا له تمثالًا في معبد أرتميس في

أفسُس، وبذلك منحوه منزلةً إلهيةً. عندما أمر فيليب بنفسه، خلال احتفال زفاف في إيجة عام ٣٣٦ قبل الميلاد، بوضع تمثالٍ له إلى جانب تماثيل الآلهة الإثني عشر الرئيسيّين لدى المقدونيين، ممّا جعله، إن لم يكن إلهًا، فعلى الأقل في مرتبةٍ موازيةٍ للآلهة، فإنّ هذا الفعل كان يعكس تأثير الأفكار اليونانية في البلاط المقدوني. لكن لم يكن الفعل وحده ما اعتبره الإسكندر سابقةً، بل كانت الآراء أيضًا ذات تأثيرٍ واضح. فأستاذه أرسطو قال في كتابه «السياسة» إنّ من يتفوّق على الآخرين في الحكمة والقدرة السياسية بمقدار رأسٍ وأكتافٍ، فهو «إلهٌ بين البشر»، وأضاف أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لا يخضعون لأيّ قانون، لأنّهم هم القانون نفسه. أوَلم يكتب إيسوقراط في رسالته الأخيرة إلى والد الإسكندر، فيليب، أنّه إن تمكّن من إجبار ملك ملوك الفرس على الاستسلام، فلن يتبقّى له سوى أن يصبح إلهًا؟ فهل بلغ فيليب، من حيث الإنجازات، ما بلغه الإسكندر؟

وهكذا، كان طلبُ الإسكندر للألقاب الإلهية من اليونانيين، بعد عودته الظافرة من الهند، منسجمًا تمامًا مع العقائد اليونانية. ولم يكن هذا التصور غريبًا عليه، فقد سبقه إليه بسبع سنوات كاهن آمون الذي خاطبه بلقب «ابن زيوس». وإذا لم يُكلّف نفسه في ذلك الحين عناء إعلان «ألوهيّته» رسميًا في العالم اليوناني، فلم يكن ذلك يعني أنّه لم يعتبر الأمر وحيًا إلهيًا واعترافًا بقدراته الفوق إنسانية وفق التصور اليوناني. لقد بقي وعيه بـ«أصله الإلهي» حاضرًا في ذهنه، والآن، بعد نجاحاته الأسطوريّة، وفي غمرة تخطيطه لتنفيذ مشاريعه التوسعية للسيطرة على العالم، لم يكن ليستطيع صرف النظر عن ذلك. ورأى أنّ الوقت قد حان لاتّخاذ الخطوة النهائية، بإبلاغ هذا الأمر لليونانيين أعضاء رابطة كورنث، وفرض ضرورة تقديسه عليهم... في ربيع العام التالي، ٣٢٣ ق.م، وصل إلى بابل سفراء

من هيلاس حاملين تيجانًا ذهبية ليقدّموها للإسكندر. لم يأتوا إليه بوصفهم مجرّد مبعوثين إلى ملكٍ بشري، بل كما وصفهم آريان، وقد توّجوا رؤوسهم بأكاليل الزهور، كانوا أشبه بـ«سفراء سماويين» (تيوروي) يمثّلون من يرفعون الدعاء أمام حضرة الإله. وهكذا، أذعنت اليونان لمطلبه»[١].

الإسكندر كان حقًا واقعًا في هذا الوهم المشرك المستكبر عن نفسه، إذ كان يعتقد أنّه، بصفته حفيد هرقل (الذي كان، وفقًا لاعتقاد اليونانيين، من نسل زيوس)، ينحدر من زيوس، إله الآلهة. في الفكر اليوناني، ثمّة تصور مشرك ودنيوي لكلمة «إله». إنّ مفهوم الإله في الفكر اليوناني لا يحمل أيّ بُعد متعالٍ أو قدسي. فالإله في التصور اليوناني هو كيان يحمل جميع السمات المشركة وغير التوحيديّة التي تميّز الإله الأسطوري، ومع ذلك، بل وأكثر من ذلك، فهو لا يسمو على العالم المادي حتى بمقدار ما تسمو عليه الآلهة الأسطوريّة. فالإله في الفكر اليوناني كائن حيّ قوي يفوق البشر قدرةً، ويمكنه أن يختلط بسهولة بالبشر، بل (والعياذ بالله) يمارس الشهوات كما يفعلون، ويطمع، ويقع في حب النساء أو الرجال الجميلين والشجعان، ويشرب الخمر، ويخدع، ويُخدع، ويكذب، ومع أنّه أقوى من البشر عمومًا، فإنّه قد يُهزم أحيانًا في صراعه معهم.

لكن اليونانيّين كانوا يقدّمون القرابين للآلهة، ويطلبون عونها، ويسجدون لها، لاعتقادهم بأنّهم بذلك يستطيعون نيل مساعدتها وحمايتها، وتحقيق رغباتهم وأمانيهم. في الفكر اليوناني، لا توجد حدود واضحة أو حواجز مميّزة تفصل بين الإنسان والآلهة، فكل إنسان قد يرتبط بأحد الآلهة، سواء في حياته أو بعد موته، وقد يُدرج في عداد الآلهة.

الوهم المستكبر المشرك لأرسطو كان، على وجه التحديد، متجذّرًا في هذا

١. ويلكن ، اسكندر مقدوني، ٢٦٧ – ٦٨، ٢٧٠.

التصور الخاطئ الشيطاني العدمي اليوناني، واستمدّ منه نشأته، فكان تعبيرًا وسردًا للشرك العدمي الكونوي في الفكر اليوناني.

الإسكندر كان ثمرة تطوّر العالم اليوناني وتجسيدًا لإرادته ورغبته وحاجته إلى التوسّع، وكان اعتقاده الوهمي المستكبر قد نشأ، بشكل واضح، من أعماق الشرك العدمي الاستكباري للغرب القديم. لقد كان الإسكندر تجسيدًا لروح الاستبداد والعدوان والإجرام والاستعمار والشرك ومعاداة الدين والتهرّب من الحقيقة، التي ميّزت استكبار الغرب القديم، وكانت معتقداته ورؤيته للعالم، على نحو جلي، نتاجًا للفكر الميتافيزيقي العدمي الكونوي في الفلسفة اليونانية. ينبغي فهم الإسكندر وتحليله بوصفه ممثلًا وتجسيدًا للغرب. فسلوكه ومعتقداته وأعماله تعكس، بوضوح تام، هوية العالم الغربي اليوناني الفكرية والعملية، وتكشف عن باطنه الاستكباري الظالم.

أرسطو، الإسكندر، والميتافيزيقا العدمية الكونوية

الميتافيزيقا العدمية الكونوية هي النفس المدبّرة لعالم الغرب القديم، وكل ما تحقّق في الوجود التاريخي لهذا العالم إنما يرجع إلى ماهيته ونفسه المدبّرة. لقد كان ظهور الإسكندر استجابة لحاجة تاريخية نشأت في عالم الغرب القديم. فقد بلغ الغرب اليوناني نهاية مساره، غير أنّ الميتافيزيقا العدمية الكونوية، بوصفها النفس المدبّرة لعالم الغرب القديم، كانت لا تزال تملك إمكانية الامتداد التاريخي. غير أنّ هذا الامتداد لم يعد ممكنًا في إطار الديمقراطية القائمة على نظام الـ«بوليس» اليوناني، ولا ضمن الميتافيزيقا العدمية السابقة للفلسفة، ولا حتى في إطار الفكر الفلسفي السقراطي-الأفلاطوني-الأرسطي. لقد كان عالم الغرب القديم بحاجة، من أجل استمراره وتوسعه، إلى استبدال محور جديد

بمحور اليونان الكلاسيكي وبـ«بوليس» الديمقراطية الكلاسيكية، لا سيّما أنّ الأنظمة الديمقراطية القائمة على الـ«بوليس» اليونانية لم تكن قادرة بأيّ حال من الأحوال على الاستجابة لمتطلّبات التوسع الذي اقتضاه عالم الغرب القديم، وهو التوسّع الذي تجلّى في شكل السيطرة على أراضٍ شاسعة. الإسكندر كان الجواب الذي أخرجه التاريخ الغربي من جعبته ليواجه به حاجته الاستكبارية-الاستعمارية إلى الغزو والتوسع.

لا ينبغي أن يُنسى أنّ الإسكندر كان تلميذ أرسطو. فقد كان أرسطو فيلسوفًا من مقدونيا يحمل كراهية خاصة لغير اليونانيّين، وكان يرى في استعباد غير اليونانيّين على يد اليونانيّين «حقًا» لهم، واعتبره شرفًا لأولئك الذين أسماهم «البرابرة». من الواضح إلى أيّ مدى كانت هذه النظرة وتلك النزعة العدوانية الظالمة الاستكبارية متوافقة مع حاجة عالم الغرب القديم إلى التوسّع، وكذلك مع روح الإسكندر ونيّاته وطموحاته، بل ومع تطلّعات والده، فضلًا عن الأجواء الفكرية التي كانت سائدة في العالم اليوناني آنذاك. لقد كان الإسكندر الممثّل الحقيقي لمشروع الوحدة اليونانية التوسعية في عالم الغرب القديم، غير أنّ هذه الوحدة الاستعمارية الظالمة كانت تستمدّ قوّتها وعونها من الميتافيزيقا العدمية الكونوية. وعلى المستوى النظري، كان الفكر الميتافيزيقي العدمي الكونوي، وعلى وجه التحديد الفلسفة الأفلاطونية-الأرسطية (باعتبارها الحلقة الأخيرة والصورة المتكاملة للفكر الفلسفي اليوناني الكلاسيكي)، هو الذي قدّم الأسس النظرية والمبرّرات لهذا التوسع العدواني الذي ميّز مشروع الوحدة اليونانية. في الواقع، استغلّ أرسطو، بوصفه معلّم الإسكندر، إمكانيّات الفكر الميتافيزيقي الكونوي في الفلسفة اليونانية، ليكوّن الإسكندر باعتباره إرادة مستبدة متجاوزة محاربة تمثل استكبار الغرب القديم العدمي.

سعت الفلسفة اليونانية، في صراعها مع آراء السفسطائيين، إلى تنظيم الأوضاع المضطربة والأزمة التي كانت تعصف بأثينا والمدينة اليونانية، لكنّها فشلت في ذلك ولم تحقق نجاحًا. غير أنّ الفلسفة اليونانية، ولا سيّما فلسفتا أفلاطون وأرسطو، تحوّلت في خضم الفترة الهلنستية والتوسّعات العسكرية العدوانية التي قادها الإسكندر وجيشه، إلى أداة مكّنت من ترسيخ العدمية الكونوية للغرب القديم ضد الشرق الأسطوري، بل وضد الفكر الديني الأصيل في بعض الجوانب والمواقف. أما مسيرة الفلسفة اليونانية في سياق الفترة الهلنستية وفي مختلف المناطق التي امتدّ إليها تأثيرها–سواء في الإسكندرية، أو في الغرب في العصور الوسطى، أو في العالم الشرقي الإيراني – الإسلامي، حيث كانت التيّارات القوية للثقافة والتعاليم الإسلامية فاعلة وحاضرة–فهذه قصة طويلة ومعقدّة تحتاج إلى بحث مستقل ودراسة مفصّلة.

٣. النزعة الهلنستية بعد الإسكندر

في العاشر من يونيو عام ٣٢٣ ق.م، تُوفّي الإسكندر إثر مرض غير معروف (يرجّح أنّه كان الملاريا). نُقل جثمانه إلى مصر، حيث دُفن أولًا في «منف»، ثم نُقل لاحقًا إلى الإسكندرية. لم يعيّن الإسكندر خليفة له، مما أدى إلى تصاعد الخلافات بين قادته العسكريين. أنجبت روكسانا، زوجة الإسكندر، ابنًا أطلقت عليه اسمَ الإسكندر، وعُرف لاحقًا باسم «الإسكندر الرابع». كما كان للإسكندر ابنٌ آخر من جاريته برسينة، أُطلق عليه اسم هرقل. غير أنّ الأحداث التي شهدها البلاط المقدوني، الذي كان يعج بالمؤامرات والصراعات بعد وفاة الإسكندر، أفضت إلى مصير مأساوي لكل من روكسانا والإسكندر الرابع وهرقل، حيث أُزهقت أرواحهم جميعًا في خضم الصراعات الدموية بين قادة الإسكندر الساعين إلى السلطة.

بعد انتشار خبر وفاة الإسكندر، اندلعت اضطرابات وثورات في مختلف أنحاء ممتلكاته، وخصوصًا في اليونان، حيث علت أصوات المعارضة ضد الحكم المقدوني. لم تكن الإمبراطورية التي أسّسها الإسكندر قد بلغت من التماسك المؤسّسي والاستقرار السياسي ما يمكّنها من الحفاظ على وحدتها وسلامها في غياب مؤسّسها، ولذلك سرعان ما سقطت فريسة للتفكّك الناجم عن صراعات القادة الطامحين للسلطة وتمرّد الحكّام المحلّيّين. يصف أولريش ويلكن الأوضاع بعد وفاة الإسكندر قائلًا:

«بما أن وحدة الإمبراطورية كان لا بد من الحفاظ عليها، كان لزامًا اختيار ملك جديد، وهكذا عاد لمجلس الجيش المقدوني دور محوري. وبعد صراع شديد كاد أن يتحوّل إلى مواجهات دموية، تم التوصّل إلى تسوية غير مستقرة. تقرّر أن يحكم كلٌّ من آريدايوس، ابن فيليب المصاب بالصرع، الذي اختاره سلاح المشاة، وابن روكسانا الباختري الذي لم يكن قد وُلد بعد، والذي اختاره سلاح الفرسان–وقد وُلد بعد بضعة أسابيع–معًا. وهكذا تولّى العرش طفلان صغيران، لم يكن أيٌّ منهما قادرًا على الحكم، ليحلّا محل رجل لم يكن أحد قادرًا على تعويضه. وكلما ازداد ضعف هذا الحكم الصوري، ازدادت نيران الطموحات السلطوية بين القادة اشتعالًا... انتشار خبر وفاة الإسكندر أثار عاصفة في اليونان، أطاحت تمامًا باتّحاد كورنث. نهضت أثينا ودعت اليونانيّين إلى خوض حرب استقلال ضد مقدونيا، وفي المقابل، كان يجري تشكيل اتّحاد يوناني جديد ضمن اتّحاد كورنث، تتولّى أثينا قيادته. لم يكن هناك مجال للاعتراض على إلغاء اتحاد كورنث، فقد تعهّد أعضاؤه في «الميثاق» بدعم الإسكندر وخلفائه، غير أنّه عند اندلاع الثورة، لم يكن هناك وريث شرعي بعد. بلغ التوتر ذروته، حتى اندلعت حرب

عُرفت باسم «حرب لاميا»، خرج منها أنتيباتر [أحد قادة الإسكندر البارزين] منتصرًا. انهزمت أثينا بعد خسارة أسطولها البحري في معركة آمورغوس في يوليو عام ٣٢٢ ق.م، ما أفقدها قوّتها البحرية إلى الأبد، وأصبحت تحت سيطرة حامية مقدونية»[١].

يصف وِل ديورانت الأوضاع بعد وفاة الإسكندر قائلًا:

«بعد بضع معارك صغيرة أُزيل فيها المتنافسون الأضعف، قُسمت إمبراطورية الإسكندر بأكملها إلى خمسة أجزاء (عام ٣٢١ ق.م): استولى أنتيباتر على مقدونيا واليونان، ولوسيماخوس على تراقيا، وأنتيغونوس على آسيا الصغرى، وسلوقوس على بابل، وبطليموس على مصر. لم يكلّف أيٌّ منهم نفسه عناء طلب موافقة مجلس الـ«بوليس» اليونانية على هذا التقسيم. ومنذ ذلك الحين، باستثناء فترات متقطعة في اليونان والجمهورية الأرستقراطية الرومانية، ظل النظام الملكي قائمًا في أوروبا حتى الثورة الفرنسية»[٢].

مع تولّي فيليب الثاني عرش مقدونيا، ثم التوسّعات العسكرية العدوانية للإسكندر، انتهى «عهد اليونان الكلاسيكي» في تاريخ الغرب القديم، وبدأ العهد الجديد المسمى بـ«الهلنستية». يمكن اعتبار بداية هذه الحقبة عام ٣٣٨ ق.م، على الرغم من أنّ بعض المؤرخين يرجّحون أنّ الحقبة الهلنستية بدأت عام ٣٢٢ ق.م، أي مع وفاة الإسكندر. استمرّ هذا العهد حتى وفاة كليوباترا، آخر ملوك الأسرة البطلمية في مصر، عام ٣١ ق.م. كان للأسرة البطلمية في مصر، وبشكل خاص من خلال الدور المركزي الذي لعبته مدينة الإسكندرية في نشر

---

١. م. ن، ٣٢٣ – ٢٥.

٢. دورانت، يونان باستان، ٦٣٦.

الثقافة والأدب والفنون الهلنستية، مكانة وأهمية خاصة في العهد الهلينستي. غير أنّ سقوط الأسرة البطلمية بيد الدولة الرومانية القويّة عام ٣١ ق.م، كان إيذانًا بانتقال مركز السلطة السياسية والثقافية والاقتصادية في الغرب القديم من الإسكندرية ومصر وبلاد الرافدين إلى روما. ومع هذا الانتقال في مركز السلطة، انتهى العهد الهلينستي في الغرب القديم، وبدأ عهد الإمبراطورية الرومانية، الذي شكّل آخر العهود في تاريخ الغرب القديم ومسيرته التوسّعية.

لنعد إلى مناقشة الحقبة الهلنستية. خلال هذه الحقبة، شهدت الحضارة اليونانية ودول الـ«بوليس» تقلّبات وصراعات متعدّدة، غير أنّ الاتّجاه العامّ لمسيرتها كان يسير نحو الانحدار الكامل. وفي النهاية، سقطت اليونان تحت الاحتلال الروماني عام ١٤٦ ق.م، وفقد اليونانيون ما تبقّى لهم من استقلال نسبي، ذلك الاستقلال المحدود والمتذبذب الذي كان لهم خلال النصف الثاني من القرن الرابع ق.م والقرن الثالث ق.م. بعد عام ١٤٦ ق.م، ومع تحول اليونان إلى مجرد مستعمرة ضمن المستعمرات التابعة للدولة الرومانية، لم يعد لليونان أي دور متميّز في تاريخ الغرب، بل بقيت دائمًا مجرّد جزء صغير من مجمل التاريخ الغربي.

بعد وفاة الإسكندر، وأثناء الحقبة الهلنستية، أخذت مكانةُ مقدونيا وقوّتها وأهميّتها تتراجع تدريجيًّا، إلى أن انتهى بها الأمر، في عام ١٦٨ ق.م، إلى السقوط بيد الرومان إثر معركة بيدنا، حيث أصبحت إحدى ممتلكات الدولة الرومانية وفقدت استقلالها. وكما هو الحال مع اليونان، لم يعد لمقدونيا بعد الإسكندر أيّ دور بارز في تاريخ الغرب أو في مسيرته التطوّرية، بل بقيت دائمًا مجرّد عنصر ثانوي في مجمل التاريخ الغربي.

في الحقبة الهلنستية من تاريخ الغرب القديم، لم تعد الحياة السياسية-المدنية

قائمــة على نموذج الـ«بوليس» الكونوية، بل حلّ محل الـ«بوليس» الديمقراطية اليونانية نموذجُ الأنظمة الملكية الغربية التي روّجت للهوية اليونانية، وأسهمت في تغريب الشــعوب غير الغربية وتعزيز الهيمنة الثقافية والسياســية الغربية. في الواقع، شهد العصر الهلينســتي توسعًا تاريخيًا وجغرافيًا في عالم الغرب القديم، ومع امتداد نفوذه، لم يعد نموذج الـ«بوليس» اليونانية، الذي كان مصمّمًا لإدارة مدن صغــيرة، قادرًا عــلى تلبية متطلّبات حكم أراضٍ شاســعة، تضم شــعوبًا كثيرة ذات تنوّع عرقي وثقافي ومناخي واســع. وهكــذا، اندمج الفكر والثقافة والأدب اليونــاني مع العقائــد والطقوس الدينيّة المحرّفة، والأســاطير الشرقية المشــوّهة ذات الطابع المشرك، ليُعاد تشــكيلها وتحويلها إلى مادة لصورة الغرب القديم، ومن هنا نشــأ نمــوذج الفكر والثقافة والأدب في الفترة الهلنســتية. بدأ تكوّن الفكر والثقافة الهلنســتية تدريجيًا منذ القرن الثالث قبل الميلاد، في ارتباط وثيق مع نموذج الأنظمة الملكية الهلنستية، التي أسّسها قادة الإسكندر وأدارها خلفاؤهم، وشكّلت الإطار العام للحياة السياسية والثقافية في العصر الهلنستية. ومن بين أبرز هذه الأنظمة الملكية الغربية الهلنستية ثلاث سلالات كبرى، هي: الســلالة الســلوقية، والبطلمية، والأنتيغونية، حيث شــهدت كل منها مســارًا تطوريًا ومصيرًا خاصًا بها.

«بعــد أكثر من ٤٠ عامًا من الحــروب، انبثقت من إمبراطورية الإســكندر ثلاث ممالك كبرى: مصر تحت حكم البطالسة، وآسيا بيد السلوقيين، ومقدونيا في قبضــة الأنتيغونيين. وإلى جانب هذه القــوى، كانت هناك اليونان، التي بقي جزء منها خاضعًا لســيطرة مقدونيا، بينما كانت مصر تتطلّع أحيانًا إلى التوسّــع فيها. ومع ذلك، وبالرغم من وجود اتّحاداتها الناشــئة الكبرى-الاتّحاد الأيتولي والاتحاد الأخائي-ظلّت اليونان ضحية للانقســامات الداخلية، مما جعلها أداة

في أيدي القـوى العظمى. وهكذا، انفصلت الأجـزاء الأوروبية والشرقية من إمبراطورية الإسكندر عن بعضها، وعادت مصر وآسيا في الشرق إلى استقلالهما كما كانتا في السابق. ومع ذلك، لم تكن جهود الإسكندر المضنية بلا جدوى تمامًا، فقد بقي الشرق لقرون طويلة تحت سـيطرة المقدونيين، وظـلّ، وفقًا لتصوره، خاضعًا للنفوذ الثقافي اليوناني والاسـتغلال الاقتصادي. لم تكن أيّ من دولتي البطالسـة والسلوقيين دولة وطنية، بل كانتا حكومتين إقليميّتين، حكمت فيهما سـلالة مقدونية، بالاعتماد على طبقة صغيرة من المقدونيّين واليونانيّين، ملايين من الشـعوب الشرقية. أما القوة الثالثة الكـبرى، أي مقدونيا، فيمكن وصفها بالدولة الوطنية، إذ كانت فيها سلالة مقدونية تحكم شعبًا كان معظمه مقدونيًا. وكان هـذا العامل مصدر قـوة مقدونيا بالمقارنة مع الدولتـين الأخريين، وهو مـا جعلها تُعـدّ في نظر الرومان أخطـر أعدائهم في الشرق. لقد سـاهمت هذه الممالك الهلنسـتية، على الرغم من اختلافاتها، في إيجاد نوع من التوازن السياسي في منطقة شرق المتوسـط، وربما كان بإمكانها التصدي للرومان بفعّالية، لو أنّها احتفظت بقواها العسكرية الكبرى متماسكة، وأولت اهتمامًا في الوقت المناسب للقـوة العالمية الجديـدة التي كانت تتبلور في الغرب. غـير أنّ هذه الممالك، على العكس، أضعفت بعضها بعضًا عبر التنافس المسـتمر، بل وفي كثير من الأحيان عبر حروب معلنـة، إلى حدٍّ مكّن الإمبراطورية الرومانيـة من ابتلاعها واحدة تلو الأخرى. لكن هذه الإمبراطورية، في مسـيرتها التاريخية، لم تكن بمنأى عن التأثّر بهذه الممالك، بل إنّ بعض الأفكار المرتبطة بالإسكندر وجدت طريقها إلى التاريخ الروماني، وظهرت مجددًا في سياق تطوّره»[١].

منذ النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، بدأ الفكر والثقافة الهلنستية

١. ويلكن ، اسكندر مقدوني، ٣٢٦ – ٢٨؛ ٣٣٤ – ٣٥.

بالتسلل إلى روما، مما جعل الرومان، إلى حدٍّ ما، يتأثّرون بها. وقد ساهمت العمليات الثقافية التي جرت في الفترة الهلنستية في تهيئة الظروف لظهور ما يُعرف بـ«المسيحية» -مع التأكيد هنا على أنّ المقصود ليس تعاليم المسيح عليه السلام كنبيّ توحيدي، وإنّما ذلك المزيج من الأفكار غير التوحيدية ذات الطابع اليوناني-اليهودي، الذي تشكّل تدريجيًا تحت اسم المسيحية على مدى ثلاثة إلى خمسة قرون. المعلّم الرئيسي والمؤسس لهذه المنظومة التي حملت اسم المسيحية كان بولُس، وقد كان لهذا التيار الفكري دورٌ مؤثّر في التغلغل داخل روما والغرب القديم، ممّا ساهم في انتشار نفوذهما هناك.

مميّزات الفترة الهلنستية

بدأت الحقبة الهلنستية تقريبًا في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرّت حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، أي أنّ هذه الحقبة امتدّت قرابة ٤٠٠ عام. يمكن اعتبار انتصار فيليب المقدوني في معركة خيرونيا عام ٣٣٨ ق.م نقطة البداية لهذا العهد، في حين يُعدّ موت كليوباترا وانقراض السلالة البطلمية عام ٣١ ق.م بمثابة نهايته.

كان العالم الغربي اليوناني، منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، يمرّ بحالة من الأزمة، تمثّلت على المستوى الفكري في الصراع بين الفكر السفسطائي والفكر الفلسفي، بينما واجهت الـ«بوليس» اليونانية الكونوية أزمة انحطاط جعلتها تسير نحو الاندثار. فقد امتلك العالم الغربي القديم إمكانيّات واستعدادات كانت تتجاوز حدود قدرات الـ«بوليس» اليونانية على تحقيقها. سعى سقراط، ومن بعده التيّار الفلسفي الذي تبعه، إلى البحث عن بدائل للديمقراطية الكلاسيكية اليونانية، عبر إلغائها أو على الأقل تعديلها وإصلاحها، من أجل إيجاد السبيل

لتحقيق تلك الإمكانات التي اعتقدوا بوجودها في العالم الغربي اليوناني.

لقد أطلق العالمُ الغربي القديم، في أفق التاريخ الغربي، قُوًى لم يكن إطار الـ«بوليس» اليوناني قادرًا على استيعابها أو توظيفها. ولهذا، أصبح التوسّع التاريخي والامتداد الجغرافي ضرورة حتمية لهذا العالم، بوصفه حاجة ناشئة عن استكبارٍ كونويّ النزعة. وهكذا، جاء ظهور العهد الهلنستية بوصفه استجابة لهذا الاحتياج الاستعماري-العدواني، الذي كان استكبار الغرب القديم في أمسّ الحاجة إليه لضمان بقائه واستمراره. كان الفكر الفلسفي اليوناني والجيش المقدوني بمثابة الذراعين اللذين اعتمد عليهما الغرب القديم المستكبر لتحقيق توسّعه التاريخي وعدوانه الاستعماري، وذلك في سبيل تلبية هذا الاحتياج الذي ذكرناه.

تاريخ الغرب كان يحمل نزعةً توسّعيةً وطموحًا للعولمة (إلا أنّه لم يكن قادرًا على تحقيق هذا الطموح وتطبيقه قبل ظهور العالم الحديث)، لكن العالم الغربي القديم، باعتماده على الديمقراطية المدينية الكلاسيكية أو على النظام الأرستقراطي أو الأوليغارشي، لم يكن قادرًا على التوسّع. وكان يطمح إلى أن يصبح عالميًّا. فاتّجه نحو تأسيس ممالك هلنستية تمتزج فيها الفكرة والثقافة اليونانية الوثنية (وفي الوقت نفسه تحمل بعض المظاهر الكاذبة ذات الطابع الشبه الروحي)، وما يمكن تسميته بـ«نموذج الثقافة الهلنستية»، وهو ما انتهى، بعد تطوّرٍ وامتدادٍ دام قرونًا، إلى تأسيس «المسيحية»؛ والمقصود هنا ليس الدين التوحيدي وتعاليم السيّد المسيح، وإنّما المسيحية التاريخية، أي ما تمَّ تشييده تدريجيًّا عبر بضعة قرون على يد بولس وآخرين، فصار يُعرف بالمسيحية وادّعى أنّه دين، رغم أنّه لم يكن كذلك. كانت هذه الجهود في حقيقتها استمرارًا لهذا الطموح التوسّعي

الاستكباري، المتأصل في تاريخ الغرب، والذي تحول في نهاية التاريخ اليوناني الغربي إلى نزعةٍ جامحةٍ وعطشٍ للتوسع. إنّ تأسيس المسيحية، وما أُطلق عليه التمركز حول الإله في المسيحية خلال الغرب في العصور الوسطى، ومسعى توحيد المساحات الواسعة والمتنوّعة جغرافيًّا ومناخيًّا وثقافيًّا وإثنيًّا عبر المسيحية في الغرب الوسيط، كان جزءًا من ذلك الطموح التوسّعي الاستكباري العدواني الذي وسم تاريخ الغرب. في الواقع، كان تأسيس المسيحية امتدادًا لمسارٍ وحركةٍ انطلقت من قلب الهلنستية في العالم الغربي القديم، ووجدت تفعيلها في الغرب خلال العصور الوسطى. ومع ذلك، كما أشرنا، فإنّ العولمة الحقيقية لتاريخ الغرب تحقّقت أخيرًا في العالم الغربي الحديث، من خلال القمع والمجازر والهيمنة العسكرية-السياسية، التي استندت إلى قوّة الأسلحة النارية، والتي كانت أولى وأهم نتائج الثورة الصناعية في العالم الحديث، وأداةً جوهريةً في المسار التوسّعي العدواني لتاريخ الغرب. لكن مع اكتمال الحداثة وانتهاء تاريخ الغرب، باتت هذه القوّة العالمية تواجه مقاومات وتحدّيات كبرى، إلى جانب تعمّق التناقضات والأزمات الداخلية، مما أدّى بها إلى الانحدار، وجعلها تسير نحو زوالها الحتمي.

يمكن تلخيص السمات الرئيسية للغرب الهلنستي القديم على النحو التالي:

أولًا، كانت النزعة الهلنستية من الناحية النظرية قائمةً على شكلٍ من الفلسفة اليونانية، التي امتزجت باليهودية وبعض جوانب الفكر الغنوصي ذي الطابع الوثني شبه الديني، بالإضافة إلى بعض العناصر الصوفية الشرقية، مما منحها طابعًا فلسفيًّا متداخلًا مع أبعاد عرفانية. بعبارة أخرى، بعد وفاة الإسكندر وأرسطو، امتزجت الفلسفات الأفلاطونية والأرسطية ببعض جوانب الفكر الغنوصي وبعض التعاليم شبه الدينية، التي كانت في جوهرها وثنيةً ومستوحاةً

من الأساطير السائدة في بلاد الرافدين وآسيا الصغرى والهند، مما أدّى إلى ظهور فلسفةٍ ذات طابع عرفاني. وكما يقول هيغل، فإنّ الفلسفة دائمًا ما تأتي متأخّرة. وهذا ما حدث أيضًا في هذه المرحلة، حيث برزت الأشكال الفلسفية المهمة للفكر الهلنستية في أواخر هذه الحقبة. من الضروري إدراك أنّ الفلسفة الهلنستية كانت تحمل أشكالًا متعدّدة. ربما يمكن اعتبار الفلسفة الرواقية، وفلسفة أبيقور وأتباعه، وفلسفة فيلون، وفلسفة أفلوطين (بلوتينوس)، كالأشكال الرئيسية للفكر الفلسفي الهلنستي. يبدو أن الآراء الفلسفية لفيلون، التي طُرحت في أواخر الحقبة الهلنستية، كانت أكثر تمثيلًا وتجسيدًا لروح الفكر الهلنستي في إطار الفلسفة، مقارنةً بسائر الفلاسفة ما بعد الأرسطيين. ومن اللافت أنّ شخصيةً بارزةً ومؤثرةً في الفلسفة الهلنستية، مثل أفلوطين، كان ينشر أفكاره في مرحلةٍ تجاوزت انقراض العهد الهلنستي بما يقارب قرنين، حيث أخذ التراث الفكري الهلنستي، عبر أفلوطين، في الذوبان داخل المسيحية التاريخية وتمركزها حول الإله، ممهّدًا بذلك لظهورها.

ثانيًا، تأثّرت الفلسفة والفكر الهلنستي تأثرًا عميقًا باليهودية وتداخلت معها، وربما يمكن اعتبار فيلون اليهودي أبرز شخصية فلسفية في عصر الفكر الهلنستي. ومن المؤكّد أنّ الفلسفة الهلنستية لم تكن أحادية الاتجاه، بل تضمّنت تياراتٍ متعدّدة، مثل الرواقية، والأبيقورية، والشكّية وغيرها. ومع ذلك، يبدو أنّ روح هذه الفلسفة تجلّت بأوضح صورها في فلسفة فيلون، ومن بعض الجوانب، إلى حدٍّ ما، في آراء أفلوطين، الذي كان في كثيرٍ من المواضع متأثرًا بفيلون ويتابع خُطاه.

ثالثًا، الفترة الهلنستية مرحلةٌ من مراحل توسّع العالم الغربيّ القديم، وقد

تحقّقــت في ظلّ الكون والكونوية (بمثابة النفس المدبّــرة للعالم الغربيّ القديم)، إلا أنّ كيفيــة ظهور وبروز الكونوية الهلنســتية تختلف عــن كيفية ظهور وتحقّق الكونويــة في عالم اليونــان. في المباحث الســابقة، أشرنا إلى أنّــه في العالم الغربيّ اليونانيّ، وفي ظلّ الكونوية الغربيّة اليونانية، تتوقّف إنسانية الإنسان وتقوم على عضويّتــه في البوليس، فهي شرطٌ لازمٌ لهــا. في الكونوية اليونانية، تعدّ البوليس وعضويّة الإنســان فيها الأســاس والمعيار الذي تُبنى عليه الهويّة الإنسانيّة. أما البوليس اليونانيّة، فقد كانت صورًا متعدّدة من الديمقراطيّات الكونوية القائمة على نظام العبودية، وكانت تشمل أساسًــا ثلاثة أنماطٍ ديمقراطيةٍ: الديمقراطية الأوليغارشية، الديمقراطية الأرستقراطية، والديمقراطية الكلاسيكية.

في فترة الغرب الهلنيســتي، تتراجع البوليسات الديمقراطية ليحلّ محلّها أنظمةٌ ملكيةٌ كبرى تشــمل أقوامًا ومجموعاتٍ متعدّدة. وتظلّ هذه الأنظمة الملكية فاعلةً في إطــار الكونوية الغربيّة القديمة، إلا أنّها، بدلًا مــن المدن الصغيرة الديمقراطية على النمط اليونانيّ، تعتمد على أنظمةٍ ملكيةٍ غربيةٍ تحكم أراضي واسعةً، وتقوم على الفكر والثقافة الهلنيستية، ممّا جعل نوعًا من « الكوزموبوليتانية» الممتزجة بالأنظمة الملكية الغربية الهلنيستية تحلّ محلّ الكونوية التي قامت على البوليسات اليونانية.

مــا معنى الكوزموبوليتانية؟ الكوزموبوليتانيــة هي إحدى صور التجلّيات الميتافيزيقيــة العدميّة للكونوية الغربية القديمة، وهي تعمل على نشر وترســيخ وتحقيق «عالمٍ ولائيٍّ كونويّ». وتُعدّ العالمية شــكلًا من أشــكال المواطنة العالمية في ظلّ الكونوية، وهي خاصّةٌ بالفترة الهلنستية في العالم الغربيّ اليونانيّ. ويمكن رؤية بعض مظاهرها وتجليّاتها وظهوراتها في «الفلســفة الرواقية» وآراء أتباعها، وكذلك في «الفلسفة الكلبية».

«الكوزموبوليتانية تعني أنّ وطن الإنسان ليس في أيّ مكانٍ، وهذا يشبه ما قال به الرواقيون. إلا أنّ إزالة الحدود والانتماءات قد تكون أحيانًا لونًا من التسيّب. أما في الأممية، فلا يوجد هذا التسيّب؛ فالأممية إيديولوجيةٌ وبرنامجٌ سياسيٌّ، في حين أنّ العالمية، بمعنى من المعاني، هي نفيٌ لكلّ انتماءٍ، إذ إنّ الكوزموبوليتاني لا يلتزم بأيّ شيءٍ على الإطلاق، بل ينبذ جميع الانتماءات، فلا يتعلّق بأيّ شيءٍ ولا يربطه شيءٌ بشيءٍ، وهذا لا يكون إلا لونًا من انعدام الشعور واللامبالاة. قد يُقال إنّ وطن الإنسان هو العالم، وإنّ على كلّ فردٍ أن يبلغ كماله في إنسانيّته، إلا أنّ هذه الإنسانية لا تكتمل بدون انتماءٍ. فإن كان الإنسان، في تعلّقه بالحقّ والحقيقة المتعالية، يتخلّى عن جميع انتماءاته، فهذا التعلّق وحده يكفيه. أمّا إن كان لا ينتمي إلى أيّ شيءٍ، فهو ليس إنسانًا»[١].

الكوزموبوليتانية هي نوعٌ من المواطنة العالمية في ظلّ الكونوية، وهي تتوافق مع الحاجات والمتطلّبات التي اقتضتها عمليّة توسّع العالم الغربيّ القديم في الفترة الهلنستية. أما الأممية، فهي المواطنة العالمية في ظلّ الإنسانوية. فإذا كان يمكن البحث عن تجلّيات الأممية في إيديولوجيّاتٍ كالليبراليّة، والنيوليبراليّة، والماركسيّة، فإنّ تجلّيات الكوزموبوليتانية يمكن العثور عليها في الفلسفتين الرواقية والكلبية.

في الغرب اليونانيّ، جعل الكونُ محورَه البوليسات اليونانية، فكانت هذه الأخيرة تندرج تحته. أمّا في العصر الهلنستي، ومع توسّع العالم الغربيّ القديم، فإنّ الكون لم يَعُدْ حكرًا على اليونان عبر ظهوره في البوليس، بل تجلّى في هيئة الكوزموبوليتانية، فشمل بذلك الأقوام والشعوب غير اليونانية، واضعًا إيّاها أيضًا في إطار الكونوية الغربية القديمة.

١. داوري، ناسيوناليسم و انقلاب، ٨٨ – ٨٩.

رابعًا، في الفترة الهلنستية، يظلّ الكون والكونوية الاسم الحاكم والنفس المدبّرة للعالم الغربيّ القديم، وبالتبعيّة، للفترة الهلنستية. إلا أنّ الكونوية، في ظهورها ضمن الفترة الهلنستية، تتداخل مع بعض المظاهر والمفاهيم والتجلّيات والموروثات الدينيّة والأسطوريّة الخاصّة بآلهة وأساطير بلاد الرافدين، ومصر، والغنوصيّة، والشرق الآسيويّ، فتظهر متأثّرةً بها. تظلّ الروح الطاغوتيّة الشركيّة الكونوية هي الحاكمة في الفترة الهلنستية، غير أنّ الطابع المفهوميّ-المنطقيّ القائم على محوريّة اللوغوس في الكونوية قد تراجع إلى حدٍّ ما، وحلّ محلّه التأكيد على ضربٍ من الفكر العرفانيّ الشرقيّ غير الدينيّ، وأحيانًا المشرك، ممّا أفضى إلى تصوّرٍ غير توحيديٍّ ذي طابعٍ شبه روحانيٍّ، أي روحانيّةٍ غير دينيّة، وبالتالي روحانيّةٍ غير أصيلةٍ وغير حقيقيّةٍ، تمثّل في تقديرانيّةٍ غامضةٍ، وإيلاء الاهتمام لقوى مجهولةٍ وخفيّةٍ كانت في الغالب تُعتبر شريرةً.

في العصر الهلنستي من العالم الغربيّ القديم، أوّلًا، تتوسّع الفلسفة اليونانيّة، وتظهر الفلسفات ما بعد أرسطو، كالفلسفة الكلبيّة، والرواقيّة، والشكّيّة. ثانيًا، تمتزج فلسفتا أفلاطون وأرسطو بتلقّياتٍ وتفسيراتٍ شرقيّةٍ أسطوريّةٍ عرفانيّةٍ غير دينيّةٍ ومشركةٍ، فتظهر أشكالٌ جديدةٌ من الفكر الفلسفيّ الخاصّ بالعصر الهلنستي، كفلسفة فيلون اليهوديّ، وبعد عدّة قرونٍ، فلسفة أفلوطين (والأفلاطونيّة المحدثة). إلا أنّه، على أيّ حالٍ، يبقى الفكر الدينيّ والفلسفيّ في عصر الهلنستية واقعًا في إطار الكونوية الغربية القديمة، وهو شكلٌ من أشكال ظهورها وتجلياتها.

ومع ضعف البوليسات اليونانيّة وتراجع دورها ومكانتها، بدأ الآلهة الأولمبيّون تدريجيًّا في الانزواء، في حين ازداد نفوذ الطقوس الهلنستية القائمة

على عبادة الآلهة الشرقيّة وشبه الشرقيّة، مثل سيبيل، وأيزيس، وديونيسوس. إلا أنّ هذه الآلهة، في الطقوس شبه الدينيّة الهلنستية، فقدت روحها الأسطوريّة الشرقيّة، وأُعيد تفسيرها ضمن أفق الكونوية الغربية القديمة، فاكتسبت جوهرًا وباطنًا هلنستيًّا. وقد أدّى انتشار هذه الطقوس وبعض الفلسفات الهلنستية إلى تعزيز وتوسيع العالمية الهلنستية بوصفها أحد أطوار توسّع العالم الغربيّ القديم، ومن هذا المنظور، ساهمت في تحقيق الأغراض التوسّعية والعدوانيّة التي طبعَتْ تاريخ الغرب.

خامسًا، عصر الهلنستية، من الناحية الثقافية والأخلاقية ومن حيث الشروط النفسانيّة، يمثّل عصرًا من القلق والاضطراب العامّ. غير أنّ هذا الاضطراب لا ينتمي إلى نمط الأزمات الانحطاطيّة التي شهدها العالم الغربيّ القديم، بل هو أزمةٌ نشأت عن الظروف الناجمة عن توسّع هذا العالم، وما استتبع ذلك من مواجهاتٍ ومتطلّباتٍ جديدة. وقد ارتبطت هذه الأزمة بنوعٍ من الفوضى الأخلاقيّة، بل وتجاوزت ذلك إلى شكلٍ من الانحطاط الأخلاقيّ، الذي تجلّى على وجه الخصوص في انتشار التفلّت والانحلال في الأخلاق الجنسيّة.

عصر الهلنستية يُعَدّ مرحلةً مهمّةً في تاريخ الغرب والعالم الغربيّ القديم. فهو يمثّل طورًا انتقاليًّا بين الغرب اليونانيّ والغرب الرومانيّ، كما أنّه يهيّئ الأرضيّة لظهور العالم الغربيّ الثيوسانتري في العصور الوسطى. وترجع السمات الأساسيّة لحالة القلق والأزمة التي تُميِّز عصر الهلنستية إلى طبيعته الانتقاليّة هذه.

سادسًا، النظام السياسيّ في كور الهلنستية، فهو نظامٌ ملكيٌّ قائمٌ على الفكر والثقافة الهلنستية. وعلى الرغم من أنّ الأنظمة الملكيّة الهلنستية استمدّت بعض عناصرها من الممالك الشرقيّة، فإنّها في جوهرها ظواهر جديدة. فهذه

الأنظمة كانت حكوماتٍ غربيّةً تمثّل العلمانيّة الكونوية للغرب القديم في صورة الكوزموبوليتانية الهلنستية. وفي هذه الأنظمة الملكيّة الهلنستية، يُلحظ نوعٌ من التصوّر الإلهيّ لشخص الملك، وهو تصوّرٌ مستوحًى من الفكر اليونانيّ القديم ومن تفسير اليونانيّين لمفهوم الإله. ومع ذلك، فإنّ هذا التصوّر للإلوهيّة الملكيّة اكتسب أهمّيّةً خاصّةً في بعض الأنظمة الملكيّة الغربيّة الهلنستية، حيث أصبح أداةً رئيسيّةً لتعزيز أسس سلطتها وترسيخ نفوذها. يبدو أنّ دور العمل الإنتاجيّ الذي كان يقوم به العبيد في الفترة الهلنستية قد تقلّص. وكانت الأنظمة الملكيّة الهلنستية، في جوهرها، أنظمةً استبداديّةً وطاغيةً، وهي تمثّل إحدى الأشكال السياسيّة-الاقتصاديّة لتجلّيات الاستكبار العدميّ الكونويّ للغرب القديم. يكتب بيري أندرسون، في دراسته للمحتوى الاقتصاديّ-الاجتماعيّ للنظام الملكيّ المقدونيّ والأنظمة الملكيّة الهلنستية، ما يلي:

«إنّ الدولة الملكيّة المقدونيّة، وبالضبط لكونها أكثر بدائيّةً من حيث التشكّل مقارنةً بدولة المدن الجنوبيّة، لم تُصب بالجمود الذي أصابها، ممّا مكّنها، في العصر الجديد، من تجاوز حدودها التي كبّلتها. وقد عزّزت المملكة المقدونيّة توسّعاتها في شبه الجزيرة من خلال إنشاء مواطنين جدد من بين اليونانيّين وغيرهم في المناطق المفتوحة، والعمل على تمدين المناطق الريفيّة المتأخّرة، الأمر الذي أظهر قدرتها على الحكم على نطاقٍ أوسع. هذه المملكة، بقيادة الإسكندر، وبفعل الدوافع السياسيّة والثقافيّة الناجمة عن اندماج المراكز الحضريّة الأكثر تقدّمًا في عصرها، استطاعت خلال بضع سنواتٍ أن تقوم بفتوحاتٍ خاطفةٍ في جميع أنحاء الشرق الأدنى. الأسطول الفريد الذي كان يتولّى نقل وإمداد القوّات المقدونيّة في آسيا كان، بشكلٍ رمزيٍّ، يونانيًّا بالكامل. أمّا الإمبراطوريّة المقدونيّة الموحّدة، التي

نشأت بعد معركة غوغميلا وامتدّت من البحر الأدرياتيكيّ إلى المحيط الهنديّ، فلم تبقَ بعد وفاة الإسكندر. بل إنّ الإسكندر نفسه رحل قبل أن يضع إطارًا مؤسّسيًّا متماسكًا للإمبراطوريّة، فوقع عبء إيجاد الحلول لهذه المشكلات على عاتق خلفائه. كانت الحضارة الهلنستيّة، في جوهرها، ثمرة هذه الممالك اليونانيّة الجديدة في الشرق. وعلى الرغم من أنّ الدول الهلنستيّة كانت كياناتٍ هجينةً، فإنّها غيّرت النموذج التاريخيّ للبحر المتوسّط الشرقيّ لقرونٍ لاحقة. ففي آسيا الصغرى، أخذ الأثرياء المحلّيون في بناء مدنهم وفق النماذج الهلنستيّة في كلّ مكانٍ. وفي هذه الأسس الحضريّة الجديدة، استقرّ الجنود، والإداريّون، والتجّار اليونانيّون والمقدونيّون الذين تمّ استقدامهم لتشكيل الطبقة الاجتماعيّة المهيمنة في الممالك المقلّدة لخلفاء الإسكندر. أصبحت العملة الأثينيّة، باستثناء مصر البطلميّة، العملةَ الرائجة في جميع أنحاء العالم الهلنستيّ. وأصبح الطريق البحريّ المثلّث بين رودس، وأنطاكية، والإسكندريّة المحور الرئيسيّ للتجارة التي أسّسها الشرق الهلنستيّ. ومع هجرة اليونانيّين ونقل نموذج مدنهم، تمكّنوا من ترسيخ النموذج الحضريّ للبحر المتوسّط الشرقيّ بنجاحٍ. إذا كان نموذج المدن يونانيًّا، فإنّ نموذج القرى بقي شرقيًّا. لم تكن ألوهيّة الملوك يومًا عقيدةً إمبراطوريّةً فارسيّةً أزالها الإسكندر، بل كانت ابتكارًا مقدونيًّا، وقد كان البطالمة أوّل من روّج لها في مصر، حيث كانت هناك في فترةٍ ما أرضيّةٌ لهذه الفكرة، متمثّلةً في تأليه الفرعون في مصر القديمة. وسرعان ما تحوّل تأليه الملوك إلى قاعدةٍ إيديولوجيّةٍ عامّةٍ في جميع أنحاء العالم الهلنستيّ. كان الموظّفون الأساسيّون في الدولة، من عسكريّين ومدنيّين، يُختارون من بين المقدونيّين أو المهاجرين اليونانيّين وأبنائهم، ولم يكن هناك أيّ مسعىً لخلق تركيبةٍ عرقيّةٍ من الأرستقراطيّات المحلّيّة على

النحو الذي تصوّره الإسكندر بشكلٍ مجملٍ. كما أنّ الدولة الهلنستيّة في الشرق الأدنى لم تصل إلى قواعد قانونيّةٍ موحّدةٍ، بل قامت، بطريقةٍ ارتجاليّةٍ، بإنشاء نظامٍ مؤسّسيٍّ قائمٍ على المزج بين الأنظمة اليونانيّة والمبادئ المحلّيّة، وكان هذا النظام يخضع في النهاية لتدخّل شخصيٍّ من الملك. وقد انعكست الفوضى المؤسّسيّة النهائيّة في الدول الهلنستيّة على غياب الألقاب الإقليميّة، حيث لم تكن هذه المناطق سوى أراضي عائلات يستثمروها. ومنذ عام ٢٠٠ ق.م، بدأت قوّة روما بالتوسّع شرقًا، على الرغم من أنّها لم تكن قد صارت بعدُ إمبراطوريّةً، وبحلول منتصف القرن الثاني ق.م، كانت الفيالق الرومانيّة قد أزالت جميع العقبات الكبرى أمام سيطرتها في الشرق. ومن الناحية الرمزيّة، كانت برغامون أوّل مملكةٍ هلنستيّةٍ تُدمَج في الإمبراطوريّة الرومانيّة الناشئة، حيث تنازل آخر حكّام سلالة الأتاليد عن حكمه طواعيةً، وجعل هذه المملكة إرثًا يُهدى إلى «المدينة الخالدة» [أي روما القديمة]»[١].

سابعًا، في فترة الهلنستية، ظلّت الصورة المثالية للإنسان هي صورة «البطل-المواطن»، مع فارق أنّ مفهوم المواطن بات يظهر ويتجلّى أكثر في إطار الكوزموبوليتانية. فقد ظلّ الانتماء إلى الكون أمرًا محوريًّا وأساسيًّا، وبقيت الولاية الطاغوتيّة الكونوية قائمةً، بحيث كان الإنسان في العصر الهلنستيّ يكتسب هويّته ويتحقّق من خلال الامتثال لولاية الكون في تجلّياته الفلسفيّة والدينيّة، وفي مظاهره الثقافيّة والسياسيّة. لكن، بدلًا من المواطنة تحت سلطة البوليس اليونانيّة، باتت الكوزموبوليتانية والمواطنة العالمية في إطار الكونية تحتلّ موقع الصدارة وتفرض هيمنتها. كان إنسان العصر الهلنستيّ مضطربًا إلى

١. اندرسون، گذاراز عهد باستان به فئوداليسم، ٥٧ - ٦٦.

حـدٍّ ما، يعـاني أحيانًا من أزمة هويّـةٍ تقلقه. وقد تجلّت صورتـه المثاليّة في فترة الهلنسـتية على هيئـة «البطل الكوزموبوليتـاني»، الذي كان يتبنّـى القيم والمُثل الأخلاقيّة والفضائل ذات الجوهر اليونانيّ-العلمانيّ، ولكن مع بعض التعديلات والتغييرات والامتزاج بعناصر شرقيّةٍ شبه دينيّةٍ ومشركةٍ. وهكذا، كان مفهومه البطوليّ يسـتمدّ عناصره من هذا المزيـج، كما أنّ كوزموبوليتانيتـه ظلّت غربيّةً وكونويّةً.

في الفترة الهلنسـتية، يمتـزج العنصر الفكـريّ والهويّة اليهوديّة بالفلسـفة الأفلاطونيّة-الأرسـطيّة والفلسـفات ما بعد أرسـطو، مما يـؤدّي تدريجيًّا إلى نشـوء تركيبٍ غربيٍّ علمانيٍّ-مشركٍ، ناتجٍ عن التزاوج بـين اليونانيّة واليهوديّة. وقد ظهـرت لهذا التركيب اليونانيّ-اليهوديّ تجلّياتٌ متعدّدةٌ عبر تطوّر التاريخ الغربيّ. وأوّل صوره الظاهرة تجسّدت في فلسفة فيلون، ثمّ تجلّت صوره اللاحقة في فلسـفة أفلوطين، لكنّ تجلّيه الأهـمّ كان في المسـيحيّة. في الواقع، هيّأ عصر الهلنسـتية أرضيّةً مناسـبةً لظهور المسـيحيّة، التي تكوّنت تدريجيًّا خلال عمليّةٍ اسـتمرّت عدّة قرونٍ، من القرن الأوّل إلى القـرن الثالث، ومن بعض الجوانب حتى القرن الخامس. وقد مثّلت المسـيحيّة، على نحوٍ ما، استجابةً للمأزق الذي خلقته الفلسفة الكونوية في الغرب. ومن بين الأسباب التي جعلت الثيوسانتريّة تحلّ محلّ الكونية اعتمادًا على المسيحيّة، يمكن الإشارة إلى هذا السياق التاريخيّ. ومن غير شـكٍّ، لعب الهلنستيّة دورًا أساسـيًّا في التمهيد لظهور المسيحيّة، التي كانت بدورها المدخل إلى الثيوسانتريّة التي ميّزت الغرب في العصور الوسطى. إلا أنّه، بعد انتهاء فترة الهلنسـتيّة في النصف الثاني من القرن الأوّل قبل الميلاد، وقبل ظهور العالم الغربيّ في العصور الوسطى (الغرب المسيحيّ) في القرن الرابع

الميلاديّ، مرّ العالم الغربيّ القديم بمرحلةٍ أخرى، وهي ما سنتحدّث عنه، إن شاء الله، في الفصل القادم: فترة روما القديمة.

الفصل الرابع: روما القديمة

١. الإتروسكيّون

لا يــزال التاريخ القديــم لإيطاليا محاطًــا بالغموض، إذ يعتقــد العديد من المؤرّخــين أنّ قبائلَ ومجموعاتٍ متعدّدةً كانت تقطن هــذه المنطقة، وربّما كانت تربطهــا علاقاتٌ ثقافيّةٌ، بل وربّما عرقيّةٌ، وثيقةٌ. تقع روما، إلى جانب غيرها من المدن الكبرى في إيطاليا، ضمن شبه جزيرة الأبينين.

«كانت شــبه جزيرة الأبينين، الواقعة في وســط البحر المتوسّط، مهدَ الدولة الرومانيّة، وقد شــكّلت مع جزيــرة صقلية المجاورة جــسرًا طبيعيًّا بين أوروبا وآسيا... وكانت هذه الجزيرة موطنًا لشعوبٍ متعدّدةٍ في العصور القديمة. ففي الشــمال، عاشت قبائل الســلت (أو «الغال»). أمّا الإتروســكيّون، الذين لعبوا دورًا محوريًّا في المراحل الأولى من تاريخ إيطاليا، فقد استقرّوا في المناطق الواقعة جنوب أراضي السلت. وفي وسط شبه الجزيرة، استوطنت قبائل إيطاليّةٌ مختلفةٌ، من بينهــا اللاتينيّون، الذين أُنشــئت مدينة روما في أراضيهــم. وأخيرًا، كانت المناطق الجنوبيّة من شبه الجزيرة خاضعةً لنفوذ العناصر اليونانيّة، حيث أُقيمت فيها العديد من المســتعمرات اليونانيّة. وقد ازدهرت بعض هذه المســتعمرات، وأصبحــت مُدُنًا غنيّــةً ومزدهرةً، إلى الحدّ الذي جعــل الإيطاليّين يطلقون على جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية اسم «ماغنا غراسيا» (اليونان الكبرى)»[١].

١. نچكينا وغيره، تاريخ مختصر جهان، ٩٤.

يبدو أنّ اسم إيطاليا مُشتقّ من الإيطاليوت، وهم سكّان قدامى لهذه الأرض (وربّما أحدُ سكانها الأوائل). وكان اللاتينيّون إحدى قبائل الإيطاليك. غير أنّ هناك غموضًا كبيرًا وخلافات عديدة بشأن تاريخ إيطاليا القديم وسكّانها الأوائل، والحقيقة أنّه لا تتوفّر حاليًّا معلومات واضحة ودقيقة عن الأقوام المختلفة التي سكنت إيطاليا أو عن قِدَم وجودهم الزمنيّ فيها. أمّا أرض إيطاليا فهي شبه جزيرة مرتفعة، جبلية وصخرية، على غرار شبه جزيرة اليونان، وتضمّ سهولًا متعدّدة، لكنّها متفرّقة. وكانت تجري في هذه الأرض أنهار كثيرة، صغيرة وكبيرة. ويُعدّ نهر التيبر أطول الأنهار في إيطاليا وأكثرها غزارة بالمياه.

كان تاريخ الرومان منذ القدم مشتركًا ومرتبطًا ارتباطًا وثيقًا باليونانيّين القدماء، إلى الحدّ الذي طُرِحت فيه هذه الفرضيّة، وهي أنّ السكّان الأوائل لجزء من أرض إيطاليا كانوا ربّما من أقرباء اليونانيّين القدماء.

«وبما أنّ تاريخ اليونانيّين والرومان يحمل صلة مشتركة، بل ربّما يتجاوز ذلك إلى كونهما ذوي منشأ واحد، فإنّ موطنهم الأوّل لا ينبغي أن يكون مختلفًا ... وقد عُدّ الإيطاليوت من أقرباء اليونانيّين الأقدمين، وكانوا من الناحية العرقيّة معروفين بأنّهم ينحدرون من أصل واحد»[١].

يبدو أنّه من بين الشعوب التي سكنت أرض إيطاليا، يمكن اعتبار الليغوريّين، والأتروريّين (الإتروسكيّين)، واللاتينيّين، والسابينيّين، والأومبريّين أقدم سكّان هذه شبه الجزيرة. ويبدو أنّه لا يمكن الجزم بشكل قاطع بشأن الأسبقيّة الزمنيّة أو الاختلاف العرقيّ بينهم، إن كانوا في الواقع ينتمون إلى أصول عرقيّة وقوميّة متباينة.

١. خدادادیان، تاریخ روم باستان، ١: ٢٣.

استنادًا إلى ما تمّ التوصّل إليه من مكتشفات أثريّة، إضافةً إلى الفرضيّات والتخمينات المستندة إلى استنباطات من النصوص التاريخيّة المكتوبة عن روما القديمة، والاكتشافات الأثريّة، وبعض الدراسات المتعلّقة بعلم فقه اللغة واللسانيّات، يمكن تلخيص وضع تاريخ روما القديمة حتى ما قبل نحو ٩٠٠ ق.م إلى ٨٠٠ ق.م على النحو التالي:

١. لا تتوفّر معلومات موثّقة وواضحة ودقيقة عن تاريخ روما القديمة وسكّان إيطاليا وخصائصهم الثقافيّة والحضاريّة، ولذلك فإنّ البحث في التاريخ قبل القرن التاسع والثامن ق.م (بداية السيطرة التدريجيّة للإتروسكيّين على جزء واسع من إيطاليا) يعتمد في الغالب على التخمين والفرضيات.

٢. يبدو أنّ قبائل وأقوامًا متعدّدة كانت تعيش في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الإيطاليّة إمّا بشكل متزامن أو مع تقدّم أو تأخّر زمنيّ طفيف فيما بينها. الأقسام الرئيسيّة لهذه القبائل والأقوام كانت على النحو التالي: الليغوريّون، والإتروسكيّون، والإيطاليّون، ويبدو أنّه وُجدت أيضًا مستعمرات يونانيّة في بعض المناطق. أمّا الإيطاليّون (الذين اشتُقّ اسم إيطاليا منهم)، فيبدو أنّهم كانوا يشملون قبائل متعدّدة وكثيرة، وكان اللاتينيّون إحدى هذه القبائل. أمّا تلك القبائل التي أسّست حضارة تراماره، فمن المحتمل أنّها كانت فرعًا من الإيطاليّين الذين دخلوا هذه الأرض متأخّرين لأسباب غير واضحة، وذلك حوالي ١٠٠٠ ق.م.

٣. يبدو أنّ بين القبائل والمجموعات والأقوام التي سكنت إيطاليا، وكذلك بينها وبين اليونانيّين، صلات قديمة عرقيّة ولغويّة وثقافيّة منذ زمن بعيد. إلى الحدّ الذي يمكن فيه ملاحظة آثار الثقافة والمعتقدات شبه الدينيّة والعناصر الحضاريّة اليونانيّة في العديد من مناطق إيطاليا وبين مختلف قبائلها وشعوبها.

مؤرِّخو تاريخِ روما القديمة

المتـون التي وصلتنا من مؤرّخي روما تتركّز في الغالب على المراحل المتأخّرة مـن تاريخ هذه الأرض، في حين أنّه لم يصل إلينـا تقريبًا شيء عن تاريخ إيطاليا في العصور القديمة.

«لم يصلنا حتّى اليـوم عن الإيطاليوت القدماء أيّ رواية شـعبيّة قديمة من نمط الملاحـم الهوميريّة؛ وهي آثار غنيّة جدًّا بالموادّ اللازمة لإعادة بناء المجتمع اليونانيّ»[1].

ومع ذلك، فقد بقيت لنا بعض أعمال المؤرّخين الذين عاشوا في القرن الأوّل قبـل الميلاد ومـا بعده، حيث وردت فيها إشـارات إلى تاريخ الأقـوام القديمة التي سـكنت هذه شبه الجزيرة، بل إنّ بعض المقاطع من أعمال مؤرّخين قدامى، في الغالب مجهـولي الهويّة، قد جرى نقلها في هذه المصنّفـات. وفي القرن الأوّل قبل الميلاد، ألّف مؤرّخون مثل ديودور الصقليّ وديونيسـيوس الهاليكارناسي، وكلاهمـا من أهل رومـا، بالإضافة إلى المـؤرّخ اليونانيّ المقيـم في روما تيتوس ليفيـوس، كتبًا بقيت منها أجـزاء توضّح جوانب من حيـاة الرومان إبّان عهد «الجمهوريّة الرومانيّة».

في المراحـل اللاحقة من تاريـخ روما، وخلال فترة تأسـيس الإمبراطوريّة الرومانيّة وتوسّعها، ألّف مؤرّخون رومانيّون وغير رومانيّين كتبًا تناولت تاريخ روما. ومن بين هؤلاء يمكن الإشـارة إلى فيليوس باتركولوس، وكورنيليوس تاسيتوس (وهو من أبرز مؤرّخي روما القديمة)، و بلوتارخوس (المؤرّخ وكاتب السير الذاتية اليونانيّ)، و غايوس سـويتونيوس ترانكويلوس، وديو كاسيوس

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٣٣.

اليونانيّ، وكذلك أميانوس مارسيليانوس. وقد ساهمت أعمال هؤلاء المؤرّخين، إلى جانب أعمال بعض مؤرّخين آخرين، إلى حدّ كبير في رسم صورة عن حياة روما منذ القرن السادس ق.م وما بعده.

الإتروسكيون شعب مؤثر في تاريخ روما

منذ القرن التاسع قبل الميلاد، خضعت أجزاء كبيرة من أراضي إيطاليا تدريجيًّا لنفوذ وسيطرة الإتروسكيّين، بحيث يمكن، منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، الحديث عن نشوء حضارة إتروسكية في إيطاليا، وهي حضارة تركت تأثيرات دائمة في تاريخ روما القديمة. ويبدو أنّ الحضارة الإتروسكية بلغت ذروة ازدهارها ونموّها في القرن السابع قبل الميلاد، حتى أنّ أربعة من ملوك روما القديمة كانوا من أصل إتروسكي قبل سقوط الملكية في إيطاليا القديمة.

لا يزال أصل الإتروسكيين وهويّتهم العرقية والإثنية يكتنفهما الغموض، وقد دار بين المؤرّخين وعلماء الآثار جدل كبير حول هذه المسألة منذ زمن بعيد. ومن اللافت أنّ هذا الخلاف كان قائمًا حتى في العصور القديمة بين المؤرّخين اليونانيّين أنفسهم بشأن أصل الإتروسكيّين وخصائصهم العرقية والإثنية. وفي الوقت الراهن، وبناءً على إعادة قراءة بعض المصادر وتفسيرها، إضافة إلى الاكتشافات الأثرية السابقة وبعض النتائج الحديثة، تعزّز الاعتقاد بأنّ الإتروسكيّين هم أحد الشعوب الأصلية العريقة في إيطاليا، الذين استوطنوا منطقة إتروريا منذ أمد بعيد[١].

دخل الإتروسكيون إلى منطقة لاتيوم حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، وبدأوا تدريجيًّا في إنشاء دول-مدن إتروسكية في مختلف أنحاء لاتيوم. وفي هذه الفترة

١. ناردو، إتروسكها، ١٥-٢٢.

التـي هيمن فيها الإتروسـكيّون على لاتيوم، تمّ بناء مدينـة روما. في الروايات التاريخية، التي يُحتمل أن تكون ممزوجة بالأساطير وغير دقيقة، يُذكر أنّ الرومان حدّدوا يوم ٢٢ أبريل عام ٧٥٣ قبل الميلاد كتاريخٍ لتأسيس مدينة روما. وتكشف هذه الروايات، التي تمتزج فيها الأسـاطير بالواقع، بوضوح عن بصمات التأثير العميق للثقافة والحضارة اليونانية في أراضي إيطاليا وسكّانها، وكذلك في تاريخ روما القديمة.

إثر تأسـيس مدينـة روما، ومع توسّـع نفوذ الإتروسـكيين فيهـا، وبفعل الأحداث التي وقعت في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، والتي أدّت إلى إلغاء النظام الملكي وإقامة الجمهورية في روما وسـائر أنحاء إيطاليا، أخذ نفوذ وأهمّية مدينة روما في تاريخ البلاد وفي حياة سـكّانها يتزايدان تدريجيًّا. وبهذا أصبحت روما تضطلع بدور محوري في تاريخ هذه الأرض.

الدول-المدن الإتروسكية

أقام الإتروسـكيون نظامًا لدول-مدن تأثّر من نواحٍ عدّة بالثقافة والحضارة اليونانية. وفي هذا السياق، يكتب دان ناردو:

«تشير الأدلة إلى أنّ الإتروسكيين تأثّروا تأثّرًا بالغًا بالفنون والثقافة اليونانية، كما أنّ المجتمـع والثقافة الإتروسـكية ازدادا ثراءً بفضل تدفّـق المعارف الفنّية والتقنية الجديدة، إضافة إلى انتشـار الكتابة بعد اسـتعارتهم لنوعٍ من الأبجدية اليونانية. ويمكن وصف المدن الإتروسـكية بدقّـة أكبر على أنّها دول-مدن، إذ كانـت كل واحدة منها تتألّـف من مدينة مركزية صغيرة (مـا يطلق عليه علماء الآثار «المركز الحضري»)، تحيط بها شـبكة من القـرى والمزارع التابعة. وكانت هـذه المراكز الحضرية، إلى جانب القرى والمزارع، تشـكل في مجموعها ما يمكن

اعتباره دولة صغيرة... وقد كانت جميع هذه المدن تقع في مواقع دفاعية، إما على رؤوس التلال أو في مواضع يسهل الدفاع عنها. وكان هناك عامل آخر يحدّد ما إذا كانت بلدة صغيرة ستتوسّع لتصبح مدينة كبرى، وهو قربها من مصادر غنية بالمعادن وارتباطها بطرق التجارة مع اليونانيّين. وإذا ما توافرت جميع هذه العوامل، فإنّ عدد سكان المدينة كان يزداد بسرعة خلال هذه الفترة»[١].

كانت العلاقة بين الإتروسكيّين واليونانيّين وثيقة ومتينة للغاية. فقد انتقل عدد كبير من اليونانيين إلى المدن الإتروسكية، واشتروا الأراضي، وتزوّجوا من النساء الإتروسكيّات. كما استخدم الإتروسكيّون الأبجدية اليونانية في الكتابة، وتشير النقوش والنصوص المتبقّية على الجرار والجدران والمقابر إلى أنّ الإتروسكيّين كانوا يعتمدون على الأبجدية اليونانية في تدوين كتاباتهم.

بدأت الدول-المدن الإتروسكية في التوسّع منذ أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، واستمرّ هذا التوسّع طوال القرن السابع قبل الميلاد. وكان التواصل مع اليونانيّين، والتأثيرات الثقافية المتبادلة، والعلاقات التجارية معهم عاملًا أساسيًّا في هذا الازدهار الذي شهدته المدن الإتروسكية. ومع مرور الوقت، اتّسعت الفجوة بين الأثرياء والفقراء داخل المدن الإتروسكية، مما أدّى إلى ظهور جماعات أرستقراطية اكتسبت نفوذًا سياسيًا واجتماعيًا واسعًا. ومع هذا التوسّع، فرض الإتروسكيّون هيمنتهم تدريجيًّا على مختلف أنحاء إيطاليا، حتى أصبحت البلاد بأسرها ذات طابع إتروسكي واضح.

غير أنّ الدول-المدن الإتروسكية واجهت مشكلة خطيرة، تمثّلت في الخلافات والتنافس والصراعات المستمرّة بينها. فلم يتمكّن الإتروسكيّون قطّ من تحقيق

١. م. ن، ٣٢، ٣٦، ٣٨.

نوع من الوحدة السياسية، إذ كانت المدن الإتروسكية في حالة صراع دائم فيما بينها. وقد أدّت هذه الحروب المستمرّة إلى إضعاف دول-المدن الإتروسكية. إلى جانب ذلك، كانت هذه المدن تعاني من مشكلة معقّدة أخرى، وهي الصراع بين الطبقات الفقيرة والشرائح الثرية.

في القرن الثامن قبل الميلاد، في الفترة ذاتها التي كانت فيها الطبقة الأرستقراطية قد استحوذت على السلطة في اليونان وأقامت نوعًا من الديمقراطية العسكرية الأرستقراطية، تولّى الأرستقراطيون الحكم في دول-المدن الإتروسكية أيضًا. ومع ذلك، لم يُعثر حتى الآن على أيّ دليل يُشير إلى وجود شكل من أشكال الديمقراطية في المدن الإتروسكية.

كانت الدول-المدن الإتروسكية منتشرة في مناطق مختلفة من إتروريا، بالإضافة إلى بعض المناطق الأخرى في إيطاليا، وكانت في سياق تطلّعاتها التوسّعية تواجه، إلى جانب مشكلاتها الداخلية وصراعاتها المستمرّة مع غيرها من الدول-المدن الإتروسكية، عقبةً أخرى تمثّلت في مقاومة سكّان المناطق الأخرى في إيطاليا، بما في ذلك المستعمرات اليونانية المنتشرة في البلاد. وقد شكّلت هذه المقاومة عائقًا كبيرًا أمام مشروع توسّع نفوذ الإتروسكيّين، مما جعل تحقيق أهدافهم التوسّعية أمرًا بالغ الصعوبة.

القوّة العسكرية للإتروسكيّين

في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، اعتمد الجيش الإتروسكي في تسليحه وتجهيزاته العسكرية على الأسلحة اليونانية. ومع ذلك، لم يتمكّن الإتروسكيّون قط من إعادة إنتاج النظام والانضباط والقوّة التي تميّز بها الجيش اليوناني. ويعود سبب ذلك إلى تركيبة القوّات التي كانت تشكل الجيش الإتروسكي، حيث أدّى

هيمنة الطبقة الأرستقراطية والشرائح المترفة، التي كانت تفتقر إلى حس المسؤوليّة والشجاعة، إلى جعل الجيش الإتروسكي يفتقر إلى الكفاءة والقدرة على المواجهة وتحمّل المخاطر والمرونة اللازمة لخوض الحروب والمعارك العسكرية بفعّالية.

بضع حروب توسّعية للإتروسكيّين في القرن السادس قبل الميلاد

في العقود الأولى من القرن السادس قبل الميلاد، انطلقت الدول-المدن الإتروسكية في حملات توسّعية تهدف إلى تجاوز حدود إتروريا والسيطرة على مساحات أوسع من أراضي إيطاليا. وفي عقد ٥٣٠ قبل الميلاد، واجه الإتروسكيّون مستعمرة يونانية في جزيرة كورس، حيث اندلعت حربٌ حوالي عام ٥٣٥ ق.م بين تحالفٍ من القوات الإتروسكية والقرطاجية من جهة، والمستوطنين اليونانيّين من جهة أخرى. وقد انتهت المعركة بانتصار التحالف القرطاجي-الإتروسكي، مما دفع اليونانيين إلى إخلاء الجزيرة واستقرار الإتروسكيّين فيها.

وفي عام ٥٢٥ قبل الميلاد، تقدّمت الجيوش الإتروسكية نحو الشمال، في المنطقة التي تُعرف اليوم ببولونيا، حيث أسّسوا مستوطنات إتروسكيّة هناك. وبعد فترة وجيزة، استولى الإتروسكيّون على مدينتي سبينا وأدريا، وبذلك وصلوا إلى البحر الأدرياتيكي. وفي الوقت ذاته، بدأ الإتروسكيّون تقدّمهم نحو الجنوب، حيث بسطوا سيطرتهم على منطقة كامبانيا، الواقعة على ساحل خليج نابولي، وأسّسوا مدنًا هناك، كان أبرزها مدينة كابوا.

وأثناء هذا التوسّع، اصطدم الإتروسكيّون بالمستوطنين اليونانيين في المدينة الساحلية كومائي، ممّا أدّى إلى اندلاع معركة بين الطرفين في محيط المدينة. وأسفرت المواجهة عن هزيمة الإتروسكيّين، الذين اضطروا بعد هذه الخسارة إلى الانسحاب من المناطق المحيطة بكومائي.

في عام ٥٠٦ قبل الميلاد، شنّت قوات الدولة-المدينة الإتروسكية كلوسيوم، بقيادة آرونس، هجومًا على مدينة آريسيا، الواقعة على بُعد بضعة أميال جنوب روما. كانت آريسيا مدينة ضمن إقليم لاتيوم وخاضعة لسيطرة اللاتينيّين. وقد شكّلت معركة آريسيا مواجهة عسكرية كبيرة بين إحدى دول-المدن الإتروسكية وإحدى المدن اللاتينية، لكن الإتروسكيّين مُنيوا بالهزيمة في هذه الحرب أيضًا. جاءت هذه الهزيمة، بالإضافة إلى خسارتهم في معركة كومائي، لتؤكّد وجود مقاومة قويّة ضد التوسّع الإتروسكي في جنوب إيطاليا. وكانت هزيمتهم في معركتي كومائي وآريسيا بمثابة بداية أفول نفوذهم خارج حدود إتروريا. وقد تجلّى هذا التراجع أيضًا في سقوط الملك الإتروسكي الحاكم في روما وإعلان قيام الجمهورية الرومانية.

الانقلاب في روما

كان آخر ملوك روما قبل تأسيس الجمهورية يُدعى تاركوينيوس سوبيربوس (تاركوين المتكبّر)، وهو من أصل إتروسكي. وفي السنوات الأخيرة من حكمه، واجه تاركوينيوس مشكلات متزايدة، إذ دخل في خلافات مع كبار ملّاك الأراضي والأرستقراطيين اللاتينيين، الذين رأوا فيه عقبة أمام تحقيق تطلّعاتهم. ويبدو أنّ تاركوينيوس لجأ إلى ممارسات استبدادية، حيث قام باعتقال بعض الأرستقراطيّين اللاتينيّين، مما زاد من حدة التوتّرات في المدينة.

كان سكستوس، ابن تاركوينيوس، رجلًا شريرًا عُرف بإيذائه لأهالي روما. وفي إحدى تصرفاته الإجرامية، اعتدى على لوكريتيا، زوجة لوكيوس تاركوينيوس كولاتينوس، وهو أحد الأرستقراطيّين الرومان. وقد كان هذا الحدث بمثابة الشرارة التي أشعلت غضب الأرستقراطيين الرومان. بمساعدة

لوكيوس يونيوس بروتوس، وهو أرستقراطي آخر، وبدعم عدد من كبار النبلاء الرومان، قاد كولاتينوس انقلابًا ضد تاركوينيوس وعائلته. وأطاح الانقلابيون بالنظام الملكي وأعلنوا تأسيس الجمهورية في عام ٥٠٩ قبل الميلاد، وهو الحدث الذي دشّن بداية الجمهورية الرومانية، التي استمرّت حتى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. منذ تأسيس الجمهورية الرومانية عام ٥٠٩ ق.م، اتّجه مسار تاريخ إيطاليا وشعبها نحو التوسّع والسيطرة على مختلف أنحاء البلاد وما وراءها، حيث أصبحت هذه الجمهورية منصّة لحركة توسّعية استعمارية وعدوانية. وبين القرون السادس والرابع والثالث قبل الميلاد، بسطت الجمهورية الرومانية سيطرتها تدريجيًّا على كامل الأراضي الإيطالية. غير أنّ الجمهورية، منذ لحظة ولادتها، وجدت نفسها في مواجهة أعداء أقوياء وفي ظلّ ظروفٍ حرجة.

تشكّل صفٌّ من الدول-المدن الإتروسكية التي كانت تسعى لمهاجمة روما، إذ لم تكن ترغب في أن يحلّ نظام لاتيني محلّ الملك الإتروسكي في المدينة. وبعد فترة وجيزة، أرسلت الدولة-المدينة كلوسيوم جيشًا بقيادة لارس بورسينا باتّجاه روما. نجح بورسينا في الاستيلاء على روما، لكنّه لم يتمكّن من الحفاظ على انتصاره، وسرعان ما اضطرّ إلى الانسحاب من المدينة. كما مُني أرونس، ابن لارس بورسنا، بهزيمة على يد اللاتينيّين في أريشيا، مما أكمل سلسلة الهزائم التي تعرّض لها الإتروسكيّون.

ومع سقوط الملكية الإتروسكية وتأسيس الجمهورية في روما، فضلًا عن هزائم لارس وابنه، بدأ الإتروسكيّون مسار أفولهم، وهو المسار الذي استمرّ على مدى ثلاثة إلى أربعة قرون حتى أدّى إلى انهيار الحضارة الإتروسكية بالكامل. منذ مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، ومع تراجع قوّة الإتروسكيّين وضعفهم، بدأت

المستعمرات اليونانية في إيطاليا، بالإضافة إلى غيرها من الشعوب القاطنة في البلاد، بشنّ هجمات على المدن الإتروسكيّة. وقد أدّى سقوط الملك الإتروسكي في روما، إلى جانب سلسلة من الحروب بين الإتروسكيّين وسائر سكان شبه الجزيرة الإيطالية، إلى تسارع وتيرة زوال الحضارة الإتروسكية في إيطاليا.

المذهب واللغة عند الإتروسكيّين

كان الإتروسكيّون يعتنقون معتقدات أسطورية، حيث عبدوا العديد من الآلهة والقوى الطبيعية. كانوا يؤمنون بآلهة تسكن في الأشياء والمظاهر الطبيعية، مثل الأشجار، والصخور، ومياه الأنهار، والغابات. غير أنّه، ومع تأثّرهم المتزايد بالثقافة اليونانية، بدأ تصوّرهم الديني الأسطوري يتقارب تدريجيًّا مع المفاهيم اليونانية ويتأثر بها.

تميّزت الآلهة اليونانية بصفات وسلوكيّات بشرية، وكانت تُصوَّر على هيئة كائنات إنسانية. وقد أثّر هذا الطابع الإنساني لآلهة اليونان تدريجيًّا في العقائد الإتروسكيّة وأصبح جزءًا من تصوّرهم الديني. وهكذا، بدأ الإله الإتروسكيّ تِينيا، الذي كان إله السماء، يُشبه أكثر فأكثر زيوس، كبير الآلهة اليونانية، بعدما كان يُنظر إليه في البداية ككيان مجرّد، أو على الأقل كإله ذي صفات أقرب إلى الحالات والكيفيّات المجرّدة. نفسُ التصوّر الإنساني للإله السماوي الذي ظهر عند الإغريق تجلّى أيضًا في صورة جوبيتر، كبير الآلهة عند الرومان. وتحت تأثير الثقافة اليونانية، صنع الإتروسكيّون تماثيل نصفية ونقوشًا بارزة للإله تينيا، كانت مستوحاة بوضوح من صورة زيوس الإغريقي. وقد حدثت عملية التماثل هذه مع آلهة إتروسكية أخرى أيضًا، حيث أصبح أوني الإتروسكي شبيهًا بهيرا (زوجة زيوس)، كما صارت صورة وصفات الإله الإتروسكي فوفلونوس قريبة

جدًا من الإله ديونيسوس عند اليونانيّين. وشمل هذا التشابه أيضًا ستلانس الإتروسكي، الذي اقتربت صورته من هيفايستوس الإغريقي، وكذلك مينرفا الإتروسكية، التي أصبحت تماثل أثينا، إلى جانب حالات أخرى مشابهة.

كان لدى الإتروسكيّين تصوّرٌ أسطوريٌّ للقدر، يرتبط بفهمهم لمنظومتهم الإلهية. ولعب السحرة والكهنة دورًا بالغ الأهمّية في معتقداتهم. ورغم أنّ الإتروسكيّين كانوا يعتنقون عقائد أسطورية وشركية، إلا أنّهم امتلكوا تصوّرًا عن الحياة بعد الموت، وعن الثواب والعقاب الأخروي. وهذا التصوّر لم يكن بارزًا لدى اليونانيّين، حيث ظهر لديهم بشكل مشوّه أو ضعيف التأثير. ورغم أنّ الاعتقاد الإتروسكي بالحياة الآخرة لم يكن خاليًا من الشوائب والانحرافات الأسطورية، فإنّه كان أقرب إلى مفهوم الدين التوحيدي مقارنة بالفكر الديني اليوناني.

كان الإتروسكيّون يؤدّون طقوسهم الدينية في أماكن مفتوحة، لكن منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبفعل التأثير اليوناني، بدأوا في بناء المعابد وإقامة شعائرهم الدينية داخلها. ورغم أنّ العمارة الإتروسكية تحمّل اختلافات واضحة عن نظيرتها اليونانية من حيث التصميم والخصائص التقنية، فإنّه يمكن القول بشكل عام إنّ الإتروسكيّين تأثّروا باليونانيّين في هذا المجال أيضًا[1].

إحدى الجوانب الغامضة في تاريخ الإتروسكيّين هي لغتهم. فاللغة الإتروسكية تختلف اختلافًا جوهريًا عن جميع اللغات المتوسطّية ولغات الشعوب المجاورة لهم، مثل اليونانية، والسلتية، واللاتينية، والأومبريانية، وغيرها من اللغات المنتشرة في إيطاليا آنذاك. أصول اللغة الإتروسكية غير معروفة، ولم

1. Haynes, Etruscan Civilization: A Cultural History, 54-61.

يتــم العثور عــلى أي لغة أخرى تربطها بها صلة قرابــة أو تعود إلى نفس الجذور اللغوية عبر الحقب المختلفة من تاريخ شــعوب البحر المتوسّــط. كما أنّ العديد من مفردات هذه اللغة لا تزال مجهولة وغير مفكّكة رمزيًا. وبشكل عام، لا يزال معنى النصوص والآثار المكتوبة المتبقّية من الحضارة الإتروسكية غامضًا إلى حدّ كبير، ولم يتم فكّ رموزها بالكامل، باستثناء عدد محدود من الكلمات المفردة.

كان الإتروســكيّون، على خــلاف اليونانيّين واللاتينيّــين والإنجليز الذين يكتبون من اليسار إلى اليمين، يكتبون من اليمين إلى اليسار. وقد عثر علماء الآثار على معظم النصوص المكتوبة باللغة الإتروسكية في منطقة إتروريا، كما تمّ العثور على أدلّة لغوية لها في جزيرة ليموس الواقعة في بحر إيجه.

ويرى بعض علماء الآثار أنّ اللغة الإتروسكية كانت إحدى اللغات القديمة التي تحدّث بها السكّان الأصليّون لإيطاليا. كما يطرحون فرضية مفادها أنّ اللغة الإتروسكية (أو بعض لهجاتها) ربما كانت منتشرة في عصور موغلة في القدم بين الشعوب التي عاشت في حوض البحر المتوسّط.[١]

الفنّ الإتروسكي

إحــدى أبــرز نــماذج الفن الإتروســكي هــي صناعــة الفخّار. فقــد ترك الإتروســكيّون وراءهم عددًا كبيرًا من الأواني الفخّارية، التي زُيّنت برسومات ونقوش تجسّــد مشــاهد من الحياة اليومية. كما قام الفنّانون الإتروسكيّون، منذ القرن السابع قبل الميلاد، برسم زخارف ونقوش على جدران العديد من المقابر، وكان النوع الأكثر شــيوعًا من الرســم الجداري هو ذلك الذي يُنفذ على الجصّ الرطب.

---

١. م. ن، ٧٥.

غير أنّ الإتروسكيين اهتمّوا بالنحت أكثر من الرسم، لكنّهم لم يُنتجوا الكثير من التماثيل الحجرية، بل ركّزوا في أعمالهم النحتية على استخدام البرونز والفخّار الأحمر (الطين المشويّ). وقد عُرفت المنتجات المعدنية التي صنعها الفنّانون الإتروسكيّون في جميع أنحاء منطقة البحر المتوسّط، حيث كانوا يصنعون المرايا، والأواني، والأطباق البرونزية، إلى جانب المجوهرات والحلي الذهبية.

ومع مرور الزمن، وبالتحديد منذ القرن السابع قبل الميلاد، أصبحت الأعمال الفخّارية والرسومات والأدوات المعدنية والتماثيل البرونزية الإتروسكية أكثر تأثّرًا بالطابع اليوناني. وبحلول القرن الأول الميلادي، اندمجت الفنون والصناعات والثقافة الإتروسكية بالكامل في الفنّ اليوناني، ومن ثمّ في الفنّ الروماني.

الدول-المدن الإتروسكية المتفرّقة

كانت كل دولة-مدينة إتروسكية تحكمها مملكة مستقلّة بملك خاص بها، ولم يكن هناك في أيّ وقت ملك واحد يحكم جميع هذه المدن ويوحّدها تحت سلطة مركزية. لم يكن ملوك الإتروسكيّين يتمتّعون بسلطة مطلقة، إذ كان هناك دائمًا نوع من التوتّر والصراع بين الملوك والأرستقراطيّين، رغم أنّه يبدو أنّ بعض الملوك في فترات معيّنة امتلكوا نفوذًا وقوةً معتبرين.

في العصور المتأخّرة من الحضارة الإتروسكية، كان للملوك حرّاس شخصيّون يرافقونهم، ولاحقًا بعض القضاة النافذين في روما، ويحملون فؤوسًا ذات نصل مزدوج تُسمّى فاسِس. كانت هذه الفؤوس محاطة بحزمة من العصي والأغصان، وكانت تُستخدم كرمز لسلطة الملك أو القاضي، وتمثّل حقّه في تنفيذ أحكام الإعدام. في القرن العشرين، استُخدم المصطلح «فاشية» للإشارة

إلى الأيديولوجية السياسية التي أسّسها بينيتو موسوليني، والتي حكمت إيطاليا من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٤٥. وقد اشتُق هذا المصطلح مباشرة من رمز الفاسِس الإتروسكي.

«لم يظهر في الحضارة الإتروسكية أيّ مؤشر أو رمز يدلّ على وجود نظام ديمقراطي. فقد كان الملوك الإتروسكيّون يحتلّون أعلى مرتبة اجتماعية في مدنهم، وكانوا منتمين إلى الطبقة الأرستقراطية. ويبدو أنّه، بحلول القرن السادس قبل الميلاد وما بعده، انتقلت السلطة، على الأقل في بعض المدن، إلى مجموعات من الأوليغارشيين الإتروسكيّين. في معظم المدن الإتروسكية، تولّى القضاةُ والمجالس القضائية (التي كانت خاضعة لنفوذ الأرستقراطيّين) السلطةَ، فإما أن حلّوا محلّ الملوك أو تقاسموا الحكم معهم»[1].

كان نظام العبودية قائمًا في المجتمع الإتروسكي، إلا أنّه لا تتوفّر معلومات دقيقة عن خصائصه أو عن أوجه الاختلاف بينه وبين العبودية في اليونان وروما القديمة. ويُرجّح أن دور العبيد كان يقتصر بشكل أساسي على الأنشطة الاقتصادية، مثل استخراج المعادن والأحجار، والزراعة، وتنظيف الشوارع، والقيام بالأعمال الشاقة. ومن المحتمل أيضًا أنّ العبيد كانوا يُستخدمون في الخدمة المنزلية. تشير النقوش والكتابات الإتروسكية المتاحة إلى أنّ العبيد كانوا يتعرضون لمعاملة قاسية وظالمة.

النساء في دول-المدن الإتروسكية

من خلال النقوش والآثار المتبقّية من الإتروسكيّين، يبدو أنّه، على الأقل في فترة من حياتهم، كانت هناك مجموعات من النساء الإتروسكيات يتمتّعن بغطاء

1. Beazely, Etruscan Vase Painting, 92.

يتوافق مع التعريف الذي لدينا اليوم عن حجاب النساء. وهذا ليس أمرًا غريبًا، فقد شهدنا في بعض الحضارات القديمة والعريقة الأخرى (حضارات أسطورية مثـل الهند القديمة، وإيران القديمة، وحضارة السـكّان الأصليّين لأمريكا...) أشـكالًا من الحجاب واللباس العفيف للنساء. لا شك أنّ هذه الألبسة العفيفة النسـائية كانت بقايا وذكرى من عصر الأمة الواحدة، والتي استمرّت في بعض مراحل التاريخ الأسطوري لهذه الأقوام، وإن كانت قد طواها النسيان في المراحل اللاحقة من حياتهم.

غير أنّه، في الحضارة الإتروسـكية أيضًا، إلى جانب النقوش التي تُمثّل النساء بحجاب ولباس عفيف، نجد صورًا وآثارًا وإشارات تعكس اتّجاهًا معاكسًا تمامًا لسلوكيات وملابس العفّة، وهي على الأرجح تعود إلى المراحل المتأخّرة من حياة الإتروسكيّين. وكما يبدو من بعض المصادر التاريخية القديمة المتبقّية، فقد وُجدت في الحضارة الإتروسـكية خلال فتراتها المتأخّرة بعض المظاهر والسلوكيات غير الأخلاقية، بل وأحيانًا أنماط من اللباس البعيد عن الحياء والعفاف.

لباس، الضيافة، والترفيه عند الإتروسكيّين

في القرن السـابع قبل الميـلاد، كان سـكّان إتروريا يرتـدون غالبًا ملابس فضفاضة متدلّية، وكانت هذه الملابس تتألّف عادةً من قميص بسـيط (كلباس داخلي) ورداء أو عباءة تُلفّ حول الجسد فوقه. كان الإتروسكيّون يطلقون على هذا الرداء الخارجي اسم تينا.

أما النسـاء الإتروسكيّات في القرن السابع قبل الميلاد، فكنّ يرتدين قمصانًا طويلـة تصـل إلى الكاحل، وغالبًا ما كـنّ يثبّتن الطرف الأيمـن للقميص على الكتف بدبوس مزخرف، إضافةً إلى ارتداء حزام حول الخصر.

في القرن السادس قبل الميلاد، انتشرت أنماط اللباس اليوناني بصورة متزايدة. واصل بعض الرجال ارتداء القمصان الطويلة، لكن عددًا كبيرًا منهم تبنّى العادة اليونانية المتمثّلة في ارتداء إزار فقط، مع ترك الصدر مكشوفًا.

في الحضارة الإتروسكية الأسطورية المشركة، كما هو الحال في العديد من الحضارات الأسطورية الأخرى، كان شرب الخمر، والرقص، واللهو والممارسات غير الأخلاقية شائعًا.

بموازاة الترفيه غير الأخلاقي، مثل شرب الخمر، والحفلات المختلطة المصحوبة بالرقص وما شابه ذلك، انتشرت أيضًا بعض وسائل التسلية العنيفة والدموية بين الإتروسكيّين.

«كانت هناك لعبة وحشية للغاية تمّ تصويرها فيما يُسمّى مقبرة العرّافين بالقرب من تاركوينيا، وقد وصفها مايكل غرانت على النحو التالي: يظهر في الصورة رجل يرتدي قناع شيطان وهو يطلق كلبًا أسودًا متوحّشًا باتّجاه رجل آخر. الضحية، الذي يرتدي جلد حيوان، يحمل هراوة للدفاع عن نفسه، لكنّ عينيه مغطّاتان ورأسه ملفوف في كيس... وقد اعتبر العديد من العلماء هذه الصورة دلالة على نوع قاسٍ من المصارعة الغلادياتورية الإتروسكية، التي شكّلت تمهيدًا لمعارك الرومان مع الحيوانات»[١].

نهاية الإتروسكيّين

في عام ٥٠٩ ق.م، أطاحت روما بمَلِكِها الإتروسكي وبدأت مسيرتها نحو الهيمنة، حيث تمكّنت خلال ثلاثة قرون من بسط سيطرتها على إيطاليا وبعض جيرانها، في حين بدأت الحضارة الإتروسكية مسار التدهور. ومن الواضح أنّه

١. ناردو، اتروسك ها، ٩٧.

بين عامَي ٤٨٠ ق.م و٣٠٠ ق.م، شـهدت الدول-المدن الإتروسـكية تراجعًا شـاملًا. مع مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، كان واضحًا أنّ روما تخطو بخطى متسـارعة نحو تعزيز نفوذها والتوسّـع والهيمنة، ولم يعد هناك شك في أنّ عهد إتروريا المستقلّة قد اقترب من نهايته.

«كان على سكّان إتروريا أن يدركوا أنّ زمن استقلالهم قد انتهى، إذ فرضت الجمهورية الرومانية سـيطرتها العسكرية والسياسـية على إتروريا. ومع ذلك، ظلّـت الثقافة الإتروسـكية تُظهر بعـض المقاومة للحفاظ عـلى وجودها. فقد تمكّن الإتروسـكيّون من الحفاظ على لغتهم وبعض تقاليدهم لعدّة أجيال، لكن تدريجيًّا، بسـطت روما سـيطرتها الثقافية أيضًا. وبحلول نهاية القرن الأول قبل الميلاد، اندمجت بقايا الحضارة الإتروسكية بالكامل في الغرب الروماني، ولم يعد ما تبقّى من الإتروسكيّين سوى جزءٍ من التاريخ القديم»[1].

دان ناردو يوجز انقراض الإتروسكيّين وهيمنة روما على النحو التالي:

«فضيلـة المواطنة الرومانيـة، والزواج مـن الرومان، والاقتباس المسـتمر للعادات والأفـكار الرومانية، أدّت تدريجيًّا، ولكن بشـكل حتمي، إلى تلاشي الثقافة الإتروسكية. بالإضافة إلى ذلك، نشأ عدد متزايد من الإتروسكيّين وهم يتحدّثون اللاتينية كلغتهم الأولى، بينما أصبحت الإتروسكية لغة ثانية، ومع كل جيل جديـد، كان عدد الناطقين بها يتناقص. ومع مـرور العقود والقرون، بدأ عدد متزايد من الإتروسـكيين يعتبرون أنفسـهم رومانًا من أصول إتروسكية. في القـرن الأول الميلادي، ومع بداية الإمبراطورية الرومانية، اكتمل تقريبًا هذا الاندماج البطيء. فقد اسـتمرّت مجموعة صغيرة من الناس في القرى النائية في

1. Sybille, Etruscan Civilization, 118.

التحدّث باللغة الإتروسكية لمدّة قرن أو أكثر، لكن، بقدر ما يمكن ملاحظته، لم يعد هناك وجود للإتروسكيّين القدماء»[١].

كانت الجمهورية الرومانية، التي وُلِدت عام ٥٠٩ ق.م، تجسيدًا لظهور تاريخ الغرب في سهل لاتيوم وفي إيطاليا. ومع هيمنة روما، حُمِل شكل تاريخ الغرب القديم على مادّة تاريخ الشرق، التي كانت الحضارة الإتروسكية أحد ممثّليها الرئيسيّين في إيطاليا القديمة. أصبحت الحضارة الإتروسكية الأسطورية مادة لتاريخ الغرب القديم، وهكذا، جسّدت الجمهورية الرومانية روح الغرب القديم، وبسطت سيطرتها على إتروسك وعلى غيرها من ممثّلي الإرث التاريخي الشرقي والأسطوري، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من توسّع تاريخ الغرب القائم على رؤيته الخاصة للكون.

٢. الجمهورية الرومانية

مع ظهور الجمهورية الرومانية، يبدأ العهد الأخير من تاريخ الغرب القديم. وكما هو الحال في العصور السابقة، يقع هذا العهد تحت إطار الرؤية الكونوية الغربية، حيث يمثّل أحد أشكال تجلّي الروح السائدة على الغرب القديم وتوسّعها، إلا أنّه يتميّز ببعض العناصر الخاصة.

مع تأسيس الجمهورية الرومانية، بدأت الحضارة الرومانية القديمة في التحقّق بكامل معناها. وقد ظهرت هذه الحضارة خلال مسار توسّعها في هيئتين رئيسيّتين:

أ) في هيئة الجمهورية الرومانية، التي نشأت عام ٥٠٩ ق.م واستمرّت حتى عام ٢٧ ق.م.

---

١. ناردو، اتروسك ها، ١٢١ – ٢٢.

ب) في هيئة الإمبراطورية الرومانية، التي بدأت عام ٢٧ ق.م واستمرّت حتى الانهيار الكامل للحضارة الرومانية (والعالم الغربي القديم) في أواخر القرن الرابع الميلادي.

كانت الحضارة الرومانية، شأنها شأن العالم الغربي القديم، ذات روح كونوية. وقد شكّلت روما القديمة امتدادًا للحضارة اليونانية من بعض الجوانب، إلا أنّ هناك أيضًا فروقًا واضحة وجوهرية بين الحضارتين. ويمكن تلخيص السمات الأساسية للحضارة الرومانية القديمة على النحو التالي:

١. كان العهد الروماني القديم، بوصفه مرحلة من مراحل ظهور وتوسّع وتطوّر الغرب القديم، ذا طبيعة علمانية كونوية.

٢. في روما القديمة، حلّ تدريجيًّا، لا سيّما منذ أواخر العهد الجمهوري وطوال عصر الإمبراطورية، شكلٌ من الكوزموبوليتانيّة (النظام العالمي العلماني) محلَّ نموذج البوليس اليوناني. ففي العهد الكلاسيكي لليونان، تجلّى العالم الغربي القديم في صورة البوليس، أو الدولة-المدينة. إلا أنّ المسار التوسّعي لهذا العالم بلغ تدريجيًّا نقطةً لم يعد من الممكن عندها الاستمرار ضمن إطار البوليس الكلاسيكية. من هنا، بدأ الانتقال من نموذج البوليس الكونوي إلى شكل من الكوزموبوليتانيّة منذ العصر الهلينستي. غير أنّ هذا التوجّه بلغ تحقّقه الكامل خلال العصر الروماني، وبالأخص في عهد الإمبراطورية، حيث تجسّد الكوزموبوليتانيّة الغربية القديمة في شكل إمبراطورية توسّعية، استعمارية، وهيمنة إمبريالية تجسّدها روما القديمة في أتمّ صورها.

٣. كانت روما القديمة خلال العهد الجمهوري نظامًا ديمقراطيًا كونويًّا. وقد اتّسمت ديمقراطية الجمهورية الرومانية بطابع أرستقراطي-عسكري

واضح. ومع قيام الإمبراطورية، تراجعت بعض العناصر الديمقراطية في النظام الروماني، إلا أنّ الإمبراطورية الرومانية، باعتبارها نظامًا سياسيًا نشأ وتحقّق وفقًا للعقل الغربي الكوني، ظلّت قائمة بمنـأى عن الوحي الإلهي والتفكير الديني، ومنقطعة عن الفكر الأسطوري، ومع ذلك، استمرّت ضمن مراحل مختلفة من الديمقراطية الكونوية وتوسّعت في ظلّها.

٤. في روما، كان الميل إلى المركزية وإنشـاء دولة واسعة موحّدة أقوى مما كان عليه في اليونـان القديمة، وقد بلغ هذا التوجّه ذروتـه في العهد الإمبراطوري، حيث ترسّخ بالكامل.

٥. مثل اليونان، بـل وبدرجةٍ تفوقها، قامت روما عـلى علاقات اقتصادية قائمة عـلى العبودية الجائرة. لقـد كانت الحضارة الرومانية ظالمة، اسـتغلالية، استكبارية، وهيمنة توسّـعية، وكانت هذه الصفات متأصّلة في الجوهر العدمي للغرب. كان الاسـتكبار الروماني اسـتكبارًا كونويًّا. كان الاستكبار الكونوي للعالم الغربي القديم موجودًا بكامـل صورته في روما، وبعد ذلك دخل مرحلة أزمة الانحطاط.

٦. كانـت الحضـارة الرومانية، بصفتها آخر تجلّيات الغـرب القديم، تعاني منـذ أواخر العصر الجمهوري، وبالأخص طوال العهد الإمبراطوري، من نوع من الاضطراب الأخلاقي والقيمي. وكان هذا الاضطراب الأخلاقي-القيمي ناتجًـا عن توسّـع العدمية الكونوية، وهـو من أعراض دخولهـا مرحلة الأزمة والانحطاط.

٧. في الغالب، لم تكن الحضارة الرومانية تولي اهتمامًا كبيرًا بالقضايا النظرية الأساسـية على غرار الحضارة اليونانية. فقد كان الرومان أكثر انشغالًا وتركيزًا

على الجوانب والمجالات العملية، بدلًا من الاهتمام العميق بالمباحث الفلسفية والنظرية. ففي روما القديمة، كانت قضايا مثل التشريع والمباحث القانونية، وأنواع من الهندسة القائمة على عقلانية كونوية، والإبداع في التنظيم السياسي-الاجتماعي، تمثّل المحاور الرئيسة للاهتمام. لقد كانت روح الحضارة الرومانية روحًا مضطربة قلقة، تسعى من خلال النشاط العملي إلى تصريف جزء من اضطراباتها. ومن وجه آخر، يمكن النظر إلى النزعة العملية لدى الرومان من خلال دور الحضارة الرومانية باعتبارها الحلقة الأخيرة في تطوّر العالم الغربي القديم، إذ كان عليها أن تجسّد العدمية الكونوية التي طُرحت مبادئها النظرية في الفكر اليوناني، وتحوّلها إلى واقع وفعّالية، ومن ثمّ كان اهتمامها بالمجال النظري أقل.

٨. كان الفكر السائد في روما القديمة مستلهمًا ومتأثّرًا على حد سواء بالإرث اليوناني وبالهلنستية. وفي قلب روما القديمة، ولا سيما في أواخر العهد الجمهوري وفي العصر الإمبراطوري، ظهرت منظومة أخلاقية كانت ثمرة امتزاج الإرث الأخلاقي اليوناني بعناصر من الأخلاق الغنوصية الشرقية. وقد وُلدت نواة هذا النظام الأخلاقي في سياق الهلنستية. وقد وقع اندماج مشابه في بعض القضايا النظرية والفكرية. وكان توسيع نطاق تأثير هذا الفكر والنظام الأخلاقي من العوامل التي دفعت الغرب القديم تدريجيًّا نحو الانقراض، ومهّدت الطريق لقبول هيمنة الثيوسانتريّة المسيحية.

٩. في الواقع، قامت روما بتوسيع وإتمام جوهر النزعة الكونوية للغرب القديم، بحيث أصبحت في العهد الإمبراطوري مهيّأةً لقبول الصورة النوعية للثيوسانتريّة في مادة الكونوية.

١٠. في روما القديمة، كانت اللغة اللاتينية هي الغالبة والمهيمنة، وقد بدأ الفكر الغربي باللغة اليونانية وفي إطارها، ثم توسّع في اللغة اللاتينية وبواسطتها، واستمرّ هذا العنصر في جزء كبير من الغرب في العصور الوسطى. وهكذا، فإنّ الأعمال والآراء والمضامين الفلسفية والأخلاقية والسياسية للفكر الروماني ذي النزعة الدنيوية، التي ظهرت وتوسّعت في اللغة اللاتينية، أصبحت، نظرًا لمركزية اللغة اللاتينية في عالم الغرب في العصور الوسطى، أكثر قابلية لأن تُتَّخذ مادةً لتشكيل الفكر الثيوسانتري المسيحي ذي الطابع اللاتيني.

١١. في روما القديمة، كان للجيش والقادة العسكريّين دور بالغ الأهمية والتأثير. وقد بدأ دور العسكريّين في السياسة والسلطة السياسية في روما بالتصاعد بعد الحرب البونيقية الأولى (في عهد الجمهورية)، ثم بلغ ذروته في أواخر الجمهورية وخلال العهد الإمبراطوري.

١٢. منذ القرن الأول الميلادي (أوائل تشكّل الإمبراطورية الرومانية)، بدأ في روما مسار الأزمة الانحطاطية. وحيث إنّ روما القديمة كانت الحلقة الأخيرة في مسار توسّع وتطوّر العالم الغربي القديم، فإن وقوعها في هذه الأزمة الانحطاطية أدّى إلى سقوط مجمل العالم الغربي اليوناني-الروماني في هذه الدوّامة المدمّرة.

١٣. كانت الجمهورية والإمبراطورية الرومانية، بدرجات متفاوتة وبأشكال وصيغ متباينة في بعض الأحيان، ذات طابع أرستقراطي-عسكري. في الأصل، كانت الحضارة الرومانية حضارة ذات نزعة حربية، ولم يكن بإمكانها الاستمرار إلا من خلال العدوان والتوسّع العسكري. وقد نشأت هذه النزعة العدوانية والتوسّعية تحديدًا من مرحلة خاصة من مراحل تطوّرها العدمي، التي كانت روما تمرّ بها.

الجمهورية الرومانية والصراع بين الباتريكيّين والبلِيبِيِّين

منذ تأسيسها، قامت الجمهورية الرومانية على نوع من العلاقات الظالمة والتنافس والصراع بين مجموعتين اجتماعيّتين. ففي روما خلال القرن السادس قبل الميلاد، وُجدت فئة اجتماعية ثرية تُعرف باسم الباتريكيّين (طبقة النبلاء الأثرياء من مالكي العبيد)، وهم الذين أسّسوا الجمهورية الرومانية. وكان يُطلق على ممثّليهم السياسيّين اسم السيناتورات. عند نشأتها، كانت الجمهورية الرومانية نوعًا من الديمقراطية الكونوية ذات الطابع الأرستقراطي القائم على العبودية، حيث كان الباتريكيون يديرونها عبر مجلس الشيوخ. في هذه الديمقراطية الرومانية، لم يكن للنساء والعبيد وسكان روما الذين لم يكونوا من أصل روماني أيّ حقّ في التصويت. وفي مواجهة الباتريكيّين (الأرستقراطية المالكة للأراضي والعبيد) كانت فئة البلِيبِيِّين.

في أوائل تأسيس الجمهورية الرومانية، كان الباتريكيون هم بقايا الأرستقراطية المنحدرة من نسل «الآباء» أو رؤساء العائلات[1]. وكان هؤلاء الرؤساء، هم الذين تولّوا زعامة القبائل والعشائر في المراحل الأخيرة من العلاقات القَبَلية في روما، وذلك قبل تأسيس الجمهورية. أما أحفاد هؤلاء الرؤساء، الذين شكّلوا عند قيام الجمهورية الرومانية طبقة اجتماعية أرستقراطية ميسورة، فقد أُطلق عليهم اسم الباتريكيّين (الأبناء). وفي مقابل الباتريكيّين، كان هناك البليبيّون.

«يختلف المؤرّخون حول أصل هذه الفئة من سكّان روما الأوائل وكيفيّة نشأتهم. ويبدو أنّ البليبيّين كانوا في الأساس يمثّلون السكّان القدامى في لاتيوم الذين خضعوا للسيطرة، وكانوا عند هزيمتهم أكثر تطوّرًا من الناحية الحضارية

1. paters

مقارنـةً بفاتحيهم، إلا أنّهم تراجعوا بعد ذلك بشـكل ملحوظ. وقد أضيفت إلى هذه العناصر الأساسية مجموعات من المهاجرين الذين قدموا من مناطق مختلفة مـن إيطاليـا... كان البليبيّون في وضع تبعيـة للطبقة الباتريكيّـة. كانوا عمومًا مزارعين صغارًا، وكان بعضهم يعمل في الحِرَف والصناعات اليدويّة أو يمارس التجارة الصغيرة. وأولئك الذيـن لم يكونوا يمتلكون مراعي أو أراضي صالحة للزراعة كانوا مضطرّين إلى اسـتئجار قطع من الأراضي العامّة التي كانت تحت سـيطرة الباتريسـيّين. وفي أوقات الجفاف أو أثناء الغارات المدمّرة والكوارث المماثلـة، كان البليبي المسـتأجر يتحوّل إلى مدين عاجز عن السـداد، وبموجب القوانين القديمة كان يتحوّل إلى عبد لدائنه»[١].

تاريـخ الجمهورية الرومانية في القرنين السـادس والخامـس قبل الميلاد هو تاريخ صراع مسـتمر بين الباتريكيّين والبليبيّين. فقد كان البليبيّون يسعون دائمًا إلى تقليل الضغط والظلم الذي يمارسـه الباتريكيّون عليهم، وإلى الحصول على مزيد من الحقوق والإمكانات. وقد شهدت الجمهورية الرومانية خلال القرون السـادس والخامس والرابع قبل الميلاد حروبًا مسـتمرّة مع جيرانها، إلى جانب النزاعات والصراعـات الداخلية. وكانت الجمهورية عند نشـأتها تتميّز بطابع ديمقراطي أرستقراطي، لكنّها اكتسبت تدريجيًّا صبغة عسكرية بارزة. وبموازاة «السـينا»، الذي كان يمثّل سـلطة الباتريكيّين، ظهر مجلس للقيادة العسـكرية (مجلس كنتورياتا)، الذي أصبح أحد محاور السـلطة. وفي الجمهورية الرومانية، كان هناك منصبان رسـميان يتوليان التنفيذ، وكان يُطلق على من يشـغل هذين المنصبين اسم «القناصل».

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٤٠.

«في بعض الأحيان، كانت أوضاع البلاد تصبح معقّدة إلى درجةٍ لا يستطيع القناصل وحدهم التعامل معها. ولذلك، كان المجلس يعيّن كل عام مسؤولين رسميّين من رتبة أدنى نسبيًّا للمساعدة في إدارة شؤون الدولة»[١].

كان مجلس الشيوخ يتكوّن من الباتريكيّين وكان خاضعًا لسيطرتهم، بينما كان البليبيّون والطبقات الفقيرة يجتمعون في «مجلس العامّة». لم يكن لهذا المجلس سلطة سنّ القوانين أو إقرارها، لكنّه كان ينتخب ممثّلًا رسميًّا سنويًّا يُعرف بـ«التريبيون»، الذي كان يتمتّع بحق النقض («فيتو») ضدّ أيّ قانون يتمّ إقراره، مما يسمح له بمنع صدوره. وقد كان حصول البليبيّين على حق تعيين التريبيون ثمرة نضال طويل، شمل الإضرابات والمواجهات القاسية والدموية. وفي عام ٣٦٦ قبل الميلاد، حصل البليبيّون على الحق في انتخاب أحد القناصل من بينهم. ثم في عام ٢٨٧ قبل الميلاد، حصل مجلس البليبيّين على حق التشريع. وعلى الرغم من أنه خلال العقود والقرون اللاحقة، مُنحت بعض الامتيازات والحقوق للبليبيّين، فإنّ الجمهورية الرومانية بقيت في جوهرها نظامًا ديمقراطيًا قائمًا على العبودية، ذا طابع أرستقراطي-عسكري. وفي الواقع، ظلّ التحالف بين الباتريسيّين والعسكريّين هو المسيطر على الجمهورية الرومانية.

الحروب المتعدّدة للسيطرة على كامل إيطاليا

خاضت الجمهورية الرومانية العديدَ من الحروب بين منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ومنتصف القرن الثالث قبل الميلاد، وكان الهدف من هذه الحروب إخضاع الشعوب اللاتينية الأخرى المقيمة في إيطاليا والسيطرة الكاملة على هذه الأراضي. فقد خاض الرومان معارك مع بقايا الأتروسكيّين في الشمال، وكذلك مع

١. ناردو، جمهوري روم، ٣٤.

قبائل السابينيّين، الأكويّين، والفولسكيّين. وفي بداية القرن الرابع قبل الميلاد، هاجم الغاليّون روما. كان الغاليّون من القبائل الجرمانية التي استوطنت وسط أوروبا، وقد اجتازت جبال الألب لمهاجمة إيطاليا. تمكّنوا من هزيمة الرومان، وأحرقوا المدينة وسيطروا عليها لفترة من الزمن، لكنّهم أُجبروا في النهاية على التراجع. عقب ذلك، استأنف الرومان غزواتهم التوسّعية نحو مختلف مناطق إيطاليا. وفي عام ٢٨٥ قبل الميلاد، بسطت الجمهورية الرومانية سيطرتها على وسط إيطاليا بالكامل، ثم توجّهت نحو المدن اليونانية في جنوب إيطاليا، فاجتاحتها ونهبتها.

وفي عام ٢٦٥ قبل الميلاد، وبعد قرون من الحروب والمجازر والغزو، أصبحت الجمهورية الرومانية القوة المسيطرة على كامل الأراضي الإيطالية، وهكذا بدأت مواجهتها مع جارتها الواقعة خلف الحدود الإيطالية: حربها مع قرطاجة.

الحربان البونيتان الأولى والثانية

في القرن الثالث قبل الميلاد، وأثناء توسّع الجمهورية الرومانية التوسّعي العدواني، اصطدمت بقوّة استعمارية أخرى تُدعى قرطاجة. كان الرومان يطلقون على القرطاجيّين اسم «البونيّين»، ولهذا السبب، أُطلق على الحروب الثلاث الكبرى التي اندلعت بين روما وقرطاجة اسم «الحروب البونية».

«كانت مدينة قرطاجة الفينيقيّة، التي تأسّست في القرن التاسع قبل الميلاد، تقع على شبه جزيرة تفصلها برزخ عن القارّة الأفريقية، وتمتّعت بموقع جغرافي استثنائي... وقد أنشأ القرطاجيّون، بفضل تجارتهم البحرية الواسعة، إمبراطورية تجارية ومستعمرات مترامية الأطراف امتدّت على طول سواحل وجزر البحر الأبيض المتوسّط الغربي. وقد كانت السلطة السياسية في قرطاجة بيد مجموعة

صغيرة من كبار مُلّاك العبيد، والتجّار الأثرياء، ومُلّاك الأراضي الكبار»[١].

لكــن قرطاجة كانت في الأســاس قوّة بحرية، حيث اعتمــد اقتصادها على التجارة البحرية، كما استندت قوّتها العسكرية إلى أسطولها البحري. ومع اندلاع الحروب البونية، كانــت قرطاجة تعاني من أزمة تدهور وانحطاط، وهو ما كان السبب الرئيسي في هزيمتها خلال هذه الحروب.

كان الرومان يعتمدون بشــكل أســاسي على القوّات البرّية. فقد كان مشــاة الجيش الروماني يُقسَّمون إلى وحدات تتراوح بين أربعة إلى خمسة آلاف جندي، وكان يُطلق على كل وحدة منها اسم «الفيلق» (ليجيون). وكانت الفيالق نفسها تتكوّن من وحدات أصغر مكوّنة من مئة جندي، تُعرف باسم «الكِنتوريا»، وكان يقودها ضبّاط يُدعون «كنتوريّين».

اندلعت الحرب البونية الأولى عام ٢٦٤ قبل الميلاد واستمرّت حتى عام ٢٤١ قبل الميلاد. وقد انتهت هذه الحرب بانتصار روما على قرطاجة. وفي أعقاب هذا الانتصار، شهد اقتصاد الجمهورية الرومانية انتعاشًا جديدًا، كما ازدادت مكانة الجيش ونفوذه داخل بنية السلطة.

أما الحرب البونية الثانية، فقد بدأت عام ٢١٨ قبل الميلاد واستمرّت حتى عام ٢٠١ قبل الميلاد، وانتهت أيضًا بانتصار روما. وبفضل هذا الانتصار، أصبحت روما القوّة المهيمنة على الغرب ووسط منطقة البحر الأبيض المتوسط، واتّسعت حدود الإمبراطورية الرومانية لتشــمل كامل إيطاليــا، وجزر صقلية وسردينيا وكورســيكا، وكامل شــبه الجزيرة الإيبيرية، وإيليريا. وكما عبّر دان ناردو، فقد أصبح البحر الأبيض المتوسط «بحيرة رومانية»[٢].

---

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٧٥ - ٧٦.

٢. ناردو، جمهوري روم، ٦١.

الحرب مع مقدونيا واحتلال اليونان والحرب البونية الثالثة

كانت الجمهورية الرومانية ديمقراطية توسّعية عدوانية وإمبريالية، وكان توجّهها قائمًا على السيطرة والهيمنة. وكانت الحربان البونيّتان الأولى والثانية حروبًا إمبريالية أيضًا، وذلك وفق المفهوم غير الرأسمالي للإمبريالية في العصور ما قبل الحديثة. وضمن استمرارية نهجها الاستعماري والتوسّعي، دخلت روما في عام ٢٠٠ قبل الميلاد في صراع مع المملكة المقدونية. في ذلك الوقت، كانت مقدونيا تسيطر على الأراضي اليونانية وجزر بحر إيجه وأجزاء من آسيا الصغرى. وكان حكّام مقدونيا ينحدرون من نسل الإسكندر الأكبر. أما في الشرق، فقد كان الملوك السلوقيّون يحكمون سوريا وفلسطين وبعض المناطق المجاورة، بينما كانت مصر تحت سيطرة البطالمة. وكانت هذه الأنظمة الشرقية في حالة تنافس وصراع دائم، وهو ما أضعفها وجعلها أكثر عرضة للتهديدات الخارجية.

في عام ١٩٧ قبل الميلاد، وبعد ثلاث سنوات من الحرب، هزمت الجمهورية الرومانية مقدونيا وحوّلتها إلى ولاية خاضعة تدفع الجزية لروما. وفي عام ١٩٠ قبل الميلاد، تمكّن الرومان من هزيمة أنطيوخوس، ملك الدولة السلوقية، واستولوا على أجزاء من مملكته، التي كانت تقع بشكل أساسي في آسيا الصغرى، وحوّلوها إلى ولايات خاضعة تدفع الجزية لروما. وفي عام ١٦٧ قبل الميلاد، أصبحت مصر أيضًا ولاية تدفع الجزية للجمهورية الرومانية. ثم في عام ١٤٦ قبل الميلاد، تعرّضت اليونان لهجوم الجيش الروماني، الذي اجتاح مدينة كورنثوس وارتكب فيها مذبحة كبرى، حيث قتل معظم سكانها. وباحتلال كافّة الأراضي اليونانية، فرضت روما سيطرتها الكاملة على البلاد. رافقت هذه الانتصارات العسكرية عمليّات نهب واسعة وغنائم هائلة، مما زاد من ثراء

الباتريكيّين والتجّار والعسكريّين الرومان، وأدّى إلى تفاقم الفجوة بين الأغنياء والفقراء داخل الجمهورية الرومانية. وقد أدّت هذه التحوّلات إلى إفلاس العديد من صغار المزارعين الذين لم يتمكّنوا من منافسة أصحاب الأراضي والمزارع الكبرى، مما دفعهم إلى الجوع والتشرّد.

بدأت الحرب البونية الثالثة عام ١٤٨ قبل الميلاد واستمرّت لمدّة عامين، وانتهت بتدمير قرطاجة بالكامل.

«في عام ١٤٦ قبل الميلاد، وهو العام نفسه الذي دمرت فيه روما كورنثوس، صدر الأمر إلى سكيبيو إيميليانوس، القائد العسكري للجيش الروماني في الحرب البونية الثالثة، بمحو قرطاجة من الوجود. قتل الرومان معظم سكان المدينة، واستعبدوا من تبقى منهم، ثم أضرموا النار فيها، وبعد ذلك دمّروا المنطقة بالكامل برشها بالملح والتراب. وقف سكيبيو وصديقه بوليبيوس فوق تلّ، يشاهدان احتراق قرطاجة»[١].

تغيير في هيكل اقتصاد روما وتفاقم الفقر وانتشار العبودية

أدّت الانتصارات العسكرية لروما والتوسّع العدواني لنطاق ممتلكاتها إلى انتشار العبودية وزيادة استغلال العبيد. في الوقت نفسه، داخل الجمهورية الرومانية نفسها، ازدادت حدّة التنافس والخلاف بين العسكريّين والباتريكيّين.

بعد الفتوحات الإمبريالية للجمهورية الرومانية، تعرّض الهيكل الاقتصادي للجمهوريّة لتغيّرات جذرية. أدّى نهب الأراضي واستعباد أعداد هائلة من سكّانها إلى ظهور اقتصاد زراعي واسع النطاق يعتمد على عمل العبيد ونهب الأراضي والشعوب المختلفة. نتيجة تراكم الثروة في أيدي مالكي العبيد والتجّار

١. م. ن، ٧٤.

والباتريكيّين والعسكريين، بدأت الزراعة الصغيرة وتربية الماشية والحرف اليدوية والتجارة الصغيرة في التدهور، وحلّ محلّها اقتصاد قائم على الغنائم الحربية وعمل العبيد، والذي أصبح المحور الرئيسي للاقتصاد.

تدريجيًّا، ظهرت في روما ظروف أدّت إلى استعباد أعداد كبيرة من الناس، بينما وقع غالبيّة السكّان في براثن الفقر والبؤس.

«انطلق الناهبون الجشعون في المجتمع الروماني ليحوّلوا جماهير سكان الأراضي المغلوبة إلى عبيد، ويجعلوهم متمركزين في إيطاليا. فأصبح العبيد المُنتِجِين الرئيسيّين، ومنذ ذلك الوقت، شهد الاعتماد على قوّة العمل العبيديّة قفزة هائلة. كان الفقهاء الرومان يحدّدون مصادر العبودية على النحو التالي: إما أن يُولد الإنسان عبدًا، أو أن يتحوّل إلى عبد. وفي الواقع، ازدادت عملية إنتاج قوّة العمل العبيدية على نطاق واسع. وكان العبيد المولودون في المنازل ذات قيمة كبيرة، إذ اعتادوا العبودية والطاعة منذ الطفولة. ومع ذلك، فإنّ الغالبية العظمى من العبيد كانوا أشخاصًا سقطوا قسرًا من حالة الحرية إلى حالة العبودية. كان أبرز هؤلاء هم المدينون العاجزون عن سداد ديونهم، الذين كانوا يُستعبَدون نتيجة عجزهم عن الوفاء بديونهم... وفي المرتبة الثانية، كان هناك الأطفال المتروكون، وهم أولئك الذين تمّ التخلّي عنهم، أو اختُطفوا، وكانوا يُعاملون بوصفهم ملكًا لمن يقدّم لهم الغذاء. وكان هذا أيضًا مصير الأحرار الذين اختطفهم القراصنة وقطّاع الطرق، حيث كانوا يؤسَرون ويباعون في أسواق النخاسة. ومع ذلك، ظلّت الحروب شبه الدائمة خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد المصدر الأساسي للعبودية، إذ أدخلت أعدادًا هائلة من الأسرى إلى الأسواق. وكان الاتّجارُ بالعبيد الشكلَ الأكثر شيوعًا والأكثر ربحًا بين مختلف

أنواع التجارة. كان تجّار البشر الرئيسيّون يسيرون خلف الفيالق الرومانية، فيما كانت المكاتب العسكرية داخل معسكرات أسرى الحرب تبيع العبيد مباشرة للأفراد. كما أنّ هؤلاء التجّار كانوا يشترون العبيد من الحدود الإمبراطورية. وقد وُجدت مراكز تجارية كبرى مخصّصة لهذا النوع من التجارة. كان الاستغلال الوحشي يقع بشكل أساسي على العبيد الزراعيين، الذين شكّلوا النسبة الأكبر من العبيد في روما. فقد أوصى «كاتون» في كتابه عن الزراعة، الذي كُتب نحو عام ١٦٠ قبل الميلاد، بأن يُجبَر العبيد على العمل المستمرّ بلا توقّف، بغضّ النظر عن الأيام والعطل. وكان يُمنح كل عبد قميصًا واحدًا في السنة، ورداءً قصيرًا كل عامين، وكانت تُجمع ملابسهم البالية والممزّقة ليُصنع منها أغطية لهم. وكانوا يتلقّون زوجًا واحدًا من الصنادل كلّ عامين. ووصلت الأوضاع إلى درجة أنّ معظم العبيد في صقلية اضطرّوا إلى الحصول على طعامهم وملابسهم من خلال السرقة وقطع الطرق. أما العبيد العاملون في مجالات الصناعة، سواء في المناجم، أو المحاجر، أو مصانع الطوب، أو معاصر الزيت، أو المطاحن، أو المخابز، أو ورش الفخّار والنسيج، فكانوا يخضعون لاستغلال أكثر وحشية. ففي بعض مطاحن الحبوب، كان يُفرض على العبيد ارتداء طوق خشبي حول أعناقهم لمنعهم من تناول حتى حفنة صغيرة من الطحين أثناء العمل. لم يكن المرضى ولا المعاقون ولا النساء يُمنحون أيّ راحة بسبب ضعفهم، بل كانوا جميعًا بلا استثناء يُجبرون على العمل تحت الضرب بالسياط حتى الإنهاك التام. وكان ضرب العبيد باللكمات، التي قد تُطيح بأسنانهم أو تفقأ أعينهم، أمرًا مألوفًا وعاديًا في المجتمع الروماني»[١].

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ١٠٧ - ١١١.

انتفاضات العبيد

أدّت الحروب المستمرّة، والضرائب الباهظة، وضغط نظام اللاتيفونديات[١] إلى تدمير صغار المنتجين تمامًا. فقد عجز عدد كبير من الفلّاحين عن منافسة ملّاك اللاتيفونديات، مما دفعهم إلى ترك قراهم والتشرّد في المدن. كما استولى كبار ملّاك الأراضي على أراضي بعض الفلّاحين بالقوة. وتحوّل بعض هؤلاء الفلّاحين المعدمين إلى «الكولون»، أي مستأجرو الأراضي من أصحابها، فيما أصبح آخرون من الحرفيّين الفقراء الذين افتتحوا ورشًا صغيرة في المدن، مثل محلّات الصباغة، ودبّاغة الصوف، والمخابز، وصناعة الأحذية. أما العدد الأكبر من الفلّاحين المعدمين، فقد لجأوا إلى روما وغيرها من المدن الكبرى في الجمهورية الرومانية، حيث عاشوا في حالة من التسوّل والتشرّد. كان الكثير من هؤلاء الجياع يتجوّلون منذ الصباح حتى المساء في الساحات العامّة (الفوروم) والممرّات بحثًا عن عمل عارض. وهكذا ظهر في روما ومدن الجمهورية الكبرى طيف واسع ممن أطلق عليهم الرومانُ اسمَ «الطبقات الوضيعة»، الذين كانوا يُعرفون أيضًا باسم «العامة الحضرية»[٢]. كان معظم أفراد العامة الحضرية محكومًا عليهم بالبطالة والموت جوعًا، ولجأ بعضهم إلى السرقة أو البغاء لكسب لقمة العيش.

أدّت الظروف القاسية التي عانى منها العبيد، والفقر المدقع الذي واجهه العامّة (البليبيّون)، والتفاوت الهائل بين الأرستقراطيّين الأثرياء المترفين والجماهير الفقيرة المعدمة، إلى دفع الجمهورية الرومانية إلى حافة الانفجار. ففي عام ١٩٨ قبل الميلاد، اندلعت أولى حركات التمرّد في المستعمرة الرومانية سيتيا في إقليم لاتيوم. وكانت هذه الانتفاضة بمثابة الحلقة الأولى في سلسلة

١. المزارع الواسعة التي كانت مملوكة للنبلاء الرومان وتعتمد على العمالة المستعبدة.

2. plebs urbana

مــن الثورات التــي اندلعت بشــكل متواصل في مناطق مختلفة مــن الجمهورية الرومانية. كانت ســيتيا موطنًا لعدد كبير من السياســيّين والمسؤولين المنهارين من النظام القرطاجي، الذين كانوا يعيشــون حياة مرفّهــة رغم أنّهم ظلّوا تحت رقابة الجمهورية الرومانية. وكان هؤلاء القرطاجيّون يملكون أعدادًا كبيرة من العبيد الأفارقة، إلى جانب عبيد آخرين جُلِبوا من مناطق مختلفة. كما كان يسكن المســتعمرة عدد من ملّاك العبيد. خطّط العبيــد للفرار من روما عبر التوجّه إلى ميناء سيرسي خلال أحد الأعياد، ومن هناك الإبحار هربًا. لكن مخطّطهم كُشف قبل التنفيذ، فتمّ إعدام عدد كبير منهم، فيما انتفض بعض العبيد في محاولة يائسة، غير أنّهم قُمعوا بوحشية وسُحق تمرّدهم بسرعة.

بعد عامــين، اندلعت ثورة للعبيد في منطقة إتروريا، حيث شــكّلوا جيشًــا واشــتَبكوا مع فيالق الجمهورية. غير أنّ العســكريّين الرومــان نجحوا في قمع الانتفاضة، إذ قتلــوا عددًا كبيرًا من العبيد، وصلبوا قادتهم، وأعادوا الباقين إلى أسيادهم. إلا أنّ هذه القمعيّات الدموية والعنيفة لم توقّف سلسلة الانتفاضات. ففي عام ١٨٥ قبل الميلاد، ثار رعاة أبوليا، وتبع ذلك سلسلة أخرى من تمرّدات العبيد التي امتدّت إلى المقاطعات الآســيوية ومنطقة أتيكا وصقلية، مما أثار قلق ورعب الساسة الرومان المالكين للعبيد[1].

وفي عــام ١٣٨ قبل الميلاد، اندلعت ثورة كبرى في صقلية، حيث قام العبيد، الذين كانوا بأعداد غفيرة، بالاحتجاج والتمرّد. واستمرّت انتفاضتهم نحو سبع سنوات. وفي سياق مجموعة الانتفاضات الاحتجاجية للعبيد، كانت ثورة عبيد صقلية الأضخم من نوعها.

في صقلية، وُجدَت منشآت زراعية كبرى كانت تُدار بعمل العبيد. وقد كان

1. Barrow, The Romans, 75, 79.

عبيد صقلية ضحايا استغلال بلغ حدًّا لم يكن له نظير حتى في عالم الغرب القديم، الذي قام أساسًا على استغلال العبيد استغلالًا قاسيًا. بدأت حركة العبيد في منطقة من صقلية قريبة من إينا، وسرعان ما امتدّت لتشمل معظم مدن الجزيرة. وقد تولّى قيادة ثورة عبيد صقلية عبدٌ من أهل سوريا يُدعى إيونوس.

وفي منطقة أغريجنتوم، اندلع تمرّد آخر بقيادة عبد يُدعى كلئون. وتمكّن العبيد الثائرون في صقلية من تأسيس دولة خاصة بهم، استمرّ حُكمها أربع سنوات كاملة. وقد كانت هذه الدولة تطمح إلى تحقيق حلمٍ يتمثّل في امتلاك العبيد أراضيَ خاصة بهم ليعملوا فيها وينتجوا بحرّية.

العيب الأساسي في هذه الانتفاضات والحركات الاحتجاجية كان طابعها المحلي والإقليمي، إذ لم تكن الانتفاضات التي اندلعت مترابطة مع غيرها من مراكز الاحتجاج، وهو ما جعلها عرضة للهزيمة. وفي عام ١٣٣ قبل الميلاد، اندلعت ثورة في منطقة برغامون، إحدى ولايات الجمهورية الرومانية في آسيا. وقد تولّى قيادة هذه الثورة عبد يُدعى أريستونيكوس، الذي وعد المتمرّدين بإقامة حياة حرّة يسودها العدل والمساواة. وأطلق على مدينته المثالية اسم «مدينة الشمس»[1].

وفي عام ١٣٢ قبل الميلاد، تمّ قمع ثورة العبيد في صقلية وثورة برغامون معًا. وانتقم ملّاك العبيد من الثائرين وسكّان تلك الأراضي بوحشية مروّعة. ومع ذلك، لم تتوقّف حركات التمرّد، إذ اندلعت ثورة جديدة للعبيد في صقلية عام ١٠٤ قبل الميلاد، واستمرّت لثلاث سنوات. وقد توسّعت هذه الانتفاضة بشكل خاص في الجزء الغربي من الجزيرة، وتولّى قيادتها شخص يُدعى أثينيون.

1. Heliopolis

وفي عام ١٠١ قبل الميلاد، تمكّنت القوات الجمهورية الرومانية من هزيمة قوات العبيد وقمع الانتفاضة. وكانت هذه المرّة أشــدّ قسوة من سابقاتها، حيث أعدم عدد كبير من العبيد صلبًا، وأُرسل الآلاف منهم إلى روما ليقاتلوا كغلاديا تورات في المدرجات، حيث أجبروا على خوض معارك مميتة بعضهم ضدّ بعض أو ضدّ الوحوش المفترســة، بينما كان آلاف المتفرّجين يشــاهدون المشــهد. ومنذ ذلك الحين، فُرض نظام من القمع والإرهاب في صقلية.

في الوقت ذاته الذي اندلعت فيه انتفاضة العبيد في صقلية، شــهدت منطقة البوسفور أيضًا تمرّدًا للعبيد. وقد كان قائد هذه الانتفاضة عبدًا يُدعى ساوماكوس. غير أنّ هذه الثورة لقيت المصير ذاته، إذ قامت جيوش الجمهورية الرومانية ذات التوجّــه الديموقراطي الكونوي بقمعها. إلا أنّ تتابــع هذه الاحتجاجات كان يــدلّ بوضوح على عمق الصراعات التي كانت تعصــف بالجمهورية الرومانية من الداخل، مما جعلها تعاني من اضطراب شديد في بنيتها الداخلية.

الإصلاحات الاقتصادية للأخوين غراكوس

كان تفاقم الفقر واتّســاع الفجوة الهائلة بين الفقراء والأغنياء في الجمهورية الرومانيــة قد بلغ حدًّا حادًّا، مما دفع بعض أعضاء الطبقة الحاكمة إلى التفكير في إجراء إصلاحات اقتصادية للحيلولة دون انهيار الجمهورية. وما جعل الوضع أكثر حسّاسية في نظر بعض الساســة الرومان هو أنّه، بالتزامن مع الانتفاضات المتوالية للعبيد في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، برزت أيضًا حركات احتجاجية بين الفلّاحين الفقراء وطبقة البليبيّين في المدن.

وفي عــام ١٣٣ قبل الميــلاد، تمّ انتخاب تيبريوس ســمبرونيوس غراكوس ليشــغل منصب التريبيون. كان تيبريوس غراكوس شــابًّا من أسرة أرستقراطية

ثريّة، وقد دفعه قلقُه على مستقبل الجمهورية الرومانية، بالإضافة إلى استيائه الشخصي من مجلس الشيوخ، إلى طرح مشروع إصلاح زراعي يهدف إلى تمليك بعض الفلّاحين الصغار أراضي زراعية، الأمر الذي أثار اضطرابًا بين الساسة الرومان. وقد أشار المؤرّخ الشهير بلوتارخوس إلى أنّ تيبريوس غراكوس كان يخشى أن يؤدّي انتشار الفقر وتفاقمه إلى خلق ظروف تُفضي إلى انهيار الجمهورية الرومانية برمّتها نتيجة احتجاجات الفقراء. ومن هذا المنطلق، طرح مشروعه الإصلاحي دفاعًا عن بقاء سلطة ملّاك العبيد وضمان استمرار النظام الجمهوري الكونوي الظالم. ويتّفق المؤرّخون الآخرون مع بلوتارخوس في أنّ غراكوس، بوصفه مخلصًا للنظام الديموقراطي الأرستقراطي الروماني، قد تقدّم بمشروعه بدافع الحفاظ على النظام الجمهوري وحماية المصالح طويلة الأمد لملاك الأراضي، ومنع تفكّك نظام العبودية. كما تؤكّد جميع المصادر والوثائق على أنّ تيبريوس غراكوس لم يكن يسعى إلى تحقيق المساواة بقدر ما كان يهدف إلى إنقاذ الجمهورية من خطر الانهيار عبر إصلاحات تضمن استمرارية النظام القائم[1].

إلا أنّ الأشراف الرومان ومجلس الشيوخ رفضوا تنفيذ الإصلاحات المقترحة، مما أدّى إلى اندلاع اضطرابات واحتجاجات وصدامات عنيفة، انتهت باغتيال تيبريوس غراكوس على يد مجموعة من الشيوخ المسلّحين. وبعد عشر سنوات، في عام ١٢٣ قبل الميلاد، انتُخب شقيقه الأصغر، غايوس غراكوس ، لمنصب التريبيون، وطرح برنامجًا إصلاحيًا أشمل من الإصلاحات الاقتصادية التي اقترحها تيبريوس، وعمل بحزم على تنفيذها. غير أنّ مساعيه، وبعد سلسلة من الصراعات، باءت بالفشل في النهاية، وقُتل غايوس غراكوس عام ١٢١ قبل الميلاد.

1. Barrow, The Romans, 168.

ماريوس والتغييرات في الجيش الروماني

كان غايوس ماريوس، الذي وُلد لعائلة من الفلّاحين، قد وصل إلى منصب التريبيون عام ١١٩ قبل الميلاد. وقد أحدث تغييرًا جذريًا في أسلوب تجنيد الجنود، حيث أعاد تنظيم الجيش الروماني على أساس جيش محترف يعتمد على جنود محترفين بدلًا من المجنّدين الموسميّين. وفي عام ١٠٤ قبل الميلاد، خاض ماريوس حربًا ضد قبائل التوتونيّين والسيمبريّين. وقد تعامل مع تلك القبائل بوحشية شديدة، حيث أباد التوتونيّين وأخضع عددًا من القبائل الأوروبية الأخرى بالقوة، واسترقّ أعدادًا كبيرة منهم.

كان ماريوس ممثّلًا للدوائر المالية والربوية والتجارية داخل الطبقة الحاكمة في روما، والتي كانت في صراع وتنافس مستمرّ مع جناح الباتريكيّين. كما حظي بدعم واسع من قِبل العديد من أفراد طبقة البليبيّين، الذين كانوا يأملون أن يتمكّن من تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. وفي عام ١٥٠ قبل الميلاد، تصاعدت حدّة التناقضات بين الفقراء والأغنياء، واندلعت احتجاجات واسعة داخل مدينة روما، اشتدّت تدريجيًا. وقد أوكله مجلس الشيوخ بمهمّة قمع هذه التحرّكات. فتعامل ماريوس مع الحركة الاحتجاجية للطبقات الفقيرة في المدن بوحشية وعنف شديد، حيث قمعها بالدماء وأخمدها بالقوة. أدّى ذلك إلى فقدانه شعبيته بين البليبيّين الحضري، مما دفعه إلى الابتعاد مؤقّتًا عن الساحة السياسية في روما. واستغلّ ذلك فرصةً للانسحاب من المشهد السياسي، حيث غادر الجمهورية الرومانية بحجّة زيارة المعابد في المقاطعات الشرقية.

الحرب الاجتماعية في إيطاليا وتمرّد الولايات الشرقية

منذ عام ٩٠ قبل الميلاد، واجهت الجمهورية الرومانية أزمة كبرى أخرى، أطلق عليها المؤرّخون الرومان القدماء اسم «الحرب الاجتماعية». وقد كانت هذه الحرب في جوهرها تمرّدًا واسع النطاق شمل جميع الولايات الإيطالية المتحالفة والخاضعة لروما، حيث سعت تلك الولايات إلى الحصول على حقوق مساوية لمواطني روما. فعلى الرغم من أنّ سكّان المناطق المختلفة في إيطاليا كانوا جزءًا من الدولة الرومانية، سواء بصفتهم حلفاء أو تحت هيمنة روما، إلا أنّهم لم يُعاملوا على قدم المساواة مع سكّان مدينة روما نفسها، ولم يتمتّعوا بحقوق المواطنة الكاملة. وكان هؤلاء الإيطاليّون غير الرومانيّين، الذين كانوا يُعَدّون بأعداد كبيرة ولكنّهم لم يكونوا من سكّان مدينة روما، يطالِبون بالحصول على الجنسية الرومانية والتمتّع بحقوق متساوية مع مواطني العاصمة. وقد اندلعت الحرب الاجتماعية نتيجةً لهذا الصراع حول المواطنة، حيث شنّ الإيطاليّون هذه الحرب بهدف انتزاع حقوقهم.

وقد كانت الحرب الاجتماعية في الواقع انتفاضة واسعة شملت مختلف أنحاء إيطاليا. وبالتزامن مع اندلاعها، شهدت الولايات الشرقية للجمهورية الرومانية بدورها سلسلة من التمرّدات، إذ أعلنت استقلالها عن السلطة الرومانية. وقد تمكّن المتمرّدون، الذين سيطروا على مناطق في آسيا الصغرى وأرمينيا والبوسفور، من إقامة دولة مستقلّة تحت قيادة ميثريدات السادس. وكانت دولة ميثريدات السادس مملكةً هلنستية، اتّخذت من بونتوس (كابادوكيا) مركزًا لحكمها.

في عام ٨٨ قبل الميلاد، تولّى أحد القادة العسكريّين، لوسيوس كورنيليوس سولا، الذي كان سابقًا نائبًا لماريوس، منصب القنصل في روما. وبعد فترة وجيزة

من تولّيه المنصب، توجّه إلى آسيا الصغرى لقمع تمرّد الولايات الشرقية ومواجهة ميثريدات السادس. بعد مغادرة سولا، استولى ماريوس على السلطة في روما، ونفّذ حملة قمع دموية ضد أنصار سولا، حيث أمر بقتل عدد كبير منهم. لكن لم يمضِ وقت طويل حتّى توفّي ماريوس، إلا أنّ أنصاره استمرّوا في السيطرة على الحكم حتى عودة سولا من آسيا الصغرى. كان سولا قائدًا عسكريًا يمثّل الباتريكيّين وأصحاب اللاتيفونديات من طبقة النبلاء داخل الطبقة الحاكمة في روما، في حين كان ماريوس يمثّل مصالح التجار والمرابين وطبقة الأثرياء الجدد في السلطة الرومانية. وقد كان هناك صراع وتنافس بين سولا وماريوس، وهو الصراع الذي استمرّ حتى بعد وفاة ماريوس، حيث انتقلت المواجهة إلى أنصارهما، لتتحوّل إلى نزاع بين أتباع ماريوس وسولا حول السيطرة على الحكم.

هيكل السلطة السياسية في الجمهورية الرومانية

كانت الجمهورية الرومانية في جوهرها نظامًا ديمقراطيًا (ديمقراطية كونوية). ومنذ عام ٥٠٩ قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، كان مركز السلطة الرئيسي في الجمهورية الرومانية متمثّلًا في مجلس الشيوخ. ورغم ظهور صراع دائم بين الباتريكيّين والتجار والصرّافين والمرابين منذ القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أنّ البنية الأساسية للجمهورية الرومانية ظلّت قائمة على حالها، بوصفها نظامًا ديموقراطيًا كونويًا أرستقراطيًا قائمًا على العبودية. غير أنّه في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، ازدادت قوّة ونفوذ المؤسّسة العسكرية بشكل كبير، مما مهّد الطريق لتحوّل الجمهورية إلى النظام الإمبراطوري.

ويصف جون كيلي طبيعة نظام الجمهورية الرومانية وبنيته السياسية على النحو التالي:

«كانت المناصب الحكومية تُمنح عبر الانتخابات، وكان المجلس التشريعي يتألّف من جميع المواطنين الذكور البالغين. كما أنّ القضاة، وخاصة قرب نهاية عهد الجمهورية، كانوا يُنتخبون سنويًا، وإن كانوا دائمًا من الطبقة الحاكمة ... في المرحلة النهائية للجمهورية الرومانية، في عهد حكم «يوليوس قيصر»، نجد أنفسنا أمام مجتمع سياسي منظّم يضع أعلى مراتب الاعتبار والسلطة في مجلس الشيوخ. كان هذا المجلس في الأصل يتألّف من كبار العائلات المعروفة (المعنى اللفظي لكلمة Senatus مشتق من الجذر Senis بمعنى «الشيخ»، أي «مجلس الشيوخ»). ورغم أنّ مجلس الشيوخ لم يكن بمثابة هيئة تشريعية بالمعنى الدقيق للكلمة، فإنّه كان يتمتّع بسلطة تقنينية شبه كاملة ... كانت السلطة التنفيذية بيد القضاة المنتخبين، الذين توزعت مراتبهم السياسية على النحو التالي: قنصلان يُنتخبان سنويًا، القاضي الأدنى من القنصل (البريتور)، رؤساء المالية المسؤولون عن الخزانة، والقضاة الأدنى مثل رؤساء البلدية، الذين كانوا يؤدّون أدوارًا مشابهة للشرطة في الشوارع والأسواق. أما العامة (البلبيّون)، فقد كان لهم موظّفوهم الخاصّون، الذين عُرفوا بـ«التريبيون» (حامي الشعب). وكان التريبيون يتمتّعون بقدرة سياسية ملحوظة على ممارسة السلطة»[1].

كانت الجمهورية الرومانية نظامًا ديمقراطيًا (ديمقراطية كونوية) صُمِّم بطريقة تتيح لـ«تحالف الأرستقراطية المالكة للعبيد والتجار الأثرياء» ممارسة سلطتهم وهيمنتهم من خلال المؤسّسات وبعض الآليّات الانتخابية. وكلّما اقتربت الجمهورية الرومانية من نهايتها، ازدادت حدّة الصراعات الداخلية والتزاحمات السياسية، وبرزت طبيعتها القائمة على العبودية بشكل أوضح.

١. كِلي، تاريخ مختصر تئورى حقوق طبيعى درغرب، ٨٦ – ٨٨.

أدّى اتّساع ممتلكات الجمهورية، الذي تحقّق عبر الحروب العسكرية المتواصلة والاعتداءات، إلى تعزيز دور العسكريّين في السياسة وبنية السلطة في الدولة الرومانية من جهة، وإلى الكشف عن عدم قدرة النموذج الجمهوري، الذي كان نظريًا متأثّرًا إلى حدّ كبير بالبوليس اليونانية، على توفير النظام والانسجام لحكم يمتدّ جغرافيًا ليشمل أجزاءً من أوروبا وإفريقيا وآسيا الصغرى من جهة أخرى. وهكذا، بدأ جناحٌ داخل الجيش الروماني، بالتعاون مع الفلاسفة والشعراء وكتّاب كوزموبوليتانيّين، وبدعم من التجّار والمرابين الأثرياء وطبقة من مالكي العبيد، في تمهيد الطريق لمرحلة جديدة في تاريخ روما: مرحلة الإمبراطورية.

وفي الفترة الممتدّة من عام ٧٠ ق.م وما بعده، أسهمت تحرّكات مجموعات من العسكريّين والأوليغارشية الرومانية في تشكيل ديكتاتوريّات عسكرية، مما كان مؤشّرًا على نهاية الجمهورية الرومانية ومقدمةً لظهور الإمبراطورية الرومانية.

الدكتاتورية العسكرية لسولا

تمكّن سولا من هزيمة خصومه عبر الحرب والقمع العسكري الشديد، كما نجح في زرع الفرقة بين القوى التي كانت تقاتل ضد الجمهورية الرومانية خلال الحرب الاجتماعية. وقد أدّت هذه الحرب إلى تغييرات واسعة في جميع أنحاء إيطاليا، حيث وسّعت نطاق المواطنة في الجمهورية الرومانية ليشمل مختلف أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية. في عام ٨٨ ق.م، صادق الجناح الموالي لـ«ماريوس» داخل الهيئة الحاكمة على مشروع يعزّز مكانتهم السياسية. إلا أنّ سولا عارض هذا القرار، فلجأ إلى الخيار العسكري ضدّ روما. قام بمحاصرة عاصمة الجمهورية، وأمر بقتل عدد من أنصار ماريوس، ثم سلّم السلطة إلى طبقة الباتريكيّين. لكن في عام ٨٧ ق.م، عاد أحد معارضي سولا، وهو «كورنيليوس سينا»، إلى السلطة.

في ذلك الوقت، كان سولا قد غادر إيطاليا لمحاربة المتمرّدين في آسيا الصغرى. حاصر سولا مدينة أثينا وتعامل مع سكّانها بأقصى درجات القسوة.

«أصرّ سولا على حصار أثينا وبيرايوس (مراكز التمرّد في اليونان) لإنهاء الثورة. وعندما انهارت أثينا جوعًا، سقطت المدينة وبدأت مجزرة رهيبة ووحشية. أصدر سولا أوامره بقتل الجميع، حتى النساء والأطفال، دون استثناء»[١].

سعيًا للعودة إلى روما في أسرع وقت ممكن، عقد سولا في عام ٨٥ ق.م اتّفاقية سلام مع ميثريدات السادس. وبموجب هذه الاتّفاقية، احتفظ ميثريدات بكامل أراضيه تحت لقب «صديق وحليف شعب روما»، مقابل دفع تعويض مالي ضئيل. أما سولا، فقد انطلق بسرعة نحو روما.

مع وصول سولا إلى إيطاليا، اندلعت حرب أهلية بين سولا وجيشه من جهة، وحكومة الجمهورية الرومانية، التي كانت آنذاك تحت سيطرة أنصار ماريوس، من جهة أخرى. بدأت الحرب الأهلية عام ٨٣ ق.م، وانتهت عام ٨٢ ق.م بانتصار سولا وهزيمة كورنيليوس سينا. انتقم سولا من معارضيه بوحشية، ليسجّل بذلك مرحلة «الرعب العظيم» في تاريخ الجمهورية الرومانية، حيث فرض نظامًا من الإرهاب في إيطاليا. يكتب بلوتارخوس:

«ملأ سولا المدينة بجثث لا تُحصى. وفي مواجهة الرومان المجتمعين الذين كانوا يرتعدون خوفًا، أعلن صراحة أنّه لا ينوي العفو عن أيّ من أعدائه حتى الموت»[٢].

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ١٦٥.
٢. م. ن، ١٦٨.

الانتفاضة الكبرى للعبيد بقيادة سبارتاكوس

بعد وفاة سولا، لم يُكتب للدكتاتورية العسكرية التي أسّسها ولا للقوانين والأحكام التي أقرّها البقاءُ طويلًا. استعاد جناح التجّار والمرابين والمحتكرين – الذين يمكن وصفهم بأوليغارشية الجمهورية الرومانية – نشاطهم مجددًا، في حين شرع الباتريكيّون والأرستقراطيّون، الذين مثّلوا ورثة النبلاء الرومان القدماء – أي أرستقراطية الجمهورية الرومانية – في تحرّكات سياسية لمواجهة خصومهم. استمرت أعمال العنف ضدّ العبيد، وبقيت طبقة البليبيّين والفلّاحون الفقراء تحت وطأة البؤس، في الوقت الذي كانت فيه مقاطعات الجمهورية تعاني من أعباء الضرائب والتعويضات المتزايدة، مما زادها فقرًا وخرابًا. أما الديمقراطية الكونوية الرومانية، التي كانت في حقيقتها دكتاتورية لمالكي العبيد، فقد استمرّت في حكمها الاستبدادي مستندةً إلى العنف والقمع.

خلال عقد واحد بعد وفاة سولا، تراجعت هيمنة الباتريكيّين إلى حد ما، وعادت بنية السلطة في الجمهورية الرومانية إلى حالتها السابقة لما قبل دكتاتورية سولا. ومع ذلك، بات من الواضح أنّ الجمهورية لم تعد تمتلك القدرة الكافية للحفاظ على نظامها القائم على الظلم، وأنّ استمرارها أصبح مرهونًا بالاعتماد على قوّة الجيش وحضور العسكريّين في الحكم. منذ ذلك الحين، بدأت الجمهورية الرومانية تدخل مرحلة جديدة، حيث أصبح القادة العسكريّون الطموحون يستولون على السلطة بحجّة الحفاظ على النظام والاستقرار. في هذا السياق، برز كل من «غنايوس بومبيوس» (بومبي) و«ليسينيوس كراسوس» كمنافسَين، سعيا، مستندين إلى الجيش والنفوذ الذي تمتّعوا به بين الجنود، إلى سدّ الفراغ الذي خلّفه موت سولا.

كان غنايوس بومبيوس (بومبي) أحد القادة العسكريّين الشباب شديدي الثراء. خدم لفترة كنائبٍ لسولا، وكان من كبار ملّاك الأراضي، يمارس الإقراض الربوي على نطاق واسع. شارك بومبي، بصفته أحد قادة جيش سولا، في الحرب ضد ماريوس، مما أكسبه شهرة واسعة بين العسكريّين والجنود.

أما ليسينيوس كراسوس، الذي كان يكبر بومبي بستّة أعوام، فقد كان أرستقراطيًا من أنصار سولا، وهو الآخر كان من الأثرياء الكبار، حيث امتلك مساحات شاسعة من الأراضي ومعادن فضة كثيرة. كان كراسوس معروفًا بجشعه في الاستحواذ على الأراضي والعقارات الثمينة، حيث كان يشتريها بأسعار زهيدة مستغلًّا أساليب التهديد والقوّة. وعندما قام سولا بنفي عدد كبير من الأشخاص ومصادرة ممتلكاتهم، أصبح كراسوس مالكًا للعديد من المنازل والأراضي المصادرة. كما امتلك مساحات زراعيّة شاسعة كان يعمل فيها الفلّاحون، بالإضافة إلى عدد كبير من العبيد. كان من ممارساته المعروفة أنه، بمجرد اندلاع حريق في أحد المباني، كان يسارع إلى موقع الحادث، مستغلًا ذعر المالك، ليشتري العقار الفاخر بسعر بخس، ثم يعيد ترميمه بواسطة عبيده.

في عام ٧٧ ق.م، تمكّن عدد من معارضي سولا الذين نجوا من قبضته من تأسيس دولة إيبيرية-رومانية في منطقة إيبيريا (إسبانيا). كان زعيم هذه الدولة أحد رفاق كورنيليوس سينا، ويدعى كوينتوس سيرتوريوس. رأت روما في استقلال إيبيريا وإقامة حكومة بقيادة سيرتوريوس تهديدًا لمصالحها، فأرسلت بومبي لمحاربته. وبعد سنوات من القتال العنيف، تمكّن بومبي بصعوبة من قمع تمرّد سيرتوريوس. ثم عاد إلى روما عام ٧١ ق.م بعد إخماد الثورة في إيبيريا. وخلال فترة غياب بومبي عن روما، تعاظم نفوذ كراسوس داخل إيطاليا وبين

صفوف الهيئة الحاكمة للجمهورية الرومانية، مما منحه قوّة سياسية كبيرة.

وفي عام ٧٣ ق.م، اندلعت أكبر انتفاضة للعبيد في تاريخ العالم القديم، بقيادة العبد سبارتاكوس، وانتشرت في جميع أنحاء إيطاليا. كان سبارتاكوس عبدًا من أصل تراقي، وقد بدأت الثورة في مدرسة تدريب المصارعين في كابوا (حوالي ١٦٠ كيلومترًا جنوب روما). وسرعان ما اتّسع نطاق التمرّد بشكل هائل، ليصبح انتفاضة عامّة وأكبر ثورة للعبيد في تاريخ الغرب القديم. بدأت انتفاضة العبيد بقيادة سبارتاكوس عام ٧٣ ق.م، واستمرّت حتى عام ٧١ ق.م.

إيطاليا، نتيجةً للحروب الاستعمارية والتوسّعية وحملات سولا وبومبي، كانت تعجّ بالعبيد أكثر من أيّ وقت مضى، وهم ينتمون إلى أراضٍ وشعوب مختلفة، ويعيشون في ظروف شديدة القسوة والمأساوية. وعندما اندلعت ثورة سبارتاكوس، انضمّ إليها العديد من الفلّاحين الفقراء، مما أدّى إلى نشوء حركة ثورية كبرى للعبيد ضدّ الديمقراطية العبودية للجمهورية الرومانية. وقد أوكلت السلطة الحاكمة في روما إلى كراسوس مهمّة قمع الثورة. وفي عام ٧١ قبل الميلاد، وفي الأشهر الأخيرة من الحركة الثورية التي قادها سبارتاكوس، تولّى بومبي، الذي كان قد عاد من أيبيريا، جزءًا من عملية القمع.

انتهت ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس في عام ٧١ قبل الميلاد بالقضاء التامّ عليها من قِبل الجمهورية الديمقراطية الرومانية. غير أنّ هذه الثورة أدّت إلى تعاظم دور القادة العسكريّين في بنية الجمهورية الرومانية، ممّا منح بومبي وكراسوس دورًا محوريًا في إدارة الحكم. وقد أحدث بومبي وكراسوس تغييرات في هيكل السلطة السياسية، حيث قلّصا من نفوذ مجلس الشيوخ، وقضيا تمامًا على الإرث السياسي الذي خلّفه سولا.

في عـام ٦٧ قبل الميلاد، خاض بومبي حربًا ضـد القراصنة في منطقة البحر الأبيض المتوسـط، وأدّى انتصاره في هذه الحرب إلى جعله شـخصية محبوبة في روما. كما كُلّف بمهمّة التوجّه إلى آسيا الصغرى لقمع ميثريدات السادس، الذي كان قد تمرّد مجددًا. تمكّن بومبي من هزيمة ميثريدات، مما دفع الأخير إلى الانتحار عام ٦٣ قبل الميلاد. وقد أدّت حملة بومبي في آسيا الصغرى وأرمينيا إلى إخضاع الشرق الهلنسـتي لسلطة الجمهورية الرومانية، باسـتثناء مصر. وهكذا، اكتمل التوسّع الاسـتعماري الروماني في الشرق الهلنستي، الذي بدأ بعد انتهاء الحرب البونيقية الثانية.

في غضون ذلك، ظهر قائد عسـكري آخر على السـاحة السياسية في روما، وهو يوليوس قيصر، الذي بدأ يكتسـب نفوذًا ومكانة مرموقة. كان قيصر قائدًا عسكريًا سعى إلى تصوير نفسه كمدافع عن العوام والفلّاحين الفقراء، مما أكسبه شعبية واسعة. كما كان من القادة الذين شاركوا في الحرب في أيبيريا، حيث حقّق شـهرة كبيرة. وفي عام ٦٠ قبل الميلاد، كان هناك ثلاثة قادة عسكريّين يتطلّعون إلى السيطرة على السلطة في الجمهورية الرومانية: بومبي، وكراسوس، وقيصر.

الحلف الثلاثي الأول

أُنشـئت أول تحالـف ثلاثـي للحكـم، الـذي عُـرف باللاتينيـة باسـم «التريومفيراتـوس» في عـام ٦٠ قبل الميـلاد. وبعد عام واحـد، اختار أعضاء التريومفيراتـوس يوليوس قيصر لمنصب القنصـل. وكان كلّ واحد من الحكّام الثلاثة يسعى إلى إقصاء الآخرين ليصبح الحاكم الأوحد للجمهورية الرومانية. وقد أدّى تشكيل هذا التريومفيراتوس إلى حالة من التفكّك وعدم الاستقرار في الجمهورية الرومانية، ممّا مهّد الطريق لنشوب حرب أهلية في روما.

كان يوليـوس قيصر، الذي راوده الطمـوح لإقصاء شركائه وإقامة نوع من الديكتاتورية العسـكرية، يسـعى إلى توسـيع نفوذه في الجيش الروماني وزيادة موارده المالية. واسـتغلّ نفـوذه وعلاقاته ليحصل على منصـب الوالي في إقليم الغال، فانطلـق إلى جنوب بلاد الغال بهدف إخضاعها. أراد قيصر أن يسـتغلّ ذريعة تأسـيس ولاية غالية لإنشاء جيش منظّم يدين له بالولاء، بحيث يتمكّن من خلال هزيمة الغاليّين من تعزيز مصادره وإمكاناته، فضلًا عن زيادة شعبيّته في إيطاليا.

في عام ٥٨ قبل الميلاد، استولى يوليوس قيصر على أراضٍ تقع في شمال فرنسا وبلجيكا الحالية، ثم وسّع سيطرته بعد هزيمته لقبائل البلج، حيث أخضع أجزاء واسعة من بلاد الغال (٥٧ قبل الميلاد). وفي عام ٥٥ قبل الميلاد، عبر قيصر المضيق الذي يُعرف اليوم باسـم القناة الإنجليزية (المانش) وشنّ هجومًا على بريطانيا. وفي عام ٥٢ قبل الميلاد، انتصر قيصر على القبائل الغالية الثائرة في «أليسـيا». في غضون ذلك، لقي كراسـوس، أحد أعضاء الحكم الثلاثي، حتفه في حربه ضد الإيرانيون الفرثيون عام ٥٣ قبل الميلاد، مما أدّى إلى انهيار التريومفيراتوس فعليًّا. تولّى بومبي، الذي بقي في روما، إدارة شـؤون الحكم. وفي عام ٥٠ قبل الميلاد، اندلعت اضطرابات في روما، وأظهر بومبي ضعفًا وتردّدًا في مواجهة الحركات الاحتجاجيـة. وقد أدّت نجاحات قيصر ووفاة كراسـوس إلى تصاعد التنافس والعـداء بين قيصر وبومبي. وفي عام ٤٩ قبل الميـلاد، طلبت حكومة روما من قيصر حلّ قوّاته العسكرية (الفيالق الرومانية)، لكنّه رفض الانصياع لهذا الأمر. وبدعـم من مجلس الشـيوخ، مُنح بومبي لقـب «حامي الدولـة»، بينما وُصف يوليوس قيصر بأنّه «عدو الشعب الروماني». وبدأ بومبي بتجميع قوّاته لمواجهة

جيـش قيصر، لكنّ الأخـير لم ينتظر تحرّك قوّات بومبي، فعـبر نهر الروبيكون، الذي كان الحد الفاصل بين إيطاليا وبلاد الغال، متوجّهًا إلى إيطاليا. ولم تبدِ مدن شمال إيطاليا مقاومة تُذكر أمام قوّات قيصر. وهكذا، اندلعت الحرب الأهلية في العقود الأخيرة من عمر الجمهورية الرومانية.

ديكتاتورية يوليوس قيصر العسكرية

لم يستطع بومبي مقاومة هجوم قوّات أنصار قيصر، ففرّ أمام فيالق يوليوس قيصر. عبر بومبـي البحر الأدرياتيكي إلى اليونان بغية إعـداد قوّاته وتجهيزها. اسـتولى قيصر بسـهولة على روما. وفي عام ٤٨ قبل الميـلاد، طارد بومبي وعبر البحر الأدرياتيكي، حيث هزمه بالقرب من «فارسالوس» (منطقة تقع في وسط اليونان). فرّ بومبي إلى مصر، وكان على عرشها آنذاك فتى من الأسرة البطلمية، وهو حفيد أحد قادة جيش الإسكندر، يُدعى «بطلميوس الثالث عشر». وعندما اقترب بومبيوس من السـواحل المصرية، قُتل بأمر من بطلميوس الثالث عشر، الذي قطع رأسه وأرسله إلى قيصر إرضاءً له.

انتهـت الحرب الأهلية في عـام ٤٥ قبل الميلاد، وذلك بعـد أن ألحق قيصر الهزيمة بقوّات أنصار بومبي، وكذلك بقـوّات أبنائه، في معركتين مختلفتين على السـاحل الشرقي للولاية الرومانية في إفريقيا وفي موندا. وعقب هذا الانتصار، أصبح يوليوس قيصر الحاكم العسكري الديكتاتوري للجمهورية الرومانية.

يرى بلوتارخـوس أنّ تشـكيل التريومفـيرات الأول كان بمثابة «انقلاب حقيقي للإطاحة بالجناح الأرسـتقراطي»[١]. وقد تسـارع مسار إضعاف الجناح الأرسـتقراطي للجمهورية الرومانية على يد العسـكريّين مع وصول يوليوس

١. م. ن، ٢٠٠.

قيصر إلى السلطة. خلال فترة التريومفيرات وما بعدها، لم يُعر قيصر مجلس الشيوخ اهتمامًا يُذكر، إذ سعى إلى تعزيز موقعه عبر استمالة عامّة سكّان المدن وجزء من سكّان الأرياف، إلى جانب المناورة بين مجلس الشيوخ والطبقات الدنيا في المدن. كان قيصر بارعًا في إجراء المناورات السياسية والتنقّل بين مختلف الطبقات الاقتصادية-المدنية. وهذا النهج السياسي الذي اتّبعه دفع الأرستقراطيّين إلى التقرّب أكثر من بومبي. وعندما أصبح قيصر ديكتاتورًا مطلقًا للجمهورية الرومانية، استمرّ في اتّباع الأسلوب ذاته، متحرّكًا بين مختلف المجموعات الاقتصادية - المدنية، ممّا جعله يسير نحو نوع من الحكم الشبيه بالملكية، رغم أنّ اغتياله في عام ٤٤ قبل الميلاد أوقف هذا المسار. في الواقع، تمكّن قيصر من فرض ديكتاتوريّته العسكرية في سياق اختلال ميزان القوى السياسية-الاقتصادية للجمهورية الرومانية، حيث نشأ نوع من التوازن السلبي بين العبيد الذين تعرّضوا للقمع الشديد من جهة، وبين مجلس الشيوخ والأرستقراطيّين الذين كانوا في حالة ضعف وانحسار من جهة أخرى. وقد نجح في ذلك عبر المناورة بين الطبقات والمجموعات الاقتصادية-السياسية، مما أتاح له ترسيخ سلطته المطلقة.

كان مسار توسّع الجمهورية الرومانية وتطوّرها، منذ النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد فصاعدًا، يسير في اتّجاه أوقع النموذج الجمهوري الديمقراطي القائم على العبودية والكونوية في أزمة وانسداد. وبحلول أواخر القرن الأول قبل الميلاد، وصلت روما إلى نقطة تستلزم استبدال نموذجها السياسي المستوحى من المدن-الدول الكونوية بنوع من الكوزموبوليتانية الكونوية. وفي الوقت ذاته، أدّى تفاقم التناقضات الداخلية للحضارة الرومانية، والتفاوت الحادّ بين الفقراء

والأثريـاء، وانغماس الأرسـتقراطيّين في ترف منحطّ، فضـلًا عن عجز الجناح الأوليغارشي عن فرض النظام الذي تحتاجه روما لضمان اسـتمرارها، إلى تهيئة السـاحة للقادة العسـكريّين الطموحين. في الواقع، كان تعمّق الأزمة الداخلية للحضارة الرومانية قد أوصل الجمهورية إلى نقطة لم يعد فيها استمرارها ممكنًا إلا من خلال تغيير بنيتها السياسية والتحرّك نحو نوع من الديكتاتورية العسكرية. وجاء ظهور ديكتاتوريّين عسكريّين مثل سـولا، وبومبيوس، وقيصر استجابةً لهذه الحاجة والضرورة. وفيما يتعلّق بالأزمة التي شـهدتها الجمهورية الرومانية خلال قرنها الأخير، لا بد من الإشـارة إلى مسألة شديدة الأهمية، وهي أنّ هذه الأزمـة لم تكن مقتصرة على الجمهورية وحدها، بل كانت تحمل في طيّاتها دلائل وعناصر تشـير إلى اقتراب الحضارة الرومانية، بل والعالم الغربي القديم بأسره، من مرحلة الأزمة الانحطاطية والمسار نحو التدهور والزوال.

قُتـل يوليوس قيصر في الخامس عشر مـن مارس عام ٤٤ قبل الميلاد على يد مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأرستقراطيّين الذين عارضوا تحوّل روما من الجمهورية إلى نوع من «الملكية». وقد كان تحرّك بروتوس، وغايوس كاسـيوس لونجينـوس، وغيرهما من المتآمرين في اغتيـال يوليوس قيصر المحاولة الأخيرة لأنصار الأرستقراطية للحفاظ على الجمهورية الأرستقراطية الرومانية.

الحلف الثلاثي الثاني

بعـد مقتل قيصر، غرقت روما في حالة مـن الاضطراب وانعدام الأمن. فرّ المتآمـرون من المدينة خوفًا من ردّ فعل سـكّان روما. أما ماركوس أنطونيوس، أحد أقرب أصدقاء قيصر، والذي كان قد وصل إلى منصب القنصلية في عام ٤٤ قبل الميلاد، فقد أصبح الحاكم الفعلي للجمهورية.

«لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر على الساحة منافس شاب وخطير. كان هذا المنافس أوكتافيان، الابن المتبنَّى لقيصر، والذي لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره. في البداية، أساء ماركوس أنطونيوس معاملته، لكن أوكتافيان ردّ عليه من خلال تحالف مؤقت مع مجلس الشيوخ. وهكذا بدأت المرحلة الأخيرة من الحرب الأهلية. كلّف مجلس الشيوخ أوكتافيان بمحاربة ماركوس أنطونيوس. وبينما كان المجلس يستعدّ للاحتفال بنصره المرتقب، خانهم أوكتافيان وتحالف مع ماركوس أنطونيوس وأحد كبار أنصار قيصر، ليبدوس، ليشكّل الحلف الثلاثي الثاني. على عكس الحلف الثلاثي الأول، حظي هذا التحالف باعتراف «مجمع الشعب». وأقام الحكّام الثلاثة نوعًا من حكم الرعب الذي لم يكن له مثيل من قبل. وفي هذه الأثناء، كان زعماء المؤامرة السابقة ضد يوليوس قيصر، بروتوس وكاسيوس، قد جهّزوا جيشًا قويًا في منطقة البلقان. سار الحكّام الثلاثة لمواجهتهم، واصطدمت جيوش الطرفين عام ٤٢ قبل الميلاد بالقرب من فيليبي في مقدونيا. في هذه المعركة، التي شكّلت الهزيمة النهائية لأنصار الجمهورية القائمة على مجلس الشيوخ القديم، قُتل كلٌ مِن بروتوس وكاسيوس.

كانت هزيمة بروتوس وأنصار مجلس الشيوخ في معركة فيليبي تعني نهاية الجمهورية الرومانية وترسيخ النموذج القيصري في الحكم. وبعد فترة وجيزة من هذه المعركة، تصاعدت الخلافات بين أعضاء الحلف الثلاثي الثاني، حيث تمّ إقصاء ليبدوس فعليًّا، إذ لم يكن يمتلك قوّة عسكرية كافية لخوض الحرب. أما ماركوس أنطونيوس، فقد توجّه إلى مصر بهدف استعادة قوّته والاستفادة من الإمكانات العسكرية للدولة البطلمية الهلنستية. وهناك، دخل في علاقة غرامية مع كليوباترا، ملكة مصر. وهب أنطونيوس جميع الأراضي الشرقية التابعة

لروما إلى أبناء كليوباترا، وهو تصرّف أثار استياءًا واسعًا ومعارضة شديدة في روما. وعلى إثر ذلك، أعلنت الدولة الرومانية الحرب رسميًّا على أنطونيوس وكليوباترا، وسار الجيش الروماني باتّجاه مصر. وفي خريف عام ٣١ قبل الميلاد، مُني الأسطول البحري المصري بهزيمة ساحقة في معركة أكتيوم. وسرعان ما تبعتها دخول قوات أوكتافيان إلى ميناء الإسكندرية في مصر. عندئذٍ، انتحر كل من أنطونيوس وكليوباترا، لتنتهي بذلك آخر دولة هلنستية، وتتحوّل مصر إلى إحدى الولايات الخاضعة لروما. مع انتصار أوكتافيان في حرب مصر، وضعت الحرب الأهلية، التي اندلعت بسبب النزاعات داخل التريومفيرات الثاني، أوزارها، وأصبح أوكتافيان الحاكم الأوحد لروما. وفي الثالث عشر من يناير عام ٢٧ قبل الميلاد، مُنح لقب أوغسطس، الذي يعني في اللغة «المبارك». ومنذ ذلك الحين، بدأ أوغسطس قيصر حكمه كأوّل إمبراطور لروما، لتنتهي بذلك الجمهورية الرومانية، ويبدأ عهد الإمبراطورية الرومانية.

٣. الإمبراطورية الرومانية ونهاية الغرب القديم

منذ عام ٢٧ قبل الميلاد، دخلت روما فعليًّا في مرحلة الإمبراطورية. ورغم أنّ أوغسطس سعى إلى إظهار أنّ حكمَه امتداد للنظام الجمهوري، إلا أنّ وصوله إلى السلطة في ذلك العام دشّن مرحلة جديدة في تاريخ روما القديمة، وهي المرحلة التي أطلق عليها المؤرّخون في القرون اللاحقة اسم الإمبراطورية الرومانية. في إطار هذا النظام الإمبراطوري، شهدت بنية السلطة تغييرات جوهرية، حيث تراجع نفوذ مجلس الشيوخ بشكل كبير، في مقابل تعاظم سلطة الحاكم وتعزيز دور الجيش.

كان أوكتافيان يصف نفسه بأنه «الأول بين المتساوين»، وهو ما يُعبَّر عنه في اللاتينية بمصطلح «برينسيبات»، الذي يعني «الأول في جمع المتساوين»، ومن هنا أُطلق على نظام حكمه اسم «البرينسيبات».

«تميّز أوكتافيانوس بحذر شديد وبساطة في أسلوب حياته، وكان يعتبر نفسه «الأول بين المتساوين» لأنّ اسمه كان الأول في قائمة أعضاء مجلس الشيوخ. وقد أُطلق اسم البرينسيبات على النظام السياسي الذي تأسس في عهد أوغسطس قيصر، واستمرّ طوال الحقبة الأولى من الإمبراطورية الرومانية. ويُمكن اعتبار البرينسيبات نظامًا ملكيًا بواجهة جمهورية، حيث احتفظ ببعض المظاهر الجمهورية، لكنّه في جوهره كان حكمًا فرديًا مركزيًا. ظلّ مجلس الشيوخ والمناصب الحكومية قائمة شكليًّا، بينما اتّخذ أوكتافيان لقب «أبو الوطن» تكريمًا له. ومن هنا يتّضح أنّ إعادة بناء الدولة الجمهورية كانت أمرًا صوريًا تمامًا، إذ تركّزت جميع شؤون الدولة في يد شخص واحد. بالإضافة إلى ذلك، تولّى أوغسطس قيصر منصبَ القائد الأعلى للقوّات المسلّحة، وأُضيف لقب «إمبراطور» إلى قائمة ألقابه الرسمية. ومع مرور الزمن، تراجع دور مجمع الشعب وفقد أهمّيّته تدريجيًّا خلال فترة حكمه. ويمكن تلخيص سياسة أوغسطس تجاه العامّة (البليبيّين) في عبارة «الخبز والسيرك» ... كان مُلّاك الأراضي الكبار في روما وإيطاليا، إلى جانب الجيش الروماني، هم الداعمون الأساسيّون لأوغسطس. ومن أجل ترسيخ نظام العبودية، أصدر مجموعة من القوانين، من بينها قانون يقضي بإعدام جميع عبيدِ أيِّ سيدٍ يتعرض للقتل. كما قلّص أعداد العبيد الذين يمكن تحريرهم، ومنع قبولهم في الطبقات العليا للمجتمع... حكم أوغسطس قيصر الإمبراطورية الرومانية لمدّة ٤٥ عامًا بسلطة مطلقة، وأرسى مبدأ توريث الحكم الإمبراطوري. وعند وفاته عام ١٤ ميلادية، خلفه تيبيريوس، ابنه بالتبنّي، ليكون الإمبراطور الجديد لروما»[١].

١. م. ن، ١٢٤ - ٢٥.

كان حكم أوغسطس نوعًا من الاستبداد العسكري، لكنّه حرص على الحفاظ على المظاهر الجمهورية المتبقّية من الإرث السياسي للجمهورية الرومانية، محاولًا الإيحاء بأنّ بنية السلطة السياسية لم تتغيّر. غير أنّ الواقع يُظهر أنّ النظام السياسي في روما قد شهد بالفعل تحوّلًا جذريًا خلال أواخر القرن الأول قبل الميلاد وما بعده. فمع التراجع الحادّ في نفوذ مجلس الشيوخ، وتقلّص دور المؤسّسات التي كانت تمثّل مصالح العامة (البليبيّين)، ازداد سلطان الجيش وتعاظمت سلطة الإمبراطور. في الحقيقة، تخلّت الحضارة الرومانية عن النموذج المستوحى من «المدينة-الدولة» واتّجهت نحو نوع من الكوزموبوليتانيّة. وقد فرض الامتدادُ الواسع للسيطرة الرومانية، التي شملت شعوبًا وأعراقًا تتحدّث لغات مختلفة، على رجال الدولة الرومان ضرورةَ إعادة هيكلة وتنظيم الحكم. وقد تجلّى أحد أوجه هذه التحوّلات في إعادة تشكيل ميزان القوى السياسية داخل الدولة، مما أدّى إلى إعادة توزيع السلطة لصالح الإمبراطور والجيش، على حساب المؤسّسات الجمهورية التقليدية.

إنّ اتّساع نطاق ممتلكات روما قد بلغ حدًّا كبيرًا، وأصبحت الشعوب الخاضعة لسلطتها تتميّز بتنوّع واختلاف واسع. وفي الوقت ذاته، اشتدّت التناقضات والصراعات الداخلية في روما القديمة إلى درجة أصبح معها الحفاظ على كيان الإمبراطورية يتطلّب اللجوء إلى القبضة الحديديّة أكثر من أيّ وقت مضى. ولعلّه يمكن الجزم بأنّ روما القديمة قد دخلت، منذ القرن الأول الميلادي، في مرحلة أزمتها الانحطاطية. وبما أنّ روما كانت الحلقة الأخيرة في سلسلة تجلّيات العالم الغربي القديم، فإنّ دخولها في طور الأزمة الانحطاطية قد أدخل العالم الغربي القديم بأسره في مرحلة أزمته الانحطاطيّة المدمّرة.

«أوكتافيان كان يسعى إلى ترسيخ الديكتاتورية العسكرية ونظام ملّاك العبيد، مع الحرص على الإبقاء على مظاهر الجمهورية. كان هذا النظام قائمًا على وحدة جميع فئات الملّاك وأصحاب العبيد، بينما لم يكن للعنصر العسكري سوى دور تابع، حيث كان يتلقى أجورًا مناسبة ويُستخدم فقط لحماية الطبقات الحاكمة وتوسيع مصالحها. وقد أحكم أوكتافيان سيطرته على كل شؤون إدارة الجيش، متدخّلًا حتى في أدقّ التفاصيل، بما في ذلك تعيين القادة المئويّين. وكان يؤكّد في كل مناسبة على لقبه كقائد أعلى[1]، وهو اللقب الذي جعله خاصًا به، كما فعل قيصر من قبله. اتّبع أوكتافيان سياسة التقرّب المنتظمة والشاملة من الطبقات العليا في مجتمع ملّاك العبيد، واستطاع ترتيب تسوية، وصفها سينيكا عن حقّ بأنّها كانت «إخفاء الحاكم نفسه تحت ستار الجمهورية». وقد أطلق هذا النظام الاجتماعي، الذي لم يكن في جوهره سوى حكم فردي مقنع، على نفسه اسم البرينسيبات[2]، وهو الاسم الذي كان مقبولًا حتى لدى الجمهوريّين ظاهريًا. وفي هذا النظام، أُسندت السلطة العليا إلى برينسيبس[3]... يُعد الثالث عشر من يناير عام ٢٧ ق.م. بداية عهد البرينسيبات. وفي عام ١٩ م، حصل أوكتافيان على لقب «القنصل الدائم». وقد مُنح الحقّ في استدعاء مجلس الشعب، والإشراف على الانتخابات، وتقديم مشاريع القوانين التي يراها ضرورية إلى مجلس الشيوخ، وغير ذلك. كما أصبحت سلطته وحق الفيتو الذي يتمتّع به تجاه مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية غير قابلَين للمساس ومكفولَين قانونيًا. أما سياسته الخارجية، فلم تكن سوى استمرار لسياسة روما التوسّعية التقليدية.

1. Imperator
2. Principat
3. Princeps

فقد اكتمل إخضاع إسبانيا وكل بلاد الغال في عهده»[١].

في عهد الإمبراطور أوغسطس، برز شخصيّتان أدبيّتان مهمّتان في روما القديمة: فيرجيل وهوراس. كان بوبليوس فيرجيلوس مارو (المولود عام ٧٥ ق.م. والمتوفى عام ١٩ م)، المعروف بـ«فيرجيل»، شاعر العصر الأوغسطي، وقد نظم قصائد في مدح أوغسطس، متناولًا في أعماله الخلفية الأسطورية للإمبراطورية الرومانية. وبأمر من رجال الدولة الرومان، ألّف ملحمة شعرية بعنوان الإنيادة، مقتفيًا أثر الإلياذة والأوديسة لهوميروس. في هذه الملحمة الطويلة، سعى فيرجيل إلى تصوير شخصية خيالية تُدعى أينياس وابنه إيوليوس (الذي ادّعى فيرجيل أنّه كان من المقاتلين الطروادييّن) باعتبارهما السلف الأسطوري لروموولوس وريموس، مؤسّسي مدينة روما. وفي الإنيادة، لجأ فيرجيل إلى السرد الملحمي الذي اتّخذ طابعًا نبوئيًا زائفًا، مقدّمًا مديحًا متملّقًا لأوغسطس وعائلته.

أما الشاعر الآخر البارز في هذه الفترة، فهو كوينتوس هوراسيوس فلاكوس، المعروف بـ«هوراس» (٦٥ ق.م. – ٨ م). كان هوراس أيضًا شاعرًا في خدمة الإمبراطورية الرومانية، وقد تلقّى من أوغسطس ملكية واسعة وجميلة. وفي عام ١٧ ق.م.، وبطلب من أوغسطس، نظم «ترنيمة القرن»[٢] في مدحه. كما كتب هوراس العديد من القصائد الشهوانية، التي دعا فيها الناس إلى الانغماس في اللذات الحسية والحياة المادية الهيدونية.

حتى نهاية عهد سلالة يوليو-كلوديان

بعد وفاة أوكتافيان، تولّى تيبيريوس، ابنه المتبنّى، السلطة عام ١٤ م. وقد

---

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٢٢٨ –٣٢، ٢٣٩.

2. Carmen Saeculare

سعى تيبيريوس إلى ترسيخ الحكم الإمبراطوري وتعزيز نموذج الحكم القائم على هيمنة الجيش. حكم تيبيريوس من عام ١٤ م إلى عام ٣٧ م، وخلال هذه الفترة قام بحلّ مجلس الشعب بالكامل، مؤسّسًا بذلك نظامًا قائمًا على الرعب والإرهاب.

شهدت فترة حكمه اندلاع تمرّدات في بعض المقاطعات الخاضعة له، غير أنّها سُحقت جميعًا. وفي سنواته الأخيرة، لجأ إلى سياسة القمع المتزايد، إذ كان يأمر يوميًّا بإعدام العديد من الأشخاص لأسباب مختلفة. وعندما توفّي فجأة عام ٣٧ م، خرج الناس إلى الشوارع مبتهجين وهم يهتفون: «يجب إلقاء تيبيريوس في نهر التيبر». فيما بعد، أطلق المؤرّخون على فترة حكم تيبيريوس، وكاليغولا، وكلوديوس، ونيرون (أي من عام ١٤ م إلى عام ٦٨ م) اسم «عهد سلالة يوليو-كلوديان».

بعد وفاة تيبيريوس، تولّى الإمبراطورية شاب من أقاربه يُدعى «غايوس». وكان الجنود يلقبونه بـ «كاليغولا»، وهو اسم مشتقّ من كلمة كاليغا التي تعني «الحذاء العسكري». كان كاليغولا محبوباً لدى الجنود، لكنّه أجبر الناس على مناداته بـ «الشمس» وعبادته في المعابد. كان كاليغولا مولعاً بالنموذج الهلنستي لحكم البطالمة في مصر، فقام، على غرار الفراعنة، بالزواج من شقيقته «دروزيلا»، كما عمل على نشر عبادة «إيزيس»، إحدى الآلهة الوثنية في الأساطير المصرية القديمة. ومع مرور الوقت، بدأ يفقد اتّزانه العقلي، ولجأ إلى ممارسات عنيفة بلا رادع، حتى أنّه اعتدى على العسكريّين الذين كانوا من داعميه. وفي نهاية المطاف، قُتل على يد حرّاسه الشخصيّين في يناير عام ٤١ م.

بعد مقتل كاليغولا، قام الجنود بتنصيب عمّه، كلوديوس، البالغ من العمر

واحداً وخمسين عاماً، إمبراطوراً مقابل الحصول على مبلغ كبير من الرشوة. حكم كلوديوس من عام ٤١ م إلى عام ٥٤ م، وأدّى عهده إلى ترسيخ التنظيم الحكومي للإمبراطورية بشكل كامل. فقد أسّس نظاماً إدارياً مركزياً متماسكاً للحكم الإمبراطوري. خلال فترة حكمه، تولّت مجموعة من العبيد المحرّرين من أصول سورية ويونانية، ممّن كانوا متعلّمين وذوي خبرة في الشؤون الإدارية، مناصب عليا في الدولة. وقد تمكّن هؤلاء، من خلال الاختلاس والنهب، من جمع ثروات طائلة وإقصاء العديد من رجال الدولة السابقين. كما شهد عهد كلوديوس منح سكّان المقاطعات حقوقاً وامتيازات مشابهة لتلك التي يتمتّع بها سكّان روما، ممّا أدّى إلى نوع من المساواة بين سكّان روما وإيطاليا وأهل المقاطعات. في عام ٤٣ م، تمكّن الرومان من إخضاع بريطانيا بالكامل، بعد أن كان يوليوس قيصر قد حاول مرّتين غزوها ونجح في احتلال أجزاء منها. وخلال هذه الفترة، أنشأ الجيش الروماني سلسلة من المعسكرات العسكرية في مناطق مختلفة من أوروبا، والتي تحوّلت لاحقاً إلى نواة للمدن الكبرى مثل «بلغراد» و«فيينا» وغيرها.

إحدى زوجات كلوديوس، واسمها أغريبينا الصغرى، ارتكبت العديد من الجرائم في سبيل توسيع نفوذها. فقد أجبرت كلوديوس على تبنّي ابنها لوكيوس دوميتيوس أهينوباربوس، وهو ابنها من زواجها الأول، والذي عُرف اختصاراً باسم «نيرون». وبعد أن تبنّاه كلوديوس، مُنح لقب «الأمير الشاب». في عام ٥٤ م، قامت أغريبينا بتسميم كلوديوس وقتله، مما مهّد الطريق لتولّي نيرون الحكم بصفته «الأمير» (الشخص الأول في الدولة)، ومن ثمّ أُطلق عليه لقب «الإمبراطور»، كما كان الحال مع أسلافه. كان نيرون آخر إمبراطور من سلالة يوليو-كلوديان، وحكم من عام ٥٤ م حتى عام ٦٨ م.

وكما كان الحال مع كاليغولا وتيبيريوس، كان نيرون إمبراطوراً مريضاً وسادياً. وتحت تأثير عشيقته بوبيا، أقدم على قتل والدته. وأدّت تصرّفاته المجنونة، وإسرافه المفرط، وانغماسه في الترف هو وحاشيته، إلى إدخال روما في أزمة اقتصادية واضطرابات شديدة. قام نيرون ببناء مسرح خشبي ضخم، حيث أجبر ٤٠٠ من أعضاء مجلس الشيوخ على القتال فيما بينهم، مثل المصارعين، ثم اختار بعضهم ليقاتلوا الوحوش المفترسة. كانت فترة حكمه رمزاً صارخاً لانحدار الحضارة الرومانية وبلوغ الطبقة الحاكمة من ملّاك العبيد أقصى درجات الفساد والانحطاط.

كان سينيكا، العبد المحرّر والفيلسوف الرواقي الشهير، أحد مستشاري نيرون ومنظّمي سياساته في بداية حكمه، إلا أنّ نيرون في النهاية أمر بقتله. في السنوات الأخيرة من عهده، واجه نيرون أزمات متعدّدة وتمرّدات واسعة النطاق. وفي عام ٦٨ م، عندما انتفضت جميع المقاطعات الشرقية، إلى جانب القوّات العسكرية المتمركزة فيها، ضدّ حكمه، اضطرّ إلى الانتحار.

مع وفاة نيرون عام ٦٨ م وانتهاء عهد سلالة يوليو-كلوديان، انتهت فعليّاً هيمنة روما المطلقة وسيطرة الطبقة المالكة للعبيد في إيطاليا، والتي كان أباطرة هذه السلالة يمثّلون مصالحها، على سائر أقاليم الإمبراطورية. وبعد سقوط هذه السلالة، أصبحت الإدارة البيروقراطية التي تأسّست خلال فترة حكمها في خدمة نظام ملّاك العبيد في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، مما مهّد الطريق لتعزيز الطابع غير الروماني، بل وحتى غير الإيطالي، للإمبراطورية الرومانية، التي باتت إمبراطورية شاسعة تتألّف من شعوب وأعراق متعدّدة.

الإمبراطورية الرومانية في عهد السلالة الفلافية

بعد وفاة نيرون، اندلعت حرب أهلية في روما بدأت عام ٦٨ م واستمرّت حتى عام ٦٩ م. وكان سبب هذه الحرب الداخلية الانقسامات العميقة داخل صفوف الجيش الإمبراطوري، حيث عانى الجيش من صراعات داخلية حادّة:

«يمكن تقسيم جيش روما، بشكل عام، إلى ثلاث مجموعات رئيسية، لكل منها خصائصها واهتماماتها الإقليمية المتميّزة. أولاً، كان هناك جيش الراين، الذي كان الأقوى من حيث الكفاءة العسكرية، إذ ضمّ ثمانية فيالق اختيرت بشكل خاص من بين أهالي بلاد الغال، كما كان يضمّ أعداداً كبيرة من الجنود المساعدين ذوي الأصول الجرمانية. ثانياً، جيش الشرق، الذي تألّف من ثلاثة فيالق في سوريا، وثلاثة في فلسطين، واثنين في مصر. كان معظم أفراده من سكّان آسيا الصغرى، وخاصة من قبائل الغلاطيّين والكبادوكيّين، الذين كانوا يُعتبرون نصف يونانيّين. وقد اشتهر هؤلاء الجنود بارتدائهم ألبسة طويلة وبعبادتهم لآلهة الشرق، مثل «الشمس التي لا تُقهر» و«ميثرا». وأخيرًا كان هناك جيش نهر الدانوب، الذي تألّف من الفيلقين المويسي والبانّوني. كان هذا الجيش ذا تركيبة عرقية غير متجانسة، إذ ضمّ العديد من الجنود المنحدرين من بلاد الغال وإسبانيا، فضلاً عن عدد كبير من التراقيّين الذين كانوا قد تأثّروا بشدة بالثقافة الهلنستية. وقد كانت قوّات الدانوب على صلة وثيقة بجيش الشرق، حيث كانت الفيلق الشرقي غالباً ما تُرسل لدعم وحدات جيش الدانوب»[١].

هذا اللاتجانس الداخلي في جيش روما ورغبة كل مجموعة في إيصال قائدها إلى الإمبراطورية أدّيا إلى اندلاع التمرّد والصراع العسكري داخل صفوف

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٢٧٣

الجيش. وهكذا، انخرطت روما لمدّة عام في حرب أهلية دامية. في يونيو من عام ٦٨، وصل شخص يدعى غالبا إلى العرش الإمبراطوري، غير أنّ مجموعة أخرى من العسكريّين أطاحت به ونصّبت شخصًا يُدعى أوثو إمبراطورًا. تمرّدت فيالق الراين ضدّ أوثو وطالبت بتنصيب قائدها فيتِليوس. وتحرّك جنود تلك الفيلق نحو روما لإيصال فيتِليوس إلى السلطة.

قامت قوّات الجناح الشرقي من الجيش الإمبراطوري بالتمرّد ضدّ فيتليوس، فهاجمت روما وأضرمت النار في معبد جوبيتر، ثم أسرت فيتليوس وألقت حبلاً حول عنقه وساقته إلى المنتدى الروماني، ساحة المدينة المركزية، حيث تعرّض لتعذيب شديد قبل أن يُقتل.

نجحت قوات الجناح الشرقي من الجيش الروماني في تنصيب فسبازيان إمبراطورًا. وكان فسبازيان أوّل إمبراطور من أسرة الفلافيّين، وتولّى بعده ابناه تيتوس ودوميتيان الحكم. وكان فسبازيان أوّل إمبراطور ينتمي من حيث الأصل العائلي إلى الطبقات الوسطى في المجتمع الروماني. وقد حكمت أسرة الفلافيّين روما منذ عام ٦٩ إلى عام ٩٦ ميلادي.

أدّت الحرب الأهلية بين عامي ٦٨ و ٦٩ إلى تعزيز موقع جناح ملّاك العبيد في الأقاليم وانتصاره على جناح ملّاك العبيد في روما وإيطاليا، مما دفع بالإمبراطورية الرومانية إلى آخر مراحل توسّعها في سياق الكوزموبوليتانية، متجاوزة بذلك نطاق الدولة-المدينة (بوليس). وكما كان الحال في عهد أسرة يوليو-كلوديان، اتّسم عهد الفلافيّين أيضًا بتصاعد العنف والقمع والإرهاب والرعب.

«في عهد حكم الفلافيّين، وقعت تغييرات مهمّة في الدولة الرومانية. فقد

ازدادت ثقة الأباطرة بنبـلاء الأقاليم أكثر من أيّ وقت مضى، ممّا أدّى إلى زيادة عدد ممثّليهم في مجلس الشيوخ»[١].

شـهدت روما في عهد الفلافيّين تغييرًا جذريًّا في هيكل السـلطة السياسـية والاقتصادية، حيث انتقل مركز الثقل السياسي من روما والأقاليم الإيطالية إلى الأقاليم غير الرومانية وغير الإيطالية. وهكذا، بلغ العالم الغربي القديم، مع نهاية القـرن الأول الميلادي (عام ٩٦، في ختام حكـم أسرة الفلافيين)، ذروة تطوّره وتوسّـعه، ليصل إلى حالة من الكوزموبوليتانيّة التي اكتملت خلالها معالمه. بدأ العالم الغربي القديم انطلاقًا من نموذج الدولة-المدينة (البوليس) وسـعى نحو التوسّع والانتشار. إلا أنّ الغرب القديم لم يكن قادرًا على التوسّع ليصبح «عالميًّا» معتمدًا فقط على نموذج الدولة-المدينة. لقد كان العالم اليوناني-الروماني بحاجة إلى عقيدة غير توحيدية لكي يتمكّن من الانتشـار والهيمنة. وقد تحقّق ذلك من خلال التوليف والامتزاج بين العناصر اليونانية واليهودية، الذي تجلّى في صورة «المسيحية» (فالذي نعرفه تاريخيًا باسم المسيحية لا ينطبق تمامًا على التعاليم الإلهية للنبي عيسى، بل يمثّل مزيجًا من عناصر شركية في إطار رؤية ثيوسانترية). لم يكن تاريخ الغـرب القديم، القائم على نموذج الدولة-المدينـة والعلمانية الكونوية، قادرًا على الانتشار ليصبح «عالميًا». لقد كان تأسيس الممالك الهلنستية، المستوحى من الشرك الأسـطوري، خطوة على طريق تحقيـق هذا الطموح «العالمي». ومع التحوّلات البنيوية التي شهدها الغرب الروماني، خطا هذا الأخير خطوات أكثر ثباتًا نحو تحقيق هذا الطموح، ولعبت أسرة الفلافيّين دورًا محوريًا في هذا المسار.

١. نچكينا وغيره، تاريخ مختصر جهان، ١٢٧ - ٢٨.

سلالة الأنطونيّين

حكمت أسرة الأنطونيّين روما من عام ٩٦ إلى عام ١٩٢ ميلادي. وخلال هذه الفترة، اتّجهت الدولة الرومانية أكثر فأكثر نحو نموذج حكم فردي استبدادي قائم على العبوديّة والكوزموبوليتانية. وقد اعتمدت الدولة الرومانية في عهد الأنطونيّين أساسًا على الطبقات المالكة للعبيد في منطقة البحر الأبيض المتوسّط. يكتب دياكوف عن أسرة الأنطونيين قائلًا:

«إنّ مصطلح أسرة الأنطونيّين هو اصطلاح تقليدي تمامًا؛ فقد جرى العرف على تسمية مجموعة من الأباطرة الرومان في القرن الثاني بهذا الاسم، وهم الذين حكموا على التوالي، وهم: نرفا (٩٦-٩٨)، تراجان (٩٨-١١٧)، هادريان (١١٧-١٣٨)، أنطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١)، ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠)، وكومودوس (١٨٠-١٩٢). باستثناء الإمبراطورَين الأخيرَين (ماركوس أوريليوس وابنه كومودوس)، لم تكن هناك أيّ صلة قرابة بين هؤلاء الأباطرة، إذ كان كلّ واحد منهم يُختار من قبل الإمبراطور الذي سبقه حتى اسم «الأنطونيّين» لم يُطلق عليهم إلا لاحقًا، وليس نسبةً إلى أوّل إمبراطور في السلالة، بل بسبب الإمبراطور الرابع منها، الذي اعتبرته الأجيال اللاحقة أعظم أباطرتها. وباستثناء نرفا، الذي كان ينتمي إلى عائلة قديمة من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني، فقد كان جميع أباطرة هذه السلالة يشتركون في أصلهم الأرستقراطي المنحدر من الأقاليم غير الإيطالية»[١].

في أواخر عهد الأنطونيّين، ومع تراجع قدرة وإمكانات الدولة الرومانية على استغلال الأقاليم غير الإيطالية-إذ إنّ ممثّلي تلك الأقاليم أصبحوا عمليًّا

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣: ٢٨٤ - ٨٥.

هم المسيطرين على البنية السياسية للإمبراطورية، ممّا حال دون استمرار عمليّات النهب والاستغلال-بدأت إيطاليا وروما نفسها بالانحدار نحو الخراب. وبحلول أواخر القرن الثاني الميلادي، دخل الاقتصاد القائم على عمل العبيد في أزمة واضحة، ولم يعد يحقّق الأرباح كما في السابق. وفي الوقت ذاته، تبنّت الإمبراطورية موقفًا دفاعيًّا على حدودها العسكرية، الأمر الذي كشف عن ضعف القدرة العسكرية للدولة الرومانية، مما شجّع القبائل الجرمانية المختلفة على التحرّك عسكريًا.

عجز الدولة الرومانية عن الدفاع عن حدودها في العديد من المناطق دفعها، في بعض الحالات، إلى إدخال قوّات متطوّعة من الجرمان ضمن صفوف جيشها. وبهذه الطريقة، بدأ منذ العقود الأخيرة من القرن الثاني الميلادي تشكّل نوع من الجيش الروماني-الجرماني، مما زاد تدريجيًّا من دور العناصر الجرمانية في الهيكل العسكري للإمبراطورية الرومانية. وقد أصبح هذا العامل، بعد قرن من الزمن، ومع تصاعد هجمات الجرمان داخل حدود الإمبراطورية، أحد الأسباب الرئيسية لهزيمة الجيش الإمبراطوري أمام الغزاة الجرمان، وهو ما أدّى في نهاية المطاف إلى سقوط روما.

منذ أواخر القرن الثاني الميلادي، بدأت مؤشّرات الأزمة والانحطاط بالظهور بشكل متزايد. فقد تراجعت الزراعة في إيطاليا، وانخفضت معدّلات الولادة، وانتشرت حالة من اللامبالاة السياسيّة والانكماش النفسي، إلى جانب نزعة متزايدة للتملّص من الالتزامات، خاصّة العسكرية منها، مقابل التركيز المتزايد على الحياة الخاصة والمصالح الشخصية، والاتّجاه نحو الاستمتاع الآني والرفاهية الاجتماعية.

ظهر نوع من الاختلال في التوازن بين روما وإيطاليا من جهة، وبين الأقاليم الرومانية من جهة أخرى؛ إذ بينما كانت روما وإيطاليا تتّجهان نحو الانحطاط، شـهدت الأقاليم ازدهارًا اقتصاديًا وصناعيًا متزايدًا. وشيئًا فشيئًا، باتت إيطاليا تبدو وكأنّها كيان طفيلي مسـتهلك وجشـع، في حين أصبحـت المدن الإقليمية أكثر نشـاطًا في المبادلات التجارية، فيما كانـت إيطاليا تغرق في الفقر والخراب. ومع مرور الوقت، بدأت الأقاليم تكتسـب نوعًا من الاستقلال الذاتي، مما أدّى إلى تصاعد النزعات الانفصاليـة، وهو ما أفضى إلى تفكّك البنية الإمبراطورية، ودفعها نحو الانقسام والانهيار.

تراجعت إنتاجية العمل القائم على العبيد بشكل حادّ، وبحلول أواخر القرن الثاني الميلادي، توصّل العديد من ملّاك العبيد وكبار المزارعين إلى قناعة مفادها أنّ من الأفضل اقتصاديًا تقسـيم جزء من أراضيهم إلى قطع صغيرة وتأجيرها. ومع تصاعد الاسـتياء بين العبيـد وتراجع إنتاجيّتهم، بـدا أنّ تأجير الأراضي أصبح خيارًا أكثر ربحية. وكان يُطلق على الفلاح الذي يستأجر قطعة أرض من مالكها اسم الكولون.

منـذ أواخر القرن الثـاني، بدأ عـدد الكولونات في التزايـد، وبقدر ما كان الاقتصـاد القائم على عمل العبيد يدخل في أزمة، كان النظام الاقتصادي القائم عـلى التأجير والكولونات يـزداد ازدهارًا. وفي القرن الثالـث الميلادي، أصبح الكولونـات عنصرًا بالغ الأهمية في الاقتصـاد الإمبراطوري الروماني. لقد كان ظهورهم وتنامي قوّتهم أحد المؤشّرات الدالة على تفاقم الأزمة العامّة للانحطاط الـذي أصاب العالم الغربي القديم، والتي تجلّت بوضوح في المجال الاقتصادي. كان الاقتصـاد في العالم اليوناني-الروماني قائمًا في جوهره على العبودية، ولذلك

فإنّ بروز وانتشار نظام الكولونات كان دلالة على احتضار الاقتصاد القائم على العبودية. وقد حمل هذا النظام في طيّاته نواة النموذج الاقتصادي الذي سيظهر لاحقًا في الغرب خلال العصور الوسطى في شكل نظام القنانة والإقطاع، الذي أصبح النمط الاقتصادي المهيمن.

كانت أزمة الاقتصاد والعبودية، إلى جانب الأزمات السياسية والاجتماعية والثقافية التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية وازدادت تفاقمًا بمرور الزمن، تجليّات واضحة لأزمة الانحطاط التي أصابت العالم الغربي الكونوي. وقد دفعت هذه الأزمة، في سياق التحول التاريخي من الغرب القديم إلى الغرب في العصور الوسطى (الغرب الثيوسانتري)، نحو الزوال والانهيار الكامل.

روم في القرن الثالث الميلادي: موجات العصيان العسكري والحروب الداخلية

في القرن الثالث الميلادي، كانت مدينة روما أجمل مدن حوض البحر الأبيض المتوسّط، حيث ضمّت العديد من المباني الجميلة والفاخرة. كانت تُقام في روما عروض مسرحية باهظة التكاليف، غالبًا ما كانت تقليدًا غريبًا لبعض الأعمال اليونانية. ورغم ما كانت عليه روما وبعض المناطق الأخرى من الإمبراطورية من مظهر فاخر ومهيب، فإن الإمبراطورية الرومانية كانت في جوهرها غارقة في الانحطاط والتآكل.

إحدى علامات الأزمة الانحطاطية التي أصابت العالم الغربي القديم وحضارة روما كانت هيمنة النزعة الظاهرية والتسطّح والانغماس في ترف مسكّر شمل جميع مناحي الحياة الرومانية. وقد تجلّت هذه الأزمة في الفنّ والأدب من خلال سيادة نوع من الشكلانية والعدمية على محتوى الأعمال الأدبية، وظهور أساليب سطحية ومعقّدة تفتقر إلى الجوهر وتركّز على التقنيات. أما في الثقافة العامة للناس، لا سيما

في روما وإيطاليا، فقد سادت نزعة استهلاكية وانغماس في الشهوات والانحلال الأخلاقي، إلى جانب شعور بعدم المسؤولية وانعدام الالتزام الأخلاقي والنفور من القيم والمعاني، ما أدّى إلى انتشار حالة من السلبية الممزوجة باللامبالاة واليأس. وبالتوازي مع هذا المناخ، شهدت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي حالة عميقة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، تجلّت في الانقلابات وحركات العصيان العسكري والحروب الداخلية.

بعد مقتل كومودوس، دخل العديد من الطامحين إلى العرش الإمبراطوري في صراع محتدم، وانتهى الأمر بانتصار سيبتيميوس سيفيروس بعد حرب أهلية مسلّحة. خلال هذه الحرب، أقدمت القوّات الموالية للقادة المتنافسين على نهب المدن والمناطق المختلفة من أراضي الإمبراطورية الرومانية.

وُلِد سيبتيميوس سيفيروس في طرابلس، إحدى المقاطعات الأفريقية التابعة لروما، وكان يُوصف، وفقًا للمؤرّخين، بأنّه «نصف روماني»:

«كان الإمبراطور نصف روماني، وُلِد في إفريقيا في المملكة التي تشكّل اليوم طرابلس، وكانت عائلته قد حصلت حديثًا على حقوق المواطنة الرومانية. كان البعض يسخرون منه بالقول إنّه يتحدث اللاتينية بلكنة قرطاجية. زوجته، جوليا دومنا، كانت من أهل سوريا، وكانت مغرمة بجمع الأدباء والفلاسفة والفلكيّين والكهنة الشرقيّين من حولها. ومن البديهي أنّ مثل هذا الإمبراطور لا يمكنه أن يحترم العادات والتقاليد والمعتقدات الرومانية. تعامل الإمبراطور بخشونة مع مجلس الشيوخ، وانتزع منه العديد من صلاحيّاته وامتيازاته. لقد اعتمد سيبتيميوس بالكامل على الجيش، وأغدق عليه بعطاياه»[١].

١. ماله وإيزاك، تاريخ رم، ٣١٩ – ٢٠.

يمكن وصف حالة الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي على النحو التالي:

١. اندلاع التمرّدات والانقلابات العسكرية المتتالية، مما أدّى إلى قيام حكومات غير مستقرة قصيرة العمر.

٢. تصاعد الهجمات التي شنّتها القبائل الجرمانية المختلفة على حدود الإمبراطورية.

٣. اندلاع انتفاضات اجتماعية متعدّدة، كان الفلّاحون الذين تعرّضوا للإفقار القوّة الدافعة الرئيسية وراءها، وإن كان العبيد المتمرّدون يشاركون أيضًا في الحركات الاحتجاجية.

٤. بروز أزمة ثقافية عميقة، تجلّت في الابتعاد العام عن المعتقدات الرومانية الكلاسيكية، والاتّجاه نحو العقائد الوثنية الأسطورية الشرقية (مثل الميثرائية)، إلى جانب انتشار المسيحية.

٥. تنامي مشاعر اللامبالاة وانعدام المعنى، وتراجع الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية، مع تزايد الانغماس في المتع الحسّية والانشغال بالحاجات والاهتمامات الشخصية البحتة. وقد صاحب ذلك انتشار النزعة الانتهازية الممزوجة باليأس وانعدام الإيمان بالمثل العليا.

٦. تفاقم أزمة الاقتصاد القائم على العبودية، وتزايد انتشار الاقتصاد المعتمد على نظام الكولونات.

٧. سيطرة النزعة الشكلانية والتقنية الجافة والانحطاط الفنّي على الأعمال الأدبية الشعرية والمسرحية.

٨. تغيّر التركيبة السكّانية للجيش الروماني، حيث ازداد عدد العناصر

الجرمانيــة في صفوفه، مما أدّى إلى تنامي دورهم وتأثيرهم في الهيكل العســكري للإمبراطورية.

في القرن الثالث الميلادي، بدأت الإمبراطورية الرومانية تفقد تدريجيًا تماسكها وعزمهــا وحنكتها وقدرتها على التنظيم، حتــى وقعت في حالة من الاضطراب والفــوضى. وبحلول نهاية ذلك القرن، أصبحت الإمبراطورية الرومانية منهكة ومثقلة بالضعف، الأمر الذي حفّز أعداءها على شنّ الهجمات واختراق حدودها بشكل متزايد.

«أدّى اضطــراب الأوضاع في روما إلى هيمنة الشــكلانية على جميع مجالات الفنون، وانصرفت الأذواق إلى الأعمال الســطحية، وظهــرت أنماط فنّية غريبة ومكلفة إلى حد كبير. وكانت التراجيديات المعقّدة والغامضة التي كتبها سينيكا، معلّــم نيرون، مثل أوديب، وأغاممنون، وميديــا، وفيدرا، وغيرها، نموذجًا لهذا الاتّجاه. فهذه الأعمال لم تكن ســوى تقليد مطوّل للأعمال اليونانية الشهيرة، غير أنّ التشاؤم الذي اســتبدّ بالطبقة العليا في المجتمع الروماني آنذاك عزّز العناصر التراجيدية إلى أقصى حد، حتى غدت هذه المسرحيّات مفعمة بالمجازر الوحشية والمشاعر غير الطبيعية»[١].

منذ عــام ٢٥٣ حتى عام ٢٦٨ ميلادي، تعرّضــت الإمبراطورية الرومانية للتفــكّك، بحيث أصبح من المعتــاد أن يحكم عدّة أباطــرة في مناطق مختلفة من روما في آنٍ واحد. وبحلول أواخر القرن الثالث، انهارت السلطة المركزية تمامًا، فتمرّدت العديد من الفرق الحدودية التابعــة للإمبراطورية، وخاض المطالبون بالعــرش نزاعات دموية مســلّحة فيما بينهــم، بينما تعرّضت الحــدود الرومانية

١. دياكوف وغيره، تاريخ جهان باستان، ٣:٣٠٩.

لهجمات مستمرّة من القبائل الجرمانية. غرقت الأقاليم في أزمة اقتصادية خانقة، وزاد الجوع وتفشّي الأوبئة، التي كانت من تداعيات الحروب الأهلية، من تردّي الأوضاع. وفي ظلّ هذا الانهيار، انتفضت الطبقات الفقيرة والمهمشة في المجتمع الروماني، وقام الفلّاحون الفقراء والعبيد في العديد من المناطق بقتل ملّاك العبيد وكبار المزارعين، واستولوا على ممتلكاتهم وقسموها فيما بينهم.

القرن الرابع: زوال الإمبراطورية المريضة

في عام ٢٨٤ ميلادي، تولّى دقلديانوس العرش الإمبراطوري. كان منحدرًا من مقاطعة إيليريا، وابنًا لعبدٍ محرّر. وقد كان رجلًا عسكريًا، وسعى جاهدًا إلى احتواء الأزمات وإعادة النظام إلى الإمبراطورية. حكم دقلديانوس حتى عام ٣٠٥ ميلادي. كان عهده يمثّل المحاولة الأخيرة التي قامت بها الإمبراطورية المحتضرة، التي كانت تسير نحو الزوال، من أجل البقاء على قيد الحياة.

«في عام ٣٠٥ ميلادي، تنحّى دقلديانوس عن الحكم ... وسرعان ما ظهر مطالبون جدد بالعرش، مما أدّى إلى اندلاع صراعات بينهم تطوّرت إلى حرب أهلية جديدة. وخلال هذه الاضطرابات، تمكّن قسطنطين، ابن أحد زملاء دقلديانوس، من تحقيق النصر، وحكم من عام ٣٠٦ إلى عام ٣٣٧. اضطرّ قسطنطين إلى خوض صراعات طويلة مع منافسيه، وفي عام ٣١٣، أصدر مرسوم ميلانو، الذي منح الحرية الدينية للمسيحيّين. وفي الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠، قام بنقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق، إلى منطقة البوسفور، حيث تمّ توسيع المستعمرة اليونانية القديمة بيزنطة، وإعادة بنائها بالكامل، ثم سُمّيت تكريمًا للإمبراطور بـ«القسطنطينية». لم يكن هذا الانتقال للعاصمة نحو الشرق مجرّد صدفة؛ فقد كانت الأقاليم الشرقية أغنى وأكثر تطوّرًا ثقافيًا من

الأقاليم الغربية، كما أنّ المراكز الاقتصادية والثقافية للإمبراطورية الرومانية لطالما وُجدت في الشرق، لذا كان نقل المركز السياسي إلى هذه الجهة يبدو قرارًا منطقيًا تمامًا. ومن بين العوامل الكبرى التي ساهمت في سقوط الإمبراطورية الرومانية الهجرات الكبرى للشعوب، والتي كان دافعها الأساسي غزو الهون. سعى قادة قبائل القوط الغربيّين، الذين كانوا يبحثون عن ملاذ يَقيهم من خطر الهون، إلى فالنس، إمبراطور روما، وطلبوا منه السماح لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار داخل أراضي الإمبراطورية. وافق فالنس على طلبهم بشرط أن يتولّوا حماية حدود الإمبراطورية. وهكذا، استقرّ القوط في مويسيا وتراقيا، على ضفاف نهر الدانوب. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ المسؤولون المدنيّون والعسكريّون الرومان بانتهاك حقوق القوط وحرّياتهم بشتى الوسائل، مما أدّى إلى اندلاع ثورة عام ٣٧٧ ميلادي. وسرعان ما انتشرت نار التمرّد، فأرسل الإمبراطور فالنس الجيشَ الروماني لقمعه. وفي عام ٣٧٨ ميلادي، اندلعت معركة كبرى عند أدريانوبل، انتهت بهزيمة الجيش الروماني ومقتل الإمبراطور فالنس نفسه. استمرّت الحرب ضدّ القوط لعدّة سنوات، حتى تمكّن أحد خلفاء فالنس، وهو ثيودوسيوس، الذي حكم من عام ٣٧٩ إلى ٣٩٥ ميلادي، من هزيمتهم. وخلال فترة حكمه، توحّدت الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية للمرّة الأخيرة. وفي عهده، حقّقت المسيحية انتصارها النهائي، حيث أصبحت الدين الرسمي الوحيد للدولة ... بعد وفاة ثيودوسيوس، انقسمت الإمبراطورية الرومانية نهائيًا إلى قسمين. واصلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، المعروفة باسم بيزنطة، وجودَها كدولة مستقلّة حتى منتصف القرن الخامس عشر. في أوائل القرن الخامس الميلادي، هاجم القوط روما بقيادة ألاريك، فاجتاحوا

إيطاليا بأكملها وحاصروا «المدينة الخالدة» [كنية عن مدينة روما]... وخلال الخمسين أو الستين عامًا التالية، استمرّت هجمات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية، بل وأقاموا لأنفسهم عدّة مناطق حكم داخل أراضيها. فقد غزا الوندال مقاطعات شمال إفريقيا عام ٤٢٩، وفي عام ٤٥٥ أخضع مَلِكُهم إيطاليا ودمّر روما بالكامل، كما هاجم كلٌّ من الأنجل والساكسون والجوت بريطانيا سنة ٤٤٩... أما الإمبراطورية الرومانية الغربية، فقد اندثرت عمليًّا؛ إذ تعرّضت إيطاليا للدمار، وتحوّلت روما إلى مجرّد مدينة إقليمية صغيرة ... وفي عام ٤٧٦، قام أحد ملوك الجرمان، ويُدعى أودواكر، بخلع رومولوس أوغستولوس، آخر أباطرة روما الغربية. ولهذا السبب، يعتبر بعض المؤرّخين سنة ٤٧٦ ميلاديّة عام سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية»[١].

في القرن الرابع الميلادي، وقعت عدّة أحداث هامّة في روما، يمكن اعتبار كل واحد منها حلقة رئيسية في مسار انهيار الإمبراطورية الرومانية (وكذلك العالم الغربي القديم بأسره).

- ففي عام ٣١٣ ميلادية، أصدر الإمبراطور قسطنطين، مع نظيره في القسم الشرقي من الإمبراطورية، الذي كان يُدعى فاليريوس ليسينيوس، «مرسوم ميلانو»، الذي أعلن حرّية المسيحيّين في ممارسة عباداتهم وأنشطتهم في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. كانت روما خلال القرن الثالث الميلادي قد تأثّرت ثقافيًا بديانة ميثرا، ولم تعد المعتقدات الوثنية الرومانية الكونوية قادرة على إقناع معظم الناس، في حين كان النفوذ المسيحي في ازدياد مستمر. وقد شكّل مرسوم ميلانو محاولة لتحقيق نوع من التفاهم والمصالحة بين

١. نچكينا وغيره، تاريخ مختصر جهان، ١٣٥ - ٣٧، ١٣٩.

الإمبراطورية والمسيحية. وربما كان رجال الدولة الرومان، الذين شعروا بضعف الإمبراطورية واحتضارها، يسعون إلى توطيد أركان حكمهم المتداعي من خلال التقارب مع المسيحية. ولكن، على أيّ حال، كانت المسيحية عقيدة قائمة على النزعة الثيوسانترية، وهذه النزعة، التي بدأت منذ القرن الأول الميلادي تأخذ مسار التفوّق والغلبة، ازدادت وضوحًا في القرن الثالث الميلادي.

- في عام ٣٣٠ ميلادية، تمّ تشييد مدينة القسطنطينية عند مدخل مضيق البوسفور، وأصبحت عمليًّا مركز الثقل السياسي وعاصمة القسم الشرقي من الإمبراطورية.
- في عام ٣٨٤ ميلادية، تحوّلت المسيحية إلى الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، وهنا يمكن بوضوح وبجلاء تام ملاحظة سيطرة النزعة الثيوسانترية وانقراض النزعة الكونوية.
- بعد مقتل الإمبراطور فالنس في معركته ضد القوط الغربيّين عام ٣٧٨ ميلادية، تولى ثيودوسيوس الحكم، وهو الذي عُرف لاحقًا باسم «ثيودوسيوس الأوّل»، وحكم بين عامي ٣٧٩ و٣٩٥ ميلادية. وتمكّن في عام ٣٩٢ من تحقيق نوع من الوحدة بين القسمين الشرقي والغربي للإمبراطورية، فتولّى العرش كإمبراطور واحد يحكم الإمبراطورية بأكملها. لكن سرعان ما بدأ تقسيم الإمبراطورية الرومانية فور وفاته في عام ٣٩٥؛ إذ خضع القسم الشرقي لحكم ابنه الأكبر، أركاديوس، بينما آل القسم الغربي إلى ابنه الآخر، هونوريوس. وسرعان ما تباينت مصائر كل من القسمين الشرقي والغربي، حيث شهد كل منهما تطوّرات ومسارات تاريخية مختلفة.

بينما واصلت روما الشرقية وجودها تحت اسم «الإمبراطورية البيزنطية» حتى عـام ١٤٥٣ ميلادية، تعرّضت روما الغربيـة لعواصف متتالية من غزوات القبائـل الجرمانية. فقد نُهبت مدينة روما في عامي ٤١٥ و٤٧٦ ميلادية. أما الملـوك الذين حكمـوا روما الغربية في القرن الخامـس الميلادي، فقد كانت سلطتهم هشّة ومضطربة، إذ تعرّضوا باستمرار لهجمات الجيوش الجرمانية. وبحلول هذا القرن، لم يبقَ من الإمبراطورية الرومانية سـوى اسم فارغ من أيّ مضمـون حقيقي. لقد كانت رومـا في مواجهة الغزو الجرماني مدينة بلا دفاع. ومع نهاية القرن الرابع الميلادي وما تلاه، لم تعد الإمبراطورية الرومانية سوى فصل منتهٍ من التاريخ، كما أنّه منذ العقد الأخير من القرن الرابع، ومع تصاعد نفوذ المسيحية وترسيخ سيطرتها، أصبح بالإمكان الحديث عن نهاية العالم الغربي القديم وبداية العصور الوسطى الغربية الثيوسانترية.

في النصـف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وبعدما تعرّضت مدينة روما مرارًا للغـزو والنهب على أيـدي الجرمان والهون، نُقلت عاصمـة ما تبقّى من الإمبراطورية الرومانية، التي لم يبقَ منها سـوى اسم فارغ، إلى مدينة رافينا. فقد كانت رافينا محاطة بمسـتنقعات غير قابلة للاجتياز، ممـا جعل الحكّام الرومان يأملون أن تحميهم هذه التضاريس الطبيعية إلى حدّ ما من موجات الغزو الجرماني. وفي عام ٤٧٦ ميلادية، أجهز أودواكر، زعيم إحدى القبائل الجرمانية، حتى على هذا الاسم الفارغ للإمبراطورية، إذ أرسل شارات ورموز الحكم الإمبراطوري إلى القسـطنطينية، حيث الإمبراطور البيزنطي، وخلع رومولوس أوغستولوس وألقاه في الأسر، مُنهياً بذلك أيّ مظهر متبقٍّ للإمبراطورية الرومانية الغربية.

في واقـع الأمر، كانت الإمبراطورية الرومانية قـد انهارت فعليًّا منذ العقود

الأخـيرة من القـرن الرابع الميـلادي، وإذا أردنا تحديد تاريـخ بعينه، فمنذ عام ٣٨٤ ميلاديـة. لكن أودواكـر، في عام ٤٧٦ ميلادية، قضى حتـى على ما تبقّى من مظهرها الفارغ وشـكليّتها الاحتفالية. ورغم أنّه في القرون اللاحقة، صعد حكّام وملـوك في روما وأجزاء أخرى من إيطاليـا، وحافظوا جزئيًّا على بعض الرموز والمظاهر الإمبراطوريـة، إلا أنّ الحقيقة تبقى أنّ الإمبراطورية الرومانية قد انقرضت فعليًّـا في نهاية القرن الرابع الميلادي، ومـع موتها، طُويت صفحة العالم الغربي القديم، أي الغرب الكونوي الوثني. لقد كانت الحضارة الرومانية، شـأنها شـأن غيرها من مظاهر الحضارة في الغـرب القديم، سـواء اليونانية أو الهلنستية، ذات طبيعة اسـتكبارية وظالمة، وتجسيدًا لحكم الطاغوت. كان روما القديمة الحلقة الأخيرة من مسـار نشوء وتوسّـع أوّل عالم تاريخي للغرب، أي الغرب اليوناني-الروماني، أو الغرب الكونوي الوثني. ومع انهيار الإمبراطورية الرومانية، وسـقوط الحضارة الرومانية بأكملها، انتهت نزعة الوثنيّة الكونويّة، التي تجسّدت في العالم اليوناني-الروماني، وحلّت محلّها النزعة الوثنية الطاغوتية ذات الطابع الإقطاعي في العصور الوسـطى، والتي ورثت الظلم والفساد عن العدمية اليونانية-الرومانية. إنّ مجمل أحداث وتطوّرات الإمبراطورية الرومانية يمكن اعتباره مسـارًا لتفاقـم أزمة انحطاطية انتهت بإغـلاق صفحة الحضارة الرومانية والعالم الغربي القديم برمّته، وإلقائه في مزبلة التاريخ.

الفصل الخامس: حول الغرب في العصور الوسطى: الغرب المسيحي

١. الغرب في العصور الوسطى: الغرب الثيوسانتري

يمكن القول إنّ عالم الغرب في العصور الوسطى، والذي يُشار إليه أيضًا بـ«الغرب المسيحي» أو «الغرب في القرون الوسطى»، قد بدأ منذ أواخر القرن الرابع الميلادي. وإذا أردنا تحديد نقطة زمنية بعينها كبداية لهذا العالم، فيمكن اعتبار عام ٣٨٣ ميلادية بمثابة المبدأ الزمني لانطلاق الغرب في العصور الوسطى. ففي عام ٣٨٤ ميلادية، أُعلنت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية[١].

ومع ذلك، كان انحطاط العالم الغربي القديم قد بدأ بالفعل منذ القرن الأول الميلادي، وتجلّى بصورة واضحة منذ أواخر القرن الثاني الميلادي في أزمات متلاحقة عصفت بالإمبراطورية الرومانية. إلا أنّه خلال العقود الأخيرة من القرن الرابع الميلادي، أصبح من الممكن الحديث عن سيادة نمط من الثيوسانترية محل النزعة الكونوية، وهو ما مهّد فعليًّا لانطلاق الغرب في العصور الوسطى.

لقد نشأ العالم الغربي القديم، والذي يمكن تسميته – من باب التسامح الاصطلاحي – بـ«الغرب اليوناني-الروماني»، ضمن إطار النزعة الكونوية. أما العالم الغربي في العصور الوسطى، فقد تجلّى ضمن الإطار الثيوسانترية، أي

---

١. ويلسون، دين مسيح، ٥٥.

رؤية متمركزة حول الإله. وكان الغرب في العصور الوسطى محكومًا بما يمكن تسميته «ميتافيزيقا ثيوسانترية»، أو «نفس مدبرة ثيوسانترية»، والذي أطلق عليه اسم «المسيحية».

الغرب، بوصفه تاريخًا، قد ظهر وتحقّق في إطار نفيٍ جذريٍ للولاية الإلهية. وأوّل تجلٍّ للغرب ككيان تاريخي - أي بداية تاريخه - تمثّل في ظهور وغلبة النزعة العدمية الكونوية. لقد كان العالم الغربي القديم، الذي يشكّل أوّل تجسّد فعلي لتاريخ الغرب، عالمًا قائماً على هذه العدمية الدنيوية. غير أنّ بروز الأزمة الانحطاطية في الغرب القديم، واستمرارها وتعميقها، أدّى في النهاية إلى انتهاء ذلك الطور التاريخي وحلول عالم الغرب في العصور الوسطى محله. كان عالم الغرب في العصور الوسطى عالمًا قائماً على النزعة العدمية الثيوسانترية، بحيث أُزيحت العدمية الكونوية وحلّت محلّها العدمية الثيوسانترية. لكن هذا التحوّل لم يكن فجائيًّا، بل كان انتقالًا تدريجيًّا بدأ منذ أواخر القرن الأول الميلادي، حيث تشكّلت مرحلة انتقالية استمرّت حتى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي، حينما أفسح العالم القديم المجال نهائيًّا لعالم العصور الوسطى الغربيّة. وكان الانهيار الكامل للإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي الحلقة الأخيرة التي أكملت هذا التحوّل التاريخي الجذري.

على الرغم من أنّ الإمبراطورية الرومانية انهارت بالكامل بفعل غزو البرابرة عام ٤١٠ ميلادية، إلى جانب سلسلة من الهجمات الأخرى التي استمرّت طوال القرن الخامس، إلا أنّه إذا أردنا تحديد نقطة زمنية اعتبارية لبداية الغرب في العصور الوسطى، فإن عام ٤٨٥ ميلادية يبدو مناسبًا لهذا الغرض. ففي هذا العام، باعتماد «المسيحية» دينًا رسميًا للإمبراطورية الرومانية، أصبحت هيمنة

الثيوسانترية أمرًا رسميًا وقاطعًا، واكتسبت هذه الهيمنة طابعًا واضحًا وجليًّا. كان الغرب في العصور الوسطى عالمًا ثيوسانتريًا، ولكنّه في الوقت ذاته كان أيضًا غربًا مسيحيًا، مما يستلزم البحث في معنى ومفهوم الثيوسانترية، وعلاقة المسيحية بها، وطبيعة المسيحية ذاتها.

ثيوس والثيوسانترية

ما هو معنى ثيوس؟ وما هو الثيوسانترية؟ إنّ ثيوس كلمة يونانية، وكان اليونانيّون يعتبرونها من بعض الجوانب معادلة لمفهوم الإله، غير أنّه ينبغي الانتباه إلى أنّ ثيوس لا يعادل المفهوم الأصيل والحقيقي والتوحيدي للإله. في الواقع، ثيوس هو الطاغوت الذي تمّ اعتباره إلهًا على نحو خاطئ. فالأصل في ثيوس أنّه طاغوت، وله جذر مشترك مع زيوس في اليونانية.

«كلمة طاغوت تشترك في الجذر مع زيوس وثيوس في اليونانية. بعبارة أخرى، إمّا أن تكون كلمة طاغوت نفسها كلمة تئوس اليونانية التي دخلت إلى العربية وتمّ تعريبها، وإمّا أنّها كلمة عربية ذات أصل مشترك مع كلمتي زيوس وثيوس اليونانيّتين... الطاغوت هو ذاته زيوس وثيوس اليوناني، وهو الذي يشترك في الأصل مع ديوس في اللاتينية وديو في الفارسية وديفا في السنسكريتية... زيوس وثيوس في اليونانية ليسا فقط مغايرين للإله الذي تدعونا إليه الأديان التوحيدية والكتب السماوية، بل هما بعينهما الطاغوت»[١].

«في اللغة اليونانية، كان الإله يُدعى ثيوس، غير أنّ مقصودهم من الإله يختلف اختلافًا تامًّا عمّا تمّ طرحه لاحقًا في الأديان التوحيدية»[٢].

---

١. معارف، نگاهی دوباره به مبادی حکمت انسی، ٣٩٨.

2. Barnhart, Chambers Dictionary of Etymology, 673.

في اللغة اللاتينية وفي الغرب خلال العصور الوسطى، استُخدمت كلمة ثيوس بمعنى الإله، غير أنّه حتى في عالم الغرب الوسيط، لم يكن الإله، بالمعنى الأصيل والتوحيدي الذي يعرّفنا به القرآن العظيم، هو المحور والمدار الحقيقي، بل حلّ محلّه تصورٌ مشرك تحت اسم ثيوس، وكان النظام المسيحي ذاته متمحورًا حول ثيوس، لا حول الإله بالمعنى التوحيدي الأصيل. الغرب الوسيط هو ذاته الغرب المسيحي، لكن بخلاف ما يدّعيه المؤرّخون الحداثيّون والإنسانيّون، لم يكن عالمًا دينيًا بالمعنى الحقيقي، إذ إنّ المسيحية التي تشكّلت تدريجيًّا لم تكن هي تعاليم النبي عيسى الأصيلة، بل كانت تأويلًا عدميًا للعالم والإنسان يقوم على ثيوس.

في العالم الغربي القديم، اكتسب الكون طابعًا طاغوتيًا، فصار يتمتّع بالأصالة والمركزية والمحورية، وتجلّى زيوس عند اليونانيين، وجوبيتر عند الرومان، والصورة المثالية للإنسان في الغرب القديم ضمن هذا الإطار، محقّقًا فعليّته ووجوده. أما في الغرب في العصور الوسطى، فقد برز شكلٌ غير إلهي آخر، وهو «ثيوس»، الذي أصبح محورًا ومركزًا للأصالة، ومن خلاله تحقَّق العالم والكون، وكذلك الصورة المثالية للإنسان في الغرب الوسيط، ضمن هذا السياق. ثيوس في الغرب في العصور الوسطى، الذي تجلّى في هيئة المسيحية، يجمع في تكوينه جوانب من الإرث اليوناني-الروماني، كما يحمل سمات من العدمية في الفكر اليهودي، إلى جانب عناصر من الشرك الأسطوري الذي ميّز ما يُعرف بالديانات الغنوصية.

«ثيوس في العصور الوسطى المسيحية يحمل صفات وماهية مشابهة للآلهة

الأسطورية ذات الطابع الشركي، كما يشترك في خصائصه مع زيوس اليوناني وصفاته. وكأنّ إله المسيحية [ثيوس] هو صورة نشأت من مزيج يجمع بين يهوه، وزيوس، وأوزيريس»[1].

الخصائص العامة لعالم الغرب في العصور الوسطى

عالم الغرب في العصور الوسطى يقع في موقعٍ وسيط بين العالم الغربي القديم والعالم الغربي الحديث. في الواقع، بدأ تاريخ الغرب مع ظهور وهيمنة روح وجوهر الكون والنزعة الكونوية في سياق زمني يتّسم بالعدمية الزمنية، ثم استمرّ هذا المسار عبر أزمة الانحطاط التي أدّت في النهاية إلى زوال وانقراض العالم الغربي القديم. ومع ظهور وهيمنة ثيوس والنزعة الثيوسانترية، أيضًا ضمن سياق زمني عدمي، امتدّ وتشكّل عالم الغرب في العصور الوسطى، أو ما يُعرف بالغرب المسيحي. ورغم أنّ هذا العالم نشأ في امتداد الغرب القديم، ويُعدّ أحد تجلّيات ظهور التاريخ الغربي، إلا أنّه يختلف جوهريًا وأساسيًا عن كلٍّ مِن العالم الغربي القديم والعالم الغربي الحديث. ويبدو أنّ مصطلح «العصور الوسطى» استُخدم لأوّل مرة من قِبل كتّاب ومؤرّخي عصر النهضة الإنسانيّين في بدايات العالم الغربي الحديث[2]، وربما كانوا يهدفون من خلاله إلى التأكيد على المسافة الفاصلة بين عالم الغرب في العصور الوسطى والعوالم التي سبقته وتلته، أي العالم الغربي القديم والعالم الغربي الحديث، مع التشديد في الوقت ذاته على استمرار الحياة والحركة التاريخية للغرب العدمي.

1. Canney, An Encyclopedia of Religion.

٢. كاسمينسكي، تاريخ قرون وسطى، ٣، ٥.

يمكن إجمال الخصائص العامة لعالم الغرب في العصور الوسطى على النحو التالي:

- نشأ عالم الغرب في العصور الوسطى عقب أزمة الانحطاط التي أدّت في النهاية إلى انقراض العالم الغربي القديم. ورغم أنّ صورته النوعية تختلف عن الصورة النوعية لكلٍّ من العالم الغربي القديم الذي سبقه والعالم الغربي الحديث الذي تلاه، فإنّه في نهاية المطاف يُعَدّ إحدى صور ظهور التاريخ الغربي، وبالتالي يحمل في جوهره طبيعة عدمية (نيهيلية).
- الصورة النوعية الحاكمة على الغرب في العصور الوسطى تتّسم بالثيوسانترية، والعدمية في هذه المرحلة أيضًا ذات طابع ثيوسانتريّ. وتختبئ هذه العدمية الثيوسانترية خلف مظهر من التديّن وفيها تنشأ عوالم ظلامية حيث يسود الضلال والشرك الذاتي. أما الميتافيزيقا العدمية الثيوسانترية، فهي بمثابة النفس المدبّرة التي تتحكّم في بنية عالم الغرب في العصور الوسطى.
- في العصور الوسطى، يتوسّع تاريخ الغرب داخل النطاق الجغرافي لأوروبا أكثر من أيّ وقت مضى، بحيث تصبح مناطق من شمال ووسط أوروبا مشمولة ضمن مسار التاريخ الغربي. في الواقع، أدّى عالم الغرب في العصور الوسطى إلى تعزيز حضور الغرب ونفوذه وهيمنته، حتى إنّه مع نهاية العصور الوسطى، أصبح سكّان معظم المناطق الأوروبية مشاركين، بشكل أو بآخر، في التاريخ الغربي. وتجدر الإشارة إلى أنّ توسيع نطاق النفوذ والهيمنة الغربية داخل الرقعة الجغرافية الأوروبية بدأ منذ أواخر عهد الجمهورية الرومانية، إلا أنّه في الغرب خلال العصور الوسطى، أصبحت جميع مناطق أوروبا تقريبًا خاضعة للزمن الغربي.

- يمكن تسمية الغرب في العصور الوسطى بالغرب المسيحي، حيث إنّ العدمية الثيوسانترية تجلّت في هيئة العقيدة المسيحية وتوسّعت من خلالها. فمنذ أواخر القرن الثاني الميلادي، بدأت المسيحية في التشكّل ضمن إطار المؤسّسة الكنسية، حيث رسخت نفسها من خلال نظام هرمي واضح وهيكل إداري منظّم. وهكذا، ظهر النظام الأسقفي الكنسي واستمرّ في الامتداد والتوسّع طوال تاريخ العصور الوسطى. في هذا السياق، تأثّرت المسيحية في الغرب، التي كان مركزها في روما، ببعض الجوانب الثقافية والأدبية للإرث الإمبراطوري الروماني، وهو ما أدّى إلى اتّخاذ اللاتينية كلغة رئيسية للكنيسة المسيحية. طوال العصور الوسطى الغربية، كانت اللاتينية اللغة الرسمية والمعتمدة في الإدارة، كما كانت لغة التأليف في المجالات الفلسفية والنظرية، وأحيانًا الأدبية. ومع ذلك، ظلّت اللغات المحلّية في مختلف أنحاء أوروبا تتطوّر تدريجيًا، لا سيّما في أواخر العصور الوسطى، ومع الانحطاط التدريجي لهذا العالم، بدأت هذه اللغات في الخروج من الهامش لتصبح أدوات إنتاج ثقافي وأدبي. ومع عصر النهضة، ونتيجة لظهور العالم الحديث وتوسّعه، لعبت هذه اللغات الناشئة دورًا بارزًا في تشكيل الهويّات القومية الحديثة.
- كان الغرب في العصور الوسطى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية قائماً على نظام إقطاعي. ففي حين أنّ الغرب القديم كان يعتمد على اقتصاد قائم على العبودية، فإنّ اقتصاد عالم الغرب في العصور الوسطى كان اقتصادًا إقطاعيًا. (سنوضّح مفهوم الإقطاع لاحقًا، إن شاء الله). في الاقتصاد الإقطاعي للغرب في العصور الوسطى، كان مركز الثقل الاقتصادي متمركزًا في الريف، حيث كانت الحياة الاقتصادية والاجتماعية للغرب المسيحي خلال المراحل الأولى

والوسطى من العصور الوسطى تعتمد إلى حدّ كبير على الإنتاج الزراعي في القرى. غير أنّه منذ منتصف القرن الثاني عشر (بل وقبل ذلك بقليل)، بدأ دور «المدينة» في الاقتصاد الإقطاعي في التزايد تدريجيًّا، ممّا أوجد نوعًا من التوتّر بين المدينة والريف. وفي مرحلة الأزمة والانحطاط التي شهدها الغرب في العصور الوسطى، أصبحت المدن معاقل للطبقة الرأسمالية الناشئة والطليعة الاقتصادية-الاجتماعية للعالم الحديث، حيث خاضت صراعًا ضد هيمنة الكنيسة والأرستقراطية والنظام الإقطاعي.

يقول جاك لوغوف في كتابه أوروبا، مولود العصور الوسطى عند حديثه عن الفروقات بين «المدينة» و«الريف» في العصور الوسطى:

«إنّ ما تمّ اقتباسه من روما القديمة ثم تكييفه لاحقًا مع الأوضاع القائمة في العصور الوسطى هو هذه الحقيقة المتمثّلة في أنّ المدينة والريف كانا كيانين متضادّين، ولكن في الوقت ذاته متكاملين. فقد ألقى التناقض بين المدينة والريف بظلاله على التناقضات الثقافية العميقة بين أهل المدن وسكان الأرياف، وأثر ذلك امتدّ إلى أشكال وأبعاد أخرى. فالاستقرار الريفي ونمط الحياة القروية في أوروبا العصور الوسطى كان مصحوبًا بتطوّر الحياة الحضرية ونشوء المدنية. كان المحاربون والفلّاحون (إذ كان الأشراف، باستثناء إيطاليا، يقيمون عادةً في القلاع الواقعة في القرى وخارج المدن) ينظرون إلى سكّان المدن بمزيج من الغيرة والعداء، معتبرين تساهلهم ورغبتهم في الراحة علامة على الضعف. وعلى العكس، كان سكّان المدن ينظرون إلى خشونة الفلّاحين وافتقارهم للذوق بأسلوب ينطوي على ازدراء واضح»[1].

١. لوگوف، اروپا مولود قرون وسطى.

كما ذكرنا، فإنّ الغرب في العصور الوسطى كان في جوهره قائمًا على الريف، حيث كانت القرى تشكّل المركز الأساسي للحياة الاقتصادية والاجتماعية. غير أنّ عمليّة تأسيس المدن الكبرى، وتركّز الحرفيّين والتجّار والطبقة الرأسمالية الناشئة فيها، أدّت إلى بروز المدينة في مواجهة الريف، مما أسهم تدريجيًّا في نقل مركز الثقل الاقتصادي-الاجتماعي من القرى إلى المدن، وكان ذلك من العوامل التي مهّدت لانهيار النظام الوسيط في الغرب. في الغرب خلال العصور الوسطى، وُجِدت ثلاثة مراكز رئيسية للسلطة تعمل بشكل متوازٍ: الكنيسة، والمَلِك، والأشراف الإقطاعيون. وقد ظلّت هذه القوى الثلاث في صراع وتنافس دائمَين طوال الألفية الوسطوية، حيث كان ميزان القوّة في كل مرحلة من مراحل تاريخ الغرب المسيحي يميل لصالح إحداها أو تحالف اثنتين منها ضدّ الثالثة، ما أدّى إلى ديناميكيات معقّدة في توازن القوى داخل هذا العالم.

في مرحلة من تاريخ الغرب في العصور الوسطى، خضعت سلطة الكنيسة لهيمنة السلطة الملكية إلى حدّ أنّ البابا أصبح مجرّد تابع للملك. وبالمقابل، هناك فترات أخرى في تاريخ الغرب الوسيط بلغت فيها سلطة البابا والكنيسة درجة من القوّة جعلت ملك أروبي نفسه يذهب للاعتذار والانحناء أمام البابا.

وشهدت العلاقة بين الإقطاعيّين والملكية والكنيسة تغيّرات مستمرة في موازين القوى، حيث لم يكن هناك هيمنة ثابتة لأيّ طرف على الآخر. لهذا، فإنّ المنهج الشائع لدى المؤرّخين الحداثيّين، الذين يسعون إلى مهاجمة الدين وتحميل العقيدة الدينية مسؤولية المآسي والأخطاء التي وقعت في الغرب في العصور الوسطى، هو منهج غير دقيق ومغرض، إذ يعمدون أولًا إلى وصف هذه الحقبة بأنّها «عصر الإيمان» لربطها بالدين، وثانيًا إلى اعتبار الكنيسة القوة المهيمنة

الوحيدة في تلك الفترة، وهو طرح يتجاهل التعقيدات الفعلية لموازين السلطة في ذلك العصر.

ومن الضروري أيضًا الإشارة إلى نقطة أخرى مهمّة عند تناول تاريخ الغرب في العصور الوسطى، وهي أنّ المؤرّخين الإنسويّين في عصر النهضة، وكذلك مؤرّخو ما يُعرف بـ«عصر التنوير»، فضلًا عن بعض الكتّاب والمؤرّخين اليهود والماسونيّين، نظروا إلى تلك الحقبة بكراهيّة واضحة، مما دفعهم إلى تصويرها وكأنّها كانت عصرًا استثنائيًا من القمع والتعذيب ومحاكم «تفتيش العقائد»، في حين أنّ مثل هذه الممارسات لم تكن حكرًا على العصور الوسطى، كما يحاولون تصويرها، بل وجِدت أيضًا في كلٍّ من الغرب القديم والغرب الحديث، وإنْ بأشكال وصيغ مختلفة. ففي الغرب القديم، وُجدت أسوأ أشكال التعذيب، حيث كان الاستعباد والظلم الوحشي ضدّ العبيد أمرًا شائعًا ومقبولًا اجتماعيًّا، بل وكان يُعدّ جزءًا من «حقوق» مالكي العبيد. في روما القديمة، كانت آلاف الجماهير تتجمّع في المدرجات لمشاهدة مشاهد دموية مرعبة، حيث يُجبر العبيد على القتال حتى الموت مع الوحوش المفترسة، أو التناحر فيما بينهم في معارك المصارعين (الغلادياتور)، وكانوا يجدون متعة في تعذيبهم وقتلهم. لم تكن ممارسات التعذيب مقتصرة على الغرب الوسيط وحده، بل كانت حاضرة في كلّ من الغرب القديم والعالم الغربي الحديث، وهي لا تزال قائمة حتى اليوم. في الغرب القديم، وُجدت محاكم لتفتيش العقائد، ويمكن رؤية آثارها في الأحكام الصادرة ضدّ مفكّرين وفلاسفة مثل أنكساغوراس وسقراط. أما في الغرب الحديث، فقد شهدنا عبر فترات مختلفة أشكالًا متنوعة من محاكم تفتيش العقائد، ومن الأمثلة على ذلك حملة المكارثية في الولايات المتحدة خلال خمسينيات القرن

العشرين، ومجزرة البروتستانت عام ١٥٨٢ في فرنسا، ومحاكمات جان كالفن البروتستانتي ضدّ معارضيه، فضلًا عن اضطهاد ومنع نشر أعمال عزرا باوند من قبل الحكومة الأميركية بسبب آرائه، وصولًا إلى إصدار أحكام جنائيّة رسميّة بحقّ أيّ شخص يشكّك أو يتساءل بشأن صحّة الهولوكوست. غير أن المؤرخين الماسونيين واليهوديين، أولًا بسبب الكراهية والعداء الخاص اللذين يحملونهما تجاه الغرب في العصور الوسطى، وثانيًا بهدف تشويه أي نظام أو حقبة أو عالم يحمل طابعًا دينيًا عبر وصف الغرب المسيحي بأنه «ديني»، قد بالغوا عمدًا في تصوير مظالم وجرائم الغرب الوسيط. وعلى الرغم من أن هذه المظالم والجرائم قد وُجدت بالفعل، إلا أنها لم تكن حكرًا على العصور الوسطى، بل كانت حاضرة أيضًا في كلٍّ من الغرب القديم والغرب الحديث، بل وربما كانت أشدّ فظاعة في بعض الفترات. غير أنّ هؤلاء المؤرّخين قد صوّروا الأمر وكأنّ العصور الوسطى الغربيّة وحدها كانت عصر التعذيب والقمع ومحاكم تفتيش العقائد، وذلك بزعم أنّ هذا يعود إلى ما يسمّونه الطابع الديني لتلك الفترة، في حين أنّ هدفهم الحقيقي هو تبرئة الغرب اليوناني-الروماني المشرك والغرب الإنسوي الحديث (الذي يقوم على شركٍ إنسانوي) من هذه الجرائم. والحقيقة أنّهم يكذبون حين يدّعون أنّ الغرب في العصور الوسطى كان دينياً، إذ كان في جوهره مجرّد صورة من صور العدمية الغربية، يحمل ماهية غير دينية. كما أنّهم يكذبون حين يزعمون أنّ الغرب القديم والغرب الحديث كانا بريئَين من أمور كالتعذيب ومحاكم التفتيش، إذ شهد هذان العالمان أسوأ أشكال الاضطهاد والتعذيب والإبادة والجرائم والتنكيل بالمخالفين عقائديًّا، وما زالا يشهدانها حتى اليوم. وإذا نظرنا بواقعية، فإنّ سجلّ عالم الغرب الحديث فيما يخصّ جميع

أنواع المظالم والجرائم يفوق في سواده وخزيه ما كان عليه الحال في كلٍّ من الغرب القديم والغرب في العصور الوسطى.

منذ بداية ظهور الغرب كتاريخ وحتى تشكّل عالم الغرب في العصور الوسطى، أي من حوالي القرن الثامن قبل الميلاد وحتى أواخر القرن الرابع الميلادي، كانت القبائل والأقوام المختلفة، مثل اليونانيّين وشعوب آسيا الصغرى والرومان والمقدونيّين، هي التي عاشت ضمن إطار التاريخ الغربي. غير أنّه مع اقتراب نهاية الإمبراطورية الرومانية، وبالتزامن مع تزايد حضور ونفوذ القبائل الجرمانية داخل الإمبراطورية، ثم وقوع الهجمات التدميرية التي شنّها الجرمان والتي انتهت بالقضاء التام على الإمبراطورية الرومانية، بدأت مرحلة جديدة من الاندماج، حيث حلّت الممالك الجرمانية، صغيرة كانت أم كبيرة، محل الإمبراطورية المنهارة. وقد اعتنق العديد من القبائل الجرمانية المسيحية، ما جعلها جزءًا من الإرث الهويّاتي للغرب، وبالتالي اندمجت ضمن التاريخ الغربي.

وبهذا، فإنّ ظهور عالم الغرب في العصور الوسطى وتوسّعه لم يؤدِّ فقط إلى فرض الهيمنة التاريخية للغرب على عموم أوروبا، بل ساهم أيضًا في إدماج عدد أكبر من الأقوام والقبائل ضمن الكيان التاريخي للغرب من خلال دخولها في إطار العالم المسيحي الغربي.

وهكذا، امتدّت هيمنة العدمية الغربية من خلال عالم الغرب في العصور الوسطى، فلم تقتصر على اللاتينيّين واليونانيّين والمقدونيّين وبعض شعوب آسيا الصغرى والمناطق الشرقية لأوروبا، بل شملت أيضًا مختلف القبائل والأقوام الجرمانية، مثل الفرنكيّين، والوندال، والقوط، والأنجل، والساكسون، والألِمان، وغيرهم. ومع اندماج هذه القبائل الجرمانية في الثقافة المسيحية الغربية، بدأت

تدريجيًّا في تشكيل ممالك وأقاليم تحوّلت فيما بعد إلى الدول الحديثة مثل فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإسبانيا وبلجيكا وهولندا والنرويج وغيرها. دخول العنصر الجرماني، الذي حمل معه إرثًا من ثقافة وثنية غير يونانية-رومانية، إلى عالم الغرب في العصور الوسطى، أدّى في المجمل إلى توسيع الصورة النوعية لعالم الغرب المسيحي، وجعل الجرمان أنفسهم من حاملي التاريخ العدمي الغربي والثقافة الوُسطَوية. غير أنّ هذا الدخول لم يكن خاليًا من التوتّرات، إذ جلب معه عناصر من الصراع الداخلي، ما أدّى إلى ظهور نزعتين متلازمتين ومتضادّتين في آنٍ واحد داخل نسيج الغرب في العصور الوسطى: النزعة الثقافية والفنّية والأدبية اللاتينية والنزعة الثقافية والفنية والأدبية الجرمانية.

هذا التناقض، رغم ترابطه الداخلي، استمرّ عبر العصور، وظلّ يشكّل حالة من الحراك والصراع والتوتّر الداخلي سواء في العصور الوسطى أو في العالم الغربي الحديث. وفي بعض المراحل التاريخية، أدّى تباعد هاتين النزعتين داخل إطار تاريخي واحد إلى تفاقم الشروخ والانقسامات العميقة، ممّا أدخل الوجود الغربي برمّته في أزمات كبرى خلال بعض الفترات. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظهور النازية في النصف الأول من القرن العشرين. فعلى الرغم من أنّ النازية كانت أيديولوجيا إنسانوية نشأت ضمن عهد العالم الغربي الحديث، إلّا أنّها في الوقت ذاته اعتمدت على تفجير الصراع بين النزعة الجرمانية والنزعة اللاتينية (ضمن أفق العالم الحديث وسياقه التاريخي). وقد منحها هذا التوجّه قدرة إضافية، إذ زاد من أبعادها وقوّتها، وساهم في تعميق أزمة العالم الحديث وزعزعة أسسه بشكل جذري.

غزو الجرمان للرومان وانتصارهم على بقايا الإمبراطورية الرومانية المتآكلة

أدّى إلى القضاء على الاقتصاد العبودي الذي كان سائدًا في الغرب القديم، وحلّ محلّه نظام اقتصادي إقطاعي. في الواقع، كان ظهور الإقطاعية، بوصفها الشكل الاقتصادي المهيمن في الغرب في العصور الوسطى، نتاجًا لعملية تفاعل بين النظام المعيشي التقليدي للجرمان والنموذج الاقتصادي الروماني العبودي الذي كان يمرّ بأزمة عميقة وانحطاط حادّ في أواخر العهد الروماني.

أما المسيحية، فهي عقيدة لها جذورها اليهودية. ومع تنامي انتشار المسيحية في روما وظهور عالم الغرب في العصور الوسطى، أصبح للعدمية اليهودية، عبر تأثيرها الممتدّ من خلال المسيحية، دورٌ فاعل في الوجود التاريخي للغرب.

إنّ التفاعل الأوّلي بين اليهودية والفكر الغربي بدأ خلال الحقبة الهلنستية، في أعقاب فتوحات الإسكندر، حيث تجسّد هذا التفاعل في الفلسفة الهلنستية بعد أرسطو، ولا سيّما في الإسكندرية، من خلال أفكار فيلون وأفلوطين. غير أنّ هذا التفاعل، خصوصًا في فلسفة فيلون، لم يقتصر على تأثير الفلسفة اليونانية في الفكر اليهودي، بل شهد تأثّرًا عميقًا ومتبادلاً، حيث انخرط الفكر اليهودي في عملية امتزاج مع الفلسفة اليونانية. وكان هذا التداخل الفكري هو الذي هيّأ الأرضية لتركيب وصهر العناصر اليهودية واليونانية مع الأفكار الوثنية الشرقية في إطار المسيحية.

وعلى الرغم من أنّ المواجهة بين اليهودية والوجود التاريخي للغرب، بل وحتى نوعًا من الامتزاج، قد حدثت منذ العصر الهلنستي في عهد الإسكندر وخلفائه، فإنّ العدمية اليهودية لم تصبح قوّة فاعلة ومؤثّرة في المسارات التاريخية للغرب إلا عبر المسيحية وعبر تحوّل الوجود التاريخي للغرب إلى كيان يحمل طابعًا مسيحيًا.

في عـام ٣٩٥ ميـلادي، انقسـمت الإمبراطورية الرومانيـة (في آخر عقود حياتها) إلى قسمين، غربي وشرقي. انهارت الإمبراطورية الغربية في وقت لاحق بشـكل كامل نتيجـة لهجمات قبائل وشـعوب الجرمان، وتـمّ تدميرها. ولكن الإمبراطوريـة الشرقية، التي عُرفت بـ«الإمبراطورية البيزنطية»، اسـتمرّت في وجودها. تحوّلت الإمبراطورية الغربية إلى معقل للمسيحية الكاثوليكية، وبهذا تمّ استقرار المسـيحية الكاثوليكية الرومانية وتوسّعها، وزادت دائرة نفوذها في أوروبا الوسـطى والشـمالية والغربية، وإلى حدّ ما في أوروبا الشرقية أيضًا. أما الإمبراطورية الشرقية، فقد سـارت تدريجيًّا نحو نوع من المسيحية الذي يُسمّى «المسيحية الأرثوذكسـية». في عام ١٠٥٤ ميلادي، حدث أوّل انشقاق كبير في الكنيسـة، وبذلك انفصلت «الكنيسة الأرثوذكسـية»، التي كانت تتمتّع بالقوة في بيزنطة وكان نفوذها الأكبر في اليونان وشـبه جزيـرة البلقان وبعض مناطق أوروبا الشرقية، رسميًّا عن الكنيسـة الكاثوليكية الرومانية. وكان هذا الحدث أكبر انشـقاق في نظام الكنيسة المسيحية في غرب العصور الوسطى. وبعد بضعة قرون، حدث انشقاق كبير آخر أدّى إلى ظهور الكنيسة البروتستانتية، وذلك في القرن السادس عشر خلال العصر الحديث.

عالم الغـرب المسـيحي، بحكم طبيعتـه الاسـتعلائية المنبثقة مـن جوهره العدمي، يتّسـم بنزعة عدوانية، وتجسّـد أحد أوجه هـذه النزعة في هجماته على الأراضي الإسلامية الشرقية وفلسطين. في عام ١٠٩٥ ميلادي، أطلقت الكنيسة الكاثوليكية والنبلاء الإقطاعيون المسـيحيّون سلسـلة من الحـروب العدوانية ضدّ أراضي المسـلمين، عُرفت مجملًا باسم «الحروب الصليبية». استمرّت هذه الحروب نحو قرنين، وارتكب فيها الغزاة الغربيّون في العصور الوسـطى مجازر وظلمًا واسع النطاق في إطار هذه الاعتداءات الدموية.

الغـرب في العصور الوسـطى، بناءً على جوهره العدمي، اتّسـم بخصيصة علمانية. ومع أنّ العلمنة الثيوسـانتركية في القرون الوسـطى تختلف في أسسها عـن العلمنة الكونوية للعـالم القديم والعلمنة الإنسـانية للغرب الحديث، فإنّ العلمنة المسـيحية في العصور الوسـطى، كغيرها من صور العلمنة، قامت على تجريد الأمور من قدسـيّتها وإقصاء جوانب الدين الحقيقي وإبعاده عن مختلف مجالات الحياة الإنسانية.

الصـورة الأصليـة للفكر في عالم الغـرب في العصور الوسـطى هي الفكر السكولاستيكي المسيحي. يُستخدم مصطلح «السكولاستية» في اللغة اللاتينية بمعنى «المدرسي»، ولأنّ أسس هذا النمط الفكري وُضعت في المدارس الكنسية المسـيحية، التي كانت تُسـمّى في اللاتينية «سـكولا»، فقد عُرف باسـم الفكر السكولاستيكي.

كان النموذج الأساسي للحياة الجماعية والمدنية-السياسية في الغرب القديم، وخصوصًا في اليونان القديمة، قائمًا على «البوليس»، الذي قد يمكن العثور على بعض وجوهه في مفهوم «المدينة». غير أنّ البوليس، من حيث المفهوم، كان ظاهرة خاصة وحصرية بالغرب اليوناني، وليس له نظير في العوالم التاريخية الأخرى. فقد كان البوليس اليوناني مرتبطًا بشكل محدّد بالروح الكونوية العدمية وبالاقتصاد القائم على العبودية في الغرب القديم. في العالم اليوناني، كانت إنسـانية الإنسان تتحقّق وتتحدّد أساسًا من خلال انتمائه إلى البوليس، ولذلك فإنّ مفهوم المدينة أو أيّ مصطلح آخر في اللغات غير اليونانية لا يمكن أن يعكس جوهر العدمية الكونوية التي حملها. في عالم الغرب في العصور الوسطى، لم يكن مفهوم «الأمة» و«القومية» قد ظهر بعد، ولم يكن الأفراد يُصنَّفون أو يُعرَّفون بناءً على انتماءاتهم القومية في المقام الأول.

في العصور الوسطى، وُجد نوع من «الجماعة المسيحية» التي كانت تتحدّد وتتحقّق في ظل هيمنة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وفي إطار هذه الجماعة المسيحية ظهرت طائفة واسعة من الانتماءات والتصنيفات الفرعية المتنوّعة. كانت هذه الانتماءات والتصنيفات تُبنى على أسس متعدّدة، من بينها الموقع الجغرافي لمكان الإقامة (مثل لومبارديا، بريتاني، الجنوب، الألب و...)، والارتباطات الناشئة عن الثروة والمكانة الاقتصادية-الاجتماعية (مثل كون الشخص من السينيورات، أو من الأتباع الأقنان، أو من الفرسان، أو الكرادلة أو...)، وكذلك اللغات واللهجات المحلّية والإقليمية التي كان الناس يتحدّثون بها (مثل الإيطالية، والإسبانية، والألمانية، التي ظلّت معظمها لغات محلّية، هامشية، وشبه رسمية خلال جزء كبير من تاريخ العصور الوسطى).

كانت جميع هذه التصنيفات تتمّ في إطار الجماعة المسيحية كإطار عام شامل. ولذلك، عند دراسة طبيعة التنظيم المدني-السياسي والهويّاتي للمجتمعات البشرية الواسعة في العصور الوسطى، ينبغي الانتباه إلى أنّ الأساس الرئيسي في تحديد هوية الأفراد في الغرب الوسيط كان مدى ارتباطهم بالجماعة المسيحية التي كانت تتمحور حول الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وبطبيعة الحال، إلى جانب هذا الإطار الأساسي، وُجدت شبكة واسعة من الانتماءات المتعدّدة والمختلفة التي صنّفت الأفراد ضمن مراتب شتّى داخل البنية الاقتصادية، والسلطة السياسية، والانتماءات المحلّية، والثقافية، والإثنية، وغيرها. وبهذا، كان الفلاح الفرنسي، على سبيل المثال، يُعدّ تابعًا للملكية الفرنجية أو لأسرة البوربون، مما كان يميّزه عن الفلاح الألماني المتحدّث بالألمانية، الذي كان تابعًا لأمير محلّي في منطقته.

في كثير من الحالات، كان مدى هذه الفروقات والاختلافات في الانتماءات يتفاقم إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث، رغم انتماء الجميع إلى «الجماعة المسيحية»، كان يؤدّي إلى نشوء توتّراتٍ وصراعاتٍ داميةٍ وانقساماتٍ صغيرةٍ وكبيرة.

في العالم الغربي خلال العصور الوسطى، كان هناك نوعٌ من نظام الأخلاقيات الكنسي، باعتباره الصورة الأساسية للأخلاق في تلك المرحلة. هذا النظام الأخلاقي، رغم كونه في جوهره وباطنه علمانيًا وليس دينيًا، إلا أنّه كان يختلف كثيرًا عن الأخلاقيات العلمانية-الإنسانوية الحديثة. ومع أنّ جوهر الأخلاقيات الكاثوليكية ليس دينيًّا، إلا أنّه يمكن ملاحظة بعض العناصر والتعاليم الأخلاقية الدينية فيه. أخلاقيّات الكنيسة الكاثوليكية كانت متداخلةً مع البُنى الاقتصادية والإطار الجماعي الإقطاعي لتلك المرحلة، بحيث كانت تتماشى إلى حدٍّ ما مع المعايير الإقطاعية، بل وتدعم، من بعض الجوانب، النظامَ والتراتبَ الاجتماعي للجماعات الإقطاعية في الغرب خلال العصور الوسطى.

ترتكز الأخلاقيات الكاثوليكية على مزيجٍ من التعاليم الأخلاقية اليهودية ومنظومة القيم الأخلاقية اليونانية، ولا سيما «الأخلاق النيقوماخية» لأرسطو. ومن الجدير بالذكر أنّ التعاليم الأخلاقية للكنيسة الكاثوليكية، وربما بتأثيرٍ من الفكر الأرسطي اليوناني، كانت تعارض الربا، وهو ما يتعارض مع الأخلاقيات اليهودية ذات الطابع المالي.

كانت الأخلاقيات الكاثوليكية تُدين تراكم الثروة والاكتناز والسعي غير المنضبط وراء الربح، وكذلك جَعْلَ النشاطات الاقتصادية تتمحور حول المنفعة المادية البحتة بهدف تحقيق المكاسب المالية. ومن هذه الزاوية أيضًا، كانت تختلف عن نظام الأخلاقيات اليهودي. كما لعب النظام الأخلاقي الكنسي (الكاثوليكي)

دورًا أساسيًا في الحفاظ على بقاء واستمرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية للغرب في القرون الوسطى، والتي كانت ترتكز على النظام الإقطاعي.

كتب إي. ك. هانت عن النظام الأخلاقي للكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى قائلًا:

«هذه الأخلاقيّات، التي شكّلت العامل الروحي لتماسك أوروبا الإقطاعية وكانت تدعم حكّامها، تمثّل النسخة القروسطية من التقليد اليهودي-المسيحي... وفي هذا الكتاب، نطلق عليها تسمية «الأخلاق الأبوية المسيحية» كما كانت تُفهم وتُفسَّر في العصور الوسطى. كان اليهود أتباع التوراة يعتبرون أنفسهم بحقٍّ أبناء الله الواحد... كانت الأخلاقيات الأبوية المسيحية، بمسؤولياتها تجاه الأغنياء في مقابل الفقراء، قد اكتملت وتبلورت بشكل أكثر دقّة واتّساعًا بفضل آباء الكنيسة الذين جاؤوا لاحقًا. وتعكس كتابات كليمان الإسكندري تجلّيًا واضحًا للاتّجاه التقليدي لكنيسة العصور الأولى، حيث شدّد على مخاطر الجشع، وحبّ الماديات، وتكديس الثروة. يكفي القول إنّه حتى بداية العصر الإقطاعي، كانت الأخلاق الأبوية المسيحية قد ترسّخت بعمق في الثقافة الغربية الأوروبية. كان الجشع، والطمع، والسعي وراء المصالح المادّية الفردية، والرغبة في تراكم الثروة، وسائر الدوافع الفردية ذات الطابع المادّي، تُدان بشدّة. وكان الشخص المفرط في جمع الثروة والفردانيّ التوجّه يُعدّ نقيض الإنسان الصالح، الذي يهتمّ برفاهية جميع إخوته. الأسس الفلسفية والدينية التي قام عليها سلوك أهل العصور الوسطى كانت امتدادًا للأخلاق الأبوية المسيحية. وكانت الإضافات المحافظة جدًّا عند توما الأكويني، وكذلك تعاليم معظم آباء الكنيسة في العصور الوسطى، تأكيدًا على أنّ العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للنظام المانُوري في العصور الوسطى

ليست إلا انعكاسًا للنظام الطبيعي الأبدي لهذه العلاقات، وهو في الحقيقة تدبيرٌ إلهيٌّ مقدّر...

وهكذا، أمكن توظيف الأخلاق الأبوية المسيحية في تبرير المظالم الكبرى والاستغلال الشديد الناجم عن تمركز الثروة والسلطة في أيدي الكنيسة والنبلاء، وهذا ما حدث بالفعل. ينبغي دراسة الفكر الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى مع الأخذ في الاعتبار النظرة شديدة الازدراء التي كان يحملها الناس آنذاك تجاه التجارة وروحها. فقد كانت الحياة القروسطية قائمةً على العرف والتقاليد، وكان بقاؤها مشروطًا بقبول أفراد المجتمع لهذه التقاليد ومواقعهم فيها. في البيئات التي تسود فيها أخلاقيّات التجارة الرأسمالية، يميل معظم الناس إلى اعتبار الجشع والأنانية والطمع والرغبة في تحسين الوضع المادّي والاجتماعي خصائص طبيعيّة للبشر. أما الأخلاق الأبوية المسيحية، فقد كانت تدين باستمرار شهوة تكديس الثروة، وكانت الكنيسة ترى أنّ الربا أسوأ أشكال جمع المال. وقد أشار العديد من المؤرّخين إلى أن الأساقفة والرهبان الكبار، وكذلك الدوقات والكونتات والملوك، كثيرًا ما كانوا ينتهكون هذه المحظورات علنًا، حيث كانوا يقرضون الأموال مقابل الفائدة. غير أنّ ما يهمّنا أكثر من الانتهاكات والذنوب هو القيم والدوافع التي حكمت تلك المرحلة. كانت النزعة إلى تعظيم الأرباح المالية، وتكديس الثروة المادّية، وتحقيق التقدّم الاجتماعي والاقتصادي من خلال المال في طريقها لأن تصبح الدافع المهيمن على النظام الرأسمالي الحديث. وهكذا، فإنّ ما كان يُعدّ خطايا تستوجب أشدّ الإدانة في إطار الأخلاق الأبوية المسيحية، أصبح فيما بعد المبادئ السلوكية التي قام عليها الاقتصاد الرأسمالي بأكمله»[1].

١. هانت، تكامل نهادها و ايدئولوژی‌های اقتصادی، ٤٤ - ٤٥؛ ٤٧ - ٥٣.

كان نظـام الأخلاقيـات في الكنيسـة الكاثوليكيـة غير متوافقٍ مـع النزعة النفعيـة ذات الطابع الفرداني للإنسـان الحديث والعالم الحديـث، وهي النزعة التي انتشرت تدريجيًّا بعد زوال النظام القروسـطي بدءًا من القرن الثالث عشر فصاعدًا. ولذلك، لم يكن هذا النظام الأخلاقي ملائمًا لمناصري النزعة الإنسانية والحداثة وأسـس النظام الرأسمالي الحديث. ومع ذلك، فقد كان عاملًا مؤثّرًا في ترسيخ العدمية الثيوسانترية، وفي دعم العهد والعالم القائمَين على هذا الأساس. كانت الأخلاق الكاثوليكية دعامةً للنزعة الثيوسـانترية المسـيحية وللتسلسل الهرمي الكنسي، كما كانت حاميةً لنظام الاستغلال الإقطاعي، وهو ما سنتطرق إليه بالتفصيل لاحقًا عند الحديث عن الاستغلال الإقطاعي. ومن هذا المنظور، كانت جوهرًا للشرك والطابع الاسـتبدادي في العقيدة المسـيحية، ومظهرًا من مظاهر الاستكبار الذي ميّز الغرب في العصور الوسطى.

كانـت الأخلاقيات الكنسـية تفتقر إلى الطابع الحـماسي للعدالة الاجتماعية والمناهضـة للظلـم، ولم تكـن تحمـل في طيّاتهـا التعاليم والأحـكام أو الروح الثورية الكفاحية المسـتوحاة من التعاليم المقدّسة. ورغم أنّ أخلاقيّات الكنيسة الكاثوليكيـة، بالمقارنة مـع النظام الأخلاقـي النفعي للعالم الحديـث والنظام الرأسمالي الذي نشـأ عنه، تنطوي على بعض الجوانب الإيجابية والروحانية، إلا أنّها في جوهرها وحقيقتها ليست سـوى صورة من صور الأخلاقيات العدمية الغربية، وحلقة من حلقات منظومتها. بهذا المعنى، كانت الأخلاقيات الكنسية، بطريقتها الخاصة، عاملاً مسـاهماً في ترسيخ شـكلٍ من أشكال النزعة الظلامية والخضوع لسلطة الطاغوت، الذي طبع العصور الوسطى.

أما العهد المسـيحي، فقد كان قائمًا على نظامٍ خاصٍ للعالم والإنسان، يختلف

عن التصوّر الذي ساد في الغرب القديم. كان الغرب في العصور الوسطى ذا طابع ثيوسانتري، وكان الإنسان الغربي خلال تلك الحقبة يتحقّق وجوده ضمن هذا الإطار الثيوسانتري.

كان النموذج المثالي للإنسان في الغرب القديم هو «البطل-المواطن»، وهو التجسيد الذي احتوى في ذاته التصوّر الغربي القديم، لا سيّما اليوناني، عن الفضيلة وجوهر الإنسانية. ومع تغيّر العهد والعالم في الغرب خلال العصور الوسطى، تغيّر كذلك النموذج المثالي للإنسان.

في التصور القروسطي الغربي، كان الإنسان ابنًا لـ«ثيوس» قد انفصل عنه، ولا يستعيد مقام البنوّة إلا من خلال المسيح والإيمان به. النموذج المثالي للإنسان في الغرب القروسطي هو نموذج الابن الذي جحد أباه (ثيوس) وانحدر إلى مرتبة «العبودية»، ثمّ قام الإله بتجسيد نفسه في جسد المسيح ليخلّصه، فيعود إلى مقام البنوّة من جديد. تحمل العقيدة المسيحية في جوهرها نزعة شركية، إذ تفترض نوعًا من المشاركة والاندماج بين الله والإنسان، بحيث يصبح الإنسان، كما جاء في إنجيل يوحنا، «ساكنًا في الله والله ساكن فيه»[1]، وبذلك، فإنّ الإيمان بالمسيح يجعل الإنسان متمحورًا حول المسيح، وهذا هو معنى «الشركة في المسيح»[2]. ولأنّ المسيحية ترى أنّ المسيح هو ذاته الله الذي تجسّد ونزل إلى الأرض، فإنّ محوريّة المسيح ليست سوى رواية من روايات الثيوسانتريّة.

«المسيح هو ابن الله والإله المتجسِّد... والمسيحي، بعد المعمودية، يُصبح جزءًا من المسيح: «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣: ٢٧)»[3].

---

١. انظر: سليمان اردستاني، سرشت انسان در اسلام و مسيحيت، ٩٣.

٢. م. ن.

٣. م. ن، ٩٢.

يعتبر بولُس المسيحَ «ابن الله» وواحد الجوهر مع الله بل الله نفسه، ويزعم يوحنا أنّ الله ساكن في الإنسان والإنسان في الله[١]. ففي الباطن ذي الطابع الشركي للمسيحية «كان للإنسان مكانةٌ خاصة في مخطّط الله؛ فالعلاقة بين الإنسان والله علاقة أبوة وبنوة، وللإنسان، بمعنى من المعاني، مسحة من الألوهية. ولكن الإنسان فقد هذه المكانة بسبب خطيئة آدم، وانحدر إلى منزلة العبد والمملوك. فجاء ابن الله إلى الأرض، وتجسّد بهيئة إنسان، وصُلب، وكان فداءً عن خطيئة آدم، حتى يُفتدى البشر وتُتاح لهم العودة إلى مقامهم ومكانتهم الأصلية. وبفضل تضحية المسيح، صار من الممكن للإنسان أن يعود إلى ذلك المقام»[٢].

في المسيحية، فإنّ الله والإنسان (والعياذ بالله) يتقاسمان علاقة الأبوة والبنوة، ويشكّلان معًا أوديسةً من الاغتراب والانفصال، تنتهي في نهاية المطاف باللقاء والاتّحاد. غير أنّ ما يلفت الانتباه في هذه الأوديسّة من التباعد والتيه والانفصال، هو أنّ الإنسان، بما أنّه يرى نفسه ابنًا لله، لا يعتبر العبودية لله كمالًا، بل يسعى أصلًا إلى نفي مقام العبودية. فالإنسان في التصور المسيحي يرى نفسه ابنًا وشريكًا ومساويًا لله، ويحرص على حفظ هذه المساواة. النموذج المثالي للإنسان في العالم القروسطي هو «الإنسان بوصفه ابنًا لله (ثيوس)» والذي يُفترض أن يبلغ، من خلال الثيوسانترية، المرتبة التي يعتبرها مقامه الحقيقي، أي مرتبة الشراكة والمساواة مع الله.

إنّ هذا التصوّر للبنوّة والمساواة والشراكة بين الإنسان والله (التصوّر الثيوسانتري ذي الطابع الشركي) يشكّل البنية الأساسية للنموذج المثالي للإنسان

١. م. ن، ٩٤.
٢. م. ن، ٩٥.

في عالم الغرب القروسطي. ويبدو أنّه في هذا النموذج المثالي للإنسان المسيحي، يمكن تمييز ملامح صورة «القدّيس-الفارس». غير أنّه لا بد، في الحديث عن «القدّيس»، من الانتباه إلى المفهوم المسيحي لهذا المصطلح؛ إذ إنّ القدّيس في المسيحية يُجسّد حالة من الرهبنة الإنسانية التي تضع جانبًا في الغالب الأبعاد النضالية والعدالية والجهادية والحقانية في التعاليم الدينية والروحية، وتنزوي بدلًا من ذلك في ضربٍ من العزلة والتجرّد ورهبنةٍ مريضة، مستوحاة من تعاليم شركية لمذاهب الأسرار، ومن الشرك البوذي والهندوسي. مفهوم «القدّيس» في الفكر المسيحي يختلف عن مفهوم «المعصوم» في الرؤية الإسلامية الأصيلة؛ فالقدّيس في المسيحية إنسان عادي، وتكمن سِمته الأساسية في التزامه بنهج الرهبنة.

وإن كان المسيحيون ينسبون إلى قدّيسيهم الكرامات والمعجزات وسائر الأمور الخارقة، ويسعون إلى رفع مكانتهم وشأنهم فوق مرتبة البشر العاديّين، إلا أنّ التأمل في مفهوم القدّيس ومصاديقه في السياق المسيحي يكشف أنّهم في الغالب أشخاص بشريّون عاديّون، وكان كثير منهم يشغلون مناصب كنسية، وتميّزهم الأبرز كان في الرهبنة والالتزام الكامل بهذا البُعد من التعاليم المسيحية. وغالبًا ما نُسبت إليهم كرامات لا تُعرَف درجة صدقيّتها على وجه التحديد. على أيّ حال، فإنّ البُعد القدّيسي أو الرهباني في النموذج المثالي للإنسان في الغرب القروسطي ينطوي على نزعة تساهم في تبرير الوضع القائم الظالم في الغرب الإقطاعي، وتُعدّ من دعائم طبيعته العدمية.

ويمتلك هذا النموذج المثالي للإنسان في الغرب القروسطي بعدًا مكمّلًا آخر يُجسّد وجهًا من أوجه الظهور والحضور المرتبط بالنزعة القتالية والفضائل الأخلاقية المتصلة بها. ويمكن تلمّس هذا الوجه المكمّل في مفهوم «الفارس».

الفرسان هم نبلاء ينتمون إلى الطبقات الوسطى في الهرم الإقطاعي، يقاتلون دفاعًا عن سيّدهم، وفي الوقت نفسه يدافعون عن مجمل النظام الإقطاعي وهَرَميّته. والفرسان، بما يجسّدونه من روح الفروسية، يُعَدّون تعبيرًا عن تصوّر الغرب في العصور الوسطى لمفهوم القتال و«الفضائل الأخلاقية» المرتبطة بالبطولة والبأس، ضمن الإطار الثيوسانتري. ورغم أنّ الفروسية تختلف عن الرهبنة، فإنّها تتجلّى وتُفهم داخل نطاق الثيوسانترية المسيحية وتحت مظلّته.

في عالم الغرب القديم، كانت الفضيلة والبطولة تُعرَّف وتتحقّق من خلال القتال النخبوي الساعي إلى المجد، كما عَرَفه النبلاء اليونانيون والرومانيون. أما في عالم الغرب القروسطي، فإنّ الشكل الأبرز للبطولة يتجسّد في نمطٍ من «الفروسية الإقطاعية-المسيحية». تتّسم الفروسية الإقطاعية-المسيحية بطابع قتالي ونزوع إلى الشهرة، وجوهرها دنيويّ. وهي قائمة على قواعد وأيمان إقطاعية، ونتيجةً للعدمية التي ميّزت الغرب الثيوسانتري، فهي في جوهرها غير دينية، وتُمثّل تعبيرًا عن نمطٍ من الأخلاقيات الإقطاعية.

كان الاتجاهان الرهباني والفروسي، ضمن كونهما واقعَين تحت مظلّة الثيوسانترية المسيحية، يشكّلان بُعدين متكاملَين، لكنّهما في الوقت نفسه يقفان من بعض الوجوه في موقع التزاحم والتضاد. وقد أفضى هذا التلازم والتضاد المتزامن إلى نشوء مساراتٍ متعرّجة ومضطربة في البنية الانفعالية والنفسية لصورة الإنسان النوعية في القرون الوسطى، كما انعكس ذلك في طباع وأخلاق وسلوك الأفراد والجماعات في الغرب القروسطي.

كانت الدوافع الأساسية للانفعالات والسلوكيات عند الإنسان في العصور الوسطى، في جوهرها، هي السعي نحو (والعياذ بالله) المساواة والشراكة مع الله

ضمن علاقة البنوّة، والتشـديد على حفظ الهويّة الإنسانية في مواجهة الله. وهذه النزعة تتجلّى بصورة أكثر عينيّة وملموسـة في نمط حياةٍ يتأسّـس على منظومة الأخلاق المسيحية، وعلى الهرمية الإقطاعية، وعلى الفروسية الممتزجة بالرهبانية، حيث تتجسّد هذه النزعة في صورة واقعية ومتحقّقة.

النموذج المثالي للإنسـان في القرون الوسـطى، من حيث الذاتية التي تهيمن عليه، كان لا يزال بحاجة إلى خطوة أخرى كي يتطوّر ويتحقّق في صورة الذاتية الحديثة، أي في هيئة الإنسـان الذي يؤسِّـس ذاتَه على الاستقلال النفسي المطلق بوصفه صورةً نفسـانية قائمة بذاتها. وقد تحقّق هذا التحـوّل في أواخر التاريخ القروسـطي للغـرب، وفي مطلـع العالم الحديث، عـلى أثر هيمنـة روح وفكر الإنسـانيّة والحداثة. ومن هذا المنظور، يمكن اعتبار النموذج المثالي للإنسان في الغرب القروسـطي حلقةً وسيطةً بين النموذج المثالي للإنسان في الغرب القديم والنموذج المثالي للإنسان الحديث.

يُقال إنّ مصطلح «العصور الوسـطى» اسـتُخدم لأول مرّة من قِبل المؤرّخ الإيطالي فلافيو بيوندو في القرن الخامس عشر. وفي هذا السـياق، يقول جيمس أ. كورك:

«اصطفى المـؤرّخ الإيطالي فلافيو بيوندو في القـرن الخامس عشر مصطلح «العصـور الوسـطى». ومن وجهة نظره، كـما في رأي مؤرّخـي عصر النهضة الآخرين، كانت العصور الوسـطى أو المرحلة الوسـطى حقًّا فـترة انتقالية في التاريخ العالمي، لأنّها جاءت بين العصر الكلاسـيكي لحضـارة اليونان وروما وبين عصر النهضة»[١].

١. كوريك، قرون وسطاي اوليه، ٩.

من منظورٍ ما، يمكن تقسيم الحقبة الغربية المسيحية إلى ثلاث مراحل رئيسية: مرحلة النشوء والتكوّن الأولي لعالم الغرب في العصور الوسطى، وتمتدّ من سنة ٣٨٢ ميلادية حتى سنة ٨٠٠ ميلادية.

مرحلة النضج والاكتفاء وبلوغ الذروة لعالم الغرب في القرون الوسطى، وتبدأ من سنة ٨٠٠ ميلادية حتى سنة ١٠٧٦ ميلادية (أي العقود الأخيرة من النصف الثاني للقرن الحادي عشر الميلادي).

مرحلة الأزمة والانحدار التي قادت في النهاية إلى اندثار عالم الغرب المسيحي، وتمتدّ من سنة ١٠٧٦ ميلادية حتى سنة ١٣٤٧ ميلادية.

وفي تعبير آخر، يمكن القول إنّ مرحلة النشوء والتكوّن الأولي للغرب الوسيط تبدأ في العقود الأخيرة من القرن الرابع الميلادي وتستمرّ حتى القرن التاسع. وبعد ذلك، تبدأ مرحلة نضج الغرب في القرون الوسطى وذروته منذ مطلع القرن التاسع، وتستمرّ حتى العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. ومنذ هذه العقود، تبدأ بوادر الأزمة والانحدار بالظهور، وتدخل المسيحية الغربية في طور التدهور، إلى أن تنقرض بشكل كامل في منتصف القرن الرابع عشر.

الإقطاع والأقنان

الصيغة الاقتصادية-الاجتماعية السائدة في أوروبا العصور الوسطى (في الغرب المسيحي الكاثوليكي الوسيط) كانت هي الإقطاع. الإقطاع هو نمط تنظيمي اقتصادي واجتماعي يُبنى على أساس قيام الإقطاعي، وهو ربّ الأرض الكبير، بمنح جزء من أراضيه وموارده لشخص آخر.

وفقًا لهذا النظام، يُدعى ربّ الأرض الأصلي بالسينيور، ويُطلق على مالك الأرض التابع له اسم الفاسال. وكان الفاسال ملزمًا، مقابل الأرض والامتيازات

التي يحصل عليها من سينيوره، بأن يخضع له ويقدّم له خدمات، خاصة في المجال العسكري، وذلك من خلال توفير رجال مقاتلين والقتال إلى جانبه عند الحاجة.

ويتابع هذا التسلسل الهرمي الإقطاعي حيث يقوم الفاسال نفسه بمنح جزء من أرضه وموارده إلى إقطاعي أصغر منه (أصغر من حيث حجم الأراضي والمكاسب الاقتصادية)، فيصبح هو السينيور لهذا الإقطاعي الصغير، بينما يُصبح الأخير فاساله. ويستمر هذا التسلسل التراتبي حتى يصل إلى الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون فاسالين تابعين لهم. وفي النظام الإقطاعي للغرب الوسيط، كانت الغالبية العظمى من الفلاحين مرتبطين بالأرض، ويُطلق عليهم اسم الأقنان (السِرف).

«السرف» هو فلاح يرتبط بالأرض التي يملكها سيّده، ولا يحقّ له مغادرتها. وإذا ما بيعت الأرض، فإنّ المالك الجديد يحلّ محلّ السيّد السابق ويصبح هو السيّد الجديد لهذا الفلاح. السرف ليس عبدًا، ووضعه بالمقارنة مع العبيد في العالَمَين اليوناني والروماني أفضل نسبيًّا؛ فهو يملك حقّ الحياة، ويُسمح له بأن يؤسّس أسرة، ويملك قدرًا ضئيلًا من الممتلكات، كقطعة أرض صغيرة يزرعها لحسابه ضمن ملكية السيّد، بالإضافة إلى بعض الدواجن كالديك والدجاجة ونحوها. ومع ذلك، يبقى السرف خاضعًا للنظام الإقطاعي ويؤدّي أعمال السخرة في أراضي السيّد، أو يدفع له إتاوة إقطاعيّة إمّا على شكل محاصيل زراعيّة كالحبوب والقمح والشعير والبيض والأرزّ وغيرها، أو على شكل نقدي.

وفي النظام الإقطاعي، لا وجود لسلطة مركزيّة قويّة، إذ إنّ كلّ سيّد إقطاعي كبير في منطقته، ويُعرف بلقب «كونت» أو «دوق» أو «لورد»، يتمتّع بدرجة من الاستقلال القانوني والقضائي والسياسي. ورغم أنّ الملك يتربّع على قمة

الهرم الإقطاعي، فإنّه لا يملك بالضرورة سلطة مطلقة أو متفوّقة، وفي كثير من الأحيان لم يكن النبلاء الإقطاعيّون يولون للملك قدرًا كبيرًا من الاحترام أو الخضوع.

كما أشرنا سابقًا، فإنّ منظومة السلطة في الغرب المسيحي قامت على ثلاثة محاور أساسية: الملك، والنبلاء الإقطاعيون، والكنيسة، وكانت هذه المحاور الثلاثة قائمة على قدم المساواة، إذ لم يكن أحدها بالضرورة تابعًا للآخر، بل كانت العلاقة بينها متغيّرة بحسب السياقات التاريخية والظروف المختلفة، من حيث طبيعة التفاعل وميزان السلطة والنفوذ الذي يحوزه كلٌّ منها. أدّت هجمات القبائل والجماعات الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية، بالتوازي مع تمرّدات العبيد والفلاحين المعدمين المستأجرين، إلى انهيار الإمبراطورية الرومانية وزوالها، لتحلّ محلّها حكومات محلّية وإقليميّة صغيرة تابعة للقبائل الجرمانية، انتشرت في مناطق متفرّقة من أوروبا. وقد أدّى هذا التحوّل إلى ظهور تدريجي للعلاقات الاقتصادية-الاجتماعية الإقطاعيّة عقب انحلال المنظومة الإمبراطورية.

يمكن القول إنّ نشوء الإقطاعية وتبلورها كان نتيجةً لأزمة تدهور وانسداد الآفاق في العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية للعالم الغربي القديم، القائم على نظام الرقّ، كما كانت تمثّل توليفة تاريخية بين البنية الاقتصادية-الاجتماعية الجرمانية من جهة، وإرث العبودية الروماني من جهة أخرى. وقد بدأ هذا التحوّل بالتشكّل منذ أوائل القرن الخامس الميلادي، متزامنًا مع انكسار الإمبراطورية الرومانية القديمة وصعود القبائل الجرمانية، وتطوّر على مراحل حتى اكتمل وتمدّد. وقد شكّل النظامُ الإقطاعي الإطارَ الاقتصادي-الاجتماعي السائد طوال تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

«طبيعة نمـط الإنتاج الإقطاعي الذي نشـأ في أوروبا الغربية كانت تتّسـم بوحدة معقّدة. فهذا النمط من الإنتـاج كان خاضعًا لهيمنة الأرض والاقتصاد الطبيعي، حيث لا العمل ولا نواتجه يُعدّان سلعة. المنتج المباشر، أي الفلاح، كان مرتبطًا بوسـيلة الإنتاج، أي الأرض، من خـلال علاقات اجتماعية مخصوصة. الصيغـة الحرفية لهذه العلاقـات تُعبَّر عنها من خلال تعريـف نظام السرف أو التبعية لـلأرض، حيث كانت حرية تنقّل السرف من الناحيـة القانونية مقيّدة. الفلاحـون الذين كانوا يقطنون في القرى ويزرعون الأراضي الزراعية لم يكونوا مالكـين لها، بل كانت ملكية الأرض الزراعية واقعة تحت سـيطرة طبقة النبلاء الإقطاعيين، الذين كانوا يسـتخرجون الفائض من الفلاحين بواسطة علاقات سياسية–حقوقية قائمة على الإكراه.

هـذا الإكراه المتجـاوز للطبيعـة الاقتصادية، والـذي كان يتجلّى في صورة السُخرة أو الإتاوات العينيّة أو الديون المعتادة التي يدين بها الفلاح لسيّده، كان يُمارَس سـواء في أراضي الملكية الخاصة التي كانت تعود مباشرة إلى السـيّد، أو في الأراضي المؤجَّـرة وقطع الأرض الصغيرة التـي يفلحها الفلاحون. وكانت النتيجة الحتميّة لذلك مزيجًا من الاستغلال الاقتصادي والسيطرة السياسية. كان الفلاح التابع خاضعًا للسلطة القضائية لسيّده. وفي الوقت نفسه، كانت حقوق الملكية التي يمتلكها السـيّد على الأرض منظمة على نحـو هرمي نموذجي، إذ لم تكـن ملكيّته مطلقة بل كان قد تلقّى هـذه الحقوق من أحد النبلاء الأعلى منه مرتبـة، وكان مدينًا له بخدمة الفروسـية، أي بتوفير عـدد من الجنود الجاهزين للخدمـة العسـكرية زمن الحرب. كانت الحلقات الوسـيطة في هذا التسلسـل الهرمي الإقطاعي خلال المراحل الأولى من العصور الوسـطى تتكوّن عادة من

مناصب مثل حاكم القصر، أو البارون، أو الكونت، أو الأمير، حيث تتوسّط هذه الرتب بين السيّد المحلي والسلطة الملكية التي تملك الإقطاع الأصلي. وقد ترتّب على هذا النظام أنّ السيادة السياسية لم تتركّز يومًا في مركز واحد، بل ظلّت موزّعة ومجزّأة...

تميّز النظام الإقطاعي في الغرب بثلاث سمات بنيويّة أساسية شكّلت عناصر حاسمة في ديناميكيّته: أولًا، استمرار وجود الأراضي المشاعية في القرى والأراضي الخاصّة بالفلاحين، وهي بقايا من أنماط الإنتاج ما قبل الإقطاعي؛ ثانيًا، تقسيم السيادة إلى مناطق إقطاعيّة ذات نزعة انفصالية وحدود متداخلة؛ وثالثًا، غياب سلطة مركزية عامة وفاعلة. وقد أفسحت هذه السمات المجال على الدوام لنشوء مؤسسات تنظيمية «متباينة الطبيعة» داخل الفجوات والثغرات البنيوية للمجتمع...

السمة الثانية، والتي تُعدّ أكثر أهمية، هي تجزئة السيادة على نحو إقطاعي، وهي التي أفضت إلى نشوء الظاهرة المدينية في أوروبا الغربية خلال العصور الوسطى. إنّ حقيقة كون أكبر مدن العصور الوسطى لم تبلغ قطّ، من حيث الحجم، منافسة مدن العالم القديم أو مدن الإمبراطوريات الشرقية، قد تخفي في كثير من الأحيان واقعًا أهمّ، وهو أنّ وظيفتها الاجتماعية كانت أرقى وأشدّ تقدّمًا. فقد كانت المدن النموذجية في أوروبا القرون الوسطى تمارس الصناعة والتجارة، وكانت كيانات بلدية تتمتّع بالحكم الذاتي، لها استقلال سياسي وعسكري من الطراز المهني أو الرُّتبي، متميّزة بذلك عن سلطة النبلاء والكنيسة... أما السمة الثالثة فهي وجود غموض أو تذبذب بنيوي في قمّة الهرم الإقطاعي بأكمله. إذ كان رأس هذه السلسلة، من جوانب عدّة، الحلقة الأضعف فيها. فالمستوى الأعلى من التسلسل الإقطاعي في أيّ إقليم معيّن في أوروبا الغربية لم يكن يختلف جوهريًّا

عن المستويات الدنيا لطبقة السادة الإقطاعيين، بل كان يختلف عنها فقط من حيث الدرجة. بعبارة أخرى، لم يكن الملك سيّدًا أعلى متفوّقًا على رعاياه، بل كان هو نفسه سيّدًا إقطاعيًا مرتبطًا بفاساليه بعلاقات مبايعة متبادلة، تقيّده كما تقيّدهم، لا سيّدًا مطلق السلطة فوقهم. أما مصادره الاقتصادية فكانت محصورة بشكل فريد ضمن أملاكه الشخصية بصفته سيّدًا إقطاعيًا، في حين أنّ استدعاءه لفاساليه كان يتمّ لأغراض ذات طابع عسكري بالأساس. ولم تكن له أيّ سلطة سياسية مباشرة على الشعب ككل، لأنّ حق ممارسة السلطة القضائية على الناس كان يمرّ عبر طبقات متعدّدة من التبعية الإقطاعية.

في الواقع، لم يكن الملك يُعدّ سيّدًا إقطاعيًا إلّا ضمن أراضيه الخاصّة، أمّا خارجها، فكان في الغالب مجرّد شخصية رمزية أو بروتوكولية. غياب أيّ آليّة فعليّة للدمج على مستوى قمّة النظام الإقطاعي، وهو ما كان سمةً مميّزة لهذا الشكل من الحكم، كان يشكّل تهديدًا دائمًا لاستقراره وبقائه. فالتجزئة التامّة للسيادة كانت تتنافى مع وحدة النبلاء كطبقة اجتماعية، إذ إنّ الفوضى الكامنة في هذا التفكّك كانت تهدّد بتقويض نمط الإنتاج بأسره، وهو النمط الذي تستند إليه امتيازاتهم الحصرية.

ومن هنا برز التناقض الجوهري الكامن داخل الإقطاعية، بين ميلها القوي نحو تفكيك السيادة، من جهة، وبين النزوع الدائم نحو البحث عن مركز نهائي للسلطة يمكن أن يُعاد فيه تركيب النظام عمليًّا، من جهة أخرى. وهكذا، فإنّ نمط الإنتاج الإقطاعي في الغرب كان في صميم بنيته يحمل توترًا وتناقضًا داخليًا ديناميكيًا، ضمن منظومة حكم لا مركزية، كانت تنتج نفسها وتعيد إنتاج ذاتها بطريقة عضوية»[1].

١. اندرسون، گذار از عهد باستان به فئوداليسم، ١٨٧ -٨٩؛ ١٩١ -٩٤.

في تقييم عام، يمكن تلخيص سمات الإقطاعية بوصفها التشكيلة الاقتصادية السائدة في العالم الغربي خلال العصور الوسطى على النحو الآتي:

أولًا، الإقطاعية قائمة على اقتصاد طبيعي، أي أنّ النقود والإنتاج السلعي لا يحتلّان موقعًا محوريًّا أو ذا أهمية جوهرية في هذا النمط من الاقتصاد. ولم تبدأ النقود بلعب دور مؤثّر نسبيًا في اقتصاد الجماعات الإقطاعية إلّا في خضمّ أزمة الانحطاط التي شهدها الغرب في أواخر العصور الوسطى، حيث ارتبط هذا الدور بشكل أساسي بعمليات التبادل وشراء السلع من المدن.

ثانيًا، الإقطاعية تمثّل نظامًا اقتصاديًا-اجتماعيًا قائمًا على الاستغلال. ففي إطار الاقتصاد الإقطاعي، يضطلع السرف (الفلاح المرتبط بأرض السيّد) والتبعية الإقطاعية بالدور الأساسي. ورغم أنّ السرف كان يتمتّع بأوضاع أفضل نسبيًا من أوضاع العبيد في العالم الغربي القديم، إلّا أنّه ظلّ في المجمل عرضة للاستغلال، سواء من خلال السُّخرة، أو من خلال التنازل عن جزء من المحصول للسيّد (كإتاوة عينيّة)، أو، في سياق انحدار الغرب في أواخر العصور الوسطى، عبر دفع الإتاوة بشكل نقدي.

ثالثًا، في العلاقات الإقطاعية، كان المالكون العقاريون، الذين يُعرَفون في اللغات الأوروبية المختلفة بألقاب مثل «لورد» و«كونت» و«دوق» ونحوها، ويشكّلون بدورهم هرمًا تراتبيًا متدرّجًا، يعيشون من خلال استغلال السرف. إلى جانب هؤلاء، كان عدد كبير من الفلاحين يشتغلون في الزراعة بوصفهم «فلاحين أحرار».

رابعًا، في إطار النظام الإقطاعي، ورغم أنّ الوضع الاقتصادي للسيّد كان أفضل من وضع السرف، فإنّ الفارق بينهما لم يكن فادحًا أو صارخًا كما هو الحال

في الغرب الحديث، حيث يبدو التفاوت بين مستوى المعيشة ونمط الحياة لدى القلّة القليلة من كبار الرأسماليّين الذين يشكّلون أقل من واحد في المئة، وبين الشرائح الدنيا من العمّال والفقراء والمهمّشين، كأنّهما يعيشان في عالَمَين منفصلَين تمامًا، أحدهما يعجّ بالثروة والرفاه، والآخر مثقل بالبؤس والظلم والحرمان.

خامسًا، في الاقتصاد الإقطاعي، كان السرف يمتلك في نهاية المطاف قطعة أرض صغيرة يفلحها، وكان يُعدّ نوعًا من المنتجين المستقلّين، ولو على نطاق ضيّق. ورغم أنّه كان يؤدّي السُّخرة في أرض السيّد، أو يدفع له إتاوات عينيّة أو نقدية، إلّا أنّه كان مع ذلك يمتلك قدرًا محدودًا من وسائل الإنتاج، مثل الأرض الصغيرة وبعض الدواجن، ومكانًا بسيطًا يتيح له تدبير شؤون معيشته.

«في العصر الإقطاعي، كان الفلاح يُعدّ منتجًا صغيرًا مستقلًّا. فبالرغم من أنّه كان يعمل في أرض السيّد ويُستغلّ من قِبله، إلا أنّه كان يمتلك في الوقت ذاته قطعة أرض صغيرة يضعها الإقطاعيُّ تحت تصرّفه. وكانت هذه الأرض تُورّث عمليًّا من الأب إلى الابن. كما كان الفلاح يمتلك، ولو على نحو بدائي، بيتًا خاصًا وساحة منزلية ودوابًا وأدوات عمل زراعية. وقد تميّز الاقتصاد الإقطاعي بدمج ملكية الأرض الإقطاعية مع الوحدات الزراعية الصغيرة المستقلة التي كان يديرها الفلاحون»[1].

سادسًا، في الاقتصاد الإقطاعي، كان كلّ سيّد (ضمن التسلسل الهرمي للإقطاعيين) يمنح جزءًا من الأرض أو قرية ما يسيطر عليها إلى رجل مخلص له من المرتبة الأدنى، يُعرف بالفاسال. وكانت هذه القطعة من الأرض، أو الجزء الممنوح من القرية، تُعرف في اللغات الأوروبية بمصطلحات مثل فيود وبنفيس

١. كاسمينسكي، تاريخ قرون وسطى، ١٩، ٢٥.

وفيف. وكان الفاسال ملزَمًا بتقديم خدمات معيّنة لسيّده، مقابل منحه الفيود الذي تلقّاه من السينيور (السيّد)، والذي يُسمّى في بعض اللغات الأوروبية «اللورد».

ساد داخل النظام الإقطاعي نوعٌ من التنافس، وأحيانًا حتى من التنازع القائم على الطموح إلى السلطة، بين الملك، والنبلاء الإقطاعيين، والهرم الكنسي، وهو ما كان يؤدّي غالبًا إلى إضعاف أحد أو اثنين من أركان السلطة الثلاثة. وقد بدأت بعض ملامح الاقتصاد الإقطاعي تتشكّل تدريجيًا منذ أوائل القرن الخامس الميلادي، عقب انتصار القبائل الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية. وفي حدود سنة ٥٠٠ ميلادي، قام كلوڤيس، أحد أوائل ملوك الفرنجة – وهي إحدى القبائل الجرمانية التي استقرّت بالكامل في الإقليم الذي نعرفه اليوم باسم فرنسا بعد سقوط روما – بإضفاء طابع رسمي على بنية التراتب الإقطاعي، ولعب دورًا كبيرًا في ترسيخ هذا النظام وتوسيعه.

يكتب تيموثي بيل في معرض شرحه للاقتصاد الإقطاعي والتسلسل الهرمي لهذا النظام، ودور كلوڤيس فيه، ما يلي:

«لقد أوجد الإقطاع في أوروبا العصور الوسطى نظامًا اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا لم يتكرّر في أيّ زمان أو مكان آخر في العالم. وكان هذا النظام قائمًا على عقد أو قسم فئودالي بين السادة (اللوردات) والفاسالات (الخدم التابعين). وكان الفاسال في العادة فارسًا. وكان جوهر هذا القسم هو التزام الفاسال بالولاء وتقديم الخدمة العسكرية لسيده الأعلى أو للورد الذي يتبعه. وفي المقابل، كان السيّد يمنح فاساله «في» (fee) أو عطية. وكانت الكلمة اللاتينية المرادفة لـ«في» والتي استُخدمت حتى القرن العاشر في معظم الطقوس والوثائق الرسمية، هي

«فئودوم» (feudum)، وهي الكلمة التي اشتُقّ منها مصطلح «فئودالية». أمّا في الإنجليزية والفرنسية، فقد شاع استخدام كلمة «فيف» (fief) بدلًا من «في» أو «فئودوم». في البداية، كان السادة يمنحون أتباعهم هدايا مثل دروع أو أسلحة أو منازل، لكن في حدود سنة ١٠٠٠ ميلادية، أصبح الفيف السائد قطعة أرض يمنحها السيّد للفاسال، يُسمح له بامتلاكها طيلة حياته، طالما ظلّ يخدم سيّده بإخلاص. وكان للفاسال الحقّ في أن يحكم كلّ من يسكن في أرضه، وأن يجبي منها ما يراه من مداخيل تعود إليه. وبهذا الشكل، ارتقى الفرسان تدريجيًّا من كونهم جنودًا نخبة ومقاتلين أشدّاء إلى أن صاروا أعضاء أثرياء في الطبقة الحاكمة. وهكذا تحوّل القَسَم الفئودالي، الذي كان يُعرف غالبًا في القرون الوسطى باسم «قسم الولاء»، من مجرد تعهد بالولاء العسكري إلى وسيلة سياسية لاكتساب الأرض والسلطة. وكان حجم الفيفات التي يحصل عليها الفاسالات متفاوتًا بدرجة كبيرة. فعلى سبيل المثال، قام ملوك فرنسا وإنجلترا بتقسيم كامل ممالكهم إلى خمسين أو ستين «فيف»، أُسنِدت كلّ واحدة منها إلى فاسال. وقد أصبح هؤلاء الفاسالات هم اللوردات الكبار في فرنسا وإنجلترا. ففي فرنسا كانوا يُعرفون عادةً بلقب «دوق» أو «كونت»، أما في إنجلترا فكان اللقب الشائع هو «دوق» أو «إيرل» (earl). وكان يُتوقّع من اللورد الكبير، متى ما طُلب منه ذلك، أن يوفّر للملك جيشًا كبيرًا من الفرسان، قد يصل في بعض الأحيان إلى عدّة مئات. ولكي يفي اللوردات الكبار بعهود الولاء أو الالتزامات الفئودالية تجاه الملك، كانوا بدورهم يقسمون دوقياتهم أو كونتياتِهم أو إيرلياتهم بين فاسالاتهم. وكانت فيف هذه الفاسالات من المرتبة التالية (أي الفاسالات التابعين للفاسالات الكبار) واسعة إلى حدّ أنّ شخصًا واحدًا لم يكن قادرًا على إدارتها بمفرده، فكانوا يعيدون

تقسيمها مرة أخرى، حتى نصل إلى أدنى درجات الهرم الفئودالي، حيث يكون الفاسال الأخير مالكًا لِفيف لا يتجاوز قرية واحدة ومساحة زراعية تقرب من مئة جريب. وبهذه الطريقة، جرى تقسيم معظم شمال أوروبا. فالدول كانت تُقسَّم إلى دوقيات أو كونتيات أو إيرليات، وهذه كانت تُجزَّأ بدورها إلى فيفات أصغر، ثم تُعاد هذه الفيفات تقسيمها وتفتيتها مرات أخرى. وكان جميع الفاسالات، بغضّ النظر عن حجم الفيف الذي يمتلكونه، يُعدّون في نهاية المطاف من أفراد الطبقة الأرستقراطية. ورغم أنّ كثيرًا منهم لم يكن لديه فاسالات تابعون له، إلا أنّه ظلّ سيّدًا على كلّ الفلّاحين الذين كانوا يعيشون في أرضه، وكان يتمتّع بسلطة شبه مطلقة على حياتهم ومعيشتهم... قام كلوڤيس بتبنّي القوانين والعادات والتقاليد الرومانية، وأسّس في كامل مملكته تراتبية مستوحاة من نموذج الكنيسة الرومانية. تمامًا كما كانت الكنيسة توزّع سلطتها إقليميًا بين الأساقفة، قسّم كلوڤيس مملكته بين أقوى أتباعه من القادة المحليين»[١].

سابعًا، كان الاقتصاد الإقطاعي عمومًا قائمًا على الإنتاج والتوزيع المحدود على نطاق صغير. وكانت معظم العائلات تنتج حاجاتها الأساسية بنفسها، ولم يكن الإنتاج السلعي - بمعنى الإنتاج من أجل البيع في السوق وليس للاستهلاك الشخصي - رائجًا أو واسع النطاق. أما الأسواق التي كانت موجودة، فكانت أسواقًا محليّة صغيرة تخضع لمنظومة من القوانين والأعراف الإقطاعية، تختلف من حيث طبيعتها عن العقلية الربحية التي ميّزت البورجوازية لاحقًا في الغرب الحديث. ولذلك، يمكن القول إنّ السوق الإقطاعية ما قبل الحديثة تختلف جوهريًا من حيث البنية والمقصد عن السوق الرأسمالية الحديثة.

١. بيل، عصر فئوداليسم، ١٠-١٢، ١٨.

ثامنًا، كانت شبكات الأصناف الحرفية في النظام الاقتصادي الإقطاعي تمارس سيطرة مباشرة على عمليات الإنتاج والتوزيع، وبذلك كانت تضمن سريان قواعد وأخلاقيات النظام الإقطاعي على الأنشطة الاقتصادية، بما يحافظ على طابع هذا النظام ويحول دون خروجه عن إطاره الاجتماعي والأخلاقي.

العدمية الثيوسانترية

العدمية التي كانت سائدة في الغرب خلال العصور الوسطى تتّسم بطابع ثيوسانتري، وهذا ما يجعلها تختلف عن العدمية الكونوية التي طبعت العالم الغربي القديم، وكذلك عن العدمية الإنسانية (الأومانيستية) الحديثة.

يمكن تلخيص السمات الأساسية للعدمية الثيوسانترية في الغرب الوسيط كما يلي:

أولًا، في العدمية المسيحية، يشكّل حجاب الثيوس والثيوسانترية عائقًا يحول دون إدراك الحقّ وحقيقتِه، ويؤدّي إلى غفلة عن مبدأ الحقّ نفسه، وهو ما يجعل من شكل من أشكال الطاغوتية واقعًا فعليًا ومتحقّقًا.

ثانيًا، العدمية في الغرب الوسيط لا تنكر وجود الله صراحة، لكنّها تقدّم فهمًا محرّفًا ومشوَّهًا ومشوبًا بالشرك له. ففي التصوّر العدمي الثيوسانتري لله، يختلط الشرك اليوناني بالشرك اليهودي، مع إرث الشرك الأسطوري القائم على التصور التثليثي. وهذه العدمية تُنكر الولاية الإلهية، وإن كانت تمارس هذا الإنكار أحيانًا من خلال مسارات مستبطنة من منطق وتفكير يوناني-يهودي، لتُفعّل هذا الإنكار على نحو عملي.

ثالثًا، في العدمية الوسيطية، تُرى إشارة إلى الاعتقاد بقيم أخلاقية مطلقة وخالدة. غير أنّ هذه القيم، رغم اشتمالها الظاهري على عناصر دينية وقدسية،

فإنّ جوهرها وباطنها واتّجاهها الرئيسي طاغوتي ومحكوم بمنطق الطاغوت.

رابعًا، تستند العدمية الثيوسانترية إلى نمط من الشريعة والأخلاقيات ذات الطابع اليهودي-الروماني، وهي سمة تبعد مسار حياة الإنسان في الغرب المسيحي عن طريق القرب الإلهي، وتُضلّه عن وجهة التوحيد.

خامسًا، تقوم العدمية المسيحية على علاقة مشوبة بالشرك بين الله والإنسان؛ علاقة تقوم على نوع من التماثل والتكافؤ الكفري بين البشر والإله، الأمر الذي يفتح المجال تدريجيًا لتطوّر نحو الذاتية الفلسفية (السوبجيكتيفية)، وهي الصيغة التي ستُهيمن لاحقًا على الغرب الحديث في صورة الأومانية (الإنسانوية). إنّ التصوّر الشركي لإله متجسّد يُضحّي بنفسه من أجل خلاص الإنسان، ينطوي في جوهره على بذور خفيّة لفكرة الاستقلال الذاتي، وهي البذور التي ستتكشّف لاحقًا في الغرب الحديث وفي إنسانويته. وفي أعماق العدمية الوسيطية، يكمن نوع من القلق الأخلاقي، سيُعبّر عن نفسه بشكل متزايد في القرون الأخيرة من العصور الوسطى، تزامنًا مع تصاعد أزمة الانحطاط التي عصفت بالعالم المسيحي الغربي. لقد سعت القشرة الدينية الظاهرية للعالم الغربي في العصور الوسطى إلى كبح هذا القلق الوجودي العميق، إلا أنّ الانشقاقات المتعدّدة التي طرأت على بنية الفكر السكولاستيكي المسيحي، وظهور تيّارات روحانية ذات مضامين إنسانوية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، ووقوع أحداث مفصلية مثل ما جرى في قضية بيتر أبيلار، إضافة إلى تنامي التوجّهات المتباينة في المجالات الثقافية والأخلاقية والمدنية في الغرب الوسيط - ولا سيّما خلال قرونه الأخيرة - كانت جميعها مؤشّرات وتجلّيات لقلق عميق أخذ يتفعّل تدريجيًا، وراح يعمّق ويكثّف حالة التمزّق في العالم المسيحي الغربي.

وفي قرون الأزمة والانحطاط التي شـهدها الغرب الوسيط، نرى أنّ هذا القلق العدمي الثيوسـانتري أخذ يتجلّى أحيانًا في صـورٍ ممزوجةٍ بمضامين من العبث واللاجـدوى، ما يعكـس ملامح باكرة لانهيـار البنية المعنويـة والدينية لذلك العصر.

العلمانية الثيوسانترية

الغـرب، بوصفه ماهيةً تاريخية، ذو طابع عدمي في جوهره ونوعه. فالتاريخ العدمـي هو بالضرورة تاريخ علـماني، وجميع مراحل التاريـخ الغربي تحمل في طبيعتها سمات العدمية، وبالتالي فهي علمانية في جوهرها. وعالم الغرب في القرون الوسـطى، رغم مظهره الديني، كان يحمل هو الآخر خصيصةً علمانية، بوصفه جزءًا من هذا السـياق الغربي العام. فالعلمانية، في معناها الأسـاسي، تعني نزع الطابع الديني عن شـؤون الحياة الفردية والجماعية، وإخراج الدين من مركزية التنظيم المجتمعي.

وقد تمّ نزع الطابع الديني في الغرب الوسيط من خلال منظومة الثيوسانترية، وتحت ولاية طاغوتية، حيث جرى فصل الثقافة والقيم والاقتصاد والسياسـة والمجتمـع عن الديـن، وإن لم يكن ذلك بصيغة صريحة ومبـاشرة كما هو الحال في العلمانيـة الحديثة. فالعلمانية في الغرب المسـيحي كانـت مغلّفة بظواهر دينية وشـكليات إيمانية، تفتقر إلى الوضوح والصراحة التي ميّزت العلمانية في العصر الحديث.

العلمانية، بوصفها ظاهرة مركّبة، تتخذ أوجهًا وتجلّيات متعددة، ومن أبرزها العلمانية السياسية، أي إخراج الدين من مركز الحياة السياسية والاجتماعية، وهي الصورة التي تُعدّ الأكثر شهرة وتداولًا. ومنذ بدايات الفكر المسيحي، وُجد ميل

ضمنـي نحو الفصل بين الدين والدولة، على الرغم من أنّ هذا التوجّه كان محلّ صراع من قِبل بعض البابوات النافذين، وفئة داخل الكنيسـة سعت إلى ترسيخ مركزية دينية جامعة. وفي العالم الغربي خلال العصور الوسطى، لم تكن العلمانية محصـورة في المجال السـياسي، بل ظهـرت أيضًا في تجليات متعـدّدة للأخلاق والثقافة، وكلّ ذلك ضمن إطار ثيوسانتري مسيحي.

التفكير المدرسي

كان التيّار الفكري الرئيس في العالم الغربي خلال القرون الوسطى رائجًا في المؤسّسـات التعليمية التي كانت تُعرف في اللغة اللاتينية باسم «سكولا»، ومن هنا جاءت تسمية هذا النمط من التفكير بـ«المدرسي» أو «السكولاستيكي». ففي الغرب الوسيط، كان التفكير المدرسي هو الشكل الغالب للتفكير. وقد نشأ هذا التفكير وتفعّل ضمن أفق العدمية الثيوسانترية، وكان متأثّرًا بشكل عميق بمنطق الفلسفة اليونانية وبالروح الهلنستية.

كان التفكـير المـدرسي متداخلًا عـلى نحو وثيـق مع جوهر الثيوسـانترية المسيحية، بل إنّه في الواقع كان تمثيلًا فلسفيًّا وصيغة مؤطّرة لهذه الثيوسانترية.

ويكتب أحد مؤرّخي الفلسفة عن شيوع الفلسفة المدرسية قائلًا:

«قام شـارلمان، إمبراطور الفرنجة ومؤسّس السـلالة الكارولنجية، في سنة ٧٣٢ ميلادية، بتأسيس مدرسة في مدينة إيكس-لا-شابيل عُرفت باسم المدرسة البالاتينية، وعيّن رئيسًا لها راهبًا يُدعى ألكوين، كان من موضع ثقته. وسرعان ما انتشرت هذه المدارس الكبيرة والصغيرة في مختلف الأماكن، وكانت ذات طابع ديني بدرجات متفاوتة. وكان الأثرياء يرسـلون أبناءهم إليها، وكان الأطفال،

بحسب استعداداتهم، يحقّقون فيها درجات من النجاح»[١].

يمكن اعتبار التفكير المدرسي تمثيلًا فلسفيًّا وممنهجًا للثيوسانترية المسيحية. فقد كانت السكولاستيكية، بوصفها مجموعة من الآراء والمذاهب الفلسفية، تمثّل النمط الأساسي للتفكير في الغرب خلال العصور الوسطى، وكانت تشكّل البنية التحتية للنظام التعليمي الكنسي. وإن كانت بذور السكولاستيكية قد زُرعت في فلسفة آباء الكنيسة، فإنّ الملامح الرئيسة للفكر السكولاستيكي تبلورت في أفكار «أثيناغوراس» و«كليمنس» و«ترتليان»، ولا سيما في فكر «أوغسطين».

أما نشأة شبكة المدارس الكنسية المتسلسلة، التي كانت تُعنى بتدريس النصوص والمضامين التعليمية السكولاستيكية، فترجع إلى القرن الثامن الميلادي، في عهد شارلمان وما بعده. ويمكن تحديد السمات العامة والأساسية للفكر السكولاستيكي على النحو الآتي:

التفكير السكولاستيكي هو مزيج من الثيوسانترية المسيحية وفلسفتَي فيلون وأفلوطين، وقد تأسّس على منطق حصولي أرسطي. وهو يحمل في طياته تأثيرات عميقة من الفكر اليهودي الهلنستي والفكر اليوناني المتمثّل في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. ومع ذلك، فإن التفكير السكولاستيكي، في جوهره وحقيقته، ليس تفكيرًا دينيًّا خالصًا.

يرتكز جوهر الفكر السكولاستيكي في الغرب الوسيط على تعاليم بولس بشأن تجسّد الإله في صورة بشر، وفكرة تضحيته بنفسه لخلاص البشرية، وعقيدة التثليث.

وفي الحقيقة، فإنّ مجمل الفكر السكولاستيكي هو محاولة لصياغة تفسير

١. دكرشنتزو، فيلسوفان بزرگ قرون وسطى، ٦٦ - ٦٧.

فلسفي لهذه التعاليم، وكأن الثيوسانترية المشركة اتّخذت لنفسها غلافًا فلسفيًّا يخفي حقيقتها؛ غلافٌ نُسجت خيوطه، بوجه خاص، من أفكار فيلون وأفلوطين، ومن بعض الآراء الرواقية.

في الفلسفة اليونانية القديمة، كان لـ«لوغوس» دور ومكانة بالغة الأهمية. فقد كان يُنظر إليه، من زاوية معيّنة، بوصفه النطق الكامن في الطبيعة، وكان يعكس صوت الكون. وفي الفلسفة الرواقية، كان «لوغوس» يُعتبر «القانون الكوني». أما في الفكر السكولاستيكي المسيحي، فقد اكتسب «لوغوس» بُعدًا ثيوسانتريًّا باطنيًّا، بل إنه عُدَّ في بعض الاتّجاهات مرادفًا للإله. لكن مفهوم الإله في الفكر السكولاستيكي المسيحي لا يحمل تعريفًا دينيًّا توحيديًّا، بل هو مفهوم مشوب بعناصر أسطورية شركية، يهودية ويونانية، أعيدت صياغته ضمن إطار الثيوسانترية.

وفي داخل الفكر السكولاستيكي، برزت اتّجاهات ومقاربات متعدّدة متنافسة فيما بينها؛ فبعضها تأثّر بالفلسفة اليونانية بدرجة أكبر، فيما تأثّرت أخرى بالنزعات اليهودية وبمصادر وتيارات أخرى أسهمت في تشكيل السكولاستيكية. ومع ذلك، فإنّ الفكر السكولاستيكي، في مجمله، يتّسم باتجاه رئيسي جعله النمط الفكري الغالب في العالم الغربي خلال العصور الوسطى. منذ نشأته وحتى تراجع هيمنته بفعل بروز العالم الحديث وظهور أولى تجليات الفكر الإنساني، مرَّ الفكر الاسكولاستيكي بمراحل تطورية متعاقبة، اجتاز خلالها فترات وتحولات متعددة.

٢. ظهور العالم المسيحي الغربي (٣٨٢ م – ٨٠٠ م)

في مطلع القرن الرابع الميلادي، كانت الإمبراطورية الرومانية تعيش آخر

عقود انحطاطها المتفاقم. لقد كانت هذه الإمبراطورية آخر الحلقات في سلسلة ظهور واتّساع وتطوّر العالم الغربي القديم، ومع انهيارها، حلّ بالفعل زوال وانقراض هذا العالم. كانت أزمة الانحطاط في الغرب القديم قد بدأت منذ القرن الأول الميلادي، غير أنّ وتيرتها تسارعت بشدّة في القرن الرابع، وازدادت حدّتها وعمقها.

وتزامنًا مع هذا التسارع في مسار الانحطاط وانكشاف مظاهر الضعف والوهن في الإمبراطورية الرومانية، كانت موجات هجمات القبائل الجرمانية على حدود الإمبراطورية تتصاعد أيضًا. وقد بلغت الأوضاع في روما درجة من التدهور جعلتها عاجزة حتى عن الدفاع عن حدودها. وبحلول عام ٣٠٠ م، كان عدد كبير من جنود الجيش الروماني من أصول جرمانية.

«في الواقع، بحلول هذا التاريخ، كان عدد الجنود الجرمان الذين يقاتلون في صفوف الجيش الروماني يفوق عدد الجنود الرومان أنفسهم، بل إنّ بعض كبار القادة كانوا من الجرمان. ثم في نحو عام ٤٠٠ م، اجتاحت جحافل الهون القادمة من آسيا الوسطى الأراضي الأوروبية، ممّا أدّى إلى موجة هجرة كبرى للقبائل الجرمانية باتّجاه الغرب، داخل الإمبراطورية الرومانية. وقد حدّد المؤرّخون عددًا من القبائل الجرمانية التي استوطنت داخل الإمبراطورية في القرن الخامس؛ فقد جاءت من غرب ألمانيا قبائل الفرنجة والأنجل والسكسون، ومن شرقها جاءت القوط، والوندال، والبرغنديون، واللومبارد»[١].

مع تفاقم أزمة الانحطاط في الغرب القديم وازدياد نفوذ الثيوسانترية المسيحية، تمّ إقرار حرّية التبشير بالمسيحية كديانة داخل الإمبراطورية الرومانية عام ٣١٣ م.

---

١. بيل، عصر فئوداليسم، ١٤.

وفي الواقع، منذ القرن الأول الميلادي، وبالتزامن مع بداية المسار الانحداري للغرب الكونوي القديم، بدأت ملامح الثيوسانترية المتجسدة في المسيحية تتجلّى بشكل متزايد. وفي القرن الثالث الميلادي، كان انتشار المسيحية يسير جنبًا إلى جنب مع تراجع العقائد الفلسفية والفكرية التي كانت تمثل الثيوسانترية، وبدأت علامات انهيار النفوذ الفكري والثقافي وتفكّك البنية السياسية والاجتماعية للغرب القديم تظهر في مختلف جوانب الحياة الرومانية. وقد بلغت هذه الأزمة ذروتها في القرن الرابع، حتى أصبحت المسيحية التيار السائد في أجزاء واسعة من أراضي الإمبراطورية.

يمكن اعتبار عام ٣٨٢ م، حين أُعلنت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، بمثابة نقطة النهاية للعالم الغربي القديم. وبعد ذلك بمدّة قصيرة، في عام ٣٩٥ م، انقسمت الإمبراطورية إلى شطرين: غربي وشرقي. وبحلول عام ٤٠٠ م، كان واضحًا أنّ الإمبراطورية الرومانية تعيش حالة من الانهيار الحتمي. أما الضربة القاضية التي عجّلت بسقوطها، فقد جاءت من هجمات القبائل الجرمانية التي بدأت منذ مطلع القرن الخامس الميلادي، حيث اجتاحت أراضي الإمبراطورية مرّات عديدة، ودمّرت مدينة روما أكثر من مرة، وكان آخر هذه الهجمات في عام ٤٧٦ م، الذي شهد السقوط النهائي للإمبراطورية الرومانية الغربية.

مع السقوط الكامل للإمبراطورية الرومانية، نشأت حكومات محلّية وإقليمية للقبائل الجرمانية المختلفة على امتداد حدود الإمبراطورية وفي داخل أراضيها، كما تشكّلت كيانات سياسية جديدة في مناطق متعددة من أوروبا.

«أنهت القبائل الجرمانية المهاجمة، خلال ٧٥ عامًا، عمر الحضارة الرومانية.

فقد أسّس الفرنجة مملكتهم في الإقليم الذي كان الرومان يسمّونه غاليا، وهو ما يُعرف اليوم بفرنسا»[١].

داخل الإمبراطورية الرومانية، كان معظم السكّان غير راضين عن أوضاعهم. فقد كانت نسبة كبيرة من سكّان أراضي الإمبراطورية من الفلّاحين الفقراء الذين أُطلق عليهم اسم «كولون». لم يكونوا عبيدًا، بل كانوا يستأجرون الأراضي من المُلّاك الإقطاعيين للإنتاج الزراعي، لكنّهم كانوا يخضعون لضغوط قاسية من هؤلاء المُلّاك ومن الحكّام الرومان. وكانت الإمبراطورية تزخر بأعداد هائلة من العبيد الذين كانوا يعانون من أوضاع معيشية بالغة القسوة والجور، وقد تصاعدت حركات التمرّد والانتفاضات التي قادها العبيد والفلّاحون الكولون ضد المُلّاك والسلطة الإمبراطورية بشكل ملحوظ خلال القرن الرابع الميلادي. استقبل العبيد والكولون هجمات القبائل الجرمانية على حدود الإمبراطورية بترحيب، إذ كانوا يأملون أن تؤدّي هذه الهجمات–التي وصفها الرومان بأنّها «غزو البرابرة»–إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، مما يمنحهم الخلاص من الاضطهاد والممارسات الاستغلالية التي فرضتها سيطرة الحكم الروماني.

مع هجمات القبائل الجرمانية وسقوط الإمبراطورية الرومانية، انهار العالم الغربي القديم تمامًا، ومع زواله، اندثر أيضًا الاقتصاد القائم على نظام العبودية. وهكذا، حلّ العالم الغربي الثيوسانتري (أي الغرب في العصور الوسطى) محلّ الغرب القديم. كان الغرب في العصور الوسطى قائمًا على أنظمة الحكم والإقطاع، وقد بدأت أولى ملامح العلاقات الإقطاعية في الاقتصاد بالظهور منذ القرن الخامس الميلادي. ومع اكتمال انتصار القبائل الجرمانية، تأسّست

---

١. م. ن.

الممالك الإقطاعية لهذه القبائل في أنحاء مختلفة من أوروبا. وبحلول أواخر القرن الرابع، ولا سيما خلال القرن الخامس الميلادي، أفسح العالم الغربي الكونوي (أي الغرب القديم) المجال بالكامل أمام العالم الغربي الثيوسانتري (أي الغرب في العصور الوسطى). ويمكن اعتبار الفترة الممتدّة بين عام ٣٨٢ م و٨٠٠ م المرحلة الفاصلة التي شهدت البدايات الأولى لظهور وتبلور الغرب في العصور الوسطى.

منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، بدأت القبائل الجرمانية بالتدفّق المستمر إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية. وكانت الإمبراطورية، التي أضعفتها انتفاضات العبيد والفلّاحين الكولون، عاجزة عن صدّ غارات «البرابرة». وخلال القرن الخامس الميلادي، اجتاحت القبائل الجرمانية مختلف أنحاء الإمبراطورية، واستقرّت في مناطقها المتعدّدة.

استوطن الفندال شمال إفريقيا، بينما استقرّ القوط الغربيون (الويزيغوث) في إسبانيا، والأنجلوساكسون في بريطانيا، والفرنجة في بلاد الغال، والقوط الشرقيون (الأوستروغوث) في إيطاليا. وبسبب الأعباء الضريبية الثقيلة التي كانت تثقل كاهلهم، استقبل معظم سكّان الإمبراطورية الفاتحين الجرمان باعتبارهم منقذين لهم. انضمّ العبيد والكولون إلى صفوف المهاجمين، وسجّلوا أسماؤهم في جيوشهم، بل وفتحوا لهم أبواب المدن. أما مُلّاك العبيد، الذين واجهوا غضب العامّة، فقد قُتلوا أو طُردوا من أملاكهم. وقد أدّت انتفاضات العبيد والكولون، إلى جانب غارات القبائل الجرمانية، إلى انهيار النظام العبودي في أوروبا الغربية»[١].

١. آگیبالووا ودنسکوی، تاریخ سده‌های میانه، ٣.

السمات الأساسية لمرحلة نشأة الغرب في العصور الوسطى

بدأ العالم الغربي في العصور الوسطى في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي، واستمرّ حتى القرن التاسع. ويمكن اعتبار هذه الفترة مرحلة النشأة والتكوين الأوّلي، حيث برزت فيها بعض الخصائص الجوهرية التي ميّزت الغرب في العصور الوسطى.

فيما يتعلّق بأهمّ ملامح هذه المرحلة من ظهور وتشكّل العالم المسيحي الغربي، يمكن الإشارة إلى ما يلي:

ظهرت أولى الممالك المحلّية والإقليمية للقبائل الجرمانية خلال هذه الفترة في مناطق متفرّقة من أوروبا الغربيّة.

في هذه المرحلة، بدأت عملية اندماج العناصر الثقافية والهويّاتية الجرمانية مع الإرث اليهودي-اليوناني-الروماني، ومع اعتناق القبائل الجرمانية للمسيحية تدريجيًّا، أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من العالم الغربي في العصور الوسطى. وقد شهدت هذه الفترة توسّع نطاق الغرب الوسيط، ليشمل وسط أوروبا وأجزاء من شمالها.

خلال هذه الحقبة، استولت قبيلتا الأنجل والسكسون على بريطانيا، ومع تحوّل زعمائها وأفرادها إلى المسيحية، انتشرت المسيحية في الجزر البريطانية.

تعزّز التيّار الرهباني في المسيحية خلال هذه الفترة وأصبح الاتّجاه السائد.

شهدت هذه المرحلة تأسيس مملكة الفرنجة الجرمانية، ومع اعتناق كلوفيس المسيحية، ازدادت سلطة الكنيسة الكاثوليكية ونفوذها بشكل ملحوظ.

في هذه الفترة، تأسّست الأسرة الملكية الميروفنجية، وبدأت بالتمدّد في المنطقة التي تُعرف اليوم بفرنسا.

تبلورت أسس الاقتصاد والعلاقات السياسية الإقطاعية خلال هذه المرحلة.

شهدت هذه الفترة أيضًا تشكّل الفكر المدرسي على أساس أفكار أوغسطين والتيّارات الفكرية التي تبنّت رؤيته، ممّا ساعد في صياغة بنيته الفكرية وإضفاء قدر من الانسجام عليه.

حول القبائل الجرمانية

منذ القرن الخامس الميلادي، أدّت هجمات القبائل الجرمانية على حدود الإمبراطورية الرومانية إلى تدمير روما وانهيار الإمبراطورية بالكامل. ولكن من هم هؤلاء الجرمان؟

«كان الجرمان قومًا من ذوي البشرة البيضاء، طوال القامة، عريضي الجماجم، ذوي شعر أشقر وعيون زرقاء، ووجوه متورّدة، كانوا يقطنون سواحل بحر البلطيق وجنوب شبه الجزيرة الإسكندنافية، ويعتمدون في معيشتهم على الصيد البحري والبرّي، دون أن يكون لديهم دراية بالزراعة أو تربية الماشية. وقد دفعتهم عوامل طبيعية قاسية، مثل البرد القارس، والجليد الذي لا يُحتمل، وصعوبة العيش، وشُحّ الموارد الغذائية، إلى الهجرة الجماعية من شمال أوروبا. حدثت هذه الهجرة الجرمانية نحو جنوب أوروبا على مرحلتين. في المرحلة الأولى، أي منذ نحو ٢٠٠ عام قبل الميلاد، أجبرتهم قسوة الطبيعة وسوء الأوضاع المعيشية على الانتقال نحو وسط أوروبا، حيث وصلوا إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية. طلب الجرمان آنذاك أراضي للاستقرار، ولكن بعدما رُفضت مطالبهم، خاضوا الحروب ضد الرومان، إلا أنّهم هُزموا ودُفعوا إلى التراجع. أما المرحلة الثانية، فقد بدأت في حوالي عام ٣٠٠ م، عندما ضعفت الإمبراطورية الرومانية، فتجدّد زحف الجرمان نحو الجنوب. غير أنّ هذه المرة لم يكن الدافع الرئيسي هو الحاجة إلى العيش، بل الطموح القتالي والرغبة في

السيطرة على أراضي الإمبراطورية الرومانية، ممّا دفعهم إلى التحرّك الواسع. كانت تسمية «جرمانيا» في الأصل كلمة لاتينية مأخوذة من لغة السلت، وتشير إلى منطقة وسط أوروبا حيث استوطنت العديد من القبائل قرب ضفاف الأنهار. وقد استولى الرومان على هذه المنطقة قبل نحو ١٥٠ عامًا من الميلاد، وحوّلوها إلى ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية... كان الجرمان يتشاركون لغةً وعاداتٍ وتقاليد موحّدة. وفي القرن الخامس الميلادي، هاجرت قبيلتا «الأنجل» و«السكسون» الجرمانيتان إلى جزيرة بريطانيا. أما يوليوس قيصر، القائد الروماني الذي غزا جنوب بريطانيا عام ٥٤ ق.م، فقد حمل معه اسم «جرمانيا» إلى تلك الجزيرة، ومن ثم أطلق سكّان إنجلترا هذا الاسم على بلاد الألمان...

أما الجيل الأول من الألمان، فقد كان يمثّله التيوتونيون، وهم قبيلة جرمانية هاجرت في القرن الثاني قبل الميلاد من شبه جزيرة يوتلاند نحو الجنوب. وقد استمرّت الحروب بين ألمانيا وفرنسا امتدادًا للصراعات القديمة بين القبائل الجرمانية، ولا سيما بين الألِمان والفرنجة. أسّس الفرنجةُ مملكةَ فرنسا، بينما شكّل الأنجلوساكسون-وهم أيضًا من أصول جرمانية-مملكةَ إنجلترا، في حين لم يتمكّن الألمان، لأسباب متعدّدة، من توحيد دولتهم إلا في مراحل متأخرة. لقد كان الجرمان، الذين انقسموا لاحقًا إلى الألمان والفرنسيين والإنجليز، من المؤسّسين الأوائل للحضارة الغربية الأوروبية. وكان الفرنجة في حالة صراع دائم مع الألِمان، حتى إنّ المنطقة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الراين سُمّيت «ألِمانيا»، ثم انتشر هذا الاسم ليشمل كل تلك البلاد. أما الفُرس والعرب، فقد استخدموا اسم «ألمانيا» لأنّهم تعرّفوا على هذه البلاد من خلال الفرنسيين، الذين كانوا يُطلقون عليها هذا الاسم»[١].

١. آرنز، كوچ ژرمن ها در اروپا، ١٣ - ١٩.

كان الجرمان في الأصل من سكّان شمال أوروبا، ثم بدأوا تدريجيًّا بالهجرة نحو الجنوب. وتشير الأبحاث إلى أنّ غالبيّة سكّان الدول الحديثة مثل ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، وهولندا، وكذلك جزء كبير من سكّان الولايات المتحدة، ينحدرون من القبائل الجرمانية. كان الجرمان يتألّفون من طوائف وقبائل متعدّدة. وقبل اجتياحهم للإمبراطورية الرومانية، كانت نظمهم الاقتصادية تقوم على علاقات لا تحتكم إلى الملكية الفردية الصارمة، ولم تكن هناك فجوة كبيرة بين الفقراء والأغنياء في مجتمعاتهم. كما كانت لديهم ثقافة أسطورية خاصة، حيث عبدوا آلهة متعدّدة. في الفترة التي عاشوا فيها في شمال أوروبا، ثم في وسطها (أي بين عامي ٢٠٠ ق.م و٣٠٥ م)، كان الجرمان ينظّمون أنفسهم وفق نظام قبلي، ولم يكن لديهم نظام حكم موحّد أو ثابت في أوقات السلم، إذ كانت شؤونهم تُدار وفق الأعراف والتقاليد القبلية، وعند وقوع النزاعات، كانوا يلجؤون إلى زعيم القبيلة للفصل فيها. أما في زمن الحرب، فكانوا يختارون أحد المحاربين ليكون ملكًا يقودهم.

ومن أبرز القبائل الجرمانية التي لعبت دورًا محوريًّا في تاريخ الغرب خلال العصور الوسطى وما بعدها: القوط الغربيون (الويزيغوث)، والقوط الشرقيون (الأوستروغوث)، والفندال، والفرنجة، واللومبارد، والأنجل، والسكسون، والبورغنديون، والنورمان.

«لم يكن لأفراد قبائل الجرمان أراضٍ خاصة بهم، إذ كانت الأرض ملكًا مشتركًا للقبيلة، وكان أفرادها يعملون فيها بصورة جماعية. أنشأ الرومان سلسلة من التحصينات الدفاعية على امتداد نهَري الدانوب والراين لحماية الإمبراطورية من غارات البرابرة، وقد تحوّلت بعض هذه القلاع لاحقًا إلى مدن مثل كولونيا، وماينتس، وستراسبورغ، وفيينا.

كانت من أبرز القبائل الجرمانية القوط الغربيين، الذين كان موطنهم الأصلي على سواحل بحر البلطيق الجنوبية، ويُعتقد أنّ اسم جزيرة غوتلاند في هذا البحر مشتقّ من اسمهم. في أوائل القرن الثالث الميلادي، استقرّ القوط في المناطق الشمالية للبحر الأسود وشمال مصبّ نهر الدانوب، إضافة إلى شمال شرق داقية. كان القوط الشرقيون يُعرفون باسم «الأوستروغوث» أو «الغروتونغ» (أي سكّان الأراضي الرملية)، بينما عُرف القوط الغربيون باسم «الفيزيغوث» أو «التروينغ» (أي سكّان الغابات). في عام ٤١٠ للميلاد، قاد ألاريك الفيزيغوث في اتّجاه إيطاليا، حيث هاجموا مدينة روما. وقد فتح العبيد الرومان أبواب المدينة لهم، مما مكّن الفيزيغوث من الاستيلاء عليها. توفّي ألاريك في العام ٤١٠ للميلاد. اتّجه القوط الغربيون بعد ذلك نحو بلاد الغال (فرنسا اليوم) وإسبانيا. وفي عام ٤٧٦ للميلاد، قام أودواكر، زعيم القوط الغربيّين آنذاك، بعزل رومولوس أوغستولوس، آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الغربية، ونصّب نفسه ملكًا. بقي القوط الغربيّون مسيطرين على إسبانيا لفترة من الزمن، لكنّهم انهزموا عام ٧١١ للميلاد في معركة شذونة أمام جيش المسلمين، مما أدّى إلى سقوط حكمهم.

أما القوط الشرقيون، فكانوا جزءًا من شعب القوط، واستقرّوا حوالي عام ٤٦٠ للميلاد في منطقة بانونيا، وهي سهول تقع في المجر الحالية. في مرحلة ما، حصلوا على دعم الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وبدعم منها، هاجم القوط الشرقيون إيطاليا عام ٤٩٣ للميلاد، حيث خاضوا حربًا ضد جيش أودواكر، ملك القوط الغربيّين في روما. ورغم التوصل إلى اتّفاق يقضي بأن يحكما معًا، قام ثيودوريك، زعيم القوط الشرقيّين، باغتيال أودواكر خلال مأدبة، ثم أعلن نفسه

ملكًا، وضرب النقود باسمه، وتمرّد على سلطة الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

استقرّ البورغنديون في جنوب شرق بلاد الغال. وفي أواخر القرن الخامس للميلاد، وسّعوا مناطق نفوذهم، فسيطروا على كامل الرون والسون، باستثناء بروفانس. سُمّيت هذه المنطقة لاحقًا بورغنديا نسبةً إلى استقرارهم فيها، ثم عُرفت لاحقًا باسم بورغونيا. [كان البورغنديون مسيحيّين، لكنّهم لم يكونوا على المذهب الكاثوليكي، بل كانوا من أتباع تعاليم آريوس.] هُزموا في الحرب ضدّ الفرنكيّين، وفي عام ٥٣٤ للميلاد أُلحقت أراضيهم بمملكة الفرنكيّين.

أما الفندال، فكانوا قومًا غزاة عُرفوا بوحشيّتهم في الحروب. عبروا نهر الراين في أوائل القرن الخامس للميلاد، واتّجهوا إلى بلاد الغال، ومنها إلى إسبانيا حيث استقرّوا لفترة. في عام ٤٢٨ للميلاد، انتقلوا إلى إفريقيا وسيطروا على زمام الأمور هناك. وفي عام ٤٤٥ للميلاد، قاموا بنهب مدينة روما بطريقة أثارت الرعب. مارس الفندال القرصنة البحرية على سواحل صقلية وإفريقيا، إلى أنّ هزمهم بيليساريوس، قائد الجيش البيزنطي، عام ٥٣٤ للميلاد، ممّا أدّى إلى سقوط دولتهم في شمال إفريقيا.

في أوائل القرن الخامس للميلاد، وبين عامي ٤١٠ و٤٤٢، تخلّت الإمبراطورية الرومانية الغربية تدريجيًا عن سيطرتها على جزيرة بريطانيا. في تلك الفترة، شنّ شعبان جرمانيان، يُعرفان بالأنجلوساكسون، قادمين من ضفاف نهر الإلبه، هجومًا على الجزيرة واستولوا على الأراضي التي كان الرومان يسيطرون عليها. لم يتمكّن سكّان الجزيرة الأصليّون، من البرتونيّين والبيكتيّين والإسكتلنديّين، من مقاومة الهجوم الجرماني، فاضطرّوا إلى التراجع. اتّجه البيكتيّون والإسكتلنديّون نحو شمال إنجلترا، وأُطلق على هذه المنطقة لاحقًا اسم «إسكتلندا» نسبة إليهم.

أما بعض البرتونيّين، فقد هاجروا إلى منطقة الغال حيث استقرّوا في ويلز، بينما لجأ آخرون إلى كورنوال. كما عبرت مجموعة منهم بحر المانش واستقرّت في سواحل أرموريكا شمال فرنسا، وهي المنطقة التي تُعرف اليوم باسم «بريتاني» نسبة إليهم. استولى الأنجلوساكسون على الأراضي السهلية في الجزيرة، وكان الأنجلوس أكثر نفوذًا بين القبائل الجرمانية، حتى أنّ الجزيرة باتت تُعرف باسمهم، فأصبح يُطلق عليها «إنجلترا». وفي القرن السادس للميلاد، تأسّست سبع ممالك جرمانية صغيرة ومستقلّة، هي: كِنت، التي أسّسها شعب الجوت، وثلاث ممالك أسّسها الساكسون، وهي إسكس، وِسِكس، ساسكس، وثلاث ممالك أخرى أسّسها الأنجلوس، وهي مرسيا، وإيست أنجليا، ونورثمبريا.

كان يطلق على اللومبارديين في البداية اسم «لونغوبارد»، أي «أصحاب الرماح الطويلة»، وقد كانوا يستوطنون منطقة نهر الأودر. لاحقًا، أجبرهم الإمبراطور البيزنطي جستنيان على الاستقرار في منطقة نوركوم الواقعة في جبال الألب الشرقية. وبعد وفاة جستنيان، عبر اللومبارديون جبال الألب متّجهين نحو وادي بو في إيطاليا بهدف الاستيلاء على روما. وفي عام ٥٧٢ للميلاد، تُوِّج ملكهم ألبوين في مدينة ميلانو. استولى اللومبارديون على معظم الأراضي الإيطالية، ولا يزال اسم منطقة لومبارديا في إيطاليا شاهدًا على وجودهم التاريخي.

أما النورمان، فقد كانوا مجموعة من القبائل الجرمانية التي استوطنت الدنمارك وشبه الجزيرة الإسكندنافية، بما في ذلك السويد والنرويج. كانوا يعتمدون في معيشتهم على القرصنة البحرية، مستخدمين سفنًا خفيفة وسريعة للهجوم على شمال أوروبا، حيث شنّوا غارات على سواحل إنجلترا، وإيرلندا،

وألمانيا، وفرنسا. قادهم في هذه الغارات مجموعة تُعرف باسم الفايكنغ أو «ملوك البحر»، الذين اشتهروا بالحروب، ونهب المدن، وممارسة القرصنة البحرية. وبلغت غاراتهم ذروتها في القرن التاسع للميلاد، حيث تمكّنوا في تلك الفترة من تأسيس مملكة واسعة امتدّت عبر الدنمارك، والسويد، والنرويج»[١].

الهون

لم تكن القبائل الجرمانية وحدها من شنَّ الغارات على حدود الإمبراطورية الرومانية، بل كان هناك أيضًا قوم رحّل من أصول آسيوية هاجم أوروبا من الشرق. في الواقع، كان ضغط هذا القوم هو ما دفع القوط الغربيين إلى الهجرة نحو الجنوب. كان هؤلاء القوم من العرق المغولي، وعُرفوا باسم الهون.

كان الهون محاربين أشدّاء، قدموا من سهول آسيا الوسطى إلى أوروبا، وهاجموا كلًّا من القوط الغربيّين والإمبراطورية الرومانية. وبحلول أواخر القرن الخامس للميلاد، بلغت قوتهم حدًّا جعلهم يُبدون وكأنّهم قادرون على اجتياح كلٍّ من أوروبا الشرقية والغربية. وكان قائدهم الشهير يُدعى أتيلا. حتى مطلع القرن الخامس، كان الهون قد سيطروا على أراضٍ شاسعة امتدّت من بحر قزوين إلى جبال الألب. وفي عام ٤٥١ للميلاد، قاد أتيلا حملة على بلاد الغال، لكنّه واجه تحالفًا مشتركًا من القوّات الرومانية والقوط الغربيّين، حيث اندلعت معركة حاسمة انتهت بهزيمة الهون.

بعد فترة وجيزة، شنّ الهون هجومًا على إيطاليا، حيث نهبوا عدّة مدن، لكنّهم امتنعوا عن مهاجمة روما بسبب تفشي الطاعون فيها، فعادوا أدراجهم. ولم يلبث أتيلا أن توفّي بعد ذلك بفترة قصيرة، فتقسّمت إمبراطوريّته بين أبنائه، مما أدّى

١. ممتحن، كليات تاريخ عمومي، ٧ - ١٣؛ ١٦ - ٢٢.

إلى نشوب صراعات داخلية وحروب أهلية أدّت إلى تفكّك الدولة الهونية. ومع تصاعد هذه النزاعات، ثارت الشعوب الخاضعة لحكم الهون وانفصلت عنهم، الأمر الذي عجّل بانهيار سلطتهم.

خلال القرن الخامس للميلاد، كان القوط الغربيّون أول من شنّ الغارات على حدود الإمبراطورية الرومانية، وتبعهم الهون، ثم الفندال، وبعدهم القوط الشرقيون، الذين اجتاحوا روما ونهبوها لفترة من الزمن. وعندما هاجم القوط الشرقيون مدينة روما، كان أودواكر، ملك القوط الغربيّين، يحكم الأراضي الرومانية، وذلك بعد أن قام القوط الغربيون، عقب غزوهم لروما عام ٤٧٦ للميلاد، بعزل رومولوس أوغستولوس، آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الغربية، وتولية أودواكر بدلًا منه.

القوط الشرقيون وثيودوريك

هاجمت قبائل القوط الغربيّين، والفندال، والهون إيطاليا، حيث نهبوا مدنها وأحرقوها، ومكثوا فيها لفترة قبل أن يرحلوا. أما القوط الشرقيّون، فكانوا غزاة من نوع مختلف؛ إذ لم يغادروا إيطاليا بعد احتلالها، بل استقرّوا فيها وأقاموا نظامًا سياسيًا مزج بين التقاليد الجرمانية والرومانية.

أحدثت غزوات القوط الغربيين، والفندال، والهون تغييرات جذرية في روما، وأسقطت النظام الإمبراطوري الروماني. كانت مدينة روما قد تعرّضت لدمار واسع بسبب الهجمات المتكرّرة، ما دفع إلى نقل العاصمة إلى مدينة رافينا الساحلية على البحر الأدرياتيكي. منذ عام ٤٧٦ للميلاد، حكم أودواكر، الذي كان من القوط الغربيين، روما، وكان في البداية يعمل بوصفه ممثّلًا للإمبراطور البيزنطي، لكنّه سرعان ما استقلّ بحكمه. لهذا السبب، طلب الإمبراطور

زينون من القوط الشرقيين غزو إيطاليا وانتزاع رافينا من سيطرة أودواكر. قاد ثيودوريك القوط الشرقيين في حملتهم ضد إيطاليا، فاستولوا على رافينا وقتلوا أودواكر، ثم نصّب ثيودوريك نفسه ملكًا على الإمبراطورية الرومانية الغربية. في بداية حكمه، حافظ على علاقات ودّية مع الإمبراطور البيزنطي وأعلن ولاءه له، لكنّه لاحقًا بات يحكم كملك جرماني مستقلّ. سعى ثيودوريك إلى الحفاظ على العديد من العناصر الثقافية والإدارية المتبقّية من روما الغربية، كما حاول تنفيذ إصلاحات لتحسين الأوضاع المتردّية في الدولة.

وضع ثيودوريك خططًا لمكافحة الفساد الإداري المستشري، كما نفّذ إصلاحات لتخفيض الضرائب. قام بتنظيم الموانئ، وترميم المباني العامة، وإعادة تأهيل الطرق. كان ثيودوريك شديد الإعجاب بالإمبراطورية الرومانية القديمة وقوانينها.

كان القوط الشرقيون من أتباع العقيدة الآريوسية في المسيحية. سعى ثيودوريك إلى تأسيس مملكة جرمانية مسيحية، تمتزج فيها التقاليد الجرمانية مع إرث الإمبراطورية الرومانية الغربية. توفّي ثيودوريك عام ٥٢٦ للميلاد، وخلفه حفيده الصغير، حيث تولّت والدته، أمالاسونثا، ابنة ثيودوريك، الوصاية على العرش. لكن نبلاء القوط الشرقيّين لم يتقبّلوا حكمها، مما أدّى إلى فترة مضطربة مليئة بالأزمات. وفي النهاية، توفّي كل من أمالاسونثا وابنها، الذي كان في السادسة عشرة من عمره.

بدءًا من عام ٥٣٢ للميلاد، اندلعت حرب طويلة ومرهقة استمرّت لعشرين عامًا بين القوط الشرقيين في روما الغربية والإمبراطورية البيزنطية. أضعفت هذه الحرب الطرفين بشدّة، وانتهت بالقضاء التام على الإمبراطورية الرومانية الغربية وطرد القوط من إيطاليا.

الكنيسة الرومانية توسّع نفوذها

شــهدت الكنيســة الكاثوليكية الرومانية خلال الفترة التــي نتناولها حدثين مهمّين: أوّلهما، أنّها أصبحت مؤسسة ذات تنظيم هرمي وهيكل إداري متماسك، وهو ما استمرّ مع بعض التعديلات عبر القرون اللاحقة؛ وثانيهما، اتّساع نطاق نفوذها ليشــمل جزيــرة بريطانيا. كذلك، نشــأت علاقة خاصة بين الكنيســة الكاثوليكيــة والمملكة الفرنجيــة القوية، مما عزّز من ســلطتها ونفوذها. خلال الفترة الممتدّة بين القرن الخامس والقرون اللاحقة، لعبت الكنيســة دورًا ثقافيًا واجتماعيًا محوريًا. ففي ظــل الفوضى والحروب المتكررة، خاصة خلال القرنين الخامس والســادس، كانت الكنيسة المؤسسة الأكثر اســتقرارًا واستمرارًا. كان معــدّل الإلمام بالقراءة والكتابة بين عامة الناس منخفضًا للغاية، مما جعل رجال الدين، الذين كانوا غالبًا من القِلّة المتعلّمة، يحتكرون مهمّة كتابة الوثائق الرسمية والرســائل وحفظها. في هذه الفترة، بدأ رجال الكنيسة يؤدّون أدوارًا مؤثرة في الشؤون السياســية المحلّية، ومع مرور الوقت، برز تنافس وصراع بين الكنيسة والســلطات الحاكمة، وهو نزاع استمرّ بشــكل أو بآخر طوال تاريخ الغرب في العصور الوسطى. كان هذا التنافس بين رجال الدين والسلطة السياسية يتجلّى في محاولاتهــم المتبادلة لتقييد بعضهم نفوذ بعض. وخلال هذه المرحلة، اعتنقت العديد من القبائل الجرمانية المسيحية، وانضمّ بعضها إلى الكنيسة الكاثوليكية.

خلال هذه الفترة، أصبح للكنيسة الكاثوليكية الرومانية نظام هرمي منظم. في أدنى مستوياته كان هناك عدد كبير من الكهنة، يعلوهم الأساقفة، الذين كانوا يشكّلون مجلسًا يختار البابا، رأس الكنيسة الكاثوليكية.

«كان يُنظر إلى كل أســقف على أنّه الوريث الروحي المباشر للمسيح، وكان

يشرف على منطقة واسعة تُعرف باسم الأبرشية، التي تضمّ عدة كنائس. كان الأساقفة يجتمعون في مجالس لإدارة شؤون الكنيسة، حيث كانوا يقرّرون أيّ من الكتابات المسيحية تُعتبر موحى بها، ومن هم الأنبياء الحقيّقيون، وما هي الطقوس الدينية التي ينبغي اعتمادها. كان أسقف روما، الذي يُعرف بالبابا، أهمّ أساقفة الكنيسة الغربية، إذ ادّعى امتلاك سلطة عليا على جميع الأساقفة الآخرين. في الغرب، قَبِل معظمُ الأساقفة هذا الادّعاء، لكن أساقفة الشرق عارضوه، مما عمّق الخلافات التي فصلت بين الكنيسة الشرقية والغربية... في بدايات العصور الوسطى، كانت سلطة البابا الفعليّة محدودة، إذ لم يكن لديه وسيلة لفرض أوامره على رجال الدين خارج إيطاليا. لكن مع مرور الزمن، اكتسب البابا قوّة حقيقية، حيث أصبح تعيين رؤساء الأساقفة والأساقفة من صلاحياته، بدلاً من المجالس الكنسية. وبهذا، بات هؤلاء المسؤولون الكنسيّون أكثر ولاءً للبابا ... خلال العصور الوسطى المبكّرة، لم يكن اختيار البابا يتمّ بالضرورة من قبل السلطات الكنسية، إذ لم يُعهد بعملية انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة حتى القرن الحادي عشر. وبدلًا من ذلك، كانت العائلات الأرستقراطية في روما هي التي تختار البابوات في الغالب، وكان هذا الأمر شائعًا، خاصة في القرنين التاسع والعاشر. في تلك الفترة، كان البابا الذي يفقد دعم هذه العائلات الأرستقراطية يُقتل غالبًا، ليتمّ تنصيب بابا جديد مكانه. ويُعتبر غريغوريوس الأول، المعروف أيضًا بـ غريغوريوس الكبير، أول بابا يتمتّع بسلطة حقيقية خلال العصور الوسطى المبكرة»[١].

خلال مرحلة نشأة وتشكّل الغرب في العصور الوسطى المبكّرة، اكتسبت

١. كوريك، قرون وسطاي اوليه، ٤٠ – ٤٣.

الكنيسة الكاثوليكية قدرًا من التماسك، سواء على المستوى الفكري والعقائدي، حيث حـدّدت هويّتها ورسـمت حدودها أمام الفرق المسـيحية الأخرى مثل الأريوسـيّين والنسـطوريّين، أو من خـلال تمايزها التدريجي عن كنيسـة روما الشرقية، التي سـارت في اتّجاه مختلف وأفضى تطوّرها لاحقًا إلى ظهور الكنيسة الأرثوذكسية. كذلك، عزّزت الكنيسـة الكاثوليكية بنيتها التنظيمية والإدارية، مما سـاهم في زيادة قوّتها ونفوذها. وخلال هذه الفترة أيضًا، برز التيّار الرهباني كاتّجاه قوي داخل الكنيسة الكاثوليكية.

وفي سـياق نشـأة العالم الغربي خـلال العصور الوسـطى المبكـرة، برزت شـخصيتان مهمّتان في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية: بندكت النورسي، المعروف بالقديس بندكـت، والبابا غريغوريـوس الكبير (غريغوريـوس الأول). كان بندكت من مدينة نورسـيا، وفي عام ٥٢٩ للميلاد أسّس ديرًا في مونتي كاسينو جنـوب إيطاليا. وضـع بندكت نظامًا صارمًـا لإدارة الأديـرة، وأصبح النهج البندكتي النموذج الأساسي للرهبنة المسيحية داخل الكنيسة الكاثوليكية.

مـع مرور الوقت، تـمّ بناء العديد مـن الأديرة البندكتيـة، وأصبحت هذه الأديرة تُسـتخدم في مختلف أنحاء أوروبا كدور للأيتام ومستشفيات، أو كانت تتولّى إدارة مثل هذه المؤسّسـات. في بعض هذه الأديرة، تمّ الاحتفاظ بنسخ من الأعمال الكلاسيكية اليونانية. وبين القرن الخامس والعاشر للميلاد، كان معظم الأوروبيّين يجهلون القراءة والكتابة، في حين أنّ ٩٠٪ ممّن كانوا قادرين على ذلك قد تلقّوا تعليمهم في الأديرة البندكتية.[١]

وُلِد بندكت حوالي عام ٤٨٠ للميلاد في أسرة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية

١. م. ن، ٤٩.

الإقطاعية الإيطالية. في شبابه، درس التراث الأدبي الكلاسيكي، لكنه تخلّى لاحقًا عن حياة العائلة وممتلكاتها، واختار طريق الرهبنة والعزلة.

قام بندكت بتأسيس دير مونتي كاسينو في موقع كان في السابق معبدًا للإله أبولون. وقد وضعت القواعد والانضباط الذي أرساه في الرهبنة المسيحية الأسس التي جعلت النظام البندكتي يُصبح المعيار السائد في جميع الأديرة في أوروبا خلال العصور الوسطى، باستثناء الأديرة الأيرلندية وتلك التي أنشأها الرهبان الأيرلنديون. توفّي بندكت عام ٥٤٣ للميلاد.

على الرغم من أنّ الحركة الرهبانية في الغرب خلال العصور الوسطى وفي الكنيسة الكاثوليكية نُظّمت أساسًا بفضل جهود بندكت، حيث اكتسبت هويّة فكرية وتنظيمية واضحة، فإنّ جذور هذه الحركة تعود إلى فترة أسبق من زمن بندكت نفسه. يكتب برتراند راسل عن أصول الرهبنة وبدايات ظهورها في كنيسة روما الغربية، قائلًا:

«بدأت الحركة الرهبانية في أوائل القرن الرابع في مصر وسوريا بشكل متزامن. واتّخذت هذه الحركة شكلين: العزلة الفردية، والحياة الديرية المشتركة. كان القديس أنطونيوس، الذي يُعتبر المؤسّس الأول لحياة العزلة، قد وُلد في مصر حوالي عام ٢٥٠ للميلاد. عاش أنطونيوس حياة تقشّفية قاسية، وبحلول نهاية حياته، كانت صحراء طيبة [وهي منطقة قريبة من مدينة طيبة المصرية] قد امتلأت بالنسّاك الذين استلهموا أسلوب حياته وأفكاره.

بعده بعدّة سنوات، وتحديدًا حوالي عام ٣١٥ أو ٣٢٠، أسّس راهب مصري آخر يُدعى باخوم أولَ دير جماعي، حيث عاش الرهبان فيه حياة مشتركة، فلم يكن هناك ملكية خاصة، بل كانوا يتشاركون الطعام ويؤدّون الشعائر الدينية

معًـا. وقد انتشرت هذه الصيغة الجماعية من الرهبنة في العالم المسـيحي أكثر من النموذج الانعزالي الذي أسّسـه أنطونيوس... في بداياتها، كانت الرهبنة حركة تلقائية مستقلّة تمامًا عن التنظيم الكنسي. لكن القديس أثناسيوس هو الذي قام بالتوفيق بين الرهبنة والكهنوت، وكان له دور في إقرار مبدأ أن يكون الرهبان أيضًا من رجال الدين. كما أنّه، أثناء إقامته في روما عام ٣٣٩، قدّم الرهبنة إلى الغرب المسيحي. كما أسـهم القديس جيروم في انتشار هذه الحركة بشكل كبير. ويبدو أنّ الأديرة النسائية قد ظهرت قبل الأديرة الرجالية، إذ تعود أقدمها إلى منتصف القرن الثالث. كان الرهبان في البداية يزدرون النظافة الشخصية. كانوا يطلقون على القمّل اسـم «لؤلؤة الله» ويعدّونه علامة على القداسة. وكان القديسون من الرجال والنسـاء يفخرون بـأنّ أقدامهم لم تمسّ الماء إلا عنـد عبورهم الأنهار. يُعدّ الاسـم الأبرز في الرهبانية الغربية هو بندكت القدّيس، مؤسـس الرهبانية البندكتية، الذي أسّس دير مونتي كاسينو الشهير وكتب له قانون بنديكتي. كان هذا القانون متوافقًا مع المناخ الغربي، وبموجبه كانت مشقّة الحياة الرهبانية أقل مما كانت عليه وفق التقاليد المعتادة للرهبان السـوريّين والمصريّين. كان الرهبان يؤدّون عهود الفقر والطاعة والعفة. يقول جيبون في هذا السـياق: «سمعتُ أو قرأتُ في موضع ما اعترافًا لأحد شيوخ دير بندكتي: عهدي بالفقر كان يدرّ عليّ دخلًا سـنويًا قدره مئة ألف كرونة، وعهـدي بالطاعة رفعني إلى مرتبة أمير ذي سلطان. أما نتيجة عهدي بالعفة فقد نسيتها»[١].

يُعدّ غريغوريوس أول بابا قوي في العالم الغربي في العصور الوسـطى ضمن الكنيسة الكاثوليكية. وُلِد في روما نحو عام ٥٤ في أسرة أرستقراطية. ويُقال إنّ جدّه، بعد وفاة زوجته، وصل إلى سدة البابوية.

١. راسل، تاريخ فلسفه غرب، ٥٠٩ - ١٢.

كان غريغوريوس يمتلك ثروة كبيرة، وفي عام ٥٧٣ تولّى إدارة مدينة روما. أنشأ عدة أديرة، وفي عام ٥٧٦ استقرّ في أحد الأديرة التي أسّسها في روما. بين عامي ٥٧٩ و ٥٨٥، كان ممثلًا للكنيسة الكاثوليكية ومدافعًا عن مصالحها في بلاط الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وفي عام ٥٩٥، تمّ انتخابه لمنصب البابوية.

كان غريغوريوس بابا طموحًا للسلطة، ولعب دورًا بالغ الأهمية في تعزيز نفوذ الكنيسة وتثبيت سلطتها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي. لقد كان نتاج الحركة الرهبانية داخل المسيحية الكاثوليكية، ووصل إلى سدة البابوية في فترة من الاضطراب. كانت الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت غارقة في الفساد، إذ تفشّت الرشوة والسلوكيات المشينة بين القساوسة والأساقفة، الذين استغلّوا سلطتهم الدينية للانغماس في شتّى أشكال الفساد تحت ستار الكنيسة.

سعى غريغوريوس إلى فرض نوع من الانضباط داخل الكنيسة من خلال محاربة الفساد والرشوة المستشرية فيها. وبذكاء سياسي، تدخّل في الأحداث السياسية، ما عزّز من نفوذ الكنيسة وهيبة البابوية. خلال فترة ولايته، خطت الكنيسة خطوات كبيرة نحو التحول إلى مركز قوة مؤثر، كما رسّخ غريغوريوس سلطة البابا باعتباره المرجع الأعلى لاتّخاذ القرارات وممارسة النفوذ داخل النظام الكنسي. لم يقتصر نشاطه على الإصلاح الداخلي، بل بذل جهودًا كبيرة في نشر المسيحية الكاثوليكية بين الأنجلوساكسونيين في جزيرة بريطانيا. في هذا الصدد، يقول راسل:

«تنصير إنجلترا، باستثناء نورثمبريا، كان عملًا خاصًا بغريغوريوس»[١].

١. م. ن، ٥٢٢.

الفرنجة وسلالة الميروفنجيين الملكية

كان الفرنجة إحـدى القبائل الجرمانية الكبرى، وقد بدأوا نحو عام ٤٣١ م بالتقدّم من موطنهم الواقع على ضفاف نهر الراين باتّجاه هولندا وبلجيكا وأجزاء من منطقة الراينلاند في ألمانيا الحالية.

انقسم الفرنجة إلى مجموعتين: الساليين والريبواريين. كان الساليون يعيشون بالقرب من نهر سالا، بينما استقرّ الريبواريون على مقربة من نهري الراين والميز. ومع توسّـعهم نحـو الجنوب، تمكن الفرنجة من السـيطرة عـلى مقاطعة غاليا الرومانية وأقاموا فيها حكمًا خاصًا بهم. يعود أصل غالبية سـكّان فرنسا وألمانيا اليوم إلى الفرنجة الذين أخضعوا بلاد الغال لسلطتهم.

«من بين الموجة المتزايدة من الغزاة، مثل الفندال والقوط الغربيين والبرغنديين والفرنجـة، كان هؤلاء الأخيرون الأكثر نفوذًا. ومن بين هذه القبائل، لم يتمكّن سـوى الفرنجة من إنشـاء كيان سـياسي لم يقتـصر على الاسـتمرار بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، بل أسهم في تشكيل الحضارة الغربية الأوروبية، ولا يزال تأثيره حاضرًا إلى اليوم. لم يتحدّث المؤرّخون عن الأصل الحقيقي للفرنجة، لكن الفرنجة السـاليين كانوا يتألّفون من عدة عشائر قبلية، يديرها زعماء مستقلّون. وكان أنجح هذه العشـائر هم الميروفنجيون، الذين أخذوا اسمهم من زعيمهم ميروفيوس. اشتهر الميروفنجيون بشعرهم الطويل المنسدل على أكتافهم، في حين أن بقيـة محاربي الفرنجة كانوا يحلقون شـعرهم من الخلف. وقد برعوا بشـكل خاص في توسـيع نفوذ الفرنجة السـاليين جنوبًا. أما مؤسس المملكة الفرنجية الميروفنجية، فكان كلوفيس، حفيد ميروفيوس»[١].

١. گلفند، شارلمانی، ٣١ - ٣٢.

وُلِد كلوفيس عام ٤٦٥ م، وتولّى زعامة الفرنجة الساليين عام ٤٨١ م، وهو في الخامسة عشرة من عمره. وحّد كلوفيس القبائل الفرنجية تحت قيادة الميروفنجيّين، وتمكّن من هزيمة الرومان في عدة معارك، كما أخضع اتّحاد قبائل الألامان (وهم قبائل جرمانية كانت تقطن المناطق الشمالية لنهرَي الراين والدانوب) عام ٤٩٦ م. وخلال سلسلة من الحروب الأخرى، انتصر على القوط الغربيين والبرغنديين، وتزوّج من كلوتيلدا، ابنة شقيق ملك البرغنديين.

وسّع كلوفيس نفوذ الفرنجة حتى بلغ تخوم جبال البرانس جنوبًا. وتحت تأثير كلوتيلدا، اعتنق المسيحية الكاثوليكية، وأدخل الفرنجة في الكاثوليكية كذلك. وفي عام ٥٠٩ م، أعلن نفسه ملكًا على جميع الفرنجة وأراضيهم، ليصبح بذلك أول ملوك السلالة الميروفنجية. كان لاعتناق كلوفيس المسيحية الكاثوليكية، وللتحالف الذي نشأ بينه وبين الكنيسة، أثر كبير في تعزيز مكانة الفرنجة وتقوية الكنيسة. وقد أسهمت عوامل عدة في انتصاراته وإرسائه دعائم مملكة جرمانية قوية ومستقرة.

أولًا، على عكس بقية القبائل الجرمانية مثل القوط الغربيين والبرغنديين، لم تكن العلاقات الاستغلالية الظالمة قد ترسّخت بعمق بين الفرنجة بعد، مما ساهم في بقاء التقاليد القبلية الجرمانية القديمة التي وفّرت نوعًا من التماسك الاجتماعي بين أفراد القبائل. وقد مكّن هذا الوضع الفرنجة من تعبئة جماعية فعّالة خلال الحروب. ورغم ظهور طبقة أرستقراطية فرنجية في القرنين الخامس والسادس الميلادي، فإنّها لم تكن قد انفصلت تمامًا عن عامة القبيلة، بحيث تحافظ الروابط القبلية على تماسكها.

ثانيًا، أدّى اعتناق كلوفيس للمسيحية الكاثوليكية إلى منحه دعمًا سياسيًا ودينيًا واسعًا، ما عزّز من سلطته.

أما العامل الثالث، فيتجلّى في شخصية كلوفيس نفسه، إذ كان يتّسم بوحشيّة لا تعرف الرحمة، ودهاء سياسي، وأساليب ماكرة في التعامل مع خصومه وأعدائه. لم يكن يتورّع عن نقض العهود والمواثيق، أو اللجوء إلى الاغتيالات والمكائد والخداع والخيانة، وهي أمور لم تكن شائعة في النظام القبلي الفرنجي. لقد كانت تصفية حساباته الدموية مع منافسيه ومعارضيه الداخليّين بين الفرنجة غير مسبوقة في ذلك الحين.

«كان كلوفيس متوحشًا بكل معنى الكلمة، رجلًا ماكرًا، متحفّظًا، غير مهذّب وقاسي القلب. كان جاهلًا من الناحية العلمية، لكنّه امتلك حنكة سياسية بارعة. سعى الأساقفة الكاثوليك، الذين كانوا ناقمين على سيطرة البرغنديين والقوط الغربيّين، إلى استمالته بكل حماسة. وهكذا، كان اعتناقه للكاثوليكية أداةً سياسية أكثر فاعلية من الألقاب الإمبراطورية، ما مكّنه في نهاية حياته من فرض سيطرته على القسم الأكبر من بلاد الغال. لم يتردد كلوفيس في اللجوء إلى أساليب وحشية للاستيلاء على إمارة الفرنجة، حتى نجح في نهاية المطاف في تأسيس مملكة امتدت من جبال البرانس إلى نهر الراين، ونهر الفيزر، والدانوب»[١].

في الواقع، شملت مملكة كلوفيس وسلالة الميروفنجيين معظم أراضي فرنسا وأجزاءً من ألمانيا الحالية. ولهذا، يُطلق عليه في المناهج الدراسية الفرنسية لقب «أول ملك لفرنسا».

«المملكة الفرنجية، التي وُلِدت في عهد كلوفيس، استمرّت قرابة أربعة قرون، وهو عمر أطول من جميع الدول الجرمانية الأخرى، كما أصبحت السلف المباشر للدولة الفرنسية»[٢].

---

١. ماله وژول، تاريخ قرون وسطى، ١: ٨٥ – ٨٨.

٢. مانفرد، تاريخ فرانسه، ٣٣.

عند وفاته، قسّم كلوفيس مملكته بين أبنائه الأربعة، وفقًا للتقاليد الجرمانية. غير أنّ الخلافات بينهم سرعان ما تصاعدت، وبفعل الصراع على السلطة بين ورثته، شهدت الأسرة المالكة موجة من الجرائم المروعة. تفشّت أعمال العنف والوحشية بين أبناء كلوفيس وأحفاده وكنّاته وأفراد عائلته الآخرين إلى حدّ أنّ بعض الأمهات أقدمن على محاولة قتل بناتهنّ بدافع المنافسة السياسية.

يذكر غريغوريوس التوري، المؤرّخ من القرن السادس الميلادي، العديد من حوادث الخداع والجرائم التي ارتكبها أفراد هذه العائلة. من بين أبرز الأمثلة، تبرز شخصية فريدغوند، زوجة حفيد كلوفيس، التي استخدمت القتل والتعذيب وسيلةً للوصول إلى العرش. لم تكتفِ باغتيال ابن زوجها، بل لجأت أيضًا إلى تعذيب ابنتها ريغونت، بل وحاولت قتلها في إطار الصراع على السلطة، إلا أنّ محاولتها باءت بالفشل[١].

ألبر مالِه وجول إيزاك يوردان نماذج مختلفة من الأعمال الخبيثة والسادية التي ارتكبها ملوك وأفراد أسرة الميروفنجيين، رجالًا ونساءً. ومن بين هذه الأحداث، يذكران الصراع الدموي الذي دار بين فريدغوند وبرونهيلدا، وهما امرأتان من الأسرة الملكية الميروفنجية، إضافة إلى ما اقترفه ملوك وأمراء هذه السلالة من جرائم. فيما يلي مقتطف صغير من تلك الأحداث:

«اشتعلت الحرب بين فريدغوند وبرونهيلدا، ولم يكن بينهما أيّ تشابه سوى طموحهما الجامح نحو الجاه والسلطة. كانت فريدغوند، ذات الماضي المتواضع كخادمة، امرأةً متوحّشة لا تتردّد في ارتكاب أيّ جريمة. أما برونهيلدا، فكانت أميرة ذكية ومتعلّمة، تعرّضت للأسر لكنّها فرّت، واستعادت سلطتها، قبل أن

١. انظر: كوريك، قرون وسطاي اوليه، ٥٦ – ٥٧.

تنهار من جديد وتلقى مصيرًا مأساويًا. ففي عام ٦١٣ م، تمّ تسليمها إلى كلوتار الثاني، ابن فريدغوند، الذي عذّبها لمدة ثلاثة أيام، ثم أركبها على ظهر جمل وجال بها في أرجاء المملكة لتُهان علنًا. وفي النهاية، قُيّدت خصلات شعرها، مع إحدى ذراعيها وساقها، إلى ذيل حصان جامح، فقضت نحبها بطريقة مروعة. من بين جميع ملوك الأسرة الميروفنجية، يعدّ شيلبيريك، زوج فريدغوند، الأكثر شهرة. لقد كان شخصية غريبة، مزيجًا من التقاليد الجاهلية والمدنية. لم يكن أدنى من أيّ جاهل كامل الطمع، ولم يتورّع عن أيّ جريمة من أجل ملء خزائنه. كان شيلبيريك طاغية لا يرحم، فإذا عصاه أحد، أمر باقتلاع عينيه... كان داغوبير أحد ملوك هذه السلالة، ولم يكن يختلف عن بقية أفراد الأسرة الميروفنجية في طبيعته، إذ كان مستمتعًا بملذّاته، جشعًا، وقاسي القلب. أمر بإعدام ألف بلغاري كانوا قد طُردوا من ديارهم ولجأوا إلى مملكة الفرنجة طلبًا للحماية. بعد داغوبير، الذي كان ملكًا قويًا، تولّى الحكم ملوك ضعفاء وعاجزون، عُرفوا في التاريخ بلقب «الملوك العاطلون». أحد هؤلاء الملوك كان كلوتار، الذي ارتكب جريمة مروّعة بحق ابنه كرام وزوجته وأطفاله، إذ حبسهم في كوخ ثم أضرم النار فيه بنفسه. ولا ينبغي الظن بأنّ كلوتار أو غيره من الملوك مثل تييري وشيلدبيرت كانوا حالات نادرة، فقد رأينا كيف دبّر كلوفيس بنفسه مقتل ملوك كانوا من أقاربه. أما شيلدبيرت، فقد قام بخنق زوجته غالسوينثا، فيما لا يمكن حصر عدد جرائم القتل التي أمرت بها فريدغوند، حتى أنّها حاولت قتل ابنتها أيضًا خنقًا. ولم تكن برونهيلدا أقل وحشية، إذ ارتكبت عمليات قتل لا تقلّ عددًا عن تلك التي نفذتها فريدغوند. ومن طبيعة هؤلاء الملوك، يمكن تصوّر المصير الذي لاقاه عامة الناس. فقد امتلأت تواريخ القرنين السادس والسابع الميلاديّين بالمجازر

والنهب وقطع الطرق وسفك الدماء. وقد كان استقرار سلطة الفرنجة في بلاد الغال مشوبًا بمظاهر الهمجية والبربرية»[١].

الأسرة الميروفنجية والاقتصاد الإقطاعي

كانت مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الميروفنجية نموذجًا مبكرًا لظهور الاقتصاد الإقطاعي. ومع حلول أواخر القرن السادس الميلادي، ترسّخت الفوارق الاقتصادية واللامساواة الناتجة عن العلاقات الإقطاعية بين الفرنجة بشكل واضح. ورغم أنّ عددًا لا بأس به من الفلّاحين الأحرار كان لا يزال يمتلك الأراضي، إلا أنّ أعدادًا كبيرة من الأقنان (السرف) كانت قد ظهرت، وأصبح نظام القنانة هو السائد. كما تحوّل بعض المزارعين المستأجرين السابقين (الكولوني) إلى أقنان. وبعد بضعة عقود من وفاة كلوفيس، برزت طبقة من النبلاء الإقطاعيّين بين الفرنجة، مكوّنة من الكونتات والدوقات واللوردات.

وقد امتلك هؤلاء غالبية الأراضي، ومعها أعداد كبيرة من الأقنان، ما منحهم نفوذًا متزايدًا وقوّةً سمحت لهم بمقاومة الملوك الميروفنجيّين. ومع مرور الوقت، تضاءلت سلطة الملوك الميروفنجيّين، في مقابل تصاعد قوة النبلاء الإقطاعيّين، حتى بلغت ذروتها في النصف الأول من القرن الثامن، حين أصبح حكّام القصر ومستشارو الملوك (الذين كانوا من العائلات الأرستقراطية الفرنجية) هم الحكّام الفعليين، بينما اقتصر دور الملوك الميروفنجيين على المهامّ البروتوكولية دون أيّ تأثير فعلي في شؤون الحكم. ولهذا، أُطلق على هذا الجيل من الملوك لقب «الملوك العاطلون» أو «الملوك غير المجديين». في عهد سلالة الميروفنجيين، كان الأشراف الإقطاعيون من الفرنجة قد عمدوا إلى تجنيد مجموعات من العسكريّين المرتزقة

١. ماله وژول، تاريخ قرون وسطى، ١: ٨٩ - ٩١؛ ٩٦ - ٩٧.

لحسابهم الخاص، وكانوا يمنحونهم، مقابل ما يقدّمونه من خدمات، قطعًا من الأرض تحت مسمّيات من قبيل «الإقطاع» و«البِنِفِيس» و«الفييف». وكان هؤلاء الأشراف، مع جماعاتهم المسلّحة (التي ستُعرف لاحقًا باسم الفرسان)، يشنّون الهجمات على القرى، ويستولون عنوة على أراضي الفلاحين، أو ينتزعونها منهم بطرق تبدو قانونية وبذرائع شتّى. في مثل هذه الأوضاع، كانت المحافظة على الأرض الخاصة والاستقلال الذاتي تزداد صعوبة يومًا بعد يوم بالنسبة إلى الفلاحين الأحرار، وكان كثير منهم، في مسار متواصل، يتحولون من فلاحين أحرار إلى أقنان.

«كان عدد قليل من أفراد الجماعة يزداد ثراءً، بينما كانت الغالبية العظمى منهم تزداد فقرًا وتشرّدًا. وكان الفلّاحون يعانون من المجاعات والحروب المتكرّرة، وكانوا يُجبرون تقريبًا كلّ عام على مغادرة منازلهم ومزارعهم، ويشاركون على مضض في الحملات العسكرية. وكان العدو، عند الهجوم، يحرق القرى ويدمّر محاصيل الفلّاحين وينهب ممتلكاتهم. وكان الأثرياء في الجماعة يستغلّون مشكلات الفلاحين لمصالحهم. فإذا عجز فقير عن سداد ديونه، كانت قطعة أرضه تؤول إلى الدائن؛ وهكذا تحوّل بعض أفراد الجماعة الأثرياء إلى مُلاّك كبار للأراضي»[1].

في زمن سيطرة الفرنجة وسلالة الميروفنجيين، بدأ النظام الاقتصادي-الاجتماعي الإقطاعي يتشكّل في مراحله الأولى، وبدأ نظام القنانة في الانتشار. ومع بروز أولى ملامح العلاقات الإقطاعية وتنظيمها، ظهرت طبقة من الأشراف الإقطاعيين، أخذ نفوذها يتعاظم تدريجيًّا، وبدأت معالم الصراع الأوليّ بين الملك

١. آگيبالووا ودنسكوى، تاريخ سده‌هاى ميانه، ١٤ - ١٥.

والأشراف الإقطاعيين بالظهور. إنّ صعود قوة فئة من هؤلاء الأشراف هو ما دفع بآخر ملوك الأسرة الميروفنجية إلى الهامش، وجعلهم يتحوّلون إلى ملوك عاطلين.

«فقد كان آخر ملوك أسرة الميروفنجيين قد قسّموا الجزء الأكبر من أراضيهم بين الأشراف، ففقدوا بذلك سلطتهم، ولم يعودوا يملكون دورًا فعليًّا في إدارة الحكم، ولهذا أُطلقت عليهم تسمية «الملوك العاطلين». وفي الوقت الذي كانت فيه سلطة الملوك تتراجع، كانت أسرة الكارولنجيين العريقة تتعاظم نفوذًا أكثر من سواها. وقد كانت هذه الأسرة تملك مساحات شاسعة من الأراضي في القسم الشرقي من مملكة الفرنجة. وكان كبار رجال هذه الأسرة يشغلون في بلاط «الملوك العاطلين» منصب الحاجب الأعلى في القصر. وكان الحاجب [أي رئيس القصر] يتولّى قيادة المقاتلين، ويشرف على جباية الضرائب، ويمنح الأراضي. وهكذا أخذ الكارولنجيون، على نحو متزايد، يرسّخون سلطتهم في أيديهم»[١].

في مسار نشوء وتكوّن عالم الغرب في القرون الوسطى، بدأت تتبلور الوجوه الأساسية والمُشكِّلة لهويّته: المسيحية والكنيسة الكاثوليكية، والثقافة والفكر الثيوسانتري، والأخلاقيات وأنماط الحياة المتوافقة مع هذا التصوّر، فضلًا عن العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية الإقطاعية القائمة على نظام القنانة.

وفي هذا السياق أيضًا، ظهرت الصورة الأولية للمحاور الثلاثة للسلطة: الملك، والكنيسة، والأشراف الإقطاعيون، ضمن إطار من التفاعل القائم على «الوحدة-التناقض» المستمر. ومع اتّساع نطاق المسيحية الكاثوليكية في مختلف

١. كاسمينكي، تاريخ قرون وسطى، ١٩ - ٢٠.

أنحاء أوروبا، وقيام الدول الجرمانية المسيحية، وتشكُّل مركّب ثقافي جرماني مسيحي مستلهَم من التراث الروماني القديم، حافظ التاريخ العدمي للغرب، في ظلّ الثيوسانتريّة التي طبعت القرون الوسطى، على استمراريّته الهويّاتيّة.

وينتهي طور النشوء والتكوّن الأولي للغرب المسيحي قرابة عام ٨٠٠ ميلادية، لتَدخُل أوروبا العصورِ الوسطى مرحلةَ النضج والازدهار.

٣. مرحلة تثبيت وترسيخ الغرب في القرون الوسطى (٨٥٠-١٠٧٦م)

تبدأ مرحلة نضج الغرب في القرون الوسطى وذروة ازدهاره من القرن التاسع وتستمر حتى العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر. وخلال هذه المرحلة، تكتمل بصورة نهائية العناصر والمقوّمات الأساسية للعالم الغربي في القرون الوسطى. وفي إطار هذا الاكتمال، تبدأ التناقضات الداخلية وصراعات القوى الفاعلة في تشكيل العالم الغربي المتمركز حول اللاهوت في الظهور بوضوح، مما يدفع هذا العالم إلى أزمة انحطاط في نهايات هذه الحقبة.

ومن أبرز خصائص هذه المرحلة وأحداثها الهامّة:

- اكتمال تشكّل النظام الاقتصادي والاجتماعي-السياسي الإقطاعي
- ظهور وسقوط الممالك الإقطاعية الفرنجية القوية، خاصة إمبراطورية شارلمان التي أدّى تفكّكها إلى نشوء ثلاث دول مستقلة هي إيطاليا وفرنسا وألمانيا
- تفاقم الصراع بين محاور القوى الثلاثة في الغرب المسيحي: الكنيسة، والملك، والأشراف الإقطاعيون
- وقوع الانشقاق الكبير في المؤسّسة الكنسية، وانفصال الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية
- احتدام التناقض بين الرهبنة والفروسية بوصفهما وجهين متكاملين للنموذج المثالي للإنسان في الغرب الوسيط

- بروز الشعوب الإسكندنافية ودورها الفعّال والمؤثّر في أحداث الغرب في العصور الوسطى،
- ظهور حركاتٍ وثوراتٍ اعتراضية قام بها الفلاحون الأحرار والأقنان ضد مظالم الإقطاعيين المستكبرين وحلفائهم
- التفاعل القائم على المنافسة والتزاحم والصراع بين الكنيسة والبابوية من جهة، وبين الملوك والأباطرة من جهةٍ أخرى، يُشكِّل جوهر حقبة نضج وازدهار الغرب المسيحي. فمنذ العام ٨٠٠م وحتى نهاية هذه المرحلة، اتّسمت هذه العلاقة بالتداخل بين التعاون والتنافس، وأصبحت بذلك السمة الأساسية التي حدّدت طبيعة العصر.
- شهدت هذه الفترة أيضًا وقوع مواجهات كبرى بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي.
- وفي هذه المرحلة أيضًا، شهدت المدارس الدينية المسيحية توسّعًا ملحوظًا، وظهرت الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) بصورةٍ منسجمة وشاملة، لتصبح الشكل الرئيسي المهيمن على الفكر الغربي في العصور الوسطى. فمنذ القرن التاسع الميلادي وحتى أواخر القرن الحادي عشر (أو على الأقل خلال العقدين الأخيرين منه)، تجلّت العناصر الجوهرية للغرب الوسيط في صورتها المكتملة. وفي هذه الحقبة تحديدًا، ظهر العدمية الثيوسانترية، وصاغ حياة الناس وعلاقاتهم، كما حدّد طبيعة العلاقة بين الإنسان والعالم. وفي ظل هيمنة ثيوس، اكتمل ظهور الثقافة والفكر المسيحيَّين، والنظام الاقتصادي الإقطاعي القائم على القنانة، ونظام توزيع السلطة السياسية والاجتماعية الإقطاعية. كذلك احتدم الصراع بين الرهبنة والفروسية (أو بين الكنيسة

والملوك)، اللتين تمثّلان الجانبين المتزاحمين لصورة الإنسان المثالية في العصور الوسطى، ما هيّأ الظروف لظهور أزمة انحطاط الغرب المسيحي في الفترة الممتدة بين القرن الثاني عشر وحتى القرن الرابع عشر.

الفرنجة من شارل مارتل إلى شارلمان

وُلد شارل مارتل حوالي سنة ٦٨٨م، وكان يشغل منصب الحاجب (كبير القصر) في عهد الأسرة الميروفنجية، وقد نجح في توسيع نفوذ الفرنجة ومدّ نطاق سيطرتهم. ويمكن اعتبار شارل مارتل المؤسّس الحقيقي (وإن لم يكن الرسمي) لسلالة الكارولنجيين، إذ كانت السلطة الفعلية بكاملها في يده، بينما ظلّ أحد أفراد الأسرة الميروفنجية يحتفظ ظاهريًا بلقب «الملك العاطل». بل إنّ شارل مارتل كان هو من يُدير الملك ذاته ويُقيّد سلطاته ويُخضعه لرقابته المباشرة.

وينتمي شارل مارتل إلى أسرة الأرنوفيين، التي عُرفت لاحقًا بالكارولنجية. وهو الذي أنشأ جيشًا من الفرسان المدرّبين ذوي الفعالية العالية. وقد توفي سنة ٧٤١م، وخلفه ابنه بِيبِين القصير. وفي سنة ٧٥١م، نجح بيبين، بالتواطؤ مع البابا إسطفانوس، في عزل آخر ملوك الميروفنجيين، شيلدريك الثالث، وأرسله إلى أحد الأديرة، ليُعلن رسميًا تأسيس السلالة الكارولنجية، التي اشتق اسمها من اللفظ اللاتيني «كارولوس» بمعنى شارل. وعقب تتويجه رسميًا، خاض بيبين القصير حربًا ضد اللومبارديين دعمًا للبابا، فهزمهم في معركتين، وتنازل عن جزءٍ من أراضيهم لصالح البابوية. وبذلك أصبح البابا يمتلك إقليمًا مستقلًا يحكمه مباشرة، وظلّت هذه الأراضي تحت سلطة الكنيسة والبابا حتى عام ١٨٧٠م.

«دفع هجوم اللومبارديين البابا إلى طلب المساعدة من بِيبِين. وقد نجح بِيبِين في التغلب على اللومبارديين، ومنح البابا الأراضي التي استولى عليها منهم.

وهكذا تأسّســت دولة الكنيســة برئاســة البابا، وكانت مدينتا روما ورافينا من أبرز مراكزها. وقد حرص البابوات على إظهار أنّ ســلطتهم على هذه الأراضي لم تكن بتاتًا منحةً نابعة من ســخاء ملوك الفرنجــة، ولذلك أُعدَّت وثيقةٌ مزيَّفةٌ بأمر البابا تُعرف باســم «هِبة قســطنطين». وزعمَت هذه الوثيقة أنّ الإمبراطور قسطنطين، الذي نقل عاصمته إلى القسطنطينية، منح البابا حكم إيطاليا بأكملها وســائر الأراضي الغربية. وفي الفترات اللاحقة، ظلّ معظم البابوات يستندون إلى هذه الوثيقة المزيَّفة لتبرير نفوذهم وسلطتهم على أوروبا الغربية»[١].

كان أشهر ملوك السلالة الكارولنجية وأكثرهم أثرًا هو شارلمان. فقد أسّس شــارلمان إمبراطوريةً بكلّ ما تعنيه الكلمة، وامتدّت فترة حكمه من ســنة ٧٧١ إلى ٨١٢م. ويُعدّ حكمُه – خصوصًا حدث تأسيس الإمبراطورية عام ٨٠٠م وتتويجه في روما (حيث وضع البابا ليون الثالث التاج على رأس شــارلمان معلنًا إياه إمبراطورًا مســيحيًا) – البدايةَ الفعلية لعــصر النضج والازدهار في الغرب الوســيط. ففي أواخر سنة ٨٠٠م، توَّجه البابا ليون الثالث في روما أمام «مذبح القديس بطرس»، وبذلك تشكّل ارتباطٌ مهم ولكنه قصير الأمد بين الإمبراطور والبابا. وتُعتبر هذه اللحظة (ســنة ٨٠٠م) نقطة انطــلاق مرحلة نضج الغرب الوسيط وازدهاره، وهي المرحلة التي تنتهي بنزاع البابا هيلدبراند (غريغوريوس السابع) مع الملك هنري الرابع.

قام شــارلمان بعملين بارزيــن ومؤثّرين؛ فقــد نجح أولًا في توحيــد غالبيّة الشعوب الجرمانية تحت مملكة فرنجية واحدة، وثانيًا في توسيع نفوذ المسيحية في أوروبا، وخاصةً بين الشعوب الجرمانية. وفي عهده أيضًا ترسّخ النظام الإقطاعي

---

١. م. ن، ٢١.

وتوفّرت الأرضية اللازمة لانتشار الفكر والثقافة المدرسية (السكولاستيكية). وفي إمبراطورية شارلمان، امتزجت المسيحية بالعنصر الجرماني مع التراث اليوناني-الروماني، وظهرت في شكل سياسي واضح المعالم. وكما يقول غِلفند: «لقد أصبح شارلمان سيّد أوروبا الغربية بسيفه وصليبه»[١].

على الرغم من أنّ شارلمان لم يستخدم قط لقب «الإمبراطور الروماني المقدّس»، وأنّ هذا اللقب لم يظهر إلا بعده بقرون عندما مُنِح لأوتو الألماني، إلا أنّه في الواقع يجب أن نَعدَّ شارلمان المؤسّس الحقيقي للإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

اسم «شارلمان» في اللغة الفرنسية يعني «شارل الكبير»، وهو لقبٌ أُطلِق عليه. وكان شارلمان ملكًا مسيحيًا جسَّد فعليًّا الملامح الرئيسة لحضارة الغرب في العصور الوسطى. فمع تشكُّل إمبراطورية شارلمان، القائمة على الوحدة بين الشعوب الجرمانية (بمحورية الفرنجة) وبين المسيحية والكنيسة الكاثوليكية، دخل تطوّر العالم الغربي في القرون الوسطى (بل وتاريخ الغرب عمومًا) مرحلةً جديدةً كليًا.

«إنّ إمبراطورية شارلمان تبدو في ظاهرها مشابهةً للإمبراطورية الرومانية القديمة، لكنّها في الواقع نظام حكمٍ إقطاعي تجلّى في صورة مَلَكيّة»[٢].

كانت إمبراطورية شارلمان شاسعةً جدًّا، إذ امتدّت الأراضي الخاضعة لسلطته من الساحل الغربي لأوروبا شرقًا لمسافة ألف ميل حتى نهر إلبه، كما امتدّت تقريبًا من بحر الشمال شمالًا إلى البحر المتوسط جنوبًا، وبلغت مساحتها نحو

١. گلفند، شارلمانی، ٥٧.

٢. ماله وژول، تاریخ قرون وسطی، ١: ١٣٧ - ٣٨.

خُمس مساحة الولايات المتحدة، شاملةً كامل فرنسا الحالية وسويسرا والبلدان الساحلية (هولندا ولوكسمبورغ)، وأجزاءً كبيرة من ألمانيا والنمسا الحالية، وصولًا إلى داخل شمال إيطاليا[١].

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، كانت غالبية الفلّاحين في أراضي الفرنجة قد تحوّلوا إلى أقنان، واستحوذ كبار الإقطاعيّين على معظم الأراضي، إلا أنّ الأشراف الإقطاعيّين الفرنجة كانوا لا يزالون يطلبون مزيدًا من الأراضي؛ لذا خاض شارلمان حروبًا عديدة بهدف توسيع ممتلكات ومصالح الإقطاعيّين. وشنَّ أكثر من خمسين حربًا ضد جيرانه، وقمَع بمنتهى القسوة والعنف حركات المقاومة التي قام بها الفلاحون الذين ضاقوا ذرعًا بظلم واستبداد الإقطاعيّين. كما لم يُظهر شارلمان أيّ رحمة أو تسامح مع الفقراء من الفرنجة أو مع الشعوب التي كان يهزمها في حروبه، فكان يقوم تقريبًا كل عام بحملاتٍ عسكرية تهدف إلى السلب والنهب. وقد شنَّ ثماني حروبٍ ضد الساكسون (وهم قبائل جرمانية عاشت شمال شرقي مملكة الفرنجة بين نهرَي الراين وإلبه).

أصدر شارلمان أوامره في إحدى ليالي عيد الميلاد بإعدام ٤٥٠٠ أسير من الساكسون الذين رفضوا اعتناق المسيحية والتعميد. ومن خلال إخضاعه للعديد من الشعوب والأراضي وتوزيعها بين الأشراف الفرنجة، خلق شارلمان طبقةً إقطاعية من الأرستقراطيين الذين أصبحوا يمتلكون قواتٍ مسلحةً خاصّة بهم، مما جعلهم في غنىً عن حماية الملك. وقد أدّى ظهور هذه الطبقة الأرستقراطية الجديدة بعد عقود قليلة من وفاة شارلمان إلى تفتّت إمبراطوريّته وتجزئتها، نتيجةً لنزعاتهم الاستقلالية وطموحاتهم في السيطرة.

---

١. كوريك، قرون وسطاي اوليه، ٦٢.

وخلال عهد شارلمان، كان على رأس كل منطقة حاكم يُسمى الكونت. ولأجل مراقبة أداء هؤلاء الكونتات، كان شارلمان يرسل مفتّشين إلى الأقاليم المختلفة. أمّا التابعون الصغار (الفاسالات)، فكانوا يحصلون على أراضٍ تُسمّى «البِنِفِيس»، شرط مشاركتهم في الحروب وخضوعهم للسنيور (السيد الأعلى). وفي زمن شارلمان، لم تكن هذه الـ«بنفيس» تنتقل وراثيًا من الأب إلى الابن، لكن بعد وفاته (في القرن التاسع) تحوّلت هذه الأراضي إلى ملكيةٍ وراثية وعُرفت باسم «الفييف».

في منتصف القرن التاسع، كان نظام الفييف الوراثية قد انتشر بشكل تام. وفي القرن ذاته اندلعت ثورات فلاحية عديدة، قمَعها شارلمان وخلفاؤه بقسوة شديدة. ورغم أنّ شارلمان لم يكن يُجيد القراءة أو الكتابة، إلا أنّه كان يتحدّث اللاتينية بطلاقة ويفهم اللغة اليونانية. وقد أنشأ سلسلةً من المدارس التي أُطلق على نمط التفكير فيها لاحقًا اسم «المدرسية» أو «السكولاستيكية».

كان شارلمان مولعًا بالأدب اللاتيني وبأعمال فيرجيل تحديدًا، وسعى لتعليم القراءة والكتابة للكونتات والدوقات وحتى لعدد كبير من الفلّاحين العاديّين. وفي سنة ٧٨٧م أصدر شارلمان أمرًا بإنشاء مدارس داخل الكاتدرائيات والأديرة. ويبدو أنّ شارلمان كان مُدركًا للإمكانية التاريخية المتاحة له في تجسيد نموذج خاص من الحضارة المسيحية الجرمانية الإقطاعية، وبذل جهودًا واضحة للتحرّك في ذلك الاتّجاه.

تثبيت وتوسيع التنظيم الإقطاعي

يمكن اعتبار شارلمان المؤسِّس الحقيقي لنظام التراتبية الإقطاعية وتوسيعها وترسيخها. فقد وزّع معظم الأراضي المفتوحة حديثًا بين تابعيه (الفاسالات)،

وألــزم الكونتات وغيرهم من التابعين بحضور اجتــماعٍ عامّ يُعقد مرّةً أو مرّتين ســنويًا، بمشاركة شارلمان نفسه. ومن خلال هذه الاجتماعات، أراد شارلمان أن يتغلّب على الطبيعة الانفصالية للنظام الإقطاعي، ويُخضع الكونتات والدوقات وغيرهــم لإشرافه المبــاشر. وفي هذه الاجتماعــات العامّة كانت تُقــرّ القوانين واللوائح التي تسري في جميع أنحاء الإمبراطورية.

كذلك منح شارلمان، بالتوازي مع سلطات الكونتات، صلاحياتٍ اقتصادية وسياسيةً لأساقفة الكنيسة، وألزم الكونتات بإشراك الأساقفة في ممارسة السلطة. فمن الناحية القانونية، كان الأسقف مسؤولًا عن الشؤون الدينية المقدّسة، بينما كان الكونت مسؤولًا عن الشؤون الدنيوية غير المقدّسة. إلا أنّ هاتين السلطتين كانتا تعملان بشــكل متوازٍ ومتداخل. وبذلك، نجح شارلمان في الحدّ من نفوذ الطرفين، وتحقيق هيمنته وسيطرته العليا عليهما معًا.

احتفظ شــارلمان لنفســه حصرًا بحق تعيين الكونتات والأســاقفة، كما منح بعض التابعين (الفاســالات) الأكثر ثقةً لديه ســلطاتٍ إضافيةً، وأطلق عليهم لقب «دوق» أو «ماركي»، وجعلهم في مرتبةٍ أعلى من الكونتات، بحيث أصبح الدوقــات يتولّون إدارة مناطق واســعة تشــمل عدّة مقاطعــات. كذلك حوّل شارلمان الكنيسة إلى مؤسسة سياســية واقتصادية قويّة، وبدأ الأساقفة ورؤساء الأديرة تدريجيًا في تكوين مجموعاتٍ مسلّحة خاصّة بهم وتنظيم تابعين (فسلات) تابعين لهم، بهدف حماية أملاكهم وأراضيهم.

وهكذا، ومع مرور الوقت، أصبح الأســاقفة ورؤســاء الأديــرة أقرب إلى النبلاء الإقطاعيّين منهم إلى رجال الدين الآخرين. كما ســمح شارلمان للكنيسة بتشكيل محاكمها الخاصّة، ومنحها صلاحيات حصرية في شؤون الزواج والدفن والوصايا، والقضايا المتعلقة بالإرث والملكية.

في عهد شارلمان، أصبحت «يمين الولاء» التي يؤدّيها التابع (الفاسال) للسيد الأعلى (السينيور) قاعدةً حقوقيةً ثابتة وراسخة. وقد حكم شارلمان الفرنجة لما يقرب من نصف قرن، وانتصر في حروبه ضد البورغونديين والساكسون والبافاريين واللومبارديين، كما خاض حروبًا عدّة ضد المسلمين، لكنه مُني بالهزيمة في بعضها. ويعود الفضل إليه بشكل أساسي في ترسيخ البنية السياسية والاقتصادية للنظام الإقطاعي، كما قام بتشييد الكنائس والمباني الفخمة، ومنها كاتدرائية آخن الشهيرة. ويرى جيمس كوريك أنّ من أهم إنجازات شارلمان «تعزيز النظام الإقطاعي وتطويره وتنقيحه»[١].

أمّا طبقة الأشراف الإقطاعيين التي ظهرت في عصر شارلمان، فقد اتّخذت تدريجيًا خلال حياته وبعد وفاته، وفي العقود التالية ضمن مرحلة نضج الغرب الوسيط، شكلًا هرميًا تراتبيًا، يأتي على رأسه الملك، يليه الدوقات ثم الكونتات ثم الفيكونتات، وبعدهم اللوردات، وأخيرًا أصحاب الأراضي في القرى. أما الفلّاحون الأحرار والأقنان فلم يكونوا جزءًا من هذه التراتبية، ولا يُعتبرون ضمن النبلاء أو الأشراف.

وبعد وفاة شارلمان وتفكّك إمبراطوريته، تضاءلت سلطة الملك، وأصبح دوره في أغلب الأحيان باهتًا أو حتى شكليًا ضمن السلسلة الهرمية للنظام الإقطاعي.

«مع أنّ سيّد القرية كان يتصرّف في الأرض التي بحوزته (والتي كانت تشتمل عادةً على قلعة أو بيت سيّدٍ إقطاعي محاطٍ بقريةٍ صغيرة يسكنها أقل من مائة فلاح)، إلا أنّه لم يكن في الواقع «مالكًا» حقيقيًا لها؛ بل كان يحقّ له الاستفادة

١. كوريك، قرون وسطاي اوليه، ٧٥.

منها وإصدار الأوامر إلى الفلّاحين المقيمين فيها، طالما التزم بواجباته تجاه اللورد الذي منحه تلك الأرض»[١].

تفكُّك إمبراطورية شارلمان

توفّي شارلمان سنة ٨١٤م، ولم يكن على قيد الحياة من أبنائه سوى ابنه لويس، المُلقّب بالتَقِيّ، الـذي كان ملكًا على أكيتانيا. لم تكن لدى لويس المقدرة الكافية لإدارة الإمبراطوريـة الكارولنجية، مما شـجّع الأشراف الذيـن باتوا يمتلكون الثروة والقوة العسكرية على التمرّد تدريجيًا.

وبعد وفاة لويس التقيّ سـنة ٨٤٠م، اندلع النزاع بين أبنائه الثلاثة، شـارل الأصلع، ولويس الألماني، ولوثر، للسـيطرة على أراضي الإمبراطورية. وانتهى هذا النزاع بتوقيع «معاهدة فردان» عام ٨٤٣م، التي قضت بتقسيم الإمبراطورية الكارولنجية إلى ثلاثة أقسام. حصل شارل الأصلع على منطقة واسعة من أراضي الفرنجـة الغربية، التي تطوّرت تدريجيًا لتصبح فرنسـا. أما لويس الألماني، فقد حصل على منطقةٍ تساوي تقريبًا مساحة أراضي شارل الأصلع، وعُرفت لاحقًا بألمانيا، وكانت ضمن أراضي الفرنجة الشرقية. وبقي شريطٌ ضيّقٌ من الأراضي بين مملكة شـارل الأصلع ومملكة لويس الألماني من نصيـب لوثر، وظلّت هذه المنطقة محل نزاعات متكرّرة بين الفرنسيين والألمان حتى القرن العشرين.

كانـت النتيجة المبـاشرة لمعاهدة فـردان هي انهيـار الوحدة التـي حقّقتها إمبراطورية الفرنجة خلال وجودها. وفي أعقاب تفكك إمبراطورية شـارلمان، نشـأت فعليًا ثلاث ممالك، هي فرنسـا وألمانيا وإيطاليا، رغـم أنّ هذه الممالك لم تكن دائمًا تتمتّع بوحدةٍ داخليةٍ أو دولةٍ مركزية. بل إنّ ألمانيا وإيطاليا لم تصلا إلى الوحدة السياسية الكاملة إلا بعد عدة قرون.

---

١. بيل، عصر فئوداليسم، ٤٤.

ومن الملاحظات المثيرة للانتباه، أنّه في منتصف القرن التاسع الميلادي، كانت الفجوة اللغوية بين القسم الغربي من الفرنجة (فرنسا لاحقًا) والقسم الشرقي من الفرنجة (ألمانيا لاحقًا) قد اتّسعت لدرجةٍ اضطرّت شارل الأصلع ولويس الألماني، أثناء إعلان معاهدة فردان لجيوشهما، إلى تكرار نص الاتّفاقية مرةً باللغة الفرنجية الغربية، ومرةً أخرى باللغة الفرنجية الشرقية.

وهذا يوضّح بجلاء أنّ هاتين اللغتين في منتصف القرن التاسع كانتا قد تباعدتا وخضعتا لتحوّلات جوهرية، فأصبحت إحداهما هي اللغة الفرنسية والأخرى هي الألمانية، وتحوّلتا إلى لغتين مستقلتين ومختلفتين.

أوضاع حياة الفلاحين والإقطاعيين

كان الاقتصاد الإقطاعي القائم على نظام القِنانة اقتصادًا طبيعيًا في جوهره، وهو اقتصادٌ يقوم على الاكتفاء الذاتي، لا يلعب فيه النقد أو التبادل التجاري دورًا جوهريًا. ففي الأملاك الإقطاعية (من القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر) كانت تُنتج جميع احتياجات الفلاحين وأسيادهم داخل الأملاك ذاتها، فكان هذا النموذج من الاقتصاد الطبيعي هو السائد.

«كانت الزراعة، خاصة زراعة الحبوب وتربية المواشي، النشاط الرئيسي للناس في العصور الوسطى، وكانت الأرض المصدر الأساسي للثروة. وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديّين، استحوذ كبار المُلاّك الإقطاعيّين على جميع أراضي أوروبا الغربية تقريبًا، بما في ذلك المزارع والغابات والأراضي البور وحتى الأنهار. وكانت هذه الممتلكات، مع ما عليها من أقنان، تُعرف باسم «الفييف» (الإقطاعية)، وكان مالكو هذه الأراضي والأقنان يُسمَّون الإقطاعيّين. وقد امتلك بعض كبار الإقطاعيّين أقاليم واسعة تضمّ عشرات القرى، بل وأحيانًا

مئـات القرى، أما الإقطاعيّون الأصغر فكانوا يمتلكون عادةً قريةً واحدة فقط. وكان الفلّاحون، مقابل اسـتخدام أراضي الإقطاعـي، مُلزَمين بتأدية واجبات عديدة ومتنوّعة؛ فكان الفلاح مُجبَرًا على حراثة أرض السيّد الإقطاعي وزراعتها وحصادها ودَرْس محاصيلها.

عندما كان الفلّاح يعمل في حقول سيّده الإقطاعي، كانت محاصيله تتعرّض غالبًا للتلف بسبب الرياح والأمطار والإهمال. وكان الأقنان مُلزَمين أيضًا بأداء خدمـات إضافية متعدّدة للسـيد، مثل بناء بيوته ومخازنه وجسـوره وترميمها، وتنظيف بِرَكِه وصيد الأسـماك له. وكانت هذه الأعـمال الإجبارية التي يؤدّيها الأقنان لصالح السـيّد تُسمّى بالسُـخرة. وكان على الفلاحين كذلك أن يُقدّموا للسـيد جزءًا من إنتـاج حقولهم، مثل الحبـوب والدواجن والبيـض والزبدة والعسل، وكانت هذه المدفوعات العينية تُعرف بـ«الإتاوات العينية.

وقـد كان معظم ما يحتاجه الفلاحون والسـيد الإقطاعي يُنتَج ويُوفَّر داخل الأملاك الإقطاعية نفسها. وامتلك الإقطاعيّون ورشًا صناعيةً داخل إقطاعاتهم الكبـيرة، حيث كان الأقنان الحرفيّون يُنتِجون فيهـا المعدّات الحربية والأدوات الزراعية وينسجون الأقمشـة. ونادرًا ما كان الفلّاحون والإقطاعيّون يشترون شـيئًا من الخارج، بـل كانوا يتوجّهـون إلى المناطـق التي تُنتِج الملـح والحديد ويُبادلـون بها منتجاتهم. وكان بعض التجّـار المتجوّلين يزورون من حينٍ لآخر الأمـلاك الإقطاعية لبيع المجوهرات والحرير وغيرها من السـلع الفاخرة. كان الإقطاعيون يسعون أحيانًا للحصول على النقود عن طريق بيع جزء من منتجات أملاكهم، لكن ذلك لم يكن أمرًا سـهلًا، لأنّ الأملاك المجاورة كانت تنتج غالبًا المحاصيل ذاتها. ولهذا السبب، فإن الإقطاعيّين أنفسهم كانوا قلّما يرون النقود.

وكان قصر الإقطاعي عادةً يُبنى فوق تلٍّ مرتفع أو فوق صخرة شاهقة، كأنّه عُشّ نسر يُشرف على ما حوله. وكانت القلعة هي بيت الإقطاعي وحصنه في الوقت نفسه، يلجأ إليها ليبتعد عن خطر ثورات الفلاحين أو هجمات الأشراف الآخرين. في البداية، كانت هذه القلاع تُبنى من الخشب، ثم أصبحت لاحقًا تُشيَّد بالحجارة، وتتمتّع بأسوارٍ سميكة وأبراجٍ عالية ذات شُرفاتٍ مسنّنة لتسهيل الدفاع عنها. وكان يُحيط بالقلعة من الخارج خندقٌ واسع مملوء بالمياه، تعلوه جسر متحرّك يصل القلعة بما حولها. وكان هذا الجسر يُرفع بسلاسل أثناء الليل أو في حالة الهجوم.

وكان الإقطاعي وأفراد أسرته يعيشون داخل غرفٍ بُنيت فوق بعضها في الأبراج، بينما تُخزَّن المؤن والغذاء في أقبية القلعة، التي كان يُحفر فيها بئر لتأمين المياه»[١].

رغم أنّ نظام العلاقات الإقطاعية والقنانة كان قائمًا على الظلم والاستغلال، وكان الفلّاحون الفقراء والأقنان يتعرّضون للنهب والقهر من قِبَل أسيادهم الإقطاعيين، إلا أنّه كان، بالمقارنة مع الظلم وأنماط الاستغلال السائدة في العالم الغربي الحديث، أقلّ قسوةً وظلمًا. ويعود ذلك إلى سببين رئيسين؛ الأول أنّ الفارق في مستوى المعيشة بين الفلّاح الفقير والسيّد الإقطاعي لم يكن كبيرًا وملحوظًا كما هو في العصر الحديث، والثاني أنّ هناك أخلاقًا مستلهمةً من التضامن الأبوي كانت تجعل السيّد الإقطاعي، بالرغم من ظلمه واستغلاله، يُبدي أحيانًا قدرًا من الرعاية والحماية تجاه الفلّاحين والأقنان.

وهذه الخصائص الأخلاقية للعلاقات في العصور الوسطى كانت تميّزها عن

١. آگيبالووا ودنسكوى، تاريخ سده‌هاى ميانه، ٢٤ - ٢٦، ٣٦، ٣٨.

العلاقات الرسمية الجافّة وغير الشخصية التي تحكمها الضرورة الاقتصادية، وتطبعها حالة اغتراب الإنسان الكامل وتشييئه في العصر الغربي الحديث، وتُخفّف بالتالي من حدّة جوانبها السلبية. وكانت هناك أيضًا في مجتمعات الغرب الوسيط منظومة من التضامن المهني مبنيّة على الأخلاقيات الكاثوليكية، ساعدت في تخفيف معاناة الناس وآلامهم، في حين أنّ النزعة الفردانية في العصر الحديث فاقمت من حدّة الضغوط الناجمة عن الاستغلال الرأسمالي والاغتراب والتشييء الناتج عن العلاقات السلعية، كما عمّقت مشاعر القلق والوحدة الحداثية، وزادت بالتالي من معاناة الإنسان الحديث وآلامه.

تنامي قوة الفُرسان وارتقاء مكانتهم

في نهاية القرن التاسع الميلادي، كانت مملكة الكارولنجيّين في فرنسا قد تحوّلت إلى شبكةٍ متنافسةٍ من الأسر الإقطاعية القويّة. وكانت هذه الشبكة المعقّدة قد تشكّلت من خلال عقود الزواج، وعلاقات القرابة، وأداء القَسَم الإقطاعي. واتّسمت العلاقة بين الدوقات والكونتات واللوردات بالمنافسة والنزاع والتآمر المستمر، وكان كل واحدٍ منهم يمتلك مجموعاتٍ مسلحةً من الفرسان، ويسعى لتلبية احتياجاتهم وإرضاء طموحاتهم بزيادة عددهم وقوّتهم عن طريق السيطرة على المزيد من الأراضي. وبصورةٍ تدريجية خلال القرن العاشر الميلادي وما بعده، نال الفرسان مكانةً خاصةً ومؤثّرةً في التسلسل الهرمي للنظام الإقطاعي.

وكانت أولى علامات ارتقاء هذه المكانة حضور الفرسان في مجالس ومحاكم الدوقات والكونتات واللوردات. وفي القرن العاشر الميلادي تحديدًا، أصبح الفرسان يُعدّون جزءًا من «طبقة النبلاء»، وأعضاءً في الأرستقراطية الإقطاعية. في هذه المرحلة أيضًا، بدأ الفرسان يفرضون سيطرتهم وسلطتهم المباشرة على

القــرى الواقعــة تحت نفوذهم. والحقيقة أنّ الفروســية كانــت تمثّل أحد وجوه الصورة المثالية للإنســان في الغرب الوسيط، وأنّ صعودها ساهم بشكل مباشر في تعزيز قوة الأشراف الإقطاعيّين مقابل الكنيسة والملك.

في الواقع، أدّى صعود قوّة الفروســية والفرســان إلى تعميق وتوسيع التيار الانفصالي والصراع بين الرهبنة والفروســية. وكانت معدّات الفارس وأزياؤه باهظة التكلفة وثقيلة جدًّا، حيث كانوا يمتطّون خيولًا قويةً أثناء القتال، وكانت دروعهم ثقيلة، يبلغ وزنها أحيانًا أكثر من ٥٥ كيلوغرامًا. وكان على الفارس أن يجتــاز فتراتٍ تدريبيةً طويلةً ومُكلفة، ولم يكــن بمقدور الفلّاحين الفقراء توفير التجهيزات باهظة الثمن للفرسان أو تحمّل تكاليف تدريبهم.

الحروب الإقطاعية

اتّسمت الحقبة التي نحن بصددها باضطراباتٍ مستمرّة وصراعاتٍ متواصلة بين الإقطاعيّين. فعلى الرغم من نشوء ثلاث ممالك إثر معاهدة فردان، إلّا أنّ تلك الممالك نفســها كانت تعاني داخليًا من الانقسام والصراع بين السادة الإقطاعيّين الذين تمتّعوا بالاســتقلال والقوة العسكرية، بحيث لم يكن للملوك سلطة كبيرة في المناطــق التــي تُعرف اليوم بفرنســا وألمانيــا وإيطاليا، إذ كانــت هذه الممالك عمليًا مكوّنةً من مجموعة من الأقاليم الإقطاعية المستقلّة والمتنافسة والمتصارعة بعضها مع بعض. وفي منتصف القرن التاسع، تحوّلت الإقطاعيات (الفييف) إلى ممتلكاتٍ وراثية، وهو ما أدّى إلى تعزيز مواقف الأسر الإقطاعية وزيادة نفوذها.

غارات المجريّين والنورمان

بعد تفكُّك إمبراطورية شــارلمان، اســتغلّت بعض القبائل المجاورة الفرصة لمهاجمــة أراضي الفرنجة. من بين هذه القبائل كانت قبيلــة «المجر» التي تربطها

صلة قرابة مع الهون، وقد أسّس المجريون في منطقة الدانوب الوسطى مملكة هنغاريا (المجر الحالية).

لكن الهجمات الأشد والأخطر جاءت من قبائل «النورمان» أو «النورس». وتشير كلمة «نورس» إلى شعوب شمال أوروبا. وكان الإسكندنافيون، المعروفون أيضًا باسم «النورسيين» أو «الشماليين»، ينحدرون من أصل جرماني، وقد استقرّوا في المناطق التي تُعرف اليوم بالدنمارك والنرويج والسويد. وكان النورسيون شعوبًا قاسية وشرسة، وقد هاجموا بشدة أراضي إنجلترا وفرنسا.

وكان يقود غارات النورمان مجموعة تُعرف باسم «الفايكنغ» (ملوك البحر)، الذين امتلكوا سفنًا قويةً وسريعةً مكّنتهم من القيام بعمليات القرصنة البحرية، وإثارة الرعب في المناطق الساحلية، ونهب المدن والقرى والكنائس والمنازل.

خلال رحلاتهم البحرية هذه، تمكّن الفايكنغ في عام ٩٩٢م من الوصول إلى ساحل أمريكا الشمالية في المحيط الأطلسي، بل وأقاموا هناك لفترة قصيرة. وكان «ليف إريكسون» أحد الفايكنغ الذين وصلوا إلى أمريكا على متن سفينة شراعية[١].

كما اكتشف الفايكنغ آيسلندا عام ٨٢٥م وجرينلاند عام ٩٨٥م، وأقاموا فيهما لبعض الوقت. ومع ذلك، فإن غارات الفايكنغ الأكثر تأثيرًا كانت تلك التي استهدفت إنجلترا وفرنسا. ففي سنة ٨٦٥م هاجم الفايكنغ الدنماركيّون بريطانيا، وتمكّنوا من السيطرة على أجزاء منها، إلى أن تصدّى لهم ألفريد، ملك الساكسون الشاب في بريطانيا، ونجح في استعادة السيطرة على جنوب وغرب بريطانيا. وفيما بعد، اعتنق الدنماركيون المسيحية وأصبحوا جزءًا من تاريخ الغرب.

---

١. كوريك، قرون وسطاي اوليه، ١٤١ – ٤٢.

وفي سنة ٨٤١م، شنّ الفايكنغ النرويجيون هجومًا على فرنسا، وتمكّنوا في سنة ٨٨٥م من عبور نهر السين ومحاصرة باريس. ثم استقرّ هؤلاء النرويجيون في شمال غرب المملكة الفرنجية وأسّسوا هناك مستوطنات أصبحت تُعرف باسم «نورماندي».

وفي عام ٩١١م، وبموجب معاهدة عقدها «شارل الساذج» (ملك كارولنجي) مع رولو، زعيم النورمان، اعتنق رولو المسيحية، ومنحه شارل لقب «دوق نورماندي»، وهكذا ظهرت دوقية نورماندي. وما لبثت هذه الدوقية أن تحولت إلى دولة قوية، كما تأسّست لاحقًا دول نورمانية أخرى في صقلية وجنوب إيطاليا.

فرنسا بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديّين

إنّ أبرز سمة ميّزت فرنسا في هذه الفترة هي الانقسام السياسي الكامل؛ فقد كانت الأراضي الفرنسية مكوَّنة من مجموعة من الدوقيات والكونتيات المستقلّة، وكان الدوقات والكونتات يمتلكون تابعين (فاسالات) خاصين بهم. وقد دخل هؤلاء الأشراف الإقطاعيّون في نزاعات دائمة مع ملوك السلالة الكارولنجية، إلى أن نجحوا في إسقاطها سنة ٩٨٧م، وتولّى السلطة أحد الدوقات، هو «أوغو كابيه»، مؤسّسًا بذلك السلالة الكابيتيّة. وعلى الرغم من ظهور هذه السلالة الملكية الجديدة، إلا أنّ سلطة الكابيتيّين عمليًّا اقتصرت على ممتلكاتهم الشخصية فقط، وهي أراضي نهري السين واللوار ومدينتَي باريس وأورليان. أما المناطق الأخرى من فرنسا فظلّت تحت نفوذ دوكات وكونتات مستقلّين، استحوذوا على السلطة الفعلية في أراضيهم.

ومن بين أبرز هذه الدوقيات القويّة كانت دوقية نورماندي، التي أنشأها

النورمان. وفي هذه الفترة، كان الأساقفة ورجال الدين أيضًا في عداد السينيورات (الأسياد الإقطاعيين)، وكان لديهم تابعون خاصون بهم، وكانوا مثل غيرهم من الإقطاعيين يشاركون في الحروب وأعمال النهب، وينغمسون في المنافسات والصيد، ويتّبعون عادات الأرستقراطية الإقطاعية.

«ضعف سلطة الملك، واستقلالية كبار الإقطاعيين، والحروب المستمرّة بين الفئات الإقطاعية، وتحوّل الفلّاحين إلى أقنان، هذه هي الملامح التي شكّلت صورة المجتمع الفرنسي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر»[١].

إنجلترا بين القرنين التاسع والحادي عشر

نعلم أنّ قبائل الأنجل والساكسون الجرمانية كانت قد سيطرت على معظم بريطانيا بين منتصف القرن الخامس والقرن السابع الميلاديَّين، ومنذ ذلك الوقت سُمّيت الجزيرة باسمهم «إنجلترا»، وتشكّلت اللغة الإنجليزية من امتزاج لغتَي هاتين القبيلتين الجرمانيتين. وبعد سيطرة الأنجل والساكسون، ظهرت في إنجلترا عدّة ممالك مستقلة، كانت كُبرى هذه الممالك مملكة الساكسون. وفي مطلع القرن التاسع الميلادي، تعرّضت إنجلترا لغاراتٍ من النورمان الدنماركيّين الذين احتلّوا واستقرّوا في شمال شرق الجزيرة. خاض الملك ألفريد الساكسوني حربًا ضد النورمان، وتمكّن من استعادة السيطرة على أجزاء من إنجلترا. وقد أولى ألفريد اهتمامًا كبيرًا باللغة الساكسونية (التي أصبحت لاحقًا الإنجليزية)، وأمر بترجمة الأعمال اللاتينية إلى الإنجليزية. وفي القرن العاشر الميلادي، استطاعت إنجلترا أخيرًا تحقيق وحدتها السياسية، وحدثت حالة من الامتزاج بين النورمان الدنماركيّين والأنجلوساكسون (وكلّهم في الأصل جرمانيون).

١. كاسمينسكي، تاريخ قرون وسطى، ٣٣.

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر، شنّ دوق نورماندي، المعروف بـ«ويليام الفاتح»، غزوًا لإنجلترا. ففي سنة ١٠٦٦م، نزل ويليام مع فرسانه المغامرين من النورمان الفرنسيّين على الساحل الجنوبي الشرقي لإنجلترا، ووقعت معركة كبرى بين جيشه وجيش هارولد ملك بريطانيا آنذاك في منطقة هاستينغز، انتهت بانتصار ويليام. بعدها احتلّ ويليام لندن، وانتزع الأراضي من الإقطاعيّين الأنجلوسكسونيّين ومنحها لفرسانه. وهكذا، أدّى انتصار ويليام وسيطرة النورمان إلى تعزيز النظام الإقطاعي وترسيخه في إنجلترا.

ألمانيا بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديّين

في عهد لويس الألماني وما بعده، كانت ألمانيا هي الأخرى تتشكّل من مجموعة من الدوقيات المستقلّة، مثل ساكسونيا وفرانكونيا وشوابيا وبافاريا وغيرها. وفي عام ٩١١م، انتهى حكم السلالة الكارولنجية في ألمانيا، وحلّ محلها دوق ساكسونيا الذي أصبح يُعرف باسم الملك هنري الأول. وبعد وفاة هنري، خلفه ابنه أوتو الأول عام ٩٣٦م، الذي خاض منذ بداية حكمه وحتى عام ٩٧٣م حروبًا طويلة ضد الدوقات الآخرين، وأضعف سلطتهم بشكلٍ كبير. وفي عام ٩٦٢م، تُوّج أوتو الأول من قِبل البابا (كما حدث سابقًا مع شارلمان) وأعلن أوتو نفسه إمبراطورًا على «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، لكن في نهاية القرن العاشر كانت مكانة البابا قد ضعفت بشكل ملحوظ. وقد حاول أوتو الأول في عام ٩٦٢م إنشاء مملكة موحّدة عبر توحيد الكنيسة مع الفرنجة الشرقيّين وإيطاليا. إلا أنّ هذه المملكة، التي حملت اسم «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، لم تكن تتمتّع بقوةٍ حقيقيّة منذ بداياتها، وتعرّضت للتجزئة بعد وفاة أوتو الأول، ومع ذلك بقي اسم هذه الإمبراطورية قائمًا حتى سنة ١٨٠٦م عندما أنهاها نابليون.

البابوية التابعة في القرنين التاسع والعاشر والإصلاحات الكلونية

خلال القرنين التاسع والعاشر، خضعت الكنيسة والبابوية لسيطرة الأشراف من أصلٍ روماني وجرماني، وأصبح الباباوات في الواقع مجرّد أدواتٍ بيد العائلات الأرستقراطية، خاصةً الإقطاعيّين الرومان. في تلك الفترة، كان منصب البابا يُشترى ويُباع، أو يُحصَل عليه بالحيلة والخداع، وكان كلّ بابا أو أسقف لا يعمل وفق رغبات الأرستقراطيّين يتعرض للتعذيب أو يُقتل. وكان الأساقفة يُعيّنون من قِبل الملوك (وخاصّةً الملوك الألمان)، ويمنحهم الملك في مراسم خاصّة عصًا وخاتمًا رمزيًّا. وبهذه الطريقة تحوّل الأساقفة إلى مجرّد أدواتٍ بيد الملوك الألمان والأشراف الرومان.

وفي عام ١٠٧٣م، تولّى البابوية شخص يُدعى هيلدبراند، الذي حمل اسم «غريغوريوس السابع»، وقرّر استعادة قوة البابوية وهيبتها، وقام بإصلاحاتٍ كبرى في نظام الكنيسة. في الواقع، كانت هذه الإصلاحات استمرارًا للحركة الإصلاحية الكاثوليكية التي بدأت في القرن العاشر من دير كلوني. ففي عام ٩١٠م، أسّس ويليام، دوق آكيتاين، دير كلوني في منطقة بورغندي شرق فرنسا، وكرّس القائمون على هذا الدير جهودهم لاستعادة سلطة الكنيسة الكاثوليكية ومكافحة الفساد والانحطاط والضعف الذي أصابها.

كان البابا ليو التاسع، الذي تولّى المنصب بين عامي ١٠٤٩ و١٠٥٤، قد بذل جهودًا كبيرةً لتقوية تيّار «الإصلاح الكاثوليكي». وفي هذا السياق، عيّن مجموعةً من الأساقفة المؤيّدين لإحياء سلطة البابوية كـ«كرادلة»، وفي سنة ١٠٥٩م، أوكل اختيار البابا إلى مجمع الكرادلة (وهو النظام المُتّبع إلى اليوم في الكنيسة الكاثوليكية). وقد واصل البابا هيلدبراند (غريغوريوس السابع) هذا

النهج الإصلاحي، وحاول فيما عُرف بـ«الثورة الغريغورية» وضع سلطة البابا فوق سلطة الملوك والأشراف الإقطاعيّين.

رفض هنري الرابع، ملك الفرنجة الشرقيّين (ألمانيا)، القبول بسياسات غريغوريوس السابع ودخل معه في مواجهة. فقام البابا بتكفيره، مما اضطرّ هنري الرابع إلى التراجع مؤقّتًا، وتوجّه في عام ١٠٧٧م إلى قلعة «كانوسا» شمال إيطاليا، حيث مقرّ إقامة غريغوريوس، وظلّ واقفًا أمام أبواب القلعة لمدة ثلاثة أيام حافي القدمين مرتديًا ثوبًا بسيطًا طلبًا للعفو من البابا.

وبالفعل عفا غريغوريوس عنه، لكن هنري الرابع بعد عودته إلى ألمانيا انتقم بشدّة من الأشراف الذين دعموا البابا، ثم عاد بعد ثلاث سنوات وهاجم روما ودمّر مقرّ البابوية، وارتكب مجازر بحقّ سكّانها من رجال ونساء وأطفال. أما غريغوريوس فاضطرّ إلى الفرار من روما وتوفي سنة ١٠٨٥م. وبذلك انتهت مرحلة النضج والازدهار في الغرب الوسيط، تلك المرحلة التي بدأت بتحالف الكنيسة مع شارلمان وانتهت بانفصال الفروسية عن الرهبنة، وتراجع سلطة الكنيسة والملوك مع تنامي نفوذ الأشراف الإقطاعيين والفرسان. ومن خلال هذا الانفصال بين الرهبنة والفروسية، انشقّ النموذج المثالي للإنسان الغربي الوسيط إلى صورتين متنافرتين،كما أدّى اختلال التوازن بين سلطة الملوك والكنيسة وتراجع مكانة الطرفين إلى حالةٍ من التمزق والتشتّت، أغرقت مجتمعات الغرب المسيحي في أزمة عميقة.

وفي هذه الظروف المضطربة تحديدًا، وجدت المدن والتجّار وروّاد العالم الغربي الحديث فرصتَهم للبروز والصعود، وتحالف بعض الفرسان معهم، وبدأوا بإضعاف المنظومة الإقطاعية والكنيسة الكاثوليكية معًا، ممهّدين بذلك لمرحلة جديدة في تاريخ الغرب، هي عالم الحداثة.

٤. أزمة الانحطاط (١٠٧٦-١٣٤٧م)

ابتداءً من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، بدأت مرحلة أزمة الانحطاط في الغرب الوسيط. ويعني دخولُ الغرب المسيحي في أزمة الانحطاط بدايةَ نهاية هذا العالم، والشروعَ في مسارِه نحو الزوال والفناء. ويمكن اعتبار الصراع الذي دار بين هنري الرابع والبابا هيلدبراند (غريغوريوس السابع) مؤشّرًا واضحًا على بداية أزمة الانحطاط في الغرب المسيحي. فالعقدان الأخيران من القرن الحادي عشر، والقرنان الثاني عشر والثالث عشر بأكملهما، يشهدان مسيرةَ تدهور العالم الغربي الثيوسانتري، نحو انحطاطه الكامل.

وفي الحقيقة، فإنّ هذه السيرورة الانحطاطية التي دخلها الغرب الوسيط مع نهاية القرن الحادي عشر تصل إلى نهايتها في أربعينيات وخمسينيات القرن الرابع عشر. وهكذا، مع اكتمال مظاهر الأزمة، يدخل الغرب الوسيط في منتصف القرن الرابع عشر مرحلةَ انقراضه النهائي، ليبدأ بعدها ظهور العالم الغربي الحديث متمثّلًا في عصر النهضة، ومن ثمّ توسّعه. وسنتناول فيما يلي، وباختصار، السمات العامّة لهذه الأزمة التي عصفت بالعالم الغربي الثيوسانتري.

الملامح الأساسية لأزمة انحطاط العالم الغربي في العصور الوسطى

يمكن إجمال السمات الأساسية لمرحلة الأزمة والانحطاط في الغرب المسيحي فيما يلي:

- من أبرز هذه الملامح أنّ الثيوسانترية، الذي يُمثِّل النفس المُدبِّرة لهذا العالم، بدأ يفقد تدريجيًّا قوّته وإشعاعه وقدرته على توجيه مسار الوجود التاريخي للغرب المسيحي، الأمر الذي أدّى إلى ظهور أزمة هُويّة واضحة في هذا العالم.
- ومن علامات تراجع القوّة الحيوية للثيوسانترية حالةُ التباعد والانشقاق التي

أصابت العناصر التي تُشكِّل الصورة المثالية للإنسان في الغرب الوسيط، حيث أخذت الفروسية تبتعد تدريجيًّا عن نموذج القداسة، ممّا أدّى إلى نوع من التمزّق في الصورة المثالية للبشر في العصور الوسطى. وقد انعكس هذا التمزّق في صورة احتدام الصراع بين الملك والأشراف الإقطاعيّين من جهة، والكنيسة من جهة أخرى، وكذلك ابتعاد قطاع من الفرسان عن المُثُل العليا الثيوسانترية.

- ولأن الثيوسانترية هو الروح المُدبِّرة للعالم الغربي الوسيط، فإنّ تراجع هذه الروح تدريجيًّا أدى إلى ضعف عام، وفُتور، وحالة من الخمول أصابت جميع أركان هذا العالم. وهكذا فقدت تعاليمُ الكنيسة الكاثوليكية والفلسفة المدرسية (السكولاستيكية)، التي كانت تُجسِّد من الناحية النظرية ركائز الثيوسانترية وتدافع عنه، تماسكَها وصلابتها وقدرتها التأثيرية والإقناعية تدريجيًا، ودخلت في حالةٍ من الأزمة. ويمكن ملاحظة هذه الأزمة بوضوح مع نهاية القرن الثاني عشر، ولا سيّما في القرن الثالث عشر، حين ظهرت بشكل جليٍّ أزمةُ الفكر السكولاستيكي.
- ومنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر، بدأت المدن تظهر وتتوسّع تدريجيًّا، وأخذت هذه المدن تنافس الأسياد الإقطاعيين (السينيورات) بشكل واضح. وبينما كان الإقطاعيون يسعون للسيطرة على المدن وإخضاعها، كانت هذه المدن تسير تدريجيًّا-وبصورةٍ شبه لا واعية-باتّجاه الحداثة والأفق التاريخي الجديد الذي أخذ يلوح في الأفق. ومع توسّع التجارة وتزايد أعداد الصناع والحِرفيّين في المدن، تعاظمت مكانة النقود في التبادلات، وبدأ اقتصاد نقدي في الظهور والانتشار.

- وفي هـذه المدن، ظهرت طبقة جديـدة من التجّار الأغنياء، وتشـكّل بينهم الجيل الأول من الرأسماليّين ذوي النزعة العلمانية الإنسانية. وكلّما اقتربنا من المراحـل الأخيرة لأزمة الانحطاط، ازدادت أهمية المدن وتنامى نفوذ التجّار فيها، حتى بدأت ملامح السيطرة الكاملة للتجّار الرأسماليّين على المدن تظهر بوضوح خلال القرن الثالث عشر الميلادي.
- وفي فترة أزمة الانحطاط في الغرب الوسـيط، ازداد الصراع بين الإمبراطور في الأراضي الناطقة بالألمانية وبين البابوية والكنيسة. أما في فرنسا، فقد سعى الملوك لإخضـاع الأشراف الإقطاعيّين، ممهّدين بذلك الطريق نحو نشـوء سلطةٍ مركزيةٍ تستند إلى المَلَكية المطلقة.
- وخلال هذه المرحلة أيضًا، اشتدّ الصراع وتعمّقت الفجوة بين محاور القوى الثلاثـة (الملك، والكنيسـة، والأشراف الإقطاعيّـين)، وفي بعض الأحيان تراجعت سلطة البابوات لصالح تعاظم نفوذ الملوك.
- ومع توسُّع الاقتصاد النقدي والتجارة وتزايد النزعة نحو الرفاهية والترف، دخـل النظام الاقتصـادي الإقطاعي القائم عـلى القنانة في أزمـةٍ متفاقمة. وبالتدريـج، ومع ظهور تحـوّلاتٍ بنيويّة في منظومة عالم الغرب الوسـيط، بدأت مؤشّرات التفكُّك والانهيار تظهر بشكل واضح ومتزايد.
- ويمكـن اعتبار الفترة الممتدّة من العقود الأخـيرة للقرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر، فترة انتقالية تحضيرية، تمهِّد لظهور عصر النهضة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.
- وإذا اعتبرنـا أن عـام ١٠٧٦م، أي بداية النزاع بين البابـا هيلدبراند والملك هنري الرابع، هو نقطة انطلاق أزمة الانحطاط في الغرب الوسـيط، فيمكن

اعتبار النصف الثاني من القرن الرابع عشر والثورة البرجوازية الحديثة عام ١٣٣٧م في روما، بمثابة نهاية هذه المرحلة.

- وفي مرحلة الأزمة هذه، بدأ الغرب المسيحي بشنِّ اعتداءاتٍ واسعة النطاق ضد العالم الإسلامي. وكانت هذه الاعتداءات عبارةً عن سلسلة من الحروب الظالمة والوحشية، التي استمرّت قرابة قرنين من الزمان، وعُرفت لاحقًا باسم «الحروب الصليبية». وفي هذه السلسلة من الحروب العدوانية كشف الغرب المسيحي وجهًا آخر من طبيعته القائمة على الظلم والتعدّي. إنّ تاريخ الغرب بشكل عام هو تاريخ يقوم على الظلم، والعدوان، والاستكبار، لأنّه متجذّر في جوهرٍ عَدَمي يُنكر الولاية الإلهية. وقد ظهرت هذه الطبيعة العدميّة، بأشكالٍ مختلفة ومتعدّدة، في كل مرحلةٍ من مراحل تاريخ الغرب.

إذا كانت العدميّة الغربية في العصر القديم كونويًّا، فإنّ عدميّة الغرب الوسيط ثيوسانتري، أما عدميّة الغرب الحديث فهي إنسانويّة. الظلم والتجاوز والاستكبار كلّها نابعة من الجوهر العَدمي للغرب، ورغم أنّ هناك فروقًا جوهرية عميقة وكثيرة بين أشكال وتجلّيات هذه العدميّة الغربية (مثل العدميّة الكونوية القديمة، والعدميّة الثيوسانترية في العصور الوسطى، والعدميّة الإنسانية الحديثة)، إلا أنّ جميع هذه التجلّيات تشترك في أساسها العَدمي وطبيعتها الظالمة. وبالطبع، فإنّ الظلم والكفر والعدميّة والاستكبار لها درجات ومراتب مختلفة، وتظهر بأشكال وأساليب متعددة.

احتدام الصراع بين محاور القوى

منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر، أخذ الصراع بين الأباطرة والملوك من جهة، والبابوية والكنيسة من جهة أخرى، يتصاعد ويشتدُّ باستمرار، مما

أدّى في النهايــة إلى تراجعٍ متزايدٍ في هيبة البابا وســلطة الكنيســة بحلول القرن الرابع عــشر. وأدّى تمدّد نفــوذ الملوك في تعيين المناصب الكنســية إلى إضعاف اســتقلال البابوية وتقييد سلطتها عمليًا. كما ساهم الفساد المنتشر بين الباباوات والأســاقفة، وشــيوع ظواهر مثل شراء وبيع المناصب الكنسية، في تعميق أزمة الكنيسة وإضعاف مكانتها.

وفي القرن الثاني عشر، مع وصول أسرة هوهنشتاوفن إلى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدســة، تعمّق الــصراع بين الإمبراطور والبابويــة. ومن أبرز أفراد هذه الأسرة فريدريك الأول، المعروف بلقب باربروســا، الذي حكم من عام ١١٥٢م حتى ١١٩٠م. وفي سنة ١١٥٩م، وصل إلى كرسي البابوية رجلٌ طموح عُرف باســم البابا ألكســندر الثالث. وفي ظلّ طموحات الإمبراطور فريدريك الأول وســعيه لتعزيز نفوذه، ومع احتدام الصراع بين محاور القوى في مجتمعات الغرب الوســيط، كان البابا ألكسندر الثالث هو الآخر يسعى بقوّةٍ لزيادة سلطة الكنيسة وتعزيز مكانتها.

في عــام ١١٩٨م، ومع وصول البابا إينوســنت الثالــث إلى كرسي البابوية، ازداد ثراء الكنيسة ونفوذها بشكل ملحوظ. وكان إينوسنت الثالث يصرّح علنًا بأنّ على الباباوات أن يحكموا، لا أن يُحكموا. وفي عهده، بدأت الكنيســة بجني الأموال من خــلال بيع صكوك الغفران، كما لجأ البابــا إلى إذكاء الخلافات بين الأمراء والأشراف في ألمانيا، وإشعال الحروب الإقطاعية، بهدف إضعاف السلطة الإمبراطورية. ســعى الإمبراطور فريدريك الثاني إلى بسط سيطرته على إيطاليا، فقاد حملة عســكرية نحوها، لكنّــه تُوفّي في خضمّ المعارك هنــاك عام ١٢٥٠م. وبوفاته، انقرضت سلالة هوهنشــتاوفن، وانتهت فعليًّا سلطة الإمبراطورية في ألمانيا، مما أدخل البلاد في حالة من التفكّك والانقسام المتزايد.

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تصاعد التناقض والصراع بين أركان السلطة الثلاثة في الغرب الوسيط (الملكية، والكنيسة، والإقطاع)، وتحوّل إلى مظهر واضح من مظاهر تعمُّق الأزمة الانحطاطية في الغرب المسيحي. وكانت هذه الأزمة آخذةً في التوسّع، دافعةً بالعالم الغربي الوسيط نحو مصيره الحتمي: الانقراض النهائي.

مدن في قلب الغرب الوسيط

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديَّين، بدأت تظهر في العالم الغربي الوسيط مدنٌ جديدة تشكّلت فيها نواة الطبقة الرأسمالية الحديثة. كانت هذه المدن بمثابة مراكز للتجّار والحِرفيّين، الذين خرجت من بينهم البذور الأولى للبورجوازية الحديثة. ومع مرور الوقت، حصلت هذه المدن على استقلال نسبي، وبدأت في مقاومة تدخّل السينيورات (الأسياد الإقطاعيين) في شؤونها. ومن هذه المدن نشأت النماذج الأولى للمجتمعات الحديثة ذات الاقتصاد الرأسمالي والبنية الطبقية الحديثة. وقد بدأت هذه المدن في أواخر العصور الوسطى تكتسب طابعًا مغايرًا ومختلفًا عن الطابع الوسيط، وانفصلت تدريجيًّا عن الأفق الوجودي لعالم الغرب الوسيط. وفيها ظهرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أولى أشكال الحكم الحديث. وتحوّلت هذه المدن الجديدة تدريجيًا إلى مراكز للتجارة والإنتاج الرأسمالي، وكانت تُسمّى بـ«بورغ»، ومنها جاء مصطلح «بورجوازي» في الأدبيات السياسية الحديثة، ليصبح مرادفًا لمفهوم الرأسمالي الحديث. وكان سكّان هذه المدن يتكوّنون من فئة التجّار (الذين خرجت من بينهم الطبقة الرأسمالية الحديثة)، والصنّاع والحرفيّين (وبعضهم تحوّل لاحقًا إلى أوائل أصحاب المشاغل والورش التصنيعية)، إضافةً إلى العمّال والفقراء الحضريّين

(الذين ستنشأ من صفوفهم لاحقًا طبقة العمّال الصناعيّين المأجورين).

في مرحلة أزمة الانحطاط التي عصفت بالغرب في العصور الوسطى، بدأت في المدن ملامحُ علاقاتٍ إنتاجية وتجارية حديثة في الظهور، وظهرت معها البوادر الأولى لاقتصادٍ رأسمالي. فقد تأسّست المصارف وشركات الصرافة، وبدأ الاقتصاد القائم على السلع والنقد ينتشر ويتوسّع.

وقد أدّى هذا التوسّع في الاقتصاد النقدي والسلعي إلى زعزعة الاقتصاد الإقطاعي التقليدي، وتقويض نظام التبادل الذي كان سائدًا في الغرب الوسيط، وهو ما عمّق من أزمة عالم القرون الوسطى وسرّع من مسار انهياره.

«في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ظهرت العديد من المدن الجديدة، وازداد عدد سكّانها بشكل ملحوظ. وكانت الكتلة الأساسية من سكّان المدن تتكوّن من الحرفيّين، غير أنّ المساواة لم تكن سائدة بينهم؛ فقد كان وضع المساعدين والمتدرّبين قاسيًا جدًا. أما التجّار فكانوا يشكّلون أغنى طبقة في المدينة، إذ كان تحقيق الأرباح في التجارة أسهل بكثير من الصناعات الصغيرة. وكانت أفضل منازل المدن ملكًا للتجّار. وكان هؤلاء التجّار ينخرطون في نقابات خاصة بهم تُعرف باسم «الغِيلد»، وقد كانت الغيلدات تسعى إلى احتكار التجارة في المدن لصالح أعضائها، وتولّت أيضًا الدفاع عن مصالحهم، خاصةً أثناء رحلاتهم التجارية. ومنذ القرن الثاني عشر، بدأت في جميع أنحاء أوروبا نضالات المدنيّين ضدّ سادتهم الإقطاعيّين. وكانت المدن تسعى للتحرّر من تبعيّتها للسينيورات، وتناضل في سبيل الحصول على نوعٍ من الحكم الذاتي. وكان سكان المدن يتّحدون في اتحاداتٍ محلّية تُعرف في اللغة الفرنسية باسم الكومونة، من أجل تنظيم مقاومتهم ونيل استقلالهم. تزامنًا مع تطوّر المدن،

شــهد كلٌّ من الصناعة والتجارة توسّعًا ملحوظًا، وقد انعكس هذا التوسّع على مجمل الحياة الاقتصادية، بل وحتى على الحيــاة الريفية في أوروبا. فالإقطاعيّون بدؤوا بدورهم في إرسال منتجات أملاكهم إلى الأسواق، ولحاجتهم المتزايدة إلى النقود، فرضوا على الفلّاحين دفع الإتاوات والضرائب نقدًا. وبما أنّ الفلّاحين لم يكن في مقدورهم توفير النقود إلا من خلال بيع ثمرة جهدهم، فقد أصبحوا مُضطرّين للمشــاركة في الســوق. وبهذا، بدأت العلاقــات الاقتصادية النقدية والسلعية تتوسّع تدريجيًا في عموم أوروبا»[1].

وقد شــهدت القرون الأخيرة من العصور الوسطى تراجعًا واضحًا في بنية القِنانة الإقطاعية، وازديادًا في الثــورات الفلّاحية، وتصاعدًا في نضالات المدن ضدّ الأشراف الإقطاعيّين، واحتدام الصراع بين الملوك والأشراف والكنيســة. كما شــهدت هذه الحقبة انتشارًا واســعًا للعلاقات الاقتصادية القائمة على النقد والســلع، وتدهورًا تدريجيًّــا في البنية السياســية الإقطاعية، وتزايــدًا في فقدان المشروعية والســلطة التي كانت تحظى بها الثيوســانترية المســيحية، والكنيســة الكاثوليكية بوصفها المروّج الأكبر لها.

كلّ هذه الظواهر كانت دلائــل على تفشّي الأزمة الانحطاطية التي عصفت بالغرب الوســيط-أزمةٌ كانت جذورها كامنة في اســتنفاد الثيوسانترية لمقوّماته كروحٍ مُدبّرة للعالم الغربي الوسيط، وانقطاع الصلة بين ماهيّة هذا العالم ووجوده التاريخي الفعلي.

---

١. م. ن، ٩١ - ٩٤؛ ٩٦.

إضعاف النظام الإقطاعي

شهدت أوروبا الإقطاعية في القرن الثالث عشر حالة من الاضطراب والتقلّب. فقد تمكّنت بعض العائلات اليهودية من النفوذ إلى عدد من البلاطات الأوروبية، لا سيّما في فرنسا وشبه الجزيرة الإيبيرية وبعض مناطق إيطاليا، ودخلت في تحالفات مع الحكّام المسيحيّين، لتشجيعهم على شنّ الحروب ضدّ المسلمين في الأندلس.

وفي أعقاب الانتصارات التي حقّقها هذا التحالف بين الشبكات اليهودية والحكومات المسيحية خلال القرن الثالث عشر، أُطلقت محاكم التفتيش أساسًا ضدّ المسلمين، بهدف تعقّبهم واعتقالهم وقتلهم أو إجبارهم على مغادرة الأراضي التي استولى عليها هذا التحالف اليهودي-المسيحي. كما استهدفت هذه المحاكم إلى حدٍّ ما أيضًا بعض الفئات المعترضة داخل الكنيسة الكاثوليكية، خصوصًا أولئك الذين كانوا ينتقدون الفساد المالي والأخلاقي المستشري بين الباباوات والكهنة، والانحطاط العام للمؤسسة الكنسية.

وقد كان للشبكات اليهودية والمارانوس (وهم اليهود الذين تظاهروا بالمسيحية واستخدموا هذا التظاهر لتحقيق مصالحهم) دورٌ محوريّ في إطلاق محاكم التفتيش، وصياغة أحكامها القاسية بحقّ المتَّهمين، الذين كان أغلبهم من المسلمين، إضافةً إلى فئة من المسيحيّين المعترضين على فساد الكنيسة.

في القرن الثالث عشر، أصبحت الشبكات اليهودية فاعلة ومؤثرة بشكل متزايد في السياسة والاقتصاد في عدد من مناطق أوروبا، ولا سيّما في إسبانيا وإيطاليا وبعض مناطق أوروبا الوسطى والشمالية. ومع نهاية الحروب الصليبية، لعبت بعض الفِرَق من الفرسان، الذين اطّلعوا خلال وجودهم في فلسطين

وبعض مناطق غرب آسيا على تعاليم يهودية سرّية، دورًا تخريبيًا في تفكيك النظام الإقطاعي، والمساهمة في تصعيد المواجهة مع الكنيسة الكاثوليكية.

وفي إسبانيا وإيطاليا خلال القرن الثالث عشر، ظهرت نواةُ محافل تُروّج لتعاليم القبّالة، وهي تعاليمٌ نظّرَت لأسسٍ تأويلية جديدة تُعيد رسم العلاقة بين الإنسان والعالم وفق منظورٍ إنساني. وفي هذا السياق، احتدمت النزاعات بين الأشراف الإقطاعيين والملوك، بينما أصبحت المدن، باعتبارها حاملةً لأفق العالم الحديث، تمتلك مجالًا أوسع للتأثير والحركة. ومع توسّع الاقتصاد النقدي، وازدياد حاجة الأشراف الإقطاعيّين والملوك إلى المال، ارتفعت مكانة التجّار وأصحاب رؤوس الأموال الصاعدين. وفي المقابل، بدأت انتفاضات الفلّاحين، وانحدار إنتاجيّة النظام القناني تدفع هذا النظام نحو التراجع والانهيار.

ومع تراجع النظام القناني، وتزايد قوة التجّار والمصرفيّين، وتحوّل بعض الفرسان نحو الولاء للمدن والعالم الجديد، وقبل كل شيء، مع انطفاء الروح الحيوية للثيوسانترية وعجزه عن بثّ الحركة والمعنى والإقناع (وهو ما تجلّى بوضوح في انحطاط الكنيسة الكاثوليكية)، بدأ الهيكل الداخلي للنظام الإقطاعي بالتفكّك، ودخل في مسارٍ حتمي من الزوال والانهيار.

من الذاتية الثيوسانترية إلى الذاتية النهضوية

كان الإنسان في عالم الغرب خلال القرون الوسطى، وفي إطار المسيحية الكاثوليكية، يعبد الثيوس، وليس الإله الحقيقي. لقد تحرّر الإنسان الغربي في عالم الغرب الوسيط من الكونوية، إلا أنّه عوضًا عن قبول الولاية الإلهية ونيل القرب من الحق، خضع لولاية الثيوس، فبلغ ضمن الثيوسانترية نوعًا من الذاتية ذات الطابع الشركي.

وفي إطار الذاتية التي سادت الغرب الوسيط، انخرط الإنسان الغربي، بوعي ومن غير وعي، وبصورة ظاهرة وخفية، مباشرة وغير مباشرة، ومن خلال سبل شتّى، في عبادة الثيوس والانقياد لولايته. وفي علاقته بالثيوس، رأى الإنسان في الغرب الوسيط نفسه في نوع من التساوي أو التماثل مع الإله.

إنّ عبادة الثيوس كانت تعني، في حقيقتها، أنّ الإنسان وقف بنفسه وبكمال صورته البشرية، مع حفاظه على هويّته الإنسانية، في مواجهة الله عز وجل. ففي ظلّ الثيوسانترية، لم يكن الإنسان الغربي في القرون الوسطى يرى الكمال في العبودية لله، بمعناها التوحيدي الحقيقي، بل كان يتوهّم أنّ الكمال الإنساني يكمن في نوع من حلول الله في البشر وتجسّده فيه، والعياذ بالله. وقد بلغ هذا التصوّر الذاتي نهايته، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، في صورة ضربٍ من وحدة الوجود ذات طابع علماني، ممّا مهّد لظهور الذاتية والإنسانيّة.

وقد تطوّر البعد الحلولي في العالم المسيحي الغربي، الذي تجلّى في الادّعاء الكفري بتجسّد الله في الإنسان، طوال العصور الوسطى، ليصل في نهايتها إلى تحوّل من التماثل بين الله والإنسان في الثيوسانترية، إلى التمركز حول الإنسان والتأسيس لذاتانيّة رنسانسية. وكان للفكر القبّالي الحلولي أثرٌ بالغ في بروز التيار الإنساني.

يتجلّى أفول الفكر الكنسي والتفكير الثيوسانتري في بروز آراء مفكّرين أمثال بيير دوبوا، ومارسيليوس البادوي، وأنسلم، تمامًا كما يتجلّى في بروز الثورات الحداثية مثل ثورة روما عام ١٣٤٧م، وصعود الكومونات، وظهور أوائل الجمهوريات البرجوازية الحديثة في مدن كروما وفلورنسا، إلى جانب التنامي المتزايد لهيمنة الاقتصاد النقدي، وبداية اندثار نظام القنانة، وتحوّل المجتمعات

الغربية نحو أنماط متنوّعة من النماذج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحديثة، وهو ما كان نذيرًا بانقراض الغرب الوسيط.

عصر النهضة

١. النهضة وبداية الغرب الحديث

يُعدّ عصر النهضة (الرنسانس) بداية عالم الغرب الحديث. فالحداثة الغربية، بوصفها عالمًا تاريخيًّا متميّزًا، تبدأ مع النهضة. وبعبارة أخرى، تمثّل النهضة رحم ولادة العالم الحديث. يبدأ هذا العصر مـن منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ويستمرّ حتى العقد الثاني من القرن السادس عشر. ويمكن تأريخ بدايته ونهايته على النحو الآتي: بداية النهضة (حوالي سنة ١٣٤٠م) ونهايتها (سنة ١٥١٧م).

مصطلح «الرنسانس»

«الرنسـانس» تعني في أصلها اللغوي الولادة الجديدة أو البعث من جديد. ومع بروز العالم الحديث في الغرب، نشأ تدريجيًّا هذا التصوّر القائل بظهور عالم جديد وإنسان جديد.

وفي إيطاليا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وخصوصًا في أوساط الكتّاب الذين عُرفوا باسـم الإنسـانيّين، تولّد هذا الشـعور بأنّ وضعًا جديدًا آخذ في الظهور، وأطلقوا عليه اسـم «النهضة». الحداثيون والإنسانيّون ركّزوا اهتمامهم على التراث الأدبي والفلسفي الموروث عن اليونان وروما القديمة. أما الكتّاب والشـعراء والفنّانون من التيار الإنساني، فلم يُبدوا اهتمامًا كبيرًا بتراث الفن والأدب الثيوسانتري الذي طبع الغرب في القرون الوسطى، بل اتّجهوا إلى تعلّم وتفسير وإعادة قراءة الأدب اليوناني واللاتيني القديم.

غير أنّ جوهر الحركة الإنسانية لم يكن مجرّد عودة سطحية أو تقليد حرفي للتراث الثقافي والأدبي القديم، ولم يكن هدفها إحياءه أو محاولة تكراره فحسب. بل قام الأدباء والشعراء والفلاسفة الحداثيّون، وتحت راية الحركة الأدبية الإنسانيّة، بإعادة قراءة التراث الثقافي والأدبي والفكري للغرب القديم في أفق الحداثة وتحت روح العالم الغربي الحديث، أي الإنسانيّة. إنّ جوهر الثقافة والفن والأدب والفكر في عصر النهضة يتمثّل في الإنسانيّة. ومن ثمّ، فإنّ التراث الأدبي والثقافي للغرب القديم قد أعيدت قراءته، خلال هذه المرحلة التاريخية المسمّاة بالنهضة، ضمن أفق الحداثة والإنسانيّة. وهكذا تحقّق الفكر والثقافة والفن في عصر النهضة بوصفه أولى صور تجلّي الفكر والثقافة والأدب والفن في العالم الحديث.

وعليه، فإنّه في سياق البحث في المفهوم الاصطلاحي لمصطلح «النهضة»، يمكن القول إنّ الطور التأسيسي الأول لعالم الغرب الحديث يُسمّى اصطلاحًا بـ«النهضة». فهذا العصر هو فجر ظهور الغرب الحديث وبداية تاريخه، وفيه يتأسّس عالم الغرب الحديث. والنهضة هي أولى تجلّيات الإنسانيّة والحداثة بوصفهما روح وجوهر عالم الحداثة.

في الواقع، كان عدد من المفكّرين والمؤرّخين والكتّاب، وخصوصًا في إيطاليا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، قد أدركوا، من خلال ملاحظتهم لتغيّر الأجواء العامّة والأحوال النفسيّة وأنماط السلوك البشري، بعض المؤشّرات العامّة على تحوّل في الشروط التاريخية وظهور عهد وعالم جديد. وقد سعوا، من خلال إطلاق تسمية «النهضة»، إلى التعبير عن بروز هذا الوضع المستجدّ. ولا شكّ في أنّ الأرضية لظهور هذه التحوّلات كانت قد تهيّأت خلال تطوّر الغرب

في القــرون الســابقة، إلا أنّ القرن الرابع عشر الميلادي هــو الذي أتاح للتاريخ الغربي الاستعداد لاحتضان صورة من صور «الحداثة»، وهكذا يبدأ عالم الغرب الحديث. يشــير فيلهلم ديلتاي، في مؤلَّفاته، إلى هذا التحوّل الذي أخذ يتشــكّل في أوروبــا القرن الرابع عشر، فيقول إنّ الميتافيزيقا الكنســيّة الوســيطة ــ وهي التي نُطلق عليها اسم الميتافيزيقا الثيوسانترية العدميّة ــ والتي كانت سائدة على الروح الأوروبية طوال العصور الوسطى، بدأت تضعف وتفقد سلطتها في هذا القرن[1].

«وبحســب بعض باحثي النهضة كـ«بول أوســكار كريســتلر»، الذي كان صديقًا وزميلًا لأرنســت كاســيرر، فإنّ الحقبة الممتدّة تقريبيًّا بين عامي ١٣٠٠ و١٦٠٠م يمكن عدّها عصر النهضة في أوروبا الغربية»[2].

وعليه، وفي مقــام التلخيص، يمكن القول إنّ «النهضة» هي تســمية لأحد الأطــوار في تاريخ الغرب الحديث. فهــذا الطور النهضــوي يُمثّل عهد ولادة وبروز العالم الغربي الحديث، وبداية هيمنة الإنسانيّة والحداثة. ومن خلال تتبّع التاريــخ الفعلي لهذا العالم الحديث، نلاحــظ أنّ الغرب الحديث، منذ ظهوره في القرن الرابع عشر الميلادي وحتّى اليوم، قد مرّ بأطوار متعدّدة.

وتُعدّ النهضة، بصفتها أحد هذه الأطوار، طور التجلّي الأوّليّ لبروز الغرب الحديث. وعلى الرغم من كونها، كسائر أطوار العصر الحديث، قد تحقّقت تحت ظلّ الإنســانيّة والحداثة، إلّا أنّها تمتاز في الوقت نفسه بخصائص ومميّزات ذات طابع خاص. وفي هذا الكتاب نسعى، بإذن الله، إلى دراسة أهمّ الرؤوس والملامح الرئيسة لعصر النهضة.

1. Dilthey, Gesammelte Schriften, 12:1.

٢. كاسيرر، فرد و كيهان در فلسفه رنسانس، ٧ – ٨.

ويُفتتح طور النهضة في القرن الرابع عشر الميلادي، وبدقّة أكثر في منتصف هذا القرن. ويمكن اعتبار سنة ١٣٤٧م، وهي السنة التي أُسّست فيها الجمهورية البرجوازية الحديثة في مدينة «روما»، بدايةً زمنيةً لهذا العصر، تمامًا كما يمكن اعتبار سنة ١٣٤٣م، وهي سنة وفاة مارسيليوس البادوي، نقطةَ بدءٍ تاريخيٍّ لطور النهضة. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ جميع هذه التواريخ والأرقام تُعدّ اعتباريّة، غير أنّ لها مع ذلك نسبةً ما إلى الحقيقة والواقع. فإنّ مارسيليوس يُعدّ من أوائل المفكّرين الحداثيّين، وقد ظهرت في آرائه ملامح الديمقراطية الإنسانيّة وشيء من أجواء عصر النهضة. يبدو أنّه من الممكن عدّ عقد الأربعينيّات من القرن الرابع عشر الميلادي مبدأً تقريبيًّا لبداية عصر النهضة. وليس من الأهمّية الكبرى أن نُحدّد على وجه الدقّة ما إذا كانت ولادة الجمهورية الديمقراطية الحديثة في روما، أو وفاة مارسيليوس، هي النقطة الزمنية الأنسب للاعتبار، وإن كان تأسيس الجمهورية الحديثة في روما يبدو أكثر مناسبةً لهذه الغاية. وإن كانت كثير من مظاهر وشؤون وعلامات العصر والعالم الغربي الحديث قد ظهرت في السنوات والعقود الأولى من القرن الرابع عشر، فإنّه يمكن، بصورة تقريبيّة، اعتبار الفترة الممتدّة بين عامَي ١٣٤٠ و١٣٥٠م بدايةً لعصر النهضة وبروز الغرب الحديث. النهضة هي بداية عالم الغرب الحديث. فالحداثة الغربية تبدأ بظهور أوّلي مع عصر النهضة، ثمّ تتوسّع وتستمرّ عبر أطوار لاحقة أخرى. ويمكن القول إنّ النهضة تبدأ في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي في إيطاليا، وتنتهي مع بدء الإصلاح الديني في ألمانيا وبعض مناطق أوروبا الشمالية، حوالي سنة ١٥٢٠م. إنّ بداية البروتستانتية المسيحية والإصلاح الديني تُؤرَّخ بسنة ١٥١٧م، حين بدأ مارتن لوثر حركته الاحتجاجية ضدّ الكنيسة الكاثوليكية من خلال تعليقه

البيان النقدي على باب كنيسة فيتنبرغ. وعليه، فإنّ عالم الغرب الحديث يبدأ بطور النهضة في منتصف القرن الرابع عشر، ويواصل وجوده وتوسّعه بعد حوالي سنة ١٥٢٠م في طور تأسيس الأسس البنيوية للعالم الحديث، ثمّ يستمرّ تطوّره في أطوار أخرى لاحقة[١]. وما نهدف إليه في هذا الكتاب هو تناول طور النهضة، بوصفه نقطة انطلاق عصر الحداثة، لما له من أهمّية بالغة في فهم التاريخ الفعلي للغرب الحديث.

لقد وُضع حجر الأساس لعالم الغرب الحديث، في أبعاده النظرية والعملية، خلال عصر النهضة. ففي هذا العصر نشهد أولى صور تجلّي الإنسان الحديث، وبدايات تَشكُّل الثقافة والأدب والاقتصاد والسياسة الحديثة. النهضة هي زمن ولادة الغرب الحديث وزمن انبثاقه، ومن هنا تنبع أهمّيتها. الاستكبار الحديث، وما فيه من أنانيّة وذاتيّة مفرطة، يظهر ويتحقّق لأوّل مرة في عصر النهضة ومع النهضة. وإنّ نقطة انطلاق المسار الذي سلكه الغرب الحديث، خلال تطوّراته وتحوّلاته التاريخية التي امتدّت قرابة سبعة قرون ـــ من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وحتّى اليوم ـ كانت هي طور النهضة. ففي هذا الطور نكون أمام الظهور الأوليّ للغرب الحديث، وكلّ ما تلا ذلك من مسارٍ خاضه هذا العالم لم يكن سوى امتدادٍ وتوسّعٍ للرؤوس والمبادئ الأساسيّة التي ظهرت في عصر النهضة. أمّا الأزمة التدهوريّة التي يعانيها الغرب الحديث منذ أكثر من قرن، فهي في الحقيقة ثمرة التزعزع والتآكل والانحلال الذي أصاب ذلك العهد الذي تأسّس في النهضة؛ أي إنّها نتيجة اكتمال المشروع الإنساني والحداثي، وما

١. تمّت مناقشة أطوار عالم الغرب الحديث وسماته العامة في الكتاب الآتي، ويمكن للراغبين في التوسّع مراجعة هذا المصدر: زرشناس، تولد غرب مدرن.

أعقبه من تصاعدٍ لأزمة التدمير الذاتي، التي وضعت العالم الحديث على مسار انحدارٍ متسارع ونهاية محتومة.

٢. إيطاليا في طور النهضة

منذ القرن الحادي عشر الميلادي، بدأت بعض المدن الإيطالية تتحوّل تدريجيًّا إلى دولٍ صغيرة، مستقلّة، وقويّة. وفي الحقيقة، لم تكن إيطاليا خلال معظم فترة الغرب الوسيط دولةً موحّدة ذات حكومة مركزية، بل كانت تتكوّن من مجموعة من المدن الصغيرة المستقلّة، لكلٍّ منها حكمها الخاص. من بين هذه الحكومات يمكن الإشارة إلى ميلانو، ونابولي، وفلورنسا، والمقاطعات الواقعة تحت سلطة البابا.

ميلانو، الواقعة في شمال إيطاليا، كانت تخضع لحكم فردي من قبل سلالة دوقات؛ أي إنّها كانت دوقيّة مستقلّة. أمّا نابولي، في جنوب إيطاليا، فكانت تحت حكم ملوك غير إيطاليّين. إلى الشمال من نابولي كانت هناك مقاطعات تدار مباشرة من قبل البابا. وفي مناطق أخرى من إيطاليا، بدأت دولٌ مستقلّة بالظهور في فلورنسا والبندقية.

ويبدأ تاريخ الغرب الحديث، في السنوات والعقود الأولى من القرن الرابع عشر، بالبروز في مدن مثل روما وفلورنسا والبندقية وجنوة. ففي أوائل القرن الرابع عشر، أصبح التجّار الإيطاليّون مسيطرين على حركة التجارة الممتدّة من لندن إلى القسطنطينية. ومن قلب هذا النشاط التجاري الذي قاده التجّار الإيطاليّون في بدايات العالم الحديث، بدأ يتشكّل ما يُعرف بـ«الرأسمالية التجارية العلمانية-الإنسانية».

«كان بإمكان التجّار الإيطاليين أن يشتروا في القسطنطينية، وأنطاكية،

وبيروت، وصور، وعكّا، وسائر المدن الشرقية، بضائع مثل الحرير، والتوابل، والكافور، والمسك، واللؤلؤ، والعاج، التي كانت تُجلب من أراضٍ بعيدة مثل الصين والهند. وكانت هناك حاجة كبيرة إلى هذه السلع الفاخرة في أسواق أوروبا الشمالية. وكانت السفن الإيطالية تُبحر غربًا ثم شمالًا إلى إسبانيا، وهولندا، وجزر بريطانيا، لبيع حمولتها إلى الملوك والنبلاء الأثرياء أو إلى تجّار آخرين. كما كانت البضائع تُنقل برًّا عبر شبه الجزيرة الإيطالية إلى ألمانيا وفرنسا»[١].

لكنّ التجارة التي كان يقوم بها التجّار الإيطاليون والأوروبيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن مجرّد تجارة اعتيادية من النمط الذي كان سائدًا في العصور ما قبل الحديثة، بل كانت نوعًا من التجارة الاستعمارية الجائرة القائمة على الربح غير المشروع، والتي جرت تحت غطاء اعتماد الغربيّين على اختراع السلاح الناري، ومن خلال فرض الضغط والسيطرة على الشعوب الأخرى.

وفي الحقيقة، فإنّ القرن الرابع عشر الميلادي كان بداية لظهور نمطٍ من التجارة الاستعمارية ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالرأسمالية التجارية الحديثة التي كانت في طور التكوّن والنشوء، ومن رحمها وُلدت، وهي التي كانت تمدّها بعناصر الاستمرار والتوسّع.

في الواقع، كان التجّار الإيطاليّون في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي يشكّلون الجيل الأول من الرأسماليّين العلمانيّين الإنسانيّين. فقد أنشؤوا، اعتمادًا على القوّة العسكرية التي أتاحها لهم اختراع البنادق والمدافع القائمة على احتراق البارود (وكانوا أولَ تجلٍّ للإنسان الحديث الأناني)، نظامًا تجاريًا غير متكافئ، يرتكز على علاقات جائرة وغير مشروعة، أدّى إلى هيمنة الرأسماليّين الحداثيّين الناشئين.

١. اسمن، رنسانس ايتاليا، ١٥.

وهكـذا، مع بروز الإنسـان الحديث، ونشـوء الرأسـمال الحديث، وظهور الرأسـماليّين الحداثيّين، أسّس الرأسمالُ التجاري الحديث نظامًا استعماريًا جائرًا قائـمًا على التجارة غير المشروعة مع الشـعوب والأمم غـير الغربية. وقد كانت هذه التجارة غير المشروعة، لارتكازها على النزعة التسـلّطية والقوّة الناشئة من السـلاح الناري، غير مكترثـة بالاعتبارات الأخلاقية والعدليـة، وكان دافعها نوعًا من الجشع المتزايد غير المحدود وغير المشروط (أي النزعة الربحية العلمانية الإنسـانيّة). ومن ثمّ، فإن طبيعة هذا النظام التجاري كانت جائرة واستعمارية-استـغلالية، وكان توجّهه قائمًا على التسـلّط والنهب. ومـن أبرز الأدوات التي اعتمدها هذا النظام التجاري الذي أسّسـه الرأسـماليّون (التجّار) الإيطاليون، ومن ثمّ غيرهم من الرأسـماليّين الأوروبيين في عصر النهضة، إخضاعُ الأراضي والشعوب الأخرى، وتحويلُ كثيرٍ منها إلى عبيد، وافتتاحُ تجارة قائمة على ذلك.

كان التجّار الأوروبيّون في عصر النهضة أولَ الرأسماليّين الحداثيّين. ويمكن اعتبار مناطق من جنوب ألمانيا وفلاندر (البلدان السـاحلية المنخفضة التي تقع اليـوم في بلجيكا وهولندا)، فضلًا عن مدن في إيطاليا، من البؤر المسـتقلّة التي شهدت نشوء الرأسمالية الحديثة في خضم عصر النهضة. غير أنّه يبدو أنّ لبعض المدن السـاحلية في إيطاليا مكانةً ودورًا يفوقان سـائر المناطـق، حتى إنّ بعض الباحثين عدّوا مدينة البندقية مهد الرأسمالية الحديثة.

«لعلّ البندقية تسـتطيع أن تدّعي بأنّها موطن ولادة ومهد النظام الرأسـمالي الحديث. ففي أواخر العصور الوسـطى، طوّر التجّار البنادقة نمطًا من النشاط التجاري، والمنشآت الاقتصادية، وطريقة تفكير في الحياة الاقتصادية، أصبحت من السـمات البارزة للرأسـمالية الأوروبيـة في القرون التي تلـت عام ١٥٠٠

للميلاد ... لم تذب البندقية قطّ في النظام الإقطاعي السائد في أوروبا في العصور الوسطى، حتى إنّ كاتبًا يقول: «لم يكن في بنيتها الاجتماعية أثر يُذكر للطبقة الإقطاعية». وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت منطقة شرق البحر المتوسّط تمثّل مركز الثقل في تجارة المسافات البعيدة بجنوب أوروبا، وقد كانت للبندقية صلات تجارية ممتدّة معها على مدى قرون»[١].

يبدو أنّ بعض المدن الإيطالية مثل البندقية وجنوة وفلورنسا كانت مهدًا وبؤرةً لظهور الرأسمالية التجارية الحديثة، ومركزًا لنشوء أوائل الرأسماليّين الحداثيّين الذين تجسّدوا في هيئة تجّار ومصرفيّين ومرابين وأحيانًا صنّاع. ويمكن اعتبار إيطاليا المركز الرئيس لانبثاق عصر النهضة، ويجب أن يُستهلّ تاريخ النهضة بإيطاليا. وفي هذا السياق يقول وِل ديورانت واصفًا مدى استعداد إيطاليا لاحتضان عصر النهضة: «في إيطاليا، كانت جميع الطرق تؤدي إلى النهضة»[٢].

منذ منتصف القرن الحادي عشر، بدأت بالتدريج طبقة اجتماعية جديدة تظهر في المدن الساحلية الإيطالية، عُرفت باسم «تجّار المسافات البعيدة». ومع تزايد أعدادهم، وانتشار أنماط التجارة الحديثة، وظهور الرأسمال التجاري وتوسّعه، شهدنا في القرن الرابع عشر الميلادي في البندقية وجنوة وبعض المدن الإيطالية الأخرى بروز طبقة من الرأسماليين التجاريّين الحداثيّين. ومنذ القرن الثاني عشر بدأت ملامح ظاهرة المصرفيّين الحداثيّين بالتشكّل أيضًا، حتى أنّنا في القرن الرابع عشر، ومع بزوغ العالم الغربي الحديث، نجد في مدن إيطالية كالبندقية وفلورنسا وجنوة، فضلًا عن مدن كباريس وبروج (الميناء الواقع شمال بلجيكا

١. رشيدى، نظام سرمايه‌دارى و انقلاب صنعتى اروپا، ٦.
٢. دورانت، رنسانس، ٥٤.

المعاصرة)، ولنـدن، شرائحَ فاعلة ومؤثّـرة ونافذة من الرأسـماليّين التجاريّين وأصحاب الرساميل المصرفية، الذين زعزعوا البنية الطبقية الموروثة من الغرب القروسطي، وكانوا طلائع العصر والعالم الاستكباري الحديث. ويبدو أنّ الغلبة والتفوّق، على الأقل في قلب عصر النهضة، كانت لإيطاليا.

«واصلَ التجّار الإيطاليـون في القرن الرابع عشر تجارتهم المزدهرة في أنحاء البحر المتوسّط، وتمكّنوا أيضًا من توسيع خطوطهم التجارية على امتداد سواحل المحيط الأطلسي نحو شمال أوروبا»[1].

تكتب كارِن أسمن عن مدى امتداد التجارة الإيطالية وهيمنتها، وكذلك عن نشوء ظاهرة المصرفيّين والرأسماليّين الحداثيّين ذوي الرساميل المصرفية في فجر عصر النهضة وبواكير التاريخ الحديث للغرب، فتقول:

«لقد أوجد توسّـع التجارة حاجة متزايدة إلى أسـاليب مبتكرة في المصرفية والأعـمال. ومـن أجل تمويـل الرحـلات البعيدة المكلفـة، طـوّر الإيطاليون أنظمة ائتمان تسـمح للتجّار بأن يقترضوا الأمـوال، أو يمنحوها كقروض، أو يشـارِكوا في اسـتثمارات جماعية من أجل تمويل أنشـطتهم التجارية. كما أرسوا نظامًا يُتيح للتجّار أن يُؤمِّنوا على سـفنهم وبضائعهم ضدّ الفقد أو التلَف. وقد هيمن الإيطاليّون بحلول عـام ١٣٠٠ على ميدان التجارة الممتدّ من لندن حتى القسـطنطينية، وبحلـول منتصف القرن الرابع عشر أسّسـوا مراكز مصرفية في بروج (الميناء الواقع شـمال بلجيكا المعاصرة)، وباريس، ولندن. كانوا يموّلون الأنشـطة التجارية، ويُقرِضون الباباوات في روما وملوك أوروبا، وكانت فوائد هذه القروض تصبّ في دويلات المدن الإيطالية، فتزيد من ثروتها. وقد جعلتهم

١. اشپيل فوگل، تمدن مغرب زمين، ١: ٥٢٦.

قدرتهم الكبيرة على تمويل كل شيء، من الرحلات الاستكشافية إلى الحروب، لاعبين أساسيّين في ساحة السياسة الأوروبية الشمالية. نظرًا لرغبة الإيطاليّين في قصر الشراكة على أقربائهم، نشأت في تلك المرحلة عائلات مصرفيّة ثريّة. ففي فلورنسا ظهرت عائلات باردي، وبروتسي، وأتشيولي، وفي لوكا عائلة ريتشياردي، وقد راكمت هذه العائلات ثروات ضخمة. وكان صعود هذه الأسر شرطًا آخر من شروط العصور الوسطى التمهيدية لعصر النهضة. فقد كان هؤلاء الرجال الجدد أصحاب ثروة وسلطة، وكانت حاجاتهم ترسم المسار الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي. وقد غيّر وصولُهم إلى السلطة النظامَ الاجتماعي في إيطاليا... هؤلاء الأثرياء المدينيّون الجدد [أي الطبقة الرأسمالية الحداثية الناشئة] نالوا السلطة من خلال المناورات السياسية، والمواجهة المباشرة مع الأرستقراطية، والزواج المصلحي. وكان الزواج بين الأثرياء القدامى والجدد من الوسائل السلمية لحلّ الخلافات بين هاتين الطبقتين. ويكتب المؤرّخون أنّ عقد الزواج كان كثيرًا ما يدعم العقود التجارية بين الأرستقراطية الريفية وأصحاب النفوذ التجاري. وقد ساهم هذا الامتزاج بين الأرستقراطية الإقطاعية في شمال إيطاليا وكبار المتنفّذين من رجال الأعمال في تشكيل طبقة اجتماعية جديدة، هي الأرستقراطية الحضرية. وما إن حصلت هذه الأرستقراطية الحضرية على المال والمكانة الاجتماعية - لا على النسب الأرستقراطي - حتى أصبحت معيارًا للقوّة»[1].

في إيطاليا القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت المدن، سواء الكبيرة منها أو الصغيرة، قائمة بهيئة أنظمة سياسية مستقلّة ومنفصلة عن بعضها، تتأرجح

١. اسمن، رنسانس ايتاليا، ١٩ - ٢٠.

بين التحالف والتقارب من جهة، والتنافس والصراع من جهة أخرى. وكانت الطبقة المدينيّة الجديدة من الرأسماليّين الحداثيّين، في هذه الأنظمة، إما تمسك بزمام الأمور بصفتها الطبقة الاقتصادية والسياسية المسيطرة، أو، في حال لم تكن السلطة السياسية بالكامل بيدها، كانت تستثمر نفوذها الاقتصادي لتتحوّل عمليًّا إلى قوة نافذة ومؤثّرة في الساحة السياسية لتلك المدن.

وقد تألّفت الطبقة الرأسمالية الناشئة في مختلف المدن الإيطالية أساسًا من التجّار وأصحاب الرساميل التجارية، فضلًا عن المصرفيّين ذوي الرساميل البنكية. وكانت هناك فئة أخرى من رأسماليّي عصر النهضة في إيطاليا تتكوّن من أصحاب الصناعات والورش المعروفة باسم «المانوفاكتور».

و«المانوفاكتور» كانت تلك الورش والصناعات التي تعود إلى ما قبل الموجة الأولى من الثورة الصناعية. ففي هذه الورش، كان يجتمع عدد من العمّال والحرفيّين في أماكن عمل موحّدة، ويؤدّون مهامهم ضمن نوع من تقسيم العمل، ويتقاضون أجورًا كانت غالبًا دون الحدّ الكافي. ورغم أنّ نوعًا من تقسيم العمل كان قائمًا فيها، وأنّها كانت تستخدم أدوات بسيطة أو آلات أولية غير معقّدة (وهي لا تُقارن بآلات الصناعة الحديثة التي ظهرت بعد الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر)، فإنّ الأساس في عملها كان معتمدًا على الجهد اليدوي والبدني للعمّال، وكانت في جوهرها لا تزال ما قبل تقنية. وقد كان استغلال العمّال المياومين شائعًا إلى حد كبير في هذه الورش، ومع تراجع أنظمة النقابات الحرفية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وهيمنة روح الربحية والمضاربة التجارية الحديثة، كان استغلال قوّة العمل العمّالية والإجحاف بحقوق الزبائن في تزايد مستمر.

ومع اتّساع هيمنة الرأسمالية والرأسماليّين الحداثيّين، أخذ الاقتصاد السلعي يكتسب أهمّية متزايدة، وازدادت تبعًا لذلك مكانة النقود وقوّة الاقتصاد النقدي ونفوذه. وهكذا، بات هاجس جمع المال والسعي نحو الغنى حلمًا سائدًا، حتى بدأ الشعراء يجلّون المال في نتاجهم الأدبي، ويصفونه بأنّه «أفضل الأقرباء» للإنسان. ونجد مثالًا على ذلك في المقطع الآتي للشاعر الإيطالي تشيكو أنجيوليري (الذي عاش في القرن الثالث عشر)، حيث يُظهر من خلال تصويره لقوة المال في الاقتصاد الحديث مدى تغلغل الروح البورجوازية الحديثة وشيوع الاقتصاد النقدي وبروز ملامح السلطة الحديثة للمال:

«ألقِ من المواعظ ما شئت،
فالفلورين [عملة الذهب] هو أفضل الأقرباء،
هو الأخ من الدم، وابن العم الحقيقي،
هو الأب، والأم، والابن، والبنت أيضًا،
لا أحد يندم على امتلاك قريب كهذا،
الفرنسيّون والإيطاليّون ينحنون له،
كما يفعل النبلاء، والفرسان، والمتعلّمون،
الفلورين [الذهب، المال] ينير عينيك ويدفئك،
ويجعل كل أحلامك واقعًا،
ويمنحك كلّ إمكانات هذا العالم الرحب»[1].

وفي إيطاليا القرن الرابع عشر الميلادي، بدأت ملامح أولى لنشوء الدول الحديثة، وظهور السياسة الحديثة واتّساعها. وتاريخ عصر النهضة في إيطاليا

١. م. ن، ٢٠ - ٢١.

ينطلــق في ظلّ تشرذم ســياسي، واضطــراب وتنافس بين الدويــلات في المدن الصغيرة والكبيرة، إلى جانب صعود العائلات الرأســمالية ونفوذها، فضلًا عن الصراع الحادّ بين البابا وملك فرنسا، وهيمنة النظام الملكي الفرنسي على الكرسي البابوي.

الدول الحديثة الأولى في إيطاليا

في الأنظمــة السياســية لمدن إيطاليا، ســواء تلك التي كانت تُــدار على هيئة «جمهوريات» أو التي قامت على حكم اســتبدادي أو ملكي، نشهد بروز الروح النفســانية المتمركــزة حول الذات، والنزعة الســلطوية الحديثــة، وكذلك أولى تجلّيات السياسة العلمانية-الإنسانوية. ويكتب ياكوب بوركهارت عن الوحدات السياسية المستوحاة من الروح الحديثة في إيطاليا قائلًا:

«في هذه الوحدات السياسية، تتّبع روح الدولة الأوروبية الحديثة، لأوّل مرة، دوافعها الخاصة بكامل الحرية. الأنانية المنفلتة تســود بأبشع صورها، وكلّ حقّ يتعرّض للسخرية، وكل ذوق وثقافة سويّة يُخنق في مهده... سواء في جمهوريّات المــدن أو في الإمارات الاســتبدادية، فــإن روح الدولة تتجلّى بأشــكال مختلفة، وتُحدّد بنيتها الداخلية وسياستها الخارجية. وكان الوضع الداخلي للمجتمعات الخاضعة لحكم الحكّام المستبدّين مستوحًى من النموذج المعروف لدولة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية، بالشــكل الذي صاغه الإمبراطور فريدريك الثاني. فهذا الرجل، الذي نشــأ في جوار المسلمين على ســواحل البحر المتوسّط، وبين الأخطار والخيانة، اعتاد منذ شــبابه عــلى النظر في الأمور بحُكم بارد وخالٍ من التعصّب، وكان أوّل إنســان حديث يجلس على العرش الملكي... كلّ خطوات فريدريــك (وخاصة منذ عام ١٢٣١ فصاعــدًا) لم تكن تهدف إلا إلى إزالة نظام

الإمـارات الإقطاعية من الجذور، وتحويل الشـعب إلى كتلٍ بلا إرادة، منزوعي السـلاح، يدفعون الضرائب فحسـب... في القرن الرابع عشر الميلادي، كانت القوّة الزائفة، والنزعة إلى الشـهوات، والأنانيـة في الداخل، فضلًا عن الأعداء والمتآمريـن في الخارج، تجعل الحاكم يومًا بعد يوم أكثر اسـتبدادًا وأشـدّ وطأة. وأكمل وأبلغ نماذج هذا النوع من الحكم الاستبدادي نجده في القرن الرابع عشر في جهاز حُكم أمراء ميلانو بعد وفاة الأسـقف الكبير جيوفاني. وكان أحدهم، بارنابو، يحمل شـبهًا غريبًا بأشـدّ أباطرة روما رعبًا. وكان أهمّ شأنٍ من شؤون الدولة يتمثّل في أن يصطاد الحاكم خنزيرًا برّيًا، ومن يسبقه في ذلك يُقتل بأقسى ألوان التعذيب... أما الحكم الاستبدادي في القرن الخامس عشر، فكان ذا وجه آخر. فقـد تبنّت دولة مدينة نابـولي تحت حُكم أسرة أراغون سياسـةً واضحة المعالم. غير أنّ السـمة الأبرز لهذا القرن كانت سـعي القادة والجنود المرتزقة إلى نيل سلطة مستقلّة، بل وحتى التاج الملكي، بوصفه جائزةً على العبقرية الفطرية أو، بالأحرى، على الشرّ والانحراف. وكان الجبّارون الصغار، طلبًا لسندٍ يدعم سـلطتهم، يدخلون في خدمة الدول الكبرى، ويتحوّلون إلى قادة لجيوشـها من المرتزقة، فينالون من ذلك بعض المال، والحصانة من العقاب على جرائمهم، بل ويتمكّنون أحيانًا من توسـيع نطاق نفوذهـم... وليس ثمّة أثر للتديّن والتقوى التي كانت مفيدة لسُـلالات الحكم المشروعة في الغرب الأوروبي. وما يسـعى إليه الطغاة الإيطاليون، في أحسـن الأحوال، هو نيل الاحترام والوجاهة العامة فحسب»[١].

في الواقـع، كانـت إيطاليا في عصر النهضـة ميدانًا يعجّ بالـشرّ والنزعة إلى

١. بوركهارت، فرهنگ رنسانس در ايتاليا، ١٨.

السلطة، وبالفساد الاقتصادي والأخلاقي واسع النطاق، وبنشوء الشكل الأولي للاستبداد البيروقراطي الحديث، وبروز السياسة العلمانية-الإنسانوية القائمة على النفسانية والسلطة، وكانت ساحةً للمتعة والاستعراض، ولعبث السياسيّين المخادعين الأنانيّين، ولجبروت العسكريّين العنيفين الفاسدين. فمنذ فجر الغرب الحديث، وفي قلب عصر النهضة، بدأت تتجلّى ماهية السياسة والاقتصاد والثقافة والمجتمع الحديث بطابعها الجائر وظلمها الكامن.

الـ«كومونات» الحضرية، مهد الديمقراطيات الحديثة

في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الميلادية، أنشأت بعض المدن الأوروبية «كومونات حضرية» (تنظيمات مدنية مستقلة) في صراعها مع الحكم الإقطاعي، بهدف الحفاظ على استقلالها في وجه ضغط النبلاء الإقطاعيّين. وفي أواخر العصور الوسطى الغربية، أصبح للتجّار والمصرفيّين وأصحاب الورش (ويمكن عدّ هؤلاء آباء الطبقة الرأسمالية الناشئة) نفوذ واسع وقوة متنامية في المدن. ومع نهاية الغرب القروسطي، تحوّلت المدن تدريجيًّا إلى قواعد لحضور ونفوذ ومكانة ممثّلي العالم الحديث. وقد سُمّيت هذه المدن بـ«بورغ»[1]، وسُمّي سكّانها بـ«البورجوا»، إذ كانت الطبقة الرأسمالية تشكّل النواة المركزية للسلطة فيها. ومن هنا، بدأ الذهن الجمعي يربط بين مفهومي «البورجوازي» و«الرأسمالي». وكان البورجوازيون، في الحقيقة، أول سكّان المدن في أواخر الغرب القروسطي الذين جسّدوا روح الحداثة وإرادتها ونزعاتها. ومن هذا المنطلق، فإنّنا نعدّ الإنسان البورجوازي صورةً مثاليةً للإنسان الحديث، ونتعامل مع مفهوم البورجوازي على نحو يتجاوز المعنى الطبقي الضيق للبورجوازية، كما عبّر عنه ماركس.

1. burg

من النـماذج البارزة للكومونـات الحضرية، الكومونـة الحضرية في ميلانو خـلال القـرن الحادي عشر الميـلادي، التي كانت تُدار بشـكل علـماني، وتُعدّ واحدة من أولى التجارب المماثلـة في هذا المضمار. وكانت الكومونات الحضرية في أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة خاضعةً بشكل رئيسي لسيطرة طبقة برجوازية رأسـمالية ناشـئة، وإن لم يكن بالإمكان اعتبارهـا ذات طبيعة حديثة خالصة. ويُمكن عدّ القـرن الحادي عشر الميلادي نقطة البداية التاريخية لظهور مثل هذه الكومونات الحضريـة. وكانت هذه الكومونات في بادئ أمرها أقرب إلى هيئة أو مجلس خاص، إلا أنّها سرعان ما تحوّلت إلى مؤسسـة عامة. في بداية تشكّلها، لم تدخل الكومونات في مواجهة مباشرة مع سلطة المؤسّسات الكنسية أو مع سلطة الدوقات والإقطاعيين، بل سعت للعمل بالتوازي والتنافس معها بهدف الحصول على مزيد من الصلاحيات لإدارة شؤون المدن. وفي هذه المرحلة تحديدًا، عملت الكومونات على توسـيع نفوذها من خلال استقطاب مزيد من سكان المدن.

وتجدر الإشـارة إلى أن الكومونـات الحضرية التي نشـأت في أواخر القرن الحـادي عشر، والقـرن الثاني عشر، وحتـى نهاية القرن الثالـث عشر الميلادي (بدرجـة أقل)، لم تكن بعـدُ ذات طبيعة حديثة بالكامل، بل كانت مؤسّسـات انتقالية تعكس ملامح العصور الوسـطى إلى جانب بعـض العناصر الحداثية، مُشـكّلةً بذلك مرحلة وسطى في مسـار الانتقال من الغرب الوسيط إلى الغرب الحديث. ولهذا، لا يمكن اعتبار الكومونات الحضرية دولًا حديثة مركزية، وإنّما هي بمثابة النواة الأولية التي مهّدت الطريق لنشوء الدولة الحديثة.

في أواخر العصور الوسـطى الغربية، وخاصةً في المدن، وُجدت تركيبة غير

متجانسة من الامتيازات والسلطات والأنظمة القضائية المتعدّدة، إلى جانب التنافس والصراعات بين الفئات والجماعات المختلفة. وكانت الكومونات في كثير من الأحيان في حالة مواجهة مع الكنيسة، دون أن تعير اهتمامًا كبيرًا للأحكام الكنسيّة. ولم تقتصر منازعات الكومونات الحضرية على السلطة الكنسيّة ونظامها فحسب، بل كانت تتنافس وتتصارع فيما بينها أيضًا. ففي إيطاليا القرن الثالث عشر، شهدت الكومونات المختلفة نوعًا من التنافس والتنازع الداخلي.

ولم تخلُ هذه الكومونات نفسها من النزاعات والصراعات الداخلية. وفي المدن الغربية في أواخر العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث، وُجدت جماعات وشرائح اجتماعية متنوّعة يمكن اعتبارها الصورة الأولية للطبقات الاجتماعية الحديثة. وكانت الكومونات الحضرية آنذاك خاضعة بشكل أساسي لسيطرة فئات اجتماعية أُطلق عليها «الشعب السمين»[1] أو «الشعب الكبير»[2]. وهذه التسمية كانت تُطلق على الطبقة الرأسمالية المدنية، وكذلك على فئة من النبلاء والإقطاعيّين الذين ارتبطوا بالرأسماليّين الحضريّين من خلال علاقات عائلية ومالية. وإلى جانب هذه الفئة، وُجدت في المدن جماعات اجتماعية أخرى، منها الفيكونتات (نواب السلطة) وممثّلو الكنيسة والإمبراطور، وكذلك فئة «الشعب الصغير»[3]. كان المقصود بالشعب الصغير الحرفيّين وصغار الصنّاع وأصحاب الدكاكين والتجّار الصغار. كما شكّلت فئات واسعة من سكّان المدن طبقة العمال في الورش والحمّالين والعاطلين عن العمل. وبالطبع، لم يكن يحقُّ لجميع سكّان المدن المشاركة في الكومونات أو ممارسة حق التصويت أو الترشُّح.

1. popolo grasso
2. popolo maggiore
3. popolo minuto

كانت الجماعات والفئات الاجتماعية-الاقتصادية المختلفة تنتظم ضمن نقاباتٍ وهيئـات مهنية، وتخوض صراعًـا اقتصاديًا واجتماعيًا بهـدف تحصيل مصالح ومنافـع إضافيـة. ومن خلال هـذه المنافسـات والصراعات تحديـدًا، ظهرت التناقضـات والنزاعات الطبقية المعروفـة في المجتمعات الحديثـة، ثم تعمَّقت وانتشرت، وفرضت هيمنتها على طبيعة العلاقات الاجتماعية.

كـما أنّ الفئات والطبقات الاقتصادية-الاجتماعيـة كانت تتنافس فيما بينها، بـل وتخوض صراعات عنيفة ودموية في بعـض الأحيان، لأجل تعزيز مواقعها ونفوذها في الكومونات الحضرية والحصول على السـلطة السياسية. وعلى هذا النحـو، ومنذ عصر النهضة، شـهد الغرب الحديث بجميـع مناطقه صراعاتٍ طبقية واسـعة النطاق، بهدف التغلغل في بنية السلطة السياسية أو السيطرة على الحكم، وتأسـيس الدول، أو الحصول على حصة أكبر ضمن الكتلة الحاكمة من قبل مختلف الطبقات والجماعات والشرائح الاجتماعية-الاقتصادية.

وفي الكومونات الحضرية كانت تُعقد اجتماعات لانتخاب المشرِّعين والقضاة والمنفذين الإداريّين، وكانت تُسـمّى هذه الاجتماعات أحيانًا بالبرلمانات. لكن المشـاركة في هذه البرلمانـات كانت تقتصر عـلى من لهم حـقّ التصويت فقط. وبموجـب النظـام الداخلي للكومونـات، كان يتمّ اختيار الرؤسـاء أو الحكّام الذين يقومون بـأدوار المشرِّعين والقضاة والإداريّين. وقد عُرِف هؤلاء الحكّام في الكومونات الحضرية الإيطالية باسـم «القناصـل»[1]. وفي كومونات المدن في أواخر العصور الوسـطى وعصر النهضة، كان «الشـعب السـمين» و«النبلاء الحضريون» وحدهم من يمتلك حق التصويت والترشح، وبعبارة أخرى، كانوا وحدهم من يتمتّع بالحقوق السياسـية. كان هؤلاء القناصل يمارسـون الإدارة

1. consuls

اليومية للحكومة والسلطة التنفيذية والقضائية والإدارية والعسكرية. ومع بداية القرن الثاني عشر الميلادي، نلاحظ وجود هذه الكومونات الحضرية وقناصلها في مدن مثل بافيا (عام ١٠٨٤م)، وميلانو (ابتداءً من ١٠٩٧م)، وبولونيا (منذ عام ١١٢٣م)، وغيرها من المدن الإيطالية. كما أنّ ظاهرة الكومونات الحضرية انتشرت في مناطق عديدة أخرى من أوروبا الغربية في العصور الوسطى، وكانت في معظمها تحت سيطرة «الشعب السمين»، أو ائتلافٍ من الشعب السمين والنبلاء الحضريّين. وكلما اقتربنا من عصر النهضة وفي خضمِّه، كانت طبقة الرأسماليّين الحداثيّين الصاعدة تزداد قوةً وسلطةً في هذه الكومونات، ما أدّى إلى تعميق الصراعات والتناقضات الداخلية. ومن رحم هذه الكومونات تحديدًا ظهرت وتطوّرت الديمقراطيات الإنسانية ذات الطابع الرأسمالي. ومع تزايد نفوذ الطبقة الرأسمالية الحديثة في الكومونات، تواصلت الجهود لإضعاف مكانة رجال الدين والكنيسة، وكذلك النبلاء الإقطاعيّين داخل المدن. وعلى أعتاب عصر النهضة، تحوّلت العديد من مدن أوروبا وكومونتها إلى ساحةٍ لصراعاتٍ عنيفة بين ائتلافٍ جمع بين «الشعب السمين» و«الشعب الصغير» من جانب، وبين النبلاء الإقطاعيّين ورجال الكنيسة من جانب آخر. وفي كثير من هذه النزاعات السياسية-الاقتصادية، استطاع الرأسماليّون الهيمنة على الكومونات من خلال الاعتماد على القوى العاملة من عمّال المدن والطبقات الدنيا، الذين كانوا يُستخدمون وقودًا للاحتجاجات والانتفاضات السياسية. لكن رغم المصاعب والجهود التي بذلها العمّال وأصحاب الدكاكين الصغار، فإنّ معظمهم ظلّ محرومًا من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، واستمرّ استغلاله ونهب مقدّراته لصالح الطبقات المهيمنة.

منذ القرن الثالث عشر الميلادي، بدأت الكومونات تفرض سيطرتها تدريجياً

على مصائر المدن المختلفة وعلى الحياة السياسية للعديد من المدن الإيطالية. تُعتبر هذه الكومونات أولى أشكال الجمهوريات الحديثة. ومنذ القرن الرابع عشر فصاعداً، سَيطَرت الأوليغارشية الرأسمالية بشكل كامل على هذه الجمهوريات. لقد تجلّت عمليّة هيمنة مراكز ومحافل الرأسمالية الحديثة على الكومونات (الجمهوريات) في بعض المدن الإيطالية بأشكال وأنماط متعدّدة ومتباينة. وفي الواقع، مع بزوغ عصر النهضة، تحوّلت العديد من الكومونات الحضرية الإيطالية إلى جمهوريات أوليغارشية حديثة، كما شهدت بعض الحالات ولادة أنماط من الحكومات الملكية الرأسمالية من رحم هذه الكومونات الحضرية.

في الكومونات الحضرية عند مطلع عصر النهضة والجمهوريات التي نشأت منها، تظهر اختلافات طبقية ومالية واضحة ومتزايدة. كانت الغالبية العظمى من سكان المدن تُشكّلهم «العامّة»[1]. وقد انقسم هؤلاء العامّة بدورهم إلى فئات متعدّدة، حيث ضمّت أعداداً كبيرة منهم عمّالاً غير مهرة وخدمًا ومشردين فقراء، في حين شمل جزء آخر منهم حرفيّين صغارًا وتجّارًا متجوّلين.

وكانت فئة أخرى من سكّان المدن تتألّف من النبلاء الحضريّين. كما برزت مجموعات من الرأسماليين الجدد والطارئين الذين دخلوا إلى الساحة السياسية–الاجتماعية، وكانوا يُعرفون بـ«الأعيان الأثرياء»[2]. غالباً ما كانت الانقسامات والصراعات الطبقية تؤدّي إلى تفجّر الجمهوريات الحديثة في مطلع عصر النهضة وانهيارها من الداخل. فعلى الرغم من أنّ سكّان الكومونات (أهالي المدن) كانوا يتّحدون في مواجهة ضغوط الإقطاعيّين (وأحياناً الإمبراطور) من الخارج، ويدافعون عن الجمهورية، إلا أنّ هذه الكومونات نفسها كانت

1. popolino

2. gente nuova

تعاني من تناقضات وصراعات وانقسامات داخلية حادّة. في الواقع، منذ القرن الثالث عشر الميلادي فصاعداً، مع ظهور الكومونات التي أُديرت على شكل جمهوريات ديمقراطية حديثة (جمهوريات قائمة على الديمقراطيات الإنسانية)، برزت تناقضات متعدّدة في الجمهوريات الإيطالية الحديثة.

كانت الجمهوريات الحديثة الناشئة (البورجوازية) تحت سيطرة المواطنين أصحاب رؤوس الأموال[1]. فمنذ القرن الثالث عشر وما بعده، شهدت مناطق مختلفة من أوروبا، وخاصة إيطاليا، ظهور جمهوريات حكمتها طبقة من الرأسماليّين الذين أداروها بشكل مستقل في مواجهة الكنيسة والنبلاء الإقطاعيّين والإمبراطور، بينما استغلّوا وقمعوا العمّال والفقراء داخل هذه الجمهوريات نفسها.

في بعض الحالات، ظهرت داخل الكومونات الجمهورية انقسامات مؤيّدة لـ«البابا» والكنيسة أو للإمبراطور، كما حدث في الصراع بين الغويلفيّين (أنصار البابا) والغيبلينيّين (أنصار الإمبراطور المعارضين للبابا) في بعض الكومونات الحضرية الإيطالية عند مطلع عصر النهضة. إلا أنّ الجذور الحقيقية لهذه الخلافات كانت تكمن في النزعات القومية العلمانية المتصاعدة والتنافعات المصلحية الحديثة، ولم تكن مرتبطة في الغالب بأيّ التزام عقائدي حقيقي بالبابا.

لقد شكّلت الجمهوريات الحديثة قوّة عسكرية عُرفت في إيطاليا باسم الميلشيا. وفي القرن الرابع عشر، واجهت الكومونات الجمهورية أزمات اقتصادية حادّة بسبب تفشّي الطاعون وإفلاس العديد من الشركات والورش (التي أفلسها المنافسون الرأسماليون الجدد). وقد فاقمت هذه الأزمات الاقتصادية من

1. cives

التناقضات الداخلية للكومونات، كما عجّلت بتقارب النبلاء ملّاك الأراضي والرأسماليّين الحضريّين و«النبلاء الجدد» (ملّاك الأراضي الحديثين غير التقليديّين). وهكذا، اتّسعت الهوة تدريجيّاً بين الطبقات المالكة المستغِلّة (التي احتلّت قمّة هرم السلطة في الكومونات وأدارت كتلة السلطة) وبين الجماهير الكادحة، مما أدّى في كثير من الأحيان إلى اندلاع ثورات وانتفاضات دموية.

في عام ١٣٤٧م، وقع حدث في مدينة روما أطلق عليه بعض المؤرّخين اسم «ثورة روما». يمكن اعتبار ثورة روما عام ١٣٤٧م أول ثورة بورجوازية حداثية في تاريخ الغرب (أو على الأقل أحد النماذج الأولية المبكّرة لهذا النوع من الثورات). بدأت القصّة عندما اندلعت انتفاضة كبرى في روما عام ١٣٤٧م ذات توجّه مناهض للإقطاعيين النبلاء، وقادها كولا دي رينزو، كاتب عدل من طبقة الرأسماليين الحديثين الصاعدين. كان رينزو يكره النبلاء الإقطاعيّين وسعى لخلق بيئة مناسبة لتحرّك رأس المال والرأسماليّين الحديثين بحرّية في مسارٍ علماني إنساني يهدف إلى تعظيم الأرباح وتراكم رأس المال. أدان البابا الثورة، لكن ضغط الرأسماليّين الرومان الجدد أجبره على الاعتراف برينزو كمسؤول عن الشؤون المالية لروما. بعد نجاح الثورة، أسّس رينزو وأنصاره جمهورية حكمها الأثرياء النافذون. وقد أطلق رينزو على نفسه لقب «محرّر الجمهورية المقدسة لروما»، وطرد النبلاء الإقطاعيّين بعد تأسيس جمهورية ديمقراطية (من نوع الديمقراطية الإنسانية). على الرغم من الطابع الحداثي والرأسمالي الواضح للجمهورية، حاول رينزو الحفاظ على علاقته مع البابا، كما سعت الجمهورية الديمقراطية في روما للحفاظ على علاقاتها مع البابا والكنيسة. تُعدّ جمهورية روما عام ١٣٤٧م أحد الأمثلة الواضحة لظهور الجمهوريات الحديثة من رحم الكومونات الحضرية.

دافعت جمهورية روما تحت قيادة رينزو عن مصالح الرأسماليّين الصاعدين في المدينة، مما وضعها حتمًا في مواجهة مع البابا والإمبراطور على حدّ سواء. سعى رينزو إلى تشكيل تحالف مع كومونات فلورنسا وبروجة لمواجهة نفوذ البابا، وحاول إدارة الجمهورية وفق سياسات علمانية إنسانية، مستندًا إلى الأفكار الديمقراطية-الإنسانية التي طرحها مفكّرون مثل مارسيلو البادوايي، حيث روّج لمفاهيم حديثة للسلطة السياسية، مما أدّى إلى تهميش البابا والنبلاء الإقطاعيّين.

اضطرّ النبلاء الإقطاعيّون في روما إلى التراجع أمام قوّة الجمهورية وقبول الأمر ظاهريًّا، بينما كانوا يدبّرون المؤامرات سرًّا للإطاحة بها. شكّل الإقطاعيّون قوّة من المعارضين واشتبكوا مع الجيش الروماني الذي كان يقوده رينزو في نوفمبر ١٣٤٧، إلا أنّ المعركة انتهت بانتصار رينزو. بعد هذا النصر، توصّل رينزو إلى تفاهم مع زعماء الإقطاع، إذ كان - بصفته ممثّل الأثرياء النافذين (الرأسماليّين وبعض النبلاء الحضريّين) - يخشى من أنّ استمرار الصراع مع الإقطاعيّين قد يفتح الباب لتحرّكات سياسية من قبل فقراء المدينة والطبقات الدنيا.

غضب ممثّلو الشعب العقلاء من تواطؤ رينزو مع الأرستقراطية الإقطاعية والبابا، مما أدّى إلى سلسلة من الاضطرابات في جمهورية روما. أخيرًا، تمّ إقرار الدستور الجمهوري الديمقراطي لروما عام ١٣٥٨. كان التجّارُ، والصناعيّون، والمصرفيّون، وعموم الرأسماليّين الحداثيّين في إيطاليا ومناطق أخرى من أوروبا، هم الداعمَين الرئيسيَين والمساهمَين في النهضة. الأنظمة الديمقراطية الإنسانية التي ظهرت في بعض المدن الإيطالية، ثم في العديد من المناطق الأوروبية لاحقًا، كانت أنظمةً قمعيةً واستغلاليةً، نظّمت ودعمت الحملات الاستعمارية ضدّ شعوب آسيا وإفريقيا وسكّان الأمريكيتين.

بعض الحكومات الإيطالية خلال عصر النهضة

يمكـن تقسـيم الأنظمة الحاكمة في المـدن الإيطالية عشـية النهضة (خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) إلى ثلاث فئات رئيسية:

أ) الجمهوريات البرجوازية الحديثة التي نشأت من الكومونات الحضرية.

ب) الحكومات الاسـتبدادية الحديثة؛ ففي بعض المـدن الإيطالية، ظهرت من الكومونات أنظمةٌ فرديةٌ اسـتبداديةٌ عُرفـت بـ«الحكومات الجبّارية». ومع ذلك، كانت الأنظمة الجمهورية والملكية (في مختلف المدن الإيطالية) اسـتبداديةً في جوهرهـا، مثل نظيراتها الجبّارية. لكن المؤرّخين الحداثيّين، في محاولةٍ لإخفاء الطبيعـة الاسـتبدادية للجمهوريـات الرأسـمالية الحديثة، يطلقـون مصطلح «جبّارية» فقط على الأنظمة الفردية.

ج) الفئة الثالثة من الحكومات في المدن الإيطالية عشية النهضة كانت أنظمةً ملكيةً (مثل مملكة نابـولي). كانت هذه الأنظمة الملكية، في بعض الأحيان، تمثّل إرادة النبلاء الإقطاعيّين، وفي أحيانٍ أخـرى، كانت مجرّد واجهةٍ لأنظمةٍ تدافع عن مصالح الرأسمالية الحديثة.

كانت الأنظمةُ الجمهورية وما يُسـمّى بالأنظمة الجبّاريـة والأنظمة الملكية بطبيعتهـا اسـتبداديةً وظالمـة ومتجـبّرة. فقـد تجسّـدت الأنظمـة الجمهورية والحكومات الجبّارية عادةً إرادة ومصالح الرأسماليّين الإنسويّين الناشئين، وكان دورها الدفاعَ عن مصالحهم الاستغلالية الجائرة.

أمّـا الجمهوريـات البرجوازيـة الحديثة، فقـد كانت تعاني مـن تناقضات وصراعات داخلية عميقة، وكان طابعها الاستغلالي الرأسمالي يدفعها إلى مواجهة انتفاضـات واحتجاجات العمّال والطبقات الدنيا. وعندما واجه الرأسـماليّون الحداثيّون ثورات الحفاة والمهمّشين، عملوا على تهيئة الظروف لصعود حكومات

الفرد الواحد، كي يتمكّنوا من مواجهة التمرّدات الشعبية بتماسك أكبر.

وفي دراسة دول إيطاليا خلال عصر النهضة، يمكن الإشارة إلى ميلانو وجنوة وفلورنسا والبندقية. فميلانو كانت دوقية، وحكمها أمراء عائلة فيسكونتي من عام ١٣١١ إلى ١٤٤٧. ثمّ حكمتها عائلة سفورزا من ١٤٥٠ إلى ١٤٩٤. أمّا فلورنسا، فقد كان نظامها جمهورياً، ولكن بعد الأزمات الاجتماعية والانتفاضات العمّالية والشعبية ضد حكم الرأسماليّين، صعد نظام عائلة مديتشي الجبّاري - وهي إحدى العائلات الرأسمالية والمصرفية الحداثية في إيطاليا - إلى السلطة. فقد حكم كوزيمو دي مديتشي فلورنسا من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٤، ثمّ خلفه لورينزو دي مديتشي الذي حكم من ١٤٦٩ إلى ١٤٩٢. وفي نابولي، حكم نظام ملكي إقطاعي لفترة، يمثّل نوعاً من التسوية بين النبلاء الإقطاعيّين والمجموعات الحداثية، لكنّ الإقطاعيّين كانوا الطرف المهيمن فيه. يكتب ويل ديورانت في وصف التركيبة السياسية لمدن إيطاليا عشية عصر النهضة:

«كانت الدول-المدن التي قسمت شبه الجزيرة الإيطالية إلى أجزاء عدّة - مثل فلورنسا وسيينا والبندقية - خاضعة لحكومات أوليغارشية تجارية، وغالباً ما كانت منقادة لجبّارين أكثر أو أقل قوة، استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على حكومات جمهورية فاسدة أو مجتمعات منحلّة. (وكان فساد هذه الحكومات ناتجاً عن الاستغلال الطبقي والعنف السياسي) ... وهكذا حكمت عائلة فيسكونتي ثم سفورزا في ميلانو، وسكاليغير في فيرونا، وكارّارا في بادوفا، وغونزاغا في مانتوفا، وإستي في فرارا ... كانت الطبقات الدنيا تقبل بهؤلاء الجبّارين كملاذ أخير من استبداد الأقوياء، بينما رضخ الفلّاحون لسيطرة الطغاة لأنّ الحكومات الجمهورية لم توفّر لهم الحماية، ولم تنصفهم، بل حرمتهم من حرّيتهم. كان هؤلاء

الطغاة قساة لأنّهم كانوا غير آمنين. فحكمهم، لعدم استناده إلى شرعية تاريخية، كان مهدّداً بالاغتيال أو الثورة في أي لحظة، فكانوا يحتمون بقوّات مسلّحة ... وكانوا يستأجرون جنوداً مرتزقة، يدفعون أجورهم من غنائم الغزو والفدية والمصادرات والنهب»[١].

أما البروفيسور كاسمينسكي فيصف التركيبة السياسية والوضع الاقتصادي-الاجتماعي لمدن إيطاليا في القرن الثالث عشر قائلاً:

«في القرن الثالث عشر، كانت إيطاليا مقسّمة إلى عدة حكومات ذاتية الحكم. وكان الشمال هو الجزء الأغنى فيها. هناك، سيطرت المدن على الأراضي المجاورة وشكّلت جمهوريّات مستقلّة. كانت التجارة نشطة في هذه الجمهوريات، كما تطوّرت الصناعة فيها. وكانت أقوى هذه الجمهوريات هي الجمهوريات الساحلية مثل البندقية وجنوة، بالإضافة إلى مدينة فلورنسا الصناعية الثرية في توسكانا ... كانت هذه الجمهوريات تمارس تجارة الرقيق عبر ممثّليها، حيث كانت تشتري العبيد بشكل رئيسي من ما وراء القوقاز. وكانت البندقية تمتلك أساطيل تجارية ضخمة، تهيمن على البحر المتوسط، ممّا أكسبها بحقّ لقب «ملكة البحار». وفي البندقية، تطوّرت الصناعة أيضاً، وخاصةً في مجال المنسوجات الحريرية والمنتجات الزجاجية التي اكتسبت شهرة واسعة. وكانت الثروة فيها مركّزة في يد مجموعة من كبار التجّار الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة في المدينة. كما امتلكت البندقية حاكماً منتخباً يُدعى الدوق[٢]، وهو أعلى منصب في الحكومة التابعة للمجلس الكبير. ورغم أنّ أعضاء هذا المجلس كانوا يُختارون ظاهرياً، إلا أنّ الواقع كان يقتصر على دخول الرأسماليّين إليه فقط، وكان

١. دورانت، رنسانس، ١٩٧ - ٩٨.

2. Doge

المجلس الكبير هو من ينتخب الدوق. هيمنة الأوليغارشية التجارية أثارت استياء سكّان البندقية، وغالباً ما كانت هذه السخطات تصاحبها مؤامرات ضدّ الحكم. وللتخلّص من هذه المؤامرات، شكّلت الأوليغارشية التجارية في القرن الرابع عشر مجلساً من عشرة أعضاء، كان يمتلك عدداً كبيراً من العملاء السرّيّين الذين كانوا يقومون بالتجسّس ويقومون باغتيال الأشخاص الذين اعتُبروا خطراً أو ضرراً على الهيئة الحاكمة، بطريقة خائنة. وهكذا، أُرسيت في البندقية أساليب التجسّس والاغتيال السياسي. أما المنافس التجاري الكبير للبندقية، فكان جمهورية جنوة، حيث كان الحكم فيها أيضاً في أيدي كبار التجّار»[١].

في الواقع، بدأ الغرب الحديث نشأته في مدن مثل البندقية وفلورنسا وجنوة عبر أشكال من الأنظمة الرأسمالية القمعية الاستغلالية - الاستعمارية المتغطرسة. أنظمة جسّدت القمع والكبت المنظم في صورة الديمقراطيات الإنسانية المعاصرة، بهدف خنق أصوات المظلومين والطبقات المسحوقة، وتأمين فضاء آمن لتراكم الأرباح المادية العلمانية-الإنسانية، لصالح المصرفيين ومرابي الأموال وغيرهم من أشكال الرأسمالية الحديثة.

شكّلت البندقية أحد المراكز الأساسية لنشأة الرأسمالية الحديثة وهيمنة حكومة جمهورية رأسمالية معاصرة، استبدادية وإرهابية وقمعية. فقد خضعت هذه المدينة في أوائل القرن الخامس عشر لسيطرة أوليغارشية رأسمالية استغلّت الطبقات الدنيا في البندقية نفسها، كما أخضعت شعوب مدن إيطالية أخرى وبعض الأقوام غير الغربية للقهر والاستعمار. كانت السلطة في البندقية محصورة في أيدي التجّار الرأسماليّين، حيث حكمت المدينة بنظام «ديمقراطي» رأسمالي

١. كاسمينسكي، تاريخ قرون وسطى، ١٦٢ - ٦٣.

حديث، يعتمد على القوة العسكرية والقمع المنظّم بواسطة جهاز شرطة سرّية. في هذه «الديمقراطية»، كانت مصالح الرأسماليّين والتوجّهات التجارية هي التي تحدّد المسار السياسي. تُعتبر البندقية من أهمّ بؤر ولادة الرأسمالية الحديثة. فقد نشط فيها كل من رأس المال التجاري والرأس المال الصناعي (في مجالات صناعة السفن، والزجاج، والجلود، والمجوهرات، والنسيج...)، إلا أنّ رأس المال التجاري يبدو أنّه لعب دوراً أكثر فاعلية وتأثيراً. يكتب ويل ديورانت عن البندقية ونظامها السياسي قائلاً:

«لطالما كانت السياسة خادمةً للتجارة التي كانت تموّل خزينة جمهورية البندقية. نتيجةً لذلك، نشأت قوّة تجاريّة أرستقراطية استحوذت على مقاليد الأمور واحتكرت جميع أركان الدولة ... ولأنّ البندقية كانت بحاجة إلى المؤن، وطرق تصدير البضائع، وتأمين المواد الخام من الأراضي الإيطالية الرئيسية، خاضت سلسلة من الحروب لتثبيت سيطرتها على شمال شرق إيطاليا. كما أنّها، نظراً لحاجتها إلى مناطق خارج الأراضي الإيطالية، سعت للسيطرة على المناطق التي توفّر احتياجاتها، والأسواق التي تشترى بضائعها، والطرق التي تسهل تجارتها. وبحكم الضرورة هذه، تحوّلت إلى قوّة استعمارية ... لم يكن حكم البندقية أخلاقياً أفضل من حكومات ذلك العصر، بل كان أقسى منها في القوانين الجزائية. فقد كان هذا النظام يبرم الاتفاقيات وينقضها وفقاً لمقتضيات المصلحة، دون أن يسمح لأيّ شكّ أو شعور بالولاء أن يعيق سياسته. لكن هذا السلوك لم يكن حكراً على البندقية، بل كانت جميع دول عصر النهضة تتبع النهج ذاته. وقد أيّد البنادقة هذه السياسة، وامتدحوا تفوّق بلادهم على منافسيها وأعدائها بغضّ النظر عن الوسائل المستخدمة. في البندقية، كانت حياة الطبقات الدنيا عموماً

شـاقّة ومليئة بالمشـقّات، بينما قضى الأغنياء والنخبة أوقاتهم في اللهو والثرثرة النمطيـة الإيطالية، منغمسـين في أرقى ملذّات الحبّ والترف. كانت الجسـور والقنـوات الكبرى تعجّ بالرجال والقوارب التي تنقل بضائع من نصف العالم. كـما أنّ البندقية ضمّت عدداً من العبيد يفـوق أيّ مدينة أوروبية أخرى. جمعت الأخلاقيات الإيطالية والبنادقة بين عدم المبالاة الأخلاقية والزندقة الدنيوية من جهة، والتقوى الأسـبوعية والقداسة من جهة أخرى. وكانت حضارة البندقية تفتقر إلى الدقّة والعمق مقارنة بحضارة فلورنسا، كما لم تبلغ رقّة وعمق حضارة ميلانو في عهد لودوفيكو»[1].

شكّلت البندقية أحد المراكز الرئيسية لعصر النهضة الإيطالية. وقد تجلّت فيها بوضوح الملامحُ الرأسمالية للعالم الغربي الحديث (رغم أنّ الرأسمالية في البندقية خلال عصر النهضة كانت لا تزال في مراحلها الجنينية الأولى). حُكمت البندقية بنمـوذج من الجمهورية الديمقراطية الحديثة (بصيغتها النهضوية بالطبع). وقد كانت جمهورية البندقية إحدى المنابع الأولى للاستعمار الرأسمالي الغربي الحديث. وفي المقارنـة بين البندقية وفلورنسـا، يمكـن القول إنّ الجانـب الثقافي والفنّي للنهضة كان أكثر بروزاً في المدينة الأخيرة.

ومن بين المدن الإيطالية البارزة خلال عصر النهضة كانت ميلانو. ففي عام ١٣٧٨م، اسـتولى جان غالياتسـو فيسـكونتي – أحد دوقات عائلة فيسكونتي – على السـلطة في هذه المدينة. وقد انتشرت في ميلانـو المصانع الحرفية في مجال النسيج وصناعة الأسلحة والدروع الحديدية وحرير البروكار.

يذكر ويل ديورانت: «إبان حكم غالياتسـو، كان عمّه برنابو يحكم النصف

١. دورانت، رنسانس، ٣٠٦، ٣١٧.

الآخـر من أراضي عائلة فيسـكونتي. لقد كان برنابو محتـالاً من الطراز الأول، حيـث فرض أقصى الضرائب عـلى رعاياه، وأجبر الفلّاحين على إطعام خمسـة آلاف كلب صيد لـه، وأغلق باب المعارضة بإعلانه أنّ المجرمين سـيتعرّضون للتعذيب لمدّة عشرين يوماً. كما كان يخطّط للإطاحة بغالياتسـو ويتآمر للسيطرة على كامل الأراضي الموروثة لعائلة فيسكونتي. كان جان غالياتسو يتمتّع بشبكة من الجواسيس المهرة، مما مكّنه من الاطّلاع على جميع مخططّات عمه. لذا قرّر أن يبادر بالضربة الاستباقية في الوقت المناسب. في أحد الأيام، دعاه للقاء، فذهب برنابو مطمئنّاً برفقة ابنيه لزيارة ابن أخيه. إلا أنّ الحرس السرّي لجان قبض على الثلاثة، وقيل إنّه دسّ السـم لبرنابو (عـام ١٣٨٥). وهكذا أصبح جان حاكماً لميلانـو ونوفـارا وبافيا وبياتشـينزا وبارما وكريمونا وبرشـيا. وفي عام ١٣٨٧ اسـتولى على فيرونا، ثمّ بادوفا في ١٣٨٩ ... حتى سيطر تقريباً على كامل شمال إيطاليـا من نوفارا إلى البحر الأدرياتيكي. وبعـد أن أضعفت الولايات البابوية نتيجة النزاع الكبير (١٣٧٨-١٤١٧) وتكرار نقل العاصمة الروحية من أفينيون إلى روما، حرّض جانُ البابوين المتنافسين بعضهما ضدّ بعض، ساعياً للاستيلاء على جميع الأراضي التابعة للكنيسـة. وكان يخطّط بعـد تحقيق هذا الهدف لغزو نابولي، مما كان سـيجبر فلورنسا - مع سيطرة قوّاته على بيزا والموانئ الأخرى - على الاستسـلام ... لكن القَدَر لم يمهل جان غالياتسـو، فتوفّي عام ١٤٠٢ عن عمر يناهز الخمسين، قبل أن يحقّق جميع أحلامه التوسّعية»[١].

حكمت عائلة فيسـكونتي ميلانو من عام ١٣٧٨ إلى ١٤٤٧م، حيث سـاد خلال فترة حكمها نمط من الاسـتبداد الرأسمالي الحديث. تماشى حكّام ميلانو

١. م. ن، ٢٠٢ - ٣.

مـع التيّار العام لعـصر النهضة وبروز الاقتصـاد والثقافة الإنسـانية، مطبقين شـكلاً من الاسـتبداد والطغيان الممزوج بنزوات حكّام ذلك العصر. وجدت ميلانو نفسـها في خضم التنافس مع فلورنسـا والبندقية على المصالح الرأسمالية والتوسّـعية. سـواء دوقات ميلانو أو قادة جمهوريات فلورنسا والبندقية، كانوا إما من رعاة المفكّرين والفنّانين الإنسـانيّين، أو ينتمون إلى العائلات الرأسمالية الحديثة ويستفيدون من دعمها المادي. كان هؤلاء الحكام الحداثيون طغاة ماكرين وظالمين، يحفل سجلّهم التاريخي بأمثلة صادمة من الشرور والجرائم. كمثال على ذلك، جان ماريا فيسـكونتي الذي درّب كلابه على أكل اللحم البشري، وكان يلقي بالمعارضين السياسيين والاجتماعيّين أحياءً لكلابه، ثم يشاهد بفرح كيف تمزّقهم الكلاب إرباً[1]. مثل هؤلاء الحكّام المرضى الظالمين كانوا ظاهرة شائعة بين حكام عصر النهضة الحداثيّين.

كان ملوك ودوقات وقادة وبابوات عصر النهضة – بشكل عام – أشخاصاً فاسدي الأخلاق، شـهوانيّين، مسـتبدين، ظالمين، متعجرفين ومجرمين. وهذه السمة لم تكن حكراً على ميلانو أو فلورنسا أو أيّ مدينة أخرى، بل كانت ظاهرة عامّة في مختلف أنحاء إيطاليا.

لقد كان عصر النهضة حقبة انتشرت فيها مختلف أنواع الفسـاد والانحلال الأخلاقـي على نطاق واسـع. فقد شـهدت تلـك الفترة مجموعـة صادمة من الممارسـات المشينة، شـملت: الخرافات بمختلف أشـكالها، ومظاهر من عبادة الشيطان، والعنف السادي، بالإضافة إلى شتّى أنواع الانحرافات الجنسية والمثلية الجنسية.

---

١. م. ن، ٢٠٤.

شـكّلت ميلانو خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مدينة برجوازية، وواحـدة من مراكز الرأسـمالية الحديثة والثقافة الإنسـانية. إلا أن هذه الطبيعة الحداثيـة للمدينة أدت إلى هيمنة الظلم والفقر فيهـا، حيث ترجع جذور الفقر إلى صعود الاقتصاد الاسـتغلالي للرأسـمالية الحديثة، مما ولّد مجتمعاً غير عادل وفاسداً.

وفي النهاية، وبعد الغزو الفرنسي، انتهى حكم لودوفيكو وعائلة سفورزا في ميلانو (عام ١٥٠٠م). وقد توفّي لودوفيكو عام ١٥٠٨ في عزلة وانفراد.

ومـن المدن الإيطالية المهمّة الأخرى خلال عصر النهضة، جنوة. فقد عانت جنوة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر من صراعات داخلية وحروب بين النبلاء أنفسهم، بالإضافة إلى صراع النبلاء مع أغلبية الشعب. وفي عام ١٣٨٣، اندلعت ثورة ضدّ النبلاء الإقطاعيّين في جنوة. إلا أنّ الجمهورية الرأسمالية التي تولّت السلطة بعد هذه الثورة، أثبتت أنها أكثر ظلماً من حكم النبلاء، مما أدّى إلى وقـوع عشر ثورات وانتفاضات بين عامـي ١٣٩٤ و١٣٩٥. وفي عام ١٣٩٦، احتلّت فرنسـا جنوة، لكنّها اضطرّت إلى الانسـحاب بعد عامـين نتيجة ثورة شـعبية كبرى. أدّى التفاوت الطبقي وقمع الأوليغارشية الرأسمالية الحديثة إلى اندلاع انتفاضات وحرب أهلية جديدة في جنوة. واستغلّت ميلانو هذا الوضع المضطرب لفرض سـيطرتها على المدينة عـام ١٤٢١، إلا أنّ ثورة ضد المحتلّين أدّت إلى استعادة الاستقلال عام ١٤٣٥، مما أعقبه موجة جديدة من الصراعات الداخلية. وفي النهاية، أسّس الأدميرال الجنوي أندريا دوريا جمهورية برجوازية في جنوة عام ١٥٢٨.

«هذه الجمهورية – شأنها شأن فلورنسا والبندقية – كانت أوليغارشية تجارية،

حيث اقتصر حقّ التصويت على العائلات المسجّلة في «الكتاب الذهبي». تألّف النظام الجديد من مجلس شيوخ يضمّ ٣٠٠ عضو، ومجلس نوّاب بـ٢٠٠ ممثّل، ودوق يُنتخب لمدّة عامين. استطاع هذا الحكم إحلال السلام بين الفصائل السياسية، والحفاظ على استقلال جنوة حتى ظهور نابليون (١٧٩٧)»[١].

لقد كانت الجمهورية البرجوازية في جنوة نتاجاً لتوازن القوى وتفاهم بين النبلاء الإقطاعيين والرأسماليين الحداثيين، حيث مثّلت شكلاً من أشكال التسوية التاريخية بين النظام القديم والنظام الناشئ.

فلورنسا في عصر النهضة

تُعتبر مدينة فلورنسا خلال عصر النهضة النموذج الأبرز لظهور النهضة الإيطالية. ازدهرت في فلورنسا الثقافة والفنون الإنسانية (بصورتها الأولية في الأدب والفنون النهضوية)، كما نشطت فيها مراكز فكرية وفلسفية قدّمت الصيغ الأولى للرؤى الإنسانية عن الكون والإنسان بأشكال متنوعة. على الرغم من أنّ الفكر الغربي الحديث لم يظهر خلال عصر النهضة كمنظومة فلسفية متماسكة وشاملة (كما ظهر لاحقاً في فلسفة ديكارت)، إلا أنّ آراء المفكرين الإنسانيّين – الذين كان العديد منهم من أبناء فلورنسا أو العاملين فيها – قد قدّمت روايات إنسانوية عن الكون وعلاقة الإنسان بالطبيعة وماهية الإنسان والقضايا المرتبطة به، والتي انتشرت وتطوّرت بشكل ملحوظ. كما شهدت فلورنسا في عصر النهضة البوادر الأولى للرأسمالية الحديثة، سواء على هيئة رأسمال تجاري، أو في صورته الصناعية المانوفاكتورية، أو حتى في شكله المالي المصرفي، والتي تواجدت وتفاعلت جميعها في نسيج المدينة الاقتصادي.

---

١. م. ن، ١٩٩ – ٢٠٠.

«مع توسّع النشاط التجاري، أصبح بوسع التجّار اقتراض أي مبالغ يحتاجونها من الصيارفة، مقابل تقديم سندات مالية يتعهّدون بموجبها بسداد الديون وفوائدها ضمن آجال محدّدة. وهكذا أصبحت المعاملات المالية أكثر تعقيداً، وتحوّل الصيرفي إلى مصرفي. (مصطلح «بنك» مشتق من الكلمة الإيطالية «بانكو»[1] التي تعني المقعد الذي كان يجلس عليه الصيارفة). انتشرت الفروع المصرفية في العديد من المدن الأوروبية، وبرز كبار المصرفيين في المدن الإيطالية بشكل خاص، حيث كانوا يجمعون الأموال في خزائنهم وينقلونها بين المدن، محقّقين أرباحاً فاحشة من هذه العمليات. وبمرور الوقت، تراكمت لدى المصرفيّين أموال طائلة»[2].

وكانت فلورنسا إحدى أهمّ مراكز تجمّع المصرفيّين وأصحاب رؤوس الأموال المصرفية. هؤلاء الرأسماليّون كانوا عادةً من الداعمين الماليّين والسياسيّين للكتّاب والفنّانين والمفكّرين الإنسانيّين، حيث أسّسوا أكاديميات ومراكز تعليمية علمانية حديثة بهدف نشر الثقافة الإنسانية.

كانت فلورنسا المدينة التي شهدت تجسّد الاقتصاد والثقافة الحديثين في صيغتهما النهضوية. إذا اعتبرنا تجّار وحرفيّي البندقية نماذجًا لرأسماليّين حديثين ناشئين ومنافسين لرأسماليّي فلورنسا، فلا شك أنّ ممثّلي الثقافة والفنّ الحديثين قد تجمّعوا فيها أكثر من أيّ مكان آخر، مما جعلها فريدة إلى حد كبير من هذه الناحية.

«شكّلت فلورنسا في القرن الخامس عشر دولة-مدينة حكمت ليس فقط فلورنسا نفسها، بل أيضًا - بفترات متقطعة - براتو، بيستويا، فولتيرا، كورتونا،

1. banco

٢. كاسمينسكي، تاريخ قرون وسطى، ٩٦.

أرتسو والأراضي الزراعية المحيطة. لم يكن الفلّاحون أرقّاء، بل كانوا ملّاكًا صغارًا أو مستأجرين، يسكنون في منازل حجرية وإسمنتية تشبه منازل الفلّاحين المعاصرين، ويختارون مسؤولي القرية بأنفسهم لإدارة شؤونهم المحلّية. وهكذا، انضمّ صدى الصراع القديم بين المدينة والريف إلى صرخات الكراهية الصادرة عن الطبقات المتناحرة داخل المدينة. كان حوالي ربع سكان المدينة من العمّال الصناعيّين؛ ففي القرن الثالث عشر وحده، استوعبت صناعة النسيج وحدها ٣٠ ألف رجل وامرأة في ٢٠٠ ورشة نسيج ... بحلول عام ١٣٠٠، بلغت فلورنسا في صناعة النسيج مرحلة الرأسمالية الاستثمارية الضخمة، والتوريد المركزي للمواد والآلات، والتقسيم المنظم للعمل، والتحكّم في الإنتاج من قبل ملّاك رأس المال. وفي عام ١٤٠٧، مرّ إنتاج الثوب الصوفي بثلاثين عملية منفصلة، ينفذ كل منها عامل متخصّص. شجّعت فلورنسا تجّارها على توسيع نشاطهم التجاري ليشمل جميع موانئ البحر المتوسط والسواحل الأطلسية حتى بروج، وعيّنت قناصل في إيطاليا وجزر البلطيق وفلاندرز ومصر وقبرص والقسطنطينية وإيران والهند والصين لدعم تجارتها وتعزيزها. ولضمان وصول تجارتها إلى البحر، استولت على بيزا واضطرّت إلى استئجار سفن تجارية من جنوة لنقل بضائعها. بالإضافة إلى ذلك، فرضت الحكومة، التي كانت تحت حماية التجّار ورجال الأعمال، تعريفات جمركية باهظة لمنع المنتجات الأجنبية المماثلة من دخول أسواق فلورنسا. ولتمويل هذه الصناعة والتجارة الواسعة النطاق، بالإضافة إلى النفقات الأخرى، قامت ٨٠ مؤسسة مصرفية فلورنسية -أبرزها عائلات باردي وبروتسي وبيتي وميديتشي- بإدارة أموال المستثمرين. فقد أصدرت الشيكات وخطابات الاعتماد، وشاركت في تبادل السلع التجارية

وفتح الاعتمادات، ووفرت الأموال للحكومة لتمويل الحروب أو إبرام السلام. أصبحت فلورنسا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر العاصمة المالية لأوروبا، حيث تمّ فيها تحديد أسعار صرف العملات الأوروبية المتداولة. ومنذ عام ١٣٠٠، انتشر استخدام نظام التأمين لحماية السفن الإيطالية في رحلاتها البحرية ... كان المصرفيّون وملّاك المصانع والحرفيّون والعمال المهرة في أوروبا منظّمين ضمن نقابات حرفية. وكان على كل ناخب أن يكون عضوًا في إحدى هذه النقابات، أما النبلاء – الذين حُرموا من حق التصويت بعد ثورة بورجوازية عام ١٢٨٢ – فقد انضمّوا إلى هذه النقابات لاستعادة هذا الحق. وبعد هذه النقابات، كان هناك ٧٢ اتحادًا يضمّ عمّالًا محرومين من حق التصويت، وأسفل منهم كان هناك آلاف العمّال اليوميّين الذين يعيشون في فقر مدقع ومحرومين من حق التنظيم. وأسفل من هؤلاء – أو فوقهم إذا كان أسيادهم أكثر عطفًا – كان هناك عدد قليل من العبيد. أما أعضاء النقابات الكبرى فكانوا يُعتبرون سياسيًا جزءًا من «البوبولو غراسو» (أي الأغنياء أو الطبقة المرفّهة)، في حين شكّل بقية السكان ما يُعرف بـ«البوبولو مينوتو» (أي العامة أو الطبقة الدنيا). لقد كان التاريخ السياسي لفلورنسا، شأنه شأن التاريخ السياسي للدول الحديثة، انتصار الطبقة التجارية أولًا على الأرستقراطية الإقطاعية القديمة (عام ١٢٩٣)، ثم صراع الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة السياسية»[١].

يُحتمل أن تكون أول ثورة حديثة – والتي يمكن وصفها بأنّها ثورة برجوازية، بمعنى أنّها سعت إلى تحقيق النموذج المثالي للإنسان البورجوازي ومختلف تجلّياته مع انبثاق أفق الحداثة – هي ثورة فلورنسا عام ١٢٩٣م، التي أسقطت حكم

١. م. ن، ٨٠ – ٨٢.

النبـلاء الإقطاعيّين وأقامـت حكومـة ديمقراطية حديثة رأسـمالية (بصورتها النهضويـة). وقد تعرّضت هذه الحكومة الرأسـمالية الحديثـة لتقلّبات مختلفة، قبل أن تُسـقطها ثورة العمّال والطبقات الكادحة عام ١٣٧٨ م (الذين لم يعودوا قادرين على تحمّل استبداد الرأسـماليين الحداثيين)، ليتولّى السلطة نظام حداثي هذه المرة بقيادة عمّال المصانع والحرفيين الصغار والعمّال اليوميين. ويمكن اعتبار هذا النظام شكلاً جنينياً للديمقراطيات الإنسانية العمّالية.

بحلول عام ١٣٨٢، انهارت حكومة العمّال نتيجة الانقسامات والصراعات الداخلية، فعاد الرأسـماليون الحداثيون في فلورنسا إلى الحكم، وأعادوا تأسيس نـوع من الجمهورية الرأسـمالية. وهكذا، يمكننا أن نرى كيـف أنّ العالم الغربي الحديث، منذ لحظة نشأته وظهوره الأولي في فلورنسا وروما والبندقية وغيرها، كان يحمل منذ البداية صبغة استغلالية وقمعية.

تعميق أزمة تدهور الكنيسة الكاثوليكية: البابا في أفينيون

بدأت أزمة تدهور الكنيسـة الكاثوليكية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، لكنّها ازدادت عمقًا وتفاقمًا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ومع تصاعد نفوذ الرأسماليّين الحداثيّين، ظهر نظام تعليمي علماني-إنساني وانتشر، مما أدّى إلى تقليص دور الكنيسة الكاثوليكية وإضعاف تأثيرها في مختلف المجالات. كما أنّ الوضع الداخلي للكنيسة نفسها، إلى جانب انغماس البابوات والقساوسة في مظاهر الدنيا، سـاهم في تفاقم الأزمة من الداخل، وزاد من ضعف المؤسسة الدينية.

تحوّل العديد من البابوات والكاردينالات إلى إقطاعيّين كبار، لكن مع تراجع الاقتصاد الإقطاعي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أصبحت مكانتهم

مهدّدة أمام ممثّلي الاقتصاد الرأسمالي القائم على التجارة السلعية، ما وضعهم في موقف صعب أمام التحوّلات الاقتصادية المتسارعة.

«مع تزايد الولاء للمدن-الدول العرفية، واستحواذ المصرفيّين والتجّار على السلطة، حدث تحوّل في مركز الحياة في العصور الوسطى. أصبح للتجّار والمصرفيّين نفوذ في السياسات العامة، في مجالات كانت سابقًا تحت هيمنة الكنيسة، مما أدّى إلى تغييرات في نظام التعليم ... في أواخر القرن الثاني عشر، أدّى توسّع النشاط التجاري إلى زيادة الطلب على الكتبة وأمناء السجلات. وبحلول القرن الثالث عشر، بدأت المدارس المهنية غير الدينية في تأهيل الطلاب لمناصب حكومية وتجارية، مما أسهم في تقليص سيطرة الكنيسة على التعليم، ومهّد الطريق أمام أنظمة تعليمية عرفية تعكس روح عصر النهضة. وفي أواخر القرن الثاني عشر، استمرّت الكنيسة في فقدان سلطتها ونفوذها نتيجة لتنامي العلمنة. أدّى انشغالها بالمظاهر المادية إلى تراجع الدعم الشعبي لها، ومنذ ذلك الوقت، بات الناس في مختلف أنحاء أوروبا ينتقدون توجّه الكنيسة نحو النزعة المادية»[١].

في بداية عصر النهضة، بدأت سلطة الكنيسة الكاثوليكية ومكانتها تتراجع بشدة. ففي الصراع بين الملوك والكنيسة والنبلاء الإقطاعيّين، تعرّض نفوذ الكنيسة الكاثوليكية والبابا لضغوط كبيرة لصالح ملك فرنسا، حيث مارس فيليب الرابع ضغطًا هائلًا على البابا بونيفاس الثامن، حتى وجد البابا نفسه في موقف حرج وعاجز تمامًا، ولم يتمكّن من الخلاص إلا بوفاته. بعد وفاة بونيفاس الثامن، خضع خليفته، البابا كليمنت الخامس، لضغوط ملك فرنسا، ونقل مقرّ

١. اسمن، رنسانس ايتاليا، ٢٢ - ٢٣.

البابويــة من رومــا إلى مدينة أفينيون. وهكــذا بدأت مرحلة جديــدة في تاريخ الكنيســة الكاثوليكية، والتي أطلق عليها ويل ديورانت اســم «الأسر البابلي»، وعرفت تاريخيًّا باسم «الباباوات في أفينيون»، ممّا شكّل دليلًا واضحًا على تعمّق أزمة التدهور وتراجع مكانة الكنيسة الكاثوليكية في ذروة عصر النهضة.

«دخل البابا بونيفاس الثامن في صراع ســياسي مع الملك فيليب الرابع ملك فرنســا. كان البابا يســعى لفرض هيمنة الكنيســة على الحكّام في أوروبا، بما في ذلك فرنســا، بينما أراد فيليب الحفاظ على درجة معينة من اســتقلالية الكنيســة داخل مملكته. تصاعدت النزاعات السياســية بشــكل كبــير، ووصلت إلى حدّ العداء الصريح. ففي عام ١٣٠٣، هاجم الفرنســيون بونيفاس وحاولوا-دون نجاح-إعدامه. وبعد بضعة أشــهر، توفّي البابا، وخلفه بنديكت الحادي عشر، لكنّه لم يعش سوى أشــهر قليلة. جاء البابا كليمنت الخامس بعد بنديكت، وفي عام ١٣١١ خضع لضغوط الفرنسيّين، فنقل مقرّ البابوية من روما إلى فرنسا، ممّا أدّى إلى بداية فترة إقامــة البابوات في أفينيون. أقام البابوات هناك لمدّة ٦٦ عامًا حتــى عام ١٣٧٧، عندما أعاد البابا غريغوريوس الحادي عشر المقرّ البابوي إلى روما، لكن بعد وفاته في العام التالي، خلفه أوربان السادس. لم يكن الملك شارل الخامس ملك فرنسا راضيًا عن هذا الانتقال، إذ كان يرغب في الحفاظ على المكانة الرمزية لمقرّ البابوية في فرنســا. لذلك، دعم تعيين ابن عمّه كليمنت الســابع كـ «بابا منافس»، ممّا أدّى إلى انقســام في العالم المسيحي، حيث ادّعى خلال الأربع ســنوات التالية اثنان من البابوات (وفي إحــدى الفترات، ثلاثة) أنّهم أصحاب السلطة البابوية الشرعية في أوروبا»[1].

١. م. ن، ٢٣ - ٢٤.

«في عصر النهضة، كانت الكنيسة الكاثوليكية تواجه من جهة أزمة تدهور متفاقمة، ومن جهة أخرى تصاعد نفوذ القوى العلمانية–الإنسانية، والرأسماليّين، والحكّام والملوك الذين دعموا هذه القوى الجديدة. أدّى ضعف سلطة الكنيسة وأزمتها العميقة إلى خضوع البابوات عمليًّا لسلطة ملك فرنسا بين عامي ١٣١١ و١٣٧٧، واستقرارهم في أفينيون. وبعد عام ١٣٧٨، ظهر تنافس بين بابوين ونظامين بابويّين (وفي إحدى الفترات حتى ثلاثة بابوات)، أحدهما في أفينيون، مدعومًا من فرنسا، نابولي، صقلية، إسبانيا، البرتغال، واسكتلندا، والآخر في روما، مدعومًا من إنجلترا، ألمانيا، شمال ووسط إيطاليا، فلاندر، وأيرلندا. مع انتهاء فترة «الباباوات في أفينيون» أو ما عرف بـ «أسر البابوات في أفينيون» (١٣١١–١٣٧٧)، واجهت الكنيسة الكاثوليكية أزمة جديدة، أُطلق عليها اسم «الانشقاق الكبير». وخلال هذه المرحلة (١٣٧٨–١٤١٧)، تنافس بابوان (وفي بعض الفترات ثلاثة بابوات) على السلطة البابوية، مما عكس بوضوح عمق الأزمة التي كانت تعاني منها الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت.

مع ظهور وانتشار مختلف مظاهر العالم الغربي الحديث، تعرّضت الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تدافع عن الثيوسانترية المسيحية، لضغوط متزايدة وأُجبرت على التراجع. فقد كان الإنسانيّون في عصر النهضة الممثّلين الرئيسيّين للعلمانية الحديثة، يروّجون لعالم لم يكن للكنيسة الكاثوليكية الثيوسانترية في العصور الوسطى أيّ مكان فيه. بدأ انحدار الكنيسة الكاثوليكية منذ تفاقم أزمة الغرب في العصور الوسطى، لكنّه تعمّق واتّسع بشكل أكبر خلال عصر النهضة، مما أدّى في النهاية إلى ظهور الإصلاح الديني وتفسير حديث للمسيحية تجسّد في البروتستانتية. في الواقع، كشفت عملية «الانشقاق الكبير» بوضوح عن

التراجع التدريجي للرابطة التي كانت تجمع العالم الغربي في العصور الوسطى حول الكنيسة الكاثوليكية، حيث كانت الأولويّات تُحدّد وفق الاعتبارات الدينية. غير أنّ عصر النهضة جعل هذه الرابطة تتراجع أمام مفهوم حديث للدولة القومية ومصالحها الوطنية، والتي كانت في طور التشكّل آنذاك. كان هذا التحوّل مؤشّرًا واضحًا على نهاية الغرب في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث الغربي.

ساوونارولا في فلورنسا

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كانت فلورنسا تواجه أزمة اقتصادية حادّة، حيث أفرغت إسرافات أسرة مديتشي خزائن المدينة. وبعد وفاة لورنزو دي مديتشي (المعروف بـ «لورنزو العظيم»)، تولّى ابنه بييرو دي لورنزو الحكم عام ١٤٩٢، لكنّه سرعان ما أصبح يُعرف بـ «بييرو التعيس». في الفترة ذاتها، وُلد طفل في عائلة سافونارولا، أُطلق عليه اسم جيرولامو. وكان القدر قد شاء أن يلعب جيرولامو دورًا محوريًا في إنهاء حكم بييرو وسقوط سلطة أسرة مديتشي.

وُلد جيرولامو سافونارولا في ٢١ سبتمبر ١٤٥٢، وكان والده نيكولو سافونارولا طبيبًا. جيرولامو، الابن السابع للعائلة، لم يكن مهتمًّا بمهنة والده، بل انشغل بدراسة أعمال «توما الأكويني»، ممّا قاده إلى التعمّق في الفكر الديني. في شبابه، التحق بجامعة بولونيا، حيث كانت الأجواء العلمانية السائدة هناك تسبّب له إزعاجًا شديدًا. في إحدى رسائله إلى والدته، كتب:

«لكي يُعدّ المرء رجلًا هنا، كان عليه أن يلوّث فمه بأقسى الشتائم وأشدّها بذاءة ضدّ المقدّسات. فإذا ما تعلّمت الفلسفة والفنون الجميلة، وُصفتَ بالحالم؛

وإذا ما عشت بتقوى وتواضع، وُصفتَ بالسذاجة؛ وإذا كنت متديّنًا، اتُّهمتَ بالرياء؛ وإذا آمنت بالله، اعتُبرتَ ساذجًا.»

ترك جيرولامو الجامعة وعاد إلى والدته لينعزل عن العالم. كان قد وصل إلى إدراك عميق، يعذّبه التأمّل في الجحيم وفي فساد البشر. أول أعماله الأدبية كانت مجموعة من الأناشيد التي فضحت الفساد في إيطاليا، حيث وجّه فيها انتقادات حادّة للبابوات، وتعهّد بإصلاح وطنه وكنيسته. بعد عام، في سن الثالثة والعشرين، هرب جيرولامو سرًّا من منزل أسرته، وانضمّ إلى دير دومينيكاني في بولونيا. هناك، كان يصوم، ويجلد نفسه، محاولًا التغلّب على ما كان يراه فسادًا متأصّلًا في الطبيعة البشرية. في عام ١٤٨٩، عاد سافونارولا إلى فلورنسا، وبعد عامين تمّ تعيينه رئيسًا لدير سان ماركو. عند هذه النقطة، أدرك لورنزو أنّ خصمه الجديد كان أكثر شراسة وقوّة من أيّ عدو عرفه طوال حياته. انبهر الناس بشجاعته، إذ كان ينتقد القساوسة والبابا أكثر من انتقاده لعامّة الشعب، ويوجّه نقده للأمراء أكثر من غيرهم. خلق جوًّا من التحدّي بعث الأمل في نفوس المستضعفين. في هذه الأيام، لم تعد هناك رحمة أو نعمة من الروح القدس إلا وكانت معروضة للبيع. في المقابل، يعيش الفقراء تحت وطأة ضغوط قاسية، ويُطلب منهم دفع ضرائب تفوق قدرتهم. ومع ذلك، يواصل الأثرياء الصراخ في وجوههم: «ادفعوا المزيد!» [خاطب سافونارولا المصرفيّين قائلًا]: «لقد اكتشفتم طرقًا كثيرة لجني المال، وتقومون بمعاملات تعتبرونها قانونيّة لكنّها في الواقع جائرة. لقد دفعتم محاكم المدينة نحو الفساد، ولا يمكن لأحد إقناعكم بأنّ الربا خطيئة. أنتم تدافعون عنه بكل قلوبكم، ولا يشعر أحد بالخجل من

ممارسة الربا–لا، بل إنّ من يخجل منها يُعتبر أحمقًا في نظركم»[١].

أدّى الفقر، التفاوت الطبقي، واستبداد الرأسماليّين الحداثيّين إلى تأجيج غضب الجماهير في فلورنسا، حيث ساهم الفساد المستشري وخطب سافونارولا النارية في اندلاع انتفاضة شعبية. وهكذا، أُطيح بحكم أسرة ميديشي، وفرّ بييرو التعيس هاربًا. بعد سقوط بييرو، وجدت فلورنسا نفسها في ظلّ حكومة غير فعّالة، مما أتاح الفرصة لانتشار الفوضى وانعدام الأمن. في خضم هذه الظروف، تأسّست ديمقراطية برجوازية في شكل نظام جمهوري، وكان للدعم الذي حظي به سافونارولا تأثير مباشر في صياغة الدستور الجديد. في ١٠ يونيو ١٤٩٥، أُعلن رسميًّا قيام جمهورية فلورنسا، وسعت هذه الجمهورية الناشئة في البداية إلى منح امتيازات واسعة للفقراء في المدينة. حاول سافونارولا مواجهة المظاهر الأخلاقية الفاسدة، وتمتّع بدعم شعبي إلى حد ما، إلا أنّه أخطأ عندما امتنع عن تنفيذ إصلاحات اقتصادية جذرية لتحقيق العدالة الاجتماعية ضد الرأسماليّين، لصالح الطبقات المحرومة، مما أدّى تدريجيًا إلى تراجع تأثيره السياسي. في المقابل، كان الرأسماليون والإنسانيون، إلى جانب أنصار أسرة ميديشي، يعملون بنشاط على إعادة تنظيم صفوفهم والتآمر للإطاحة به. أثارت خطب سافونارولا الحادّة ضد فساد البابا والكاردينالات موجة عداء ضدّه داخل الأوساط الكنسية، لينضمّوا إلى صفوف معارضيه. وفي نهاية المطاف، أصبح سافونارولا ضحيّة لكلٍّ من أخطائه السياسية وتحرّكات التحالف المناهض له، ليتمّ اعتقاله في مايو ١٤٩٨، وبعد تعرّضه للتعذيب، أُعدم في ٢٣ مايو من العام نفسه.

كان سافونارولا مولعًا بعالم الغرب في العصور الوسطى، حيث واجه

١. دورانت، ساوونا رولا و جمهوري، ١٦ – ١٨؛ ٢٠ – ٢٢.

بشــجاعة الفساد المستشري في عصر النهضة، لكنّه أغفل الحاجة إلى إصلاحات اقتصادية عادلة والتصدّي الفعلي للرأسماليّين. وقد كان لهذا الإغفال أثرٌ بالغٌ في تراجع الدعم الشعبي له، فخسر تأييد الجماهير الأكثر فقرًا، ووجد نفسه وحيدًا في مواجهة مؤامرات تحالف الرأسماليّين والإنسانيين، ما أدّى في النهاية إلى هزيمته.

السياسة الخارجية لدول إيطاليا: ولادة الدبلوماسية الحديثة

يمكن اعتبار إيطاليا عصر النهضة مهد «السياسة الحديثة»، ولا سيما السياسة الخارجية والدبلوماسية الناشئة عنها. فالسياسة الحديثة هي في جوهرها سياسة استكبارية تتحقق تحت هيمنة النفس الأمارة بالسوء. إنّها تجسيد للإرادة المتّجهة نحــو الهيمنة والمنفعيــة البشرية في مقــام النفس الأمارة. لقد ظهرت السياســة الحديثة وتجسّــدت واســتمرّت من خلال القهر والعنف الظالم، والمكر والخداع النابــع من الأهواء النفســية، والنزعــة العدوانيــة المحبّة للحروب. السياســة الخارجية للدول الحديثة، على غرار السياســة الحديثة عمومًا، تتّسم بطابع نفعي واستبدادي قائم على الخداع والهيمنة، وتحمل في جوهرها توجّهات استعمارية. كانــت النهضة الأوروبية مسرحًا لظهور أولى أســس الدبلوماســية الحديثة، بما في ذلك القواعد القانونية المنظمة لها، إلى جانب إجراءات مثل إرســال ســفراء دائمين، وإنشاء سفارات في الدول الأخرى، واعتماد أنظمة دبلوماسية وقانونية خاصة بالعلاقات الدولية. في السياسة الخارجية لدول عصر النهضة، تراجعت تدريجيًا الاعتبارات الأخلاقية والالتزامات المســيحية الكنسية، لتفسح المجال أمام دوافع جديدة قائمة على النزعة الســلطوية والطموحات النفعية للعلمانيين والإنسانيين، إضافة إلى تنامي الشــعور القومي، حيث أصبح مفهوم «المصلحة الوطنية» تدريجيًا معيارًا مركزيًا في صنع القرارات السياسية.

يقول ياكوب بوركهارت في وصفه لدول إيطاليا في عصر النهضة ولسياساتها الخارجية:

«إنّ حقيقة نشأة معظم هذه الدول - دول عصر النهضة الإيطالية - نتيجة للغصب والقوّة والغلبة في تاريخ حديث نسبيًّا، قد خلّفت آثارًا وخيمة في بنيتها السياسية، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي. وهكذا أصبحت إيطاليا مهدَ نمطٍ جديد من السياسة الخارجية، أخذ لاحقًا يتطوّر ليُشكّل الأساس لما يُعرف اليوم بالنظام القانوني الدولي. بلغت الواقعية والتجرد من أي تحيّز أو قيود أخلاقية في السياسة الخارجية درجة من الكمال جعلتها أحيانًا لا تخلو من الأناقة والعظمة، رغم أنّها في جوهرها بدت وكأنّها هاوية مظلمة ومخيفة.

إنّ تاريخ السياسة الخارجية الإيطالية خلال هذه الفترة هو قصّة مناورات وتحالفات وتسليح ورشاوى وخيانات ... فالدول جميعها كانت تنظر بعضها إلى بعض كخصوم، وتظلّ مستعدّة دومًا للقضاء على منافسيها بكل الأسلحة المتاحة لها ... كانت إيطاليا أوّل دولة تعتمد على جيش من المرتزقة، وهو نظام استلزم بطبيعة الحال إعادة هيكلة المؤسّسات العسكرية. كما كانت إيطاليا أوّل من استخدم الأسلحة النارية، وهو ما أدّى إلى تحوّل الحرب إلى ممارسة ذات طابع ديمقراطي مهني - ليس لأنّ القلاع الحصينة لم تكن قادرة على الصمود أمام هذه الأسلحة، بل لأنّ مهارة المهندسين وصانعي البنادق وخبراء المدفعية، ومعظمهم من أبناء الطبقات غير الأرستقراطية، أصبحت ذات أهمّية قصوى. كان الإيطاليّون عمومًا منفتحين على الابتكارات الجديدة، وسخروا كل إمكانيّاتهم لتطويرها، حتى أصبحوا معلِّمين لأوروبا في فنون الهجوم وبناء التحصينات. كانت إيطاليا أول دولة في الغرب شهدت انتشارًا واسعًا للمعرفة

العسكرية، حيث أصبح فن القيادة القتالية محل اهتمام بحد ذاته، بعيدًا عن أيّ اعتبارات أخرى. أدّى تداول السلطة المستمرّ في المدن-الدول الإيطالية، إلى جانب منهجية الجنرالات المرتزقة التي كانت تخلو من أيّ مشاعر أو اعتبارات إنسانية، إلى ترسيخ هذا النمط العسكري. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا التصور العقلاني للحروب كان في بعض الظروف سببًا لظهور أبشع مظاهر الوحشية»[1].

ظهرت السياسة الحديثة - كتجسيد لإرادة الإنسان الحديث الطامحة إلى الهيمنة والمنفعة - في مدن إيطاليا خلال عصر النهضة، حيث وُلدت في سياقٍ من الخداع والعنف والنزعة الحربية والاستعمار والاستغلال. كانت السياسة الحديثة تُعرِّف نفسها بأنّها خالية من أيّ التزام بالدين أو الروحانيات أو الأخلاق، حتى الأخلاق الكاثوليكية ذاتها. وقد تبنّت علنًا مبدأ السعي الاستكباري نحو السلطة كجوهر لها، بل وافتخرت بهذه النزعة الطاغوتية. منذ لحظة نشأتها وحتى اليوم، حملت السياسة الحديثة طابعًا ماكرًا وخادعًا وجوهرًا استبداديًا، حيث وُلدت في ظلّ الظلم والحروب والعنف الوحشي، واستمرّت طوال تاريخها متشبّعة بالخداع والتضليل. لقد تماهت السياسة الحديثة - بجميع أبعادها الداخلية والخارجية، سواء الدبلوماسية أو غير الدبلوماسية - مع هذا الطابع الاستكباري العنيف، بحيث أصبح الاستغلال والتوسّع جزءًا لا يتجزّأ من بنيتها.

حول الحركة الأدبية-الثقافية للإنسانيّين

شهدت بعض مدن إيطاليا، ولا سيما فلورنسا، في القرن الرابع عشر الميلادي نشوء حركة أدبية-ثقافية عُرفت لاحقًا باسم «الإنسانيّة». وقد تميّزت هذه الحركة بوجهين رئيسيّين واتّجهت نحو غاية أساسية واحدة. فعلى مستوى الاتّجاه العام،

١. بوركهارت، فرهنگ رنسانس در ايتاليا، ٩٧ - ٩٨؛ ١٠٥ - ٨.

كانت الحركة الإنسـانية تمهيدًا فكريًا وثقافيًا لظهور الحداثة وتجسـيدها المتزايد. ومن حيث بنيتها الداخلية، تجسّدت الحركة الإنسانية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبدرجة أقل في مطلع القرن السادس عشر، كحركة أدبية-ثقافية ذات بعديـن متداخلين: البُعد الأدبي، والبُعد النظري والفكري. وقد كان هذان البُعـدان - الأدبي والنظـري - متلازمين على نحو وثيق، إذ تشـاركا في التوجّه والمقصد والغاية. فالجهود الإنسانية في مجالَي الأدب والفكر كانت تسير في مسار واحد: التمهيد النظري والجمالي لظهور الحداثة، وتهيئة الشروط الضرورية لتفعيل وتوسـيع حضور الإنسـان الحديث بوصفه مركزًا للمعرفة والقيمة والمعنى، بما يعنيه ذلك من تهيئة الساحة لقيام العالم الحديث وتوسّعه الفكري والثقافي.

كان الكتّاب والشـعراء وأصحاب الرسائل والمخطوطات، وكل من شارك في أحد الأبعاد الأدبية أو النظرية للحركة الإنسـانية، يُعدّ - من منظور معيّن - أوائل ممثّلي الثقافة الحديثة، والمروّجين والمبشّرين والمؤسّسـين للحداثة الفكرية. ورغم انتشـار الإنسانيّين في عدّة مدن إيطالية، إلا أنّ فلورنسا كانت تمثّل المركز الرئيسي للحركة الإنسانية، سواء في بُعدها الأدبي أو النظري. ففي جانبها الأدبي، ركّـزت هذه الحركـة بالدرجة الأولى عـلى إحياء وإعادة كتابة وتقليد وتفسـير الأعمال اليونانيـة واللاتينية القديمة. ومن خلال البحث عن النصوص الأدبية والفلسفية القديمة، سعى الإنسانيّون إلى نشر المخطوطات المهجورة عن طريق نسخها (ثم لاحقًا عبر الطباعة)، مع العمل على استخراج وصياغة قواعد كتابية مستندة إلى النماذج اليونانية واللاتينية الكلاسيكية. اعتمد الأدباء الإنسانيون على إحياء النصوص القديمة لتهميش وتقليل الاهتمام بالموروث الكتابي الذي تركته الكنيسة الكاثوليكية في الغرب خلال العصور الوسطى.

كان العديد من الشعراء والأدباء الإنسانيين مرتبطين ثقافيًا بالتراث الوثني اليوناني-الروماني، غير أنّ اهتمامهم الرئيس كان منصبًّا على دراسة وإحياء وتكثير الأعمال الأدبية وغير الأدبية القديمة، مما جعلها وسيلة لإعادة قراءة التراث اليوناني-الروماني في سياق الحداثة والإنسانية. في الواقع، استند الأدباء والشعراء والكتّاب الإنسانيون إلى دراسة وتفسير الأعمال الأدبية اليونانية-الرومانية المكتوبة، من أجل إعادة قراءتها وتأطيرها وفق رؤية إنسانية-حداثية جديدة. وهكذا، ضمن البُعد الأدبي للحركة الإنسانية، أصبح التركيز على استعادة وتفسير النصوص اليونانية واللاتينية القديمة وسيلة لنشر مفاهيم الحداثة والثقافة والأدب الإنساني.

أما في جانبها النظري، فقد اعتمدت الحركة الإنسانية على بعض التعاليم القبالية، إلى جانب جوانب من الفلسفة في العصور الوسطى، وميراث الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. أعادت الحركة قراءة وتأويل هذا المزيج الفلسفي في سياق النزعة الذاتية للعقلانية الحديثة في الغرب، مما أفضى إلى توليف فكري عرف لاحقًا باسم الفلسفة والثقافة والتفكير الإنساني بصيغته الخاصة بعصر النهضة.

كان نفوذ الإنسانيين خلال عصر النهضة واسعًا وشاملًا، حيث انضمّ إليهم العديد من البابوات والكاردينالات، وغالبية الرأسماليّين، وعدد كبير من الحكّام والأمراء، إلى جانب التيّار الرئيس للشعراء والكتّاب والفنّانين في تلك الفترة.

في الواقع، يمكن اعتبار الحركة الإنسانية القوة الثقافية والأدبية السائدة والمهيمنة آنذاك، حيث ساهم الشعراء والأدباء والساسة والرأسماليون، وكذلك البابوات والكاردينالات الحداثيون، في تمهيد الطريق لظهور الحداثة الغربية وتوسّعها، مما أدّى إلى تبلور روح الفكر الإنساني.

يتحـدّث ويل ديورانت عن الحركـة الأدبية والثقافية للإنسـانيّين بنوع من الإعجاب والتعاطف، قائلًا:

«تحـت حكم أسرة ميديتـشي، أو في ظلّ نفوذها، اسـتطاع الإنسـانيّون أن يجذبوا عقول الإيطاليّين، محوّلين اهتمامهم من الدين إلى الفلسـفة، ومن السـماء إلى الأرض، ليكشفوا لجيل منبهر ثراء الفكر والفنّ الذي كان سائدًا في العصور الوثنية. هؤلاء الذين افتتنوا بالمعرفة أصبحوا يُعرفون منذ زمن أريوسـتو باسم «الإنسـانيين». ... خلال نصف القرن الذي سبق سـقوط القسطنطينية على يد العثمانيّين، سـافر بعض الإنسانيّين إلى اليونان للبحث والدراسة. كان من بينهم جيوفاني أوريسبا، الذي جلب معه ٢٣٨ مخطوطة إلى إيطاليا، شملت مسرحيات إسـخيلوس وسـوفوكليس. كذلـك أنقذ فرانشيسـكو فيليلفو مـن الدمار في القسطنطينية عام ١٤٢٧ كتبًا لهيرودوت، ثوقيديدس، بوليبيوس، ديموستيني، إسـخينيس، وأرسـطو، بالإضافة إلى سـبع مسرحيات من أعمال يوريبيديس. عندما عاد هؤلاء المستكشـفون الأدبيّون إلى إيطاليا، استُقبلوا استقبال الأبطال المنتصريـن، ودفع الأمـراء والقادة مبالـغ طائلة للحصول على جـزء من هذه الكنـوز الثقافية. وخلال ثلاثة قـرون، من عصر بتراركا إلى زمن تاسّـو، أقبل الناس بشغف شـديد على جمع المخطوطات، بحماس لا يقلّ عن حماسة جامعي الطوابع. كانت المخطوطات المكتشـفة تخضع لتحليل ونقد وتصحيح وتفسـير ضمن معركة ثقافية بين العلماء، من لورنزو ڤالا في نابولي إلى السير توماس مور في لنـدن. وبما أنّ هذه الأبحاث كانت تتطلّب في كثير من الأحيان الإلمام باللغة اليونانية، فقد بادرت إيطاليا – ومن بعدها فرنسا وإنجلترا وألمانيا – إلى استقدام معلّمين لتدريس اليونانية.

عندما جاء مانويل كريسولوراس إلى إيطاليا مبعوثًا من بيزنطة عام ١٣٩٧، أقنعته جامعة فلورنسا بالانضمام إلى هيئتها التدريسية كأستاذ للغة والأدب اليوناني. ومن بين تلاميذه كان براتشوليني ومارسوبيني. أما ليوناردو بروني، الذي كان يدرس القانون، فقد تخلّى عن هذا المجال بناءً على تشجيع خريسولوراس، واتّجه لدراسة اللغة اليونانية. يقول بروني: «كنت مأخوذًا بتدريسه إلى درجة أنّ أحلامي ليلاً كانت تعجّ بما تعلّمته منه خلال النهار». وفي عام ١٤٣٩، التقى اليونانيّون بالإيطاليّين في مجلس فلورنسا، وبعد انتهاء المجلس، بقي بيساريون، أسقف نيقية، في إيطاليا، ليكرّس جزءًا من وقته لتدريس اليونانية. وسرعان ما انتشر الاهتمام بهذه اللغة في المدن الأخرى، حيث بدأ بيساريون التدريس في روما، وثيودوروس غازا في مانتوا وفيرارا (١٤٤٤)، وديمتريوس خالقوكونديلس في بيروجيا (١٤٤٥)، وبادوفا وفلورنسا وميلانو (نحو ١٤٩٢-١٥١١)، بينما قام جون أرجيروبولوس بالتدريس في بادوفا (١٤٥١)، وفلورنسا (١٤٧١-١٤٧٦)، وروما (١٤٨٦-١٤٧١). كان أحد العلماء الذين فرّوا خلال سقوط عاصمة الإمبراطورية البيزنطية هو قسطنطين لاسكاريس، الذي قام بتدريس اللغة اليونانية في ميلانو (١٤٦٠-١٤٦٥)، ثم في نابولي ومسينا (١٤٦٦-١٥٠١). كان أول كتاب يُطبع باللغة اليونانية في إيطاليا عصر النهضة هو كتابه في قواعد اللغة. في فترة قصيرة، تمّت ترجمة الأعمال الكلاسيكية الأدبية والفلسفية اليونانية إلى اللاتينية، وكانت هذه الترجمات تتّسم بنضج ودقّة تفوق ما تمّ إنتاجه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. قام غوارينو دا فيرونا بترجمة أجزاء من كتابات سترابون وبلوتارخ إلى اللاتينية، وتولّى ترافرساري ترجمة أعمال ديوجينس اللايرتي، أما ڤالا فقد ترجم مؤلّفات

هيرودوت وثوقيديدس وإلياذة هوميروس، بينما ترجم بروتي أعمال بوليبيوس، وقام فيتشينو بترجمة مؤلّفات أفلاطون وأفلوطين.

كان الإنسانيّون ينظرون بإعجاب إلى الحرّية الفكرية التي سادت بين الإغريق في عصر سقراط[١]. كانوا يبجّلون هذه الحرية ويعتقدون أنّهم وجدوا في فلسفة أفلاطون – التي كانت مشوبة بتأثيرات أفلوطين – شكلًا من التفكير الباطني الذي يسمح لهم بالبقاء في إطار المسيحية، حتى لو لم يعودوا مؤمنين بها، إلا أنّهم لم يتخلّوا عن مشاعرهم تجاهها. وقد تأثّر كوزيمو دي ميديتشي ببلاغة جيميستوس بليثون وحماس تلاميذه في فلورنسا، ما دفعه إلى تأسيس أكاديمية أفلاطونية هناك لدراسة أعمال أفلاطون عام ١٤٤٥. بفضل دعمه السخي، شجّع كوزيمو دي ميديشي مارسيليو فيتشينو على تكريس نصف حياته لترجمة وتفسير أعمال أفلاطون. وبذلك، بدأت المدرسية، بعد أربعة قرون من الهيمنة على الفلسفة الغربية، تفقد نفوذها، وحلّ الحوار والمقالة محلّ الجدل المدرسي كأشكال رئيسيّة لعرض القضايا الفلسفية. ومع استعادة إيطاليا لتراثها الكلاسيكي تدريجيًّا، أصبحت اهتمامات الإنسانيّين بالثقافة اليونانية متراجعة أمام اعتزازهم بالأدب والفنون الرومانية القديمة. قاموا بإحياء اللغة اللاتينية بوصفها أداة التعبير الأدبي لعصرهم، وأعادوا تشكيل أسمائهم بصيغ لاتينية، كما منحوا المصطلحات اليومية والطقوس المسيحية طابعًا رومانيًا؛ فكانوا يطلقون على الله اسم «جوبيتر»، وعلى الإرادة الإلهية «فاتوم»، وعلى القديسين «ديفي»، وعلى الراهبات «فيستالس»، بينما أطلقوا على البابا لقب «بونتيفيكس

١. مع الإغفال عن حقيقة أنّ هذه الحرّية لم تكن متاحة سوى لقلّة من مالكي العبيد، الذين استطاعوا، بفضل القمع والاستغلال، توفير الوقت للنقاش والتأمل.

ماكسيموس». في النثر، اتّبعوا أسلوب شيشرون، بينما في الشعر اقتدوا بأساليب فرجيل وهوراس. ... توسّعت الحركة الإنسانية عبر أنحاء إيطاليا، لكن قبل أن تصل عائلة ميديتشي إلى منصب البابوية، كان معظم قادتها من طبقة المثقّفين في فلورنسا»[١].

في ضوء إحياء ونقل وتفسير ونشر الأعمال الأدبية اليونانية واللاتينية القديمة، والاهتمام بإراث ما قبل الغرب الوسيط، صاغ الإنسانيون في الواقع نمطًا من التفكير وأسلوبًا للحياة وأدبًا وفلسفة لا ينتمي إلى الغرب القديم ولا إلى الغرب الوسيط، بل كان لسان حال الغرب الحديث الذي كان يبدأ في الظهور. اعتمد المفكّرون الإنسانيّون على إرث الفلسفة القديمة، وخاصة الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وكذلك على فكرة وحدة الوجود الشائعة في أحد تيّارات فلسفة الغرب الوسيط، قدّموا قراءة إنسانية جديدة في صورة الفكر والثقافة والأدب في عصر النهضة. يمكن اعتبار فكر وأدب وثقافة عصر النهضة أول صورة نظرية لظهور الحداثة والغرب الحديث.

لم يكن الإنسانيّون في عصر النهضة ملحدين بالمعنى الدقيق، بل كانوا يحملون إيمانًا مسيحيًا، غير أنّهم لم يعودوا منتمين بشكل جوهري إلى المسيحية الكاثوليكية في العصور الوسطى، وإن كانوا حرصوا إلى حد ما على الحفاظ على المظاهر وتجنّب الصدام المباشر مع الكنيسة. في الواقع، اعتمد الإنسانيّون على إرث الفلسفة الأفلاطونية المحدثة وعناصر فكريّة أخرى، مستلهمين فكر اليونان وروما القديم، وبسبب انتمائهم الإنساني، تعاملوا مع المسيحية بوصفها أمرًا ثانويًا ضمن أفقهم الحداثي، دون التصريح بذلك صراحة. كان العديد من

١. دورانت، رنسانس، ٨٨ - ٩٢.

الإنسانيّين الإيطاليّين كهنةً أو كرادلة أو حتى بابوات، لكن ولاءهم الأساسي ظلّ للأفكار اليونانية-الرومانية القديمة التي أعادوا قراءتها في ضوء الحداثة. في بعض الحالات، لم يتحرّجوا من التعبير عن إعجابهم ببعض المعتقدات والطقوس الوثنية القديمة، لكنّهم مع ذلك لم يتبنّوا مشروعًا للمواجهة الصريحة مع الكنيسة الكاثوليكية أو لإحداث تحوّل رسمي فيها.

الشعراء والأدباء والمفكّرون والفنّانون الإنسانيّون في عصر النهضة كانوا بالدرجة الأولى ممثّلين وعشّاقاً أصيلين للعالم والعصر الحديث، وبدرجة ثانوية وجانبية كانوا يلتفتون أيضاً نحو المسيحية الكاثوليكية. لقد كانت الحداثة والإنسانية بالنسبة لهؤلاء الشعراء والأدباء والمفكّرين عالمهم وانتماءهم الأساسي، بينما كانت المسيحية الكاثوليكية بمثابة ذاكرة لم يرغبوا في نقدها علناً أو إزالتها من أذهانهم. على أيّ حال، فإن الشعراء والمفكّرين والأدباء والفنّانين في عصر النهضة (والذين كانت المدن الإيطالية، ولا سيّما فلورنسا، مركز تجمّعهم ونشاطهم الرئيسي) كانوا ممثّلين ومتحدّثين وروّاداً للعالم الحديث وللإنسانية السائدة فيه.

وربما يمكن اعتبار فرانشيسكو بتراركا رائداً للحركة الثقافية والأدبية الإنسانية في إيطاليا. وُلد بتراركا عام ١٣٠٤ في مدينة أريتسو من أبوين ينتميان أصلاً إلى فلورنسا. وكان بتراركا بوصفه شاعراً وأديباً من الناشطين في الحركة الإنسانية. وفي قصائده العاطفية التي نظمها باللغة الإيطالية، عبّر عن روح التعلّقات والارتباطات الحديثة ومزاجها. لقد تحدّث بتراركا بالفعل من منظور الإنسان الحديث، وبمنهج إنساني دنيوي وفق النسق النهضوي، فصوّر الحياة والعلاقات الإنسانية وانتقد الأخلاقيات السائدة في الكنيسة الكاثوليكية. كان

رينان يَعدُّ بترارك أولَ إنسانٍ حديثٍ خَلَقَ في الغرب اللاتيني إحساسًا رقيقًا ومفعمًا بالمحبّة تجاه الثقافة القديمة[١]. وقد حظي بترارکا بالتكريم عام ١٣٤١، حيث منحه مجلس شيوخ روما لقب «شاعر البلاط الروماني».

أما جيوفاني بوكاتشيو فهو أحد أبرز الإنسانيين في عصر النهضة. وترجع شهرته بالأساس إلى كتابته لمجموعة القصص المعروفة باسم «الديكاميرون». ففي هذا العمل تتجلّى لأول مرة المظاهر الأولى للفهم الإنساني الجديد للعلاقات والأخلاق وأحوال البشر. وُلد جيوفاني في باريس لكنّه نشأ في نابولي، وبرز في إيطاليا بوصفه واحدًا من أبرز وجوه الأدب الإنساني في عصر النهضة. وقد اشتهر بوكاتشيو على وجه الخصوص بأعماله النثرية المكتوبة بالإيطالية. ورغم أنّه لا يمكن اعتباره روائيًّا بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنّه يُعدّ بلا شك منطلق الأدب الإنساني الحديث الذي تطوّر لاحقًا إلى أعمال مثل «دون كيخوتي»، ومن بعدها روايات مثل «روبنسون كروزو» و«باميلا». تتميز موضوعات بوكاتشيو غالبًا بطابع غير أخلاقي، أما الجوّ الذي يسود أعماله فهو نمط من أنماط الذاتيّة الحديثة.

ليوناردو بروني هو أحد أبرز الإنسانيّين الإيطاليّين أيضًا. شغل منصب سكرتير لأربعة من البابوات، كما تولّى منصب أمين مجلس مدينة فلورنسا في الفترة ما بين عامي ١٤٢٧ و١٤٤٤. قام بروني بترجمة عدد كبير من رسائل أفلاطون إلى اللغة اللاتينية، كما ألّف تاريخًا لمدينة فلورنسا. ويُعد بروني أحد الدعاة والمروّجين البارزين للثقافة التجارية والربحية الحديثة، وقد كتب العديد من الرسائل في تعزيز ثقافة الرأسمالية. وكان في هذه الأعمال، ومن منظور مادي

١. م. ن، ٩.

بحت، يحثّ جمهوره على كسب الثروة وتكديس رأس المال، ويدعوهم إلى اتّباع نهج تجاري وربحي، ساعيًا بذلك إلى نشر رؤية دنيوية إنسانية تقوم على الربح.

ومن بين الإنسانيّين الإيطاليّين الآخرين في عصر النهضة كارلو مارسوبيني، الذي وُلد في أريتسو وتولّى لاحقًا منصب أمين مجلس مدينة فلورنسا. وكان مارسوبيني من أشدّ المُعجَبين والمُحتفين بثقافة الوثنية اليونانية والرومانية القديمة. ويبدو أنّه كان ذا ميول إلحادية واضحة، رغم أنّه شغل لبعض الوقت منصب سكرتير البابا في روما.

ومن هؤلاء الإنسانيين أيضًا بوجو براتشوليني، الذي وُلد عام ١٣٨٠ لأسرة فقيرة قرب أريتسو، لكنّه تلقّى تعليمه في فلورنسا. وفي الرابعة والعشرين من عمره عُيّن كاتبًا في أمانة البلاط البابوي في روما. ورغم أنّ البابا كلّفه بعدّة مهامّ، حتى إنّه ألّف رسالة دفاعًا عن عقائد الكنيسة الكاثوليكية نيابةً عن البابا مارتن الخامس، إلا أنّه في أعماقه لم يكن يؤمن إطلاقًا بالكنيسة، بل كان يسخر من المعتقدات المسيحية ويتهكّم عليها في مجالسه الخاصة مع زملائه في البلاط البابوي. وفي الخامسة والخمسين من عمره، تخلّى عن عشيقته التي أنجبت له أربعة عشر طفلاً وتزوّج فتاة في الثامنة عشرة. كان براتشوليني من أصدقاء البابا نيقولاوس الخامس (أحد البابوات الإنسانيين) والمقرّبين منه. وله عددٌ من المؤلّفات والرسائل، ومن بينها كتاب «تاريخ فلورنسا». وعندما بلغ السبعين، ألّف كتابًا بعنوان «اللطائف»، وصفه ويل ديورانت بأنّه «مجموعة من القصص والهجائيّات التي تتضمّن عبارات بذيئة». وقد ألّف براتشوليني رسالة بعنوان «في الطمع» عام ١٤٢٨، أشاد فيها بالحرص والجشع والانغماس في حياة شهوانية منقطعة عن الأخلاق، لا تبالي بالدين ولا بالروحانيات. ومن هذا المنطلق، يمكن

اعتبار براتشـوليني أحد المروّجين الأساسيين للثقافة والتوجّه الربحي اللذّي- العلماني الإنساني. وبالطبع فإنّ مدح الجشع والأنانية والترويج للمنهج التجاري الربحي لم يكن حكرًا على براتشوليني وليوناردو بروني في إيطاليا عصر النهضة، إذ إنّ هناك العديد من الإنسانيين الآخرين الذين قاموا، بصور مختلفة، بنشر ثقافة الرأسمالية الحديثة ومظاهرها النظرية والعملية. ومن الأمثلة البارزة على هؤلاء ليون باتيستا ألبيرتي، الذي كان من أشدّ مناصري مبدأ تراكم رأس المال والسعي وراء الربح، والمدافعين عن الحياة الربحية العلمانية الإنسانية، ومن أبرز الداعمين للمنهج الرأسمالي الحديث وما يصاحبه من أنانية وجشع.

ومن بين مفكّري النهضة الإنسانيين أيضًا لورينزو فالا، المولود عام ١٤٠٧م، والذي ألّف كتابًا بعنوان «اللغة اللاتينية الرفيعة» بهدف إحياء وترويج اللاتينية القديمة. كان فالا من جملة الكتّاب الذين سـعوا إلى تعزيز القيم وأسلوب الحياة الحداثـي، حيث عمل في مؤلّفاته عـلى نشر نمطٍ من اللذة العلمانية الإنسـانية، وانتقد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية بشدّة. عارض فالا الدين والفكر القائم على الوحي، وعدّ المسـيحية الكاثوليكية «غير عقلانية». كما ألّف فالا رسـالة لغوية شهيرة هاجم فيها ما يُعرف بوثيقة «هبة قسطنطين»، وهي الوثيقة التي استندت إليها الكنيسة الكاثوليكية في زعمها أنّ الإمبراطور المسيحي الروماني قسطنطين منح الكنيسة سلطة التدخّل في شـؤون السياسة والحُكم. وبالاستناد إلى الأدلّة اللغوية والتاريخية، أثبت فالا أنّ هذه الوثيقة مزوّرة وغير حقيقية. وبهذه الطريقة، سعى لورينزو فالا كإنسانيّ بارز إلى مواجهة الكنيسة الكاثوليكية، مسهِماً بذلك في تعزيز العلمانية الإنسانية. توفّي لورينزو فالا عام ١٤٥٧م.

مارسيلوس البادوي أحد الشخصيات المؤثّرة في التأسيس النظري للجوانب

السياسية للفكر الإنساني في عصر النهضة. وُلد مارسيليوس عام ١٢٧٠م، وتلقّى تعليمًا كنسيًا، لكنه سرعان ما أعرض عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، متّجهًا نحو صياغة نظرية التجارة والفردانية الحديثة. من أشهر مؤلّفاته كتابه «مدافع السِّلم». ويُعدّ مارسيليوس البادوي من أبرز روّاد صياغة الأسس النظرية للديمقراطية الإنسانية والبنية القانونية للفردانية الليبرالية والرأسمالية الحديثة، وكذلك الدولة العلمانية.

وقبل فترة قصيرة من مارسيليوس البادوي، كان هناك الحقوقي الفرنسي بيير دوبوا، الذي حاول وضع أُسس نظرية للدولة العلمانية الإنسانية الحديثة. عاش دوبوا في عهد الملك فيليب الرابع ملك فرنسا، وكانت لديه نزعة واضحة ضدّ الإسلام. ويُعتبر دوبوا أحد المنظّرين الأوائل للدولة المركزية الاستبدادية الحديثة وإلغاء الإقطاعية. كما عارض بشدّة تدخّل الكنيسة الكاثوليكية في الشؤون السياسية والقضائية. توفّي دوبوا عام ١٣٢١م.

يُعدّ مارسيليو فيتشينو من المفكّرين الإنسانيّين الإيطاليين البارزين والمؤثّرين، وقد لعب دورًا هامًّا في صياغة الفكر الإنساني وترويجه خلال عصر النهضة. كان فيتشينو على صلةٍ بالمحافل الماسونية المبكّرة، كما تأثّر بشدّة بالتعاليم القبّالية اليهودية. ويُعتبر من أهمّ الفلاسفة الذين أعادوا قراءة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة من منظور إنساني، وربطوها بأفكار القبّالة وبتصوّراتٍ علمانية عن وحدة الوجود. ومن أبرز مؤلفات فيتشينو كتابه «اللاهوت الأفلاطوني في خلود النفس». توفّي فيتشينو عام ١٤٩٩م.

ومن بين المفكرين البارزين الآخرين في عصر النهضة جيوفاني بيكو ديلّا ميراندولا، وهو تلميذ فيتشينو، والذي ارتبط مثله بالمحافل الماسونية المبكّرة

وبالقبّالة اليهودية. وُلد بيكو ديلّا ميراندولا في ٢٤ فبراير عام ١٤٦٣م في أسرة أرستقراطية. انتقل في سنّ الرابعة عشرة إلى مدينة بولونيا لدراسة العلوم الكنسية، ثم التقى في فلورنسا بمارسيليو فيتشينو، وانضمّ إلى حلقة الإنسانيين في أكاديمية فلورنسا. وعلى الرغم من حياته القصيرة، فإن تأثيره في بلورة الفكر الإنساني نظريًّا كان أكبر من تأثير معلّمه فيتشينو. ومن أشهر مؤلّفاته كتاب «خطاب في كرامة الإنسان»[1]، الذي كتبه عام ١٤٨٦م، ويُعدّ من أهمّ النصوص التي كُتبت في عصر النهضة حول الإنسان من منظورٍ إنساني، ويقدّم تفسيرًا مركزيًا عن العلاقة بين الإنسان والعالم قائمًا على التصوّر الذاتي والتمركز النفسي. وكان بيكو ديلّا ميراندولا، مثل كثير من إنسانيّي إيطاليا في عصر النهضة، متأثّرًا بالميراث اليهودي والقبّالي، وارتبطت آراؤه الإنسانية بعلاقاته بالمحافل السرّية اليهودية والماسونية المبكّرة، وبدعمٍ من المصرفيّين والتجار المرتبطين بها. توفّي بيكو ديلّا ميراندولا عام ١٤٩٤م.

كان بومبوناتزي، الأستاذ في جامعة بادوفا (التي كانت خاضعة لجمهورية البندقية منذ عام ١٤٠٥م)، أحد المفكّرين الإنسانيّين الذين حظوا بدعم جمهورية البندقية إلى جانب غيره من مُنظّري الفكر الإنساني العلماني. وقد أنكر بومبوناتزي تجرّد النفس وخلودها والحياة بعد الموت، مؤكّدًا أنّ على الإنسان أن يؤمن فقط بحياته المادّية، وأنّ الأخلاق والقانون يجب أن يكونا مركّزين بشكل أساسي على الطموحات الدنيوية. وكان يرى أنّ التشريع يجب أن يتمّ وفقًا لما أسماه «الخير العام»، مدافعًا بذلك عن نظام حُكم علماني وأخلاقيات علمانية منفصلة تمامًا عن الدين. ومن أشهر مؤلّفاته كتابه «خلود النفس» الذي صدر عام ١٥١٦م، وكان ينتمي إلى الجيل المتأخّر من الإنسانيين الإيطاليين.

---

1. Oratio de hominis dignitate

أما جان دو جاندون فهو مفكر فرنسي ذو ميول إنسانية واضحة، ويُعدّ من أوائل المنظّرين الذين طرحوا من منظور إنساني فكرة أنّ الإنسان وحده هو الذي يملك حقّ التشريع. وبهذا الطرح، ظهر دو جاندون بوصفه أحد الممهّدين الأوائل للديمقراطية الإنسانية. وقد أصدر كتابه «المواطنون وحدهم مشرِّعو الإنسانية»، وفي عام ١٣٢٧م تعرّض للتكفير من قِبل البابا[١].

تُعدّ رسالة «في اللذة» للورينزو فالا، وكتاب «في الطمع» لبراتشوليني، وكتاب «الإنسانية» لليوناردو بروني، وكتاب «في شأن الرجل النبيل» لكاستيليونه، و«رسالة في الأسرة» لليون باتيستا ألبيرتي، و«خطاب في كرامة الإنسان» لبيكو ديلا ميراندولا، والمسرحيات والقصائد الشعرية للودوفيكو أريوستو وإليو أنطونيو دي نبريخا، نماذجَ فحسب من الأعمال النظرية والأدبية والشعرية والنثرية التي كُتبت بالإيطالية والإسبانية، وأسهمت في نشر الفكر الإنساني وظهور الحداثة في شكلها النهضوي.

لم تكن الثقافة والأدب الإنسانيان في عصر النهضة مقتصرَين على الإيطاليين والإسبان فحسب، بل ظهرت كذلك بين الناطقين بالإنجليزية، ومن أبرزهم الفيلسوف الإنجليزي وليم الأوكامي (١٢٨٥-١٣٤٩)، والشاعر جيوفري تشوسر. وقد عارض الأوكامي التفسير الرسمي للكنيسة الكاثوليكية، وسعى لترويج أفكار مناهضة لتدخّلها في الشؤون الدنيوية. وكانت بعضُ جوانب آرائه وآراء صديقه ومفكّر عصره ميخائيل القاصني ترويجًا واضحًا للإنسانية علمانية؛ ولهذا السبب دعمهم الإمبراطور لودفيغ البافاري في مواجهة تهديدات البابا. وتوفّي أوكهام عام ١٣٤٩ بسبب إصابته بالطاعون.

---

١. برهيه، تاريخ فلسفه قرون وسطى و دوره تجدد، ٢٨١.

جيفري تشـوسر شـاعرٌ إنجليزي وُلد عام ١٣٢٣م، وقد تأثّر أدبيًا ببعض حكايات بوكاتشيو وأعماله الشعرية. ويُعدّ تشوسر أول كاتب بارز يدوّن أعمالًا أدبية قصصية (شعرية) باللغة الإنجليزية. من أشهر مؤلّفاته منظومة «حكايات كانتربري»، التي ظهرت فيها بشكل واضح وجوهٌ وجوانب من الروح الإنسانية في صورتها النهضوية.

المدارس والجامعات والأكاديميات المروّجة للإنسانية

كانت المدارس والجامعات والأكاديميات من أبرز المؤسّسات التي ساهمت في التنظير للفكر الإنسـاني ونشره في عصر النهضة. ومن أشهر هذه المؤسّسات «الأكاديمية الأفلاطونية» في فلورنسـا، التي أسّسـها كوزيمو دي ميديتشي عام ١٤٣٩م. وقد تولّى مارسـيليو فيتشينو رئاسـة هذه الأكاديمية، وكان بيكو ديلا ميراندولا من أبرز أعضائها وأكثرهم تأثيرًا. حظيت الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا برعاية أسرة ميديتشي وغيرها من كبار الرأسماليين الحداثيين في إيطاليا، وكانت إحدى أهم مراكز الشـبكات القبّالية والماسـونية المبكرة التي سعت إلى السيطرة نظريًا على مسار عصر النهضة والحركة الأدبية والثقافية الإنسانية.

لعبت الأكاديميـة الأفلاطونية في فلورنسـا دورًا محوريًا في صياغة الأفكار الحديثـة الأولى والترويج لها، كما قادت جهودَ المواجهة مع التعاليم الموروثة عن الكنيسـة الكاثوليكية. كانت هذه الأكاديمية تؤدّي دورًا أساسيًا في دعم وتجهيز الحلقات والجماعات المرتبطة بشـبكة الإنسـانيّين نظريًا، وذلك لخدمة أغراض الحركة الإنسـانية وتعزيز نفوذ الرأسماليّين الحداثيّين. وجوهر المشروع الفكري الذي كانت الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا تسعى إلى بلورته، يتمثّل في إعادة قراءة فلسـفة الأفلاطونية الحديثة والتراث العلماني لوحدة الوجود، مستندةً في

ذلـك إلى التعاليـم القبّالية. كما كانت هـذه الأكاديمية واحدةً مـن أبرز المراكز التعليمية (وربما الأساسـية) لأعضـاء المحافل والحلقات الماسـونية المبكّرة في إيطاليا القرن الخامس عشر. وكان من الداعمين الماليين المؤثّرين في تأسيس هذه الأكاديمية وتشـغيلها أسرة ميديتشي وعدد من الأسر الرأسمالية والمصرفيين في فلورنسا وبعض المناطق الأوروبية الأخرى.

وفي فرنسـا أيضًا، أُنشئت مؤسّسة مشابهة لترويج الثقافة والأدب الإنساني، عُرفت باسـم «كوليـج دو فرانس» (كلّية فرنسـا). في هذه الكلّيـة، إضافةً إلى تدريس اللغة الفرنسـية، كانـت اللغة العبرية تُدرَّس أيضًا. وقد شـكّلت كلّية فرنسا أحد المراكز المهمّة لنشر الأفكار الإنسانية خارج حدود إيطاليا. ومن أبرز أسـاتذتها والمؤسّسـين الأوائل لها كان غيوم بوديه (المولود عام ١٤٦٨ والمتوفّى عـام ١٥٤٠م). كان بوديه من الأدباء البارزين ومترجمًـا للأعمال اليونانية، كما ألّف عدة رسائل في مجال القانون، ويُعدّ من أبرز مؤيّدي ومروّجي الإنسانية في فرنسا أواخر القرن الخامس عشر. وقد تأسّست كلية فرنسا عام ١٥٣٠م.

سـعي الائتلاف بـين الجمعيّات السرّيـة والقبّاليّين والرأسـماليّين في عصر النهضة

الجوهـر العميـق للثقافة والأدب في عصر النهضة ذو طابـع قبّالي. إنّ البنية النظريـة للأومانيّة، في صيغتهـا المُدوّنة والمُبلورة، مسـتلهمة بدرجة عميقة من الرؤيـة القبّالية الخاصّة. وفي الواقع، إنّما عـبر الارتكاز إلى تعاليم القبّالة، جرى إعادة قراءة المزج بين الفلسفة الأفلاطونية المحدثة وميراث فلسفة وحدة الوجود في الغرب، ضمن أفق الحداثة، وتمّ بذلك تقديم سردية أومانيّة للإنسان بصيغة نظرية مكتملة.

في عصر النهضة، كانت إيطاليا وبعض المناطق الأخرى في أوروبا ساحةً نشطة لجمعيّات ومحافل سرّية قبّالية وماسونية مبكّرة، وكانت هذه المحافل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالرأسماليّين الحداثيّين من اليهود وغير اليهود (وغالبيّتهم يهود). كان هؤلاء الرأسماليّون المموّلين الأساسيّين للمحافل الماسونية المبكّرة وللأكاديميات الإنسانية والمفكّرين والكُتّاب الإنسانيين المتأثرين بالقبّالة. وكانت الجمعيات الماسونية المبكّرة بمثابة الذراع التنفيذي العملي السياسي والثقافي، بينما كان الكُتّاب والمفكّرون الإنسانيون هم الذراع النظري لتلك الجمعيات، مهمّتهم صياغة وتنظير الأهداف الحقيقيّة للرأسماليّين.

منذ تأسيس الجماعات السرية مثل «فرسان الهيكل» في عام ١١١٨م، وبالتزامن مع ازدياد أعداد مثل هذه التنظيمات، ظهرت مجموعة كبيرة من المحافل والشبكات السرية وشبه السرّية في إيطاليا وإسبانيا ومناطق أخرى من أوروبا. وقد خلقت هذه الشبكات تيّارًا فكريًا واجتماعيًا متّكئًا على النزعة الإنسانية، عمل بشكل واضح ومستتر على نشر اليهودية وعلى ترويج الأفكار الوثنية والمعادية للإسلام، والتشجيع على التوسّع العدواني تجاه الأراضي الإسلامية. وفي المجال النظري، استخدم هذا التيّار لغةً رمزية، معتمدًا على التعاليم اليهودية والتراث «الهرمسي» (تعاليم وثنية فرعونية قديمة استعادتها المحافل الماسونية المبكّرة والقبّالية الإنسانية في عصر النهضة)، وذلك لخدمة مصالح وأغراض الرأسماليّين الحداثيّين (الذين كانت غالبيّتهم من اليهود)، ولتعزيز طموحاتهم الاستعمارية والتوسّعية.

إنّ هذه الشبكة الواسعة من المحافل والمراكز (والتي يمكن، نظرًا لخصوصياتها الفكرية وأسسها اليهودية وأهدافها الإنسانية، وصفها بأنّها تيّارٌ

«شبه ماسوني» أو «ما قبل الماسونية») كان لها أثر بالغ وجوهري في تشكّل الأفكار الإنسانية وتربية جيل من الشعراء والكُتّاب والفلاسفة والرسامين والمتكلّمين والسياسيّين، أي بكلمة واحدة: دُعاة ومروّجو الإنسانية والحداثة. وقد ساهم هذا التيّار شبه الماسوني كذلك في توجيه مسار العديد من التحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ذات الطابع الحداثي في الغرب الحديث، سواء في عصر النهضة أو في المراحل اللاحقة لها. وقد كان طيفٌ واسع من رموز الغرب الحديث جزءًا من هذه الشبكات أو على ارتباط بها، بدءًا من ليوناردو دا فينشي وميكيلانجيلو وكبلر وبيكو ديلا ميراندولا ونيوتن، مرورًا بكريستوفر كولومبوس ومارتن لوثر وجان كالفن، ووصولًا إلى فلاسفة ما يُسمّى بعصر التنوير، وأمثال كروموبل ويان هوس ومونتسر، وغيرهم كثير ممّن انتموا إلى هذه الشبكات أو تعاونوا معها أو تأثّروا بها.

المحافل والشبكات الماسونية التي بدأت تتشكّل تدريجيًّا منذ أواخر القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر الميلادي، تحوّلت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى تيّار فكري-اجتماعي قويّ التأثير، انبثقت منه لاحقًا المحافل الماسونية الرسمية في القرن الثامن عشر، والتي توسّعت وتكاثرت في أشكالها ومراكزها[1].

وقد كانت هذه المحافل السرّية الماسونية المبكّرة نشطةً ومنظّمة في أنحاء متعدّدة من أوروبا، من بينها إيطاليا، والأراضي الألمانية الحالية، وفرنسا،

---

١. للاطلاع بشكل أعمق على المحافل والمراكز شبه الماسونية، والتعاليم القبّالية، ودورها في صياغة وتأسيس الأسس النظرية للفكر الإنساني، يُرجى الرجوع إلى:
زرشناس، شهريار، سنجش ايدئولوژی‌های مدرن، دفتر پژوهش‌های مؤسسه كيهان، طهران، ١٣٩٣هـ ش.

وستراسبورغ، وإنجلترا، واسكتلندا، وبعض المناطق الأخرى[١].

ومنذ منتصف القرن الحادي عشر، بدأ نفوذ الأوليغارشية اليهودية يتنامى تدريجيًّا، لا سيّما في بلاطات الملوك الأوروبيّين. ومن النصف الثاني من القرن ذاته، بدأت تظهر بوادر تحالف بين المحافل اليهودية الثرية (التي يمكن اعتبارها في الأجيال اللاحقة من أوائل الرأسماليّين الحداثيّين) والحكّام المسيحيّين الأوروبيّين. وقد أفضى هذا التحالف، في تطوّره التاريخي، إلى تشكّل «طبقة» نافذة من أصحاب المال والسلطة، أُطلق عليها توصيف «طبقة الحكّام الخفيّين في العالم». وتتّسم هذه الطبقة بطابع حداثي-رأسمالي، وتخضع في بنيتها الأساسية لهيمنة اليهودية الماسونية والشرائح العُليا من الأوليغارشية اليهودية، رغم وجود أجنحة غير يهودية قويّة إلى حدٍّ ما داخل هذه المنظومة الخفية للحُكم العالمي.

من اللافت أنّ انتشار التعاليم القبّالية والرمزية ذات الطابع الماسوني المبكّر، جاء متزامنًا مع صعود نشاط المحافل اليهودية العليا وتنامي نفوذها في بلاطات الملوك المسيحيّين في أوروبا. وفي هذا السياق، يكتب رينيه ألو: «قد يُعدّ القرن الحادي عشر الميلادي بداية انتشار هذا الأدب الرمزي»[٢].

وقد بدأ التحالف بين أوليغارشية اليهود والنخب الحاكمة الأوروبية منذ عهد ألفونسو الخامس (ملك ليون) في القرن الحادي عشر الميلادي، وتوسّع تدريجيًا بشكل متسارع. وقد بلغ نفوذ اليهود في البلاطات الملكية الأوروبية من القوّة والعمق ما جعل الطبقات العليا منهم - أي اليهود المرتبطين بالرأسمال والمحافل الماسونية والقبّالية - تتحوّل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى

١. آللو، اسرار انجمن‌هاي محرمانه، ٢٤٩ - ٥٠؛ ٢٥٤، ٢٦٠.
٢. م. ن، ٢٠٥ - ٦.

قـوّة مهيمنة وفاعلة بامتياز في عدد كبير من ممالك وسـلطات أوروبا، من مدن إيطاليا إلى الإمارات الألمانية ومملكة إسبانيا. وفي القرن الثالث عشر، كانت مدينة طليطلة من أبرز مراكز التجمّع اليهودي في إسـبانيا وأكثرها اكتظاظًا، إذ سكنها آنذاك نحو أربعة آلاف يهودي. وبفضل ما تمتّعوا به من أمن وازدهار، استقرّت فيها أوليغارشـية يهودية بالغة الثراء والنفوذ، تولّت قيادة الجماعات اليهودية في المنطقة. ومن أبرز العائلات التي شكّلت هذه الأوليغارشية في تلك المرحلة: آل لاوي، وآل فريزوئيل، وآل شوشن، وآل الفخّار، وآل صادوق.

في القـرون اللاحقة، شـغل أعضـاء هذه الأوليغارشـية مناصـب عليا في الجهاز المالي والسـياسي لحكومات الملوك المسيحيّين في شـبه الجزيرة الإيبيرية. ومن هذه المرحلـة بالتحديد، بدأت بقيادة مغامـر شرس يُدعى رودريغو دياز دي فيفار، المعروف باسم «إل سِـيد» (١٠٤٣-١٠٩٩م)، والذي أقام لفترة في بلاط ألفونسـو السـادس، مجموعةٌ تبدو في ظاهرها غير مرتبطة رسـميًّا بدولة قشـتالة، لكنّها شرعت في شنّ غاراتٍ وهجمات على الأراضي الإسلامية الغنيّة في قرطبة وبلنسـية. وقد شكّل تمويل اليهود لحملات النهب التي قادها إل سيد نقطةَ البداية لتحالف السـلطة المالية والمعلوماتية لليهود الرأسـماليّين مع القوّة السياسية والعسكرية لفرسـان الحروب الصليبية، وهو تحالف مشؤوم لا تزال آثاره مستمرّة حتى اليوم[١].

لقـد بدأ التحالف بين الملوك الأوروبيّين والأوليغارشـية اليهودية في القرن الحادي عشر، لكنّه ما لبث أن تطوّر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ليأخذ شـكل كيانٍ سـياسي-اقتصادي بالغ الخطورة، أُطلق عليه اسـم «طبقة الحكّام

١. شهبازي، زرسالاران يهودى وپارسى، استعمار بريتانيا وايران، ٢: ١٣، ١٦ - ١٧.

الخفيّين في العالم». ويمكن النظر إلى هذه الطبقة باعتبارها «هيئة القيادة العليا للاستكبار الحديث»، وهي هيئة بدأت منذ القرن الرابع عشر تضطلع بدور بالغ التأثير في مسار الأحداث والتطوّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية في الغرب الحديث. وتُعدّ هذه الطبقة بمثابة النواة المركزية للجهاز الإداري العالمي لنظام الهيمنة الاستكبارية الإنسانية، وهو النظام الذي تأسّس منذ القرن الرابع عشر مع نشوء طبقة الحكّام الخفيّين وبداية المشروع الاستعماري للرأسمالية العالمية، واستمرّ بالتوسّع حتى يومنا هذا. وقد دخل الغرب الحديث، منذ أكثر من قرن، في أزمة انحدارية عميقة، ما زال يعاني تبعاتها من تفاقم الأزمات وتصاعد التناقضات الداخلية.

النهضة، وطبقة الحُكّام العالميّين، ونظام الهيمنة الأوماني

عصر النهضة هو المرحلة التي برزت فيها طبقة الحكّام الخفيّين في العالم. هذه الطبقة التي تأسّست على مبدأ العمل السرّي، مثّلت ائتلافًا بين ممثّلي الرأسماليّين الحداثيّين (الذين كان أغلبهم من أصول يهودية)، وبين السياسيّين ورجال الدولة والمفكّرين والمنظّرين والأيديولوجيّين الذين كانوا جميعًا - في المجمل - من دعاة الفكر الإنساني والمدافعين عن مصالح الرأسمالية الحديثة. وفي عصر النهضة وحتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت هذه الطبقة تضمّ أيضًا عناصر من النبلاء الإقطاعيّين وبعض مراكز القوى التقليدية، غير أنّها، منذ القرن التاسع عشر، أصبحت مكرّسةً أكثر فأكثر لمجال اتّخاذ القرار ووضع السياسات داخل الأجنحة المختلفة للرأسمالية الحديثة ونخبها الفكرية والسياسية والأيديولوجية.

وقد خضعت هذه الطبقة، منذ نشأتها، لهيمنة الأوليغارشية اليهودية والرأسماليّين اليهود، وكذلك للرؤى الماسونية، ورغم التحوّلات البنيوية

وتغـيّرات ميزان القـوى داخلها، إلا أنّ السـيطرة الهيمنية للرأسـماليّين اليهود والأفـكار والتصوّرات الماسـونية عـلى طبقة الحـكّام الخفيّين ظلّت مسـتمرّة بدرجات متفاوتة، وبتشـدد أو خفوت بحسـب الأحوال. وقد سـعى الجناح اليهودي-الماسـوني المهيمن على هذه الطبقة منذ بدايـة عصر النهضة إلى تحقيق أهداف معادية للإسـلام، وعلى رأسـها احتلال فلسـطين، وشنّ الحروب ضدّ بلاد المسلمين، مستندًا في ذلك إلى تبريرات دينية-رمزية من قبيل نبوءات «نهاية الزمان» و«الأرض الموعودة» وسـواها من المعتقدات ذات الطابع الأسطوري والسـياسي. تظهر مؤشّرات هـذا النمط من التفكير في أعمال عددٍ من شـعراء ومفكّـري عـصر النهضة، من أمثال تاسـو وبيكو ديلا ميرانـدولا وبيير دوبوا ومارسـيليو فيتشـينو وغيرهم كثير. فمنذ انطلاق عـصر النهضة وحتى اليوم، لطالما كان هناك طيفٌ نافذ من الساسـة والمفكّريـن ورجال الدولة، إما منتمين إلى طبقة الحـكّام الخفيّين العالميّين، أو من وكلائهم، أو مـن المنظّرين والكتّاب المتأثّريـن باليهوديـة وتعاليمها. ففي عـصر النهضة، كان مفكّـرون مثل بيكو ديلا ميراندولا، ومارسـيليو فيتشـينو، ونقولاس الكوزاني، وليوناردو بروني، ولورنـزو فالا واقعين تحت تأثير تعاليم القبّـالاه اليهودية. بل إنّ بعض منظّري عصر النهضة، مثل يوحنان بن إسـحاق ألمانو، وفلاڤيوس ميتريداتس (واسمه الأصلي شموئيل بن نسـيم الفرج)، ويوهانس روشلين، وأشر لِمِلين، وإسحاق أبرابانيل، كانوا يهودًا بأنفسهم.

كما أنّ غالبيّة الأسر الرأسـمالية الحداثية في عصر النهضة كانت ذات أصول يهودية، ومن بينها: عائلات فريزوئيل، ولاوي، وإليعازر، وبن فنيزت، وملامد، وسانتشِز، ومِندِس، وفوغر. وقد بلغت أنشطة هذه العائلات في مجال الاستغلال

والربا في مطلع عصر النهضة حدًّا كبيرًا من الشدّة، ما اضطر الكنيسة الكاثوليكية إلى إطلاق موجة ضدّ الربا ومحاولة كبح جماحه.

«في القرن الثالث عشر، اتّسع نشاط اليهود المالي في أوروبا إلى حدٍّ دفع الكنيسة الكاثوليكية، منذ عام ١٢٣٠م، إلى إطلاق موجة معارضة شديدة ضدّ الربا، أدّت إلى حملة واسعة ضدّ المرابين ... وكان الملوك والحكّام المحلّيون في أوروبا يرون في الربا اليهودي مصدرًا غنيًّا لتمويل مواردهم، فكانوا يدعمونه علنًا أو ضمنيًا»[١].

ومنذ نشأته في عصر النهضة، سعى «طبقة الحكّام الخفيّين في العالم» إلى إنشاء نظام عالمي يقوم على مركزية الاستكبار الغربي الحديث، في إطار منظومة الرأسمالية العالمية، بحيث يتولّى هو نفسه إدارة هذا النظام الإنساني السلطوي من وراء الستار، بزعامة الأنظمة الرأسمالية الاستعمارية الغربية.

ويمكن في خلاصة الأمر تحديد السمات الأساسية لـ«طبقة الحكّام الخفيّين في العالم» على النحو الآتي:

١. نشأت هذه الطبقة نحو القرن الرابع عشر الميلادي، رغم أنّ جذور ظهورها تعود إلى القرن الحادي عشر، حيث بدأ التحالف بين الأوليغارشية اليهودية والحكّام الأوروبيّين، وبرز دور الطبقة العليا من اليهود في السياسة الأوروبية.

٢. تكوّن طبقة الحكّام العالميّين منذ ولادته من طيفٍ من المحافل والجمعيات الماسونية المبكّرة، والرأسماليّين الحداثيّين من اليهود وغير اليهود، والمفكّرين والمنظّرين الإنسانيّين من إيطاليا وغيرها. ورغم أنّ مدى نفوذ هذه الطبقة وتأثيرها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يكن محصورًا في المدن الإيطالية،

---

١. م. ن، ١١٠ - ١١.

إلا أنّ إيطاليا في عصر النهضة يمكن اعتبارها مهد نشأتها، وإن كانت مراكز نشاطها الرئيسية قد تغيّرت في المراحل اللاحقة.

٣. عندما نتحدّث عن «طبقة الحكّام الخفيّين في العالم»، فإنّنا نشير إلى مجموعة منظّمة ومتماسكة وذكية (لكنّها صغيرة وسرّية) تتكوّن من رأسماليّين وساسة ومديرين ورجال دولة وكتّاب وشعراء وفنّانين ومنظّرين ومفكّرين، يشتركون جميعًا في انتمائهم إلى عالم الإنسانيّة والحداثة، وفي التزامهم بعلاقات الرأسمالية الحديثة وبالأهداف الاستعمارية والانتهازية والهيمنية ذات الطابع العولمي. هؤلاء يشكّلون بنيةً بالغة النفوذ والقوّة، ويعملون بصورة منظّمة على تحقيق مصالحهم وأهدافهم على مستوى العالم بأسره، وفي نطاق كوكب الأرض برمّته.

٤. منذ ظهوره في عصر النهضة، سعت طبقة الحكّام الخفيّين العالميّين إلى تأسيس نظام عالمي استكباري، رأسمالي، حداثي، يكون هي مركزه ومحوره ومديرته الفعلية. وفي هذا النظام العالمي المنشود، تتبوّأ القوى والدول والجماعات المكوّنة لهذه الطبقة موقع الدول المركزية. وتعمل هذه الدول، من خلال استغلال اليد العاملة ونهب الموارد الطبيعية للشعوب والمناطق الأخرى - أي تلك التي أُخضعت بالفعل، أو تسعى هذه الطبقة لإخضاعها ضمن منظومة النظام العالمي للهيمنة - على تعزيز قوّتها الذاتية باستمرار، بينما تبقى الشعوب الواقعة تحت سيطرتها عرضةً دائمًا للاستغلال والاضطهاد والاستعمار. منذ عصر النهضة، اعتمدت «طبقة الحكّام الخفيّين في العالم» على تفوّقها التقني (الذي تجسّد آنذاك في البارود والأسلحة النارية)، وتحركت بدوافع الجشع الرأسمالي العلماني-الإنساني الحديث، لتنطلق - تحت عناوين ظاهرية مثل التجارة والاكتشافات وما شابهها - نحو إخضاع الشعوب والمناطق عبر الغزو والحروب والمذابح،

مؤسِّسةً وموسِّعةً نظامًا عالميًّا استكباريًّا للهيمنة. ويمكن القول إنّ عصر النهضة هو بداية الحركة الاستعمارية لـ«طبقة الحكّام الخفيين»، الرامية إلى إقامة نظام عالمي شامل يُخضع جميع الشعوب والأقوام على سطح الأرض.

٥. في عصر النهضة، تكوّنت هذه الطبقة من الرأسماليّين اليهود، ورأسماليّين غير يهود، وبعض رجال الدولة الأرستقراطيّين النافذين، وممثّلين فكريّين وفنّيّين للتيّار الإنساني، بالإضافة إلى محافل ماسونية مبكرة. وقد كانت الغلبة والهيمنة آنذاك لجناح الماسونيّين-اليهود. ورغم التبدّلات البنيوية العديدة التي طرأت على تركيبة الطبقة الخفية منذ عصر النهضة وحتى اليوم، إلا أنّ الهيمنة الرمزية والفعلية للجناح اليهودي-الماسوني ظلّت قائمة ومتواصلة.

٦. في القرن العشرين، ظهرت مؤشّرات كثيرة على وجود تناقضات وصراعات داخلية في صفوف طبقة الحكّام الخفيين وفي النظام العالمي الاستكباري ككل. فقد دخل هذا النظام، تزامنًا مع دخول الغرب الحديث في مرحلة أزمة انحدارية، في دوامة من التصدّع والتناقضات البنيوية، ما أدّى إلى تعمّق الانقسامات، واشتداد التوترات الداخلية، واتّساع دائرة النزاع والتنافس بين الأجنحة المختلفة داخل هذه الطبقة.

٣. أوروبا الغربية في عصر النهضة

كانت أوروبا الغربية خلال عصر النهضة تشهد تحوّلات عميقة وشاملة. فقد بدأ نظام الإقطاع القائم على الثيوسانترية بالانهيار، بينما كانت ملامح العالم الغربي الحديث، في مظاهره وبُناه وسلوكياته، في طور التشكّل والظهور. في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وإسبانيا، برزت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أرضيّات وشروط تاريخية مهّدت لولادة أولى الدول الحديثة ذات الطابع

المركزي الموحّد.

وإن لم يكــن منــاخ النهضــة في أراضي أوروبا الغربية بنفــس درجة الحيوية والازدهار الذي عرفته بعض مدن إيطاليا، فإنّ روح الإنسانيّة ومظاهر الرأسمالية الحديثة كانــت قد بدأت بالتجلّي والفعليّة أيضًا في المــدن الناطقة بالألمانية، وفي فرنسا وإنجلترا وإسبانيا.

وفي مختلف مدن ومناطق أوروبا الغربية والشــمالية، كان التجّار وأصحاب رؤوس الأمــوال التجاريــة الحديثــة قد بدأوا بالــبروز، وبدأ الرأســماليون من أصحاب المانيفاكتورات يُجسِّــدون أولى صور الرأســمالية الصناعية. وقد بدأت النزعــة الربحية والتجارية، والأخلاقيات الحداثية، بالظهور واكتســاب القوّة، فكان بالإمكان رؤية ملامح العالم الغربي الحديث من خلال الفقر والاســتغلال الــذي كان يعانيه العمّال الحضريون الجدد من جهة، ومن جهة أخرى من خلال ظلم الرأســماليّين اليهود وغير اليهــود، وتحرّكات الصيارفــة والمرابين، وبروز الفوارق الطبقية المتسارعة.

الملكية المطلقة للويس الحادي عشر وبداية تشكّل أول «دولة قومية» حديثة في فرنسا

في فرنســا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ســاهمت عوامل عدّة في الدفع نحو التغيير السياسي والاجتماعي، من أبرزها: تنامي نفوذ المدن، وازدياد ثــروة ونفوذ التجّار والمرابين والصيارفة، واتّســاع نطــاق المعاملات التجارية، وانتعاش الاقتصــاد النقدي. وقد أدّت هذه التحوّلات، من جهة، إلى توســيع روابط التواصل بين مختلــف مناطق البلاد، ومن جهة أخرى، جعلت من البنية القانونية-السياسية اللامركزية القائمة على النظام الإقطاعي (الملوكي الطوائفي)

عقبةً ظاهرة في وجه الديناميكية المتسارعة لرأس المال، فتولّدت ضرورة التغيير بوصفها مطلبًا ملحًّا.

في القرن الرابع عشر الميلادي، باتت الظروف في فرنسا مهيّأة أكثر من أيّ وقت مضى لصعود سلطة الملك وتشكيل دولة مركزية حديثة واستبدادية تتمحور حول شخصه. فقد كانت ممتلكات الملك تقع في أنشط المراكز التجارية، وتحوّلت باريس تدريجيًّا إلى أعظم مركز حرفي وتجاري في شمال شرق فرنسا. وكان الحرفيون والتجّار يطالبون الملك بفرض الأمن ووضع حدٍّ لقطّاع الطرق المسلّحين، وإنهاء النزاعات الداخلية المستمرّة بين الإقطاعيّين. وقدّم التجّار وأصحاب المانيفاكتورات والمهنيّون المال للملك، لمساعدته في كبح جماح الإقطاعيّين الكبار. أما النبلاء الإقطاعيّون الصغار (كالكونتات والدوقات ونحوهم)، فقد سعوا بدورهم للاستعانة بالملك في مواجهة تمرّدات الأقنان والفلّاحين الخاضعين لهم. وبهذا، تمكّن الملك – خاصة منذ مطلع القرن الرابع عشر، مع تولّي فيليب الرابع من أسرة الكابيتيين العرش الفرنسي – من أن يجد له حلفاء في أوساط سكّان المدن والنبلاء الإقطاعيّين الصغار، فبدأ بمحاولة إنشاء دولة متماسكة ومركزية.

كان العالم الغربي الحديث، في لحظة تَشكُّله الأولى خلال عصر النهضة، واقعًا في وضعٍ لم يكن يُتيح له سبيلًا للتوسّع إلا من خلال تعزيز نفوذ الرأسماليّين، وترسيخ المظاهر الثقافية والاجتماعية الحديثة، عبر قيام دولة مركزية استبدادية. وفي فرنسا وإنجلترا وإسبانيا في القرن الخامس عشر، نشأت وتبلورت أنظمة ملكية مركزية، عمدت إلى توحيد النظام القانوني، وتوفير الأمن على الطرق، ودعم الرأسماليّين المحليّين، وسحق انتفاضات المحرومين والفقراء في المدن والأرياف، وشنّ الحروب الاستعمارية والتوسّعية، وتقييد نفوذ الكنيسة، ومحاربة

الإقطاع، والمساهمة في تأسيس التعليم الحديث العلماني، وتكوين جيوش نظامية محترفة، فضلًا عن التدخّلات المتقطّعة في شؤون النقابات والمصارف. وقد أسهمت هذه السياسات في تهيئة الشروط لتراكم الرساميل، وضمان مصالح الرأسماليّين الجدد، وتمهيد الطريق لتفعيل الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والسياسية للحداثة الغربية. ويمكن اعتبار هذه الأنظمة الملكية المركزية الاستبدادية أولى صور الدولة الحديثة. وإن كان ملوك هذه الأنظمة وحكّامها ورجالات دولتها ليسوا جميعًا من الحداثيّين الواعين بدورهم التاريخي، بل ربما لم يدرك كثير منهم الدور الذي كانوا يؤدّونه، وإن كانت في داخل هذه الأنظمة عناصر من النبلاء الإقطاعيّين وتقاليدهم، بل وحتى مكوّنات كاثوليكية راسخة، إلا أنّه يمكن، في نظرة شاملة، القول بأنّ هذه الدول كانت تُمثّل كتلًا سلطوية تحرّكت - بوعي أو من دونه - في اتّجاه المقاصد الحداثية. وبهذا الاعتبار، فإنّها تُعدّ أولى الدول ذات التوجّه الحداثي، وقد أدّت دورًا شديد الأهمية والحسم في فتح الطريق نحو الأفق التاريخي للغرب الحديث.

كان عصر النهضة في العالم الغربي الحديث - وخاصة في القرن الخامس عشر - لحظة ولادة وتشكّل وصعود الحكومات المركزية المستبدّة، والتي تُعدّ أولى صور الدولة الحديثة. وفي هذا السياق، حكم فيليب الرابع فرنسا بين عامي ١٢٨٥ و١٣١٤م، وكان حفيد لويس الحادي عشر. وقد احتاج فيليب إلى موارد مالية إضافية لتمويل الحروب التي شنّها، فقام في عام ١٣٠٢م بإنشاء ما عُرف بـ«مجلس الممثّلين» (الاتا جنرو). وللمرة الأولى، دعا فيليب إلى هذا المجلس ممثّلين عن الرأسماليين من سكّان المدن.

وهكذا تشكّل مجلس الممثّلين من ثلاث فئات من الممثّلين: رجال الدين من الكنيسة، والنبلاء الإقطاعيون، والرأسماليون الحضريون. وكان هذا التشكيل

دلالة واضحة على تزايد نفوذ الرأسماليّين في فرنسا. وكانت المهمة الأساسية لهذا المجلس هي اتّخاذ القرار بشأن الضرائب. وقد وافق الممثّلون على رفع الضرائب، لكنّهم طالبوا في المقابل بأن يمنحهم الملك بعض الامتيازات. وقد شهدت جلسات المجلس خلافات حادّة بين ممثّلي الرأسماليّين الحضريّين من جهة، وممثّلي الإقطاعيّين والكنيسة من جهة أخرى.

وفي عام ١٣٣٧م اندلعت حرب دموية وطويلة بين إنجلترا وفرنسا، عُرفت باسم «حرب المئة عام»، رغم أنّها امتدّت، مع فترات انقطاع، لأكثر من قرن. وقد انتهت هذه الحرب في عام ١٤٥٣م، وخلفت آثارًا عميقة على الأوضاع السياسية والاقتصادية في كلا البلدين.

«ما الأسباب التي أدّت إلى نشوب هذه الحرب؟ لقد كان ملوك إنجلترا يسعون إلى استعادة ممتلكاتهم السابقة في فرنسا. كما أنّ التنافس القائم حول كونتية الفلاندر – بما تملكه من مدن مزدهرة وغنية – زاد من تأجيج العداء التاريخي بين البلدين. وقد حاول ملوك فرنسا، بمحاولات يائسة، إخضاع الفلاندر، لكنّهم لم يفلحوا في ذلك، لا سيّما وأنّ سكّان مدن الفلاندر كانوا يحظون بدعم إنجلترا، التي كانت تجمعها بهم علاقات تجارية وثيقة. وكان ملك إنجلترا ذا قرابة نسب بملك فرنسا، وقد استغلّ الخلافات القائمة بين الإقطاعيّين الفرنسيّين ذريعةً للتدخّل والسعي إلى الاستيلاء على العرش الفرنسي، مما فجّر الصراع العسكري بين الطرفين. وكانت الجيوش الإنجليزية أكثر تنظيمًا من نظيرتها الفرنسية. وقد اندلعت الحرب على الأراضي الفرنسية، وسرعان ما تجرّع الإقطاعيون الفرنسيون مرارة الهزيمة، وتلقّوا سلسلة من الضربات القاسية. في عام ١٣٥٦م، وقعت معركة شرسة قرب مدينة بواتييه، الواقعة جنوب نهر اللوار. وتكبّد الفرنسيون

هزيمة فادحة في هذه المعركة، حيث أُسر عدد من كبار النبلاء الأثرياء، بل حتى الملك نفسه وقع في الأسر. وبعد معركة بواتييه، أصبحت فرنسا في وضع بائس، وكان المحتلّون يحتفلون في شمال البلاد وجنوبها.

وكان الظلم الإقطاعي - حتى قبل الحرب - يتفاقم في فرنسا تزامنًا مع نموّ المدن والتجارة. وقد أثقل كاهل الفلّاحين ما فرض عليهم من ضرائب باهظة وتكاليف مرهقة، جعلت حياتهم لا تُطاق. وبما أنّ معظم الفلّاحين كانوا يسمّون أبناءهم بـ«جاك»، فقد دأب النبلاء على مناداة الفلاحين بهذا الاسم من باب التحقير. فثار الفلّاحون في انتفاضة تاريخية عُرفت باسم «جاكري»»[1].

بدأت انتفاضة الفلاحين (الجاكريّين) في مايو من عام ١٣٥٨م من شمال شرقي فرنسا، وساندها أيضًا فقراء المدن والشرائح الدنيا في المجتمع. تولّى قيادة الانتفاضة فلاح يُدعى غيوم كال، وقد دبّ الذعر في نفوس النبلاء الإقطاعيّين، فراحوا يفرّون من أملاكهم وأراضيهم خوفًا من تمرّد الفلّاحين. ومع اشتداد الثورة، تدخلت القوّات الإنجليزية لمساعدة النبلاء الفرنسيّين، وتمكّن هؤلاء في النهاية، بالخداع والمكر، من اعتقال غيوم كال وقتله. وبفقدان قائدهم، وجد الفلّاحون أنفسهم في موقف ضعف، فهُزموا وأُخمدت انتفاضة الجاكريين.

لكنّ هذه الانتفاضة، رغم هزيمتها، لم تخلُ من تأثير. إذ دفع الخوف من تكرار التمرّد النبلاءَ الفرنسيين إلى القبول بتحرير الأقنان، مع أنّ الفلاحين كانوا مُلزمين بدفع مبالغ باهظة مقابل نيل حريّتهم. ومن استطاع أن يشتري حرّيته من الفلّاحين، كان بإمكانه مغادرة ملكية الإقطاعي، غير أنّ الأرض بقيت ملكًا للإقطاعي، ومن أراد استغلالها زراعيًّا، كان عليه دفع حصة من الإنتاج - أو ما يُعرف بـ«الإيجار الإقطاعي» - لمالك الأرض.

---

١. آگيبالووا ودنسكوى، تاريخ سده‌هاى ميانه، ١٣٣ - ٣٦.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر، تحسّـن موقع فرنسا في حربها ضد إنجلترا، وحقّقت بعض النجاحات. وقد استخدم جيشا فرنسا وإنجلترا المدفعية في المعـارك خلال النصف الثاني من القرن الرابع عـشر. وفي العقود الأولى من القرن الخامس عشر، برزت فتاة ريفية تُدعى جان دارك، وقد حظيت بتأثير كبير بين الجنود الفرنسـيين، ولعبت دورًا محوريًّا في تحرير منطقة أورليان من سيطرة الإنجليز. وكانت جان دارك تدّعي أنّها تتلقّى رسـائل مـن العالم الغيبي، وأنّها مكلّفة برسالة إلهية لإنقاذ فرنسا والقتال من أجلها.

أسـهم حضور جـان دارك في تعزيـز دور الفلاحين الفرنسـيين في مقاومة الإنجليز، إذ أضفى وجودها وزنًا جديدًا للفئات الشعبية في ساحة القتال. وقد حقّقت القوات الفرنسـية، بقيادة جان دارك، انتصارات كبيرة، الأمر الذي أثار قلق النبلاء الإقطاعيّين الفرنسيّين. لم يكونوا يثقون بها، بل كانوا يخشون أن يؤدّي تصاعد نفوذها إلى خروج زمام الحرب من أيديهم، وأن يتمكّن الفلّاحون الفقراء ومتوسّطو الحال من فرض حضورهم والتأثير في مجريات الأحداث.

ولهذا السـبب، دبّر الإقطاعيون الفرنسـيون مؤامرة أفضت إلى وقوع جان دارك في قبضة القوّات الإنجليزية. وبعد اعتقالها، أخضعها الإنجليز للتعذيب، ثم أعدموها حرقًا وهي حيّة.

انتهـت حرب المئة عام في عام ١٤٥٣م، وتمكّنت فرنسـا من اسـتعادة جميع أراضيهـا مـن الإنجليز، باسـتثناء منطقة صغـيرة تُدعى كاليه. وقـد أدّى هذا الانتصار إلى تعزيز سـلطة الملك في فرنسـا وتثبيتها. وكان شارل السابع، الذي حكم فرنسـا من ١٤٢٢م إلى ١٤٦١م، قد أنشأ جيشًا دائمًا من المرتزقة، وفرض نظامًا ضريبيًّا دائمًا، وهذان العاملان أسهما في ترسيخ قوة الملك وتوسيع نفوذه.

تولّى لويس الحادي عشر العرش الفرنسي عام ١٤٦١م خلفًا لشارل السابع. وقد عُرف لويس بشخصيّته الماكرة ودهائه السياسي. سعى لويس الحادي عشر إلى إنشاء دولة مركزية موحّدة من خلال إضعاف النبلاء الإقطاعيّين وسحق سلطتهم. ففي العقود والقرون السابقة، كانت فرنسا تعاني من التمزّق بسبب التقسيمات الإقطاعية وسيطرة الدوقات والكونتات والزعامات المحلّية. فمنذ سقوط الإمبراطورية الكارولنجية بقيادة شارلمان، كانت الأراضي الفرنسية قد انقسمت فعليًّا إلى مناطق نفوذ إقطاعي كبيرة، وكل منطقة بدورها كانت تتفرّع إلى وحدات أصغر تحكمها طبقات النبلاء المحليّين. وكما أشرنا سابقًا، فإنّ التطوّرات التي جرت بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر قد مهّدت تدريجيًّا لظهور دولة قومية مركزية. كما أسهمت حرب المئة عام، والإصلاحات التي قام بها شارل السابع، في تهيئة الأرضية السياسية والإدارية لظهور سلطة ملكية مطلقة تنسجم مع آفاق الحداثة السياسية القادمة. وبذلك، ومع اعتلاء لويس الحادي عشر العرش، تكون فرنسا قد شهدت فعليًا قيام أول دولة قومية بالمعنى الحديث للكلمة.

كانت أوّل صور الدولة الحديثة هي الدول القومية المركزية ذات الحكم المطلق، سواء كانت ملكية أو جمهورية، وقد ظهرت في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر في بعض مدن إيطاليا، وكذلك في فرنسا وإنجلترا وإسبانيا. وقد أدّت هذه الدول دورًا بالغ الأهمية في تمهيد الطريق أمام توسّع العالم الغربي الحديث، وفي ترسيخ بعض خصائصه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ومنذ أواخر القرن السابع عشر، بدأ نموذج الدول المطلقة ذات الطابع النهضوي (التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر) يتراجع تدريجيًّا،

ليحلّ محلّه نظام الحكم الليبرالي الحديث. ورغم أنّ الأنظمة الليبرالية كانت أيضًا سلطوية واستبدادية بطريقتها الخاصّة، إلا أنها استبدلت نموذج الحكم الفردي المباشر بأنموذج جديد من الاستبداد المؤسّسي، أي استبداد النظام وهيمنة البُنى الاجتماعية الكلّية.

وفي مساره نحو تأسيس دولة قومية مركزية ذات توجّه حداثي في فرنسا، واجه لويس الحادي عشر تمرّدات متكررة من قبل القوى الإقطاعية. وقد قاد هذه القوى المعادية للتوجّه الحداثي للملكية الفرنسية دوقُ بورغونيا، الذي كان يُعرف بلقب «شارل الجريء». وقد خاض شارل الجريء حربًا عنيفة ضد لويس الحادي عشر، إلا أنّ الأخير تمكّن في النهاية من هزيمته عام ١٤٧٧م، ما أدّى إلى تفكّك دوقية بورغونيا، واستولى لويس على جزء من أراضيها، وامتدّ حكم لويس الحادي عشر من عام ١٤٦١م إلى عام ١٤٨٣م.

«في أواخر القرن الخامس عشر، توحّدت فرنسا اقتصاديًّا وسياسيًا. فقد اندمجت مناطق متفرّقة، كانت تتّسم بالانقسام الإقطاعي وتعيش كلٌّ منها وفق نمطها الخاص، ضمن كيان واحد. وفي ظلّ تعدّد اللهجات المحلّية، تطوّرت اللغة الفرنسية كلغة جامعة على امتداد البلاد، ونشأت ثقافة مشتركة. في السابق، كان يُطلق وصف «الفرنسيّين» فقط على سكّان شمال فرنسا، في حين لم يكن البورغنديون وسكّان بروفانس والبرطانيون والغاسكون يعدّون أنفسهم فرنسيّين، أما الآن، فقد بدأت الأمّة الفرنسية بالتشكّل. المناطق الإقطاعية التي كانت منفصلة اقتصاديًا وسياسيًا، أسّست في أواخر القرن الخامس عشر دولةً قومية»[١].

١. كاسمينكي، تاريخ قرون وسطى، ١٢٥.

وهكذا دخلت فرنسا، في نهاية القرن الخامس عشر وفي العقود الأخيرة من عصر النهضة، إلى معترك التنافسات والنزاعات القائمة على المنفعة والانتهازية، وإلى دوائر الاستغلال الرأسمالي والجشع والاعتداءات الاستعمارية.

ظهور الدولة القومية الاستبدادية ذات التوجّه الحداثي في إنجلترا

في عام ١٠٦٦ للميلاد، استولى دوق نورماندي على إنجلترا، وقد عُرف في تاريخها باسم ويليام الفاتح. قام ويليام بتوزيع الأراضي الإقطاعية التي كانت تعود للأنجلوساكسون على الإقطاعيّين النورمانديّين، وسعى إلى إخضاع طبقة النبلاء الإقطاعيّين لسلطته ومنعهم من ممارسة الاستقلال الذاتي.

في عام ١١٥٤ للميلاد، ارتقى دوق أنجو، هنري الثاني، إلى العرش. سعى هو أيضًا إلى ترسيخ مركزية الحكم من خلال إضعاف سلطة النبلاء الإقطاعيّين. وقد قام هؤلاء الإقطاعيّون، في مواجهة السياسات المركزية لهنري الثاني، بالتمرّد مرارًا، مما أدّى إلى اندلاع حربٍ أهلية. خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، شهدت المدن الإنجليزية تطوّرًا وازدهارًا ملحوظًا.

ومن أجل المضيّ قدمًا في تنفيذ سياساته، عمل هنري الثاني على إضعاف المحاكم الإقطاعية التي كانت تُعرف بمحاكم السينيور، وأقام في مواجهتها ما عُرف بـ«محكمة الملك». سعى هنري إلى كسب دعم النبلاء الصغار والفلّاحين الأحرار وتحويلهم إلى قوّة مؤيّدة له في مواجهة الإقطاعيّين الكبار. وفي عام ١١٨٩، توفّي هنري الثاني، وخلفه ابنه ريتشارد، المعروف بـ«ريتشارد قلب الأسد». وقد دام حكم ريتشارد عشر سنوات، قضاها بالكامل في الحروب والحملات العسكرية ضد الفرنسيّين. ومن أجل تمويل تلك الحروب، اضطرّ إلى فرض ضرائب باهظة، الأمر الذي أثار موجة واسعة من الاستياء في مختلف

شرائح المجتمع. وفي عام ١١٩٩، قُتل ريتشارد في إحدى المعارك، وخلفه أخوه جون ساوتر الذي حكم إنجلترا حتى عام ١٢١٦. وفي عام ١٢١٤، وبعد هزيمة قوّات جون ساوتر أمام الجيش الفرنسي، تمرّد عليه كبار الإقطاعيّين (الذين يُعرفون في إنجلترا بالبارونات) ومعهم الفرسان وسكّان المدن. وقد جاءت هذه الانتفاضة نتيجة السخط من السياسة الضريبية التي انتهجها الملك. واضطرّ جون إلى الرضوخ لمطالبهم، فأصدر في عام ١٢١٥ مرسومًا عُرف باسم «ماغنا كارتا» (الميثاق الأعظم). استنادًا إلى الميثاق الأعظم:

«تعهّد الملك بعدم فرض ضرائب إضافية على البارونات والفرسان تتجاوز ما كان معمولًا به من قبل، وألّا يطالب بأموال جديدة إلا بموافقة المجلس العام للمملكة، أي اجتماع جميع التابعين الإقطاعيّين له. وقد منح كذلك عددًا من الامتيازات للمدن، وأقرّ بحقّها في الحكم الذاتي. في الحقيقة، كان الميثاق الأعظم وثيقةً لحريّة الإقطاعيّين، إذ مُنحت بعض الامتيازات أيضًا لسكّان المدن، في حين لم ينل عامة الناس، من الفلّاحين الأقنان، شيئًا يُذكر. لا جون لاكلاند ولا خلفُه هنري الثالث (١٢١٥-١٢٧٢) عملًا بمبادئ هذا الميثاق»[١].

وقد أدّى هذا الأمر إلى أن يعود الإقطاعيّون إلى التمرّد بعد بضعة عقود. فقاد المعارضون لهنري الثالث، بإمرة بارون يُدعى الكونت سيمون دي مونفور، تمرّدًا ضد الملك، وألحقوا الهزيمة بجيشه سنة ١٢٦٤. وفي العام التالي، دعا دي مونفور البارونات والأساقفة والكهنة وممثّلين عن المدن والدوقيات والفرسان إلى اجتماع شكّل نواة ما عُرف لاحقًا باسم «البرلمان الإنجليزي». عُقد أول اجتماع لهذا البرلمان في سنة ١٢٦٥، وقد مثّل، على غرار مجلس الطبقات في فرنسا،

١. م. ن، ١٢٨ - ٢٩.

مصالح الطبقة الأرستقراطية والبرجوازيين الجدد، فيما لم يكن لأغلبية السكّان، من سكان المدن والفلّاحين الفقراء، أيّ تمثيل يُذكر فيه.

«في إنجلترا، تشكّل للمرة الأولى عام ١٢٦٥ مجلسٌ يضمّ ممثّلين عن الإقطاعيّين والكنيسة وسكّان المدن الميسورين، وأُطلق عليه اسم «البرلمان». وقد اشتُقّت كلمة «برلمان» من الفعل parler في الفرنسية، الذي يعني «الحديث» أو «الحوار». وفي القرن الرابع عشر، انقسم البرلمان إلى مجلسين: مجلس اللوردات ومجلس العموم. وكان البرلمان الإنجليزي، بالمقارنة مع مجلس الطبقات الفرنسي، يتمتّع بنفوذ وتدخّل أوسع في شؤون الحكم، إذ لم يقتصر دوره على معالجة قضايا الضرائب، بل شارك أيضًا في سنّ القوانين خلال فترة وجيزة. وفي القرن الثالث عشر، صدر عن البرلمان عدد من القوانين التي منحت الإقطاعيّين حقّ التصرف في المراعي والغابات التي كانت تعود إلى التجمّعات الفلّاحية. وكان البرلمان يدافع عن مصالح أقلية ضئيلة، مكوّنة من الإقطاعيّين وسكّان المدن الميسورين»[١].

تدريجيًا، تحوّل البرلمان إلى مؤسّسة تشريعية، وأضحى البارونات، والفرسان، ورجال المال من الطبقة البرجوازية الناشئة، وأثرياء المدن، يستغلّونه لإصدار قوانين تصبّ في مصلحتهم. وفي هذه المرحلة تحديدًا، جرى تحويل أعمال السخرة والإتاوات الإقطاعية إلى ضرائب نقدية. وقد ازدادت أوضاع الفلّاحين في إنجلترا سوءًا في القرن الرابع عشر الميلادي، لاسيّما إثر تفشّي الطاعون في عامي ١٣٢٨ و١٣٣٩، ممّا عمّق معاناة الفقراء والمحرومين. في هذا السياق من الضيق الاجتماعي والاقتصادي، اندلعت انتفاضات شارك فيها الفلّاحون،

١. آگيبالووا ودنسكوى، تاريخ سده‌هاى ميانه، ١٥٠.

وتلامذة الحرف، والعمّال الفقراء في المدن. وكانت الدوافع الأساسية وراء هذه الثورات تتجلّى في رفض تعسّف الجباة وممارساتهم. وقد تمركزت الحركة في الأرياف، وبدأت سنة ١٣٨١ بما عُرف لاحقًا باسم «ثورة وات تايلر»، نسبةً إلى زعيمها الذي كان من الفلّاحين القادمين من منطقة كِنت. وعلى الرغم من أنّ الريف شكّل القاعدة الأساسية لهذا التمرّد، فإنّ دخول الفلّاحين إلى لندن ألهم فقراء المدن وعمّالها للالتحاق بالحركة. وقد انطلقت شرارة العصيان أولًا في كِنت وإسِكس، لكنّها ما لبثت أن امتدّت إلى سائر المناطق. ومن بين الشخصيات البارزة في هذه الحركة كان جون بول، أحد الخطباء الشعبيّين الذي حرّض الجماهير بخطبه النارية، وقد ركّز في انتقاداته على الكنيسة، متّهِمًا إياها بالفساد وتكديس الثروات. وكان يدعو الناس صراحةً إلى القضاء على جميع الإقطاعيّين ومصادرة ممتلكاتهم. لقد كان جون بول يروّج لنوعٍ من المساواة الطوباوية غير الواقعية. وتبدو هناك مؤشّرات قوية على أنّ محافل ماسونية كانت تؤدّي دورًا فعّالًا في تنظيم ثورة وات تايلر.

استعان الملك والإقطاعيّون بالمكر والخداع لإحداث انقسام بين صفوف الثائرين، وتمكّنوا في نهاية المطاف من قمع انتفاضة الفلّاحين. وعلى الرغم من أنّ الفلّاحين الفقراء وسائر الفئات المحرومة خرجوا في هذه الاحتجاجات طلبًا للإنصاف واسترداد الحقوق، إلا أنّ الواقع يشير إلى أنّ البرجوازيّين الجدد، ومن خلال الجمعيّات السرية ذات الطابع الماسوني التمهيدي، تمكّنوا من السيطرة الفعلية على ثورة وات تايلر، وحوّلوها إلى أداة للضغط على الإقطاعيّين وتصفية حساباتهم معهم، بما يخدم مصالحهم الاقتصادية والسياسية.

لقد شكّلت ثورة وات تايلر ضربة قوية لبنية النظام الإقطاعي في إنجلترا،

وأسهمت في تسريع انحلال نظام السُّخرة. فقد عمد كثير من الأقنان إلى شراء حريّتهم، غير أنّ هذه الحرّية من قيد السرفية لم تؤدِّ بالضرورة إلى تحسين أوضاعهم المعيشية.

وفي منتصف القرن الخامس عشر، برزت في إنجلترا طبقة أرستقراطية جديدة، كان جلّ نشاطها منصبًّا على الاتّجار بالمنتجات الزراعية. وقد أنشأ هؤلاء في أراضيهم قطعانًا ضخمة من الغنم، إذ كان الصوف في ذلك الوقت يحظى بطلب كبير في الأسواق. وقد ازدهرت صناعة النسيج الصوفي في إنجلترا خلال القرن الخامس عشر، وصار التجّار الإنجليز يصدّرون أقمشة الماهوت إلى مختلف أنحاء أوروبا.

انتهت حرب المئة عام بين إنجلترا وفرنسا في عام ١٤٥٣، وكانت الأسرة الأرستقراطية الحاكمة آنذاك في إنجلترا هي أسرة لانكاستر، التي خضعت في سياساتها لنفوذ الإقطاعيّين والبارونات التقليديّين. وفي مقابل هذه الأسرة، ظهرت أسرة أرستقراطية أخرى هي أسرة يورك، التي دخلت في صراع سياسي حادّ مع اللانكاستريّين سعيًا للسلطة. وقد حظيت أسرة يورك بدعم الأرستقراطية الجديدة ورجال المال من البرجوازيّين الصاعدين. وقد اتّخذت أسرة لانكاستر الوردة الحمراء شعارًا لها، في حين اتّخذت أسرة يورك الوردة البيضاء رمزًا يميزها.

ومنذ عام ١٤٥٥، اندلعت حرب دموية استمرّت ثلاثين عامًا بين هاتين الأسرتين الإقطاعيّتين، ومعهما الإقطاعيّون والبارونات المتحالفون مع كل طرف. وقد عُرفت هذه الحرب الطويلة باسم «حرب الوردتين»، نسبةً إلى رمزي الأسرتين المتحاربتين. وخلال هذه العقود الثلاثة، أُنهكت الطبقة

الإقطاعية الكبرى في إنجلترا بفعل الصراعات الداخلية، وانهارت قواها نتيجة الاقتتال المتبادل. وقد أدّت هذه الحرب الطويلة إلى إضعاف بالغ في بنية الأسرتين المتنافستين، وكذلك في الجسم الأساسي للإقطاع الإنجليزي. وفي عام ١٤٨٥، ومع نهاية حرب الوردتين، اعتلى هنري السابع العرش، وهو ينتمي إلى أسرة تيودور.

«استمرّت حرب الوردتين الدامية ثلاثين عامًا كاملة، وكان أقرباء القتلى يثأرون لأحبّائهم بقتل أفراد عائلات الخصوم، من الشيوخ حتى الأطفال. ولم تنتهِ الحرب إلا بعدما أفنى كبار الأشراف بعضهم بعضًا كما تفعل الذئاب، حتى إنّه في المعركة الأخيرة لم يشارك سوى جماعات صغيرة من كلا الطرفين. في خضمّ هذا الانهيار، استطاع هنري السابع، وهو من أقارب أحد الفرعين المتنازعين، أن يخرج منتصرًا، ويؤسّس في عام ١٤٨٥ سلالة تيودور الحاكمة في إنجلترا. لقد أدّت حرب الوردتين إلى تقويض سلطة كبار ملّاك الأراضي، إذ أُنهكت قواهم وفقدوا الكثير من نفوذهم. أما الحاكم الجديد، فكان يحظى بدعم الإقطاعيّين الصغار وسكّان المدن الميسورين. ويعود سبب هذا التأييد إلى أنّ وجود حاكم قويّ كان كفيلًا بحماية الإقطاعيين الصغار من التمرّدات الفلاحية، وبصون مصالح التجار الإنجليز في علاقاتهم التجارية مع الخارج. ففي ظروف إنجلترا آنذاك، لم يكن ممكنًا كبح جماح الأرستقراطية المتغطرسة إلا بسلطة ملكية قوية ومركزية.

وقد أمر هنري السابع، الذي امتد حكمه من عام ١٤٨٥ إلى ١٥٠٩، بتسريح التشكيلات العسكرية الخاصة التي كانت بحوزة الأشراف، وقام باستخدام المدافع الثقيلة لتدمير قلاع أولئك الإقطاعيين الذين حاولوا إعادة إشعال فتيل

الحروب الداخلية. كما أمر بإعدام عدد من البارونات المتمرّدين، وصودرت أراضيهم. بينما كان «الاتازنرو» (مجلس الطبقات العامة) في فرنسا لا يُستدعى للانعقاد إلا نادرًا في أواخر القرن الخامس عشر، واصل حاكم إنجلترا عقد البرلمان بانتظام. وبعد أن أُبيد معظم كبار الإقطاعيّين خلال الحروب، قام هنري السابع بإرسال من يثق بهم من الأشخاص إلى مجلس اللوردات. أما الفرسان وسكّان المدن الميسورون الذين كانوا أعضاء في مجلس العموم، فكانوا يقرّون مشروعات القوانين التي يعرضها الملك من دون اعتراض أو نقاش. منح مجلس العموم الملك صلاحية فرض ضرائب جديدة، ليُعاد بذلك ملء خزينة الدولة»[1].

وهكذا، أصبحت إنجلترا في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر تمتلك شكلًا من أشكال الدولة الحديثة المستبدّة والمركزيّة؛ وهي دولة أوكل إليها التاريخُ مهمّةَ التمهيد والتهيئة لتوسّع العالم الحديث ولترسيخ الرأسمالية الاستعمارية الإنجليزية. ويمكن اعتبار هنري السابع من أسرة تيودور الأبَ المؤسّس للاستعمار الرأسمالي الحديث في إنجلترا، وأول حاكم يتماهى نوعًا ما مع مشروع الحداثة في صورته النهضوية في هذا البلد.

الدولة القومية ذات التوجه الحداثي في إسبانيا

منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وبالتزامن مع تنامي نفوذ الأوليغارشية اليهودية في البلاطات الملكية لدول أوروبا، بدأت بعض الحكومات الصغيرة المستقلّة في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبدفع ودعم من اليهود، تحرّكات عسكرية تهدف إلى دفع المسلمين خارج تلك الأراضي. وفي القرن الثاني عشر، ظهرت ثلاث حكومات على أرض إسبانيا:

---

١. م. ن، ١٦٠.

- حكومة قشتالة
- حكومة أرغون وكتالونيا
- وحكومة البرتغال

وقد حقّقت هذه الحكومات الثلاث، بتحالفها معًا، انتصارًا عسكريًا على المسلمين في معركة عام ١٢١٢م. ويطلق المؤرّخون الغربيّون على الحقبة الزمنية الممتدّة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم عصر الريكونكيستا (الاسترداد). وقد استخدم المؤرّخون الحداثيون هذا المصطلح للإشارة إلى الهجمات التي شنّها ائتلاف الحكّام المسيحيّين وحلفائهم اليهود ضد المناطق الإسلامية في إسبانيا، والتي أفضت إلى إخراج هذه المناطق من سيطرة المسلمين.

وقد اضطلعت حكومة قشتالة بالدور الرئيسي في الحرب ضد المسلمين. ولم يقتصر الحضور في حركة الريكونكيستا على النبلاء الإقطاعيّين، بل شارك فيها أيضًا الفلّاحون، وسكّان المدن من الطبقة البرجوازية، والفرسان. وكانت مدن قشتالة تسعى من خلال مشاركتها في القتال إلى توسيع نطاق استقلالها الذاتي. ومن أجل تحقيق غاياتها، أسّست هذه المدن اتّحادات عُرفت باسم «هرمانداد» أي اتحادات الإخاء.

في قشتالة، تأسّس في القرن الثاني عشر الميلادي مجلس تمثيلي يُعرف باسم «الكورتيس». وقد شارك في جلساته ممثّلون عن البلاط الملكي والكنيسة، إلى جانب كبار أصحاب رؤوس الأموال من سكّان المدن الذين كانوا في طور التشكّل كطبقة اقتصادية. كان الكورتيس يسعى إلى الحد من سلطة الملك وتقييدها.

وفي جزء آخر من الأراضي التي تُعرف اليوم باسم إسبانيا، كانت «حكومة

أرغون-كاتالونيا» قائمة. وقد اتّسم هذا الكيان بطابع إقطاعي واضح، وكانت سلطة الكنيسة الكاثوليكية فيه واسعة النفوذ. وعلى الرغم من ازدهار مدن هذا الإقليم من الناحية الاقتصادية، فإنّها لم تكن تتمتّع بنفوذ سياسي يُذكر. ومن أشهر تلك المدن مدينة برشلونة. في هذه المدن، وبخاصة خلال القرن الثالث عشر، بدأ تشكُّل طبقة من أصحاب رؤوس الأموال في الأوساط المدنية، وكانت هذه الطبقة، خوفًا من انتفاضات الفقراء والحرفيّين، قد بادرت إلى التحالف طوعًا مع النبلاء الإقطاعيّين. وقد تحوّلت حكومة أرغون-كاتالونيا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى قوة بحرية كبرى؛ فاستولت في القرن الرابع عشر على صقلية وسردينيا، وفي القرن الخامس عشر فرضت سيطرتها على جنوب إيطاليا.

وقد أدّت الظروف المعيشية القاسية، إلى جانب الفقر المزمن والظلم المستمر، إلى اندلاع العديد من الانتفاضات الفلّاحية في أنحاء متفرقة من الأراضي الإسبانية، ولا سيّما في منطقة أرغون-كاتالونيا. وفي عام ١٤٦٢م، اندلعت ثورة فلّاحية كبرى في كاتالونيا، وكان على رأسها أحد الإقطاعيّين الصغار ويُدعى فيرنت تاليا. وفي الوقت نفسه، تصاعدت الخلافات والصراعات بين الملك خوان الثاني، حاكم أرغون، والنبلاء الإقطاعيّين. واستمرّت ثورة الفلاحين تلك مدّة عشر سنوات. وقد وصلت الأوضاع في مختلف أنحاء إسبانيا إلى مستوى من التوتّر دفع أفراد الأسرتين الملكيّتين في قشتالة وأرغون إلى القناعة بأنّه لا سبيل لمواجهة الانتفاضات الفلّاحية وتمرّدات النبلاء سوى من خلال اتّحاد الأسرتين وتشكيل حكومة موحّدة.

في عام ١٤٧٩م، تزوّجت إيزابيل، ملكة قشتالة، من فرديناند، ملك أرغون، فتشكّلت بذلك الدولة القومية الواحدة في إسبانيا ضمن نظام ملكي موحّد.

سعى فرديناند وإيزابيل إلى قمع الإقطاعيّين بقسوة، كما تصدّيا بقوّة للحركات الاحتجاجية الفلّاحية. ومن أجل تعزيز سلطتهما وتحقيق أهدافهما السياسية، دخلا في تحالف وثيق مع الكنيسة الكاثوليكية. وفي هذه الفترة بالتحديد، قامت الكنيسة الكاثوليكية، بدعم مباشر من فرديناند وإيزابيل، بإنشاء محاكم التفتيش. كان الهدف الأساسي لهذه المحاكم يتمثّل في تعقّب واضطهاد وتعذيب وقمع المسلمين ومعارضي السلطة الملكية. ومن المهام التي اضطلعت بها محاكم التفتيش خلال فترة حكم إيزابيل وفرديناند التصدّي لما اعتُبر تحريضًا ومؤامرات صادرة عن بعض المجموعات اليهودية. وقد كانت محاكم التفتيش في إسبانيا ذات طابع سياسي في جوهرها، إذ هدفت بالدرجة الأولى إلى اصطياد وقمع خصوم السلطة الملكية. وفي عام ١٤٨٤م، اندلعت انتفاضة فلّاحية جديدة في كاتالونيا، أجبرت الإقطاعيّين على التراجع والتنازل. وقد أدّت هذه الثورة الكبرى إلى إلغاء نظام السُّخرة (السرف)، ممّا مهّد الطريق بشكل أوسع أمام انتشار نفوذ الطبقة البرجوازية الحديثة. وعلى الرغم من أنّ حكم فرديناند وإيزابيل اتّسم بتحالفه الوثيق مع الكنيسة الكاثوليكية وبمظاهر تعصّب ديني، إلا أن توجّهه وغايته في الأفق البعيد كانت ذات طابع حداثي. فقد مهّد هذا الحكم الطريق أمام تعاظم حضور الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للحداثة في إسبانيا. ويمكن القول إنّ الدولة الملكية الموحّدة في إسبانيا كانت الدافع والمبادر لحركة الاستعمار الرأسمالي الحديث، بكل عنفها وقسوتها. وفي أواخر القرن الخامس عشر، برزت كلٌّ من البرتغال وإسبانيا بوصفهما مركزين رئيسيّين لانطلاقة الحملة الاستعمارية الغربية الحديثة على أراضي شعوب آسيا وأفريقيا وسكّان أمريكا الأصليّين.

الأراضي الألمانية بين التشرذم والانقسام

في القرن الثالث عشر الميلادي، دخلت أسرة هوهنشتاوفن الحاكمة في حالة من الانحلال، وهو ما أضعف الإمبراطورية بشدة في الأراضي الألمانية التي تُعرف اليوم بألمانيا. وتمتدّ الفترة من عام ١٢٥٢ إلى ١٢٧٣ بوصفها مرحلة حافلة بالاضطرابات في تاريخ هذه الأراضي؛ إذ كان الإقطاعيّون الألمان مشغولين بالصراع فيما بينهم، وسادت حالة من الفوضى واللا قانون، وافتقاد النظام والانضباط بصورة مزعجة.

وفي عام ١٢٧٣م، اختار الأمراء المحلّيون دوقًا متوسّط الحال يُدعى رودولف من أسرة هابسبورغ ليكون إمبراطورًا. لم يكن رودولف يمتلك قوة عسكرية أو ثروة معتبرة تؤهّله لقمع الإقطاعيين، ولذلك ركّز جهده على تأسيس إمارة واسعة لنفسه، فبدأ بالاستيلاء على دوقية النمسا الكبرى. وهكذا تحوّلت النمسا إلى ملكية خاصة بأسرة هابسبورغ. لكن سواء في حياة رودولف أو بعد وفاته، سعى الأمراء المحلّيون إلى تقويض نفوذ أسرة هابسبورغ.

وكانت هذه الأسرة منذ القرن الثاني عشر قد بسطت نفوذها على المناطق الجبلية في شفيتس وأوري وأونترفالدن. وفي عام ١٢٩١، شكّل سكّان الكانتونات الجبلية الثلاثة تحالفًا عسكريًا دائمًا. وقد أُطلق على هذا التحالف اسم «سويسرا» نسبة إلى كانتون شفيتس. وبمرور الزمن، انضمّت إلى هذا الاتّحاد الكانتونات الأخرى، بالإضافة إلى المجتمعات الفلّاحية والمدن المختلفة مثل برن، ولوسرن، وزيورخ، فكان تأسيس الاتّحاد السويسري الحرّ.

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بدأت المدن في الظهور داخل الأراضي الألمانية، وكانت مدن الشمال تحظى بأهمية خاصة. ومن بين هذه المدن الشمالية،

برزت هامبورغ ولوبيـك كمركزين للتجارة الألمانيـة. في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، نشـأت في هذه المدن الشمالية طبقة من أصحاب رؤوس الأموال التجارية، وبدأت الرأسـمالية التجارية تتشـكّل فيها. وفي القـرن الرابع عشر، وبمبـادرة مـن مدينة لوبيك، تأسّـس اتّحاد تجـاري كبير عُرف باسـم «الاتّحاد الهانزِي». وقد حصل هذا الاتّحاد على امتياز احتكار التجارة في منطقة واسـعة، وكان يدافع عن هذا الامتياز بقوّة السلاح. وقد استمرّ الاتّحاد الهانزي في نشاطه حتى القرن السـادس عشر، وكان من أوائل مظاهر احتكار رأس المال التجاري الكبير خلال نشأة عصر النهضة.

«كـما كانت البندقية تحتكـر التجارة في منطقة البحر المتوسـط، تولّى الاتّحاد الهانزي المهمّة نفسها في منطقة بحر البلطيق. وكما هو حال البندقية، لم يتردّد هذا الاتّحاد في اللجوء إلى الحرب أحيانًا لحماية طرقه التجارية وبضائعه»[١].

وفي جميـع المدن المنضوية تحت لـواء الاتّحاد الهانزي، كانت إدارة الشـؤون العامة في يد فئة التجار، أي أصحـاب رأس المال التجاري، الذين جنوا أرباحًا طائلة من التجارة. وقد فرضت هذه الفئة الحاكمة من التجّار ضرائب باهظة على الحرفيّين وأصحاب المهن.

أما في جنوب ألمانيا، فقد شهدت بعض المدن التي كانت على اتّصال تجاري وثيق بإيطاليا تطوّرًا ملحوظًا. وقد تحوّلت بعض هذه المدن، مثل أوغسبورغ ونورمبرغ، إلى ما يشـبه جمهوريـات ذات طابع حداثي، كانت تدار من قبل أوليغارشـية من كبار التجّار وأصحـاب رؤوس الأموال. غير أنّ هـذه الجمهوريات التجارية لم تكـن جمهوريّات ديمقراطية بالمعنى الحديث، بل كانت تمثّل شـكلًا من أشـكال

١. كوريك، رنسانس، ٤٢ – ٤٣.

الجمهوريّات الرأسمالية ذات الطابع النهضوي. وقد كانت مدن الجنوب الألماني في صراع دائم مع الفرسان وقطّاع الطرق، وهي صراعات أدّت في نهاية المطاف إلى إضعاف موقع هذه المدن وتعزيز سلطة الأمراء المحليّين في الأراضي الألمانية.

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، ازدادت حالة التشرذم والانقسام في الأراضي الألمانية. وفي عام ١٣٥٦، أصدر الإمبراطور كارل الرابع مرسومًا شهيرًا عُرف باسم «المرسوم الذهبي»، أضفى من خلاله طابعًا رسميًّا على استقلال الأمراء في ممتلكاتهم، معترفًا عمليًا بوجود مجموعة من الإمارات الصغيرة والكبيرة المستقلّة. كانت المدن الألمانية في واقع الأمر كيانات مستقلّة، وإلى جانبها كانت هناك إمارات فرسان الإمبراطورية التي تمتّعت هي الأخرى بالحكم الذاتي. وهكذا، كان الأمراء، وفرسان الإمبراطورية، والمدن يتمتّعون جميعًا بالاستقلال في مناطقهم، وكانوا في حالة دائمة من التنافس، بل والصراع في بعض الأحيان. وفي القرن الخامس عشر، استعاد أسرة هابسبورغ مجدّدًا منصب الإمبراطور. إلا أنّ سلطة الإمبراطورية بلغت أدنى درجاتها في عهد فريدريش الثالث، الذي فقد في أواخر سنوات حكمه حتى دوقية النمسا. وفي الأراضي التي تُعرف اليوم باسم ألمانيا، كانت فترة النهضة الأوروبية تتّسم بالانقسام والتنازع والتنافس بين المدن، والإمبراطور، والأمراء المحليّين، دون أن تكون هناك دولة موحّدة، قوية، ومركزيّة.

٤. النهضة والاستعمار في الغرب الحديث

في عصر النهضة، نجد أنفسنا أمام صورة من صور الثورة التقنية الحديثة. ففي فجر نشأة العالم الغربي الحديث، أي في عصر النهضة، بدأت التقنية الحديثة تتحقّق بالفعل ولكن في صورتها الإجمالية الأولية. ومن خلال تتبّع تاريخ نشوء

وتطوّر الغرب الحديث، من القرن الرابع عشر إلى يومنا هذا، يمكن الحديث عن عدّة موجات من الثورة الصناعية أو الثورة التقنية. إنّ هذه الموجات المتعدّدة هي التي أدّت إلى تطوّر التقنية الحديثة وتشكّلها بصورتها الراهنة. ويمكن تقسيم هذه الموجات المتعدّدة من ظهور وتطوّر التقنية الحديثة على النحو الآتي:

١. ظهور الصورة الإجمالية والأوّلية للتقنية الحديثة خلال عصر النهضة (تقريبًا من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي).
٢. حدوث الموجة الأولى من الثورة الصناعية، التي تُعرف بثورة الآلة البخارية (تقريبًا بين عام ١٧٦٠ إلى عام ١٨٦٥م).
٣. حدوث الموجة الثانية من الثورة الصناعية، التي تُسمّى أيضًا بثورة الكهرباء (تقريبًا بين عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩٧٥م).
٤. حدوث الموجة الثالثة من الثورة الصناعية، التي تُعرف بثورة الإلكترونيات أو ثورة المعلوماتية (وقد بدأت منذ أواخر عقد السبعينيّات من القرن العشرين ولا تزال مستمرّة حتى اليوم).

ظهور الصورة الإجمالية للتقنية الحديثة في عصر النهضة

في عصر النهضة، وبتحقّق النظرة الإنسانية بين الإنسان والوجود، ظهرت الصورة الأولية للتقنية الحديثة وتجسّدت بوضوح. وقد كانت هذه الصورة الإجمالية تجسيدًا للعلاقة الاستعلائية الأومانيستية-التقنية التي أقامها الإنسان مع ذاته ومع العالم. وتتجلّى أهمّ مظاهر ظهور هذه الصورة الإجمالية للتقنية الحديثة في الاختراعات والإنتاجات العسكرية.

فالإنسان الحديث، بسبب طبيعته التاريخية الأومانيستية، يتّسم بطبيعة استعلائية ومتكبّرة، وهي من نمط الاستكبار النفسي الذاتي المستند إلى الأهواء.

إنّ الصورة النوعية للإنسان الحديث تمثّل تجسيدًا للنفس الأمّارة ولإرادة نفعيّة مدمّرة.

ولهذا السبب، فإنّ الصورة الإجمالية للتقنية الحديثة، التي ظهرت وتحقّقت في عصر النهضة، بسبب طبيعتها ومادّتها الهدّامة الأومانيستية-الاستكبارية، قد تجلّت قبل أيّ مجال آخر في ميدان صناعة الأسلحة العسكرية والنارية.

لقد امتلكت الحضارة الصينية القديمة البارود قبل عصر النهضة بقرون عديدة، وكانت تدرك قوّته التدميرية، غير أنّ الطابع الأسطوري الجوهري للحضارة الصينية القديمة لم يكن يسمح بأن يتحوّل البارود إلى مدافع وبنادق وأسلحة نارية تغيّر طبيعة الحروب وطريقتها بصورة جوهرية. استخدم الصينيّون القدماء البارود استخدامًا محدودًا وتجريبيًا في بعض الأحيان، لكنّهم لم يتّجهوا قط نحو صناعة الأسلحة النارية ولا سعوا إلى قهر الشعوب والأراضي الأخرى اعتمادًا على قوته الفتّاكة. أما في الغرب الحديث خلال عصر النهضة، فقد استُخدم اختراع البنادق والمدافع البارودية لتشكيل جيوش الدول الحديثة التي شرعت في الغزو وفرض الهيمنة على البلدان الأخرى، ومن ثم وُضع الأساس لسيطرة العالم الغربي الحديث عبر العدوان العسكري واستغلال الأسلحة النارية. ويبدو أنّ استعمال البارود وصناعة الأسلحة النارية قد بدأ في العالم الغربي الحديث منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي. وقد كتب «بيير روسو» عن بارود المدافع ما يلي:

«هذا الخليط الصلب هو ما نسمّيه اليوم بارود المدافع، وقد وصل إلى سكّان الغرب بعد مسارات طويلة، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي، تحدّد استخدامه الأساسي على يد هؤلاء: إذ كانوا يضعون كمّية منه في مؤخّرة أنبوب حديدي، ويشعلون فيه النار، وبذلك تمكّنوا من قذف قطع من الحجر أو المعدن

إلى مسافات بعيدة. ولم تمضِ سنوات كثيرة حتى استطاعوا زيادة قطر الأنبوب وسمكه بدرجة ملحوظة، ومن هنا وُلد أقدم نوع من المدافع الذي كان يُسمّى «بومبارد»[1]، وكان يتكوّن من أنبوب موضوع فوق قاعدة تثبيت. ويُقال إنّ ثلاث قطع من هذه الآلة قد استُخدمت في معركة كريسي [الحرب بين فيليب دي فالوا ملك فرنسا وإدوارد الثالث ملك إنجلترا] سنة ١٣٤٦م.

وبعد قرن من معركة كريسي، كانت المدفعية الفرنسية أفضل مدفعية في العالم، إذ بلغ مدى قذيفة المدفع ألفي قدم، أي أكثر بخمس عشرة مرة من مدى السهام والرماح. وبمساعدة هذه المدافع، كان بالإمكان قصف صفوف الجيوش والرجال والنساء الذين كانوا يسيرون خلفها، كما كانت قادرة على تحطيم أسوار المدن المحصّنة.

ومن قاذفة البومبارد تطوّرت سلسلة كاملة من الأسلحة، كان أنحفها المدفع الدوّار، وانبثقت منها لاحقًا أنواع شتّى من البنادق القديمة ذات الفتيل التي أدّت، في القرن السادس عشر، إلى نشوء نوع جديد من البنادق عُرف باسم الموسكيت. وإذا ظننّا أنّ اختراع الأسلحة النارية وانتشارها كان له أثر محصور فقط في تطوير فنون القتال، نكون قد وقعنا في خطأ كبير. فقد كان تصنيع المدافع والبنادق الفتيلية والرصاصات الكبيرة والصغيرة يتطلّب كمّيات كبيرة من المعادن، ممّا أدّى إلى تزايد الطلب على الفلزّات، واضطُرّ الحرفيّون إلى تطوير أساليب أكثر تقدّمًا من الطرق التقليدية القديمة التي كانت تُستخدم في صبّ المعادن. وخلاصة الأمر أنّ إطلاق الأسلحة النارية في ساحات المعارك أدّى إلى تطوّر صناعة المعادن وتقدّمها»[2].

---

1. Bombarde

٢. روسو، تاريخ صنايع و اختراعات، ١٤٥ – ٤٧.

اعتمد العالم الغربي الحديث على الأسلحة النارية، وشنّ حروبًا عدوانية ضدّ الشعوب والأمم الأخرى التي كانت تفتقر إلى هذه الأسلحة، فهزمها وشرع في حركة استعمارية ونهبية واسعة ضدّ شعوب وأراضي آسيا وأفريقيا وأوقيانوسيا والسكّان الأصليّين للقارّة الأمريكية.

لقد كانت الصورة الإجمالية لظهور التقنية الحديثة متعدّدة الأوجه: فبناء السفن الكبيرة التي أتاحت القيام بالرحلات البحرية عبر المحيطات، واختراع البوصلة واستخدامها على نطاق واسع، وتطوير الأسطرلابات المعقّدة، واختراع آلة الطباعة، واكتشاف الورق، واختراع الساعات الميكانيكية وساعات الجيب، بالإضافة إلى ابتكار أجهزة جديدة في مجال النسيج، كلّها من ملامح الثورة التقنية في عصر النهضة. يقول بيير روسو:

«إنّ أوّل ذكر للبوصلة في الوثائق الأوروبية يعود إلى عام ١٢٠٠م في فرنسا، وعام ١٢٥٧م في إنجلترا، وعام ١٢١٣م في آيسلندا. كانت هذه البوصلة بدائية للغاية. وفي عام ١٢٦٩م، أدخل بيير دو ماركور الفرنسي عليها تحسينًا كبيرًا.

... ويبدو أنّ ابتكار الحروف المتحرّكة، التي تقوم عليها تقنية الطباعة، تحقّق لأوّل مرّة عام ١٤٢٣م. والمخترع المحتمل لها هو لوران كوستر. وقد استُخدم في الورشة الصغيرة بمدينة ماينتس، حيث كان يعمل غوتنبرغ، خليط معدني من الرصاص والأنتيموان لصناعة الحروف، وهو الخليط الذي صار لاحقًا المعيار العالمي لصناعة حروف الطباعة. وقد وُجدت آلة الطباعة اليدوية الأولى في هذا المكان. وبحسب المؤرّخين المتخصّصين في هذا المجال، فإنّ أول كتاب طُبع بواسطة غوتنبرغ كان تقويمًا فلكيًا أُنجز عام ١٤٤٧م. ولم يكن القرن الخامس عشر قد انتهى بعد حتى كانت مدن أوروبية عديدة قد أنشأت ورشًا للطباعة...

وفي أواخر القـرن الرابع عشر، ظهرت أولى السـاعات ذات الواجهة؛ وكانت ساعة قصر العدالة في باريس من بين هذه الساعات. كما صُنعت أوّل ساعة كبيرة لمدينة ستراسـبورغ بين عامي ١٣٥٢ و١٣٥٤م، وتنتمي ساعات المدن الكبرى الأخرى مثل فرانكفورت ولوند (سنة ١٣٨٠)، وليون (سنة ١٣٨٣)، وفيلينغن (سنة ١٤٠٠)، ولوبيك (سنة ١٤٠٥)، إلى الحقبة ذاتها»[١].

الانقلاب التقني للغرب الحديث في عصر النهضة، وَضَع هذا العالمَ في موقع الهيمنة والسـلطة، مما أتاح له فرصة متابعة أهدافه التوسّعية والاستعمارية.. فقد أمـدّت الثورة التقنية في عصر النهضة الدول الغربية الحديثة بالأسـلحة النارية والجيوش الحديثة ذات القدرة النارية العالية والقوّة التدميرية الكبيرة. وبسـبب طبيعته الأومانيستية، فإنّ العالم الغربي الحديث بطبعه عنيف ومستكبر واستعماري واسـتغلالي، ولذلك، وبالاسـتناد إلى الإمكانات التي وفّرتها له التقنية الحديثة بصيغتهـا النهضوية، شرع في حركـة متصاعدة لفرض هيمنته عـلى العالم كلّه، سعيًا إلى إنشـاء نظام عالمي موحّد تتزعّمه نزعة الاستكبار الأومانيستي للغرب الحديـث. لقد كانت النهضة نقطة الانطلاق لحركة الاسـتعمار الغربي الحديث، التي هدفت إلى اسـتغلال قوة العمـل، ونهب الموارد والإمكانات، واسـتعباد سـكّان البلدان المختلفة وإخضاعهم، أي بعبـارة أخرى، دفعهم نحو التغريب الحديث أو التغريب شبه الحديث.

بداية سبعة قرون من الاستعمار والنهب والهيمنة

بظهور عصر النهضة، ظهر إنسان جديد، إنسان اتّخذ في صورته النوعية مقام «النفس الأمّارة» فعليًا وواقعيًا. كان هذا الإنسان يرى نفسه مركز الكون ومحور

١. م. ن، ١٥٥ - ٥٦؛ ١٥٨ - ٦٠؛ ١٦٥ - ٦٦.

العالم. وتحت الصورة النوعية للإنسان الحديث، بدأت تتشكّل وتتحقّق الصور الفردية والجمعية للإنسان الحديث. ومنذ عصر النهضة، بدأ الأفراد المتكثّرون الذين كانوا يظهرون بدرجات ونسب متفاوتة تحت الصورة النوعية للإنسان بوصفه تجسيدًا للنفس الأمّارة، مسيرتهم لتحقيق الأغراض الاستكبارية الأومانيستية. لقد كانت هذه الأغراض الاستكبارية الأومانيستية عين ذات الإنسان الغربي الحديث وطبيعته التاريخية، وهي ملازمة لكيانه لا تنفصل عنه. ومع نشأة العالم الحديث والإنسان الحديث في عصر النهضة، بدأ التغيّر يطال مختلف الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأدبية والفنية والأخلاقية والسياسية والمدنية للعالم، تبعًا لآفاق الوجود وجوهر الذات الحديثة. وقد كان ظهور البوادر الأولى لرأس المال والرأسمالية الحديثة، وثورة التقنية النهضوية، ونشوء السياسات الحديثة، وتشكّل أولى الدول ذات التوجّه الحداثي، وسائر التحوّلات الأخرى التي سبقت الإشارة إليها، جميعها من مظاهر انبثاق العالم الغربي الحديث وبسط نفوذه.

ولد الغرب الحديث بالعنف والاستغلال الرأسمالي والروح العدوانية، معتمدًا على صناعة الأسلحة النارية، وانتهاج سياسة القوّة القائمة على الأهواء، ومعاداة الأخلاق والدين، وتقزيم الإنسان إلى مستوى الحيوان الاقتصادي-الجنسي، واندفع في حركة استعمارية هدفها استغلال ونهب العالم، وهي الحركة التي واصل بواسطتها بقاءه وتوسّعه. لقد كان الإنسان الحديث والرأسماليون الجدد، الذين مثّلوا إحدى التجلّيات الرئيسة لتحقيق جوهر الإنسان الحديث في صورته الاقتصادية-الاجتماعية، أسرى للنزعة الربحية، وللجشع المتزايد والمستمر، والرغبات الذاتية اللامشروعة وغير المحدودة. وكانت مساعيهم

الاستعمارية تعبيرًا عن سعيهم إلى إشباع هذه الأهواء الذاتية. وفي عصر النهضة، كان مركز الحركة الاستعمارية الغربية الحديثة متمثّلًا في البرتغال وإسبانيا، وإلى حدّ ما إيطاليا. ومنذ أواخر عصر النهضة، بدأت إنجلترا كذلك تنشط في هذا المجال، إلى أن تحوّلت تدريجيًا إلى القلب المحوري للاستعمار الأومانيستي الحديث.

واجه المستعمرون الغربيّون السكّان الأصليّين في أمريكا وسكان آسيا وأفريقيا بوحشية وعنف وهمجية مطلقة. فقد قتلوا أعدادًا كبيرة من شعوب آسيا وأفريقيا أثناء اجتياحهم لأراضيهم، واستعبدوا جماعات واسعة منهم، وارتكبوا جرائم لا حصر لها. كان المستعمرون الغربيون ينهبون الشعوب الخاضعة لسيطرتهم من خلال استغلال قوّة عملهم، ومن خلال نهب مواردهم الطبيعية وثرواتهم وإمكاناتهم. كما كانوا يقتادون أعدادًا كبيرة منهم عنوة إلى أوروبا لبيعهم في سوق تجارة الرقيق العالمي الذي أنشأه الغرب الحديث، أو كانوا يجبرونهم على العمل في مزارع الرأسماليّين الأوروبيّين في مختلف المناطق. وكان المستعمرون يعرّضون الشعوب الآسيوية والأفريقية الخاضعة للاستعمار لأنواع شتى من التعذيب والانتهاك الجنسي، ومع ذلك، وبمنتهى الصفاقة، كانوا يدّعون أنّهم إنّما يعملون على «تمدين» هؤلاء الشعوب التي يزعمون أنّها بلا حضارة. لقد نهب الغربيّون أراضي المستعمرات، وأضفوا على اعتداءاتهم تسميات دعائية مثل «تنصير شعوب آسيا وأفريقيا» و«تعريفهم بمقاييس المدنية» وأمثال هذه العناوين. وكان يرافق القوّات العسكرية الاستعمارية دومًا قساوسة ومبشّرون دينيّون، كانت مهمّتهم فرض ثقافة المستعمرين ودينهم وهويّتهم على الشعوب المغلوبة، بل وفي كثير من الأحيان كانوا يفرضون تغيير لغاتهم قسرًا وفق رغبة

المستعمرين، بغية تغريب سكّان المستعمرات بشكل كامل وتحويلهم إلى كائنات مستلبة حديثة أو شبه حديثة. وسنورد فيما يلي أمثلة مقتبسة من مصادر وكتب مختلفة، تُعدّ بمثابة «عينة دالة على الكثرة»، وتكشف عن حجم الجرائم والمآسي التي ألحقها المستعمرون الغربيّون بشعوب آسيا وأفريقيا خلال عصر النهضة والقرون الأولى لانطلاق الحركة الاستعمارية في الغرب الحديث.

«كان البرتغاليون والإسبان ـ ثم من بعدهم الإنجليز والفرنسيّون وغيرهم ـ ينطلقون بدافع اقتصادي على متن سفن مكتظّة بالجنود والأسلحة لغزو الأراضي الواقعة ما وراء البحار. في ذلك الزمن، كان البلاط الملكي الإسباني يبعث بكريستوفر كولومبوس، ومن بعده آخرين، لاكتشاف وفتح أراضٍ ما وراء البحار، وكانت الأراضي المكتشفة حديثًا تبدو للأوروبيين كجنّة أرضية تفيض بالذهب والأطعمة غير المعروفة لديهم. وقد بلغ نصر الاستعمار والاستعمارية ـ بمعنى الاستحواذ على الأراضي الواسعة ـ ذروته منذ ذلك الحين، إلى حدّ أنّ الدول الاستعمارية الأوروبية دخلت في تنافس فيما بينها على المستعمرات، ولم يكن نادرًا أن تخوض حروبًا بسببها. وسرعان ما أخذ المستعمرون يشيعون بأنّ الشعوب الأصلية عبيد بالفطرة، إذ لا كتابة لهم، ولا علم، ولا دين. فراحوا يتعاملون مع السكّان الأصليّين كما يتعاملون مع القطعان والماشية، مسخّرين إياهم جماعات للأعمال الشاقّة، مكبّلين بالأغلال حتى لا يفكّروا بالفرار، وكان كل من يخرج عن حدود ما فُرض عليه يتعرّض للضرب، وربما قُتل. وباختصار، لم يكن أمام السكّان الأصليّين الذين أرادوا أن يعيشوا وفق أهوائهم وطبيعتهم سوى الموت. لقد أُبيد الهنود الحمر التعساء في أمريكا بسبب الأعمال الشاقّة والأوبئة الجماعية، وحلّ المستعمرون مكانهم بجلب العبيد الأفارقة. حينها

أصبحت تجـارة الرقيق تجارة عالمية، إذ نُقل حوالي اثني عشر مليون عبد أفريقي إلى أمريـكا. وما زالت التراتيل الدينية التي ينشـدها اليوم أحفاد أولئك العبيد المسـتضعفين تحكي كثيرًا عن المآسي التي عاشـها أجدادهم. وقد شـاهد أوائل المبشّرين بالمسـيحية الذين ذهبوا إلى مسـتعمرات الأوروبيين بأمّ أعينهم مئات السـكّان الأصليّين ـ رجالًا ونسـاءً وأطفالًا ـ وهم يُكدسون في دهاليز السفن المظلمة لينقلوا إلى إسبانيا كغنائم حرب.

وكان المستعمرون الإسبان ينظرون إلى سكّان مستعمراتهم الأصليّين بهدوء ضمـير كما ينظـرون إلى قطعان الحيوانـات الأليفة. وقد عقـدوا في كوبا صفقة تبادلـوا فيها ثمانين من السـكّان الأصليين مقابل فرس أنثـى. وأما المبشّرون ـ سواء كانوا بروتسـتانت أم كاثوليك ـ فعلى الرغم من أنّهم ربما ذهبوا في البداية بمعزل عن خطط الدول الاستعمارية بهدف نشر الدين المسيحي، إلا أنّهم كانوا، في نهاية المطاف، بمثابة الممهّدين للاستعمار، وبعد رسوخه تعاونوا معه بدرجات متفاوتة، إذ كانت ثمة حاجة متبادلة تجمع بينهم»[1].

يكتب والتر رادني بشأن التأثير التخريبي الذي أحدثه المستعمرون البرتغاليون على اقتصاد بعض الأراضي الأفريقية في القرن الخامس عشر قائلاً:

«لقد دمّر البرتغاليّون التجارة المحلّية في غينيا العليا منذ عقد السبعينيّات من القرن الثالث عشر. كانوا يتدخّلون في نقل القطن الخام ومادة النيلة من جزء إلى آخر من أفريقيا. كما استحوذ البرتغاليّون على تجارة الأصداف في الكونغو والجزر البعيدة عن السـاحل، وسيطروا على تجارة الملح على سواحل أنغولا، وأمسكوا بتجارة الأقمشة الفاخرة المصنوعة من ألياف النخيل بين شمال أنغولا وجنوبها.

١. توكلي، استعمار، استعمارگری، استعمارزدایی، جهان سوم، ١٢ - ١٥.

إنّ تسلّطهم لم يكن بسبب السفن والمهارات التجارية وحدها، بل كان أحيانًا بفعل العنف والقوّة التي استخدموها على السواحل، مستعينين بمدافعهم...

ولأجل دعم تجارتهم بالذهب مع المناطق النائية، أنشأ البرتغاليّون حصنًا في أكسيم قرب رأس ثلاث نقاط، وكانت إحدى وظائف هذا الحصن قطع العلاقات التجارية بين السواحل الشرقية والغربية لأفريقيا. وقد حظر البرتغاليّون على سكّان آكسيم التوجه نحو الرأس، كما منعوا قوارب ساحل العاج من الإبحار شرقًا. وكان الهدف من فصل الأنظمة الاقتصادية في المنطقتين أن يكون التواصل بين السكّان المحليّين حصرًا عبر أوروبا والأوروبيّين. ومنذ القرن الخامس عشر، نشأت رابطة كاذبة بين الأنظمة الاقتصادية في أفريقيا والمناطق البعيدة عن الساحل، بحيث صار يُسمح بنقل الأسرى والعاج من منطقة معيّنة إلى ميناء محدّد في المحيط الأطلسي أو المحيط الهندي. غير أنّ هذا الربط والاتّصال بين الأنظمة الاقتصادية في الأراضي الأفريقية لم يكن حقيقيًا، بل كان مجرّد انعكاس لنفوذ خارجي واسع، هدفه تدمير التجارة المحلّية. لم تختف تجارة ذهب غرب أفريقيا، لكنّها انحرفت عن مسارها التقليدي ـ الذي كان يمرّ عبر الصحراء ويتّصل بشمال أفريقيا ـ وأصبحت تعتمد مباشرة على المشترين الأوروبيين»[1].

مع ظهور الإنسان الحديث الذي يرى ذاته مركزًا للوجود، والعالم الإنساني الأومانيستي، برز رأس المال ونظام الرأسمالية الحديثة، وانطلقت الحركة الاستعمارية للعالم الغربي الحديث بهدف تحقيق أرباح غير مشروعة من خلال الاستغلال والاستعمار. وقد كانت بعض المدن الإيطالية (مثل البندقية)

١. رادنی، اروپا وعقب ماندگی آفریقا، ٢: ٣٦ - ٣٧، ٣٩.

والدولتـان البرتغالية والإسـبانية البادئتين بهـذه الحركة الاسـتعمارية الغربية الحديثة التي اسـتهدفت مختلف أنحاء الكرة الأرضية. وقد لعب الرأسـماليّون والجمعيّات السرّية الماسـونية دورًا مهمًّا وحاسمًا في التخطيط والتنظيم والدعم المالي لهذه المسيرة الاستعمارية.

وكان أحد أمـراء البرتغال، المدعو «هنري» المعروف بلقب «هنري الملاح»، قد أسّـس مرصدًا في مدينة الغارف الواقعة جنوب البرتغـال، ليتولّى من هناك مهمّة اكتشـاف المناطق المختلفة ووضع الخطط لتنفيذ التحرّكات الاسـتعمارية والتوسّـعية نحو تلك المناطق. وقد بادر هنري المـلاح خلال عقد الأربعينيّات مـن القرن الخامس عشر إلى إطلاق تجارة الرقيق. وكان هؤلاء العبيد المسـاكين الذين جلبتْ تجارتُهم أرباحًا طائلة للرأسماليّين الغربيّين، من السكّان الأصليّين لآسـيا وأفريقيا، حيث كان المسـتعمرون الأوروبيون يأسرونهـم أو تختطفهم عصابات صيد العبيد الأوروبية، ويقومون بربط أيديهم وأرجلهم بالسلاسـل، وإجبارهم على اجتياز المسـافات البحرية الطويلة من أفريقيا وآسـيا إلى أوروبا بواسـطة التجديف. وقد لقي كثير من هؤلاء السـكّان الأصليّين حتفهم خلال هذه الرحلات القاسـية بسـبب سـوء الأحوال الصحّية وقلّة الطعام وانتشار الأمـراض، أما من بقي منهم على قيد الحياة حتى وصوله إلى أوروبا، فكان يباع هناك على يد المستعمرين بوصفه عبدًا.

«لقـد اعتمدت الدول الاسـتعمارية الأوروبيـة، سـعيًا وراء تحقيق الثروة بأقصى سرعة ممكنة، في البداية على نظرية ونظام اقتصادي عُرف باسم الاتّجارية (المركنتيلية). وكان أصحاب هذه النظرية يرون أنّ للمسـتعمرات البعيدة قيمة وفائـدة مزدوجتـين: أولًا، كانت تمثّل مصـادر غنية للمواد الخـام التي يمكن

للدولة الأمّ أن تستخرجها وتنقلها إلى أراضيها الأمّ، حيث تُستخدم في إنتاج أنواع متعدّدة من البضائع. جزء من هذه المنتجات كان يُستهلك محلّيًّا، أما الجزء الآخر فكان يُصدّر إلى المستعمرات نفسها، حيث كان السكّان يدفعون أثمانًا مرتفعة مقابلها، ممّا يؤدي إلى زيادة إثراء الدولة الأم (المتروبول). كان من المفترض أن تكون المستعمرات مصدرًا لتوفير الثروة للبلد المسيطر عليها، لا أن تنافسه بصناعاتها المحلّية. وكانت الإمبراطوريات عبارة عن أنظمة اقتصادية مغلقة صُممت لإبعاد المنافسين.

وكان الإسبان أوّل الأوروبيّين الذين أنشؤوا نظامًا اقتصاديًا مغلقًا بهذا النطاق الواسع، معتمدين على تحقيق الدخل من مستعمرات ما وراء البحار. أما البرتغاليّون، جيرانهم، فقد كانوا أول الأوروبيّين الذين استغلّوا جزر الكناري وغيرها من الجزر القريبة من السواحل الغربية لأوروبا. ومع ذلك، فإنّ الإسبان كانوا أول من اجتاز المحيط الأطلسي وأقام مستعمرات دائمة في قارّتي أمريكا الشمالية والجنوبية. وقد تمثّلت أولى عمليّات النزول المصيرية إلى اليابسة في أمريكا الشمالية في عام ١٤٩٢م، عندما وصل كريستوفر كولومبوس إلى جزر الهند الغربية (التي تُعرف اليوم بجزر الكاريبي). ولم يكن كولومبوس يتوقّع في البداية أن يسيطر على السكّان الأصليّين الذين كانت تقنيّاتهم وأسلحتهم أكثر بدائية مقارنة بما كان يمتلكه هو والأوروبيون الآخرون، أو أن يستغلّهم. وفي إحدى مداخلات دفتر يوميّاته، يبدأ بوصف لطيف ومفعم بالمديح للسكّان الأصليّين، لكنّه سرعان ما يقول بلا مبالاة: «إنهم لا يملكون الحديد، ورماحهم مصنوعة من قصب الخيزران. إنّهم يصلحون كثيرًا للخدمة عبيدًا، فبخمسين رجلًا فقط يمكننا إخضاعهم وإجبارهم على القيام بكل ما نريده».

كانت إيزابيل وقادة إسبانيا الذين جاؤوا بعدها، مثل كولومبوس، ينظرون إلى هذه الأراضي والشعوب المكتشفة وراء البحار بوصفها مجرّد سلع للاستغلال... ويكتب ماكنيل: «انطلق الإسبان خلال فترة قصيرة للغاية، بطاقة استثنائية وقسوة بالغة، في اكتشاف العالم الجديد واحتلاله وتحويله إلى مستعمرات». وفي الواقع، بحلول نهاية القرن السادس عشر، كانت إسبانيا قد بسطت سيطرتها الكاملة أو الجزئية على فلوريدا، وكوبا، والمكسيك، وبنما، وفنزويلا، والعديد من المناطق الأخرى في القارّة الأمريكية.

وهكذا أسّس الإسبان أوسع إمبراطورية ما وراء بحرية أوروبية في تلك المرحلة الأولى، وكانت واحدة من أكثر الإمبراطوريات ربحية كذلك. فقد استخرجوا الذهب والفضة، واستغلّوا السكّان الأصليّين بوصفهم عبيدًا، وصدّروا أعدادًا منهم إلى أماكن أخرى، كما أسّسوا نظامًا زراعيًا لإنتاج قصب السكر وسلع أخرى. وبحدود عام ١٥٥٠، أي أقلّ من ستّين عامًا بعد أول رحلة بحريّة لكولومبوس، كانت إسبانيا تجني نحو ٣٠٣ ملايين بيزو (ما يعادل ملايين الدولارات بأسعار اليوم) من نظامها التجاري الاستعماري فيما وراء البحار... وقد قام الإسبان بين عامي ١٤٩٥ و١٥١٥ بإبادة نحو ٨٠٪ من السكّان الأصليّين لهيسبانيولا، الذين كان عددهم يقارب ٢٥٠ ألف نسمة، وبحلول عام ١٦٥٠ كانت شعوب تلك الجزيرة قد أُبيدت تمامًا. إنّ الشعور بتفوّق العرق الأبيض كان الدافع وراء سوء معاملة البرتغاليّين للسكّان الأصليّين في البرازيل، وسوء تعامل البريطانيّين مع السكّان السود في أستراليا، واستعباد الأفارقة على يد البرتغاليّين والفرنسيّين والبريطانيّين وغيرهم. عادةً ما كان يُنقل العبيد السود عبر السفن من أفريقيا إلى مختلف أنحاء العالم، لكن نظام العبودية كان موجودًا أيضًا داخل المستعمرات الأفريقية التابعة لأوروبا.

فعلى سبيل المثال، في «مستعمرة الكيب» الواقعة في أقصى جنوب قارّة أفريقيا، كان المهاجرون الهولنديون ثم البريطانيون يمتلكون عبيدًا ويستغلّونهم وغالبًا ما كانوا يعاملونهم بقسوة... وكان من الوسائل التي استخدمها المستعمرون الأوروبيون للحفاظ على سيطرتهم على الشعوب الأصلية السعي إلى إرغامهم على اعتناق المسيحية. ولتحقيق ذلك، كان المبشّرون المسيحيّون عادةً ما يصِفون معتقدات السكّان الأصليّين بأنّها مجرّد خرافات، ويتعاملون مع السكّان الأصليّين بأسلوب متعالٍ وأرستقراطي»[1].

«إنّ اكتشاف الذهب والفضّة في أمريكا، وسحق السكّان الأصليّين واستعبادهم وتسخيرهم للعمل في المناجم، وبدء غزو منطقة الهند الشرقية ونهبها، وتحويل أفريقيا إلى ميدان لصيد السود، جميعها كانت علامات على ظهور مرحلة الرأسمالية والاستعمار. وقد كتب هاويت عن جرائم النظام الاستعماري قائلاً: «إن الجرائم والاعتداءات والأعمال الوحشية التي ارتكبها الأوروبيون في كل منطقة من العالم ضد كل الشعوب التي تمكّنوا من إخضاعها لا تقارن بفظائع أيّ عرق آخر، مهما كان عنيفًا أو قاسيًا، ولم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم». وتاريخ إدارة المستعمرات الهولندية ـ التي كانت في القرن السابع عشر تتزعّم الدول الرأسمالية الاستعمارية ـ يكشف عن نمط استثنائي من العلاقات المليئة بالخيانة والرشوة والدناءة والمجازر. ولا شيء يعبّر عن طبيعة هذا النظام أكثر من منظومة اختطاف البشر الاستعمارية الهولندية التي كانت تمارس بغرض صيد العبيد في «جاوة». فقد كان خاطفو البشر (صيّادو العبيد) مدرّبين تحديدًا لهذا الغرض، وكان الخاطف والمترجم والبائع هم الوكلاء الأساسيون لهذه التجارة،

١. ناردو، عصر استعمارگری، ٢٠ - ٢٢، ٤٠ - ٤١.

بينما كان الأمراء المحلّيون الخونة حلفاء وعملاء للاستعمار، ويُعدّون كبار البائعين. وكان الشبان الذين يُختطفون بهذه الطريقة يُسجنون في سراديب خفية بجزيرة سيليبس إلى أن يحين موعد شحنهم إلى السفن الناقلة للعبيد. وفي جاوة الهولندية (على سبيل المثال في مدينة مكاسر) كانت هناك سجون سرّية مكتظّة بالبؤساء، وهم أولئك الذين اختُطفوا بالقوّة من أسرهم، وكُبّلوا بالسلاسل، استعدادًا لبيعهم في أسواق العبيد الأوروبية أو إرسالهم للعمل القسري في مزارع أمريكا. إنّ اكتشاف واستخراج الذهب والفضة في أمريكا، ونهب الهند الشرقية، وتحويل أفريقيا إلى ساحة لصيد السود، كانت من العوامل الضرورية لتكوين رأس المال لدى الرأسماليّين الحداثيّين الغربيّين. وهذا هو رأس المال الذي، بعد عمليّة التراكم الأولي، كان يُنمّى عبر استغلال قوّة عمل العمّال، ويُوظف ضمن مدار العلاقات الرأسمالية في الأسواق المختلفة»[1].

يسمّي المؤرّخون الحداثيّون عام ١٤٠٠ ميلادي بداية «عصر الاكتشافات». غير أنّ ما يصفه المؤرّخون الغربيّون الحداثيّون بالاكتشاف ليس سوى التعبير عن بداية الحركة الاستعمارية التي أطلقتها الطبقة الحاكمة العالمية ـ التي بدأت تتشكّل تدريجيًّا منذ القرن الرابع عشر من خلال تحالف رجال السياسة الأوروبيّين والرأسماليّين اليهود والمحافل والجمعيّات السرّية الماسونية ـ بهدف إخضاع الشعوب والأمم غير الغربية، وبدء مسار التغريب القسري لها. وكان من أولى ثمار هذه الحركة الاستعمارية التي أطلقها العالم الغربي الحديث ـ والتي أدّت إلى تأسيس النظام العالمي لهيمنة الاستكبار الأومانيستي ـ استرقاق أعداد كبيرة من الأفارقة والآسيويّين وشعوب شرق أوروبا، وإرسالهم للعمل القسري

1. Boies, Travel and Discovery in the Renaissance, 1420-1620.

في مزارع وأراضي الرأسماليّين الغربيّين، أو بيعهم، فضلًا عن استغلالهم جنسيًا. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر وما بعده، تحوّلت إيطاليا وإسبانيا والبرتغال وبعض مناطق أخرى من أوروبا الحديثة إلى مراكز رئيسية للعبودية الحديثة (مع الإشارة إلى أن العبودية بصيغتها النهضوية أُلغيت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن لا تزال أشكال وصيغ أخرى من العبودية قائمة حتى اليوم في الغرب المعاصر).

«كانت غالبيّة العبيد الذين أُدخلوا إلى دويلات المدن الإيطالية من النساء الشابّات. وقد كانت هناك قوانين خاصّة تتعلّق بالمرأة العبد الحامل؛ إذ كان السيد الذي يلقّح أَمَته يستطيع أن يُرتّب زواجها، أو يبيعها، أو يربّي ولدها عبدًا، أو أن يعتقها ويتزوّجها. وكان العبيد يسعون لتحرير أنفسهم عبر وسائل أخرى مثل الزواج من مواطنين إيطاليّين، أو من خلال إجراءات أكثر خطورة كالهروب أو الانتحار. وكان التجّار الإيطاليّون خلال القرن الرابع عشر يهيمنون على التجارة في البحر الأسود. وقد كانت سوق العبيد المزدهرة في كافا التي يديرها تجّار جنوة تزوّد العائلات الإيطالية والقصور والحريم وجيوش المماليك بالعبيد. وعندما أصبحت مدينة كريت مستعمرة لمدينة البندقية بعد هزيمة المسلمين في الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٥٢)، بدأ بعض من أبرز العائلات الفينيسية بزراعة قصب السكر هناك. وأدّى ارتفاع الطلب على السكر في أوروبا إلى زيادة الاعتماد على العبيد. وفي القرن الخامس عشر، منح البابا الإذن للأمير هنري بأن يعود من أفريقيا حاملًا معه السود كعبيد. ونتيجة لذلك، فإنّه بحلول عام ١٤٤٨م كان قد أُسر أكثر من تسعمائة أفريقي وأُتي بهم إلى لشبونة عبيدًا، حتى بلغ العدد نحو ألف عبد في السنة. وبما أنّ البرتغاليّين كانوا يسيطرون على الطرق

البحرية، فقد اندفعوا بسرعة إلى تجارة العبيد المربحة، وبدؤوا يشترون ويبيعون العبيد على امتداد السواحل الشمالية والجنوبية لأفريقيا الغربية. وبعد مئة عام من أوّل هجوم على سواحل أفريقيا الغربية، كان البرتغاليّون يصدرون أكثر من ثلاثة آلاف عبد سنويًّا من مختلف أنحاء القارّة الأفريقية. وفي مدينة لشبونة البرتغالية، كان يوجد أكثر من ستّين سوقًا للعبيد، وشكّل العبيد عُشر سكان المدينة. وقد وصف أحد البريطانيّين تأثير الرحلة المضنية التي كان يقطعها العبيد من أعماق أفريقيا إلى الساحل بقوله: «إنّ الأمر يشبه إرسال قطعة ضخمة من الجليد إلى لندن تحت شمس حارقة. أنت تعلم أنّ جزءًا من الجليد سيذوب قبل أن تصل إلى بلدك، ولكن ما يتبقّى سيكون كافيًا لتلبية حاجتك. وأنا متأكّد من أنّه مقابل كلّ عبد يُباع في زنجبار، يموت أربعة أو خمسة عبيد». وبعد وصول الأوروبيّين إلى أمريكا، كان المستعمرون في نيو إنجلاند يأسرون السكّان الأصليّين من الهنود الحمر ويستعبدونهم أو يبيعونهم، وأحيانًا كانوا يبادلونهم بالعبيد السود»[١].

كتب ألبر مالِه وجول إيزاك عن المستعمرين الغربيين الحديثين وممتلكاتهم الاستعمارية والجرائم التي ارتكبوها بحق السكّان الأصليّين في المستعمرات قائلين:

«لقد غزا ألبوكيرك لصالح البرتغال، كما غزا كورتيس وبيزارو لصالح إسبانيا، مستعمرات عظيمة، وأصبحت هاتان الدولتان في القرن السادس عشر أغنى دول أوروبا. وكانت الدافع الرئيس للاكتشافات الكبرى هو الجشع والرغبة في تحصيل الثروات. ففي حدود سنة ١٣٦٠م، وصل بحارة دييب، ومن بعدهم بحارة روان، إلى خليج غينيا. وخلال عهد شارل الخامس وجزء من

١. ماخت، تاريخ برده دارى، ٣٩ - ٤١، ٥٠، ٥٣، ٥٧ - ٥٨، ٦٨.

عهد شارل السادس، أي بين عامي ١٣٦٢ و١٤١٥م، كانوا يسافرون إلى بعض سواحل أفريقيا، التي لا تزال تُعرف حتى اليوم بساحل الذهب وساحل العاج، لشراء السلع المتنوّعة، ولا سيّما العاج وغبار الذهب. غير أنّ أحداث حرب المئة عام واحتلال الإنجليز لشمال فرنسا أدّت إلى تمزّق تلك التجارة الأفريقية. ومع اكتشاف البرتغاليّين لطريق الهند، قرّروا احتكار تجارة المحيط الهندي لأنفسهم، ليجنوا الأرباح دون منازع. فاستولوا على أهمّ الموانئ، وسلكوا سلوكًا وحشيًا، وسعوا إلى طرد منافسيهم بكل قوة. ففي عام ١٥٠٢م، التقى فاسكو دا غاما، الذي كان قائدًا لأسطول من عشرين سفينة، بسفن العرب المحمّلة بالأرز قبالة سواحل كاليكوت، وأمر بقطع أيدي وآذان وأنوف طاقم السفن، الذي بلغ عدده ثمانمائة شخص، ثم أُعيد الضحايا إلى سفنهم وأضرمت فيها النيران. وفي عام ١٥١٩م، توجّه فرناندو كورتيس الإسباني في شهر أغسطس مع ثلاثمائة من المشاة وخمسة عشر فارسًا وعشر مدافع نحو المكسيك، ووصل إليها في شهر أكتوبر. لم يتمكّن مونتيزوما، إمبراطور المكسيك (الذي كان أكثر من ستّمائة من كبار رجال دولته وأعيان بلاطه يخدمونه كل صباح)، من إيقاف تقدّم كورتيس، فدخل معه في صلح واستقبله استقبالًا وديًّا. وبعد ستّة أيام، بحجّة أنّ بعض المكسيكيّين اعتدوا على عدد من الإسبان، قبض كورتيس على مونتيزوما وفرض عليه نوعًا من الحماية، فحكم المكسيك قرابة عام كامل مستخدمًا شخصية الإمبراطور مع شيء من الملاينة والهدوء. وقد سلك الفاتحون الإسبان الجشعون والمتوحّشون سلوكًا وحشيًا في أرض المكسيك وبيرو، وكانوا يتعطّشون إلى الذهب بنهمٍ شديد. وقد أحرق الإسبان كواوتيموك، خليفة مونتيزوما، حيًّا بتهمة أنّه امتنع عن الإرشاد إلى مكان إلقاء أموال الخزانة في البحر. كما أمر أحدُ الضبّاط الإسبان

ذات مرّة بحرق أربعمائة وستّين مكسيكيًّا أحياءً دفعة واحدة. وفي مملكة بيرو، جاء أتاوالبا، إمبراطور الإنكا، غير مسلّح إلى معسكر الإسبان. فسلّمه راهب إنجيلاً وقال له: «عليك أن تؤمن بما ورد في هذا الكتاب». فقرّب أتاوالبا الكتاب إلى أذنه، ولما لم يسمع منه شيئًا، ألقى به على الأرض. فهجم عليه الإسبان، ولما أراد الإمبراطور أن يفتدي نفسه، قبل بدفع فدية ضخمة بلغت مائتي حمولة من الذهب وأربعمائة حمولة من الفضة. ومع ذلك، لم يُطلق سراحه بعد دفع الفدية، بل اتُّهم بالخيانة، وقُدّم إلى محكمة صورية حكمت عليه بالإعدام حرقًا. غير أنّهم لما قبل بالتعميد المسيحي، عاملُوه بنوع من «الرحمة»، فلم يُحرق حيًا، بل خنقوه أولًا، ثم أحرقوا جسده. وبعد ذلك أقاموا له مراسم حداد وقرؤوا الأدعية لأجل روحه. أمر أحد ضباط بيزارو [وكان بيزارو من قادة القوات الاستعمارية الإسبانية] في مدينة كيتو بخنق جميع الرجال أولًا، ثم أضرم النار في المدينة. وكان سلوك الفاتحين الظالمين، سواء أثناء الحرب أم بعد النصر، وحشيًا وشنيعًا؛ وحتى بعد أن أصبح السكان الأصليّون لأمريكا مطيعين وخاضعين تمامًا، لم يكفّ الإسبان عن بغيهم، بل عمدوا إلى تقسيم السكّان بين أولئك الذين قدّموا لزراعة الأرض، فكان السكّان الأصليّون يُجبرون على العمل في خدمة المهاجرين بلا أجر ولا مقابل. كما ألقيت على عاتقهم أعمال استخراج الذهب والفضّة وشقاء العمل في المناجم، وقد أودت هذه الأعمال الشاقة والظروف القاسية بحياة الآلاف منهم. ويُقال إنّه عندما اكتشف كريستوفر كولومبوس جزيرة سان دومينغو عام ١٢٩٢م، كان يقطنها أكثر من مليون نسمة، ولكن بعد سبعة عشر عامًا فقط (١٥٠٩م)، لم يتبقَّ منهم سوى أربعين ألف نسمة،

وبعد خمس سنوات أخرى، لم يبقَ سوى ثلاثة عشر ألفًا، وقد هلك الباقون»[١].

وفيما يتعلّق بالجرائم والفظائع والمظالم التي ارتكبها المستعمرون الغربيّون الحداثيّون بحقّ السكّان الأصليّين للأراضي التي حوّلها الحداثيّون إلى مستعمرات بالقوّة والقهر، فإنّ هناك شواهد وأمثلة ومصاديق كثيرة، ويؤدّي نقل حتّى جزء منها إلى الإطالة المفرطة في هذا المقال، لذلك نكتفي بما ذُكر.

النهضة وتأسيس نظام الهيمنة العالمية للغرب الحديث

مع ظهور العالم والإنسان الحديث، فعّل الإنسان الغربي الحديث ـ بوصفه تجسيدًا للذات المستقلة ـ إرادته الأومانيستية الاستعلائية، مجسّدًا نزوعه إلى السيطرة والتمركز حول ذاته. وقد كان الغرب الحديث قد بدأ حركته الاستعمارية منذ القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أنّ ما بعد عام ١٤٠٠م شهد انطلاق حركة استعمارية شاملة ومنظّمة ضد الشعوب والأمم غير الغربية وغير الحديثة. وقد أدّت هذه الحركة الاستعمارية الواسعة والمطّردة والمنهجية بسرعة إلى تأسيس نظام عالمي للهيمنة. ويمكن اعتبار البرتغاليّين والإسبان رواد هذه الحركة الاستعمارية الغربية الحديثة، لكن سرعان ما تحوّل الهولنديون والفرنسيون والإنجليز إلى القوى المهيمنة الرئيسية داخل هذا النظام العالمي. وفي القرن العشرين، لا سيّما بعد الحرب العالمية الأولى، صارت الولايات المتحدة الأمريكية تدريجيًّا تتبوّأ موقع القيادة في نظام الهيمنة العالمية للاستكبار الحديث.

لقد أنشأ الغرب الحديث نظام هيمنة أومانيستي اتّسم بالظلم والاستغلال. وقد قسّم هذا النظامُ الحداثي الجائر العالمَ عمليًّا إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: وهي دول المتروبول التي تشكّل الكتلة المركزية الرئيسية لنظام

١. ماله وإيزاك، تاريخ قرون جديد، ٢٣، ٢٩ – ٣٠، ٣٢ – ٣٤، ٤٣، ٤٥، ٤٦.

الهيمنة. وهذه الدول تتّسم بالطابع الرأسمالي. ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديّين، أُسّس نظام الهيمنة العالمية للغرب الحديث على يد دول المتروبول آنذاك، وهي إيطاليا والبرتغال وإسبانيا وهولندا وإنجلترا. ولاحقًا، انضمّت فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وكندا وبعض الدول الأخرى إلى مجموعة دول المتروبول. تشكّل الأوليغارشية اليهودية، وأعضاء العصابات الماسونية ، وكبار الرأسماليّين، والساسة، ورجال الدولة، والمثقّفين التابعين لدول المتروبول، النواة الأساسية لـ«الطائفة الخفيّة للحكّام العالميّين». لقد صُمّم بنيان وهيكلية نظام الهيمنة العالمية الأومانيستي بحيث تتدفّق التيّارات الرئيسية لرأس المال والأرباح والمصالح إلى جيوب دول المتروبول، فيما لا تحصد دول الطبقتين الثانية والثالثة، ولا سيما دول الطبقة الثالثة، سوى المعاناة والفقر والظلم والاستغلال والنهب. تدير الطائفة الخفية العالمية نظام الهيمنة الاستكبارية للغرب الحديث.

ويمكن اعتبار الطبقة الأولى النواة الأساسية والمركزية لهذا النظام العالمي. لقد ازدادت قوّة دول المتروبول وترسّخت هيمنتها عبر استغلال قوّة عمل الشعوب الأخرى، ونهب الموارد الطبيعية، وتحويل البلدان الأخرى إلى مستعمرات خاضعة لسلطتها، وهي توظّف هذه القوّة لزيادة مدى وعمق وأبعاد سيطرتها ونهبها وظلمها.

تتألّف دول المتروبول من القوى الاستعمارية الرأسمالية في الغرب الحديث. صحيح أنّ بنية وتكوين الدول والعناصر المهيمنة ضمن كتلة المتروبول قد شهدت بعض التغيّرات منذ القرن الرابع عشر، لكن القوى الاستعماريّة الرأسمالية للغرب الحديث ظلّت على الدوام المكوّن الرئيسي لهذه الكتلة، وكان القادة، والممثّلون، والمنظّرون، والرأسماليّون لهذه الدول هم أعضاء الطائفة الخفية الحاكمة للعالم.

وتشكّل الجمعيّات والمنظّمات والمحافل اليهودية-الماسونية الطيف الغالب والرئيسي ضمن هذه الطائفة. لقد كانت كتلة الدول الرأسمالية الاستعمارية الحديثة في الغرب هي المؤسّس والمخطّط والمدير لنظام الهيمنة العالمية الأومانيستي. ففي القرنين الرابع عشر حتى الثامن عشر، كانت إيطاليا (إلى حدّ ما)، والبرتغال، وإسبانيا هي الأعضاء الرئيسيّون والعنصر المهيمن في كتلة المتروبول، لكن في القرن السادس عشر، أصبحت إسبانيا القوة المهيمنة لهذه الكتلة. وفي القرن السابع عشر، تحوّلت هولندا إلى القوّة الأساسية لكتلة المتروبول. أما في القرن الثامن عشر، فقد أصبحت فرنسا وإنجلترا (وخاصّة إنجلترا) القوّة المهيمنة. وقد كان القرن التاسع عشر قرن هيمنة إنجلترا على نظام الهيمنة العالمية، مع بروز تدريجي لمنافسين مثل فرنسا وألمانيا. وفي العقود الأولى من القرن العشرين، ومع أفول القوة والنهب الهيمني لإنجلترا، تحوّلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى العنصر المهيمن في نظام الهيمنة العالمي. واليوم، في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين، ومع تعمّق وتفاقم أزمة الانحطاط في الغرب الحديث، بدأ أفول الهيمنة الأمريكية في مجمل نظام الهيمنة العالمية يظهر بوضوح.

الطبقة الثانية: يمكن اعتبارها الدول شبه الطرفية. فالدول شبه الطرفية ضمن منظومة النظام العالمي للهيمنة الرأسمالية الأومانيستية هي تلك الدول الخاضعة لسلطة دول الطبقة الأولى (كتلة المتروبول) والمدارة بشكل غير مباشر من قبلها. تخضع الدول شبه الطرفية لنهب واستغلال من قبل كتلة المتروبول، غير أنّ قسطًا ضئيلًا من التيّار العالمي للنهب والاستغلال يُخصّص لها بفعل طبيعة بنية النظام العالمي للهيمنة وطبيعة الطائفة الخفية الحاكمة للعالم. إنّ دول الطبقة الثانية (شبه الطرفية) واقعة تحت التبعية والهيمنة والظلم والاستغلال من قبل النظام العالمي

وكتلة المتروبول، لكنّها تنال جزءًا ضئيلًا من تدفّق رأس المال والقيمة الفائضة. وقد نشأت الدول شبه الطرفية في بنية النظام العالمي الاستكباري الحديث خلال القرن العشرين، ولم تكن موجودة خلال عصر النهضة والقرون الممتدّة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. وفي المشهد العالمي المعاصر، يمكن اعتبار الصين نموذجًا على الدول شبه الطرفية.

الطبقة الثالثة: أشدّ طبقات النظام العالمي الاستكباري بؤسًا وخضوعًا هي «الدول الطرفية» (ويُطلق عليها البعض «العالم الثالث»). وهذه الدول لا تنال من العلاقات العالمية سوى الاستغلال والنهب والتبعية والفقر والشقاء والظلم. وقد تحوّلت معظم دول وشعوب العالم إلى موقع الدول الطرفية بفعل هيمنة دول المتروبول. إنّ كتلة الدول المتروبولية تمارس استغلالًا شاملاً لهذه الدول الطرفية، فتنهب قوّة عمل شعوبها، وتسطو على مواردها الطبيعية، وتدمّر اقتصادها وثقافتها ومختلف أوجه حياتها الاجتماعية. وقد حوّلت الدول الرأسمالية المتروبولية أراضي وشعوب الأطراف إلى سوق استهلاكية لمنتجاتها وسلعها واستثماراتها.

ومنذ تأسيس وبناء النظام العالمي الاستكباري، كان استغلال ونهب الشعوب والأراضي الطرفية مقوّمًا جوهريًا لهذا النظام. ولم يكن بوسع العالم الغربي الحديث أن يستمرّ أو يتمدّد دون إنشاء نظام عالمي للاستعمار والهيمنة، ودون استغلال ونهب شعوب وموارد وأراضي الأطراف. إنّ ذات وجوهر الغرب الحديث يقومان على الاستكبار، والنزعة النفسية الأنانية، والظلم، ولا يمكن له أن يبقى ويستمر إلا عبر الظلم والجريمة والهيمنة والاستغلال. وقد قام النظام العالمي للهيمنة الذي أسّسه الغرب الحديث ـ بزعامة دول كتلة المتروبول ـ على

تقسيم العالم إلى قسمين: قسم مترف وقسم جائع، أو بصيغة أخرى: إلى «الشمال» و«الجنوب». ففي أحد طرفي العالم، توجد قلّة من الدول الاستعمارية المتروبولية (الطبقة الأولى) التي تُسمّى «الدول المترفة» أو «عالم الشمال»، وفي الطرف الآخر، تقبع الكثرة الكاثرة من الدول الخاضعة، سواء من الدول الطرفية أو شبه الطرفية، وهي التي توصف بـ«الدول الجائعة» أو «عالم الجنوب». وقد وصلت دول الجنوب إلى حال الفقر والبؤس والشقاء نتيجة خضوعها لهيمنة واستعمار عالم الشمال. وفي الواقع، فإنّ هذه القلّة من الدول الاستعمارية الغربية الحديثة هي المسؤولة والمذنبة في إفقار وشقاء الغالبية العظمى من سكّان العالم، الذين يُعرفون اليوم باسم «العالم الثالث» أو «عالم الجنوب». فالعلاقات الاستعمارية الظالمة التي فرضها الاستكبار الحديث هي التي أدّت إلى غرق معظم شعوب العالم ـ لا سيّما في الدول الطرفية وشبه الطرفية ـ في مستنقع الفقر والتعاسة والعبودية. وقد تأسّس هذا النظام العالمي الرأسمالي الظالم وبدأ بالاتّساع منذ عصر النهضة. مع الإشارة إلى أنّه حتى داخل الدول المتروبولية نفسها توجد تقسيمات طبقية؛ إذ إنّ الرأسماليّين المستغلّين الظالمين يحكمون ويستغلّون الطبقات الدنيا في مجتمعاتهم. إلا أنّ التدفّق الهائل للأرباح ورؤوس الأموال نحو دول المتروبول ـ وهي أرباح ناتجة عن استغلال ونهب الدول الطرفية وشبه الطرفية ـ جعل مستويات المعيشة والمعايير الاقتصادية في دول المتروبول أعلى نسبيًا مقارنة بالدول الخاضعة. وقد صُمّمت بنية النظام العالمي للهيمنة بطريقة لا تسمح للدول الطرفية وشبه الطرفية بالنموّ أو الاستقلال، بل تُفرض عليها أدوار وأطر تبعية وهامشية تحدّدها الطائفة الخفية الحاكمة للعالم، بحيث تبقى هذه الدول والشعوب في حالة دائمة من الضعف والعبودية والمهانة.

يمكن تلخيص السمات الأساسية لنظام الهيمنة العالمية الذي أنشأه الغرب الحديث على النحو الآتي:

١. تُعدّ الطائفة الخفية للحكّام العالميّين ودول المتروبول الرأسمالية المركزَ المحوري والأساسَ الرئيسي لتصميم وتخطيط وإدارة النظام العالمي الاستكباري.

٢. إنّ النظام العالمي للهيمنة الأومانيستية نظام ظالم واستغلالي واستعماري، وجوهره وغايته النهائية قائمة على النزعات النفسية الأنانية.

٣. تخضع الطائفة الحاكمة العالمية لسيطرة الأوليغارشية اليهودية-الماسونية، وهي تتبنّى الأهداف الصهيونية والمعادية للإسلام منذ البداية وحتى اليوم.

٤. نشأ النظام العالمي للهيمنة الاستكبارية منذ عصر النهضة. وقد كان شخصيات مثل كريستوفر كولومبوس، فاسكو دا غاما، جان دي بيثانكور، هنري الملاح، ماجلان، كورتيس، فرانسيسكو بيثارو، وألماغرو من طلائع الحركات الاستعمارية ضدّ الشعوب والأمم غير الأوروبية.

٥. اعتدى النظام العالمي للهيمنة الذي أسّسه الغرب الحديث على حياة وبنية وطبيعة المجتمعات غير الغربية وغير الحديثة، ودمّرها. فمنذ عصر النهضة، ومع محورية كتلة الدول المتروبولية، بدأ مسار العولمة القسرية (أي عملية التغريب الحداثي وشبه الحداثي الإجباري) لجميع الأراضي والشعوب على سطح الأرض. وقد نُفّذ هذا المسار على عدّة مراحل وأمواج متتالية. في مشروع العولمة القسرية، تعرّضت جميع أشكال العوالم والتواريخ غير الغربية وغير الحديثة لهجمات مدمّرة، وتمّ تدميرها على مدى بضعة قرون. وقد أدّت عملية تطوّر العولمة والحداثة وشبه الحداثة القسرية إلى تدمير التطوّر التاريخي لجميع الحضارات غير المنتمية إلى الغرب الحديث، وأوقفت حركتها ونموّها. وتحت

هيمنة النظام العالمي الشامل للاستكبار الغربي الحديث، تحوّلت جميع الدول غير الحديثة إلى توابع وملاحق منهوبة ومستعبدة للنظام الرأسمالي المتروبول، واعتُدي على استقلالها وحرّيّتها وهويّتها، حتى أُصيبت بأضرار بالغة أو أُبيدت بالكامل.

٦. إنّ نظام الهيمنة العالمية نظام استبدادي وعنيف وحربي وسلطوي وقهري. فالنظام العالمي للهيمنة الأومانيستية نظام رأسمالي، وقد أصبحت الصيغة النيوليبرالية للرأسمالية سائدة فيه منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين.

إنّ النهضة تمثّل مولد العالم الغربي الحديث وبداية نشوء نظام الهيمنة العالمية الاستكبارية الأومانيستية الذي أفرزه هذا العالم. ومنذ ذلك الحين، بات تاريخ جميع الشعوب والأمم والأراضي في العالم، بشكل أو بآخر، بدرجات ونسب متفاوتة، سواء بإرادتها أو من غير إرادتها، متأثّرًا بالحضور الاستعماري والظالم والسلطوي للعالم الغربي الحديث وللدول الرأسمالية المتروبولية وللنظام الاستكباري الذي أنشأته. إنّ للعالم الغربي الحديث ولنظامه العالمي طبيعة ظالمة، لا دينية، استبدادية، استكبارية وأومانيستية. وكل أمة تتطلّع إلى العدل، والدين، والمعنوية، والاستقلال، والعزة، والحرّية، لا خيار لها سوى مقاومة هيمنة الاستعمار الغربي الحديث، والتصدّي للطائفة الخفية للحكّام العالميّين ولدول المتروبول الرأسمالية. ولا سبيل أمام هذه الأمم إلا السعي للتحرّر من التبعية الطفيلية للعلاقات الرأسمالية الدولية، والسير في طريق التحرّر والاستقلال والحياة الدينية العادلة.

٥. النهضة في نظرة مجملة

في هذا الفصل، نروم تقديم تقييم مختصر ومركّز لدورة النهضة ومكانتها في العالم الغربي الحديث، بوصفه خلاصة تأملية.

- النهضة هي العنوان الافتتاحي لبداية العالم الغربي الحديث. وقد بدأت النهضة في القرن الرابع عشر الميلادي (ويمكن القول إنّها بدأت في منتصف هذا القرن تقريبًا).
- النهضة تمثل طور انطلاق الغرب الحديث، غير أنّ مركزها الأساسي كان بعض المدن الإيطالية مثل فلورنسا والبندقية. ومع أنّ بعض المظاهر والعلامات الأولى للعالم الغربي الحديث ظهرت وتحقّقت بالتزامن مع إيطاليا في مناطق أخرى من أوروبا الغربية، إلا أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّ الوجوه الثقافية والاجتماعية للنهضة قد تجلّت بوضوح أكبر في إيطاليا دون غيرها.
- في عصر النهضة، نشأت، خصوصًا في بعض المدن الإيطالية، حركة أدبية-ثقافية كانت بمثابة الطليعة للفكر والثقافة الحديثة. وقد طغى في بدايتها الطابع الأدبي لهذه الحركة، متجلّيًا في الاهتمام المتزايد بآداب اليونان وروما القديمتين، واستلهامها والتأثّر بها، غير أنّ البعد النظري والفلسفي للحركة الإنسانية (الأومانيستية) شكّل جوهرها الأساس، حيث سعت إلى تقديم تعبير فلسفي ونظري عن النزعة الإنسانية. وقد تجلّى هذا البعد النظري والفلسفي للحركة الإنسانية في أفكار وآثار مفكّرين مثل بيير دوبوا، مارسيليوس البادوي، جيوفاني بوكاتشيو، فرانشيسكو بتراركا، وبصورة خاصة في أفكار وأعمال فلاسفة مثل نيكولاس الكوزي، لورينزو فالا، جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا، مارسيليو فيتشينو، ليوناردو بروني، ونيكولو مكيافيلي، وغيرهم من الأعلام.

- لقد كانت الفِكرَة والثقافة والأدب والفن في عصر النهضة أولى صور تجلّي الوجه النظري للإنسانوية والحداثة. ومع ذلك، لا تزال بعض الملامح والعناصر الموروثة من فكر وثقافة الغرب في العصور الوسطى حاضرة في آراء مفكّري عصر النهضة. إلا أنّ الطابع الغالب على الفكر والثقافة في النهضة كان طابعًا أومانيستيًا.
- وقد ظهرت الإنسانوية والحداثة في عصر النهضة أيضًا في بُعدها العلمي، حيث تجلّت ملامحها في نشوء التجارة ورأس المال والرأسمالية الحديثة، وفي المصانع اليدوية (المانوفاكتورات)، وفي العلاقات السياسية والمدنية والأخلاقية والعائلية الحديثة لعصر النهضة، وكذلك في ميادين الفنون والعمارة والمدن والحروب والسياسة الخارجية والدبلوماسية.
- إنّ عالم الغرب الأومانيستي هو عالم العدمية الأومانيستية، وقد ظهرت الصورة الأولى والابتدائية لهذه العدمية بين الإنسان والعالم في عصر النهضة على المستَوَين النظري والعملي.
- وقد اتجه المفكّرون البارزون في عصر النهضة إلى إعادة قراءة الفلسفة الأفلاطونية المحدثة بروح حداثية. ومن أبرز هؤلاء المفكّرين: مارسيلو فيتشينو، جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا، ونيكولاس الكوزي، الذين كانوا جميعًا متأثّرين بعمق بتعاليم القبالة، وكانت لهم صلات مع المحافل الماسونية والأوليغارشية اليهودية. لقد كانت الفلسفة الأومانيستية لعصر النهضة، في تفسيرها للإنسان ولعلاقة الإنسان بالعالم، مستلهمة بدرجة كبيرة من تعاليم القبالة ومن القراءات العلمانية لوحدة الوجود. وكانت الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا أحد أهمّ المدارس والمراكز الرئيسية لتأصيل النظريات وصياغة

الأسس الفكرية والثقافية للنهضة. ويمكن اعتبار إعادة قراءة الفلسفة الأفلاطونية المحدثة بروح أومانيستية، مع الاستلهام من القبالة ومن وحدة الوجود العلمانية، الركن الأساسي لعقائد ورؤية الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا.

- لقد نشأ الاقتصاد الحديث (اقتصاد الرأسمالية) وأولى صور الرأسمالية الحديثة خلال عصر النهضة. وقد تجلّت الرأسمالية في عصر النهضة أساسًا في صورة رأس المال التجاري، ورأس المال الصناعي من نوع المصانع اليدوية (المانوفاكتورات)، ورأس المال المصرفي والربوي. ويمكن اعتبار مدن البندقية وفلورنسا وبعض مدن أوروبا الغربية (مثل لوبيك ومرسيليا وبروج...) من بين أوائل المراكز التي ظهر فيها رأس المال الحديث.
- وفي عصر النهضة، كان لليهود والأوليغارشية اليهودية والجمعيات السرّية الماسونية، المستلهمة من تعاليم القبالة، الحضور الغالب في ميادين الثقافة والسياسة والاقتصاد. وكان معظم الرأسماليّين في عصر النهضة (الذين يُعدّون أول جيل من الرأسماليّين الحديثين) من اليهود. وقد كان هؤلاء الرأسماليون اليهود يعملون تجّارًا ومقرضين وصيارفة، وكانوا يموّلون الحركة الأدبية-الثقافية الأومانيستية، والمفكّرين الأومانيست، والمحافل والجمعيات الماسونية السرّية المتآمرة.
- التحالف الذي نشأ منذ القرن الحادي عشر الميلادي بين الأوليغارشية اليهودية ورجال الدولة المسيحيّين الأوروبيّين، فقد تطوّر في عصر النهضة إلى تشكيل «طائفة الحكّام الخفية للعالم». وعلى الرغم من وجود تيّارات وجناحات متنوّعة ضمن هذه الطائفة، إلا أنّ الجناح الماسوني-اليهودي ظلّ،

منذ عصر النهضة وحتى اليوم، هو الجناح الغالب والمهيمن داخلها، رغم كل التغيّرات التي طرأت على تركيبة الطائفة وبنيتها. وقد ظلّت طائفة الحكّام الخفية للعالم، منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا، تحمل أغراضًا معادية للإسلام، وتتولى هذه الطائفة إدارة النظام العالمي للهيمنة الاستكبارية الحديثة.

- لقد أنشأ العالم الغربي الحديث، بهدف تحقيق أغراضه الربحية وطموحاته الاستعمارية الجشعة، نظامًا عالميًا للهيمنة الأومانيستية يرتكز على دول المتروبول الرأسمالية وتديره طائفة الحكّام الخفية للعالم. ولم يكن لهيمنة النظام العالمي للغرب الحديث على الشعوب والأراضي غير الغربية وغير الحديثة نتيجةٌ سوى الاستعباد والشقاء والتبعية والاستغلال، ولا يزال الأمر كذلك إلى اليوم.
- مع ظهور الرأسماليّين الحديثين، شهدنا نشوء صراع دائم ومستمر بين الرأسماليّين الحديثين والنبلاء الإقطاعيّين.
- في عصر النهضة، ومع النهضة، يظهر الإنسان الحديث. إنّ الصورة المثالية للإنسان الحديث هي صورة الإنسان البرجوازي، وهي تجسيد لاختزال الإنسان إلى مرتبة الحيوان الاقتصادي-الجنسي. وتمثّل الطبقة الرأسمالية الحديثة أقرب تعبير عن هذه الصورة المثالية للإنسان الحديث. ومع نشوء العالم الحديث، بدأت المجتمعات الحديثة بالتشكّل تدريجيًا. ففي هذه المجتمعات، برزت طبقات اجتماعية-اقتصادية جميعها ترتبط بشكل أو بآخر بصورة الإنسان كحيوان اقتصادي-جنسي، غير أنّ الطبقة الرأسمالية الحديثة كانت الأكثر اقترابًا من هذه الصورة، سواء في عصر النهضة أو فيما تلاه. وقد ظهرت أولى أنماط وصور المجتمعات الحديثة وطبقاتها الاجتماعية-الاقتصادية خلال عصر النهضة.

- وفي عصر النهضة بدأ العالم الغربي الحديث حركته العدوانية نحو استعمار وإخضاع جميع أرجاء كوكب الأرض. ويمكن اعتبار حدود عام ١٤٠٠ ميلادي بداية الحركة المنظّمة للاستعمار الغربي الحديث. وقد تبلورت هذه الحركة الاستعمارية تحت عنوان «عصر الاكتشافات» في حدود عام ١٤٠٠ ميلادي بشكل منظّم، رغم أنّ جذورها تعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ومع انطلاق هذه الحركة الاستعمارية، شرع الغرب الحديث في تأسيس وتوسيع نظام عالمي للهيمنة.
- كانت النهضة عصر الفوضى السياسية والفساد الأخلاقي وتعميق أزمة الانحطاط الكنسي، لا سيّما في الكنيسة الكاثوليكية.
- وكانت النهضة أيضًا زمن ظهور الدول الحديثة الديمقراطية-الاستبدادية، التي اتّخذت صور الجمهوريات أو الأنظمة الملكية أو الحكومات الاستبدادية. ففي قلب عصر النهضة، برزت أولى الدول الاستبدادية الحديثة، وهي التي هيّأت الأرضية ورَسّخت هيمنة الرأسمالية الحديثة. وكانت الدول الحديثة في عصر النهضة غالبًا ما تدخل في نزاعات وتنافسات سلطوية وأنانية فيما بينها، فتخوض الحروب بغية السيطرة على المستعمرات وتحقيق مطامعها التوسّعية.
- قد ظهرت السياسة الحديثة، بمضامينها النظرية والعملية، في عصر النهضة. كما تجسّد لأول مرّة في عصر النهضة ظهور الإنسان الحديث، ومفهوم الفردانية الحديثة. وجوهر السياسة الحديثة يتمثّل في المكر والخداع وحب السلطة الذاتي، المنفصل عن الدين والأخلاق. ويُعدّ تشيزري بورجا النموذج الأبرز للإنسان الحديث في عصر النهضة، لا سيما في هيئة السياسي ورجل الدولة. فقد كان تشيزري بورجا الابن غير الشرعي للبابا ألكسندر

السادس، وقد جسّـد هو وأبوه ملامح الخداع والخيانة والسياسة النفسانية المنفصلة عن الدين والأخلاق في عصر النهضة. وقد كتب سيدني دارك عن هذا الأب والابن قائلًا:

«كان رودريغـو بورجا رجل دسـائس وطموحات مفرطـة وصبر ومثابرة كبـيرة. أمضى أربعةً وثلاثين عامًا في جمع الثروات، وكان ينجب باسـتمرار عددًا كبيرًا من الأولاد غير الشرعيّين. وبواسطة المال، كان يشتري له أنصارًا وأتباعًا من بين الشـخصيات النافذة وذات الكلمة المسموعة، حتى تمكّن في عام ١٤٩٢م من اعتلاء عرش البابوية، وأطلق على نفسه لقب البابا ألكسندر السـادس. وليس ثمّة حاجة لإيراد تفاصيل الفضائع التي اقترفها هذا البابا وابنه، من جرائم وقتل وتسميم ودسـائس ومؤامرات، والتي انتهت أخيرًا بتسميم البابا نفسه سنة ١٥٠٣م»[١].

كان تشـيزري بورجـا واحدًا من أبرز تجلّيات الروح الشـيطانية للسياسـة العلمانية-الأومانيستية الحديثة في عصر النهضة.

- وفي عصر النهضة، شـهدنا نمطًا من الثورة التقنية. فمن خلال الثورة التقنية لعصر النهضة، برزت الصورة الأولية للتقنية الحديثة. وقد كان للثورة التقنية الغربيـة الحديثة في عصر النهضة أوجه متعدّدة، ومن أبرز هذه الوجوه بروز البعد العسكري والحربي، وهو ما يعكس بوضوح الطبيعة القمعية والعدوانية والميليتارية للعالم الغربي الحديث.
- وكانت العدمية الحديثة في عصر النهضة ذات طابع سـلبي بالدرجة الأولى، أي سلب وإنكار للعدمية الثيوسانترية السائدة في القرون الوسطى، في حين كان جانبها الإيجابي باهتًا وضعيفًا.

---

١. دارك، تاريخ رنسانس، ٤٠.

- وفي عصر النهضة، تمّ وضع أسس السياسة الخارجية والدبلوماسية الحديثة، كما تم تأسيس البنى والنظم والقوانين والأنظمة التي حكمت العلاقات الدولية لاحقًا. وقد كان العديد من الكهنة والمبشّرين المسيحيّين في عصر النهضة وكلاء وأدوات مباشرين بيد المستعمرين الحداثيين، يعملون على خداع شعوب المستعمرات وتضليلهم ودفعهم إلى الاستسلام.
- وفي النهضة أيضًا نواجه أولى أشكال ظهور الديمقراطيات الأومانيستية. غير أنّ ديمقراطيات عصر النهضة الحديثة كانت تقتصر عضويتها على الرجال الرأسماليين دون سواهم. وشهد عصر النهضة أيضًا أولى الثورات الحديثة، وكذلك أولى احتجاجات العمّال ضد الرأسماليين.
- ومن منظور «الحكمة الروحية للتاريخ»، فإنّ ظهور العالم الحديث، وما تبعه من مجيء عصر النهضة، يشير إلى تبدل الروح والجَوهر المسيطرَين على تاريخ الغرب. فالروح والجَوهر الجديدان اللذان استوليا على تاريخ الغرب منذ عصر النهضة هما الإنسانوية والحداثة.

المصادر

١. قرآن عظيم: ترجمه تفسيري بر اساس الميزان. دفتر نشر معارف.

٢. آربلاستر، آنتوني، دموكراسي، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن مرتضوي، انتشارات آشيان، ١٣٧٩.

٣. آرنت، هانا، وضع بشر، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مسعود عليا، طهران، ققنوس، ١٣٨٩.

٤. آرنز، پتر، كوچ ژرمن‌ها در اروپا، الترجمة إلى اللغة الفارسية: على رحماني، مرضية ذاكري، طهران، اميركبير، ١٣٩٢.

٥. اروين، ترنس، تفكر در عهد باستان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمد سعيد حنايي كاشاني، طهران، قصيدة، ١٣٨٥.

٦. اسمن، كارن، رنسانس ايتاليا، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت‌خواه، طهران، ققنوس، ١٣٨٦.

٧. اشپيل فوگل، جكسون، تمدن مغرب زمين، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمد حسن آريا، مجلد اول، طهران، اميركبير، ١٣٨٠.

٨. آگيبالووا، ا، ودنسكوي. گ.م.، تاريخ سده‌هاى ميانه، الترجمة إلى اللغة الفارسية: رحيم رئيسي‌نيا، طهران، انتشارات پيام، ١٣٥٧.

٩. آندرسون، پري، گذار از عهد باستان به فئوداليسم، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن مرتضوي، طهران، نشر ثالث، ١٣٨٨.

١٠. برگن، مايكل، اسكندر مقدوني، الترجمة إلى اللغة الفارسية: شيوا مقانلو، طهران، ققنوس، ١٣٩٠.

١١. بريه، اميل، تاريخ فلسفه قرون وسطى ودوره تجدد، الترجمة إلى اللغة الفارسية: يحيى مهدوي، طهران، خوارزمي، ١٣٧٧.
١٢. بمفـورد پاركز، هنري، خدايان وآدميـان، الترجمة إلى اللغة الفارسـية: محمد بقايي، طهران، قصيده، ١٣٨٠.
١٣. بهمنـش، احمد، تاريخ يونان قديم، مجلد اول، طهران، انتشـارات دانشـگاه تهران، ١٣٧١.
١٤. بوركهارت، ياكوب، فرهنگ رنسـانس در ايتاليا، الترجمة إلى اللغة الفارسـية: محمد حسن لطفي، طهران، طرح نو، ١٣٧٦.
١٥. بيل، تيموتى لوي، عصر فئوداليسم، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت‌خواه، طهران، انتشارات ققنوس، ١٣٨٢.
١٦. توكلي، مهران، استعمار، استعمارگري، استعمارزدايي، جهان سوم، طهران، نشرنى، ١٣٨٥.
١٧. خراسـاني، شرف‌الدين، نخستين فيلسوفان يونان، طهران، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، ١٣٨٧.
١٨. دارک، سـيدني، تاريخ رنسانس، الترجمة إلى اللغة الفارسية: احمد فرامرزي، طهران، انتشارات دستان، ١٣٧٣.
١٩. داوري، رضا، ناسيوناليسم وانقلاب، طهران، دفتر پژوهش‌ها وبرنامه‌ريزي فرهنگي وزارت ارشاد، ١٣٦٥.
٢٠. دكرشنتزو، لوچانو، فيلسوفان بزرگ قرون وسطى، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عباس باقري، طهران، نشر نى، ١٣٨٤.
٢١. دورانت، ويل، رنسـانس، الترجمة إلى اللغة الفارسـية: صفدر تقـى‌زاده وابوطالب صارمي، طهران، سازمان آموزش وانتشارات انقلاب اسلامي، ١٣٦٧.

٢٢. ـــــــــــــ، يونان باستان ، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مجموعة المترجمين، طهران، سازمان انتشارات وآموزش انقلاب اسلامي، ١٣٦٥.
٢٣. ـــــــــــــ، ساوونا رولا وجمهوري، الترجمة إلى اللغة الفارسية: كوروش زعيم، طهران، ايران مهر، ١٣٨٥.
٢٤. دياكوف، آ. برگر، وى والآخرون، تاريخ جهان باستان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: صادق انصاري وعلي‌اله همداني، محمدباقر مومني، مجلد دوم، نشر انديشه، ١٣٥٣.
٢٥. رادني، والتر، اروپا وعقب‌ماندگی آفريقا، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمود رياضي، مجلد دوم، طهران، چاپخش، ١٣٥٤.
٢٦. راسل، برتراند، تاريخ فلسفۀ غرب، الترجمة إلى اللغة الفارسية: نجف دريابندري، طهران، كتاب پرواز، ١٣٩٠.
٢٧. رز، اچ، جى، تاريخ ادبيات يونان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: ابراهيم يونسي، طهران، اميركبير، ١٣٥٨.
٢٨. رسولي محلاتي، سيد هاشم، تاريخ انبياء، قم، بوستان كتاب، ١٣٨٢.
٢٩. رشيدى، علي، نظام سرمايه‌دارى وانقلاب صنعتى اروپا، طهران، روزنة، ١٣٨٥.
٣٠. روزنبرگ، دونا، اساطير جهان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عبدالحسين شريفيان، مجلد اول، طهران، اساطير، ١٣٧٩.
٣١. روسو، پي‌ير، تاريخ صنايع واختراعات، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن صفاري، طهران، شركت سهامي كتابهاى جيبي، ١٣٧١.
٣٢. ريخته‌گران، محمدرضا، حكمت هراكليتوس، طهران، مؤسسة توسعة دانش وپژوهش ايران، ١٣٨٠.
٣٣. زرشناس، شهريار، اشارات وتنبيهات ، طهران، كتاب نشر، ١٣٩١.
٣٤. ـــــــــــــ، تولد غرب مدرن، خبرگزاري تسنيم، ١٣٩٣.

٣٥. ـــــــــــــ، سنجش ايدئولوژی‌های مدرن، طهران، دفتر پژوهش‌های مؤسسة كيهان، ١٣٩٣.
٣٦. ـــــــــــــ، نقد حال، انتشارات معارف، ١٣٩٤.
٣٧. ژيلسون، اتين، خدا وفلسفه، الترجمة إلى اللغة الفارسية: شهرام پازوكی، طهران، انتشارات حقيقت، ١٣٧٣.
٣٨. سليماني اردستانی، عبدالرحيم، سرشت انسان دراسلام ومسيحيت، انتشارات دانشگاه اديان ومذاهب، قم، ١٣٨٩.
٣٩. شفا، شجاع‌الدين، افسانه خدايان، نشر دنياى نو، ١٣٨٣.
٤٠. شهبازي، عبدالله، زرسالاران يهودي وپارسي، استعمار بريتانيا وايران، مجلد دوم، مؤسسة مطالعات وپژوهش‌های سياسی، طهران، ١٣٧٧.
٤١. الطباطبائي، السيدمحمدحسين، تفسير الميزان، بنياد علمي وفكري علامه طباطبايي، ١٣٧٠.
٤٢. فوستل دوكولانژ، نوما دنی، تمدن قديم، الترجمة إلى اللغة الفارسية: نصر الله فلسفی، انتشارات ابن سينا، ١٣٠٩.
٤٣. كاسمينسكي، يوگني آلكسي يوي والآخرون، تاريخ قرون وسطى، الترجمة إلى اللغة الفارسية: صادق انصاري ومحمد باقر مومني، طهران، نشر انديشه، ١٣٥٣.
٤٤. ـــــــــــــ، تاريخ جهان باستان: يونان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: صادق انصاري ومحمد باقر مومني ، نشر انديشه، ١٣٥٣.
٤٥. كاسيرر، ارنست، فرد وكيهان در فلسفه رنسانس، الترجمة إلى اللغة الفارسية: يدالله موقن، طهران، نشر ماهی، ١٣٩١.
٤٦. كوريک، جيمز، آ، قرون وسطای اوليه، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت‌خواه، طهران، انتشارات ققنوس، ١٣٨٥.
٤٧. كاتورن، نايجل، ١٠٠ ديكتاتور تاريخ، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عبدالرضا هوشنگ مهدوی، نشر البرز، ١٣٨٩.

٤٨. كلى، جان، تاريخ مختصر تئوري حقوقى در غرب، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمد راسخ، طهران، طرح نو، ١٣٨٢.
٤٩. كوريک، جيمز.آ، رنسانس، الترجمة إلى اللغة الفارسية: آزيتا ياسايي، طهران، ققنوس، ١٣٨٠.
٥٠. گاترى، دبليو، كى.سى، فلاسفه يونان از طالس تا ارسطو، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن فتحي، طهران، فكر روز، ١٣٧٥.
٥١. گريفين، جسپر، هومر، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عبدالله كوثرى، طهران، طرح نو، ١٣٧٥.
٥٢. گلفند، ديل. او، شارلماني، الترجمة إلى اللغة الفارسية: رضا عليزاده، طهران، ققنوس، ١٣٩٠.
٥٣. لوگوف، ژاک، اروپا مولود قرون وسطى، الترجمة إلى اللغة الفارسية: بهاءالدين بازرگاني گيلانى، طهران، انتشارات كوير، ١٣٨٧.
٥٤. ماخت، نورمن ال، تاريخ برده‌دارى، الترجمة إلى اللغة الفارسية: سهيل سمّى، طهران، ققنوس، ١٣٨٥.
٥٥. ماله، آلبر وايزاک، ژول، تاريخ قرون جديد، الترجمة إلى اللغة الفارسية: سيد فخرالدين شادمان، طهران، كتابخانه ابن سينا، ١٣٤٢.
٥٦. ــــــــــ، تاريخ ملل شرق ويونان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عبدالحسين هزير، دنياي كتاب، ١٣٥٢
٥٧. مانفرد، آ، والآخرون، تاريخ فرانسه، الترجمة إلى اللغة الفارسية: فريدون شايان، مجلد اول، انتشارات پيشرو، طهران، ١٣٦.
٥٨. معارف، سيد عباس، نگاهي دوباره به مبادي حكمت انسي، نشر پرسش، ١٣٩٠.
٥٩. ممتحن، حسين‌على، كليات تاريخ عمومي، مجلد اول، طهران، انتشارات دانشگاه ملي ايران، ١٣٥٧.

٦٠. مهدوي، يحيى، شكاكان يونان، انتشارات خوارزمى، ١٣٧٥.
٦١. ناردو، دان، جمهوري روم، الترجمة إلى اللغة الفارسية: سهيل سمّي، طهران، ققنوس، ١٣٨٣.
٦٢. ـــــــــــ، اتروسك‌ها، الترجمة إلى اللغة الفارسية: نادر ميرسعيدي، طهران، ققنوس، ١٣٨٧.
٦٣. ـــــــــــ، اسطوره‌هاى يونان وروم، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عسگر بهرامي، طهران، ققنوس، ١٣٨٤.
٦٤. ـــــــــــ، زنان يونان باستان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: ليلارضايي، ققنوس، ١٣٨٨.
٦٥. ـــــــــــ، عصر استعمارگري، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت‌خواه، طهران، ققنوس، ١٣٨٦.
٦٦. ـــــــــــ، عصر پريكلس، فاطمه ايجي، طهران، ققنوس، ١٣٩٢.
٦٧. ـــــــــــ، مينوسى‌ها، الترجمة إلى اللغة الفارسية: نادر ميرسعيدي، طهران، ققنوس، ١٣٨٧.
٦٨. ـــــــــــ، يونان باستان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت خواه، طهران، ققنوس، ١٣٨٣.
٦٩. ـــــــــــ، يونانيان باستان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: مهدي حقيقت‌خواه، طهران، ققنوس، ١٣٨٨.
٧٠. نچكينا، م.و، واسكازكين، س.د، وا.ا.گوبر والآخرون، تاريخ مختصر جهان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمد تقي فرامرزي، انتشارات دنيا، ١٣٥٦.
٧١. هانت، اى.ك، تكامل نهادها وايدئولوژى‌هاي اقتصادى، الترجمة إلى اللغة الفارسية: سهراب بهداد، طهران، نشر آگه، ١٣٨١.

٧٢. هلو، ديويد، مدلهاي دموكراسي، الترجمة إلى اللغة الفارسية: عباس مخبر، انتشارات روشنگران، ١٣٦٩.
٧٣. وكيلي، شروين، اسطوره معجزه يوناني، نشر شورآفرين، ١٣٨٩.
٧٤. ويلسون، برايان، دين مسيح، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن افشار، طهران، نشر مركز، ١٣٨١.
٧٥. ويلكن، اولريش، اسكندر مقدوني، تحرير: يوجين برزا، الترجمة إلى اللغة الفارسية: حسن افشار، نشر مركز، ١٣٧٦.
٧٦. يگر، ورنر، الهيات نخستين فيلسوفان يونان، الترجمة إلى اللغة الفارسية: فريده فرنودفر، حكمت، ١٣٩٢.
٧٧. ــــــــــــ، پايديا، الترجمة إلى اللغة الفارسية: محمدحسن لطفي، مجلد اول، خوارزمي، ١٣٧٦.
78. Aristotele, A Treatiseon Government, translated by William Ellis, London & Toronto Published, 1928.
79. Barnhart, P. W(ed), Chambers Dictionary of Etymology, 2003.
80. Barrow, R., The Romans, Baltimore: Penguin, 1968.
81. Beazely, David, Etruscan Vase Painting, Oxford, 1975.
82. Bellingham, David, An Introduction to Greek my Theology, chart well Books,1989.
83. Boies, Penrose, Travel and Discovery in the Renaissance, 1420-1620, New York, Canney, Maurice. A, An Encyclopedia of Religions, Detroit,1970.
84. Connolly, Peter, The Greek Armies, Morristown, 1989.
85. Dilthey, Wilhelm, Gesammelte Schriften, Stuttgart, 1957.
86. Ehrenberg, Victor, From Solon to Socrates: Greek History and civilization During the Sixth and Fifth Centuries B.C, London: Methune, 1973.

87. Fition, I. Lesely, The Discovery of the Greek Bronze Age, Harvard university Press, 1986.
88. Green, Peter, The Greco-Persian wars, University of California Press, 1998.
89. Haynes, Sybille, Etruscan Civilization: A Cultural History Los Angeles: J. Paul Getty Museum, 2000.
90. Jones, A.H., Athenian Democracy, oxford,1997.
91. King, Perry Scott, Pericles, New York: Chelsea House,1998.
92. Martin, Thomas, Ancient Greece: From Prehistoric to Hellenistic Times, New Haven CT, Yale university Press, 1996.
93. Otto, Walter. F, The Homeric Gods, New York: Thames and Hudson, 1954.
94. Robinson, C.E., Everyday Life in Ancient Greece, Oxford, 1973.
95. Robinson, Charles, Athens in the Age of Pericles, University of Oklahoma Press, 1959.
96. Smith, A., The origins of Philosophy, Huston,
97. Sowerby, R, The Greeks, Routledge, 1995.
98. Synder, J.W, Alexander the Great, New York: Twayne Publishers, 1966.
99. Weigall, Arthur, Alexander the Great, New York: Garden City, 1973.
100. Xenophon, Oeconomicus, translated and edited by Sarah B. Pomeroy, Clarendon Paperbacks, Oxford University Press, 1995.

هذا الكتاب

الغرب ليس مجرد جغرافيا، بل هو حقبة تاريخية ذات مفهوم محدد. إلا أن السردية الشائعة لتاريخه، سواء في المؤلفات المترجمة أو المحلية، ظلت حبيسة منظور واحد: الرؤية الكونية التي فرضتها الحداثة الغربية ومسلّمات عصر التنوير.

يأتي هذا الكتاب ليقدم طرحًا جذريًا ومغايرًا، عبر رواية نقدية موثقة لتاريخ الغرب تُعالج مساره من منظور «الحكمة الروحية للتاريخ». إنه لا يكتفي بفضح الجرائم والسلوكيات الاستعمارية، بل يغوص أعمق من ذلك ليقدم تحليلًا نقديًا لبنى الهوية في التاريخ الغربي، في محاولة تأسيسية لفهم ماهية الغرب خارج الأطر الفكرية المألوفة التي فرضها هو نفسه.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com